THE WITCHER

ANDRZEJ SAPKOWSKI

THE LADY OF THE LAKE



سيدة البحيرة

Ai Translator

الجزء 7

ترجمة غير رسمية

الويتشر

أندريه سابكوسكي

حول هذه الترجمة:

هذا الكتاب هو عملٌ خيالي، إن الأسماء والشخصيات والأماكن والأحداث هي من وحي خيال الكاتب أو تم استخدامها بشكلٍ خيالي، وأي تشابه مع أحداث أو أماكن أو أشخاص حقيقيين، سواء كانوا أحياء أو أمواتًا، هو من قبيل الصدفة.

تم نشر هذا الكتاب في الأصل باللغة البولندية تحت عنوان **Sezon Burz**.

تمت الترجمة العربية بواسطة أدوات الذكاء الاصطناعي لذلك فالترجمة غير مطابقة للنص الأصلي.

تنويه وإخلاء مسؤولية:

هذه الترجمة غير رسمية وغير دقيقة ولاتطابق الرواية أو محتواها. وهي بغرض المراجعة والاطلاع فقط.

لذلك لاتغني عن امتلاك النسخة الأصلية أو ترجمتها الرسمية عند توفرها بالمكتبات العربية علماً أنه لاتوجد ترجمة عربية رسمية حتى الآن.

إن القيام باستخدام شبه الترجمة هذه بخلاف أغراض المراجعة والاطلاع قبل الشراء هي أمانة تقع على عاتق وتحت مسؤولية أصحابها فقط.

نأمل المبادرة بشراء النسخة الأصلية أو ترجمتها الرسمية عند توفرها دعماً للمؤلف وأصحاب الحقوق.

Ai Translator

الفصل الأول

كانت البحيرة مسحورةً. ولم يكن ثمة أيُّ شكٍّ في ذلك على الإطلاق.

أولاً، امتدّت بمحاذاة مصبِّ وادي كوم بوكّا المسحور، ذاك الذي يلفّه الضبابُ دوماً ويشتهر بالسحر والظواهر العجائبية.

ثانياً، كان يكفي أن تنظر .إذ كانت البحيرة عميقةً، بلونٍ أزرق حيٍّ صافٍ أشبه بالياقوت المصقول. وكانت ملساء كمرآة، حتى إنّ قمم سلسلة واي ويدفا الشاهقة انعكست على صفحتها بطريقة بدت معها أكثر روعةً مما هي عليه في الحقيقة.
هبّت من البحيرة نسمةٌ باردةٌ منعشةٌ، ولم يعكّر صفو السكون المهيب شيءٌ البتة، لا رشق سمكةٍ بالماء ولا صرخةُ طائرٍ مائيٍّ.

ارتعد دهشةً الفارس، لكنه عوضاً عن مواصلة ركوبه على طول الحافة، وجّه حصانه نحو البحيرة، وكأنما استُدرِجَ بقوة السحر الرابض في قاعها العميق.
خطا بخوفٍ الحصان على صخورٍ متكسّرة، وأبان بنخيرٍ خافتٍ أنّه هو الآخر استشعر تلك الهالة السحرية.

هبط تماماً إلى أسفل الوادي الفارس، ثم ترجّل. وقاد جواده من لجامه مقترباً من حافة الماء، حيث كانت تموّجاتٌ خفيفةٌ تتراقص بين حصىً ملوّنة.
جثا الفارس، فصدرت خشخشةٌ عن درعه المعدني. أفزع أسراباً من السمك الصغير النشط بحجم الإبر، ثم غرف الماء براحتيه.
شربه ببطءٍ وحذرٍ، فأخذت المياه شديدة البرودة تخدّر شفتيه ولسانه وتلسع أسنانه.

وحين انحنى مجدداً الفارس، تناهى إلى سمعه صوتٌ يتردد فوق سطح الماء. رفع رأسه الفارس. نخَر حصانه، وكأنّه يؤكّد أنه أيضاً قد سمع ذلك الصوت.

أنصت الفارس، كلا، لم يكن ذلك وَهْماً. بل إن ما سمعه كان غناءً. غناءُ امرأةٍ. أو في الأغلب، فتاة.

لقد تربّى الفارس كجميع الفرسان، على قصص الشُّعراء وحكايات الفروسيّة، وفي تلك القصص — تسع مرّات من أصل عشر — كان صوت الفتيات أو نحيبهن يُستخدم طُعماً، وكان الفرسان الذين ينجذبون إليه يقعون غالباً في فخاخٍ، في أحيانٍ كثيرةٍ تكون قاتلة.

لكن غلبه فضولُه، فالفارس، بعد كلّ شيء، لم يكد يتجاوز التاسعة عشرة من عمره، وكان شديد الجرأة، وشديد التهوّر كذلك، واشتهر بالأولى، وعُرف بالثانية.

تأكّد الفارس من أنّ سيفه ينزلق بسهولة في غمده، ثم جذب حصانه وقاده على طول ضفاف البحيرة باتجاه مصدر الغناء. ولم يحتَج إلى السير بعيداً.

كانت هناك صخورٌ ضخمةٌ داكنةٌ على ضفة البحيرة مُصقولة بفعل الزمن حتى صار سطحها لامعاً. لربما قلت إنها لعبٌ تهاون بها العمالقة أو نسوها بعد لهوٍ عابر. بعض تلك الصخور كان يغوص في مياه البحيرة، فيظهر أسود تحت سطحها البلوري. وبعضها كان بارزاً فوق سطح الماء، وقد نحتت الأمواجُ معالمَه ليبدو كظهور مخلوقاتٍ بحريةٍ هائلة. أمّا معظمُها فكان يمتدّ على الضفة حتى حافة الغابة، وقد دُفن بعضُها في الرمال، فلا يظهر منه إلا جزءٌ يسير، تاركاً حجمَه الحقيقيّ رهناً بالمخيّلة.

بلغ الغناء الذي يسمعه الفارس من وراء الصّخور القريبة من الشاطئ. وكانت المغنّية محجوبة عن نظره. فقاد حصانه، ممسكاً بلجامه وخطمه حتّى لا ينهق أو ينخر.

كانت ثيابُ الفتاة منشورةً على صخرةٍ ملساء مستويةٍ تمتدّ في البحيرة، وكانت هي، عاريةً حتى خصرها في الماء، تغسل وتغنّي، لكنه لم يتعرّف الفارس على الكلمات.

وليس في ذلك عجب.
فالفتاة وكان على استعدادٍ لأن يراهن بحياته لم تكن من لحمٍ ودمٍ. دلّت على ذلك قوامُها الممشوق، ولون شعرها الغريب، وصوتها. كان متيقّناً أنه إن التفتت نحوه فسوف يرى عينين لوزيّتين كبيرتين، وإن أبعدت شعرها الرمادي الفاتح عن وجهها فسوف يرى أذنين مدبّبتين بالتأكيد.

كانت من ساكني عالم .Faërie فايري ، روحاً من أرواح Tylwyth Têg تيلويث تيق، إحدى تلك الكائنات التي يسمّيها البيكت والإيرلنديون "Daoine Sidhe" دوين سيدهي أو "قوم التّل"، والتي يسمّيها الساكسون "إلف.(elves) أو الإلفيون.

توقّفت الفتاة عن الغناء لحظةً، وغاصت حتى عنقها، ثم نفخت الماء وشتمت شتيمةً بذيئة. ولم يستغرب الفارس ذلك. فالجنيات — كما هو معروفٌ على نطاق واسع — يستطعن السِّباب كالبشر، بل ربّما بما هو أقذع من تفوّهات عمّال الإسطبلات. وغالباً ما تسبق الشتيمةُ مقلباً خبيثاً من ألاعيب الجنيات الشهيرة، كأن تُضخّم أنف أحدهم ليغدو بحجم خيارة، أو تُقلّص رجولة آخر ليصير بحجم حبة فول.

لم ترُق الفارس أيٌّ من الاحتمالَين السابقَين. همَّ بانسحابٍ حذر عندما خانته فجأةً جَلَبةُ الحوافر على الحصى. كلا، لم يكن جواده هو السبب، فقد كان جواده — إذ أمسكه من خياشيمه — هادئاً ساكناً كالفأر. بل خانته فرسُ الإلفية، وكانت فرساً سوداء، لم ينتبه الفارس لها بادئ الأمر بين الصخور. ها هي الآن تحرّك الحصى بحافرها وتُطلق صهيلاً كنوعٍ من التحية. رفع حصانُ الفارس رأسه وردّ عليها بصهيلٍ مهذّبٍ، فتردّد صداه عبر المياه.

انطلقت الإلفية من الماء، وقد أظهرت نفسها للحظاتٍ أمام الفارس بكلّ بريقها الآسر. اندفعت نحو الصخرة التي وُضعت ثيابُها عليها. لكن، وبدلاً من أن تتناول قميصاً لتستر نفسها بحياء، أمسكت الإلفية بسيفٍ وسحبته من غمده بصوتٍ حاد، وأدارته بمهارةٍ لافتة. لم يدم ذلك سوى لحظةٍ قصيرةٍ قبل أن تنحني الإلفية مُغطّيةً جسدها حتّى أنفها بماء البحيرة، رافعةً ذراعها فوق السطح وهي تلوّح بالسيف.

انتفض من ذهوله الفارس، ثم أفلت اللجام وجثا على ركبته، مستنداً إلى الرمال المبلّلة. فقد أدرك فوراً مَن تكون صاحبة هذا الظهور.

قال متلعثماً الفارس وهو يمدّ يديه، «سلامٌ عليكِ. يا له من شرفٍ عظيم... ويا لها من هِبةٍ سامية، يا سيّدة البحيرة. سأتلقّى السيف...»

ردّت الإلفية رافعةً فمها قليلاً فوق سطح الماء، «أيمكنك أن تنهض عن ركبتَيك وتدير ظهرك؟ ربما تكفّ عن التحديق؟ وتدعني أرتدي ثيابي؟»

أطاعها الفارس.

سمعها تخرج من الماء، وصوت تلاعب ثيابها وهي ترتديها، ثم تسمّعها تهمس بسبابٍ خافتٍ وهي تحاول ارتداء الثياب على جسدها المُبلّل. وفي هذه الأثناء، تفحّص الفارس الفرس السوداء، كان وبرها أملس لماعاً كفراء الخُلْد. كانت بلا ريب فرساً عريقة الأصل، مسحورة بلا شك، وهي بلا شك أيضاً من عالم فيري Faërie شأنها شأن مالكتها.

قالت من خلفه الإلفية بصوتٍ هادئ، «بإمكانك أن تستدير.»

قال الفارس، «سيّدة البحيرة...»

قاطعته الإلفية، «عرّف بنفسك.»

أجاب الفارس، «أنا جالاهاد، من قلعة كير بينيك. فارسٌ في خدمة الملك آرثر، سيّد كاميلوت، حاكم أرض الصيف، وحاكم دَمنونيا ودِفنينت وبويس ودِفِد...»

قاطعته الإلفية، «وتيميريا؟ ردانيا، ريفيا، آيدين؟ نيلفجارد؟ هل تعني لك هذه الأسماء شيئاً؟»

قال الفارس، «لا. لم أسمع بها قط.»

هزّت الإلفية كتفيها. كانت تمسك بسيفها، وفي يدها الأخرى حذاءيها وقميصها، وقد غُسِلا وعُصِرا.

سألت الإلفية، «كنتُ أظن ذلك. أيُّ يومٍ من السنة هو اليوم؟»

قال متفاجئاً: الفارس، «إنه البدر الثاني بعد بيلتين... سيّدتي...»

قالت باسْمها وبصوتٍ بارد: الإلفية، «سيري.» وحاولت أن تهزّ كتفيها كي تستقرَّ ثيابُها على بشرتها التي لا تزال رطبة. تحدّثت على نحوٍ غريب، وعيناها كانتا كبيرتين خضراوين. أبعدت شعرها الرطب دون قصد، فشهق الفارس دون وعيٍ منه. ولم يكن السبب فقط أن أذنها بدت بشريّةً لا أَثَرَ فيها للهيئة الإلفية، بل لأنّ خدّها كان مشوّهاً بندبةٍ كبيرةٍ قبيحة. بدا أنها أُصيبت بجرحٍ ما. لكن هل يصاب الجنّيّ أو الإلفية بجروح؟

شعرت الإلفية بنظراته، فضيّقت عينيها وقطّبت أنفها.

* * *

قالت الإلفية وهي تحدّق فيه، «لماذا تنظر إليَّ هكذا؟ أأنت خائفٌ أن أختفي؟ أو أن أطير مبتعدةً حاملةً خبزك اليابس ونقانقك المدخّنة؟ اهدأ. لقد افتعلتُ بعض المتاعب في عالمي وأربكتُ قَدَري هناك، لذا لا ينبغي لي أن أُري وجهي فيه حالياً. سأبقى في عالمك بعض الوقت؛ عالمٌ يبحث فيه المرء عبثاً في السماء عن تنّينٍ أو عن سبع عنزات. عالمٌ يحلّ فيه الآن البدر الثاني بعد بيلتين وإن كنتم تنطقونه "بيلتاين". لماذا تحدّق فيَّ هكذا، بحق السماء؟»

أجاب الفارس متردّداً، «لم أكن أعلم أنّ الجنيات يأكلن.»

ردّت الإلفية، «الجنيات والساحرات والإلفيات، كُلّهن يأكلن ويشربن، وغير ذلك أيضاً.»

قال الفارس بحذر، «عفواً؟»

أجابت الإلفية وهي تشيح بيدها، «لا تهتم.»

كلّما أمعن الفارس النظر فيها، كلّما بهت سحرها، وبدا مظهرها أكثر إنسانيّةً وأقرب إلى العاديّ، بل وربما المألوف. ومع ذلك أيقن الفارس أنّها لا يمكن أن تكون بشريّةً تماماً. فمن غير المعقول أن يعثر المرء أسفل جبل ي ويدفا، في أرض كوم بوكّا، على فتاةٍ عاديّةٍ تستحمّ عاريةً في بحيرةٍ جبليّةٍ وتغسل بلوزةً ملطّخةً بالدّماء. لا يهمّ كيف تبدو، فهي قطعاً ليست كائناً أرضيّاً. ومع ذلك فقد بات ينظر جالاهاد إلى شعرها الرماديّ، الذي ما إن جفّ حتى لَمع بلونٍ فضّيٍّ مفاجئ، وإلى يديها النحيلتين وأنفها الصغير وشفتَيها الشاحبتين، وإلى لباسها ذا الطابع الرجوليّ قليلاً وقصّته الغريبة وخامته الرقيقة المتينة النسج، وإلى سيفها ذي التصميم والزخرفة المريبة، وإنْ لم يكن سيفاً احتفالياً بحال، ثم إلى قدميها الحافيتين الملوّثتين برمال الشاطئ الجافّة.

قالت الإلفية، وهي تفرك إحدى قدميها بالأخرى، «للتوضيح فحسب لستُ إلفيّة. أمّا بخصوص كوني ساحرة أو جنية... فأنا حالةٌ فريدة. لا أظنّني جنيةً أبداً.»

قال متلعثماً الفارس، «أنا آسف، حقاً آسف.»

سألت الإلفية، «ولمَ بالضبط؟»

قال واحمرّ خجلاً الفارس، «يُقال... يقال إن الجنيات حين يلتقين شبّاناً، يَقُدنَهُم إلى أرض الإلف، وهناك... تحت شجيرة البندق، على بساطٍ من الطحلب، يأمرنهُم بتقديم...»

قاطعت الإلفية بنظرةٍ خاطفة وهي تعضّ بقوة على قطعة نقانق، «فهمت. أمّا عن أرض الإلف، فقد هربتُ منها منذ زمنٍ وليس لي أدنى رغبةٍ في العودة. وأمّا ما يخصّ تلك "الخدمات" على بساطٍ من الطحلب... فاعلم يا جالاهاد أنّك صادفت السيدة الخطأ. ومع ذلك، أشكرك على حسن نيتك.»

هتف متلهفاً الفارس، «سيّدتي! لم أقصد الإساءة...»

قالت الإلفية بهدوء، «ليس عليك الاعتذار.»

قال متلعثماً الفارس، «فقط لأنك... فاتنةٌ ساحرةٌ للغاية.»

ردّت الإلفية، «شكراً لك مرّةً أخرى. لكن لن يحدث شيءٌ على الإطلاق.»

ساد بينهما صمتٌ برهةً. كان الجو دافئاً، والشمس في كبد السماء تُدفئ الحجارة برفق، بينما داعبت نسماتٌ خفيفةٌ صفحة البحيرة.

سأل بصوتٍ غريب يشوبه الافتتان الفارس، «ما معنى الحربة ذات النصل الدامي؟ ولمَ يعاني الملك ذو الفخذ المجروح وما دلالة ذلك؟ وما معنى العذراء التي ترتدي الأبيض وتحمل الغريل، ذلك الوعاء الفضّي...؟»

قاطعته الإلفية، «وعلاوةً على ذلك... هل تشعر بأنّك بخير؟»

قال موضحاً الفارس، «إنني أسأل فحسب.»

ردّت الإلفية وقد علتها حيرة، «وأنا ببساطةٍ لا أفهم سؤالك. أهو كلمةُ سرٍّ متّفقٌ عليها سلفاً؟ أم إشارةٌ يتعارف بها أهل طائفةٍ ما؟ وضّح لي.»

قال وهو يهزّ رأسه أسفاً الفارس، «لا أستطيع.»

سألته الإلفية: «ولماذا تسأل إذن؟»

تلعثم الفارس، «لأن... حسناً، باختصار... كان بيننا مَن أُتيح له أن يسأل ذات مرّةٍ ولم يفعل أصابه الخجل أو عجز عن الكلام... فلم يسأل، وتسبّب ذلك في متاعب جمّة. والآن نكرّر السؤال دائماً... تحسّباً.»

* * *

سألتْ سيري: "هل يوجد سحرة في هذا العالم؟ أتعلمين، أولئك الذين يمارسون الفنون السحرية، المشعوذون، العارفون بالخفايا؟"

أجابَ الفارس: "ثمة ميرلين. ومورجانا. لكن مورجانا شريرة."

استفسرتْ سيري: "وميرلين؟"

ردَّ الفارس: "عادي."

تساءلتْ سيري: "أتعرف أين يمكن العثور عليه؟"

قالَ الفارس بحماس: "بالطبع! في كاملوت، ببلاط الملك آرثر. أنا متجهٌ إلى هناك الآن."

استطردتْ سيري تسأل: "هل هي بعيدة؟"

شرحَ الفارس: "من هنا إلى بوويس، ثم إلى نهر هافرين، ومنه مع التيار إلى غليفوم، ثم إلى بحر سابينا، ومن هناك إلى الأراضي المنبسطة في بلاد الصيف. في المجمل، نحو عشرة أيام ركوبًا..."

تمتمتْ سيري: "بعيد جدًا."

تلعثمَ الفارس وهو يقول: "يمكن للمرء أن يسلكَ طريقًا مختصرًا عبر وادي كوم بوكا. لكنه وادٍ مسحور. مكانٌ مرعب. يُحكى هناك عن 'ي دينان باخ تيغدويل'، أقزام أشرار.."

قاطعتْهُ سيري ساخرة: "ماذا، أتحمل سيفك للزينة فقط؟"

ردَّ الفارس متسائلاً: "وما الذي يمكن أن يفعله سيفٌ ضد السحر؟"

طمأنَتْهُ سيري: "الكثير، الكثير، لا تقلق. أنا ويتشر. هل سمعت بواحدة مثلي؟ آه، بالطبع لم تسمع. ولا أخشى رجالك الصغار الأقزام. فلديَّ أصدقاءٌ كثيرون من الأقزام."

فكّرَ الفارس في نفسه: "بالطبع لديكِ."

* * *

قال جالاهاد: "سيدة البحيرة؟"

قالت سيري: "اسمي سيري. لا تنادني بسيدة البحيرة. يُثير ذلك ذكرياتٍ سيئةً ومزعجةً وكريهة. هكذا كانوا ينادونني في أرضٍ... ما اسمها الذي ذكرتَه؟"

قال جالاهاد: "فيري (Faërie). أو كما يقول الدرويد[1] آنون (Annwn). وأمّا الساكسون فيسمّونها إلفلاند (Elfland) أرض الإلف/الجان."

[1] في عالم الويتشر، الدرويد (Druids) هم مجموعة من السحرة والكهنة المرتبطين بالطبيعة، ويُعرفون بقدرتهم العميقة على التواصل مع العالم الطبيعي، بما في ذلك النباتات، الحيوانات، والطقس. يُنظر إليهم على أنهم حراس التوازن البيئي، وغالبًا ما يعارضون التدخل البشري المدمر في الطبيعة.

قالت سيري، وهي تلفّ حول كتفيها بطّانية ملوّنة بنقوش بكتية كان قد ناولها إياها: "أرض الإلفيين ... لقد كنتُ هناك، تعلم؟ دخلتُ برج السنونو وفجأة وجدتُ نفسي بين جمعٍ من الجان. وهناك بالضبط نادوني بهذا الاسم سيدة البحيرة. في البداية راقني الأمر، فقد كان إطراءً. إلى أن أدركتُ أنني لستُ سيدة في تلك الأرض، ولا في ذلك البرج القائم عند البحيرة–بل سجينة."

قال جالاهاد، مندفعًا: "هل هناك لطّختِ بلوزتكِ بالدم؟"

سكتت سيري فترةً طويلة.

قالت أخيرًا، وقد بدا له أن صوتها ارتجف قليلًا: "لا. ليس هناك. عيناك حادتان. حسنًا، لا مهرب من الحقيقة، ولا جدوى من دفن الرأس في الرمال... نعم، جالاهاد. كثيرًا ما تلطّخت مؤخرًا. بدماء الأعداء الذين قتلتُهم. وبدماء الأصدقاء الذين بذلتُ جهدي لإنقاذهم... وماتوا بين ذراعي... لماذا تحدّق بي هكذا؟"

قال جالاهاد: "لا أدري إن كنتِ إلهةً أم بشرًا... أم واحدةً من المعبودات... ولكن إن كنتِ من ساكني هذه الأرض..."

قالت سيري: "ادخل في صلب الموضوع، لو سمحت."

قال جالاهاد، وقد لمعت عيناه: "أودّ الإصغاء إلى قصتك. هل تروينها، أيتها السيدة؟"

قالت سيري: "إنها طويلة."

قال جالاهاد: "لدينا الوقت."

قالت سيري: "ولا تنتهي نهايةً طيّبة."

قال جالاهاد: "لا أصدّق."

قالت سيري: "لمَ؟"

قال جالاهاد: "كنتِ تغنّين حين كنتِ تسبحين في البحيرة."

قالت سيري، وهي تدير رأسها بعيدًا وتزمّ شفتيها فيبدو وجهها ملتويًا وقبيحًا فجأة: "ملاحظٌ أنتَ. نعم، ملاحظٌ جدًا. لكنّك ساذج."

قال جالاهاد: "احكِ لي قصتك. أرجوك."

تنهدت سيري، وقالت: "حسنٌ... حسنٌ، طالما ترغب بذلك... فسأفعل."

استكانت سيري في جلستها، وكذلك فعل جالاهاد. سارَت الخيول على حافة الغابة تلتقط العشب والأعشاب البرية بأسنانها.

قال جالاهاد: "من البداية. من البداية تمامًا..."

قالت سيري، بعد برهةٍ وهي تشدّ الغطاء البكتيّ حولها بإحكام: "هذه الحكاية تبدو لي أكثر فأكثر كأن لا بداية لها. ولستُ متيقنةً أيضًا إن كانت قد انتهت أصلًا. الماضي – عليك أن تعلم – اختلط اختلاطًا شديدًا بالمستقبل. أخبرني أحد الجان يومًا أنّ الأمر يشبه أفعى تلتقط ذيلها بأسنانها. تلك الأفعى، ينبغي أن تعرف، اسمها أوروبوروس (**Ouroboros**)[2]. وحقيقة أنّها تعضّ ذيلها تعني أنّ الدائرة قد أُغلقت. الماضي والحاضر والمستقبل يقبع كلٌّ منها في كلّ لحظةٍ من الزمن. الأبدية كامنةٌ في كلّ لحظة. هل تفهم؟"

قال جالاهاد: "لا."

قالت سيري: "لا عليك."

[2] أوروبوروس (Ouroboros) هو رمزٌ قديمٌ يُصوَّر عادةً على هيئة أفعى أو تنّين يلتهم ذيله بنفسه، في شكلِ دائرةً مغلقةً. يُعَدّ هذا الرمز تجسيدًا لفكرة اللانهاية والتجدّد المستمر؛ حيث يشير إلى دورة الحياة التي لا تنتهي، والكون الذي يتجدّد في ذاته. يظهر أوروبوروس في ثقافات عدّة عبر التاريخ، مثل الثقافة المصرية واليونانية والغنوصية، حاملًا معاني التجدّد والاستمرارية والديمومة الكونية.

"حقًّا أقول لكم من يؤمن بالأحلام كمن يحاول أن يمسك الريح أو يقبض على ظلّ.

إنما يخدعه رسم فاتن ومرآة مشوّهة، تضلّ أو تثرثر بهذيانٍ كحال امرأةٍ في مخاضها. ما أسفه من يمنح الأحلام مصداقيةً ويسلك درب الأوهام!

ومع ذلك، فإن من يزدرِها ولا يؤمن بها على الإطلاق يقترف حماقةً كذلك. إذ لو لم تكن للأحلام أيّة قيمة أو دلالة، فلماذا إذن وهبَتنا الآلهةُ القدرة على الحُلم حين خَلَقَتنا؟"

حكمةُ النبيِّ لِبيودا، ١:٣٤

الفصل الثاني

هبّت نسمةٌ خفيفةٌ فوق سطح البحيرة، فتموّج ماؤها كأنه يغلي في مرجل، ودفعَت خصلاتٍ مهلهلة من الضباب لتنساب فوقه. صريرُ المجاديف كان يتردّد بإيقا عٍ ثابت، فيما كانت شفراتها حين تخرج من الماء تنثر وابلاً من القطرات المتلألئة.

وضعت كوندويرامورس يدها على حافة القارب. كان القارب يتحرّك ببطءٍ شديدٍ حتى إن الماء بالكاد كان يفور أو يرتفع قليلاً حول يدها.

قالت كوندويرامورس، وهي تملأ صوتها بسخريةٍ واضحة: "آه يا إلهي! ما هذه السرعة؟ إننا نندفع فوق الأمواج بقوةٍ هائلة! لقد أُصبتُ بالدوار"!

زمجر المجدّف — وكان رجلاً قصيرًا ممتلئًا ومتين البنية — بغضبٍ وتمتمةٍ مبهمة، ولم يكلّف نفسه عناء رفع رأسه المليء بشعرٍ أشعث مجعّد كصوف خروف القراقول[3]. كانت المبتدئة قد تحمّلت كثيرًا من زمجراته وتفاليهه وتأفّفه منذ ركبت القارب.

قالت كوندويرامورس وهي تمدّ مخارج الحروف وتكبح أعصابها: "انتبه لنفسك، فقد تُرهِق ذراعيك من هذا التجديف المتصلّب".

رفع الرجل رأسه هذه المرّة؛ كان وجهه أسمرَ متخشنًا كجلدٍ مدبوغ. تمتم ونفث، ثم أشار بذقنه الرمادية الشائكة صوب البكرة الخشبية المثبتة عند جانب القارب، والخيط الممتدّ إلى الماء المتوتّر تحت وقع حركتهما. بدا متيقّنًا أنّ إشارته تلك كافية، فعاد إلى وتيرة التجديف نفسها يرفع المجداف، يتوقّف، يغرس نصف الشفرة في الماء، يتوقّف مدّةً أطول، ثم يجذب المجذاف، فتطول الوقفة أكثر.

قالت كوندويرامورس، وهي تنظر إلى السماء بلامبالاة: "آه، فهمت. المهمّ هو الطُعم الذي يُجرّ خلف القارب؛ يجب أن يتحرك بالسرعة والعمق المناسبين. الصيد هو كلّ شيء، وكلّ ما سواه غير مهم".

---

[3] القراقول (يُكتَب أيضًا قَرَه قول أو قَرَاكول، ويُعرَف عالميًا باسم Karakul) هو سلالة من الأغنام تنحدر أساسًا من آسيا الوسطى، وتشتهر بفرائها الملتفّ والمجعّد، خصوصًا لدى الحملان الصغيرة المعروفة بقيمتها العالية في مجال صناعة الفراء. يتميّز فراء القراقول بتجعدٍ فريدٍ ولونٍ داكنٍ يميل غالبًا إلى الأسود أو البني، وهو مطلوب في صناعات الموضة والجلود

كان كلامها واضحًا لدرجة أنّ الرجل لم يُكلّف نفسه حتى عناء التنهّد أو التأفّف.

تابعت كوندويرامورس تحدّث نفسها: "ومن إذن سيبالي بأنني سافرتُ طوال الليل؟ وأنني جائعة؟ وأنّ مقعدتي تؤلمني وتلسعني من هذا المقعد الخشبي الرطب؟ وأنني بحاجةٍ إلى التبوّل؟ لا، لا شيء يهمّ سوى جرّ الطعم من أجل الصيد. ثم إنها محاولةٌ عقيمة؛ فلا سمكة ستعلق بطُعمٍ يُسحب في وسط التيار وعلى عمق عشرين قامة".

رفع الرجل رأسه، ونظر إليها نظرةً عدائية، وتمتم بكثيرٍ من التذمّر. كشفت كوندويرامورس عن أسنانها الصغيرة مبتسمةً في غبطةٍ خفيّة. واصل الفظّ التجديف ببطءٍ شديد؛ كان غاضبًا.

استندت كوندويرامورس براحةٍ على المقعد الخلفي، وعقدت ساقًا فوق أخرى، تاركةً ثوبها ينزلق قليلًا إلى أعلى.

زمجر الرجل، وشدّ يديه العقديّتين على المجاديف، متظاهرًا بأنه ينظر فقط إلى خيط الصيد. بطبيعة الحال، لم يكن ينوي التجديف بسرعةٍ أكبر. تنهدت المبتدئة باستسلام، ورفعت بصرها نحو السماء. أصدر مِحْورا التجديف صريرًا، وتساقطت قطراتٌ لامعةٌ من شفرات المجاديف.

لاح طيفُ جزيرةٍ من خلال الضباب الذي كان يتبدّد على عجل، وبدت مسلّةٌ داكنةٌ مستدقّةٌ لبرجٍ يعلوها. عرف ذلك الفظّ، مع أنه جالسٌ مواجهًا للأمام ولم يلتفت إلى الوراء، بوسيلةٍ غامضة، أنّهم أوشكوا على الوصول. من دون عجلة، وضع المجاديف على حافة القارب، وقف معتدلًا، وشرع يلفّ الخيط ببطءٍ على البكرة. صفّرت كوندويرامورس، ولا تزال تعقد ساقًا فوق أخرى، رافعةً بصرها إلى السماء.

أنهى الرجل لفَّ الخيط، ثم فحص الطُّعم ملعقةٌ نحاسيةٌ كبيرةٌ مزوّدةٌ بشصٍّ ثلاثيٍّ وخصلةٍ من الصوف الأحمر. قالت كوندويرامورس برقةٍ متهكّمة: "يا إلهي، يا إلهي، ألم تصطد شيئًا؟ يا للأسف! تُرى ما سبب سوء حظنا؟ ربّما كان القارب مندفعًا أسرع من اللازم؟"

ألقى الرجل نظرةً ذات معنىً بذيء، ثم جلس وسعل وبصق جانبًا، وقبض على المجاديف بيديه المعقودتين الضخمتين، وانحنى بقوة. لطمت المجاديف سطح الماء وترنّحَت في مِحْوَرَي التجديف، فانطلق القارب عبر البحيرة كالسهم، والزبد يتدفق من عند المقدمة، ودوّاماتٌ تتخضّض خلفه. قطع

الرجل المسافة القليلة التي تفصلهما عن الجزيرة في غمضة عين، وارتطم القارب بالحصى بقوةٍ جعلت كوندويرامورس تتمايل على مقعدها.

زمجر الرجل وسعل وبصق ثانيةً. أدركت المبتدئة أنّ هذا يعني — بلغة البشر المتحضّرين — "انزلي من قاربي، أيتها الساحرة المتعجرفة." كما وعَت أنّ عليها نسيان أيّ أملٍ بأن يُنزلها إلى الشاطئ بنفسه. خلعت حذاءها، ورفعت ثوبها عاليًا بشكلٍ مستفزّ، ثم نزلت. كظمت صرخةً غاضبةً حين وخزتها أصداف المحار في قدميها.

قالت وهي تشدّ أسنانها: "شكرًا... على التوصيلة." ومن غير أن تنتظر زمجرته التالية أو تلتفت إليه، سارت حافيةً نحو الدَّرَج الحجري. تلاشت كلّ الآلام والمضايقات التي عانتها وتبخّرت، إذ مسحتها حماسةٌ كانت تتصاعد في داخلها. هكذا وصلت كوندويرامورس إلى جزيرة إينيس فيتري على بحيرة بلوست مكانٌ شبه أسطوريٍّ لم يطأه سوى قلةٍ قليلة.

ارتفع الضباب الصباحي انقشاعًا تامًّا، وبدأت قرص الشمس الحمراء تزداد وضوحًا في سماءٍ باهتة. حلّقت طيور النورس صارخةً حول شرفات البرج، واختطفت طيور السمام الهواء بخفةٍ خاطفة. عند قمّة الدَّرَج الصاعد من الشاطئ إلى الشرفة، بينما استندت نيمويه إلى تمثال كيميرا وعلى شفتيها ضحكةٍ غامضة مكتومة. إنّها سيّدة البحيرة.

* * *

كانت نيمويه رقيقةً وقصيرة، لا يزيد طولها على خمسة أقدام إلا قليلًا. سمعت كوندويرامورس من قبل أنّها لُقِّبت في صباها بـ"سكويرت"، وأدركت الآن أنّ اللقب كان في محلّه تمامًا. غير أنّها كانت على يقينٍ بأنّ أحدًا لم يجرؤ على مناداة الساحرة الصغيرة بذلك الاسم طوال نصف قرنٍ على الأقل.

قالت كوندويرامورس، وهي تنحني تحيّةً بخفّة وقد احمرّت وجنتاها قليلًا لأنها لا تزال حاملةً حذاءها في يدها: "أنا كوندويرامورس تيلي. سررتُ كثيرًا بزيارة جزيرتكِ، يا سيّدة البحيرة".

قالت نيمويه، تلك الساحرة الضئيلة، وهي تصحّح لها: "نيمويه، ليس إلا. بإمكاننا أن نتجاوز الألقاب الرسميّة، آنسة تيلي".

قالت كوندويرامورس: "إذن أنا كوندويرامورس، كوندويرامورس وحسب".

قالت نيمويه: "تعالي إذن يا كوندويرامورس. سنتحدّث على مائدة الفطور. أخمّنُ أنّكِ جائعة".

قالت كوندويرامورس: "لا أنكر ذلك".

* * *

كان الإفطار مكوّنًا من جبن قريش أبيض، وثومٍ معمر، وبيض، وحليب، وخبزٍ من الطحين الكامل، وقدّمته خادمتان صغيرتان جدًّا وهادئتان جدًّا، تنبعث منهما رائحة النشا. تناولت كوندويرامورس طعامها، شاعرةً بنظرات الساحرة القصيرة محدّقةً فيها.

قالت نيمويه ببطء، وهي تراقب كل حركةٍ تقوم بها كوندويرامورس تقريبًا، بل وحتى كل لقمةٍ ترفعها إلى فمها: "يتكوّن البرج من ستة طوابق، أحدها تحت الأرض. غرفتك في الطابق الثاني فوق الأرض. ستجدين فيها كل ما يلزم للعيش. أما الطابق الأرضي كما — تلاحظين — فهو مخصّص للخدمات، وتسكن فيه الخادمات أيضًا. أما الطابق تحت الأرض والطابقان الأول والثالث ففيها المختبر والمكتبة والقاعة الفنية. تستطيعين الدخول إليها جميعًا دون قيود، والاستفادة ممّا تحويه بأي وقتٍ وبالطريقة التي تشائين".

قالت كوندويرامورس: "فهمت، شكرًا لكِ".

تابعت نيمويه، وهي تدير رأسها نحو النافذة حيث يمكن رؤية العبار العابس. كان قد أنزل أمتعة كوندويرامورس للتو، وراح الآن يحمل قصبات الصيد والبكرات وشِباك التقاط السمك وغير ذلك من عدّة الصيد إلى قاربه.

قالت نيمويه: "أنا شخصٌ يميل إلى الطراز القديم بعض الشيء، لكنني اعتدت أن أختصّ نفسي بأمورٍ معينة، مثل فرشاة الأسنان، على سبيل المثال. وغرفي ومكتبتي ومرحاضي الخاصّ. وكذلك الصياد. أرجو ألّا تحاولي الاستفادة من الصياد".

كادت كوندويرامورس تختنق بالحليب. حافظت نيمويه على وجهٍ لا يشي بأي انفعال.

أضافت نيمويه قبل أن تتمكّن الفتاة من استعادة قدرتها على الكلام: "وإذا ما حاول هو أن يستفيد منك، فارفضيه".

ابتلعت كوندويرامورس ريقها أخيرًا وأومأت برأسها سريعًا، متجنّبةً أي تعليق. كان على طرف لسانها أن تؤكّد أنها لا تكترث لمحبّي الصيد، لا سيما أولئك المتحذلقين الفظّين برؤوسٍ أشعث بيضاء كلون القريش.

قالت نيمويه بلهجةٍ متمهّلة: "حسنٌ. انتهينا إذن من التعارف. حان وقت الدخول في صلب الموضوع. ألا يثير اهتمامكِ معرفة لماذا اخترتُكِ أنتِ تحديدًا من بين جميع المرشّحين؟"

إن كانت كوندويرامورس قد تأمّلت جوابها لحظةً، فلم يكن ذلك إلّا كي لا تبدو واثقةً أكثر من اللازم. غير أنّها استنتجت بسرعةٍ أنّ نيمويه لا تقبل أدنى تظاهرٍ بتواضعٍ كاذبٍ — إذ قد تعتبره إهانةً لصدقه.

قالت كوندويرامورس ببرودٍ وواقعية، وبلا أيّ ادّعاء: "أنا أفضلُ قارئةِ أحلامٍ في الأكاديمية، وفي العام الثالث حصدتُ المركز الثاني بين مختصّي الأونييرومانسي".(oneiromancers)

قالت نيمويه بصراحةٍ قاسيةٍ: "كان بإمكاني الاستعانة بصاحبة المركز الأول. وبالمناسبة، عُرِضت عليَّ بشيءٍ من الإلحاح؛ فهي على ما يبدو ابنةٌ مهمّةٌ لشخصٍ مهم. وكما تعرفين، يا عزيزتي كوندويرامورس، فإنّ موهبة قراءة الأحلام والأونييرومانسي مزاجيةٌ إلى حدٍّ كبير، إذ قد تتعرّض حتى أفضل قارئةٍ للإخفاق".

آثرت كوندويرامورس ألّا تردّ بتذكيرٍ أنّ إخفاقاتها يمكن حصرها في أصابع يدٍ واحدة. ففي النهاية، هي تحدّث معلّمةً. ولا بدّ، كما اعتاد أحد أساتذتها في الأكاديمية أن يقول، أن يعرف المرء حدوده. أومأت نيمويه برأسها علامة رضاٍ على صمتها.

قالت نيمويه، بعد لحظات: "أجريتُ بعض الاستفسارات في الأكاديمية؛ وعليه أعلم أنّكِ لا تلجئين للمُهلوسات كي تعزّزي قدرتكِ على التكهّن. وهذا أمرٌ يسرّني؛ فأنا لا أطيق العقاقير المخدّرة".

قالت كوندويرامورس بشيءٍ من الاعتزاز: "أنا أتنبّأ من دون أيّ موادّ مخدّرة. كلّ ما أحتاجه لقراءة الأحلام (oneiroscopy)[4] هو ما أسمّيه الخطّاف.

[4] الأونيروسكوبي (Oneiroscopy) هو مصطلح مشتقّ من الكلمات الإغريقية التي ترتبط بالأحلام "oneiros" تعني حلمًا وبالمراقبة أو الرؤية "skopein" وتعني النظر أو المراقبة. يُشير هذا المفهوم إلى فنّ أو تقنية "قراءة الأحلام" أو التنبّؤ من خلالها، حيث يسعى المُمارس (القارئ أو العرّاف) إلى استكشاف رموز الأحلام ودلالاتها، واستنباط معلومات أو تأويلات ترتبط بالمستقبل أو بالواقع الخفي. في بعض الأعمال الخيالية أو الميثولوجيا، يُنظر إلى الأونيروسكوبي على أنّه قدرة سحرية تمكّن صاحبها من الدخول إلى عوالم الأحلام أو التواصل مع القوى الماورائية عبر الأحلام.

قالت نيمويه وهي ترفع حاجبًا: "الخطّاف؟"

سعلت كوندويرامورس خفوتًا وقالت: "أعني به شيئًا يرتبط بصورةٍ ما بالموضوع الذي عليَّ أن أحلم به. ربما يكون غرضًا، أو رسمًا، أو صورةً"...

قالت نيمويه متبسّمة: "صورة؟ آه. حسنٌ، إن كانت لوحةٌ ما ستساعدكِ، فلن تكون هناك أيّ مشكلة. وإن كنتِ قد شبعتِ الآن، أيتها القارئة الأولى للأحلام وصاحبة المركز الثاني في الأونبيرومانسي، فلا بدّ أن أشرح لكِ دون تأخير باقي الأسباب التي جعلتني أختاركِ كمساعدتي".

انتشر نسيمٌ باردٌ يصدر من الجدران الحجرية، لم تتمكّن الأقمشة الثقيلة ولا الألواح الخشبيّة المعتمة من كبحه. حتى أرضية الحجر البارد كانت تتسرّب ببرودها عبر نعلي حذاء كوندويرامورس.

أشارت نيمويه بلامبالاة نحو بابٍ مجاور: "يوجد خلف هذا الباب المختبر، كما قلتُ لكِ سابقًا، يمكنكِ استخدامه كما تشائين، لكن الحذر واجب، والأهم أن تتحلّي باعتدالٍ حين تحاولين جعل المِقَشّات تحمل دلاء الماء".

قهقهت كوندويرامورس بأدبٍ، رغم أنّ النكتة قديمةٌ وعتيقة؛ إذ اعتاد كل الأساتذة إلقاء النكات ذات الصلة بمحن المتدرّب الأسطوري للساحر الأسطوريّ.

صعدتا الدرج الذي التفّ صعوده كأفعى بحرية، وكان مرتفعًا. شعرت كوندويرامورس بالتعب والعرق يتصبّب منها قبل بلوغ نهاية الصعود، لكنّ نيمويه لم تَبدُ عليها أيّ علامةٍ للإجهاد.

قالت نيمويه وهي تفتح بابًا من خشب السنديان: "من هنا من فضلكِ. انتبهي للعتبة".

دخلت كوندويرامورس وأطلقت شهقة دهشة.

كانت الغرفةُ صالةً للصور، جدرانها مغطّاةٌ من الأرض إلى السقف باللوحات. عُلِّقت هناك لوحاتٌ زيتيةٌ كبيرةٌ وقديمة، بدأت زواياها بالتآكل والتشقّق، ولوحاتٌ مصغّرة، ومطبوعاتٌ ونقوشٌ صفراء، وألوانٌ مائيةٌ باهتةٌ وصورٌ باللون البني (سيبيا). كما رُصّت أعمالٌ بألوانٍ ساطعةٍ من الغواش والتِّمبرا، وصورٌ بالحفر الضوئي (أكواتِنت) والنقوش (إيتشِنغ)، فضلًا عن مطبوعاتٍ حجرية (ليتوغراف) ولوحاتٍ بتقنية المِيزوتِنت ذات التباين الحادّ والنقاط السوداء المميّزة.

توقّفت نيمويه أمام اللوحة الأقرب إلى الباب، وقد صوّرت مجموعةً متحلّقةً تحت شجرةٍ عظيمة. حدّقت نيمويه في اللوحة، ثم التفتت إلى كوندويرامورس، وكان صمتُ نظرتها بليغًا على نحوٍ غير معتاد.

قالت كوندويرامورس، وقد أدركت فورًا ما هو متوقَّعٌ منها: "دانديليون. يغنّي أغنيةً تحت شجرة السنديان بليوبهريس".

ابتسمت نيمويه وأومأت برأسها، ثم خطت خطوةً واحدةً، لتقف أمام لوحةٍ مائيةٍ تالية. كانت رمزيةً في أسلوبها ظلّ امرأتين فوق تلّ، تدور حولهما طيور النورس، وفي الأسفل صفٌّ من الظلال يعبر سفح التل.

قالت كوندويرامورس: "سيري وتريس ميريجولد، الرؤيا النبوئية في كير مورهن".

ابتسامةٌ، إيماءةٌ، خطوةٌ أخرى نحو اللوحة التالية فارسٌ ينطلق بحصانه مسرعًا وسط صفٍّ من أشجار النّير المُشوَّهة التي تمدُّ أغصانها نحوه كالأذرع. شعرت كوندويرامورس برعشةٍ تسري في جسدها.

قالت كوندويرامورس: "سيري... هممم... ربما تكون رحلتها للقاء جيرالت في مزرعة الهوفماير ذي النصف بشري".

جاءت اللوحةُ التاليةُ زيتيةً داكنةً، تمثّل مشهدَ معركة.

قالت كوندويرامورس: "جيرالت وكاهير يدافعان عن الجسر على نهر ياروغا".

بعد ذلك أخذت كوندويرامورس تعدّد التفاصيل بسرعة:

قالت "ينيفر وسيري، لقاؤهما الأول في معبد ميليتِله. دانديليون والإلفية إثنيه في غابة بروكيلون. رفاق جيرالت في العاصفة الثلجية على ممرّ مالوور..."

قاطعتها نيمويه بابتسامةٍ مشرقة: "رائع، ممتاز. هذه معرفةٌ مدهشةٌ بالأسطورة. الآن عرفتِ السبب الآخر لكونكِ هنا أنتِ تحديدًا دون غيرك".

* * *

طغت لوحة قماشية ضخمة تصوّر معركة برينا على الطاولة الصغيرة المصنوعة من خشب الأبنوس، والتي جلسا إليها، إذ جسّدت اللوحة لحظةً محوريةً من المعركة حيث يلقى أحدهم حتفه في مشهدٍ بطوليٍّ مبتذل. لم يشكّ أحدٌ في أنّ العمل من توقيع نيكولاي تشيرتوزا، وهو ما يتّضح من الأجواء والتفاصيل الدقيقة وإتقان الإضاءة الذي يميّز أسلوبه.

قالت كوندويرامورس: "صحيح، أعرف أسطورة الويتشر والفتاة الويتشر كذلك — ولا أتوانى عن التصريح بهذا — بصورةٍ شاملة. لقد عشقتُ تلك الحكاية حين كنتُ صغيرةً، وانغمست في سحرها تمامًا، بل وحلمتُ ذات يومٍ أن أكون ينيفر. ولكن سأكون صريحةً معكِ حتى وإن كان حبًّا خاطفًا في البداية، ملتهبًا ومتفجّرًا، فإنّه لم يدم للأبد".

رفعت نيمويه حاجبيها.

تابعت كوندويرامورس: "اطلعتُ على الحكاية أولًا عبر نسخها الموجزة الشائعة، وتلك التي تُعدّ للأطفال، أي النسخ المنقَّحة والمكيّفة للأطفال **ad usum delphini.** ثم انتقلتُ بالطبع إلى قراءة النسخ الكاملة والجادّة. كانت تفصيليّةً حدّ الإفراط، وأحيانًا تتجاوزه. وهكذا حلّ محلّ الشغف تأمّلٌ بارد، وحلّ محلّ اللهفة الجامحة ما يشبه (الواجب الزوجي)... إن كنتِ تفهمين قصدي".

أومأت نيمويه — إيماءةً خفيفةً بالكاد تُرى — تأكيدًا على فهمها.

أردفت كوندويرامورس: "خلاصة الأمر أنني أميلُ إلى الأساطير التي تلتزم بالنهج الأسطوري الصرف، ولا تخلط الواقع بحكايات الخيال، ولا تحاول مزج الأخلاقيات البسيطة والأنيقة للقصة مع حقائق التاريخ القاسية. أحبّ الأساطير التي لا يُضيف إليها الموسوعيّون وعلماء الآثار والمؤرّخون خواتيم وملاحق. أحبّها حين يتسلّق الأمير قمّة جبلٍ بلّوري ويُقبّل الأميرة النائمة فتستيقظ ويعيشان معًا في سعادةٍ إلى الأبد. ينبغي أن تنتهي الأسطورة هكذا، لا بأسلوبٍ آخر... تلك اللوحة الكاملة الطول لسيري، أهي فعلًا لها؟"

قالت نيمويه بنبرةٍ متجرّدة: "لا توجد أيّ لوحةٍ لسيري على الإطلاق، لا هنا ولا في أي بقعةٍ من العالم. لم يبقَ رسمٌ واحدٌ رسمه فنانٌ رآها أو عرفها أو حتى تذكّرها. تلك اللوحة الكاملة الطول تمثّل بافيتا، والدة سيري، ورسمها رويز دورّيت، رسّام البلاط لدى ملوك سينترا. نعرف أنّ دورّيت رسم لوحةً لسيري وهي في التاسعة، بنفس الطول الكامل، عُرفت بعنوان (الإنفانتا مع السلوقي)، لكنّها ضاعت للأسف. والآن

دعينا نرجع إلى الأسطورة وإلى موقفكِ منها، وإلى الطريقة التي ترين أنّ الأسطورة يجب أن تنتهي بها".

قالت كوندويرامورس بحزم: "ينبغي أن تنتهي نهايةً سعيدة. يجب أن ينتصر الخير والعدل، ويُعاقَب الشرّ عقابًا يُضرب به المثل، وتبقى المحبّة تجمع الحبيبين إلى آخر عمريهما. ولا ينبغي لأيٍّ من الأبطال أن يموت ميتةً داميةً! وأمّا أسطورة سيري؟ كيف تنتهي؟"

قالت نيمويه: "بالضبط. كيف؟"

وقفت كوندويرامورس صامتةً لحظة، إذ فوجئت بهذا السؤال. شعرت به وكأنّه امتحانٌ أو فخ، فلم تجب، خشية الوقوع في الزلّة.

راودتها الفكرة: كيف تنتهي أسطورة سيري؟ ولكن الجميع يعرف ذلك.

نظرت كوندويرامورس نحو لوحةٍ مائيةٍ داكنة تصوّر زورقًا غامضًا يعبر سطح بحيرةٍ مغطّاةٍ بالضباب، تقوده امرأةٌ تمسك بعصًا طويلة، لا تُرى منها سوى هيئةٍ سوداء.

هكذا بالضبط تنتهي الأسطورة... هكذا.

قرأت نيمويه أفكارها وقالت: "ليس هذا يقينًا يا كوندويرامورس، أبدًا ليس يقينًا".

تابعت نيمويه: "سمعتُ الأسطورة من فم حكواتيٍّ جوّال. أنا فتاةٌ قروية، الأبنة الرابعة لعجلاتيّ القرية. كانت الأوقات التي يقيم فيها الحكواتي بوغويزد — وهو متسوّلٌ متجوّل — في قريتنا أجمل لحظات طفولتي. كان المرء ينأى عن شقاء الحياة اليومي، ويرى تلك العجائب التي تفوق الواقع، ويبصر بعين النفس عالَمًا بعيدًا مدهشًا، أشدّ بُعدًا ودهشةً من سوق البلدة التي تبعد تسعة أميال عنا...

"وقتها كنتُ في السادسة أو السابعة. وكانت أختي الكبرى، في الرابعة عشرة، قد بدأ ظهرها يلتوي من كثرة الانحناء على أعمالها الشاقّة. هكذا حال الفلاحة! في قريتنا نربّي الفتيات منذ الصغر على الانحناء، انحناءٌ بلا نهاية، فوق الحقل، وفوق الأطفال، وتحت ثقل البطن المنتفخ الذي يفرضه عليكِ زوجكِ حالما تنهضين من فراش النفاس."

"لكنّ ذلك الحكواتي جعلني أحلم بأكثر من حياة الانحناء والشقاء اليومي. جعلني أتمنّى ما هو أسمى من مجرد حصادٍ وزواجٍ وأولاد. وأوّل كتابٍ اشتريتُه من ثمن بيع ثمار جمعتها في الغابة كان عن أسطورة سيري النسخة المنقّحة للأطفال، تلك التي أسميتها أنتِ **ad usum delphini.** كانت تناسب مستواي حينذاك، إذ لم أكن قارئةً بارعة. غير أنّني كنتُ قد عرفتُ ما أريد. أردتُ أن أكون مثل فيليبا إيلهارت، مثل شيلا دي تانكارفيل، مثل أسّيري فار أناهيد"...

حدّقتا في لوحةٍ غُطّيت ألوانُها بالغواش، تبيّن قاعةً في قلعة، وطاولةً تجلس حولها نساءٌ بنورٍ وظلٍّ ناعم. شخصيّاتٌ أسطوريّة.

أضافت نيمويه: "في الأكاديمية التي التحقتُ بها — وكان ذلك في محاولتي الثانية في الحقيقة — درستُ الأسطورة في سياق (مجلس الساحرات العظيم) ضمن درس تاريخ السحر. لم يكن لديّ وقتٌ كافٍ للقراءة من أجل المتعة؛ إذ وجب عليّ مضاعفة جهودي للحاق ببنات النبلاء وأثرياء البنوك اللواتي نلن كلّ شيءٍ بسهولة، وضحكنَ من فتاةٍ ريفيّة..."

صمتت لحظةً وقرقعت أصابعها.

استطردت نيمويه: "أخيرًا وجدتُ وقتًا للقراءة، لكنّي اكتشفتُ أنّ أحداث جيرالت وسيري لم تعد تستهويني كما في طفولتي. ووقعتُ بما وقعتِ به أنتِ. سمّيتِه أنتِ الواجب الزوجي؟ نعم، ظلّت الحال كذلك حتى..."

سكتت نيمويه ثم مرّرت يدها على وجهها. وأبصرت كوندويرامورس، بدهشةٍ، أنّ يد سيّدة البحيرة كانت ترتجف.

قالت نيمويه: "أظن أنني كنتُ في الثامنة عشرة حين حدث أمرٌ ما جعل أسطورة سيري تدبّ في داخلي من جديد، وجعلني أخوض فيها بجدّ ودراسة، وأكرّس حياتي لها".

ساد صمتٌ من طرف المبتدئة، رغم أنّ فضولًا هائجًا كان يفور في داخلها.

قالت نيمويه بحدّة: "لا تتظاهري بأنّكِ لا تعرفين. الجميع يعرف أنّ سيّدة البحيرة واقعةٌ في هوسٍ مرضيّ بأسطورة سيري، وأنّ افتتانها البريء القديم تحوّل إلى ما يشبه الإدمان على المخدّرات أو هوسًا صريحًا. والحقّ أنّ في تلك الشائعات قدرًا كبيرًا من الصحّة يا عزيزتي كوندويرامورس، بل قدرًا عظيمًا! وأنتِ،

ما دمتِ مساعدتي المختارة، فستغوصين معي في ذلك الهوس وفي تلك التبعيّة، لأني سأطلبه منكِ طلبًا على الأقل طوال مدّة تدريبكِ. هل تفهمين؟"

أومأت المبتدئة برأسها.

علّقت نيمويه وقد استعادت رباطة جأشها: "تظنّين أنّك تفهمين، لكنني سأشرح لكِ الأمر تدريجيًّا. وعندما يحين الوقت، سأفسّر لكِ كلّ شيء. أمّا الآن..."

قطعت نيمويه عبارتها وهي تنظر من خلال النافذة نحو البحيرة، إلى الخيط الأسود المتحرّك الذي يمثّل قارب الصياد، بارزًا بوضوحٍ فوق سطح المياه المتوهّجة بشعاعٍ ذهبيّ.

أضافت نيمويه: "في الوقت الحالي، خذي قسطًا من الراحة. تجوّلي في قاعة الصور. ستجدين في الخزائن وعلب العرض ألبوماتٍ وصناديق حافلة بالنقوش تتناول هذه الحكاية، وفي المكتبة كل النسخ والإصدارات التي روت الأسطورة، إضافةً إلى معظم الدراسات عنها. ارصديها واقرئيها بتركيزٍ تام؛ أريدكِ أن تحصلي على مادّةٍ وفيرةٍ لأحلامكِ ذلك (الخطّاف) الذي تحدّثتِ عنه".

قالت كوندويرامورس: "سأفعل. سيّدتي نيمويه؟"

ردّت نيمويه: "نعم".

قالت كوندويرامورس: "هاتان اللوحتان المعلّقتان جنبًا إلى جنب... أليستا لسيري أيضًا؟"

قالت نيمويه بصبر: "لا توجد أيّ لوحةٍ لسيري، ذكرتُ لكِ هذا من قبل. الفنانون من الأجيال اللاحقة رسموها ضمن مشاهد، وكلّ واحدٍ منهم تبع خياله الخاص. أمّا بشأن هاتين اللوحتين تحديدًا، فاللوحة اليسرى هي على الأرجح اجتهادٌ حُرٌّ لشخصية الإلفية لارا دورين إيب شيادال، إذ استحال على الرسّامة رؤيتها. تلك الرسّامة هي ليديا فان بريديفورت، والتي لا شكّ أنّكِ تعلمين بذكرها في الأسطورة. ما زالت لها لوحةٌ زيتيةٌ في الأكاديمية".

قالت كوندويرامورس: "أعرف. وماذا عن اللوحة الأخرى؟"

تطلّعت نيمويه طويلًا إلى صورة فتاةٍ نحيلة شقراء الشعر، تبدو بحزنٍ بادي على ملامحها، وترتدي فستانًا أبيض بأكمامٍ خضراء.

قالت نيمويه وهي تدير عينيها نحو كوندويرامورس: "رسمها روبِن أنديريدا. وأمّا صاحبة الصورة... أخبريني أنتِ، أيتها القارئة للأحلام والعرافة بالرؤى. فسّريها لي. وحدّثيني عن حلمكِ".

* * *

كان معلّم روبِن أنديريدا أوّل من لاحظ اقتراب الإمبراطور، فانحنى تحيّةً. فوقفت الكونتيسة ستيلا كونغريف، كونتيسة ليدرتال، وأدّت انحناءةً خفيفة، وأشارت للفتاة الجالسة على المقعد المحفور أن تفعل الشيء نفسه.

قال إمير فار إمريس بانحناءةٍ خفيفةٍ للرأس: "تحيّةً لكُنَّ، سيّداتي. وتحيّةً لك أيضًا، معلّم روبِن. كيف تسير الأمور؟"

سعل معلّم روبِن حرجًا وانحنى مجدّدًا، وهو يمسح أصابعه بردائه بتوتّر. علم الإمبراطور أنّ الرسّام يعاني رُهاب الأماكن الفسيحة، وأنّه شديد الخجل. لكن ما شأنه بذلك؟ المهم أنّه يرسم بإتقانٍ عالٍ.

ارتدى الإمبراطور — وفق عادته في السفر — زيّ ضابطٍ من كتيبة حرس إمبيرا درعًا سوداء وعباءةً مطرّزةً بسلمندر فضيّ. تقدّم وألقى نظرةً أولًا على اللوحة، ثم على صاحبة الصورة فتاةٌ نحيلةٌ شقراء الشعر، بعينين شاردتين. ارتدت ثوبًا أبيض بأكمامٍ خضراء، وبصدرٍ مفتوحٍ قليلًا يزينه عقدٌ من حجر البيريدوت.

قال الإمبراطور بنبرةٍ محايدةٍ كي لا يعرفوا عمّن يمدح: "رائعة. عملٌ ممتاز يا معلّم. تابع الرسم، ولا تُلقِ لي بالًا. سيّدتي الكونتيسة، هلا رافقتِني؟"

مضى نحو النافذة، ما اضطرّ الكونتيسة ستيلا للحاق به.

قال بصوتٍ خفيض: "سأغادر. شؤون الدولة تتطلّب ذلك. أشكركِ على حسن ضيافتكِ. وأشكركِ كذلك... على هذه الفتاة. لقد قمتِ بعملٍ رائع حقًّا يا ستيلا. يستحقّ المديح لكِ ولها".

انحنت ستيلا كونغريف بانسيابيةٍ وأناقة، وقالت: "مولاي الإمبراطور لطيفٌ أكثر من اللازم".

علّق الإمبراطور بلهجةٍ مقتضبة: "لا تستعجلي هذا الوصف".

قالت ستيلا بقلق: "أهكذا... صارت الأمور؟"

أجاب الإمبراطور: "أجل. بعد عشرة أيامٍ سأستأنف الهجوم في الشمال، وستكون حربًا قاسيةً للغاية. فاتير دي ريدو يلاحق المؤامرات التي تستهدفني. وقد تفرض مصالح الدولة عليّ أفعالًا غايةً في الشدّة".

قالت ستيلا بخفوت: "تلك الفتاة لا ذنب لها".

ردّ الإمبراطور: "قلتُ (مقتضيات الدولة)، وهي لا تمتّ للعدالة بصلة. على كلّ حال..." ولوّح بيده: "أريد أن أحدّثها على انفراد، تفضّلي أيتها الأميرة اقتربي، تحرّكي بسرعة، إمبراطوركِ يأمر".

انحنت الفتاة انحناءةً عميقة. تأمّل الإمبراطور هيئتها، واستعاد في ذاكرته تلك المقابلة المهمّة في لوك غريم فملأه التقدير — بل الإعجاب — بجهد ستيلا كونغريف التي حوّلت خلال ستة أشهر (البشعة الصغيرة) إلى شابّةٍ نبيلةٍ رقيقة.

قال الإمبراطور: "اتركونا. خذ قسطًا من الراحة يا معلّم روبِن، نظّف فرشك مثلًا، سيّدتي الكونتيسة، انتظريني في القاعة المجاورة. وأنتِ يا أميرة، رافقيني إلى الشرفة".

كان الثلج الرطب الذي هطل ليلة البارحة يذوب تحت أشعّة شمس الصباح الأولى، وقد بقيت أسطح أبراج قلعة دارن رواَن وقممها مبلّلةً تشعّ وهجًا وكأنّها مشتعلة.

تقدّم الإمبراطور نحو درابزين الشرفة. ظلّت الفتاة محافظةً على البروتوكول بترك مسافة ثلاث خطواتٍ خلفه. أشار إليها بنفاد صبرٍ لتقترب أكثر.

سكت الإمبراطور طويلًا، وهو يستند بكلتا يديه إلى الدرابزين، محدّقًا في التلال المخضرّة بأشجار الطقسوس التي تبرز بوضوحٍ في مقابل الحجر الجيري الأبيض للهوّات الصخريّة. تألّق النهر في الوادي كشريطٍ فضيٍّ مُذاب.

فاح عبير الربيع في الأجواء.

قال الإمبراطور أخيرًا: "قلّما آتي إلى هنا، فيما المكان جميلٌ ينضح هدوءًا. المنطقة رائعة... هل توافقينني؟"

قالت الفتاة: "نعم، يا صاحب الجلالة الإمبراطوري".

سأل الإمبراطور: "تشعرين أيضًا ببوادر الربيع، أليس كذلك؟"

أجابت الفتاة: "نعم، يا صاحب الجلالة الإمبراطوري".

جاءت الأصوات من الأسفل في باحة القلعة غناءٌ تصحبه قرقعةٌ واحتكاكٌ وصليلُ حوافر. كان الحرس قد أُخبروا بأمر الإمبراطور بالانطلاق، فراحوا على عجلٍ يعدّون أنفسهم للطريق تذكّر الإمبراطور أنّ بينهم من اعتاد الغناء بشكلٍ متكرر، بغضّ النظر عن الظرف.

تذكّريني برأفة
في هذه الساعةِ من الليل
ولا تصرفي ودَّكِ عني
بل استقبليني في خِدركِ

قال الإمبراطور وهو يلمس القلادة الثقيلة الذهبية الإمبراطورية بأصابعه: "إنها أغنيةٌ جميلة".

قالت الفتاة: "هي كذلك يا صاحب الجلالة الإمبراطوري".

تابع الإمبراطور: "يُؤكد فاتيير أنّه على أثر فيلغيفورتز، وأنّ العثور عليه مسألةُ أيّام، بل ربما أسابيع لا أكثر. وعندئذٍ ستسقط رؤوس الخونة، وستُجلب سيريلّا الحقيقية، ملكة سينترا، إلى نيلفجارد".

فكّر الإمبراطور: "وقبل أن تأتي سيريلّا الحقيقية، ملكة سينترا، إلى نيلفجارد، ينبغي اتخاذ إجراءٍ ما بشأن تلك الشبيهة".

قال الإمبراطور: "ارفعي رأسكِ".

فامتثلت الفتاة.

قال الإمبراطور فجأةً وبنبرةٍ قاسية: "ألديكِ أيّ طلبات؟ شكاوى؟ رغبات؟"

قالت الفتاة: "لا، يا صاحب الجلالة الإمبراطوري. ليس لديّ".

علّق الإمبراطور وقد بدا عليه الاهتمام: "حقًّا؟ غريب. حسنٌ، لا يمكنني أن أُرغمكِ على امتلاك طلبات. ارفعي رأسكِ، كما يليق بأميرة. أظنّ أنّ ستيلا قد علّمتكِ فنون السلوك".

قالت الفتاة: "أجل، يا صاحب الجلالة الإمبراطوري".

فكّر الإمبراطور: "درّبوها جيدًا. أولًا رينس، ثم ستيلا. حَفِظتْ كلّ دورها وكلماتها عن ظهر قلب، وأخضعوها بالتهديد بالتعذيب والقتل لو حدث أيّ خطأ. هدّدوها بعرضٍ في حضرة جمهور قاسٍ لايرحم الأخطاء... أمام إمير فار إمريس المهيب، إمبراطور نيلفجارد".

سأل الإمبراطور على نحوٍ مفاجئ: "ما اسمكِ؟"

قالت الفتاة: "سيريلّا فيونا إيلين ريانون".

قال الإمبراطور بجفاء: "اسمكِ الحقيقي".

قالت الفتاة: "سيريلّا فيونا"

قاطعها الإمبراطور بلهجةٍ ممتعضة: "لا تجرّبي صبري! اسمكِ"!

تكسّر صوت الفتاة كالعود اليابس: "سيريلّا... فيونا"...

قال الإمبراطور من بين أسنانه: "يكفي، بالشمس العظمى، يكفي"!

شهقت الفتاة بصوتٍ مسموعٍ، على غير المراسم، وارتعشت شفتاها. لكن المراسم لم تمنع شفتيها من الارتجاف.

قال الإمبراطور بصوتٍ لينٍ يكاد يلامس الرقة: "اهدئي. ممّ تخافين؟ هل تخجلين من اسمكِ؟ أم تخشين ذكره؟ إن سألتُكِ، فذلك لأنني أرغب في مناداتكِ باسمكِ الحق. ولكني بحاجةٍ إلى معرفته".

قالت الفتاة وقد لمعت عيناها الخضراوان كزمردٍ مضاءٍ بنار: "إنه اسمٌ تافه يا صاحب الجلالة الإمبراطوري. تافهٌ تمامًا، مناسبٌ لشخصٍ لا يساوي شيئًا. طالما أنا سيريلّا فيونا فلي معنى، طالما"...

انحبس صوتها فجأة، حتى إنها رفعت يديها إلى عنقها، كأن العقد الذي ترتديه بات سكينًا يخنقها. واصل الإمبراطور تحديقَهُ فيها، شاردًا في تقديره لجهد ستيلا كونغريف، وهو في الوقت ذاته يشعر بغضبٍ لا مُبرّر له، وغضبٌ بلا مُبرّر دائمًا أشدّ إيلامًا.

تساءل الإمبراطور في نفسه بغضبٍ يشتعل في داخله: "ما الذي أريده من هذه الطفلة؟"

تابع الإمبراطور بنبرةٍ حادة: "اعلمي أنّني لم أدبّر اختطافكِ أبدًا. لم أصدر أيّ أوامرٍ من هذا القبيل. لقد خُدِعتُ"

فكّر الإمبراطور ساخطًا على نفسه: "أُخطئ ثانيةً. كان يجدر بي أن أنهي الحديث منذ زمن، متعاليًا متكبرًا ومهدّدًا، كما يليق بالإمبراطور. كان يجب أن أنسى أمر هذه الفتاة ذات العينين الخضراوين. فليس لها وجود، إنها مجرّد شبيهة، تزويرٌ محض، بلا اسمٍ حقيقيّ. لا تستحقّ أن ينحني الإمبراطور معتذرًا".

قال الإمبراطور بلكنةٍ غير معتادة خرجت بصعوبةٍ من فمه: "اغفري لي. لقد أخطأت. نعم، ما حدث لكِ بسببي. أنا المسؤول. لكنني أقسم لكِ أنكِ آمنة. لن يُصيبكِ ضررٌ أو حيفٌ أو سوء. لا داعي للخوف".

قالت الفتاة رافعةً رأسها وتنظر في عينيه خلافًا للبروتوكول: "أنا لا أخاف".

انتفض الإمبراطور مشدوهًا من صدق نظرتها وثقتها. استقام واقفًا بجلالٍ، وقد عاد إليه ذلك التعالي الإمبراطوري المنفّر.

قال: الإمبراطور "اطلبي مني ما شئتِ".

نظرت الفتاة إليه ثانيةً، فتذكّر الإمبراطور كلّ مرّةٍ اشترى فيها راحة ضميره لقاء الأذى الذي سببه للآخرين، سعيدةً نفسه في السرّ بسعرٍ بخس.

ردّد الإمبراطور: "اطلبي ما شئتِ".

استشعرت الفتاة نبرةً أكثر إنسانية في صوته. وداخل نفسه فكّر الإمبراطور: "لو طلبت العودة إلى موطنها، فسأرسلها بعربةٍ ذهبيةٍ يجرّها ستة أحصنة. فلتطلب"!

قال الإمبراطور مجدّدًا: "اطلبي ما شئتِ".

قالت الفتاة خافضةً عينيها: "شكرًا يا صاحب الجلالة الإمبراطوري. إن كنتُ سأطلب شيئًا... فهو البقاء هنا. في دارن رواَن. مع السيّدة ستيلا".

لم يتفاجأ الإمبراطور؛ فقد أحسّ بمثل هذا الطلب قادمًا. أوقفه ترفُّعه عن طرح أسئلةٍ مهينةٍ لهما.

قال الإمبراطور ببرود: "وعدتُكِ، وليتحقق ما طلبتِ".

قالت الفتاة: "شكرًا، يا صاحب الجلالة الإمبراطوري".

كرر الإمبراطور: "وعدتُكِ وسأفي بوعدي. وأظنّ أنّكِ اتخذتِ خيارًا خاطئًا. لقد أفصحتِ عن الأمنية الخطأ. إن بدّلتِ رأيك..."

سكت الإمبراطور حين لم يُكمل عبارته. قالت الفتاة: "لن أفعل. لماذا أفعل؟ لقد اخترتُ سيّدة ستيلا، واخترتُ أمورًا حرمتُ منها طويلًا في حياتي... بيتًا، ودفئًا، وطيبةً... ولطفًا. لا أظنّ أنني سأخطئ باختياري".

فكّر الإمبراطور إمير فار إمريس، اللهيب الأبيض الراقص فوق قبور أعدائه: "يا لها من كائنٍ مسكينٍ ساذج. قد تكون أسوأ الأخطاء كامنةً في مثل هذا الاختيار".

لكن شيئًا ما — ربما ذكرى بعيدة — منعه من التصريح بذلك.

* * *

علّقت نيمويه بعد أن استمعت إلى هذه الرواية: "حُلمٌ مثيرٌ للاهتمام. هل رأيتِ أحلامًا أخرى؟"

قالت كوندويرامورس وهي تزيح قشرة البيضة بحركةٍ حازمة بسكّينها: "أجل، والكثير! أشعر بدوارٍ في رأسي من زحمتها. لكن هذا طبيعي في الليلة الأولى؛ الأحلام تكون مشوّشة. أتعلمين يا نيمويه، يقولون عنّا نحن قارئات الأحلام إنّ موهبتنا لا تكمن في القدرة على الحلم؛ فلو تجاوزنا الرؤى التي تتوالى أثناء الغيبوبة أو التنويم الإيحائي، لوجدنا أنّ أحلامنا لا تختلف في كثافتها أو في محتواها الاستباقي عمّا لدى الآخرين. ما يُميّزنا حقًّا هو أننا نتذكّر أحلامنا. نادرًا ما ننسى ما رأيناه..."

قاطعتها سيّدة البحيرة: "بسبب اختلالٍ في عمل غددكِ الصمّاء. أحلامُكِ، إن شئنا تبسيطها، ليست سوى اندفاعٍ لهرمونات الإندورفين في الجسد. وكما أغلب المواهب السحرية الأصيلة، فإنّ أساسها

عضويّ. لكن ما بالُنا نتحدّث عن أمرٍ تعرفينه جيدًا؟ واصلي حديثكِ ما الأحلام الأخرى التي تتذكرينها؟"

قالت كوندويرامورس عابسةً: "رأيتُ فتىً يسير وحيدًا بين حقولٍ قاحلة، حامِلًا صُرّةً على كتفه. يبدو أنّها أواخر الشتاء أو بداية الربيع. صفوفٌ من صفصافٍ عاريةٍ فوق المسالك والحدود، فروعها ملتوية وعجفاء. تابع الفتى سيره، ثم أخذ الليل يُرخى سدوله وتطلّ النجوم في السماء. واحدةٌ منها تتحرّك إنّها مذنَّبٌ أحمر كشرارةٍ مائلةٍ إلى الأفق".

ابتسمت نيمويه: "جيّد. حتى لو لم أعرف مَن هو ذاك الفتى، نستطيع تحديد الزمان بدقةٍ بفضل المذنب الأحمر، إذ ظهر لستة أيامٍ في ربيع العام الذي وُقّع فيه سلام سينترا. تحديدًا في أوائل شهر مارس. هل ظهرت تواريخٌ مماثلة في أحلامٍ أخرى؟"

قالت كوندويرامورس بحدّة وهي ترش الملح على بيضتها: "أحلامي ليست مفكّرة مزارع، لا تحوي تواريخ مدوّنة! لكن، بوضوح، رأيت حلمًا عن معركة برينا بعدما تأمّلتُ لوحة نيكولاي تشيرتوزا في القاعة. وتاريخ معركة برينا معروفٌ، وهو أيضًا العام ذاته الذي شهد ظهور المذنَّب. ألستُ محقّة؟"

أومأت نيمويه: "صحيح. أكان في حلم المعركة شيءٌ مميّز؟"

قالت كوندويرامورس: "لا، سوى حشودٍ هائجةٍ من الخيول والبشر والأسلحة. الجنود يصيحون ويشتبكون، وشخصٌ — يبدو أنّه مغفّل — يصرخ (النسور! النسور!)"

سألت نيمويه: "وماذا أيضًا؟ قلتِ أنّك رأيتِ استعراضًا بأكمله من الأحلام".

تردّدت كوندويرامورس: "لا أتذكّر"...

ابتسمت نيمويه.

استدرجت كوندويرامورس أنفها للأعلى بعجرفة، مانعةً نيمويه من إبداء تعليقٍ لاذع: "طبعًا أنسى أحيانًا، فلا أحد كامل. ومرّةً أخرى، أحلامي رؤىً، وليست بطاقاتٍ مفهرسة"

قاطعتها سيّدة البحيرة: "أدرك ذلك. لسنا نختبر قدرتكِ على قراءة الأحلام، بل نحلّل الأسطورة وغوامضها وفجواتها. وقد حقّقنا تقدمًا لا بأس به. ففي أحلامكِ الأولى تعرّفتِ إلى تلك الفتاة في اللوحة، الشبيهة بسيري، التي حاول فيلغيفورتز أن يخدع بها الإمبراطور إمير".

انقطع حديثهما لحظةً بدخول الصياد إلى المطبخ. انحنى وحياهما، ثم تناول رغيفًا من الخبز ووعاء الحساء وحزمةً صغيرةً من القماش، وغادر، معيدًا الانحناءة ذاتها.

علّقت نيمويه ببرود: "يعرج كثيرًا؛ جُرِح إصابته خطيرة أثناء صيد خنزيرٍ بري. لذا يقضي جلّ وقته في القارب. عند التجديف وصيد الأسماك لا يزعجه جرحه. ينسى عاهته هناك. إنّه رجلٌ طيّبٌ حقًّا. وأنا..."

آثرت المبتدئة كوندويرامورس الصمت بأدب.

قالت الساحرة الصغيرة بصراحة: "أحتاج رجلًا".

فكّرت كوندويرامورس في نفسها: "وأنا أيضًا. وحالما أعود للأكاديمية، سأسمح لأحدهم بالاقتراب. العفة جيّدة، ولكن ليس لأكثر من فصلٍ دراسي".

تنحنحت نيمويه: "إن انتهيتِ من فطوركِ ومن شرودكِ، فلنذهب إلى المكتبة".

ثم أضافت نيمويه وهي تقلب صفحات ملفات تحوي ألوانًا مائيةٍ بنية (سيبيا): "لنعد إلى حلمكِ. تلك اللوحة... تذكّرين؟"

أخرجت نيمويه إحدى اللوحات وناولتِها لكوندويرامورس التي تعرّفت عليها فورًا.

قالت كوندويرامورس: "جلسة الإمبراطور في لوك غريم؟"

أومأت نيمويه: "بالتأكيد. الشبيهة تُقدَّمُ في البلاط الإمبراطوري. إمير يتظاهر بأنّه خُدع، ويحافظ على رباطة جأشه من أجل السفراء الشماليين الحاضرين للمشهد. كما ترين هنا، هناك دوقاتٌ من نيلفجارد تعرّضوا للإهانة؛ لقد رفض الإمبراطور بناتهم متجاهلًا مقترحاتهم لتكوين سلالاتٍ جديدة. يتهامسون غيظًا ويحيكون مؤامرة قتل. والشبيهة تقف برأسٍ محني، وقد رسمها الفنان بمنديلٍ يخفي ملامحها لزيادة الغموض.

"وما نعرفه عن الشبيهة المزيفة يظلّ مجهولًا؛ فنسخ الأسطورة لا تُخبرنا بمصير تلك الفتاة".

قالت كوندويرامورس بحزن: "يمكننا التكهّن أنّ مصيرها لم يكن حسنًا؛ فحين حصل إمير على الأصل – ونحن نعرف أنه حصل عليها – تخلّص من النسخة. لكن حين حلمتُ، لم أشعر بتلك المأساة؛ ولو كانت المأساة واقعةً، لشعرتُ بها. مع ذلك، قد لا تعكس أحلامي الحقيقة دائمًا؛ فأنا أحلم مثل أيّ إنسان، بالأمنيات والمخاوف"...

قالت نيمويه: "صحيح".

تحدّثتا حتى وقت الغداء، تتصفّحان مجلداتٍ ورسومًا. بدا أنّ الصياد كان موفقًا أيضًا في صيده؛ فالعشاء كان من سمك السلمون المشوي. وتكرّر الأمرُ في وجبة المساء.

لم تنم كوندويرامورس جيدًا تلك الليلة، فقد أكثرت من الطعام. لم ترَ أيّ أحلام. أحبطها ذلك قليلًا، لكن نيمويه لم تبدُ منزعجة. وقالت: "لدينا وقتٌ وفير، وليالٍ كثيرة أمامنا".

* * *

كانت في البرج عدة حمّامات مدهشة الفخامة، أرضياتها رخامية، وأنابيبها نحاسية تلمع، تُدفّأ بنظامٍ تحت الأرض.

أدمنت كوندويرامورس على إمضاء ساعاتٍ في الاسترخاء، وأحيانًا كانت تلتقي نيمويه في كوخٍ صغيرٍ من الخشب يُفتح رصيفه نحو البحيرة، حيث تدخلان غرفة بخار (السونا) صغيرة؛ تجلسان على مقاعدٍ خشبية مبلّلتين، تتنفسان البخار الذي يتصاعد من الحجارة كلّما رشتاها بالماء، تلوّحان بأغصان البتولا، ويتصبّب العرق منهما مالحًا.

قالت كوندويرامورس وهي تمسح وجهها: "لو فهمتُ جيدًا، فإنّ تدريبي هنا في إينيس فيتري يهدفُ إلى سدّ فجوات أسطورة الويتشر والفتاة الويتشر؟"

قالت نيمويه: "بالضبط".

تابعت كوندويرامورس: "وفي النهار، بتأمّل الرسوم والنقاش حولها، أشحن ذهني كي أرى ليلًا في أحلامي– أو أتنبّأ – بالنسخ الحقيقية المجهولة لما جرى".

اكتفت نيمويه بهز كتفيها دون كلام، ثم ضربت نفسها بالضغث عدّة مرّات، وقامت لتصبّ المزيد من الماء على الحجارة الحارّة.

غمرت دفقة البخار الغرفة، وخنقتهما الحرارة لحظات. وسكَبت نيمويه بقية الماء على جسدها من دلوٍ خشبيٍّ صغير. ثم تأمّلت كوندويرامورس قوام الساحرة؛ رغم قوامها الصغير، فهي متناسقةٌ تمامًا. كانت العشرينيّة لتغبطها على مفاتنها وبشرتها المشدودة. كوندويرامورس نفسها في الرابعة والعشرين وكانت تحسدها.

أردفت كوندويرامورس وهي تمسح وجهها المتعرّق: "لكن حتى لو عرفتُ شيئًا، كيف نضمن أنّ ما أراه في الحلم هو الحقيقة؟ أعرف كلّ النسخ الأدبية للأسطورة، من (نصف قرنٍ من الشعر) لدانديليون وحتى (سيّدة البحيرة) لأندري رافيكس، كما أعرف مؤلّفات جاري كبير الاحترام، عدا عن الإصدارات الشعبية. كل ذلك غرس آثارًا في عقلي تؤثر على أحلامي. فهل يمكنني اختراق ركام الروايات وأحلم بالحقيقة؟"

أجابت نيمويه وهي تُشير برأسها نحو قارب الصياد: "بلى، هناك إمكانية. ومثلما يفعل الصياد يرمي صنارته مرارًا ليصطاد أحيانًا الجذور والأعشاب والأحذية البالية وجثث الغرقى، لكن بين حينٍ وآخر قد يصيد شيئًا ثمينًا".

تنهدت كوندويرامورس وهي ترتدي ملابسها: "إذن نتمنّى حظًا موفقًا في الصيد. نُلقي بالطُعم وننتظر الحقيقة. نفكّك الأغطية وننفض البطانة وننقّر قاع الصندوق لعلّه مزدوج. وماذا لو لم نجده كذلك؟ مع احترامي، نيمويه، لسنا أول مَن يخوض هذه المياه. ما احتمال أن يكون قد بقيت سمكةٌ واحدة لفريقنا؟"

علّقت نيمويه بثقة وهي تُمشّط شعرها المبتل: "بقيت سمكةٌ بالطبع. ما عجزوا عن معرفته ملؤوه بالخيال الأدبي والألفاظ المنمّقة، أو طمروه في غموض. مثالٌ بسيط إقامة الويتشر في توسان. كلّ نسخ الأسطورة تختصر ذلك بعبارةٍ مقتضبة (أمضوا الشتاء في توسان). حتى دانديليون، الذي خصّص فصلين كاملين لذكرياته في تلك المقاطعة، تعمّد الغموض بشأن جيرالت. ألا ترين أنه يستحق أن نعرف ماذا جرى فعلًا في ذلك الشتاء؟ بعد الهروب من بيلهفن، واللقاء مع الإلف أفالاخ في أنفاق تيرنا بيا آرينه، والاشتباك مع الدرويد في كايد ميركفد؟ ماذا صنع جيرالت هناك من أكتوبر حتى يناير؟"

سخرت كوندويرامورس: "ما عساه يصنع؟ قضى الشتاء، فلم يكن يستطيع عبور الممرّ قبل ذوبان الجليد. لعلّه قضى وقته بالملل. لذا تجاوزت الروايات هذا المقطع بعبارة (انقضى الشتاء). حسنٌ، سأحاول أن أحلم بشيءٍ. هل لدينا صورٌ أو رسومات؟"

ابتسمت نيمويه: "بل لدينا رسمٌ على رسم".

* * *

كانت اللوحة الجدارية في كهفٍ ما تُصوّر مشهد صيد ثورٌ أرجوانيٌّ ضخمٌ يتبعه أُناسٌ هزيلون برماحٍ وأقواس، رسمت ضربات فرشاتهم بشكلٍ مهملٍ تقريبًا. بدا الثور مقلّمًا بخطوطٍ تشبه النمر، وفوق قرنيه اللذين يشبهان القيثارة كان يحوم شيءٌ شبيهٌ باليعسوب.

قال ريجيس وهو يهزّ رأسه: "إذن هذه هي اللوحة الجداريّة التي رسمها الإلف أفالاخ، ذاك الذي كان يعلم الكثير".

قال جيرالت ببرود: "نعم، إنها هي".

علّق ريجيس: "المشكلة أننا نقّبنا في الكهوف جيدًا ولم نعثر على أثرٍ للإلف ولا للبقية الذين ذكرتهم".

قال جيرالت: "لا بدّ أنهم كانوا هنا. لكنّهم اختفوا أو رحلوا".

علّق ريجيس بهدوء: "لا شكّ في ذلك. لا تنسَ أنك لم تُقبل على لقائهم إلّا بعد شفاعة الفلامينيكا[5]. يبدو أنهم قرّروا أنّ مقابلةً واحدةً تكفي. وبعد أن رفضت الفلامينيكا التعاون، لست أدري حقًّا ماذا يمكنك فعله. أمضينا اليوم كلّه نتجوّل في هذه الكهوف، ولا يبدو للأمر جدوى".

قال الويتشر بيأسٍ: "وأنا أيضًا لستُ أرى جدوى. لم أفهم يومًا الإلف. لكنني أعلم لماذا يكرههم الناس. لأنّهم — في أقوالهم وأفعالهم وأفكارهم — يبدون كأنّهم يسخرون منّا باستمرار".

علّق ريجيس: "ذاك إسقاطٌ إنسانيّ لديك".

---

[5] الكاهنة والقائدة الروحية للدرويد.

قال جيرالت: "ربما. لكن الانطباع باقٍ".

سأل ريجيس: "إذن ما العمل؟"

قال جيرالت: "نعود إلى كايد ميركفد حيث كاهير. لا بدّ أن الكاهنات عالجن جروحه. ثم نمتطي خيولنا بناءً على دعوة الأميرة آنا هنرييتا. لا تكشّر يا مصاص الدماء. ميلفا مصابةٌ بكسورٍ في أضلاعها، وكاهير شُجّت جمجمته، وقسطٌ من الراحة في توسان سيكون مفيدًا لهما. علينا أيضًا تخليص دانديليون من ورطته التي يبدو أنه غارقٌ فيها".

تنهد ريجيس: "لا بأس إذن. سأتفادى مرايا الكلاب وأحذر من السحرة والمتخاطرين الذهنيّين... وإن افتُضِحت أمري رغم ذلك، فأعتمد عليك".

أجابه جيرالت بجدية: "بالطبع. لن أتخلّى عنك، يا رفيق".

ابتسم مصاص الدماء، ولكونهما وحدهما أظهر أنيابه كاملة.

قال ريجيس: "رفيق؟"

علّق جيرالت: "هذا إسقاطٌ إنسانيٌّ آخر. هيا بنا يا رفيق، لنترك هذه الكهوف قبل أن نصاب بالروماتيزم".

قال ريجيس: "موافق. إلّا إذا... جيرالت؟ مقبرة الإلف تير نا بيا آرينه، وفق ما رأيت، تقع خلف تلك اللوحة الجدارية، مباشرةً. يمكننا الوصول إليها لو حطّمنا الجدار. ألم تفكّر في ذلك؟"

قال جيرالت: "لا. لم أفكّر".

* * *

نجح الصيّاد مجدّدًا في اصطياد الأسماك، فكانت سمكة الشار المدخّنة طبق العشاء. مذاقها شهيّ للغاية حتى إنّ الجميع نسي الاعتدال في الأكل. وأفرطت كوندويرامورس مجدّدًا في تناول الطعام.

تجشأت كوندويرامورس قليلًا أثناء مطالعتها لصفحات الكتاب: "حان وقت النوم." واكتشفت للمرة الثانية أنها تقلب صفحةً وراء أخرى دون أن تستوعب شيئًا. تثاءبت، ثم أغلقت الكتاب ووضعته جانبًا.

عدّلت وسائدها من وضعية القراءة إلى وضعية الاستلقاء، ثم أطفأت المصباح بسحرها. فغمرت الظلمة الغرفة، معتمةً كالقطران، إذ كانت الستائر الثقيلة من المخمل تُحكم حجب الضوء.

اعتادت كوندويرامورس أن الظلام الدامس يساعدها على الحلم بوضوح، وتساءلت: "ما الذي أفعله الليلة؟ هل أترك الأحلام تمضي أم أتعمّد تثبيتها؟"

تعلم قارئات الأحلام أنّنا لا نتذكر نصف أحلامنا النبوئيّة، ويظل معظمها شذراتٍ غامضةٍ تتغيّر ألوانها وأشكالها كأنها في كاليدوسكوب من المرايا وقطع الزجاج. ليس بالأمر السيئ إن كانت الصور عشوائيةً بلا معنى، إذ يمكن تجاهلها بالقول: "لم أتذكرها إذن لا تستحق العناء." تُسمّى تلك الأحلام لدى العرّافين "هراءً".

والأسوأ — وأكثر مدعاةً للحرج — هي "الطيفيات" أحلامٌ لا يتبقّى منها صباحًا سوى ومضاتٌ أو شذراتٌ دلاليّة، يرافقها إحساسٌ غامضٌ بأنّ رسالةً ما قد وردت. إن تكرر "الطيف" كثيرًا أيقن قارئ الأحلام أنه يحمل قيمةً تنبؤية. عندئذٍ يحاول تثبيته والتركيز عليه بهدف إعادة حلمه بدقّة وهو ما يُسمّى بـ"الاصطياد" مباشرةً بعد الاستيقاظ. وإن فشل، فيحاول بتقنيةٍ أخرى "(الرسوّ - Anchoring) "، أي التأمّل والتركيز قبل النوم لاستعادة الحلم نفسه.

بعد اثنتي عشرة ليلةٍ قضتها في الجزيرة، كانت كوندويرامورس قد رتّبت ثلاثة قوائم لأحلامها: قائمة ناجحة تفتخر بها أحلام "طيفٍ" استطاعت "اصطيادها" أو "رسوّها"، ومنها أحلام عن تمرد جزيرة ثانيد ورحلة الويتشر ورفاقه عبر عاصفة ممرّ مالوور ثم مطر الربيع في وادي سودوث. قائمة فشل لم تصارح بها نيمويه، وهي أحلام استعصت عليها وظلّت غامضة. ثم قائمة ثالثة أحلام في طور الانتظار.

وكان ثمة حلمٌ غريبٌ لكن لطيف، يتكرر في ومضاتٍ خاطفة، تتخلله أصواتٌ وديةٌ ولمساتٌ حريرية. حلمٌ حنونٌ دافئ.

فكرت كوندويرامورس وهي تطفئ ضوء المصباح: "حسنٌ، أنا جاهزة".

* * *

قالت كوندويرامورس في صباحٍ تالٍ وهي مستغرقةٌ في تأمل الأوراق: "أظنني عرفتُ ما كان يشغل الويتشر طوال شتائه في توسان".

رفعت نيمويه رأسها من فوق نظارتها ومن الكتاب الجلدي الذي كانت تقلّب صفحاته: "حقًّا؟ هل رأيتِ أخيرًا حلمًا واضحًا؟"

أجابت كوندويرامورس بثقة: "أجل! حلمتُ بالويتشر جيرالت وامرأةٍ سوداء الشعر قصيرة القَصّة وعيناها خضراوان. لا أدري من تكون، ربما الدوقة التي أشار إليها دانديليون في مذكراته؟"

قالت نيمويه وهي تبرد حماستها: "لا بدّ أنكِ لم تنتبهي، إذ وصف دانديليون الدوقة (آنا رييتا) بدقّة، وأجمعت المصادر على أنّ شعرها (كستنائيٌّ يلمع كأنه ذهب)".

أومأت كوندويرامورس: "إذن ليست هي. تلك التي رأيتُ شعرُها حالك السواد. وكان الحلم... آه... مثيرًا".

قالت نيمويه: "أنا أصغي".

تنهدت كوندويرامورس: "كانا يتحدّثان. لكن حوارهما لم يكن عاديًّا".

سألت نيمويه: "ماذا فيه من غرابة؟"

ابتسمت كوندويرامورس ابتسامةً خفيفة: "في معظم الوقت كانت ساقاها ملتفتتين حول كتفيه".

* * *

قالت المرأة في الحلم: "أخبرني، جيرالت، هل تؤمن بالحبّ من النظرة الأولى؟"

أجاب جيرالت: "وأنتِ؟"

قالت المرأة: "أؤمن بذلك".

قال جيرالت: "إذن هذا ما جمع بيننا انجذاب الأضداد".

قالت المرأة: "لا تكن ساخرًا".

علّق جيرالت: "ولمَ لا؟ يُقال إنّ السخرية دليل ذكاء".

قالت المرأة: "ليس صحيحًا؛ السخرية — رغم هالتها المتفلسفة — زيفٌ كريه. وأكره الزيف بكل أشكاله. وبالمناسبة... أخبرني، يا ويتشر، ما أكثر شيءٍ تحبّه فيّ؟"

قال جيرالت: "هذا".

قالت المرأة: "هبطتَ من السخرية إلى الابتذال. جرّب ثانيةً".

قال جيرالت: "أحبّ فيكِ عقلكِ وذكاءكِ وعمق روحكِ. استقلاليتكِ وحريّتكِ"

قاطعته المرأة: "لا أدري من أين تنبع هذا السخرية لديك"...

قال جيرالت: "إنها ليست سخرية. إنها مزحة".

اعترضت المرأة: "لا أطيق المزاح الثقيل، خصوصًا في وقتٍ غير مناسب. لكلِّ شيءٍ زمنه تحت الشمس. هناك وقتٌ للصمت ووقتٌ للكلام، ووقتٌ للبكاء ووقتٌ للضحك، ووقتٌ للبذر ووقتٌ لد اللمس، أعني الحصاد، ووقتٌ للمزاح ووقتٌ للجدّ..."

قاطعها جيرالت: "ووقتٌ للمداعبة الجسدية ووقتٌ للإحجام عنها؟"

صرخت المرأة: "يا لك من أحمق! تقبّل أنّ هناك وقتًا للإطراء؛ فالعلاقة الحميمية دون إطراء تصير محضَ فسيولوجيا، والفسيولوجيا سطحية. فأطرِني وامدحني"

قال جيرالت: "لا أحد بين الياروغا والبوينا، يمتلكُ مؤخرةً ساحرةً مثلكِ".

قالت المرأة باستياء: "تبا لك! تُقارنني بأنهارٍ همجيّةٍ صغيرةٍ شمالية؟ أما كان بوسعك قول (من ألبا إلى فيلدا) أو (من ألبا حتى سانسريتور)؟"

أجاب جيرالت: "لم أرَ نهر ألبا قط. لا أُصدر الأحكام إلا إذا اختبرتُ ذلك بنفسي".

قهقهت المرأة: "حقًّا؟ إذن لا بد أنك اختبرت ما يكفي من (المؤخرات) —أجل، هذا هو الموضوع — لتُطلق حُكمك! أجبني، أيها الأشعث! كم امرأةً عرفتَ قبلي؟ ها؟ أتحدث معك يا ويتشر! لا تتلوّى بلمساتك هذه، أريد إجابةً. كم امرأةً قبل أن تصل إليّ؟"

قال جيرالت: "لا واحدة. أنتِ الأولى".

فتمتمت المرأة: "أخيرًا".

* * *

حدّقت نيمويه طويلًا في لوحةٍ تُظهر عشر نساءٍ جالساتٍ حول طاولةٍ مستديرة، تغمرهنّ إضاءةٌ ناعمة.

قالت نيمويه بأسف: "يؤسفني أننا لا نعرف كيف بدون فعليًّا".

اعترضت كوندويرامورس: "الساحرات العظيمات؟ لدينا عشرات اللوحات لهن! في أريتوزا وحدها..."

قاطعتها نيمويه: "قلتُ (فعليًّا). لا أقصدُ الرسومات المجاملة التي نُقلت عن رسوماتٍ أكثر مجاملة. تذكّري أنّه مرّ زمنٌ شُوِّهت فيه سمعة الساحرات ورُمِين بالشائعات. ثم تبعته مرحلةُ الدعاية حين صارت الساحرات العظيمات، بمجرّد حضورهنّ، يثرن الخوف والتقدير معًا. لوحاتٌ بعنوان (لقاءات المجلس)، و(المؤامرات) و(الأديار)، تُظهر عشر نساءٍ مبهرات الجمال بنظراتهنّ المهيبة. لا وجود لرسوماتٍ أصيلةٍ حقيقيةٍ عدا استثناءين لوحة مارجريتا لوكس-أنتيل الناجية في أريتوزا بجزيرة ثانيد، ولوحة شيلا دي تانكارفيل في إينسينادا، لان إكزتر".

قالت كوندويرامورس: "أمّا لوحة فرانسيسكا فيندابير التي رسمها الإلف والمعلّقة في معرض فينغيربرغ؟"

قالت نيمويه: "مزيّفة. حين فتحوا البوابة وغادر الإلف، أخذوا معهم أو دمّروا كلّ أعمالهم. لا ندري إن كانت ديزي الأودية حقًّا بتلك الفتنة التي تزعمها الحكايات. ولا نملك فكرةً عن هيئة إيدا إيميَن. وبسبب اجتثاث صور الساحرات بعنايةٍ في نيلفجارد، لا نعرف كيف بدت أسّيري فار أناهيد ولا فرينغيلا فيغو".

علّقت كونديرامورس: "فلنفترض ونُجمع على أنّهنّ كُنَّ تمامًا كما صوّرتهنّ اللوحات — الوقار والهيبة والطيبة والذكاء وبعد النظر والنبل... والجمال الأخّاذ. لنتقبّل هذا حتى نستطيع مواصلة الحياة".

* * *

حوّلت أنشطة كوندويرامورس اليومية على جزيرة إينيس فيتري إلى روتينٍ رتيبٍ بعض الشيء. يبدأ حوارٌ طويلٌ حول أحلامها، من الفطور حتى الظهيرة. ثم تأخذ جولةً قصيرةً بعد الغداء، سرعان ما سئمت

تكرارها ففي ساعةٍ واحدةٍ تدور حول الجزيرة مرّتين صخورٌ الغرانيت، صنوبرٌ قزمي، حصى، محارات المياه العذبة، ماء وطيور نورس.

بعدها قيلولة ونقاشاتٍ تفصيلية حول المخطوطات والرسوم والخرائط، ونقاشٌ يمتدّ حتى الليل عن العلاقات المتشابكة بين الحقيقة والأسطورة.

وتأتي الليالي مع الأحلام. أحلامٌ متنوعة. بدأ الحرمان الجنسي يطرق ذهن كوندويرامورس؛ إذ بدلاً من حلّ ألغاز أسطورة الويتشر، رأت نفسها أحيانًا تحلم بالصيّاد في أوضاعٍ متعددة، من اللاجنسيّة تمامًا إلى الإباحية الصريحة. في أحد تلك الأحلام غير الجنسية، رأت الصيادّ يجرّها خلف قاربه بحبل. كان يجدّف ببطءٍ، فتغرق هي وتشرق بالماء، وفي جوفها رعبٌ من وحشٍ قادمٍ من قاع البحيرة لافتراس الطُّعم — أي هي — المدلاة خلف الزورق. على وشك أن يلتهمها حين زاد الصياد من سرعته، فنجت من فكّي المفترس الخفي. استمرت تشرق وتختنق بالماء حتى استيقظت.

وفي حلمٍ واضح الإيروتيكيّة، رأت نفسها جاثيةً في قاع القارب المتمايل، منحنيةً على حافته، بينما كان الصياد يُمسك كتفيها ويمارس معها الجنس بعنفٍ، يزمجر ويسعل ويبصق كما هي عادته. وسط نشوة الجسد، اعترتها فزعةٌ قاتلة ماذا لو ضبطتهما نيمويه؟ وظهرت فجأة صورة الساحرة الصغيرة تعوم على سطح الماء، فاستيقظت كوندويرامورس مرعوبةً مبلّلةً بالعرق.

نهضت كوندويرامورس وفتحت النافذة لتتنشّق هواء الليل وتتأمل ضوء القمر والضباب المنساب من البحيرة.

ثم عادت إلى النوم.

* * *

علّقت كوندويرامورس في سيرها حول البحيرة على شرفةٍ غريبة في البرج. لم تلحظ الأمر في البداية، ثم أثار فضولها أن الشرفة مُعلّقة فوق المياه ولا يمكن الوصول إليها من أي غرفة تعرفها.

تحسّبت كوندويرامورس أن للساحرات دهاليزهنّ الخفيّة. ولم تسأل، حتى حين رأت نيمويه هناك تراقبها. بدا أنّ الوصول إليها محظورٌ على غير المصرّح لهم. امتلأت كوندويرامورس بالإحساس بالمهانة، لكنها لم تُظهر ذلك. ولم يطل الوقت حتى انكشفت حقيقة الشرفة.

حدث ذلك بعد سلسلة أحلامٍ أثارتها رسومات ويلما ويسيلي، فقد خصّصت الفنانة تلك كل أعمالها لفترة (برج السنونو) الخاصة بسيري.

قالت كوندويرامورس صباحًا: "أحلامي غريبةٌ بعد مشاهدتي لتلك اللوحات؛ أرى فقط لوحات. سيري على شرفات البرج... لكنني أراها رسمةً واحدةً جامدةً".

سألتها نيمويه: "ألا تشعرين بشيءٍ آخر؟ أحاسيس سمعية أو لمسية أو شمّيّة كما هي عادتك؟"

هزّت كوندويرامورس رأسها: "لا، فقط فكرة تسيطر عليّ هنا، عند هذه البحيرة، في هذا البرج، لستُ سيدة المكان بل أسيرة".

قالت نيمويه: "اتبعيني".

* * *

اتضح أن الطريق إلى تلك الشرفة يمر حصرًا بغرف نيمويه الخاصة؛ كانت نظيفةً جدًا ومرتبةً حدّ الوسواس، تعبق برائحة خشب الصندل والمرّ والخزامى والنفثالين. عبرتا بابًا صغيرًا يقود إلى درجٍ حلزونيٍّ ضيقٍ ينحدر للأسفل.

في الغرفة التي وصلتا إليها — على خلاف بقية الغرف— لم تكن هناك ألواحٌ خشبية ولا أقمشة ثقيلة، بل طُليت باللون الأبيض، ما أكسبها إشراقًا. يتضاعف النورُ بفضل نافذةٍ أو بابٍ زجاجيٍّ بعرض ثلاثة أجزاء يُفضي مباشرةً إلى الشرفة المعلّقة فوق البحيرة.

لم يكن فيها سوى مقعدين ومرآةٍ ضخمة ذات إطارٍ بيضاويٍّ من الماهوغوني، وشيءٌ يشبه حاملًا أفقيّ العارضة تتدلّى عليه قطعةُ نسيجٍ كبيرة خمسُ أقدامٍ عرضًا وسبعُ أقدامٍ طولًا، يتلامس هدبها مع الأرض. تُصوّر اللوحة منحدرًا صخريًّا مطلًا على بحيرةٍ داكنة، وبدا كأنّ القلعة منحوتةٌ في الجرف، حتى بدت جزءًا من جدرانه الحجرية. قلعةٌ عرفتها كوندويرامورس من صورٍ كثيرة.

قالت كوندويرامورس: "قلعة فيلغفورتز، حيث احتُجزت ينيفر. الموضع الذي انتهت عنده الأسطورة".

أومأت نيمويه: "صحيح. انتهت الأسطورة هناك، في نسخها المعروفة. هكذا نعرفها ونظنّ أننا نعرف ختامها. هربت سيري من برج السنونو — حيث حبسوها، كما رأيتِ في أحلامكِ — وحين أدركت ما

كانوا ينوون فعله، فرّت. لكنّ الأسطورة — برواياتها العديدة — لم توضّح كيف انتقلت من برج السنونو إلى قلعة فيلغفورتز مباشرةً".

قاطعتها كوندويرامورس: "أكثر ما أفضّله روايةٌ تقول إنّها ألقت خلفها مشطًا وتفاحةً ومنديلًا"...

قالت نيمويه بحزم: "كوندويرامورس"!

اعتذرت كوندويرامورس: "عذرًا".

تابعت نيمويه: "هناك تفسيراتٌ كثيرة لفرارها، لكن ما زال غامضًا كيف وصلت قلعة فيلغفورتز من برج السنونو. لم تتمكّني من حلم البرج، أليس كذلك؟ جرّبي إذن القلعة. تأمّلي النسيج بعناية... أصغي لكل تفصيلٍ فيه بتركيز. أريدكِ أن تصلي إليه في حلمكِ، وتدخليه. هذا مهمّ".

سألت كوندويرامورس وقد وقعت عينها على المرآة البيضاوية: "هل هذه المرآة سحرية؟"

قالت نيمويه بسخرية: "لا. أستعملها لعصر البثور".

احمرّت كوندويرامورس خجلًا: "عذرًا".

أوضحت نيمويه: "إنها مرآة هارتمان. انظري فيها لو رغبتِ، لكن بحذر".

تساءلت كوندويرامورس منفعلة: "حقًّا يمكنني عبور العوالم من خلالها؟"

أكدت نيمويه: "أجل. لكن ليس فورًا، بل بعد تحضيرٍ وتأمّل وتركيزٍ وأمور أخرى كثيرة. حين طلبتُ منك الحذر فلأمرٍ آخر".

سألت كوندويرامورس: "ما هو؟"

أجابت نيمويه: "العبور ثنائيّ الاتجاه؛ شيءٌ من الطرف الآخر قد يخرج إلينا أيضًا".

قالت كوندويرامورس وهي تنظر نحو النسيج: "أشعر أنّ هذه القلعة"...

قاطعتها نيمويه: "رأيتِ أحلامًا عنها؟"

أومأت كوندويرامورس: "نعم، لكنها غريبة — أرى المنظر من الأعلى كأني طائر... لا أستطيع الدخول؛ كأنّ شيئًا يمنعني".

قالت نيمويه: "انظري للنسيج بتركيزٍ أكبر. احفري في ذاكرتكِ. أريدكِ أن تحلمي بدخولكِ إليها من الداخل. هذا ضروري".

* * *

لا بدّ أنّ عاصفةً عاتيةً أقرب إلى الشيطانية كانت تعصف في الخارج، خلف جدران القلعة. في الموقد، كانت النار تزأر، تلتهم قطع الحطب بسرعة. كانت ينِّفر تغتبط بالدفء. صحيحٌ أنّ سجنها الحالي كان أكثر دفئًا بكثير من الزنزانة الكالحة والرطبة التي قضت فيها الشهرين الماضيين، بيد أنّ أسنانها كانت ما تزال تصطكّ رغم شعورها بالسعادة. لقد فقدت إحساسها بالزمن تمامًا، ولم يكلّف أحدٌ نفسه عناء إبلاغها بالتاريخ، غير أنّها كانت على يقينٍ بأنّ الوقت قد يكون ديسمبر، أو ربما يناير.

قال فيلغيفورتز: «كُلي يا ينِّفر. لا تتردّدي، التهمي الطعام.»

لم تَهُمَّ ينِّفر بأن تتردّد. وإن كانت تتعامل مع الدجاجة ببطءٍ وعسرٍ، فلأنّ أصابعها التي كادت تلتئم بالكاد ما زالت متيبّسة وغير مرنة. كان حمل السكين والشوكة يُرهقها، ولم ترغب في الأكل بيدها مباشرةً — أرادت أن تبيّن لفيلغيفورتز وللآخرين ممن يجلسون على المائدة، ضيوف الساحر، أنّها أقوى مما يظنّون. لم تكن تعرف أياً منهم.

قال فيلغيفورتز وهو يداعب ساق كأس النبيذ: «يؤسفني حقًا أن أنقل إليك هذا النبأ، يا ينِّفر، لكنّ سيرِي، طفلتك بالتبنّي، قد فارقت الحياة. وأنتِ وحدك من تتحمّلين المسؤولية، يا ينِّفر، أنتِ وإصرارك الخالي من المنطق.»

عطس أحد الضيوف — رجل قصيرٌ أسود الشعر — بصوتٍ عالٍ، ثم نفخ أنفه في منديلٍ كتّانيّ. بدا أنفه محمرًّا ومتورّمًا، وواضحٌ أنّه مسدود تمامًا.

قالت ينِّفر وقد تجاهلت نبرة فيلغيفورتز المُهيبة تمامًا: «صحةٌ طيّبة. أين التقطتَ مثل هذا الزكام الفظيع يا هذا؟ هل وقفت في تيارٍ بارد بعد استحمامك؟»

فجأةً قهقه ضيفٌ آخر، طويلٌ وضخمٌ وهزيلٌ في آنٍ معًا، تتسم عيناه بشحوبٍ مخيف. أمّا المصاب بالزكام، ورغم أنّ وجهه انقبض من الغضب، فقد شكر الساحرة بانحناءةٍ وجملةٍ قصيرةٍ مليئةٍ بالبلغم. لم تكن قصيرةً بما يكفي كي لا تتعرّف ينِّفر على لكنةٍ تنتمي إلى نيلفجارد.

التفت فيلغيفورتز نحوها. لم يكن يرتدي بعد على رأسه ذلك الهيكل الذهبيّ أو العدسة البلورية في تجويف عينه، غير أنّ مظهره كان أشدّ رعبًا ممّا بدا عليه في الصيف حين رأته لأوّل مرةٍ ووجهه مُشوَّه. عينه اليسرى التي تجدّدت صارت تعمل، لكنّها كانت أصغر بكثير من اليمنى، وقد أفزعها المنظر لوهلةٍ حتى انحبس أنفاسها.

قال فيلغيفورتز ببطء: «أنتِ، يا ينِّفر، لا شكّ تظنّين أنني أكذب، أو أحاول استدراجك وخداعك. ولِمَ أفعل ذلك؟ لقد حزِنتُ بقدر حزنك على نبأ موت سيرِي. بل أكثر منك، في واقع الأمر، فقد عقدتُ عليها آمالًا محددة، ورسمتُ خططًا كان مصيرها أن تحدّد مستقبلي. لكنّ الفتاة ماتت، فانهارت خططي.»

قالت ينِّفر وهي تحاول تثبيت السكين في يدها المتصلّبة لتقطّع قطعة لحم الخنزير المحشوة بالبرقوق: «جيّد.»

تابع الساحر حديثه، متجاهلًا ملاحظتها: «لكن اعلمي، يا ينِّفر، أنّ رابطتكِ بسيرِي لا تزيد عن تعلّقٍ عاطفيّ عقيم، تتداخل فيه مشاعر الندم بسبب عقمك أنتِ نفسه، مع إحساس بالذنب. نعم، الذنب! فقد شاركتِ في عمليّة التهجين تلك، وفي تكوين النسل الذي أدّى إلى ولادة سيرِي الصغيرة. ثمّ نقلتِ عاطفتك إلى ثمرةِ تجربةٍ جينيّةٍ فاشلة، لأن منفّذيها لم يمتلكوا المعرفة الكافية.»

رفعت ينِّفر كأسها له بصمت، متمنّيةً ألّا تنزلق الكأس من بين أصابعها. صارت على يقين من أنّ اثنتين على الأقل من أصابعها ستظلان متيبّستين مدةً طويلة وربما للأبد.

زمجر فيلغيفورتز: «لقد فات الأوان الآن، ما حدث قد حدث. ولكن اعلمي، يا ينِّفر، أنّني أمتلك المعرفة. ولو أنّ الفتاة وقعت في يدي، لاستطعتُ توظيف تلك المعرفة. وما أسوأ حظك، لأنني كنتُ سأمنحك ما يبرّر غريزتك الأموميّة المبتورة. فعلى الرغم من أنّكِ قاحلة كالحجر، إلّا أنكِ كنت ستظفرين بابنة، بل وربما بحفيدة أيضًا. أو على الأقل بشيءٍ يقوم مقام حفيدة.»

استخفّت ينِّفر بالقول بشهقةٍ ساخرة، مع أنّ الغضب كان يغلي بداخلها.

قال الساحر بنبرة باردة: «وإمعانًا في إفساد مزاجك يا عزيزتي، أظنّكِ ستشعرين بالحزن حين تعلمين أنّ الويتشر، جيرالت من ريفيا، قد مات أيضًا. أجل، إنه الويتشر نفسه الذي كنتِ ترتبطين به، كما بسيرِي، برابطةٍ عاطفيةٍ مزيّفةٍ، سخيفةٍ، وحلوةٍ مقزّزة. اعلمي يا ينِّفر أنّ ويتشرنا العزيز قد فارق هذه الحياة بطريقةٍ ناريّةٍ ومذهلة. وفي هذه المرّة، لا داعي لأن تلومي نفسك. فلستِ مسؤولةً أبدًا عن موته. أنا المسؤول عن ذلك برمّته. جرّبي الإجاص المخلّل، إنّه لذيذٌ حقًّا.»

عندها التمعت عينا ينِّفر البنفسجيتان ببغضٍ بارد. انفجر فيلغيفورتز ضاحكًا.

قال: «أفضّللكِ هكذا. ولولا سوار الديميريتيوم الذي ترتدينه لكنتِ أحلتِني رمادًا بلحظة. لكنّ الديميريتيوم يعمل الآن، فلا تستطيعين سوى إحراقي بنظراتكِ.»

عطس الرجل المصاب بالزكام مجدّدًا، ثمّ نفخ أنفه وسعل حتى ترقرقت الدموع في عينيه. حدّق الضخم شاحب العينين في الساحرة بنظرةٍ باردةٍ حاقدة، ثمّ ابتسم ابتسامةً شنيعة.

قالت ينِّفر وهي تمطّ الكلمات: «وأين السيّد رينس؟ السيّد رينس الذي وعدني بالكثير، وأسمعني كيف سيفعل بي ما سيفعل؟ وأين السيّد شيرّو الذي لم يفته يومًا رفسي أو ركلي؟ لماذا صار الحُرّاس الذين كانوا حتى وقتٍ قريب يتعاملون معي بجلافةٍ، فجأةً أكثر أدبًا؟ كلا، فيلغيفورتز، لستَ مضطرًا للإجابة. لأنني أعلم. كلّ ما قلتَه ليس إلّا كذبةً كبرى. سيرِي أفلتت من قبضتك، وجيرالت أفلت منك هو الآخر، بعدما لقّن بلطجيك درسًا دامغًا على الأرجح. فما الوضع الآن؟ خططك انهارت وتحوّلت إلى غبار، وأنت بنفسك اعترفت بذلك، أنّ أحلامك عن السلطة تبخّرت كالضباب. ولعلّ السحرة وديكسترا الآن يضيّقون الخناق عليك. ولستَ تتوقّف عن تعذيبي وإجباري على الاعتراف بالمعلومات إلّا لأنّك تشعر فعلًا بأنّك محاصر. والإمبراطور إمير يشدّد قبضته من حولك ولاريب أنّه في غاية الغضب. ("إيس أ تيرث، مي تيارن؟ أَبليني أ كاليس، إلِيا؟) تظن أنهما ماتا؟ أنت أعمى، فيلغيفورتز .نهايتك قادمة، وسأتأكد من ذلك»

قال ستيفان سكِيلين، وهو يحافظ على نظراته في عينيها: «أتحدّث اللغة العامية المعروفة، أعرفك بنفسي اسمي ستيفان سكِيلين. ولستُ على الإطلاق ممّن يرتعدون رعبًا. بكل المعاني أقولها واثقاً إن وضعي الآن لا شك أفضل من وضعك يا سيدتي ينِّفر.»

بدا أنّ الكلام قد أتعبه، إذ عاود السعال ونفخ أنفه في منديله القماشي الغارق في البلغم.

ضرب فيلغيفورتز المائدة بكفّه.

قال: «كفى عبثًا. اعلمي يا ينِّفر أنّكِ لم تعودي ذات جدوى لي. وبحسب المبدأ، ينبغي أن أطلب وضعكِ في كيسٍ وإغراقكِ في البحيرة، بيد أنني لا ألجأ إلى مثل هذه الأساليب إلّا في أقصى الضرورات. لذا ستبقين منعزلةً رهن الاحتجاز حتى تتهيّأ الظروف أو تُجبرني على قرار آخر. لكنني أحذّركِ ألّا تُسبّبي مشكلات بعد الآن. إن خطر لكِ الإضراب عن الطعام مرةً أخرى، فاعلمي أنني لن أضيّع وقتي في إطعامك بالقوّة كما فعلت في أكتوبر، سأدعكِ تموتين جوعًا ببساطة. أما محاولة الهروب، فقد تلقّى الحرّاس أوامر واضحة بشأنها. والآن، وداعًا. هذا طبعًا إن كنتِ قد شبعت...»

قالت ينِّفر وهي تنهض وتقذف بمنديلها على المائدة: «لا. ربما كنتُ سآكل المزيد، لكنّ صحبتكم تنغّص عليّ الشهية. وداعًا أيها السادة.»

عطس ستيفان سكِيلين وسعل بعنف. أمّا الضخم شاحب العينين فحدّق فيها بنظرةٍ شرّيرةٍ وابتسم ابتسامةً مرعبة. التفت فيلغيفورتز جانبا.

وكما تفعل كل مرّة حين تُساقُ إلى الزنزانة أو منها، حاولت ينِّفر أن تستشفّ أيّ معلومات قد تفيدها في خطّة الهرب. لكنّها كانت دائمًا تُمنى بالخيبة. فلا نوافذ في القلعة تسمح لها برؤية ما حولها أو تمييز موضع الشمس. وكان التخاطر مستحيلًا، فيما سوارا الديميريتيوم الثقيلان وطوق عنقها المعدني يخمدان أي محاولة سحرية.

أما الغرفة التي حُبست فيها فكانت باردةً وجافةً أشبه بزنزانة ناسك. ومع ذلك، لا تنسى ينِّفر كم كانت سعيدة يوم نقلوها من الزنزانة المظلمة إلى هذه الغرفة. تلك الزنزانة التي كانت أرضيتها غارقةً في مستنقعٍ كريه، وجدرانها تفور بالأملاح، فضلاً عن الجرذان التي كانت تنتزع بقايا الطعام من بين أصابع يديها الممزّقة. وعندما فُكّت قيودها بعد شهرين، وقادوها لتستحمّ وتبدّل ثيابها، شعرت بسعادةٍ غامرة. بدت لها الغرفة التي نُقلت إليها حينذاك وكأنّها جناحٌ ملكيّ، والحساء الخفيف الذي قدّموه طعامًا يناسب مائدة أباطرة. ولكن سرعان ما أدركت أنّ الحساء لم يكن سوى ماءٍ آسنٍ، وأنّ فراشها القاسي ما يزال قاسيًا، وأنّ السجن يظلّ سجنًا. سجنًا باردًا ضيّقًا، لا يتطلّب منها أكثر من أربع خطوات حتى تبلغ الجدار.

شتمت ينِّفر سرًّا وتنهدت، ثم جلست على الكرسيّ ذي الأرجل المتصالبة، وهو القطعة الوحيدة التي أمكنها استخدامها غير الفراش. دخل شخصٌ بهدوءٍ حتى كادت لا تسمع خطاه.

قال: «اسمي بونهارت. أنصحكِ بأن تحفظي هذا الاسم جيدًا، أيتها الساحرة. واحفريه في ذاكرتكِ.»

ردّت ينِّفر بغلظة: «انصرف عن وجهي، أيها الخنزير.»

قال وهو يصرّ على أسنانه: «أنا صيّادُ رجال. نعم، أصغي جيدًا يا ساحرة. في سبتمبر، قبل ثلاثة أشهر، طاردتُ فتاتكِ الصغيرة في إيبينغ، سيرِي ذات الشعر الرمادي، المتدرّبة في كاير مورهن. أجبرتُها على القتال في الحلبة، لقتل الناس على هتاف الجمهور وصراخه. شيئًا فشيئًا، حوّلتُها إلى وحش. استخدمتُ السوط والركلات ولكمات القبضة في تدريبها. استغرقت العمليّة وقتًا طويلًا. لكنها هربت مني، تلك الأفعى خضراء العينين.»

شهقت ينِّفر في داخلها بصمت.

سبتمبر، في إيبينغ. أمسك بها؟ لكنها ليست هنا. ربما يكذب.

تابع بونهارت: «فرّت إلى المجهول. لكننا سنلتقي من جديد، أنا واثق من ذلك. وإن كنت نادمًا على شيء، فهو فقط أنْ حرقوا ويتشرِكِ، جيرالت، في النار. كنتُ لأسرّ كثيرًا لو جعلته يتذوّق نصلي، ذلك المسخ اللعين.»

استخفّت ينِّفر بشخيرٍ متعالٍ:

قالت: «اسمع يا بونهارت، أو أيًّا يكن اسمك. لا تُضْحكني، لا تُوازي الويتشر في شيء. أنت — كما قلتَ بنفسك — كلبٌ صائدٌ لصغار الكلاب الضالة. لن تصلح لشيءٍ غيرها.»

عندئذٍ فتح بونهارت قميصه ونزع ثلاث قلائد فضية تتدلى من سلاسل تشابكت. كانت إحداها بهيئة رأس قط، والثانية تمثّل نسرًا أو غريفونًا، أمّا الثالثة فلم تميّزها جيدًا، لكنها بدت وكأنّها ذئب.

قالت بسخريةٍ مصطنعة: «أسواق البلاد مملوءةٌ بهذه الحليّ.»

قال: «هذه ليست من الأسواق.»

ردّت: «حقًا؟»

همسّ بونهارت: «قديمًا، كان الناس المحترمون يرتعبون من الويتشر أكثر من الوحوش؛ إذ إنّ الوحوش كانت تختبئ في الأحراج، بينما الويتشر يجول في المعابد والمحاكم والمدارس حيث يتواجد الأطفال. رآه الناس فضيحةً لا تُحتمل. فبحثوا عمّن يتكفل بوضع الويتشر عند حدّه. ووجدوا ضالتهم بي ولم يكن ذلك سهلًا ولا قريبًا. كما ترين، قنصتُ ثلاثةً منهم، ولم يظهر آخرون في النواحي ليُقلقوا راحة الناس المحترمين. وإن ظهر أحدهم، فسأصنع به ما صنعتُ مع الآخرين.»

قالت ينِّفر باستخفاف: «في أحلامك؟ هل أطلقتَ النبال من مكمنك؟ أم دسستَ لهم السمّ؟»

أعاد بونهارت الميداليات إلى الداخل وتقدّم خطوتين نحوها.

قال: «أنتِ تَغيظينني، أيتها الساحرة.»

قالت: «ذاك ما أردتُه بالضبط.»

زمجر بونهارت: «أجل؟ سأريكِ حالًا، أيتها العاهرة، أنّني قادر على مجاراة عشيقكِ الويتشر في كل ميدان. لا، بل ربما أتفوّق عليه.»

* * *

ارتاع الحراس الواقفون خلف الباب لسماع جلبة الارتطامات والضربات والتهشيم والعواء والعويل. ولو أنّهم صادفوا يومًا سماع صراخ نمرٍ عالقٍ في فخّ، لأقسموا أنّ نمرًا كان في الزنزانة.

ثمّ وصلَت إلى مسامعهم زئيرٌ مُفزِع، فكان أشبه بصوت أَسَدٍ جريح. ومع أنّهم لم يسمعوا صوت أسدٍ قطّ من قبل، بل اكتفوا برؤية صورة أسدٍ على شارات النبلاء، فإنّهم تبادلوا النظرات وأومؤوا برؤوسهم لبعضهم. ثمّ اندفعوا إلى الداخل.

كانت ينِّفر تجلس في زاوية الحجرة بين بقايا فراشها. شعرُها منفوش، وثوبُها وقميصها ممزّقان من أعلاهما إلى أسفلهما، فيما كانت ثدياها الصغيران يعلوان ويهبطان مع أنفاسها الثقيلة. كان الدم يقطر من أنفها، ووجهُها بدأ ينتفخ سريعًا، فيما ظهرت على ذراعها اليمنى آثار خدوشٍ تنمو كعلاماتٍ حمراء تركتها الأظافر.

أمّا بونهارت فكان جالسًا على الجانب الآخر من الحجرة وسط حطام كرسيّ، قابضًا بكلتا يديه على موضع حسّاس من جسده. وكان الدم يقطر من أنفه أيضًا، ملوّنًا شعر وجهه الرمادي بلونٍ قرمزيٍّ داكن. تقاطعت على وجهه جروحٌ دامية من أثر الخدوش. لم تكن أصابع ينِّفر التي التأمت بالكاد سلاحًا ناجعًا، لكنّ مواضع أقفال سوارَي الديميريتيوم كانت حادّةً بما يكفي.

كان سنّا الشوكة التي اختلستها ينِّفر عن المائدة في وقت العشاء مغروزين بعمق في عظم خدّ بونهارت المتورّم، متوازيين ومتساويين.

لهثت ينِّفر وهي تحاول ستر صدرها بما تبقى من ثوبها: «كلابٌ صغيرة فقط، يا صائد الكلاب. وإياك أن تقترب من النساء بعد اليوم. فأنتَ أضعف من أن تواجههنّ، أيها القزم.»

لم تغتفر لنفسها أنّها لم تُصِب موضع عينه كما أرادت. بيد أنّ الهدف كان متحركًا، وليس أحدٌ معصومًا من الخطأ.

عندها زمجر بونهارت، ووقف نازعًا الشوكة من خدّه، صارخًا من وطأة الألم، يترنّح. وشرع يطلق شتائم مروّعة.

وفي تلك الأثناء أطلّ حارسان آخران من باب الزنزانة.

صاح بونهارت وهو يمسح الدم عن وجهه: «هيه، أنتما هناك! ادخلا! اطرحا هذه العاهرة أرضًا، وافردا ذراعيها وساقيها وأمسكاها جيّدًا.»

نظر الحرّاس أحدهما إلى الآخر، ثمّ تطلّعا إلى الأرض فالسقف.

قال أحدهما: «الأفضل أن تغادر، يا سيّد. لن نطرحها أرضًا ولن نمسك بها. فهذا ليس من صُلب مهامنا.»

تمتم الآخر: «وفضلًا عن ذلك، لا نريد أن نلقى مصير رينس أو شيرّو.»

* * *

وضعت كوندويرامورس اللوحة الخشبية جانبًا، وهي تُصوّر زنزانةً تحتجز فيها امرأة مقيّدة بسلسلةٍ إلى جدارٍ حجري.

تمتمت كوندويرامورس: "لقد سُجِنت ينيفر، فيما الويتشر كان يستمتع في توسان مع امرأة سمراء..."

سألتها نيمويه بنبرةٍ صارمة: "أتدينينه؟ وأنتِ لا تعرفين شيئًا تقريبًا؟"

ردت كوندويرامورس: "لا أدينه، لكن..."

قالت نيمويه: "لا يوجد (لكن). اصمتي من فضلك".

عمّ الصمت قليلًا وهما تقلّبان النقوش والرسومات.

أشارت كوندويرامورس إلى لوحةٍ حفرية: "جميع نسخ الأسطورة متفقة أن النهاية كانت في قلعة (رييس رون)، حيث المعركة الحاسمة بين الخير والشر أرمجدون. إلا نسخةً واحدة".

أومأت نيمويه: "صحيح. ما عدا نسخةً مجهولة المؤلف، غير شعبيةٍ جدًا، تُعرف باسم (الكتاب الأسود لإيلاندر)".

قالت كوندويرامورس: "يقول ذلك الكتاب إن ختام الأسطورة حدث في قلعة (ستيغا)".

أكدت نيمويه: "نعم، ويعرض الكتاب قراءةً مختلفة تمامًا عن النسخة المعتمدة".

سألت كوندويرامورس: "أيّ القلعتين تصوّرها رسوماتنا؟ وأيّهما تظهر في النسيج الذي تملكينه؟ وأيّ رسمٍ أقرب للحقيقة؟"

قالت نيمويه: "لا نعلم ولن نعلم؛ فالقلعة التي جرت فيها الخاتمة دُمِّرت تمامًا ولم يبق لها أثر. اتفقت كلّ الروايات حتى — كتاب إيلاندر — على ذلك. لا مواقعَ موثوقةً تُثبت أين وُجدت القلعة، أو كيف بدا شكلها".

قالت كوندويرامورس وكأنها تنتظر جوابًا: "لكن الحقيقة..."

قاطعتها نيمويه: "ما جدوى الحقيقة؟ لا تنسي أننا لا نعرف الشكل الحقيقي لسيري. ومع ذلك، انظري هنا في ورقةٍ رسمتها ويلما ويسيلي، تظهر فيها سيري تتشاحن مع الإلف أفالاخ أمام منحوتاتٍ مروّعة لأطفالٍ مشوّهين. إنّها سيري بلا ريب".

احتدت كوندويرامورس: "ولكن ذاك النسيج..."

أجابتها نيمويه: "يُظهر القلعة التي شهدت ذروة الأسطورة".

ساد صمت، بينما تقلبان أوراق الرقّ بحذر.

قالت كوندويرامورس عابسة: "لا أرتاح لنسخة الكتاب الأسود؛ إنّها..."

أكملت نيمويه بواقعية: "وحشيّة الصدق".

تثاءبت كوندويرامورس، ثم وضعت نسخةً من (نصف قرنٍ من الشعر) في موضعها. رتبت وسائدها من وضعية القراءة إلى الاستلقاء، وأطفأت المصباح. غرقت الغرفة في الظلام عدا بعض أشعة القمر التي تتسلل من بين الستائر الثقيلة. تساءلت: "أيّ نهجٍ أتبع الآن؟ هل أترك الأمور تنساب أم أحاول التثبيت؟"

بعد وهلةٍ قصيرة، قرّرت الخطة الأخيرة.

* * *

كان حلمًا مبهمًا متكررًا تعجز عن رؤيته حتى النهاية؛ ينحلّ في زحام أحلامٍ أخرى كمثل خيطٍ في نسيجٍ ملوّن. يتلاشى من الذهن لكنه يظلّ قابعًا هناك بعناد.

وما إن أغمضت عينيها حتى غشاها الحلم

سماءٌ ليليةٌ صافيةٌ يتلألأ قمرُها ونجومُها. تلالٌ تنمو على سفوحها كرومُ العنب وقد غطّاها الثلج بخفة. يظهر طيف جدارٍ مسننٍ وبرجٍ وحيدٍ كبرجٍ للحراسة.

فارسان اثنان يتقدمان إلى ما وراء الجدار الخارجي، يترجلان، يدخل أحدهما بوابةً تفضي إلى قبوٍ مظلمٍ في الأرض.

إنه الأشيب، ذو الشعر الأبيض بالكامل.

تأوّهت كوندويرامورس في نومها. رأت الرجل ينزل عتباتٍ طويلةً في عمق السراديب. يمشي في ممراتٍ مظلمة، يشعل مشاعلًا مثبتةً في مشابكٍ حديدية. تملأ ظلالٌ مخيفةٌ الجدران والقِباب.

ممراتٌ وسلالم، ثم قبوٌ ضخمٌ تتراص براميل على جوانبه. ركامٌ حجري، أكوامٌ من الطوب. أخيرًا ممرٌ يتشعّب إلى فرعين، وهما غارقان في الظلام. يوقد الرجل الشعلة الثانية ويستلّ سيفه من على ظهره. يتردّد وهو يختار أيّ فرعٍ يسلك، فيتجه يمينًا ممرٌّ متلوٍّ مليءٌ بالأنقاض.

تقلّبت كوندويرامورس وهي تتنهّد في حلمها. خوفٌ يتسلل إلى قلبها. كانت تعرف أنّ الطريق الذي سلكه يقود إلى الخطر... وتعِي في الوقت ذاته أنّ الويتشر يبحث عن الخطر، فهذا عمله.

أرادت القارئة للصراخ، تحذيره: "حذارِ! خلفك!" لكنها تعلم أن لا صوت لها في الحلم.

"انتبه، يا ويتشر"!

باغته الوحش من العتمة، من مكمنٍ صامتٍ مهول. انبثق من المجهول كالشرارة المتقدة. مثل لسان لهب.

"على الرغم من عجلته وإلحاحه وغضبه وثورته، أمضى الويتشر الشتاء كلّه تقريبًا في توسان. لمَ حصل ذلك؟ لن أكتب عنه. انتهى الأمر، ولا فائدة من الخوض فيه.

ومن يُريد أن يلوم الويتشر، أذكّره بأنّ للحبّ وجوهًا كثيرة، فلا يحكم بشدة لئلّا يُدان بنفسه".

نصف قرنٍ من الشعر - دانديليون، الفصل الثالث

الفصل الثالث

هاجم الوحشُ من الظلام من كمينٍ صامتٍ ومريع، فجأةً ظهر في الظلمة مثل شرارةٍ مشتعلةٍ تتفجّر كلسان لهبٍ.

تفاجأ جيرالت، لكنّه تحرّك بغريزته؛ فانحرف ملتَصقًا بجدار القبو، وطارت المخلوق الشرسة وتجاوزته، ثم ارتدّت عن الأرض المغبّرة ككرةٍ صغيرة، وخفقت بأجنحتها، لتقفز مجددًا وهي تصفّر وتفغر منقارها المريع. لكن هذه المرّة، كان الويتشر مستعدًا.

طعَن جيرالت من مرفقه مستهدفًا الحوصلة تحت تلك الهدب القرمزيّة التي تشبه رقبة ديك رومي، وكانت الحوصلة كبيرة بحجم ضعفي ما لدى الديك الرومي.

شعر جيرالت بنصل سيفه يشق جسد الوحش. الضربة دفعت المخلوق أرضًا نحو الحائط.

صرخ السكوفن — (Skoffin) وكان صراخه أقرب للبشر. راح يضرب الأرض بين طوبٍ مكسور، ويتلوّى ويصفّق بأجنحته، ويتقافز دمُه، ويلهث بذيله الدقيق كالسوط.

ظنّ الويتشر أنّ المعركة قد انتهت، غير أنّ الوحش فاجأه مجدّدًا بهجومٍ يائسٍ وهو يزأر بصوتٍ بشع، قابضًا مخلبه وفاغرًا منقاره.

تراجع جيرالت بمهارة، وارتكز بكتفه على الجدار ووجّه ضربةً قوية من الأسفل مستغلًّا اندفاعه. فسقط السكوفن وسط كومةٍ جديدةٍ من الطوب، وسالت دماؤه على جدران القبو، مرسومةً كأنها أشكالٌ عبثية. جثا الوحش جريحًا، عاجزًا عن الحراك، يرتعش ويُصدر أصواتًا خانقة، يمدّ عنقه الطويل وينفخ حوصلته متقلّصةً، فيما دمُه يتسرّب بين قطع الطوب من تحته.

تقدّم جيرالت دون استعجال للقضاء عليه، لكنه فضّل عدم إتلاف جلده أكثر من اللازم. انتظر ببرودٍ حتى ينزف الوحشُ حتى الموت. ابتعد بضع خطوات واستدار نحو الجدار يفكّ سرواله ليتبوّل، مصفّرًا بلحنٍ حزين.

توقف صوت النّحيب، ثم استقر جسد السكوفن وعمّ صمتٌ. مشى جيرالت باتّجاه الوحش، وخزه برأس سيفه بحذر. ولمّا تأكّد من موته، أمسكه من ذيله ورفعه عند مستوى وركه. كان رأس الوحش أشبه بمنقار نسرٍ يصل الأرض، وباع جناحيه يقارب أربعة أقدام.

قال جيرالت وهو يهزّ ذيل الوحش: "خفيفٌ يا كوروليشِك... خفيف. ولحسن الحظ يدفعون لي أجري بالقطعة لا بالوزن".

صفر رينارت دو بوافرين عبر أسنانه، وكانت تلك طريقته للتعبير عن أعلى درجات الدهشة والإعجاب، وقال: "هذه أوّل مرّةٍ أرى فيها شيئًا كهذا بحياتي. أمرٌ فريدٌ بحق، فريدٌ تمامًا. أهذا هو البازيليسك الشهير؟"

قال جيرالت وهو يرفع الوحش للأعلى ليتمكّن الفارس من تفحّصه: "لا، هذا ليس بازيليسك. إنه كوروليشك، يُسمّى أيضًا سكوفِن أو كوكاتريس".

سأل رينارت: "أيّ فرقٍ بينهما؟"

قال جيرالت: "فرق جوهري. البازيليسك، المعروف أيضًا بريغولوس، هو زاحف. وأمّا الكوروليشك، الملقّب أيضًا بالسكوفن أو الكوكاتريس، فليس طائرًا ولا زاحفًا. إنّه الكائن الوحيد في تصنيف (السحالي المجنّحة) الذي حدّده العلماء، بعدما اختلفوا طويلًا".

قاطعه رينارت وكأنّه لا يهتم بدوافع العلماء: "وأيّ منهما، إذن، يستطيع القتل بنظرةٍ أو تحويل الناس إلى حجر؟"

رد جيرالت بجفاء: "لا هذا ولا ذاك. تلك أسطورةٌ مختلقة".

فسأله رينارت باستغرابٍ وهو يشير إلى الوحش المقتول: "ولماذا يخشى الناس هذين المخلوقين كلّ هذا الخوف؟ وهذا ليس كبيرًا جدًا. هل هو فعلًا مُميت؟"

قال جيرالت وهو يهزّ الذيل مجددًا: "هذا الكائن غالبًا ما يهاجم من الخلف، ويعرف كيف يصيب الفقرة أو الشريان الأورطي عند خاصرة الضحية بضربةٍ واحدةٍ من منقاره. كما أنّ البازيليسك يفرز سمًّا فتاكًا يقتل خلال ثوانٍ، أيًّا كان مكان العضة".

ارتعد رينارت قائلاً: "وما قصّة مَن يواجههما بالمرآة؟ أليس يُقال إنه يمكن قتل البازيليسك من خلال جعله يحدّق في انعكاسه؟"

ضحك جيرالت بفتور: "نعم، إن وضعت المرآة على رأسه لتنهال ضربًا. مجرّد مزحةٍ حمقاء لا أكثر".

قهقه رينارت، ولم يبادله جيرالت الضحك. كان قد سمع تلك النكات السخيفة في كير مورهن منذ كان متدرّبًا، حتى ضجر منها، كما ضجر من نكات العذراء وحيدة القرن.

ابتسم جيرالت على ذكرى قديمة.

لاحظ رينارت ذلك وصاح بمرح: "أفضّلك وأنت تبتسم، يا جيرالت. تبدو أفضل مئة مرّة من حالك في أكتوبر الماضي، بعد معركتكم في غابة الدرويد حين كنّا في طريقنا إلى بوكلاير. حينها كنتَ صامتًا حانقًا متجهمًا، كمرابي يُخدَع أو رجلٍ يائسٍ لم يحظَ بشيءٍ طوال الليل".

سأل جيرالت: "حقًا؟ هكذا كنت؟"

أجابه رينارت: "تمامًا. ولا تستغرب إن فضّلتك الآن وأنت تبدو... متبدّلًا".

علّق جيرالت وهو يشير إلى الجثّة: "إنه العلاج بالعمل. التأثير الشفائي للانغماس في الحرفة على الحالة النفسية. ولأواصل علاجي، ينبغي أن نهتمّ بأمر هذه الكوروليشك. يمكننا أن نجني المزيد من المال فوق الأجر المتّفق عليه إن بعنا جثّتها سليمة. انظر، جلودها غير تالفة تقريبًا. إن أردت بيعها كاملة، ادفع بألّا تنقص عن مئتي كراون. وإن اضطررت لبيعها مجزّأة، فركز على ريش الذيل فوق الردف؛ ذلك الريش يُصنع منه أقلامٌ ممتازةٍ أفضل من ريش الإوز، فالكتابة به أوضح وأطول عمرًا. سيشتري الكتّاب المحترفون الريشة الواحدة بخمسة كراونات".

قال رينارت بابتسامة ماكرة: "وجدتُ من يشتري الجثّة كاملة، من نقابة صُنّاع البراميل. أعجبهم حيوانٌ محنّط عُرض في قلعة رافيلّو ذاك العملاق المائي أو أيًّا كان اسمه، لقد قُتل بالسواطير في سراديب القلعة القديمة يوم سامهاين، أتذكّره؟"

أومأ جيرالت: "أذكره".

قال رينارت: "توسّلوا إليّ يبحثون عن شيءٍ نادرٍ يزيّن قاعتهم. ويبدو أنّهم أثرياء، سيدفعون مئتي وعشرين كراون وربما أكثر. وسأحاول أن أقتنص منهم المزيد. ثم ننتف شيئًا من ريش الذيل ونبيعها لديوان الدوقة. ديوانها يدفع من الخزانة العامة بضعف الثمن، أي عشرة للريشة الواحدة".

رد جيرالت بإعجاب: "أنت تاجرٌ بارع".

ضحك رينارت: "الاسم يتحدّث عن نفسه (رينارت دو بوا فرين)، تحسّه حاذقًا كالثعلب من حكايا الأطفال. كنتُ أولى بأن أكون تاجرًا لا فارسًا".

علّق جيرالت: "يمكن ذلك. أمّا أنا أيضًا لا أعيش من التجارة، لأسباب شبيهة بأسبابك. مع فارقٍ واحدٍ أنني لن أنجب ورثةً يواصلون الطريق".

انتصب جيرالت مستعدًا للخروج: "فلنخرج من هذا القبو".

خارجًا، وجدا أن الريح الباردة قد بدأت تهبّ من التلال، وكان الليل مضيئًا بالنجوم والقمر، فتتراقص على الثلوج البيضاء فوق الكروم. تحركت خيولهما بمرح وهما تنزلان باتجاه الطريق المرصوف. فكر رينارت وهو يحدّق في الويتشر: "حتّى نلتقي بالزبون ونجمع المال؟ أم أنّك مستعجلٌ للعودة إلى بوكلير وغرفة نومٍ ما؟"

لم يعلّق الويتشر. حرّك الذبيحة فوق حصان حمل الأمتعة وامتطى مهرته القشتالية التي يسميها دائمًا (روش).

قال جيرالت وقد استدار: "نلتقي بالزبون، فما زال الوقت مبكّرًا وأنا جائعٌ وأريد الشراب. لنتوجّه إلى خان (الفزّان)".

ضحك رينارت وضبط درعه ذا المربعات الحمراء والذهبية ثم امتطى حصانه، صارخًا: "كما تشاء، يا رفيقي. هيا يا بوكيفالوس"!

سارا ببطءٍ وسط المنحدرات المغطّاة بالثلوج، ليلحقا بالطريق المرسوم على جانبيه أشجار الحور.

قال جيرالت فجأة: "أتعلم يا رينارت؟ أفضّلك هكذا، تتحدّث ببساطة. في أكتوبر كنتَ تملأ كلامك بعباراتٍ تقليديةٍ تثير الضجر".

رد رينارت ضاحكًا: "يا للعجب! أنا فارسٌ جوّال، أوَنسيت؟ الفُرسان يتحدّثون كالأغبياء .. إنه جزءٌ من هويتنا، تماما كحمل الدروع".

* * *

قال الفارس ذو المربعات (لقّب نفسه في وقتٍ لاحق بفارس المربّعات): "لا حاجة أن تقلق يا سيّد جيرالت، حبيبتك سليمة. فحتمًا نسيت آلامها وهي بين أيدٍ متخصّصة في البلاط، فالطبيبات هنا قادراتٌ على شفاء أيّ علّة. لا داعي للقلق".

أومأ ريجيس موافقًا: "نعم، هون على نفسك يا جيرالت. الدرويديات عالجن ميلفا أيضًا..."

قاطعه كاهير: "وهنّ بارعات، وقد شهدتُ بنفسي عندما رمّمن جمجمتي التي فلقها عامل المنجم. ستتعافى ميلفا لا محالة".

تنهد جيرالت: "لعلّ ذلك كذلك".

قال فارس المربّعات: "إنّها تنهض بقوّة، تراها تشارك في احتفالات الزفاف وتُراقص الآخرين. ففي بلاط دوقة آنا هنرييتا، المآدب والمسرّات لا تنقطع. وأنا شخصيًا..."

قاطعه جيرالت: "هل أكملت نذورك؟"

لوّح الفارس بابتسامة: "بلى، فلحسن حظي تمكنتُ من القضاء على خمسة عشر خارجًا عن القانون قبل حلول ليلة عيد الميلاد. وعليه، صرت حرًا من نذوري، ويمكنني الآن أن أتناول اللحم وأشرب الخمر دون قيود. ولم أعد مضطرًا لإخفاء اسمي، فأنا رينارت دو بوا فرين".

قالت أنغوليم وهي تحثّ جوادها لتلحق بهم: "وماذا عن المآدب؟ ألن يمرّ الطعام والشراب أمامنا؟ أحبّ أن أرتشف وأهتزّ قليلًا مع الموسيقى!"

ضحك رينارت: "سيكون في بوكلير كل ذلك. حفلات ورقصٌ وشعرٌ وغزل. أنتم أصدقاء دانديليون عفواً.. الفيسكونت جوليان، الذي تعشقه الدوقة. وتالياً..."

سألت أنغوليم: "سمعنا قصصًا عن علاقتها بدانديليون، هل لديك خبرٌ يقين؟"

تنحنح جيرالت بعصبية: "هل حقًا تحتاجين لمعرفة ذلك يا أنغوليم؟"

قالت أنغوليم: "أجل، الفضول يقتلني! لا تكن متجهّمًا هكذا، جيرالت. أنت أيضًا يا سيّد فارس، تابع".

مضى الفرسان الجوّالون في مقدّمة القافلة يرتلون أهازيج فارسة بكلماتٍ أقرب للحماقة.

قال رينارت: "القصّة حدثت قبل ستّ سنوات. أمضى شاعرنا ذاك الشتاء والربيع بيننا، يعزف على عوده ويغنّي قصائد الحبّ. أما الدوق ريموند فكان غائبًا في سينترا يحضر مجلسًا، ويبدو أنّ له خليلة هناك، فلم يكن مستعجلًا للعودة. فاغتنمت الدوقة آنا هنرييتا الفرصة لتوطيد علاقتها بورد دانديليون. إذ بالقصائد والغزل والزهور تتوثّق الصلة. وفي غفلةٍ منهما، وجدا نفسيهما... متحابّين".

قالت أنغوليم بخبث: "أيّ حبٍّ هذا؟ صلةٌ حميمة؟"

قال رينارت متعاليًا: "ما كنتُ حاضرًا بنفسي، كما لا يليق ترديد الشائعات. الحب له وجوهٌ عديدة، ودرجة الحميمية أمرٌ نسبي".

أكمل رينارت: "دامت تلك العلاقة سنتين تقريبًا من بيلتن إلى انقلاب الصيف. لكن شاعت الأخبار، فسارع دانديليون بالرحيل. وكان محقًا، إذ عاد الدوق فورًا حين بلغه الأمر من خادمٍ أباح له الحقيقة، فاستشيط غضبًا، وشهق كالثور، وألقى صحن الحساء من يده، ثم شقّ رأس الخادم بفأس وهو يشتم، ثم حبس الدوقة، وهدّدها بالتعذيب لتقرّ بكلّ شيء. وبعث خلف دانديليون رجاله ليقتلوه ويقتلعوا قلبه ليشويه ويُجبر آنا هنرييتا على أكله أمام الجميع — استلهامًا من حكايةٍ قديمة. لكن لحسن الحظ، تمكّن دانديليون من الفرار".

سأل ريجيس: "وهل مات الدوق؟"

تابع رينارت: "عاش الدوق عامًا بشلل، ثم تعافى قليلًا، لكن ظلّ عينه ترتعش أبدًا. ومذّاك أصبح أشدّ افتتانًا بالنساء، فتخاله يغمز كلّ سيّدة يلقاها. وحين فرط في مغامراته ليلًا، عاوده الشلل فمات في سريره".

قهقهت أنغوليم: "ربما فوق امرأة"!

أجاب رينارت وهو يبتسم: "في الحقيقة تحتها".

سأل كاهير بجدّ: "لم يحزن عليه أحد؟ أشعر أنّكم تحبّون الدوقة أكثر".

قال رينارت بصدق: "أجل، الدوق ريموند كان شريرًا صعب المراس، ولهذا فرح كثيرون بموته. الدوقة آنا هنرييتا حظيت بحبّ العامّة ولا تزال".

عقّب جيرالت بسخرية: "وهكذا سيعيش دانديليون هنا في أمان؟"

أومأ رينارت: "نعم، فالسكان يعشقون الدوقة والدوقة تعشق دانديليون. ومن أحبّته الدوقة، أحبه الجميع".

تردّدت نغمةٌ فارسية من أفواه الفرسان. غادرت العرباتُ ظلّ الغابة نحو وادٍ تطلّ عليه أبراجٌ بيضاء، يتخلّلها النسيم. امتدّت التلال المكسوّة بالكروم، ألوانها حمراء وذهبية.

سألت أنغوليم: "أهذه كرومٌ؟"

أومأ رينارت: "إنها حقول العنب الشهيرة في وديان سانسريتور، حيث تُعصر أفضل أنواع النبيذ في العالم".

علّق ريجيس بخبرة: "التربة البركانية والمناخ الخصوصي يمنحان ثمارًا رائعة، ومع التقنيات القديمة وخبرة صانعي النبيذ، نحصل على جودة استثنائية".

واصل رينارت: "انظري ذاك القصر، يُدعى قلعة رافيلّو، تصنع فيه خمور إرڤيلوتشه، وفيورانو، وبومينو، وأيضًا إيست-إيست الشهير. هذا الأخير يُضاهي ثمنُ برميلٍ منه عشرة براميل من خمر سيداريس. انظري، هناك قلاعٌ أخرى فيرمنتينو، توريتشيلّا، كاستيلداتشيا، توفو، سانسير، نوراغوس، كوروناتا... وأخيرًا كورفو بيانكو — أو غوين سيربين بلغة الإلف. لعلّكِ سمعتِ بالأسماء".

فارتسمت على فم أنغوليم تكشيرة، وقالت وهي تلوّح بيدها: "للأثرياء فقط. نحن إن أسرفنا في شربه سنستفيق نندم. ثمنه باهظٌ والقئ واحد"!

قال رينارت: "تجاهلي مزحات أنغوليم الخشنة؛ اليوم سنشرب أجود الأنواع، فقد جلبنا بعض المال وحان وقت الاحتفال".

أومأ جيرالت مناديًا صاحب الحانة: "أجل، كما يقول دانديليون، لا مبرر لجمع المال إن لم ننفقه. هات ما في المطبخ من أطعمة. ويبدو المكان مزدحمًا هذه الليلة على غير العادة".

قال صاحب الحانة: "إنها ليلة عيد الميلاد يا سيدي. الناس يحتفلون ويتبادلون التهاني ويتفاءلون. هكذا هي تقاليدنا".

تمتم جيرالت: "أعرف. وماذا أعددتم الليلة في المطبخ؟"

أجاب صاحب الحانة: "لسان بقر مع فجل حار، وحساء الدجاج باللحم المهروس، ثم شرائح لحم مع فطائر وملفوف"...

طلب جيرالت: "أحضرهم كلّهم. وماذا سنشرب يا رينارت؟"

تأمل رينارت قليلاً: "إن كان اللحم، فنشرب نبيذ كوت دو بلسيور الأحمر. ونختار العام الذي ماتت فيه الدوقة كاروبيرتا".

أومأ صاحب الحانة: "لدينا القبو من ذاك العام بعينه".

هبطت إكليلٌ من الدبق من إحدى الطاولات المجاورة وكادت تقع في حضن جيرالت، وسط ضحكات الفتيات، فحاول رينارت إعادتها وهو يمازحهنّ: "حظكِ عاثر، فهو محجوزٌ بزوجٍ من العينين الخضراوين".

قطّب جيرالت جبينه. وصل الطّعام وأكلا في صمتٍ، يستمعان لضحكات روّاد الخان.

قال جيرالت بعدما وضع كوبه جانبًا: "عيد الميلاد (ميدنفارن). انقلاب الشتاء. ها قد مضت شهران وأنا في هذه البقعة. شهران ضائعان".

اعترض رينارت بلطف: "شهرٌ واحد. لقد وصلنا بعد قتال الدرويد في أكتوبر. لا تُهول الأمر".

سكت جيرالت كابتاً غيظه.

قال رينارت بمرحٍ: "ولا أرى أنك تتذمّر حقًا. لستَ حزينًا للبقاء هنا".

همهم جيرالت: "ماذا تعرف يا رينارت؟ ماذا تعرف؟"

قال رينارت: "لا أعرف الكثير، فقط ما أرى. وأتذكّر لقائكما الأوّل في بوكلير. ذاك الاحتفال حيث ظهرت سراويلٌ بيضاء..."

* * *

قال كاهير بافتتانٍ حين دخلوا الساحة أمام القصر الأبيض المرتفع بشبابيكه البرجية الحمراء: "يا للروعة، قصرٌ أنيقٌ بحق"!

علّق ريجيس: "تعيش الدوقة حياةً منعمة".

صرخت أنغوليم: "أروع قصرٍ رأيته في حياتي"!

أشار رينارت بفخر: "إنه قصر بوكلير. صمّمه الإلف منذ القدم، وأُعيد تعديله قليلًا بيد بطرس فاراموند".

هزّ ريجيس رأسه: "ليس تقريبًا يا صديقي. بل يقينًا صمّمه فاراموند. انظر لتلك الأبراج النحيلة... طابع فاراموند حاضرٌ بقوة".

أضاف رينارت: "المدينة تمتد تحت القصر، تلك الأسوار أُضيفت لاحقًا، فالإلف لا يحبّون التّحصين".

ركضوا مسرعين وسط شوارعٍ تعبق برائحة العنب المعتّق، ثم حدائق عامرةٍ بأشجار حورٍ وطقسوس، وصولًا إلى بوابات القصر حيث الخدم والحاشية.

كان أول من استقبلهم دانديليون، متأنّقًا كأمير. صائحاً: "جيرالت، أين ميلفا؟"

قال دانديليون: "لا تقلق، هي بخير. أقيمت لها غرفةٌ خاصة، ترفض مغادرتها".

سأل جيرالت: "لمَ؟"

قال دانديليون: "تعرف قريبًا. أما الآن فتقدّموا، فالدوقة تنتظركم".

اعترض جيرالت: "ونحن بملابسنا القذرة؟"

قال دانديليون: "إنّه أمرها. أصدرت رغبتها أن تستقبلكم كما أنتم".

* * *

كان بهو الاستقبال حافلًا بالناس، بملابسهم الزاهية كطيور الفردوس. لم يلتفت جيرالت حوله طويلًا؛ إذ تقدّم به دانديليون نحو سلّمٍ من الرخام تتوقّف عنده سيّدتان تتميّزان عن غيرهنّ بأناقة ملحوظة، تحفّ بهما الحاشية.

عمّ صمتٌ أكبر. حدّق جيرالت بالسيّدتين؛ الأولى ذات أنفٍ مرفوعٍ حادّ، وعينين زرقاوين متّقدتين بشيءٍ من الحمى، شعرها الكستنائي مرفوعٌ بتصفيفةٍ بارعة، فستانها العلويّ مفتوح الصدر بألوانٍ متدرجةٍ بين الأزرق والبنفسجي على خلفيةٍ سوداء، وتنّورةٌ مُزخرفةٌ بأزهارٍ ذهبية صغيرة، وقلادةٌ مزججةٌ بالعقيق والزمرد واللازورد، تعانق عنقها حتى يكاد يدخل صدرها الصغير المرفوع.

أما الثانية الطويلة بما يماثل الأولى، تضع شبكةً على شعرها الأسود القصير، تتصل بطرحة تغطي أنفها الدقيق، ومكحّلة عينيها المرفوعتين بالظلال الخضراء. ترتدي فستانًا طويل الأكمام أسود اللون، مطرّزًا بنقوشٍ مبعثرة لأحجارٍ كريمة من الياقوت الأزرق والأكوامارين والذهب المفتوح.

"صاح أحد الواقفين خلف جيرالت: 'هذه الدوقة آنا هنرييتا. انحنِ أيّها السيّد'".

فكر جيرالت متسائلًا أيّهما الدوقة؛ لكن تحدّثت الأولى ذات الشعر الكستنائي بصوتٍ رسمي: "انهض يا سيّد جيرالت. نرحّب بك وبأصحابك في قصر بوكلاير بدوقية توسان. يسعدنا أن نوفّر لكم المأوى في مهمّتكم النبيلة، لا سيما وأنكم أصدقاء الفيسكونت جوليان الذي أحبّه كثيرًا".

انحنى دانديليون بعمق. وواصلت الدوقة بخفوتٍ: "لقد أخبرنا الفيسكونت بكلّ شيءٍ يخصكم، وبسبب ما أنتم هنا، وما تسعون إليه. تأثر قلبنا بالقصة، يا سيّد جيرالت. وسيسعدنا أن نلتقيك على انفراد قريبًا؛ إذ ثمة بروتوكولات تفرض علينا المشاركة في احتفال (البرميل) بعد انتهاء موسم قطف العنب".

مالت المرأة الثانية نحو الدوقة تهمس لها شيئًا، ثم التفتت آنا هنرييتا نحو جيرالت ونظرت بعينيه مطوّلًا، ولعقت شفتيها. "نريدك أن تشاركنا، أنت والفيسكونت جوليان، في طقسٍ تقليديّ بالبرميل".

اهتزت الحاشية بهمهمات إما معجبين أو حاسدين، وغادرت الدوقة ومعها سيّدتها المرافقة، وانفض الحاضرون خلفها.

همس فارسٌ مزركش لجيرالت: "يا لسعدك، لقد أُنعمت بشرفٍ ما بعده شرف".

سأل جيرالت: "لا أفهم ما يجري".

تقدّم رجلٌ بدينٌ بوجهٍ شبيهٍ بالحلوى قائلًا: "اسمح لي يا سيّد، أنا سباستيان لوغوف، حاجب الدوقة ومسؤول التشريفات. هنا نلتزم البروتوكول بدقّة. ينبغي أن تخاطب الدوقة بعبارة (يا صاحبة السمو المستنير) أو (يا سموّك). أما السيّدة التي رافقتها، فهي قريبتها، (فرينغيلا فيغو). وسيكون عليك خدمتها في طقس (البرميل)".

سأل جيرالت: "أيّ طقسٍ هذا؟"

ضحك لوغوف بذوق: "طقسٌ تقليدي لدينا. سترى".

* * *

كانت ساحة القصر تضجّ بالموسيقى الصاخبة، بهلوانيون ومهرجون يرتدون أكاليل زهرية يتراقصون حول برميلٍ وُضع على منصة خشبية. احتشد الفرسان والسيدات والتجّار في الأروقة وأرجاء الساحة.

ضرب لوغوف بعصاه الملتفّة بعرق عنب ثلاث ضربات على المنصة صائحًا: "اسمعوا! اسمعوا! يا أيها الأسياد والسيدات"!

هتف الحشد: "هيّا هيّا"!

قال لوغوف: "أهلًا بكم في تقليدنا العريق! تحيا عناقيد العنب وتثمر في الشمس"!

صاح الحشد: "هيّا تحيا"!

تابع لوغوف: "وتتعفّن في البراميل لتصير خمرًا تطربنا جميعًا! خمرًا يعظّم مجد مولاتنا ودوقاتنا وفرساننا"!

عوى الجمهور: "هيّا لتتخمّر"!

صاح لوغوف: "فلتتقدّم الحسان"!

في اللحظة نفسها خرجت الدوقة آنا هنريبتا من خيمتها القرمزية في جانب الساحة، وسيّدتها فرينغيلا فيغو من الجانب الآخر، ترتديان عباءتين حمراوين.

قال لوغوف: "هيّا استدعوا الشبان"!

كان دانديليون قد حفظ دوره، فتوجّه إلى الدوقة، فيما اتّجه جيرالت إلى فرينغيلا. خلعت السيدتان عباءتيهما معًا وسط تصفيقٍ مدوّ.

شهق جيرالت؛ إذ كانت الدوقة وفرينغيلا ترتديان فقط صدريةً رقيقةً للغاية وسروالًا داخليًا قصيرًا، حافيتين تمامًا بلا حليّ.

حمل جيرالت فرينغيلا بين ذراعيه فطوّقت عنقه، تنبعث منها رائحة خافتة من العنبر والورد والأنوثة التي احتكت به كسهمٍ أصابه. كانت دافئة ورخوة الملمس. حمل دانديليون الدوقة، وصعدا بهما إلى حوض العنب حيث سحقته السيدتان بأرجلهما.

علا صراخ الجمهور: "هيّا! هيّا"!

تشابكت الدوقة وفرينغيلا لتحافظا على توازنهما وهما تطآن العنب بأقدامٍ عارية، يتدفّق عصيره متفجّرًا. التفتت فرينغيلا نحو الويتشر مغازلةً بعينيها.

"هيّا!" علا ضجيج الجمهور.

تناثرت قطرات العصير، وتعالت فقاقيع الرغوة من هرس الثمار. ضرب لوغوف بالعصا على المنصة، فدنا جيرالت ودانديليون ليساعدا السيّدتين على الخروج.

رأى جيرالت الدوقة تلتقط إذن دانديليون بشغف، أما فرينغيلا فلامست خدّه بشفتيها كأنها قُبلة مسروقة. فواح الدخان المُخمّر، واختلط برائحة الفاكهة.

أنزل جيرالت فرينغيلا على المنصّة ولفّها بالعباءة القرمزية. ضغطت يده سريعًا بابتسامة: "التقاليد القديمة تثير الرغبة، أليس كذلك؟"

أجاب جيرالت بصوتٍ مبحوح: "هي كذلك".

قالت فرينغيلا وهي تخفي نظراتها خلف العباءة: "شكرًا يا ويتشر".

رد جيرالت وهو يتنهّد: "المتعة متبادلة".

قالت فرينغيلا بغمزة: "ليس تمامًا. صدّقني..."

* * *

عاد جيرالت إلى المائدة حيث يشارك رينارت شرب النبيذ. سمع بجوارهم البعض يلقون بنواة التفاح ليقرؤوا الطالع. في كل مرّةٍ تتكوّن حرف(S) ، ومع ذلك يضحكون.

قال رينارت: "تحرّرنا من السكوفن بسلام، والآن نحتفل".

هزّ جيرالت رأسه رافعًا عينيه إلى سقف الحانة: "يا لسوء حظّنا، مضت شهران ونحن هنا دون تقدّم".

قوّم رينارت الوضع: "حقيقةً مضى شهرٌ فقط. مع تساقط الثلوج أقفلَت الممرّات الجبلية؛ فلم يكن بوسعك الرحيل. بقي حتى عيد الميلاد، وربما حتى الربيع. وما رأيك في ذلك؟ أنت لا تبدو متلهّفًا للرحيل بأي حال".

لم يُجب جيرالت بل حدّق في كأسه بصمت.

رفع رينارت كأسه وقال: "صحيح، ماذا عن لقائك الأوّل مع الدوقة في حفل تنصيب... أوه"...

* * *

تذكّر جيرالت ما حدث بعده في قاعة الاستقبال حين كان يحكي قصّته للدوقة:

قالت الدوقة وهي ترفع منديلاً لتجفف دموعها المصطنعة نوعًا: "يا ويلي، أحقًا لم تفِدك الدرويديات بشيء؟ رجعت خاوي الوفاض؟ ما أشد حزني"!

تنهّد جيرالت: "ليست الأمور سيئة تمامًا، يا صاحبة السمو. عرفت يقينًا أنّ سيري حيّة. لعلّها جريحة، لكنّها على قيد الحياة".

زمجرت الدوقة وقد شبكت ذراعها بذراع دانديليون: "سنقدم كلّ الدعم اللازم، يا سيّد جيرالت. ابقَ في توسان ما شئت، لدينا علماءٌ وفلكيون، ومكتبة ضخمة. لعلّك تجد فيها إشارة أو تلميحًا يساعدك في مسعاك".

قال جيرالت بانحناءةٍ: "أشكرك يا صاحبة السمو، غير أنّ الوضع خطِر، ومن غير الحكمة المكوث طويلًا في مكانٍ واحد. ربما نجرّ عليكم المشكلات".

أشارت الدوقة لأنفها قائلة: "لا تخشَ شيئًا، فرساننا أرغموا أعداءك على الهرب فلم ينجُ منهم أحدٌ من معركة غابة الدرويد. وإن ظهرت تهديدات، فسيلقون المصير ذاته".

أجاب جيرالت: "وإن كانوا في زيّ إمبراطورية نيلفجارد؟ يتصرّفون وكأننا خلف خطوط الأعداء".

اعتدلت الدوقة بأنفها المدبّب: "وما بأمره؟ بوسعنا أن نخاطب ابن عمّي الإمبراطور، فنطالبه بوقف الحرب فورًا. كتابة مذكرةٍ صارمة، (الحرب سوءٌ، فلتصنعوا السلام!)".

عمّ الصمت والخدم متجمّدون، بينما يتحرّك كاتب الديوان مرتبكًا لكتابة (مذكرة صارمة).

تراجع جيرالت نادمًا على الكلام.

تابعت الدوقة وهي تمسح أنفها بمنديلها: "الآن لا قلق عليكَ، امكث هنا براحتك".

قال جيرالت: "نعم يا صاحبة السمو".

صمت المكان، وسمع جيرالت نقرة ساعةٍ خشبية بعيدة.

قالت الدوقة: "ثمة أمرٌ آخر، يا سيّد جيرالت. الأزواج يشكون من شبحٍ ليلي – سوكوبوس (Succubus) تتسلل لغرفهم وتُغوي رجالهم بأفعالٍ مشينةٍ. نطالبك بصفتك خبيرًا بتخليصنا من ذلك الشرّ".

أجاب جيرالت: "حاضر يا صاحبة السمو".

* * *

قالت أنغوليم وهي تدخل فسحةً في حديقة القصر حيث كان جيرالت وريجيس يتنزّهان: "أصدقاؤكم الفرسان يصطفّون لاستلام رواتبهم من خزانة القصر! الفارس رينارت من بينهم، ويقول إنهم بحاجةٍ للمال".

رفع ريجيس حاجبيه: "وما المشكلة؟"

صرخت أنغوليم: "الفارس الجوّال لا ينبغي أن يقبض راتبًا شهريًا! إنه جوالٌ بالمفهوم النبيل"!

ابتسم ريجيس بحزم: "هذا لا يتنافى مع حاجتهم للطعام. اقبلي الأمر".

أشار جيرالت: "بل اذهبي ورافقي ميلفا، لا تتركيها وحدها".

قالت أنغوليم متأففة: "يا للضجر. على أيّ حال، ميلفا غاضبة لا أدري لمَ".

أصبحت لوحدها ميلفا، ثم غادرت.

علق ريجيس: "انظري... رجلٌ يتقدّم".

كان رجلاً رفيعًا، يرتدي عباءةً بلونٍ بني داكن. انحنى متسائلًا: "أيّكما هو الويتشر جيرالت؟"

قال جيرالت: "أنا".

تقدّم الرجل بخطواتٍ موقّرةٍ: "اسمي جان كاتيون، مشرف كروم توريتشيلا. نواجه وحشًا في سراديبنا. نمنا نحتاجك... ثمة وحش يبصق حمضًا يحرق الناس حتى العظم".

أجاب جيرالت: "يُدعى سولبوغا أو فينومر. يمكنني التصرّف".

علّق ريجيس: "انظر بنفسك، رجلٌ خبير".

أومأ المشرف: "سنوقّع عقدًا نتفق فيه على الأجر وفق الخطر".

قال جيرالت: "لن تخسروا شيئًا، ولكن تذكّروا أني لستُ رخيصًا".

غادر المشرف كاتيون. فمال ريجيس نحو جيرالت وهتف: "أهكذا عدتَ صائد وحوش؟"

همهم جيرالت: "حتى أنا متفاجئ. سأتهرّب لاحقًا؛ سأطالب بثمنٍ يفوق المعقول".

لم يكمل كلامه حتى لاحظ اثنين من الفرسان يتوجّهان نحوه. تبيّن أحدهما وهو دي بيرااك-بيرّان ذو رأس ثورٍ على درعه. رافقه رجلٌ بشعر رمادي وورود زنبق على معطفه.

قال صاحب الثور: "أنا أعرفك يا سيّد جيرالت. نحن نحتاجك لقضية 'السوكوبوس' الذي أزعج سيدات الدوقية. هل تم عرض الأمر عليك؟"

أجاب جيرالت بحذر: "أجل".

تلفّت البارون متهيّبًا: "هناك رجاءٌ من فرسان توسان، ألا تقتلها. فهي لا تُؤذي في الحقيقة"...

قال رفيقه اللزج: "نعم، هي مداعباتٌ بالغالب، ولا تقترب من الأطفال".

قطّب جيرالت جبينه: "وبماذا تريدان مني؟"

قال البارون: "ترفض العقد سرًّا، ونحن سندفع لك أضعاف ما عرضته النساء. افتدِها... وتظاهر أنك عجزت عن صيدها".

تنفّس جيرالت بعمق: "وأين ستودعون المبلغ؟"

"في حسابك في مصرف سيانفانيلّي".

ابتسم جيرالت: "حسنٌ. سأفعلها. سيبقى شعرها الأشقر سالمًا".

انحنى الفارسان وانصرفا. سمعهما: ريجيس وهو يعود من خلف شجرة، علق بسخريّة: "حسابٌ مصرفي، ها؟"

رد جيرالت وهو ينظر للأفق: "ربما نبقى هنا بضعة أسابيع، بل أشهر. نحتاج لحريةٍ ماليّة".

ضحك رينارت حين سمع القصة: "لو علمت الدوقة لضجّت القاعة! لكن احكِ لي عن الوليمة التي افتقدتها لأني كنتُ في مهمةٍ. أريد أن أعلم كيف جرى".

قال جيرالت وهو يشرب رشفةً: "في الحقيقة، كان هناك تحضيراتٌ قبل الحفل، كنّا نبحث عن ميلفا التي تهرب من ارتداء فستان، وأنغوليم كي نعلّمها ألّا تسبّ بالشتائم. ثم ظهر حاجب الدوقة لوغوف برائحة السكر".

* * *

قال لوغوف بأنفٍ مرفوعٍ: "في هذه الظروف، وجب عليّ تنظيم أماكن الجلوس في مأدبة الغد وفق الألقاب والشأن. الفيسكونت جوليان سيجلس عن يمين الدوقة. وأنتم؟ الفيسكونت لم يصرّح بألقابكم، قال إنكم متخفّون بنذورٍ غامضة. لكن يجب تحديد ترتيبكم".

قال جيرالت: "إن أصررت... فذاك الواقف هناك هو (الكونت) ريجيس، لكن لا تخبر أحدًا".

اتسعت عينا لوغوف: "كونت؟ إذن أجلسه قرب الكونتيسة نوتتورنا".

علّق جيرالت بابتسامة: "لا أفضل منه في الحديث الراقي. وأنا؟"

أجاب لوغوف: "وفقًا لعاداتنا، ستجلس قرب السيدة فرينغيلا. أنت من حملتها في طقس البرميل، وصرت حاميها".

أومأ جيرالت: "فهمت".

قال ريجيس وهما ينظران إلى لوحةٍ جدارية فيها عملاقٌ ذي قدمين يساريتين: "شيءٌ غريب... يبدو النساج ثملًا".

همس لوغوف: "كان فنانًا عظيمًا لكنه يشرب كثيرًا ككل الفنانين".

غادر الثلاثة. قال جيرالت لرينارت: "فلنرحل إلى بوكلير... لدي أمور أخرى".

رد رينارت ضاحكًا: "على عجلٍ إلى تلك الغرفة..."

* * *

في يوم الحفل، انعقدت المائدة على شكل حدوةٍ ضخمة، تراكمت عليها أشكالٌ متنوعةٌ من اللحوم البريّة من لحم الخنزير البري والغزلان وصولًا إلى الطرائد الصغيرة كالدرّاج، وحيواناتٍ بحرية كالسلمون وسمك الفرخ. ترافقها أطباقٌ جانبيةُ من فواكه الغابات وصلصاتٍ مخفوقة. وسط المائدة تربع سمك الحفش الضخم تعلوه بلشونٌ محمَّر واقفٌ على ساقٍ واحدة، ممسكًا حلقةً ذهبية في منقاره.

وقف البارون ذي رأس الثور رافعًا كأسه: "أقسم بشرف البلشون أن أدافع عن شرف الفرسان وعفّة السيدات، ولن أتراجع أبدًا"!

ضجّت القاعة تصفيقًا. بدأ الضيوف الأكل. أقسم فارسٌ آخر بشيءٍ يخصّه. عن يمين الدوقة، جلس دانديليون، متصنّعًا مظهرًا رسميًا. وعلى يسارها جلست مجموعةٌ من النبلاء، وبينهم ريجيس في زي أسود مخمليّ، يتحدّث مع السيّدات بحماسٍ حول الأشباح والسوكوبوس والأرواح ومصاصي الدماء.

جلس جيرالت قرب فرينغيلا، التي كانت ترتدي فستانًا بنفسجياً مع عقدٍ من الجمشت. ناولها طبقًا من سمك الفرخ، وهزّت رمشيها باسمة.

تمتمت فرينغيلا: "لصحتك يا جيرالت. يسرّني جلوسنا معًا".

رد جيرالت باقتضاب: "لا يزال الوقت مبكّرًا".

قالت فرينغيلا مبتسمة: "مرّ ما يكفي لأنتظر منك إطراءً".

أجاب جيرالت: "أنت فاتنة".

"قالت فرينغيلا بمرح: "ببطء رجاءً! أخشى أن ينتهي بنا المطاف بنهاية السهرة إلى مكانٍ لا تُحمد عقباه"!

رأى جيرالت كاهير يجلس مقابلًا له بين شابتين تتبادلان الضحكات، بينما ميلفا تُجالس فارسًا عجوزًا لا ينطق. أما أنغوليم فكانت صاخبةً وسط الفرسان الشباب.

همست فرينغيلا: "رفيقتكِ تلك ليست سعيدة. لكنها تلاقي فارسًا هادئًا خيرٌ من متصنّعٍ ثرثار، أليس كذلك؟"

لم يُجب جيرالت. وناولها كأسها. متبادلاً معها النظرات الحذرة.

سأل جيرالت: "أنتِ ساحرة، أليس كذلك؟"

اضطربت فرينغيلا: "اكتشفت ذلك؟"

قال جيرالت: "نعم، أشعر بالأورا (الهالة). وأنا خبير".

علّقت فرينغيلا: "ولستُ أخفي هويتي، لست مجبرةً على ارتداء قبعةٍ مدبّبة أو عباءةٍ سوداء لتخويف الأطفال".

صمت جيرالت، لكنها واصلت: "جئتُ هنا لأن المكتبة أكبر من أيّ جامعة. وربما أساعدك في إيجاد خيطٍ عن سيري. الدوقة جادّة في عرضها".

هزّ جيرالت كتفيه: "شكرًا. لكن..."

قالت فرينغيلا وهي تتابعته بنظراتٍ عميقة: "إنك لا تثق بي، صحيح؟"

قلب جيرالت الحديث لشيءٍ آخر. شاهد فارسًا آخر يقسم. تكلّم مع ميلفا. ضحكت أنغوليم بجنون. ضجّ المكان.

عادا للكلام. قالت فرينغيلا وهي تميل نحوه: "لا تثق بي، وتشكّ بإخلاصي. هذا يجرح كبريائي".

رد جيرالت محافظًا على مسافةٍ: "ربما أكثر بعض الكبد المشوي؟"

قالت فرينغيلا وهي تمسك بالشوكة وكأنّها سلاح: "لا تعتذر. أكره اعتذارات الرجال".

سألها جيرالت: "أيّ نوعٍ من الرجال تفضّلين؟"

رفعت فرينغيلا حاجبيها وقالت ببطء: "اللائحة طويلة... لكنني أُثني بشكلٍ خاص على من يسلكون العالم بحثًا عن محبوبتهم، مخاطرين بكلّ شيء، لا ييأسون ولو بدت الأمور مستحيلة".

علّق جيرالت مازحًا: "إذن مجانين؟"

ارتشفت فرينغيلا نبيذها بنظرةٍ ماكرة: "ولمَ لا؟ أليس الجنون في الحب جزءًا من الرجولةٍ الراقية؟"

رفع حاجبٌ ركني يعلن نهاية الكلام.

صاح لوغوف: "أيها السادة! أختم النخب بدعوةٍ لصحّة الدوقة آنا هنرييتا"!

صرخ الجميع: "يحيا"!

عادت الموسيقى تصدح، والجميع يضحك. أدّى بعض البهلوانيات، ثم أتى مدرّب الدب الذي تبوّل دبه وسط القاعة، فزادت أنغوليم كآبة لأنها فقدت لفت الأنظار.

فجأةً اشتاطت الدوقة غضبًا، وأمرت بحبس أحد النبلاء. بدا الأمر مألوفًا للجميع فلا اكترثوا كثيرًا.

مالت فرينغيلا على الويتشر: "لن ترحل قريبًا، أليس كذلك؟"

قال جيرالت ببرود: "لا تصلي أفكاري من فضلك".

اعتذرت فرينغيلا: "آسفة، شدّة تلك المشاعر جذبتني. ولكن بلا جدوى. لا أعطيك ما يقنعك بالبقاء".

قال جيرالت بمرارة: "قد نضطر للرحيل؛ الحرب"...

قاطعته فرينغيلا: "المكان هنا آمن، نيلفجارد لا تقترب من توسان لسببٍ أو لآخر. وفولكو ارتيفيلد يعتبرك ميتًا. أي خطر تخشاه؟"

تنهّد جيرالت: "أنتِ تعرفين كثيرًا".

ردّت فرينغيلا بثقة: "إنها الحقيقة. فلا تحتجّ بالحرب بعد الآن".

أدرك جيرالت أنها تعرف أكثر مما ينبغي. لكنه ابتسم لمّا أمسكت بكفّه أسفل الطاولة. قبل أن يكملوا تبادل الهمسات، قام فارس جديد ليقسم على البلشون. وأخذ كاهير يوزّع الإطراءات على صغيرتي بارون، وأنغوليم تسخر مع فارسٍ آخر. كان الفارس الصامت بجوار ميلفا يحاول محادثتها في الصيد. ابتسم جيرالت حالما رأى الحركة المباشرة. رفعت: فرينغيلا كأسها: "أتمنى ألا تقسو عليّ دائمًا".

استرسل الحديث حتى منتصف الليل. انسحب جيرالت نحو اسطبلات القصر، تناول خيله، وغادر عبر الطرقات التي يلفّها جليدٌ في ضوء القمر.

* * *

تبادلوا عادةً الإفطار في قاعة الخدم كل صباح، يجدون شيئًا ساخنًا، وعجّلًا ببعض النبيذ أو الرقائق. فقط دانديليون من كان يفطر في مكان آخر.

علّقت أنغوليم بسخط: "يُقدَّم له كل شيء في سريره"!

اليوم، قرّر جيرالت البحث عنه، فوجد دانديليون في قاعة الفرسان، مرتديًا قبّعةً حمراء كبيرة ودوبلتًا مذهبًا، يستقبل إطراء السيدات والقوم.

نادى دانديليون: "أيها السيّدات والسادة، دعوني أنفرد بالويتشر".

تفرّق الناس. همس جيرالت بلهجةٍ ساخرة: "ألست تستمتع بإخراجهم من حضورك؟"

نظر دانديليون بفتور: "هل جئت لشيءٍ محددٍ أم لمجرّد السخرية؟"

قال جيرالت: "جئت لأمرٍ مُلحّ. نحتاج ثلاثة خيولٍ جيّدة، لي ولكاهير وأنغوليم، وحصانيْن أو بغلين للزاد والعلف. أتوقّع أن دوقتَكِ تعتبرك ذا شأنٍ يكفي لمنحك ذلك".

فوجئ دانديليون: "هه... ألا تنتظر حتى الربيع؟ فمن رأيي..."

قاطعه جيرالت قائلاً: "إن شئت ابقَ هنا. لكننا سنرحل. زوّدنا بما طلبته".

تنهّد دانديليون: "حسنًا، ستُجهّز لكم الخيول والزاد. لكني أنصحكم بالانتظار حتى ذوبان الجليد..."

ردّ جيرالت: "لقد حسمت".

قال دانديليون بانفعال: "وأنا أيضًا حسمت. سأبقى".

تبادل كلاهما نظرةً طويلةً.

قال جيرالت: "في أيّ دورٍ؟ عاشقٍ أم زوجٍ للدوقة؟ هل جننت؟ الدوقات لا يتزوجن بأغني الشعراء إلا في الحكايات..."

ارتعد دانديليون غضبًا: "هذه قلة أدب! أنا من عائلةٍ نبيلةٍ أصيلة (دي ليتينهوف)! ثم ما بالك تسخر من حبي؟"

قال جيرالت بمرارة: "كلامك ضربٌ من الجنون، ولا أريد أن أراك محطّمًا إن لفظتك كموضةٍ قديمة".

تشنّج دانديليون: "أنت من يتخبّط بالجنون. انظر إلى مغامرتك المستحيلة تبحث عن سرابٍ في سبيل فتاةٍ لا تدري أين هي! وأنا رغم ذلك لم أسخر منك. فلماذا تسخر من قصتي؟ عرفت الحبّ يا جيرالت، ونجحت في تحقيقه. ألن تسمح لي بالاحتفاظ به؟"

ساد الصمت بينهما لفترة.

قال جيرالت أخيرًا: "كلامك شعريّ ورائع. ليس بيدي حجة أقوى. وداعًا دانديليون".

رد دانديليون هامسًا: "وداعًا جيرالت".

* * *

كانت مكتبة القصر ضخمة، أعرض من قاعة الفرسان، بسقفٍ زجاجي يسمح بدخول الضوء. تتكدّس الكتب في أروقةٍ ضيّقة، ومتاهاتٍ من المجلدات بعضها فوق بعض. تقدّم جيرالت بحرص حتى لاحت له فرينغيلا بملابسٍ رماديّة بسيطة، ترفع فستانها قليلًا، غارقة في تصنيف مخطوطات. أجمل ما يكون.

قالت فرينغيلا وهي ترى تعجّبه من الفوضى: "لا تندهش، أوقفت الجرد لأتفرّغ وحدي. أكره عيون الغرباء تراقب عملي".

سأل جيرالت بقلق: "أأذهب؟"

ردّت فرينغيلا: "لا. أنت لست غريبًا. يعجبني وجود عينيك عليّ. تعال واجلس هنا".

جلس الويتشر على مجموعة كتب بعنوان (وصف العالم).

أشارت فرينغيلا نحو كتاب ضخم: "رأيت (سبيكولوم أوريوم)؟"

قال جيرالت: "نعم، سبق وقرأته".

اعتذرت فرينغيلا: "حقًا نسيت. أنت شاهدت الكثير." رفعت كتابًا آخر "جِستا ريغوم. منه تعرف نسب سيري الحقيقي، ودماءها النبيلة..."

قطّب جيرالت حاجبيه فسألته فرينغيلا: "ما الأمر؟ تبدو أكثر عبوسًا؟"

أجاب جيرالت: "دانديليون..."

حكى القصة فعلّقت فرينغيلا: "توقعت ذلك. آنا هنرييتا تبدو عاشقةً متيمة. لمَ لا تصدّق الحبّ؟"

هزّ جيرالت كتفيه بسخط: "المسألة ليست قناعاتي. لكن..."

أومأت فرينغيلا بشفقة: "الحب كالمغص الكلوي، لا تفهمه حتى تختبره. وعندما يخبرونك عنه لا تصدّق".

سكت جيرالت هنيهة: "ربما. لكن العقل يقدر على منع العواقب السيئة".

قالت فرينغيلا: "الحب يهزأ بالعقل، وهذه... متعته".

ردّ جيرالت: "ربما هي حماقة".

نهضت فرينغيلا تقترب منه ببطء، رافعةً قفازاتها الحريرية المغبرّة، تفوح منها رائحة الورق العتيق والأحبار والورود والعنبر، رائحة غريبة لكنها تلهب مشاعره. تلامست أيديهما بخدرٍ ملتهب.

قالت فرينغيلا: "ألا تؤمن بالانجذاب المفاجئ؟ بانفجار كرةٍ نارية تلتقي في مسارها؟ بالكوارث العنيفة؟"

انتصرت شرارة اللهب. عانقها جيرالت وانهالت الكتب على الأرض من حولهما. بادر لنزع ثوبها المرتبك بسلسلةٍ من المجلدات الضخمة. احتكت كتفها بنسخة من (فن التوليد) ورأسه اعترضه (ملاحظاتٌ في الموت المحتوم). تصاعد غبار الورق.

تمتمت فرينغيلا وهي تلهث: "يا إلهي." ثم التصقت ساقاها بخصره، وسقطت الكتب كموجٍ من الشهيق.

أمضيا وقتًا حميمًا بين أكوام المؤلّفات. تنفسا بعمق وفي اللحظة الأخيرة، تمتم جيرالت: "لنبحث عن سرير... لا يجوز إهانة الكتب هكذا".

لم تكن تحتاج حجةً أخرى؛ قادته إلى غرفتها، حيث استمرّا بشغفٍ جنونيّ، وكلماتٍ صادقةٍ حينًا ومخادعةٍ حينًا آخر، لكنها بلا نيّةٍ في الإيذاء.

* * *

عاد جيرالت في إحدى الليالي يركض مع حصانه روش، متذكّرًا تلك الليالي. غاصَ في أفكاره حتى بلغ فناء القصر، ثم دخل الممرات دون أن يشعر به أحد، حتى الشموع لم تتراقص أنوارها.

سمع حديثًا يأتي من المطبخ، كانت أنغوليم تقول:

"ثمة سحرٌ في هذه الدوقية اللعينة! كلنا نهيم بجنون. دانديليون، جيرالت، وحتى أنا أحسّ بشيءٍ غريبٍ. فلنرحل يا رفاق"!

ردّت ميلفا: "كلّمي جيرالت".

سخر كاهير: "عندما يتمكّن من الإفلات بين متعتيْن".

هتف ريجيس مهدّئًا: "اهدؤوا. لا داعي للخلاف".

قالت ميلفا وهي تتنهّد: "أجل، أفسدت الإقامة الطويلة عقولنا".

انسحب جيرالت بلا صوت. عبر أروقةً خالية حتى وصل إلى غرفة فرينغيلا. كانت مستيقظة، فخلعت الغطاء مرحّبةً به دون كلام.

* * *

بعد برهة، سارت فرينغيلا كذلك في ممراتٍ سرّيةٍ، لم ترها الحراسة ولا الصبية. دخلت جدارًا وهميًّا في ركنٍ بعيدٍ من القصر نحو ممرٍّ مخفيّ، ثم غرفةٍ غارقةٍ في الظلام. وقفت أمام مرآة بيضاوية ألقت تعويذةً. تلبّد السطح الزجاجي، ثم انقشع كاشفًا غرفةً أكبر، يجلس فيها تسع نساء حول طاولة مستديرة.

قالت فيليبا إيلهارت: "أهلًا بك يا آنسة فيغو، ماذا لدينا من أخبار؟"

أجابتها فرينغيلا: "لا جديد منذ المرّة السابقة. لم يحاول الويتشر أيّ نوعٍ من الاستبصار".

قطّبت فيليبا: "سيّء. كنّا نعوّل عليكِ لكشف شيء. أخبرينا... هل هدأ؟ أتستطيعين إبقاءه في توسان حتى مايو؟"

أطرقت فرينغيلا، متردّدة. تذكّرت شاردةً أن جيرالت ناداها "ينيفر" مرّتين أثناء ذروة عناقهما. احتفظت بالأمر سرًّا. كانت الساحرات تتوقّعن الصدق.

قالت فرينغيلا: "لا أظن أنّي سأفلح حتى مايو. لكنّي سأبذل جهدي لإبقائه هنا أطول وقتٍ ممكن".

"الكوريد، وحشٌ من عائلة السّتريغيفورميس الكبيرة، يُطلق عليه السكان المحليون أيضًا أسماء مثل كوريغان، روتركين، رومبلستيلتسكين، المتقلب أو المسحور.

شيءٌ واحد يُمكن قوله عنه إنه وحشيٌّ بشكلٍ مرعب.

إنه ابنُ شيطان ووغدٌ حقير وخسيس، لذا لن نكتب شيئًا عن مظهره أو عاداته.

أقول لكم صدقاً لن نُضيّع أنفاسنا على هذا النذل اللقيط".

كتاب فيزيولوجوس

الفصل الرابع

انبثّت في قاعة الأعمدة في قلعة مونتيكالفو رائحةٌ امتزجت فيها روائح الألواح الخشبية القديمة، والشموع الذائبة، وعشرة أنواعٍ من العطور. كانت مخلطات العطور العشرة تلك تختلط في الجوّ بفعل النساء العشر الجالسات حول طاولةٍ مستديرةٍ من خشب السنديان، على كراسٍ حفِرت في مساندها رؤوسٌ على هيئة تماثيل أبي الهول.

راقبت فرينجيلا فيغو تريس ميريجولد، التي جلست قبالتها مرتديةً فستانًا أزرق فاتحًا بأزرارٍ مغلقةٍ حتى العنق. إلى جانب تريس، وقد ظلّت في الظل، جلست كيرا ميتز. تألّقت أقراط كيرا الضخمة، المصنوعة من سترين مُتعدِّد الأوجُه، بألف انعكاسٍ من حينٍ لآخر.

حثّت فيليبا إيلهارت فرينجيلا بنبرةٍ مستعجلة، قائلة:

"تابعي، آنسة فيغو. نحن على عجلةٍ لمعرفة نهاية القصّة... واتخاذ خطواتٍ عاجلة".

لم تكن فيليبا — على غير العادة — ترتدي أي مجوهراتٍ سوى بروش ضخمٍ من العقيق السردوني، مُثبتٍ على ثوبها القرمزي. علمت فرينجيلا أنّ ذلك البروش هديةٌ ممن يشاع أنها هديةٌ خاصّة، وأنّ الصورة المنحوتة عليه تُشير إلى صاحب الهدية.

جلست شيالا دي تانكارفيل بجوار فيليبا، وقد ارتدت ثوبًا أسود تلألأت عليه قطعٌ ماسيةٌ خافتة. أمّا مارجريتا لوكس-أنتيل، فقد اختارت ذهبًا ثقيلًا بلا أحجار، على أقمشةٍ بلون النبيذ العنّابي. وارتدت سابرينا غليفيسيغ حجرها المفضّل "العقيق" — المطابق للون عينيها — في عقدٍ وأقراطٍ وخواتم.

قريبًا من فرينجيلا جلستا فرانسيسكا فيندابير وإيدا إيميان أيب سيفني؛ كانت الزهرة المعروفة باسم "ديزي الوديان" كعادتها بهيةً مَلكيّة الطلّة، وإن لم تكن تصفيفتُها وفستانها القرمزي في ذلك اليوم بتلك الأناقة الصارخة المعتادة، إذ كان تاجها وقلادتها من العقيق الأحمر الخجول، لا من الياقوت. وبدت إيدا إيميان في أقمشةٍ رقيقة من الموسلين والتول بألوان الخريف، تتمايل بشكلٍ أشبه بشقائق النعمان عند أدنى تيارٍ حراري صادرٍ عن دفء التدفئة المركزية.

أثارت أناقة أسيرِه فار أناهِد المعتدلة الإعجاب كعادتها مؤخرًا، إذ ارتدت فستانًا أخضرَ داكنًا ضيقًا، يتوسّطه في العنق حَجَر زمرّدٌ محفورٌ على شكل كابوشون في إطارٍ ذهبي، يتدلّى من سلسلةٍ ذهبيةٍ قصيرة. وتناسقت أظافرها المصبوغة بخضرةٍ داكنة، لتُضيف على إطلالتها مسحة سحرية بالغة.

ذكّرت شيالا دي تانكارفيل فرينجيلا بصوتٍ جاف:

"نحن بانتظارك، آنسة فيغو. والوقت يمر".

تنفّست فرينجيلا بعمقٍ قبل أن تنطق:

"جاء ديسمبر، وحلّ عيد اليول، ثمّ العام الجديد. هدأ الساحر بما فيه الكفاية ليكفّ عن ذِكر سيري في كلّ حوار. بدت حملات القضاء على الوحوش التي يخوضها دوريًّا شاغلةً كلّ وقته. حسنًا... ربّما ليس كلّه"...

توقفت، خُيّل لها أنّها لمحَت شررًا من الكراهية يلوح في عيني تريس ميريجولد الزرقاوين. لكن ربّما كان محض انعكاسٍ من وهج الشموع. زمجرت فيليبا، وهي تلاعب ذلك البروش على صدرها.

قالت فيليبا بصرامةٍ وهي تنظر إلى فرينجيلا:

"لا تتصنّعي الخجل، آنسة فيغو. فنحن نخبة من النساء نعلم جيدًا ما يمكن أن تتيحهُ المضاجعة غير اللذة. نلجأ جميعًا إلى ذلك السلاح عند الضرورة. تابعي رجاءً".

واصلت فرينجيلا بصوتٍ هادئ:

"حتى لو كان في النهار يُظهر غرورًا، وتعالياً، وكبرياءً، فقد خضع لي ليلًا تمامًا. باح بكلّ شيء. مجّد أنوثتي — وهو كريمٌ بالنظر لعمره، ولا أخفيكم إعجابي — ثم يتشبّث بي نائمًا، شفاههُ على صدري، باحثًا عن حنانٍ أموميٍّ لم يختبره قَط".

توقفت لحظة، ثم تأمّلت وجوه المستمعات، وقالت بنبرةٍ تنم عن انتصارٍ مضمَر:

"كان طوع يديّ بالكامل".

علّقت فيليبا بشيءٍ من الضجر وهي تتلاعب بالقطعة الخشبية في بروشها:

"لا تُفرطي في الحياء، آنسة. فنحن دائرة مغلقة من النساء اللاتي يفهمن ما وراء اللذة. كلنا نستخدم ذلك إن لزم. أكملي".

قالت فرينجيلا:

"حسنًا، في الصباح، كان يحاول ادّعاء التكتم والثبات والزهو؛ لكنّ الليل كان يُفقده ذلك كلّه. راح يحدّثني عن كلّ شيء، يقدّم لي فروض ولائه الأنثوي — وهذا ما أسعدني — ثم يغفو بين ذراعي، واضعًا فمه على صدري وكأنه يبحث عن بديلٍ لحنان الأم".

نظرت فرينجيلا نحو تريس، وكأنّها تريد إغاظتها، وتابعت ببطء:

"أجل، كان في قبضتي تمامًا".

قالت شيالا دي تانكارفيل بنبرةٍ جافة:

"ونحن نصدّق ما تقولين. هيا واصلي".

سعلت فرينجيلا في يدها:

"تمثّلت مشكلتي في رفاقه... تلك الفرقة العجيبة التي صحبها ويسمّيها 'الشركة'. كان معهم كاهير ماور ديفرين أيب سيلاك، يحدّق بي ويحاول تذكري لكنه يعجز؛ لأنني نزلت ضيفةً في دارن ديفرا، قلعة أجداده، حين كان طفلًا. ثم ميلفا، تلك الفتاة التي تبدو قوية متبجحة، وقد رأيتها تبكي مرتين في زاوية إسطبل. ثم أنغوليم، مراهقة متهورة. وريجيس تيرزييف-غوديفروي، شخصٌ عجزت عن فهمه. كانوا جميعًا يفرضون عليه سطوةً ما، لم أفلح في اقتلاعها من نفسه".

أطلقت فرينجيلا ضحكةً مكتومة، ثم قالت وهي ترفع حاجبيها صوب الجالسات:

"كثيرًا ما كنت أراهم يجتمعون كل صباح في مطبخ القصر السفلي، الطاهي الملكي — لأسبابٍ لا أفهمها — كان يُحبهم ويُعدّ لهم الفطور الشهي. يستغرقون في تلك المائدة ساعتين أو ثلاثًا أحيانًا. وكم من مرةٍ أكلت معهم، واستمعت لثرثرتهم العبثية".

* * *

سارت دجاجتان — سوداء ومنقّطة — في مطبخ القصر، تلتقطان فتاتًا على الأرض. اجتمع الرفاق على الفطور الغنيّ بيضًا مخفوقًا، حساءً حامضًا من دقيق الشيلم، باذنجانًا مطهوًّا، لحم أرنبٍ مفرومًا، صدور إوزٍ ونقانق مع البنجر، وقرصًا من جبن الماعز. كانوا يأكلون بنهمٍ وصمت، عدا أنغوليم التي تحدّثت بلا انقطاع:

قالت أنغوليم وهي تدفع اللقمة في فمها:

"أقول لكم، ينبغي أن نقيم هنا ماخورًا. بعد أن نُنهي ما نحن مقدمون عليه، سنعود ونفتتح بيتًا فاخرًا... تفقّدت البلدة جيدًا، فوجدت عشرة حلاقين، وثمانية صيادلة، لكنّ ماخورًا واحدًا بائسًا لا يكاد يوجد... لا منافسة! سنفتتح مشروعًا محترمًا. سأكون المديرة، وسنعيش في نعيم؛ بل سينتخبونني في المجلس؛ وبذلك"...

قاطعها أحدهم ضجرًا:

"رأفة بنا يا أنغوليم".

هكذا خيّم الصمت قليلًا. ثم تساءلت أنغوليم بفضولٍ مفاجئ:

"ما الوحش الذي ستصيده اليوم يا جيرالت؟ أسيكون صعبًا؟"

قال جيرالت رافعًا رأسه عن طبقه:

"المشاهدات مختلفة. قد يكون بريسكيرنيك — إذن هو صعب — أو دريليخون — إذن هو صعب أيضًا — أو نجيمبيك — قد يكون أسهل. وربما غادر الوحش بومرول منذ صيف لاماس".

علّقت فرينجيلا وهي تمضغ قطعةً من الإوز:

"أتمنى أن يكون قد رحل".

التفت جيرالت فجأة إلى رفاقه قائلًا:

"ماذا عن دانديليون؟ لم أسمع عنه شيئًا منذ زمن، ولا أعرف إلا أخبارًا متداولة في قصائد ساخرة بالمدينة".

ابتسم ريجيس بشفاهٍ مزمومة:

"حالنا مثلك. نعلم فقط أنه صار قريبًا جدًّا من الدوقة آناربيتا، حتى إنه يناديها — أمام الشهود — بلقب 'القاقم الصغير".'

قهقهت أنغوليم وهي تمضغ طعامها:

"لقبٌ في محله! الدوقة أنفُها يُشبه أنوف حيوان النمِس فعلًا، وأسنانها كذلك".

حدّقت فرينجيلا بعينيها نصف المغمضتين:

"ما من أحدٍ كامل".

تحرّكت الدجاجتان مخترقتين المكان، حتى اقتربتا من قدمي ميلفا. ركلت ميلفا إحداهما بعصبية، فأطلقت الدجاجة نقنقةً مستنكرة.

راقبها جيرالت حتى ناداها بجديةٍ فاجأتها:

"ماريا... إن كانت أحاديثنا سخيفة، فليس لزامًا عليك عقد حاجبيك... ما المشكلة؟"

قالت أنغوليم وهي تزدرد لقمة:

"لابد من وجود أمرٍ ما"...
قاطعها جيرالت بنظرةٍ حادة، لكن بعدما فُهم مقصدها. نهضت ميلفا مندفعة، حتى كادت تسقط كرسيّها:

صرخت:

"ما الذي تعرفه فعليًّا؟ لا شيء! اذهبوا إلى الجحيم جميعًا"!

التقطت كأسها وأفرغتها في جوفها دفعةً واحدة، ثم رمتها أرضًا وغادرت المطبخ وهي تصفق الباب خلفها بعنف.

عادت أنغوليم للتعليق، لكن ريجيس هو من رفع يده وقال بجديةٍ هادئة:

"الأمر أكبر مما تخمينه يا أنغوليم. لم أتوقع رد فعلها القاسي. عادةً ما تفعله فتاة هجرها حبيب؛ لا فتاة هجرت حبيبها".

قال جيرالت بانزعاج:

"أفصحوا عمّا يجري؟ هل يعلم أحدٌ ماذا يضايقها؟"

أجاب ريجيس:

"يتعلّق الأمر بالبارون أماديس دي تراستامارا، صيّاد الفرائس المتعالي ذاك. تقدّم لخطبة ميلفا قبل ثلاثة أيامٍ أثناء رحلة صيد، بعد أن دعاها طَوال شهر"...

هتفت أنغوليم بجرأة:

"إحداها استغرقت يومين مع مبيتٍ في كوخه! أؤكد لكم"...
أسكتها جيرالت" :اصمتي. حدّثنا يا ريجيس".

أكمل ريجيس:

"عرض البارون الزواج رسميًّا. رفضته ميلفا بحدّة. استاء منها وغادر بوكلير غاضبًا، ومنذئذٍ وهي مكتئبة".

تمتم جيرالت بمرارة:

"بقينا هنا طويلًا... طولًا فاحشًا".

علّق كاهير بابتسامةٍ باهتة:

"من يقول هذا الكلام؟"

اعتذر جيرالت:

"معذرة. سنتحدث حين أعود من مهمتي. فالمدير ينتظرني عند بوابة بومرول. وعهد الساحر يوجب الالتزام بالمواعيد".

غادر جيرالت بعد ميلفا، فيما بقي الباقون يتناولون فطورهم في صمت. مرّت الدجاجتان بجوارهم تلتقطان الفتات.

رفعت أنغوليم رأسها من وراء طبقتها نحو فرينجيلا:

"لدي مشكلة"...

أومأت فرينجيلا متفهمة:

"فهمت. ليست كارثة. متى آخر مرة حظيتِ بدورتك؟"

وثبت أنغوليم وهي تنهر بخوف:

"لا! ليس هذا! لدي أمرٌ مختلف تمامًا"!

قالت فرينجيلا بهدوء:

"إذن أخبريني".

تنفست أنغوليم بامتعاض:

"جيرالت ينوي تركي هنا حين يستأنف طريقه... يقول إنه لا يريد المجازفة بي. لكنني أرغب في مرافقته... فمعه وحده أشعر بالأمان ضد فولكو الأعور إن لحق بي".

قاطعها ريجيس بنبرةٍ وديعة:

"لن يفيد شرحكِ شيئًا يا أنغوليم، فأختنا فيغو تُصغي ولا تسمع. لا يشغل بالها سوى احتمالية مغادرة الساحر لها".

أجابت فرينجيلا وهي تقوّم ظهرها:

"جيرالت؟ يغادر؟ ما هذه الخرافة؟ لم يقل لي شيئًا من هذا القبيل. دائمًا يفضي إليّ بكلّ شؤونه".

غمغم كاهير ساخرًا:

"كل شؤونه، طبعًا".

تجاهلت فرينجيلا سخريته، وخاطبت أنغوليم:

"سأناقش الأمر مع جيرالت. سيسمع رأيي بلا ريب".

علّق كاهير:

"كما توقعت تمامًا، يا سيدتي فيغو".

أضافت فرينجيلا وهي تتنفس بعمق:

"لا حاجة له لأن يغادر توسان. أين سيجد مكانًا أفضل من هذا؟ يحظى بمهمات الوحوش يجني منها مالًا وفيرًا. صديقه دانديليون ابن نعمة الدوقة. حتى الدوقة آناربيتا مهتمةٌ به أيما اهتمام، خاصةً بعد قصة السُكّوبيوس الذي كان يطارد مضاجع الناس. فبفضل جيرالت، توقفت تلك المضايقات. لذلك نساء البلاط ممتنات له أيّما امتنان. سيتلقّى مكافأةً إضافية من هؤلاءِ النسوة، وسيودعنّها في مصرف سيانفانيلي، لتضاف إلى ثروةٍ صغيرة جمعها هناك".

توقفت فرينجيلا لحظة، ثم استطردت:

"فأين يجد وضعًا أفضل؟"

نظر إليها ريجيس من دون أن يعلّق. ظلّ كاهير صامتًا بنظراتٍ يعلوها التجهّم. أما أنغوليم، فبدا عليها الارتباك.

أكملت فرينجيلا بنبرة شبه خطابية:

"بفضلي عرف نسب سيري الحقيقي، وأسرارًا عن سلالتها لم يكن يعلمها قبل عام. بفضلي صار يمتلك معلوماتٍ تُعَدّ سلاحًا. وبفضلي، مع حمايتي السحرية، صار بمأمنٍ من مسوحات الأعداء واغتيالاتهم. كما أن ركبته، التي كانت تؤلمه، شُفيت بسحري! يرتدي الآن قلادةً صنعتها له بيدي، ولو أنها ليست بقوة مدالية الويتشر الأصلية، لكنها تفي بالغرض. ببساطة، وبفضلي وحدي، سيكون جاهزًا بحلول الربيع أو الصيف ليواجه أعداءه مدعومًا بالمعلومات والعافية والاستعداد التام. فإن كان بينكم من منح جيرالت أكثر، فليتفضل ويفصح"!

عاد الصمت. رفعت أنغوليم كتفيها. تقدّم كاهير قليلًا وقال بسخرية مقيتة:

"بالفعل، لم يمنحه أحدٌ مثلما أعطيته أنتِ، آنسة فيغو".

هزّت فرينجيلا كتفيها:

"الهدف واضح؛ يحظى بالرفاه والعيش الهنّي... أحقًا تريدون جرّه إلى فجاج الثلج والعواصف؟ تأكدوا أن شعوره بالذنب والسعي للتكفير هما ما دفَعَكُم جميعًا في هذا الطريق، ولكن أنا أُجنّبه هذه المعاناة".

تحرك ريجيس مدققًا بنظره، وقال بجديّة:

"إن ساقت الأقدار جيرالت لاستعادة سيري، فسيحدث الأمر حيثما كان، لا حاجة له للبحث عن قدره في أمكنة أخرى. كلامكِ مفهوم. لكن أن نقول إن القدر سيتحقق أينما جلسنا أو تحركنا، قد يجرّنا للخمول والاستسلام. قد يتحوّل للحياة في حلمٍ دافئ ما يلبث أن يذوي في صرخة".

* * *

قالت وهي تتلعثم:

"جاء الثامن من يناير، صباحًا مضى الساحر إلى بومرول... ثم عاد ... في الثامنة مساءً ... أو التاسعة صباحًا ... لا أدري... ذهبت"...

حاولت شيالا تشجيعها بلطف:

"رتّبي أفكاركِ، آنسة فيغو. إن كنتِ متحرجة من شيء، تجاهليه".

* * *

فُتح الباب بقوة، ودخل جيرالت بخطواتٍ صارمة، وعلى وجنته كدمة، وجُرحٌ أحمر. وهتف:

"استعدّوا يا رفاق، حزِّموا أمتعتكم! نرحل فورًا! خلال ساعةٍ واحدة أريد رؤيتكم على التل خارج البلدة، هناك بجانب العمود. محمّلين، في السروج، مستعدين لرحلةٍ طويلة وشاقّة"!

بدا وكأنهم كانوا يتهيؤون لمثل هذا القرار منذ زمن.

قفزت ميلفا صارخة:

"حاضر! سأكون جاهزةً في دقائق"!

أضاف كاهير بملامحٍ جامدة" :لكنني أريد أن أفهم... شجارٌ عاطفي؟ أم مزاجٌ عابر؟ أم ماذا؟"

قال جيرالت وهو يتجه نحو الخارج:

"إنه الرحيل حقًا. أنغوليم، لا تفعلي هذه النظرة. لن أتخلى عنكِ. سترافقيننا. جمّعي أغراضكِ في الحال. ونلتقي هناك بعد ساعة".

صاحت أنغوليم بسعادة:

"أخيرًا"!

خلال لحظاتٍ تفرّق الجميع وبقي ريجيس وحده عند الطاولة، مستمرًا في التهام الحساء بنهمٍ هادئ.

سأله جيرالت:

"أما زلت هنا؟ لمَ لا تحزم متاعك؟"

أجاب ريجيس: "أنتظر شرحًا يليق بشخصٍ في عمري. لست صبيًّا حتى يكفيك أن تصرخ بي كالباقين. أريد فهم ما يحدث".

تنفّس جيرالت قليلًا، ثم أفصح:

"حسنًا، تذكُر اتفاقي مع مدير بومرول..."

* * *

كان فييرابراس بانتظاره ببغلٍ محمّل، مستعدًا لرحلةٍ شاقة، قائلًا:

"بومرول ليست قريبة كما تظن يا سيّدي. إن وصلنا الظهيرة، نعدّ ذلك إنجازًا".

علّق جيرالت ببرود:

"كنا لنوفر الوقت لو انطلقنا باكرًا".

زمجر المدير:

"لم أكن أتوقع من نبيلٍ مثلكم أن ينهض فجرًا. معظمكم يحب النوم المتأخر".

لم يردّ جيرالت، وسرعان ما عبرا طرقات البلدة نحو ساحةٍ خالية. مرّا بجانب منصة الإعدام، حيث شنق موسيقيٌّ بتهمة نظم أشعارٍ ساخرة.

قال فييرابراس:

"الغناء الذي فيه هجاء قد يكلّف المرء حياته هنا".

علّق جيرالت:

"لا يمكن خنق الأغنية".

ردّ المدير" لكن بالإمكان خنق صاحبها".

واصلا المسير على طريقٍ يمتد بجانب نهر بليسور السريع، ومرّا بكتيبةٍ من الفرسان تتفاخر بشعاراتها الملوّنة. استحضر جيرالت ذكرى الفارس رينارت دي بوا-فرين، الذي ينال قسطًا من الراحة بعد عودته من مهامّه.

تابع فييرابراس شروحاته عن القرى والأطلال وما يُنسج حولها من حكايات، فمرّا بقريةٍ يزعم أن أواني الطبخ تنمو في حقولها، ثم خرائب دون تين التي شهدت مذبحةً من صاحبها الغيور. لم يكن جيرالت يُجيب إلا باقتضاب.

لاح لهما أخيرًا شريطٌ من مزارع العنب، ثم تبيّنت قلعة بومرول القائمة على تلةٍ أعلى الوادي. غير أنّ فييرابراس أكّد أنهما لن يتوقفا هناك، بل خلفها حيث ترتفع قلعةٌ أصغر تدعى زوربارّان. بدت مظلمةً بائسة، ما أثار توقعات جيرالت بوجود الوحش. لكنه لدى وصوله وجد عمّالًا يجهزون البراميل والصناديق، وأُلحق به دليلٌ اسمه سيمون غيلكا.

حكى غيلكا كيف رأى أحدهم وحشًا أسود كالهلام بأطرافٍ طويلة. وحين سأله جيرالت عن التفاصيل ووقت ظهوره الأول، تعارض كلامه مع ما ادّعاه فييرابراس سابقًا. بدا أنّ لا أحد يعلم تمامًا. ولم تظهر هجمات، لكن في العام الماضي اختفى خادمٌ وأشيع أنه ربما هرب لديونٍ عليه.

ترجّل جيرالت إلى القبو، فوجد دهاليز وأقبية تشبه منجمًا قديمًا تركوه بعد اكتشاف كروم العنب. وعلى الرغم من ارتجاج مدالية فرينجيلا حيال قطة برتقالية في الفناء، فإنها لم تهتز في مواضع الخطر الحقيقي. فجأة، ظهر أمامه غريملين (أو ما يشبهه) يصرخ ويختفي في فتحة. حين لحقه، انهارت الأرض تحته فسقط في بئرٍ صغير من الرمال والحجارة، ليجد نفسه فوق كومةٍ من العظام البشرية المقيدة المكبّلة، عليها آثار عضٍّ ونهش.

تابع التقدم متحسسًا طريقه إلى كهفٍ شاسعٍ مظلم، تتوسطه هوّةٌ سحيقة يتصل جانباها بجسرٍ حجري متهالك. لم تهتز الميدالية رغم وضوح الخطر. عبر الجسر بحذر، وهناك اكتشف دهليزًا منحوتًا في الصخر، بنُصبٍ وأقراصٍ منقوشةٍ برموزٍ كالهلال والوحدورن (اليونيكورن) والدولفين وغير ذلك.

فجأةً تناهى إلى سمعه صوتٌ بشري، فاتبع مصدره حتى وصل إلى حجرةٍ صغيرة فيها أربعة أنابيبٍ نحاسية تنتهي كبوقٍ كبير، يتوسطها كرسي يجلس عليه هيكل عظمي يتدلّى من عنقه طوقٌ ذهبي، ويرتدي بقايا قبعةٍ وصدرية. تبيّن لجيرالت أن الأبواق موصولةٌ بمواضع أخرى في القلعة، تنقل الأصوات بدقة.

كان أحد الرجال الذين يتم التنصت عليهم يملك صوتًا عميقًا جهوريًّا أشبه بدمدمةِ الطبل. وحين تكلّم اهتزّ الأنبوب النحاسي.

قال بصوته المجلجل الرجل موجّهًا حديثه إلى سكيلين:

"واها! أنفك يسيل يا سكيلين. أين التقطتَ هذه الزكام؟ ومتى؟"

أجاب بأنفٍ مزكوم الرجل المعنيّ:

"لا يستحق الأمر أن أذكره. أصبتُ بهذا المرض اللعين والآن لا يفارقني. متى انحسر عاد من جديد. حتى السحر لا يفيد".

تعجّب بصوتٍ مبحوح كصدى مفصلةٍ صدئة رجلٌ آخر:

"ربما عليك تبديل الساحر الذي يعالجك؟ لأن فيلغيفورتز حاليًّا لا يمكنه الافتخار بأي إنجاز، أقول..."

قاطعه بصوتٍ يتميّز بامتدادٍ واضح في المقاطع رجلٌ ثالث:

"دعك من ذلك. لم نجتمع هنا، في توسان، عند أقصى العالم، من أجل مناقشة أمرٍ كهذا".

زمجر أحدهم:

"في آخر بقعةٍ ملعونةٍ من العالم"!

قال صاحب الزكام ذاته، وقد واصل نفث أنفه:

"هذه 'أطراف العالم 'هي البلد الوحيد الذي أعرفه لا يملك جهازًا أمنيًّا خاصًّا به. الزاوية الوحيدة من الإمبراطورية التي لا تزحف فيها عيون فاتيير دي ريدو. يعتبرون هذه الدوقية الغارقة في المرح والخمرة والتخبّط أمرًا هزليًّا لا يستحق الاهتمام".

علّق ببطءٍ ممدود الرجل ذو المقاطع المطوّلة:

"البلدان الصغيرة كهذه، كانت على الدوام جنّةً للجواسيس، ومواقع مفضّلة للقاءات السرية. لذا تجدها تجتذب مضادّي التجسس والمخبرين المحترفين، وغيرهم من المتخصصين في التنصت والتحرّي".

قال صاحب الزكام:

"ربما كان الأمر كذلك قديمًا، لكنه ليس كذلك في ظل الحكم النسويّ الذي يحكم توسان منذ ما يقارب مئة عام. أكرّر نحن آمنون هنا. لن يقتفي أحد أثرنا أو يتنصت علينا. بوسعنا، تحت مظهر التجار، أن نناقش بهدوء مسائل شديدة الأهمية لأصحاب السموّ الدوقي... شديدة الأهمية لثرواتكم الخاصة وممتلكاتكم".

صاح بغضبٍ الرجل ذو الصوت المبحوح كالمفصلة الصدئة:

"أنا أحتقر المصلحة الشخصية، هذا كلّ ما في الأمر! ولم أحضر إلى هنا لمصلحة شخصية! لا يعنيني إلا خير الإمبراطورية. وخير الإمبراطورية — أيها السادة — أن نحظى بسلالةٍ حاكمةٍ متينة. سيكون ضررًا فادحًا على الإمبراطورية أن يعتلي عرشها هجينٌ، ثمرةٌ فاسدةٌ من دماءٍ عليلة، ونَسْلُ أولئك الملوك الشماليين المرضى بدنيًّا وأخلاقيًّا. لا، أيها السادة، أنا دو فيت من عائلة دو فيت، لن أقف مكتوفًا تحت شمس العظمة الكبرى أمام أمرٍ كهذا! ولا سيما أن ابنتي كانت قابَ قوسٍ أو أدنى من أن تُخطب"...

زمجر بصوته الهادر الرجل صاحب النبرة العميقة:

"ابنتك، يا دو فيت؟ ماذا عساني أن أقول أنا الذي ساندت ذاك الجرو إمير في صراعه ضد المغتصِب؟ بل إن طلاب الأكاديمية انطلقوا من قصر إقامتي لاقتحام القصر! وبعدها، ذلك الثعلب الصغير نظر بعين الرضا إلى ابنتي إيلان، ابتسم وأطرى عليها، بينما راح — علمت لاحقًا — يعبث بنهودها وراء الستار. والآن ماذا؟ إمبراطورةٌ جديدةٌ من العدم؟ أية إهانة؟ أية وقاحة؟ إمبراطور الإمبراطورية الأبدية يفضّل تائهةً من سينترا على بنات البيوت العريقة؟ ماذا؟ لقد اعتلى العرش بإرادتي، والآن يجسر على إهانة ابنتي إيلان؟ لا، لن أسكت"!

هتف بصوتٍ عالٍ مفعمٍ بالحماسة رجلٌ آخر:

"ولا أنا! لقد أساء إلي أيضًا! نبذَ زوجتي من أجل تلك السنترية الضالة"!

قال الرجل ذو المَقاطع الممدودة:

"على أي حال، يقال إن تلك الضالة قد أُرسِلت إلى العالم الآخر... هذا ما فهمته من سرد اللورد سكيلين".

اعترض بصوتٍ مبحوح صاحب الحنجرة الصدئة:

"استمعتُ لذلك التقرير بانتباه، واستنتجتُ أنه لا شيء مؤكد سوى أن تلك الضالة اختفت. إن كانت اختفت فقد تعود للظهور. لقد اختفت وظهرت عدة مرّات منذ العام الماضي! حقًا يا لورد سكيلين، خيّبت آمالنا بشدة، هذا هو الواقع. أنتَ وذلك الساحر فيلغيفورتز"!

احتدّ رجلٌ آخر بصوتٍ واضح:

"ليس الوقت مناسبًا يا جواتشيم! لا وقت لنلوّح بالاتهامات ونلقي اللوم في ما بيننا ونزرع الشقاق. ينبغي أن نكون قوّةً موحّدة وصلبة... وحاسمة. فإن كان الإمبراطور قد تجرأ من قبل على الإساءة للعائلات النبيلة دون رادع، سيعاود الكرة لا محالة! لم تعد تلك السنترية موجودة؟ إذن خلال أشهر قد يفاجئنا بإمبراطورة من زيريكانيا أو زانغفيبار! لا، تحت شمس العظمة، لن نسمح بذلك"!

ردّ بصوتٍ عميق الرجل المزمجر:

"لن نسمح، الأمر بهذه البساطة! أحسنت يا آردال! لقد قضى على آمال أسرة إمريس. كل لحظة يمكث فيها إمير على العرش يجرّ ضررًا للإمبراطورية، بهذه البساطة. وهناك من نضعه على العرش فورهيس الشاب"...

دوّى عطسٌ قويٌّ أعقبه صوت نفخ الأنف بصوتٍ عالٍ.

قال العاطس وهو يشهق:

"ملكية دستورية! لقد حان الوقت لملكية دستورية، بنظامٍ سياسيّ تقدّمي. وبعدها ديمقراطية... حكم الشعب"...

ردّ بالصوت الجهوري الرجل العميق متوجّهًا إلى ستيفان سكيلين:

"الإمبراطور فورهيس، يا ستيفان سكيلين. الذي سيقترن بابنتي إيلان أو إحدى بنات جواتشيم. وعندها سأكون أنا مستشار التاج الأكبر، ودو فيت يصبح مارشال الشؤون الداخلية. أما أنت، وأنت المدافع عن عامة الناس، فربما تتنازل عن اللقب والمنصب، صحيح؟"

قال بنبرةٍ تصالحية الرجل ذو الزكام:

"لندَع المراحل التاريخية جانبًا، لا شيء سيوقفها على أي حال. لكن في الوقت الراهن يا صاحب السموّ المستشار الأكبر آيب داهي، لديّ بعض التحفظات حيال الأمير فورهيس، في الأساس لأنه رجلٌ شديد الصلابة، متكبرٌ وعصيٌّ على التليين".

أضاف بصوتٍ ممدود الرجل الذي يطيل مقاطعه:

"إن سمحتم لي، الأمير فورهيس لديه ابنٌ صغيرٌ اسمه مورفران. هو مرشّح أفضل بكثير. أولًا لديه حقٌّ أمتن في العرش، من جهة الأب والأم على حدٍّ سواء. ثانيًا إنه طفل، وستتولى عنه الحكمَ وصايةٌ من مجلس الأوصياء... أي نحن".

صاح باحتجاج صوتٌ آخر:

"حماقة! يمكننا تدبير أمر والده أيضًا! سنجد وسيلة"!

اقترح بصوتٍ مندفع الرجل صاحب الحماسة العالية:

"يمكنني أن أُطلق عليه زوجتي"!

زجره بصوتٍ عميق الرجل الجهوري:

"اصمت يا لورد بروين. ليس وقته الآن. أيها السادة، ثمة قضية أخرى علينا مناقشتها. ما زال إمير فار إمريس على العرش".

شخّر صاحب الزكام في منديله وقال:

"لا يزال حيًّا ويملك كامل قواه الجسدية والعقلية. خصوصًا العقلية، بعد طرده لجلالتكم وجيوشكم من نيلفجارد — تلك الجيوش التي ربما كانت لا تزال موالية لكم. كيف تخطط يا دوق آردال لانقلابٍ في حين ربما يستدعيك الأمر في أي لحظة لقيادة جيش الشرق؟ ولعل الدوق جواتشيم الآن في طريقه إلى ساحته هو وجيش العمليات الخاصة في فيردن".

صاح بغضب رجلٌ خشن الصوت:

"كفى سخرية يا ستيفان سكيلين! ولا تعبّر بوجهك هكذا ظنًّا منك أنك تشبه وليّ نعمتك الجديد الساحر فيلغيفورتز. واعلم يا 'بومة الخريف'، بما أن إمير يشكّ بأمرٍ ما، فأنتَ وفيلغيفورتز تتحملان اللوم. اعترف، كنت ترغب بالقبض على تلك السنترية والمقايضة بها لاسترضاء إمير، صحيح؟ والآن ماتت الفتاة، فلا مجال للمساومة. إمير سيمزّقك بالخيول لا محالة، هذا هو الواقع. عليك أن تقبل بذلك بتواضع. أنتَ والساحر الذي تحالفتَ معه ضدنا"!

تدخل بالصوت المجلجل الرجل العميق:

"علينا جميعًا قبول ذلك يا جواتشيم. حانت لحظة المواجهة مع الحقائق. لسنا في وضع أفضل من سكيلين. التطورات جعلتنا كلّنا في قاربٍ واحد".

اعترض الرجل المبحوح (جواتشيم):

"لكن البومة هو الذي جرّنا لهذا القارب! كنا سنعمل بالسرّ، والآن ماذا؟ يعرف إمير كلّ شيء! عملاء فاتيير دي ريدو يطاردون بومة الخريف في أرجاء الإمبراطورية. وأُرسِلنا نحن إلى الحرب للتخلّص منّا ببساطة"!

علّق ببطء الرجل ذو المقاطع المطوّلة:

"أنا راضٍ عن ذلك. سأستغله. الجميع سئم هذه الحرب، صدقوني أيها السادة — الجيش، والعامة، وبشكلٍ خاص التجار وأصحاب الأعمال. خبر إنهاء الأعمال القتالية سيُستقبَل بابتهاجٍ عارم في أرجاء الإمبراطورية، بغضّ النظر عن نتيجتها. وأنتم — بوصفكم قادةً للجيوش — تملكون تأثيرًا فعليًا في مصير الحرب، أليس كذلك؟ ما أسهل أن ترتدوا إكليل الغار في حال كان النصر حليفكم ويُنهي الحرب، أو إن انهزمتم تقدّمتم كصنّاع السلام المنقذين من نزيف الدم"!

علّق الرجل الأجشّ بعد لحظة:

"تحدّثت جيدًا يا لورد لوفاردن، تحت شمس العظمة هذا الكلام منطقي".

أردف بصوته الهادر الرجل العميق:

"بإرسالكم إلى الجبهة، وضع إمير حبل المشنقة حول عنقه".

قال صاحب الحماسة العالية:

"إمير ما يزال حيًّا يا صاحب السمو. حيًّا يُرزق، فلا تبيعوا جلد الدب قبل اصطياده".

هتف بصوته الرهيب الرجل العميق:

"لا، بل لنصطَدِ الدب أولًا"!

ساد الصمت الطويل.

قال أحدهم في النهاية:

"اغتيال إذن. الموت".

رد آخر:

"الموت".

صرخ آخر:

"الموت"!

حسم رابع:

"الموت، إنّه الحل الوحيد. ما دام على قيد الحياة، فإمير لديه أنصار. وحين يموت، سيؤيّدنا الجميع. الأرستقراطية ستكون معنا؛ فنحن الأرستقراطية، وقوتها في تضامنها. وقسم كبير من الجيش سينضم إلينا، خصوصًا الضباط الذين يذكرون تطهير إمير لهم بعد هزيمته في سودين. أما العامة فسينحازون إلينا..."

أكمل سكيلين وهو ينفث أنفه:

"لأن العامة جاهلة، غبية، سهلة التلاعب. يكفي أن نهتف ' هُرَّاء!' ونلقي خطابًا من درج مجلس الشيوخ، ونفتح السجون ونخفّض الضرائب".

وافقه الرجل الذي يمطّ المقاطع:

"مصيب أنت يا كونت. الآن أدركتُ لمَ تنادي بالديمقراطية".

حذّر من جديد بصوته المبحوح الرجل المُدعى جواتشيم:

"احذروا، فلن يتم الأمر بسهولة. خطتنا تعتمد على موت إمير. ولا يمكننا تجاهل أنّ لإمير أعوانًا كثرًا، وجيشًا داخليًا، وحرسًا متعصّبًا. لن يكون اقتحامنا للواء إمبيرا سهلًا؛ سيقاومون حتى آخِر جندي".

قال بوضوح سكيلين:

"هنا يأتي دور فيلغيفورتز في مساعدتنا. لن نحتاج لحصار القصر أو قتال 'الإمبيرا'. سيكفي قاتلٌ واحدٌ يتمتع بحمايةٍ سحرية. كما حدث في تريتوغور قبل تمرد السحرة على ثانيد".

عقّب أحدهم:

"الملك رادوفيد من ريدانيا".

أومأ سكيلين:

"نعم بالضبط".

سأله آخر:

"هل لدى فيلغيفورتز مثل هذا القاتل؟"

أجاب سكيلين:

"نعم. ولإثبات مصداقيتنا يا سادة، سأكشف هويته الساحرة ينيفر، التي نقبع بها أسيرةً".

اعترض أحدهم:

"أسيرة؟ سمعتُ أن ينيفر كانت حليفة فيلغيفورتز".

نفى سكيلين:

"إنها سجينةٌ لديه. ستنفّذ الاغتيال كأنها غوليم، تحت السحر والتنويم والبرمجة. ثم تنتحر".

أبدى الذي يمطّ المقاطع تذمرًا:

"ساحرةٌ مسحورة لا تروقني كثيرًا. الأفضل بطلٌ مثاليٌّ متحمّس، منتقمٌ غاضب..."

قاطعه سكيلين:

"منتقم؟ هذا مناسب تمامًا يا لورد لوفاردن. ستكون ينيفر المنتقِمة للظلم الذي لحق بها على يد الطاغية. إمير عذّبها وأودى بحياة تلميذتها، طفلةٍ بريئة. ذلك المستبدُّ المنحرف، بدلاً من رعاية الإمبراطورية وشعبها، طاردَ طفلةً وعذّبها. لن ينجو من الثأر..."

هتف آردال آيب داهي:

"أوافق بشدة".

صاح جواتشيم دو فيت بصوته الأجشّ:

"وكذلك أنا"!

ابتهج متحمسًا الكونت بروين:

"رائع! لن يفرّ من عقابه على ما فعله بزوجات الآخرين! ممتاز!"

لكن لوفاردن مدّ كلماته تحذيرًا:

"هناك أمر واحد. لنيل ثقتنا يا كونت ستيفان، يجب أن تكشف لنا مكان فيلغيفورتز حاليًّا".

تردد سكيلين:

"أيها السادة، هذا... هذا ممنوع عليّ"...

عقّب آيب داهي بجدية:

"سيكون ضمانًا لإخلاصك للقضية. لا تخشَ الخيانة يا ستيفان؛ فلا أحد هنا سيغدر بنا. إنها مفارقة غريبة في ظروفٍ أخرى قد يفكّر أحدنا بشراء حياته بالخيانة. لكننا نعلم جميعًا ألا جدوى تُرجى من ذلك؛ فإمير فار إمريس لا يعرف معنى الغفران. يعجز عن مغفرة أحد. في صدره كتلة جليد... ولهذا يجب أن يموت".

لم يطل تردّد ستيفان سكيلين. بل قال في النهاية:

"حسنًا... ليكن هذا برهان حقيقي لكم. إن فيلغيفورتز مختبئ في"...

* * *

كانت شكوك الويتشر حول تعليقة فرينجيلا في غير محلها إذ تبددت في لمح البصر. إذ اهتزت التعليقة وخفقت على عنقه عندما اقترب من الجسر الحجري الممتد فوق الهاوية السوداء داخلاً الكهف الواسع، تلك الهاوية لم تكن الآن تشبه عصفورًا صغيرًا، بل طائرًا كبيرًا قويًا. غرابًا أسود.

تجمد جيرالت في مكانه. حتى عندما هدأت التعليقة. لم يتحرك أدنى حركة، حتى لا يصدر أي حفيف أو نفس عالٍ يربك أذنيه.

انتظر. عرف أن ما يكمن في الظلام يتربص على الجانب الآخر من الهاوية، خلف الجسر. لم يستبعد أن شيئًا ما قد يكون مختبئًا خلف ظهره أيضًا، وأن الجسر نفسه قد يكون فخًا. لم يكن لديه أي نية للوقوع فيه. انتظر. حتى حدث ماكان يتوقع.

سمع صوتًا يقول:

"مرحبًا، أيها الويتشر.. لقد كنا بانتظارك هنا".

بدت نبرة الصوت النابع من الظلام غريبة. لكن جيرالت قد سمع أصواتًا مشابهة من قبل، وعرفها. أصوات مخلوقات لم تعتد التواصل باستخدام الكلام. تستطيع هذه المخلوقات استخدام أجهزة الرئتين والحجاب الحاجز والحنجرة وصندوق الصوت، لكنها لم تكن تسيطر تمامًا على أجهزة النطق لديها، حتى وإن كانت بنية شفاهها وأحبالها وألسنتها تشبه إلى حد كبير تلك التي لدى البشر. كانت الكلمات التي تنطق بها مثل هذه المخلوقات، بعيدًا عن لكنتها الغريبة ونغمتها المميزة، مليئة بأصوات غير محببة لأذن الإنسان – من أصوات خشنة تنبح بنزق إلى هسهسة ناعمة ولزجة.

كرر الصوت: "كنا ننتظرك"

"علمنا أنك ستأتي، مغرًى بالشائعات. أنك سترحف إلى هنا، تحت الأرض، لتتعقب وتطارد وتعذب وتقتل. لكنك لن تغادر هذا المكان الآن ولن ترى الشمس التي أحببتها كثيرًا مرة أخرى".

"أظهر نفسك".

تحرك شيء ما في الظلام على الجانب البعيد من الجسر. بدا الظلام في مكان معين وكأنه يتكثف ويتخذ شكلاً بشريًا تقريبًا. بدا أن المخلوق لا يستقر في مكان أو وضعية واحدة للحظة، بل يتحرك بحركات سريعة، عصبية، متلألئة. كان الويتشر قد رأى مثل هذه المخلوقات من قبل.

قال جيرالت ببرود.:

"كوريد، كان يمكنني أن أتوقع وجود أحدهم مثلك هنا. من المدهش أنني لم أصادفك من قبل".

بدت السخرية في صوت المخلوق القلق :

"حسنًا، حسنًا الظلام حالك، لكنه عرفني. وهل تعرف هذا؟ وذاك؟"

برزت ثلاثة مخلوقات أخرى من الظلام، بلا صوت كالأشباح. كان أحدها، الذي يتربص خلف ظهر الكوريد، يشبه الإنسان في الشكل والمظهر العام، لكنه كان أقصر وأكثر انحناءً وأشبه بالقردة. عرف جيرالت أنه كيلموليس.

كان الوحشان الآخران، كما توقع بحق، يتسللان أمام الجسر، جاهزين لقطع طريق هروبه إذا ما خطا عليه. الأول، على اليسار، خدش بمخالبه كعنكبوت ضخم، توقف عن الحركة ثم حرك أرجله العديدة ببطء. كان بريسكيرنيك. أما المخلوق الأخير، الذي يشبه تقريبًا شمعدانًا، فقد بدا وكأنه ينزلق مباشرة

من جدار الأردواز المتشقق. لم يستطع جيرالت تخمين ماهيته. لم يرد مثل هذا الوحش في أي من كتب الويتشر.

كان يأمل أن المخلوقات بدأت بالحديث بدلاً من القفز على ظهره في الظلام فجأة، قال جيرالت:

"لا أريد القتال، لا أرغب في استفزازكم للقتال لكن إن اضطر الأمر، سأدافع عن نفسي".

هسهس الكوريد:

"أخذنا ذلك في الحسبان، لذلك نحن أربعة. لذلك استدرجناك إلى هنا. لقد أجبرتنا على حياة الكلاب، أيها الويتشر الماكر، أجمل الجحور في هذه المنطقة من العالم، مكان رائع لقضاء الشتاء. كنا نقضي الشتاء هنا منذ فجر الزمن تقريبًا. والآن أتيت إلى هنا لتصطادنا أيها الضائع وتطاردنا، وتتربص بنا، تقتلنا من أجل المال. لكننا سنضع حدًا لذلك. ولك أيضًا".

"اسمع، أيها الكوريد..."

قاطعه المخلوق بنزق :"كن مهذبًا لا أطيق الفظاظة".

"كيف ينبغي أن أخاطبك..."

"السيد شفايتزر".

"حسنًا، السيد شفايتزر،" استمر جيرالت، مطيعًا على ما يبدو وبلطف: "الأمر كالتالي. أتيت إلى هنا، أعترف، كويتشر، بمهمة ويتشر. أقترح أن نتجاوز هذه المسألة. لكن شيئًا ما حدث في هذه الأقبية غير الوضع جذريًا. علمت بشيء بالغ الأهمية بالنسبة لي. شيء قد يغير حياتي كلها".

"وماذا يترتب على ذلك؟"

"يجب أن أخرج إلى السطح فورًا." كان جيرالت نموذجًا للهدوء والصبر. "يجب أن أنطلق فورًا في رحلة طويلة، دون لحظة تأخير. طريق قد يكون بلا عودة. أشك أنني سأعود إلى هذه المناطق مجددًا..."

هسهس السيد شفايتزر:

"أتريد شراء حياتك بهذه الطريقة، أيها الويتشر؟ لا فائدة من ذلك، إن توسلاتك باطلة. أمسكنا بك ولن نتركك تفلت. سنقتلك ليس فقط من أجلنا، بل من أجل رفاقنا الآخرين. من أجل حريتنا وحريتك، إذا جاز التعبير".

واصل جيرالت بصبر:

"لن أعود إلى هنا أبدًا، بل سأتوقف عن نشاطي كويتشر. لن أقتل أيًا منكم مجددًا..."

"تكذب! تكذب خوفًا"!

"لكن..." لم يسمح جيرالت بالمقاطعة هذه المرة أيضًا "...كما قلت، يجب أن أخرج من هنا فورًا. لذا أمامكم خياران للاختيار. أولًا، ستصدقون صدقي، وأترككم هنا. أو ثانيًا، أخرج من هنا فوق جثثكم".

"أو ثالثًا،" زأر الكوريد: "ستكون أنت الجثة".

احتك سيف الويتشر بحدة وهو يسحبه من غمده على ظهره. "لست الوحيد،" قال بلا عاطفة. "بالتأكيد لست الوحيد، السيد شفايتزر."

صمت الكوريد لبعض الوقت. كان الكيلموليس يتمايل ويزمجر خلف ظهره. كان البريسكيرنيك يثني أطرافه ويمددها. كان الشمعدان يغير شكله. بدا الآن كشجرة عيد ميلاد مشوهة بعينين متوهجتين ضخمتين.

"أعطنا دليلًا،" قال الكوريد أخيرًا: "على صدقك وحسن نيتك".

"ماذا؟"

"سيفك. تدّعي أنك ستتخلى عن كونك ويتشر. الويتشر هو سيفه. ارمِه في الهاوية. أو كسّره. ثم سنتركك تخرج".

وقف جيرالت للحظة دون حراك. كان صوت الماء يتقاطر من الجدران والسقف يتردد في الصمت. ثم، ببطء، دون استعجال، غرس سيفه عموديًا وبعمق في شق صخري. وضرب النصل بقوة بكعبه فكسره. تحطم النصل بأنين تردد صداه في الكهوف.

تقاطر الماء من الجدران، ينزلق عليها كالدموع.

"لا أصدق،" قال الكوريد ببطء. "لا أصدق أن أحدًا يمكن أن يكون بهذا الغباء".

هجموا عليه جميعًا، في الحال، دون صراخ أو ضجيج أو أوامر. تقدم السيد شفايتزر أولاً عبر الجسر، مخالبُه ممدودة، يكشف عن أنياب ما كانت لتُخجل ذئبًا.

ترك جيرالت المخلوق يقترب، ثم لوى خصره وبتر حلقه وفكه السفلي بضربة قاطعة. في اللحظة التالية، كان على الجسر يشق الكيلموليس بضربة قوية. انخفض وسقط أرضًا في الوقت المناسب، فطار الشمعدان المهاجم فوق رأسه، يكاد يخدش جاكيته بمخالبه. تفادى جيرالت البريسكيرنيك، مبتعدًا عن أرجله الرفيعة التي تومض كالمناجل. أصابته ضربة من إحداها على جانب رأسه. رقص جيرالت، يخادع بحركة وهمية، محيطًا نفسه بضربة شاملة. قفز البريسكيرنيك مجددًا، لكنه أخطأ. اصطدم بالحاجز وحطمه، متهاويًا في الهاوية مع وابل من الحجارة. لم يكن قد أصدر أدنى صوت حتى تلك اللحظة، لكنه الآن عوى وهو يهوي في الهاوية. خفت العواء تدريجيًا.

هاجموه من جهتين من جهة الشمعدان، ومن الأخرى الكيلموليس، الذي، رغم جراحه ونزيف دمائه، استطاع الوقوف. قفز جيرالت على درابزين الجسر، شعر بالحجارة تتحرك وتطحن بعضها بعضًا والجسر كله يرتجف. توازن، انزلق بعيدًا عن متناول أقدام الشمعدان المخلبية، فوجد نفسه خلف ظهر الكيلموليس. لم يكن للكيلموليس رقبة، فبتر جيرالت صدغه. لكن جمجمة الوحش كانت كالحديد، فاضطر لضربه مرة ثانية. استغرق ذلك وقتًا أطول مما ينبغي.

أصيب في رأسه، فانفجر الألم في جمجمته وعينيه. دار حول نفسه، يدافع بصدّة، يشعر بالدم يتدفق من تحت شعره، يحاول جاهدًا أن يفهم ما حدث. تفادى ضربة أخرى من المخالب وأدرك. كان الشمعدان قد غير شكله يهاجم الآن بأرجله الممدودة بشكل غير معقول.

كان لذلك عيب. أصبح مركز ثقله وتوازنه مضطربين. انخفض جيرالت تحت الأرجل، مقتربًا. رأى الشمعدان ما يحدث، فسقط على ظهره كالقط، ممدًا أرجله الخلفية التي كانت مخلبية كأرجله الأمامية. قفز جيرالت فوقه، يبتر في منتصف القفزة. شعر بالنصل يقطع اللحم. انكمش، استدار وبتر مرة أخرى، منخفضًا على ركبته. صرخ المخلوق وألقى رأسه للأمام بعنف، يعض بأسنانه الضخمة بشراسة أمام صدر الويتشر مباشرة. تألقت عيناه الضخمتان في الظلام. دفع جيرالت المخلوق للخلف بضربة قوية من مقبض السيف، وبتر من مسافة قريبة، مزيلًا نصف جمجمته. حتى بدون ذلك النصف، ظل

المخلوق الغريب، الذي لم يرد في كتب الويتشر، يعض بأسنانه لثوانٍ عدة. ثم مات، بزفرة فظيعة، شبه بشرية.

كان الكوريد يتشنج في بركة من الدم.

وقف الويتشر فوقه.

"لا أصدق،" قال جيرالت: "أن أحدًا يمكن أن يكون غبيًا لدرجة أن ينخدع بخدعة بسيطة مثل تلك التي كسرت السيف".

لم يكن متأكدًا إن كان الكوريد واعيًا بما يكفي ليفهم. لكنه، في الحقيقة، لم يهتم.

"حذرتكم،" قال وهو يمسح الدم المتدفق على خده. "حذرتكم أن عليّ الخروج من هنا".

ارتجف السيد شفايتزر بعنف، أطلق صفيرًا، زمجر وصرّ بأسنانه. ثم سكت وتوقف عن الحركة.

تقاطر الماء من الجدران والسقف.

* * *

قال جيرالت بصرامة:

"أتممتُ مهمّتي يا ريجيس؟ إذن انهض واستعد للرحيل".

رد ريجيس وهو يتناول ملعقةً أخرى من الحساء:

"سآتي... لن يستغرق الأمر طويلًا. فلا أحمل الكثير".

* * *

"آسف، يا فرينجيلا" كررت العبارة، وهي تتجهم غضبًا.

"كم هو مقتضب، كم هو موجز، كم هو خالٍ من التكلف، مع هذا الاهتمام بالأسلوب. الرسالة التي تركتها لي، أنا متأكدة تمامًا، لا شك أنها محررة بنفس الأناقة. دون إسراف زائد في الحبر".

نطق جيرالت قائلاً:

"يجب أن أركب، يمكنك أن تتخيلي لماذا. ومن أجل من. أرجو أن تسامحيني. كنت أنوي الفرار خفية وبصمت، لأنني... لم أرد أن تحاولي ملاحقتي".

تمتمت وهي تثني السوط:

"كانت مخاوفك لا أساس لها، ما كنت لأتبعك حتى لو توسلت إليّ وأنت تركع عند قدمي. أوه، لا، يا ويتشر. اركب وحدك، مت وحدك، تجمد وحدك في ممرات الجبال. ليس لدي أي التزامات تجاه سيري. وتجاهك؟ هل تعلم كم منهم توسل لي للحصول على ما كان لك؟ وعلى ما ترفضه الآن بازدراء، وترميه بعيدًا؟"

"لن أنساكِ أبدًا".

"أوه،" هسهست. "لا تعلم كم أود أن أتأكد أنك لن تنساني فعلاً. حتى لو لم أستخدم السحر، فسأستخدم هذا السوط"!

"لن تفعلي".

"أنت محق، لن أفعل ولن أستطيع وسأتصرف كما يليق بعاشقة محتقرة ومرفوضة. سأبتعد مرفوعة الرأس. بكرامة وفخر. وأبتلع دموعي. ثم سأعوي في وسادتي. وبعدها سأضاجع آخر"!

كانت تقريبًا تصرخ بنهاية حديثها.

لم يقل شيئًا. ولا هي.

قالت أخيرًا، بنبرة مختلفة تمامًا:

"جيرالت، ابقَ معي".

قالت إذ رأت أنه يؤخر الرد:

"أعتقد أنني أحبك، ابقَ معي. أتوسل إليك، لم أطلب من أحد من قبل ولم أظن أنني سأفعل يومًا. لكنني أطلب منك".

أجاب بعد برهة:

"فرينجيلا، أنتِ امرأة لا يمكن للمرء إلا أن يحلم بها. خطأي، خطأي الوحيد، هو أنني لا أملك طباع الحالم".

قالت بعد لحظة وهي تعض شفتها:

"أنت مثل خطاف صياد، بمجرد أن يعلق، لا يمكن نزعه إلا مع الدم واللحم. حسنًا، اللوم يقع عليّ وحدي. كنت أعرف ما أفعله، ألعب بلعبة خطيرة. لحسن الحظ، أعرف أيضًا كيف أتعامل مع النتائج. في هذا الصدد، لديّ ميزة على بقية الإناث".

لم يعلق.

أضافت فرينجيلا:

"على أي حال، القلب المكسور، رغم أنه يؤلم كثيرًا، أكثر بكثير من الذراع المكسورة، لكنه يشفى أسرع بكثير".

لم يعلق جيرالت هذه المرة أيضًا. تأملت فرينجيلا الكدمة على خده.

"كيف كانت ميداليتي؟ هل عملت جيدًا؟"

"إنها ببساطة رائعة. شكرًا لكِ".

أومأت برأسها.

سألت بنبرة وصوت مختلفين تمامًا:

"إلى أين ستركب؟ ما الذي اكتشفته؟ تعرف أين يختبئ فيلغيفورتز، أليس كذلك؟"

"نعم. لا تطلبي مني أن أخبركِ أين ذلك. لن أفعل".

"سأشتري تلك المعلومة. شيء مقابل شيء".

"أوه، حقًا؟"

"لدي معلومات، ثمينة. وبالنسبة لك، ببساطة لا تقدر بثمن. سأبيعها لك مقابل..."

أكمل جيرالت، ناظرًا في عينيها:

"مقابل راحة البال، مقابل الثقة التي وضعتها فيكِ. قبل لحظة كنا نتحدث عن الحب. والآن بدأنا نتحدث عن المقايضة؟"

صمتت طويلاً. ثم ضربت حذاءها بعنف، بقوة، بالسوط.

قالت بسرعة: "ينيفر، تلك التي ناديتني باسمها عدة مرات في الليل، في لحظات النشوة، لم تخنك أبدًا، ولا سيري. لم تكن أبدًا متواطئة مع فيلغيفورتز. من أجل إنقاذ سيريلا، تعرضت بلا خوف لخطر استثنائي. تكبدت هزيمة، وسقطت في يدي فيلغيفورتز. لا شك أنها عُذبت خلال محاولات المسح التي حدثت في الخريف الماضي. لا يُعرف إن كانت على قيد الحياة. لا أعرف أكثر من ذلك. أقسم".

"شكرًا لكِ، فرينجيلا".

"الآن اذهب".

قال دون أن يتحرك:

"أثق بكِ، ولن أنسى ما كان بيننا أبدًا. أثق بكِ، فرينجيلا. لن أبقى معكِ، لكنني أعتقد أنني أحببتكِ أيضًا... بطريقتي. أرجو أن تحتفظي بسرية تامة بما ستعرفينه الآن. مخبأ فيلغيفورتز يقع في..."

قاطعته:

"انتظر، ستخبرني لاحقًا، ستكشف عنه لاحقًا. الآن، قبل أن تذهب، ودّعني. بالطريقة التي يجب أن تودعني بها. ليس برسائل تافهة، ولا باعتذارات متمتمة. ودّعني بالطريقة التي أرغبها".

خلعت معطفها المصنوع من فراء الوشق وألقته على كومة من القش. مزقت قميصها بعنف، وكانت عارية تحته. سقطت على الفراء، جاذبة إياه خلفها، فوقها. أمسك جيرالت بمؤخرة عنقها، رفع تنورتها، وفجأة أدرك أنه لن يكون هناك وقت لخلع قفازاته. لحسن الحظ، لم تكن فرينجيلا ترتدي قفازات. ولا سروالاً داخلياً. ولحسن الحظ أكبر، لم تكن ترتدي مهاميز أيضًا، إذ سرعان ما كانت كعوب حذائها الراكب في كل مكان حرفيًا. لا يمكن تصور ما كان سيحدث لو كانت ترتدي مهاميز.

عندما صرخت، قبلها جيرالت كاتماً صرختها.

أطلقت الخيول، التي شمّت شغفهما الغاضب، صهيلاً، وخبطت بأقدامها وضربت في حظائرها حتى تساقط القش والغبار من السقف.

* * *

أنهت فرينجيلا فيغو كلامها بانتصار: "قلعة ريس-رون، في نازاير، بجوار بحيرة موريداك، هناك يقع مخبأ فيلغيفورتز. انتزعته من الويتشر قبل أن يركب بعيدًا. لدينا وقت كافٍ لنتجاوزه. ليس لديه أي فرصة للوصول إلى هناك قبل أبريل."

أومأت التسع نساء المجتمعات في غرفة الأعمدة بقلعة مونتيكالفو برؤوسهن، موجهات لفرينجيلا نظرات تقدير عظيم.

كررت فيليبا إيلهارت، تكشف عن أسنانها في ابتسامة مفترسة وهي تلعب بدبوس الكاميو المصنوع من الساردونيكس المثبت على فستانها: "ريس-رون في نازاير. حسنًا، سأراك قريبًا، أيها السيد فيلغيفورتز... سأراك قريبًا!"

هسهست كيرا ميتز: "عندما يصل الويتشر إلى هناك، سيجد أنقاضًا لن تفوح منها حتى رائحة الرماد بحلول ذلك الوقت."

ابتسمت سابرينا غليفيسيغ بجاذبية: "أو الجثث."

أومأت شيالا: "عمل رائع، آنسة فيغو، أكثر من ثلاثة أشهر في توسان... لكن الأمر كان يستحق على الأرجح."

اجتاحت عينا فرينجيلا فيغو الساحرات الجالسات حول الطاولة. مرت على شيالا، فيليبا، وسابرينا غليفيسيغ. على كيرا ميتز، مارغريتا لوكس-أنتيل، وتريس ميريجولد. على فرانسيسكا فيندابير وإيدا إميان،

اللتين لم تعبر عيناهما، المحاطتان بمكياج إلفي صارخ، عن أي شيء. وعلى أسير فار أناهيد، التي كانت عيناها تعكسان القلق والاهتمام.

اعترفت بصدق تام: "كان يستحق."

* * *

تحولت السماء ببطء من الأزرق الداكن إلى الأسود. هبت ريح جليدية بين كروم العنب. ثبت جيرالت عباءته المصنوعة من جلد الذئب، ولف وشاحًا صوفيًا حول عنقه. شعر بروعةٍ عجيبة. كالعادة، رفع الحب المُعبَّر عنه قدراته البدنية والنفسية والأخلاقية إلى ذروتها، محا كل أثر للشك، وجعل تفكيره واضحًا ومتقدًا. تأسف فقط لأنه سيُحرم من هذا العلاج السحري الرائع لوقت طويل.

أخرجه صوت رينارت دو بوا-فرين من شروده: "طقس سيئ قادم،" قال الفارس الجوال، ناظرًا شرقًا، حيث كانت الريح تهب من هناك. "أسرعوا. إذا جاء الثلج مع تلك الريح، وأمسك بكم في ممر مالهير، ستعلقون في فخ. وعندها، ادعوا جميع الآلهة التي تعبدونها وتعرفونها وتفهمونها أن ترسل الذوبان."

أجاب جيرالت: "حسناً."

أضاف رينارت: "سيقودكم نهر سانسريتور خلال الأيام القليلة الأولى. تمسكوا بالنهر. ستمرون بمصنع لصيادي الفرو، ثم تصلون إلى مكان يصب فيه رافد من الضفة اليمنى إلى سانسريتور. لا تنسوا: رافد الضفة اليمنى. سيُشير مساره إلى طريق ممر مالهير. إذا تغلبتم على مالهير بإرادة الإله، لا تتعجلوا كثيرًا، فأمامكم لا يزال ممرا سانسميرسي ومورتبلانك. إذا تغلبتم عليهما، ستنحدرون إلى وادي سودوث. سودوث تتمتع بمناخ دقيق دافئ، شبيه تقريبًا بتوسان. لولا التربة الرديئة لكانوا قد زرعوا الكروم هناك."

توقف، متورطًا بنظرات التوبيخ.

أردف مترددًا: "بالفعل، إلى النقطة. عند مصب سودوث تقع بلدة كارافيستا الصغيرة. يعيش هناك ابن عمي، غي دو بوا-فرين. زوروه واذكروا اسمي. إذا اتضح أن ابن عمي قد مات أو جنّ، تذكروا أن وجهة سفركم هي سهل ماغ ديرا، وادي نهر سيلت. بعد ذلك، يا جيرالت، وفقًا للخرائط التي نسختها عند رسام الخرائط في المدينة. وما دمنا نتحدث عن الخرائط، لا أفهم تمامًا لماذا سألتني عن بعض القلاع أو ما شابه..."

قاطعه جيرالت: "انسَ ذلك، يا رينارت. لم يحدث شيء من هذا القبيل. لم تسمع شيئًا، لم ترَ شيئًا. حتى لو عذبوك. تفهم؟"

أجاب رينارت: "أفهم."

حذر كاهير، يسيطر على جواده الجامح: "فارس. يقترب راكب يعدو نحونا من القصر."

ابتسمت أنغوليم، تداعب فأس المعركة المعلق على سرجها: "إذا كان واحدًا فقط، فهذا أمر تافه."

بين أن الفارس هو دانديليون، يركب كما لو كان خفاشًا هاربًا من الجحيم. أذهل الجميع أن الحصان كان بيغاسوس، جواد الشاعر المخصي، الذي لم يحب العدو ولم يعتد عليه.

لهث دانديليون، كأنما هو من كان يحمل الجواد وليس العكس: "حسنًا، لقد نجحت. خشيت ألا ألحق بكم."

رد جيرالت: "فقط لا تقل إنك ستركب معنا أخيرًا."

أنزل دانديليون رأسه: "لا، يا جيرالت. لست كذلك. سأبقى هنا في توسان مع ابنة عرسي الصغيرة. أعني مع أناريتا. لكن لم أستطع ألا أودعكم. أو أتمنى لكم رحلة آمنة."

قال جيرالت: "اشكر الدوقة على كل شيء. واعتذر عن سبب هذا المغادرة المفاجئة دون وداع. اشرح الأمر بطريقة ما."

أجاب دانديليون: "لقد أقسمتَ قسمًا فارسيًا وانتهى الأمر. الجميع في توسان، بما في ذلك ابنة عرسي الصغيرة، سيفهمون. وها... خذ هذا. ليكن هذا مساهمتي."

أخذ جيرالت كيسًا ثقيلًا من الشاعر: "دانديليون، نحن لا نعاني من نقص في المال. ليس ضروريًا..."

كرر دانديليون: "ليكن هذا مساهمتي. النقود دائمًا مفيدة. وعلاوة على ذلك، ليست لي، لقد أخذت تلك الدوكات من خزينة ابنة عرسي الصغيرة الخاصة. لماذا تنظرون هكذا؟ النساء لا يحتجن المال. أعني لماذا؟ لا يشربن، لا يلعبن النرد، وهن نساء بحد ذاتهن. حسنًا، وداعًا! انطلقوا، لأنني سأنفجر بالبكاء. وعندما ينتهي كل شيء، توقفوا في توسان في طريق عودتكم وأخبِروني بكل شيء. وأريد أن أعانق سيري. هل تعدني، يا جيرالت؟"

أجاب جيرالت: "أعدك."

قال دانديليون: "إذن، وداعًا."

استدار جيرالت بحصانه واقترب من بيغاسوس، قائلاً: "انتظر." أخرج رسالة من صدره خفية. "تأكد أن هذه الرسالة تصل إلى..."

سأل دانديليون: "فرينجيلا فيغو؟"

رد جيرالت: "لا. ديكسترا."

استغرب دانديليون: "هل أنت جاد، يا جيرالت؟ وكيف تقترح أن أفعل ذلك؟"

أجاب جيرالت: "ابحث عن طريقة. أعلم أنك ستفعل. والآن وداعًا. عانقني، أيها الأحمق العجوز."

عانقه دانديليون: "عانقني، يا رفيق. سأنتظر عودتكم."

نظروا إليه وهو يركب بعيدًا، ورأوه يعدو نحو بوكلير.

أظلمت السماء.

استدار جيرالت في سرجه: "رينارت، اركب معنا."

أجاب رينارت دو بوا-فرين بعد لحظة: "لا، يا جيرالت. أنا فارسٌ جوال لكن لست حمارًا."

* * *

عمَّ الحماسُ الغريبُ القاعةَ العموديةَ الشامخةَ في قلعة مونتيكالفو. فقد حلَّت الإضاءةُ اللبنيةُ الساطعةُ لشاشةٍ سحريةٍ ضخمةٍ محلَّ التباينِ الخافتِ للشمعداناتِ التي كانت تُهيمنُ عادةً على المكان. تلألأت الصورةُ على الشاشةِ، ثم ارتعشتْ وتلاشتْ، فازداد الحماسُ والتوترُ، واشتدَّ القلقُ معهما.

قالت فيليبا إيلهارت، وهي تبتسمُ ابتسامةً مفترسةً: "ها، يا للأسف أنني لا أستطيع الحضورَ هناك. لكان بعضُ الحركةِ يُفيدني، وبعضُ الأدرينالينِ أيضاً."

نظرتْ شيالا دي تانكارفيل إليها بنظرةٍ ساخرةٍ، لكنها لم تَنبسْ بكلمةٍ. ثبَّتتْ فرانسيسكا فيندابير وإيدا إيميان الصورةَ سحرياً، وكبَّرتاها حتى ملأتْ الجدارَ كاملاً. ظهرتْ بوضوحٍ قممُ الجبالِ السوداءِ تتباهى على خلفيةِ سماءٍ زرقاءَ داكنةٍ، والنجومُ تنعكسُ على سطحِ بحيرةٍ، والشكلُ المظلمُ الزاويُّ لقلعةٍ قاتمةٍ.

قالت شيالا: "ما زلتُ غيرَ متأكدةٍ إنْ لم يكن خطأً أنْ نُوكلَ قيادةَ قوةِ الهجومِ إلى سابرينا والشابةِ ميتز. لقد كسروا ضلوعَ كيرا في ثانيد، فربما تشتاقُ إلى الانتقامِ. وسابرينا... حسنًا، إنها تُحبُّ الحركةَ والأدرينالينَ أكثرَ مما ينبغي. أليسَ كذلك، فيليبا..."

قاطعتها فيليبا، وكان صوتُها لاذعاً كمخللِ البرقوقِ: "لقد ناقشنا ذلكَ بالفعلِ. وأثبتنا ما كان يجبُ إثباتُه. لن يُقتلَ أحدٌ دونَ ضرورةٍ قصوى. سيدخلُ فريقُ سابرينا وكيرا إلى ريس-رون بهدوءِ الفئرانِ، على أطرافِ أصابعهما، في صمتٍ تامٍّ. سيأخذون فيلغيفورتز حياً، دونَ خدشٍ واحدٍ، دونَ كدمةٍ واحدةٍ. اتفقنا على ذلكَ. وإنْ كنتُ ما زلتُ أرى أنّ علينا أن نجعلَ منهم عبرةً. ليستيقظَ الناجونَ في القلعةِ من هذه الليلةِ صارخينَ إلى آخرِ أيامهم حين يحلمونَ بها."

قالت الساحرةُ من كوفير: "الانتقامُ متعةُ العقولِ المتوسطةِ، الضعيفةِ، والحقيرةِ."

وافقتْ فيليبا، وابتسامتُها تبدو غيرَ مباليةٍ: "ربما، لكنْ ذلكَ لا يمنعُها من أن تكونَ متعةً."

رفعتْ مارغريتا لوكس-أنتيل كأساً من النبيذِ الفوارِ وقالت: "دعونا ننهِ الحديثَ. أقترحُ أنْ نشربَ لصحةِ السيدةِ فرينجيلا فيغو، التي بفضلِ جهودِها كُشفَ مخبأُ فيلغيفورتز. عملٌ صلبٌ ومثاليٌّ حقاً، يا سيدتي فرينجيلا."

انحنت فرينجيلا، مردّدةً على التحيات. لاحظتْ شيئًا يشبه السخرية في عيني فيليبا السوداوين، ونظرات الكراهية في عيني تريس ميريجولد الزرقاوين. لم تستطع فكَّ طلاسم ابتسامتي فرانسيسكا وشيالا.

أشارت أسير فار أناهيد إلى الصورة السحرية وقالت: "لقد بدأوا."

استقرَّ الجميع في أماكنهم براحة أكبر. أخفتْ فيليبا الأنوار بتعويذةٍ ليروا بوضوحٍ أفضل. شاهدوا أشكالًا سوداءَ سريعةً تنفصلُ عن الصخور، صامتةً ورشيقةً كالخفافيش. رأوها تحلّقُ منخفضةً ثم تهوي على الأسوار والفتحات الحربية لقلعة ريس-رون.

تمتمت فيليبا: "ربما لم أضع مكنسةً بين ساقيَّ منذ قرنٍ. سأنسى كيف أطيرُ قريبًا."

أسكتتها شيالا، وهي تُحدّق في الشاشة، بهسّةٍ نفدَ صبرُها.

ومضتْ نارٌ في نوافذ مجمع القلعة السوداء للحظاتٍ. مرةً، مرتين، ثلاثًا. علموا ما كان ذلك. تصدّعت الأبواب المقفلة والمزالج تحت وطأة صواعق الكرة النارية.

قالت أسير فار أناهيد بهدوء: "لقد دخلوا. قوةُ الهجومِ بالداخلِ الآن. لكنْ شيءٌ ما ليسَ على ما يُرام. ليسَ كما ينبغي أن يكون..."

شعرتْ فرينجيلا بالدم يتدفقُ من قلبها إلى بطنها. أدركتِ الآنَ ما الخطبُ.

أعلنتْ أسير: "السيدةُ غليفيسيغ تفتحُ المتواصلَ السحريَّ المباشرَ."

أضاءَ الفضاءُ بين الأعمدة في القاعة فجأةً. ظهرتْ في الإطار البيضاوي المتجسّد سابرينا غليفيسيغ بزيٍّ رجاليٍّ، شعرُها مُعقَّدٌ على جبهتها بوَشاحٍ من الشيفون، ووجهُها ملوّثٌ بخطوطٍ من صبغةِ التمويه. كانت خلفَ الساحرةِ جدرانٌ حجريةٌ قذرةٌ، وعلى الجدرانِ بقايا خِرَقٍ كانت يومًا سجاداتٍ معلقةً. مدَّتْ سابرينا يدًا مغطاةً بقفازٍ تتدلى منه خيوطُ نسيج العنكبوت الطويلة نحوَهم.

قالت سابرينا، وهي تُلوّح بجنون: "الشيءُ الوحيدُ الذي يزخرُ به المكانُ هو هذا! هذا فقط! اللعنةُ الحمراءُ، يا لها من حماقةٍ... يا له من فشلٍ ذريعٍ..."

صاحتْ إحداهن: "وضّحي كلامَكِ، سابرينا!"

صرختْ الساحرةُ الكايدونية وقالت: "أوضّحُ ماذا؟ ما الذي يمكنُ أن يكونَ أوضحَ من هذا؟ ألا ترَينَ؟ هذه قلعةُ ريس-رون! إنها فارغةٌ! فارغةٌ وقذرةٌ! إنها خرابةٌ فارغةٌ ملعونةٌ! لا شيءَ هنا! لا شيءَ على الإطلاق!"

برزتْ كيرا ميتز من خلف كتفِ سابرينا، وكأنها شيطانةٌ جهنميةٌ بتمويهِ وجهها، وقالت بهدوء: "لم يكنْ هناك أحدٌ في هذه القلعةِ، وما زالَ الأمرُ كذلكَ، منذ خمسين عامًا على الأقل. لم تطأْ هنا روحٌ حيّةٌ منذ خمسين عامًا، ما عدا العناكبَ، والجرذانَ، والخفافيشَ. لقد هبطنا في المكانِ الخطأ تمامًا."

سألت إحداهن: "هل تأكدتما أنها ليست خدعة بصرية سحرية؟"

ردت كيرا وقالت: "أتظنيننا أطفالاً، يا فيليبا؟"

قالت فيليبا إيلهارت، وهي تمرر أصابعها عصبياً في شعرها: "اسمعا، كلتيكما. قولا للمرتزقة والمبتدئين إنهم كانوا في تدريبات عسكرية. ادفعوا لهم أجورهم وارجعوا. ارجعوا فوراً. وتحلوا بالشجاعة أمامهم على وجوهكما، أتسمعان؟ وضعا قناع الشجاعة!"

انطفأ الإطار البيضاوي للمتواصل السحري. بقيت فقط الصورة على شاشة الجدار. قلعة ريس-رون تبرز على خلفية السماء السوداء المرصعة بالنجوم. والبحيرة تعكس النجوم في صفحتها.

أطرقت فرينجيلا فيغو ببصرها نحو الطاولة. شعرت وكأن الدم النابض سيمزق خديها قريباً.

قالت فرينجيلا أخيراً، غير قادرة على تحمل الصمت في قاعة مونتيكالفو العمودية: "أنا... حقاً... لا أفهم..."

قالت تريس ميريجولد: "لكنني أفهم."

قالت فيليبا، وهي شاردة الذهن، غير مبالية بزميلاتها: "تلك القلعة... ريس-رون... يجب أن تُدمر. أن تُمحى تماماً عن الوجود. وعندما تبدأ الأساطير والحكايات في التشكل حول هذا الفشل المدوي، سيكون من الضروري فرض رقابة دقيقة عليها. هل تفهمن ما أعنيه، أيتها السيدات؟"

أومأت فرانسيسكا فيندابير، التي ظلت صامتة حتى تلك اللحظة، وقالت: "أفهم ذلك جيداً."

أصدرت إيدا إيميان، التي كانت صامتة أيضاً، همهمة غامضة تحمل دلالات متعددة.

قالت فرينجيلا فيغو، وهي لا تزال تبدو مذهولة: "أنا... حقاً لا أدرك... كيف يمكن أن يحدث هذا..."

قالت شيالا دي تانكارفيل بعد صمت طويل جدًا: "أوه، ليس هذا بأمرٍ خطير، يا آنسة فيغو. لا أحد كامل."

ضحكت فيليبا بهدوء. تنهدت أسير فار أناهيد ورفعت عينيها نحو السقف المزخرف.

أضافت شيالا، وهي تشد شفتيها بامتعاض: "في النهاية، قد أصابنا جميعاً هذا المصاب في وقت ما. كل واحدة منا، الجالسات هنا، قد خُدعت، واستُغلت، وجُعلت موضع سخرية من رجل ما، في وقت ما."

قال:

"أحبُّكِ، ويسحرني حُسنُ طلعتكِ؛

وإن لم ترضِ، فسوف أضطرُّ لاستعمال القوة".

صاحت:

"أبي، يا أبي، لقد أمسكَ بي أخيرًا!

إنّ إرلكونيج ملك الجن يُؤذيني ويقبضُ عليَّ بشدّة"!

يوهان غوته

كلُّ شيءٍ قد كان، وكلُّ شيءٍ قد وقع. وكلُّ ما حدثَ سبق أن كُتِبَ عنه.

فيسجوتا من كورفو

الفصل الخامس

هبطَ عصرٌ حارٌّ خانقٌ على الغابةِ، فأضحتْ صفحةُ البحيرةِ، التي كانتْ قبلَ قليلٍ مظلمةً كاليشمِ الأخضرِ، تتوهّجُ ذهبياً وتُضيءُ بانعكاساتٍ متلألئةٍ. وضعتْ سيري يدها لتحجبَ عينيها. أعماها الوهجُ المنعكسُ في الماءِ، وشعرتْ بألمٍ في مقلتيها وصدغيها.

امتطتْ سيري فرسَها عبرَ غابةِ الشاطئِ وحثّتْ كيلبي على الدخولِ إلى البحيرةِ، عميقاً حتى تجاوزَ الماءُ ركبتي الفرسِ. كانَ الماءُ صافياً لدرجةِ أنَّ سيري، حتى من علوِّ السرجِ، استطاعتْ رؤيةَ فسيفساءِ القاعِ الملونةِ، والمحارِ، والأعشابِ المائيةِ الريشيةِ المتمايلةِ في ظلِّ الفرسِ. رأتْ جرادَ بحرٍ صغيراً يسيرُ بفخرٍ بينَ الحصى.

صهلتْ كيلبي. جذبتْ سيري اللجامَ وركضتْ إلى المياهِ الضحلةِ، لكنها لم تَصعدْ إلى الشاطئِ، إذ كانَ رملياً مغطى بالصخورِ، ما يمنعُ الركضَ السريعَ. قادتْ الفرسَ إلى حافةِ الماءِ مباشرةً لتمشيَ على الحصى الصلبِ في القاعِ. وحثّتْ كيلبي على الفورِ إلى الهرولةِ. كانتْ رشيقةً كفرسِ سباقٍ حقيقيةٍ، مُدربةً لجرِّ العرباتِ لا للركوبِ، لكنها سرعانَ ما وجدتْ أنَّ الهرولةَ بطيئةٌ جداً. ركلتْ سيري بكعبيها وصاحتْ لتحثَّ الفرسَ على العدوِ. انطلقتا وسطَ رذاذِ الماءِ المتناثرِ حولهما، متلألئاً في الشمسِ كقطراتِ الفضةِ المصهورةِ.

لمَّا رأتْ البرجَ، لم تُبطئْ بعدُ، ولم يُسمعْ حتى أدنى نفخةٍ في تنفّسِ كيلبي، وظلَّ عدوُها خفيفاً وسلساً. اقتحمتْ الفناءَ بسرعةٍ كاملةٍ، وسطَ رنينِ حوافرِها، وجذبتْ الفرسَ فجأةً حتى انزلقتْ حدواتُها على الأرضيةِ الحجريةِ بصوتٍ طويلٍ مزعجٍ. توقفتْ أمامَ النساءِ الإلفياتِ اللواتي كنَّ ينتظرنَ عندَ قاعدةِ البرجِ مباشرةً، أمامَ أنوفهنَّ تماماً. شعرتْ سيري بالرضا، إذ تراجعتْ اثنتانِ منهنَّ، اللواتي كُنَّ عادةً ثابتتينَ بلا عاطفةٍ، خطوةً لا إراديةً.

زفرتْ سيري وقالت: "لا تخفنَ. لن أدهسكنَّ! إلا إذا أردتُ ذلكَ."

استعادتْ الإلفياتُ رباطةَ جأشهنَّ بسرعةٍ، عادتْ وجوههنَّ هادئةً ملساءَ، وارتسمتْ اللامبالاةُ المعتادةُ في أعينهنَّ من جديدٍ.

هبطتْ سيري من السرجِ، أو بالأحرى طارتْ منهُ. كانَ التحدّي يلمعُ في عينيها.

خرجَ إلفٌ أشقرُ ذو وجهٍ مثلثيٍّ من ظلِّ رواقٍ وقال: "برافو، عرضٌ رائعٌ، يا لوك'لايث."

كانَ قد حيّاها هكذا أولَ مرةٍ، عندما دخلتْ برجَ السنونو ووجدتْ نفسَها وسطَ ربيعٍ مزهرٍ. لكنْ ذلكَ كانَ منذ زمنٍ بعيدٍ، ولم تَعدْ مثلُ تلكَ الأمورِ تتركُ أيَّ أثرٍ فيها.

صاحتْ سيري وقالت: "أنا لستُ سيدةَ البحيرةِ! أنا سجينةٌ هنا! وأنتم سجانيَّ! ويمكنني أن أتحدثَ بصراحةٍ! هاكم!" ألقتْ باللجامِ إلى إحدى الإلفياتِ وقالت: "الفرسُ بحاجةٍ إلى الفركِ. اسقوها عندما تهدأُ. وقبلَ كلِّ شيءٍ يجبُ العنايةُ بها!"

ابتسمَ الإلفُ الأشقرُ ابتسامةً خفيفةً.

قالَ الإلفُ، وهو يراقبُ الإلفياتِ يقدنَ الفرسَ إلى الإسطبلِ بصمتٍ: "حقاً، أنتِ سجينةٌ مظلومةٌ هنا، وهنَّ سجاناتُكِ القاسياتُ. هذا واضحٌ تماماً."

وضعتْ سيري يديها على خصرها، ورفعتْ أنفَها، ونظرتْ إليهِ بنظراتٍ جريئةٍ في عينيهِ الزرقاوينِ الباهتتينِ كالزبرجدِ المائيِّ، واللتينِ بدتا لطيفتينِ جداً، وقالت: "ليذوقوا من كأسِهم الخاصِّ! أعاملهنَّ كما يعاملنَني! والسجنُ سجنٌ."

قالَ الإلفُ: "تُذهلينَني، يا لوك'لايث."

ردَّتْ سيري وقالت: "وأنتَ تعاملني كأنني حمقاءُ. ولم تُعرّفْني بنفسِكَ حتى الآنَ."

اعتذرَ الإلفُ وقال: "أعتذرُ. أنا كريفان إسبانيه آيب كاومهان ماخا. أنا، إنْ عرفتِ معناهُ، آين سايفهرن."

نظرتْ إليهِ سيري بإعجابٍ لم تستطعْ إخفاءَهُ في الوقتِ المناسبِ وقالت: "أعرفُ. العارفُ. ساحرٌ إلفيٌّ."

قالَ الإلفُ: "يمكنُ تسميتي بذلكَ. للتبسيطِ، أستخدمُ لقبَ أفالاخ، ويمكنُكِ مناداتي بهِ."

عبستْ سيري وقالت: "من قالَ لكَ أنني أريدُ مناداتَكَ أصلاً؟ عارفٌ أم لا، أنتَ سجانٌ، وأنا..."

أكملَ الإلفُ بسخريةٍ وقال: "...سجينةٌ. لقد ذكرتِ ذلكَ. سجينةٌ تُعامَلُ بقسوةٍ أيضاً. من المؤكدِ أنهم يُجبرونَكِ على التجوالِ هنا على ظهرِ الفرسِ، وتحملينَ سيفاً على ظهرِكِ كعقابٍ، وكذلكَ الملابسُ الأنيقةُ والفاخرةُ جداً، أكثرَ أناقةً ونظافةً مما وصلتِ بهِ إلى هنا. لكنْ رغمَ هذه الظروفِ البائسةِ لم

تستسلمي. تنتقمينَ للأذى الذي تلقيتِهِ بالفظاظةِ. وبشجاعةٍ واندفاعٍ عظيمينِ تُحطمينَ المرايا التي هي أعمالٌ فنيةٌ."

احمرَّ وجهُ سيري، غاضبةً من نفسِها جداً.

قالَ أفالاخ بسرعةٍ: "أوه، يمكنُكِ تحطيمُ المرايا حتى تشبعي قلبَكِ. إنها مجردُ أشياءَ في النهايةِ، ومن يهتمُّ إنْ كانتْ قد صيغتْ قبلَ سبعمائةِ عامٍ؟ أتحبينَ أن تتمشيْ معي على شاطئِ البحيرةِ؟"

هبَّتْ نسمةٌ خفيفةٌ خففتْ من الحرِّ. وألقتِ الأشجارُ الطويلةُ والبرجُ بظلالِها أيضاً. كانَ الماءُ في الخليجِ أخضرَ باهتاً، مزداناً بكثافةٍ بزنابقِ الماءِ، متراكماً بأزهارٍ صفراءَ كرويةٍ، حتى بدا كأنه مرجٌ تقريباً. تجوَّلتْ دجاجاتُ الماءِ بينَ الأوراقِ، خرخِرَتْ وهزَّتْ مناقيرَها الحمراءَ، تتحركُ بسرعةٍ.

تمتمتْ سيري، وهي تديرُ كعبَها في الحصى الرطبِ: "تلكَ المرآةُ... أنا آسفةٌ عن ذلكَ. فقدتُ أعصابي. وهذا كلُّ شيءٍ."

قالَ أفالاخ: "آه."

أضافتْ سيري وقالت: "إنهنَّ لا يحترمنني. تلكَ الإلفياتُ. عندما أتحدثُ إليهنَّ يتظاهرنَ بأنهنَّ لا يفهمنَني. وعندما يتحدثْنَ إليَّ، يتكلمنَ بعباراتٍ غامضةٍ عن قصدٍ. إنهنَّ يُذللنَني."

شرحَ أفالاخ بهدوءٍ وقال: "أنتِ تتحدثينَ لغتَنا بطلاقةٍ، لكنها لا تزالُ لغةً أجنبيةً بالنسبةِ لكِ. فضلاً عن ذلكَ، أنتِ تستخدمينَ هين لينغي، بينما يستخدمنَ إلّيلون. الاختلافاتُ طفيفةٌ، لكنها موجودةٌ مع ذلكَ."

ردَّتْ سيري وقالت: "أنا أفهمُكَ. كلَّ كلمةٍ."

أوضحَ أفالاخ وقال: "عندما أتحدثُ إليكِ، أستخدمُ هين لينغي. لغةَ الإلفِ من عالمِكِ."

استدارتْ سيري وقالت: "وأنتَ؟ من أيِّ عالمٍ أنتَ؟ أنا لستُ طفلةً. يكفي أن أنظرَ إلى السماءِ ليلاً. لا توجدُ كوكبةٌ واحدةٌ أعرفُها. هذا العالمُ ليسَ عالمي. ليسَ مكاني. دخلتُهُ بالصدفةِ. وأريدُ أن أغادرَ. أن أهربَ."

انحنتْ، والتقطتْ حجرًا، وحركتْ يدَها كما لو كانتْ تنوي رميَهُ بلا مبالاةٍ نحوَ البحيرةِ، باتجاهِ دجاجاتِ الماءِ. تخلتْ عن خطتِها تحتَ نظراتِهِ.

قالتْ سيري، دونَ إخفاءِ استيائِها: "قبلَ أن أركضَ فرسخاً واحداً، أصلُ إلى البحيرةِ. وأرى البرجَ. بغضِّ النظرِ عن الاتجاهِ الذي أركضُ فيهِ، عندما أستديرُ، هناكَ دائماً البحيرةُ والبرجُ. دائماً. لا سبيلَ للابتعادِ عنهُما. إذنْ هو سجنٌ. أسوأُ من زنزانةٍ، من حفرةِ نسيانٍ، من غرفةٍ بنافذةٍ مسيَّجةٍ. أتعرفُ لماذا؟ لأنهُ أكثرُ إذلالاً. إلّيلون أو غيرُها، يغضبني أن يُسخرَ مني ويُظهرَ لي عدمَ الاحترامِ. نعم، نعم، لا داعيَ لتعابيرِ الوجهِ. أنتَ أيضاً أهنتَني، أنتَ أيضاً تسخرُ مني. وتتفاجأُ أنني غاضبةٌ؟"

فتحَ أفالاخ عينيهِ واسعتينِ وقال: "في الواقعِ، أنا متفاجئٌ. تفاجؤٌ لا حدَّ لهُ."

تنهدتْ سيري وهزَّتْ كتفيها.

قالت سيري، وهي تحاولُ الحفاظَ على هدوئِها: "دخلتُ البرجَ منذ زمنٍ بعيدٍ. صادفتُ عالماً آخرَ. كنتَ تنتظرُني، جالساً تعزفُ على المزمارِ. بل وتفاجأتَ بكم تأخرتُ في وصولي. ناديتني باسمي، وبعدها فقط بدأتَ هراءَ 'سيدةِ البحيرةِ' هذا. ثم اختفيتَ دونَ كلمةِ تفسيرٍ. تاركاً إيايَ في السجنِ. سمِّهِ ما شئتَ. أنا أسميهِ ازدراءً خبيثاً متعمداً."

قالَ أفالاخ: "زيرائيل، لم يمضِ سوى ثمانيةِ أيامٍ."

عبستْ سيري وقالت: "آه، إذنْ أنا محظوظةٌ؟ لأنهُ كانَ يمكنُ أن يكونَ ثمانيةَ أسابيعَ؟ أو ثمانيةَ أشهرٍ؟ أو ثمانيةَ..."

صمتتْ.

قالَ أفالاخ بهدوءٍ: "لقد ابتعدتِ كثيراً عن لارا دورين. لقد فقدتِ ميراثَكِ، وفقدتِ الرابطَ مع دمِكِ. لا عجبَ أنَّ النساءَ لا يفهمنَكِ، ولا أنتِ تفهمينَهنَّ. أنتِ لا تتحدثينَ بطريقةٍ مختلفةٍ فحسب، بل تفكرينَ بطريقةٍ مختلفةٍ أيضاً. بمعاييرَ مغايرةٍ تماماً. ما هي ثمانيةُ أيامٍ أو ثمانيةُ أسابيعَ؟ الوقتُ لا يعني شيئاً."

صرختْ سيري بغضبٍ وقالت: "حسناً جداً! أوافقُ أنني لستُ إلفيةً حكيمةً، أنا بشريةٌ غبيةٌ. بالنسبةِ لي الوقتُ يعني شيئاً. أعدُّ الأيامَ، بل أعدُّ الساعاتِ أيضاً. وحسبتُ أنَّ الكثيرَ من هذا وذاكَ قد مضى. لا أريدُ شيئاً منكم الآنَ، سأستغني عن التفسيراتِ، لا يُزعجني لماذا الربيعُ هنا، ولماذا توجدُ وحيداتٌ وحشيةٌ هنا، وكواكبُ مختلفةٌ في سماءِ الليلِ. لا يهمني على الإطلاق كيفَ تعرفُ اسمي وكيفَ عرفتَ أنني سأظهرُ هنا. أريدُ شيئاً واحداً فقط. العودةُ إلى بيتي. إلى عالمي. إلى الناسِ! أناسٍ يفكرونَ مثلي! بنفسِ المعاييرِ!"

قالَ أفالاخ: "ستعودينَ إليهم. بعدَ حينٍ."

صاحتْ سيري وقالت: "أريدُ الذهابَ الآنَ! لا بعدَ حينٍ! فالوقتُ هنا أبديةٌ! أيُّ حقٍّ لكم أن تحتجزونَني هنا؟ لماذا لا أستطيعُ مغادرةَ هذا المكانِ؟ لقد جئتُ إلى هنا بنفسي! بإرادتي الخاصةِ! ليسَ لكم أيُّ حقٍّ!"

أكدَ أفالاخ بهدوءٍ وقال: "لقد جئتِ إلى هنا بنفسِكِ، لكنْ ليسَ بإرادتِكِ الخاصةِ. لقد قادكِ القدرُ إلى هنا، بمساعدةٍ قليلةٍ منا. فقد كنتِ منتظرةً منذ زمنٍ طويلٍ. طويلٍ جداً. حتى وفقَ حساباتِنا نحنُ."

قالتْ سيري: "لا أفهمُ شيئاً من ذلكَ."

تجاهلَ أفالاخ كلامَها وقال: "لقد انتظرنا طويلاً. خائفينَ من شيءٍ واحدٍ فقط: هل ستتمكنينَ من الدخولِ إلى هنا. لقد فعلتِ. أثبتتِ دمَكِ، نسبَكِ. وهذا يعني أنَّ مكانَكِ هنا، وليسَ بينَ الدُّوين. أنتِ ابنةُ لارا دورين آيب شيادهال."

ردَّتْ سيري وقالت: "أنا ابنةُ بافيتا! لا أعرفُ حتى من تكونُ هذهِ اللارا الخاصةُ بكِ!"

تنفّس بسخط، ولكن بلطف شديد، كاد أن يكون غيرَ ملموسٍ.

قال: «في هذه الحالة، يكون من الأفضل أن أوضّح لك من هي ''لارا'' التي أعنيها.

وما أن الوقت قصير، أفضل أن أبدأ التوضيح في الطريق. ولكن لماذا، بسبب عرضٍ أحمق، كدت تُدمّر الفرس؟»

ردّت بسخرية: «أُدمّرها؟ ها! أنت لا تعرف بعد كم يمكن لتلك الفرس أن تحتَمِلَ. إلى أين نذهب؟»

أجاب بهدوء: «إن سمحْت، سأوضح ذلك أيضًا في الطريق.»

أوقفت سيري الفرس كِيلبي، التي بدأت تتنفّس بصعوبة، مدركةً أن الجري بسرعة جنونية كان أمرًا عبثيًا ولا فائدة منه.

لم يكذب أَفَالَّاخْ. هنا، في الأرض المفتوحة، على المراعي والمروج المتناثرة بالحجارة القائمة الكامنة بهيبة، كانت القوة نفسها فعّالة كما حول برج زيراييل. يمكنك أن تجرّب الركوب بسرعة في أي اتجاه، ولكن بعد مسافة قصيرة، تجعلك قوة غير مرئية تدور في دائرة.

مسحت سيري عنق كِيلبي التي كانت تتنفس بلطف، ونظرت إلى المجموعة الصغيرة من الإلفيين الذين كانوا يركبون بسرعة هادئة. لحظة من قبل، حين أخبرها أَفَالَّاخْ أخيرًا بما أرادوه منها، انطلقت بسرعة جنونية، محاولة الهرب منهم، تاركة إياهم وراءها بعيدًا هم ومهمتهم غير المتصوّرة ولاستهزائيه.

الآن، ومع ذلك، ظهروا أمامها مرة أخرى. على بعد فرلونغ أو أكثر قليلًا.

لم يكذب أَفَالَّاخْ. لم يكن هناك مهرب.

كان الشيء الإيجابي الوحيد الذي جلبته السرعة الجنونية هو أنها برّدت رأسها، وأبطأت غضبها المتّقد. أصبحت الآن أكثر هدوءًا. ومع ذلك، كانت لا تزال ترتعش غضبًا.

فكرت بقلق: «فيم وقعت؟ لماذا دخلت البرج؟»

ارتجفت وهي تستذكر. تتذكر بونهارت يمتد خلفها عبر الجليد على فرسه الرمادي، وفمه يفور بالرغوة.

ارتجفت بشدة أكبر. وهدأت.

نظرت حولها، وقالت في نفسها: «أنا حية. هذا ليس نهاية المعركة. الموت وحده سينهي القتال، وكل شيء آخر لا يعدو كونه انقطاعًا. هكذا علموني في كاير مورهن.»

حثّت سيري كِيلبي على السير، ثم رأت أن الفرس بدأت ترفع رأسها بشجاعة، فقررت الانطلاق بالمشي السريع. اتجهت عبر طريق محاط بالحجارة القائمة. كان العشب والشيح يصلان إلى مَوازِمِها.

لم تستغرق وقتًا طويلًا حتى لحقت بـ أَفَالَّاخْ وثلاث نساءِ من العفاريت. التفت إليها الحكيم وهو يبتسم ابتسامة خفيفة، ونظر إليها بنظرة استفسارية بعيونه الزرقاء المائلة للسماوي.

قالت وهي تُصفّي حلقها: «أرجوك، يا أَفَالَّاخْ. أخبرني أن هذا كان مزحة سيئة.«

مرّ شيء يشبه الظل على وجهه.

ردّ قائلاً: «لستُ معتادًا على المزاح. وبما أنك تعتبرين الأمر مزحة، سأكرره بإذن منك بجدية كاملة: نحن نريد أن نحصل على طفلك، يا زيريال، يا ابنة لارا دورين. فقط عندما تلدين الطفل سنسمح لك بمغادرة هذا المكان والعودة إلى عالمك. الاختيار، بالطبع، هو اختيارك. أفترض أن انطلاقتك المتهورة قد ساعدتك على اتخاذ القرار. ما هي إجابتك؟«

أجابت بحزم: «إجابتي هي لا. لا قطعيًا ولا نهائيًا. أنا لا أوافق، وهذا كل شيء.«

أجاب وهو يهز كتفيه: «حظٌّ سيئ. أعترف أنني شعرت بخيبة أمل. لكن لماذا، هذا اختيارك.«

صرخت بصوت مرتعش: «كيف يمكنكم أن تطلبوا شيئًا كهذا أساسًا؟ كيف تجرؤون؟ وبأي حق؟«

نظر إليها بهدوء. شعرت سيري أيضًا بنظرات النساء الإلفيات عليها.

قال: «أعتقد أنني قد أخبرتك بقصة عائلتك بالتفصيل. بدا أنك فهمت. لذا فإن سؤالك يُذهلني. لدينا الحق في الطلب، ويمكننا ذلك يا زيريال. والدك، كريجنان، أخذ طفلًا منا. ستُعيدين لنا واحدًا. ستُسدّين الدين. يبدو لي ذلك عادلاً ومنطقيًا.«

ردّت بغضب: «والدي... لا أذكر والدي، لكن اسمه كان داني، وليس كريجنان. لقد أخبرتك بذلك بالفعل"

أجاب: «وأجبتُ بأن تلك الأجيال القليلة السخيفة من البشر لا تعني شيئًا بالنسبة لنا".

صرخت سيري بصوت عالٍ جدًا حتى إن الفرس ارتجفت تحتها: «لكنني لا أريد ذلك! هل تفهم؟ لا أريد ذلك إطلاقًا! فكرة زرع طفيل دموي في داخلي تجعلني أشعر بالاشمئزاز. أشعر بالغثيان عندما أفكر أن هذا الطفيل سينمو داخل جسمي، أن«...

توقفت عن الكلام عندما رأت وجوه النساء الإلفيات. اثنتان منهن عبرتا عن دهشة لا حدود لها، بينما كانت الثالثة تعبر عن كراهية مطلقة. سعل أَفَالَّاخْ بشكل معنوي.

قال بهدوء: «لنركب قليلًا ونتحدث على انفراد. آراؤك يا زيريال هي آراء متطرفة للغاية لتُعبّر عنها أمام الشهود.«

امتثلت لطلبه. ركبوا في صمت لفترة طويلة.

قالت سيري أولاً: «سوف أهرب منكم. لن تتمكنوا من إبقائي هنا ضد إرادتي. هربت من جزيرة ثانيد، وهربت من الصيادين ومن النيلفجارديين، وهربت من بونهارت ومن البومة الذهبيّة. وسوف أهرب منكم أيضًا. سأجد طريقة لأتحايل على سحركم.«

أجاب بعد لحظة: «كنت أعتقد أنكِ تهتمين بأصدقائك أكثر. ب ينفر. وب جيرالت.«

ردّت وهي تلهث دهشةً: «هل تعرف عنهم؟ حسنًا، نعم. صحيح. أنت واحدٌ من العارفين! إذن يجب أن تعلم أنني أفكر فيهم. هناك، في عالمي، هم الآن في خطر، في هذه اللحظة بالذات. ومع ذلك تريدون أن تسجنوني هنا... لمدة تسعة أشهر على الأقل. كما ترى، ليس لدي خيار. أفهم أن الأمر مهم بالنسبة لكم – الطفل، الدم القديم – لكن لا يمكنني. ببساطة لا يمكنني.«

ظلَّ العفريت صامتًا لبعض الوقت. ركب قريبًا جدًا لدرجة أنه كان يلامس ركبتها.
قال: «الاختيار، كما قلت، يعود لكِ. لكن عليكِ أن تعرفي شيئًا. سيكون ذلك غير أمين إن لم أخبركِ به. لا يمكنكِ الهروب من هنا يا زيريال. لذلك إذا رفضتِ التعاون، ستظلين هنا إلى الأبد ولن تري أصدقاءكِ أو عالمكِ مرة أخرى.«

صرخت غاضبة: «هذا ابتزاز مشين«!

تابع دون أن يتأثر بصراخها: «ولكن إذا وافقتِ على ما نطلبه، فسنثبت لكِ أن الزمن لا معنى له.«

ردّت متعجبة: «لا أفهم.«

أوضح قائلاً: «الزمن يمر بشكل مختلف هنا عنه هناك. إذا فعلتِ لنا هذا المعروف، سنردّه لكِ. سنمكنكِ من استعادة الوقت الذي ستفقدينه هنا بيننا. بين شعب الألدر".

لم تقل شيئًا، عيناها مثبتتان على العرف الأسود لكِيلبي. فكرت: استخدمي تكتيكات التأخير. كما قال فيسمير في كاير مورهن عندما يكونون على وشك شنقك، اطلب كأسًا من الماء. لا أحد يعرف ما قد يحدث قبل أن يأتوا به.

فجأة صرخت إحدى النساء الإلفيات وصفّرت.

صهل حصان أَفَالّاخْ وبدأ يرقص في مكانه. سيطر عليه العفريت وصاح بشيء ما للنساء الإلفيات. رأت سيري إحداهن تسحب قوسًا من كيس جلدي معلق بسرجها. وقفت في المَوازم وحمت عينيها بيدها.

قال أَفَالّاخْ بحدة: «احتفظي بهدوئكِ». تنهدت سيري.

كان هناك بعض من وحيد القرن يجوبون عبر المروج على بُعد حوالي مئتي خطوة منهم. قطيع كامل، يضم على الأقل ثلاثين رأسًا.

سيري كانت قد رأت وحيد القرن من قبل. في بعض الأحيان، خاصة عند الفجر، كانوا يقتربون من البحيرة عند سفح برج العصفور. لكنهم لم يسمحوا لها أبدًا بالاقتراب منهم. بل كانوا يختفون مثل الأشباح.

كان زعيم القطيع حصانًا ضخمًا ذو لون غريب مائل للحمرة. توقف فجأة، وصهل بصوت نافذ ثم ارتفع على قوائمه الخلفية. بدأ بالمشي على قوائمه الخلفية، محركًا قوائمه الأمامية في الهواء بطريقة كانت ستكون مستحيلة تمامًا لأي حصان عادي.

لاحظت سيري بدهشة أن أَفَالَّاخْ والنساء الإلفيات الثلاث كن يهُمْهِمْنَ ويغنين معًا لحنًا غريبًا ورتيبًا.

"من أنتم؟"

هزّت رأسها.

"من أنتم؟" تكرر السؤال في رأسها، دق في صدغيها. ارتفع نغمة فجأة غناء العفاريت. صهل وحيد القرن الأحمر، وأجابه القطيع بأكمله بنفس الطريقة. ارتجت الأرض وهم يمتطون بعيدًا.

توقف غناء أَفَالَّاخْ والنساء الإلفيات. رأت سيري الحكيم وهو يمسح العرق عن جبينه بحذر. نظر إليها العفريت من طرف عينه، مدركًا أنها قد رأت.

قال بجفاف: "ليس كل شيء هنا جميل كما يبدو. ليس كل شيء".

سألت: "هل تخافون من وحيد القرن؟ لكنهم حكماء وودودون".

لم يرد.

تابعت قائلة: "سمعت أن العفاريت ووحيد القرن كانوا يحبون بعضهم البعض".

استدار برأسه.

أجاب ببرود: "إذاً، تقبلي أن ما رأيته كان خلافًا بين عاشقين".

لم تطرح المزيد من الأسئلة.

كان لديها ما يكفي من همومها الخاصة.

* * *

قمّم التلال كانت مزينة بالكرملكات والدولمنات. ذكرتها المنظر بالحجر القريب من إيلاندر، الذي بجانبه علمتها ينفر ما هي السحر. كان ذلك منذ زمن بعيد، فكرت. عصور...

صرخت إحدى النساء الإلفيات مرة أخرى. ألقت سيري نظرة إلى حيث كانت تشير. قبل أن تتمكن من ملاحظة أن القطيع الذي يقوده الحصان الأحمر قد عاد، صرخت العفريتة الثانية. وقفت في المَوازم[6].

ظهر قطيع آخر من الجهة المقابلة، من خلف تل. كان وحيد القرن الذي يقوده رماديًا مزرقًا ومبقّعًا.

قال أَفَالَّاخْ بسرعة كلمات قليلة. كانت بلغة الإيليون التي وجدها سيري صعبة للغاية، لكنها فهمت، خاصة عندما امتدت النساء الإلفيات بأيديهن نحو قسيهن في وقت واحد. التفت أَفَالَّاخْ بوجهه نحو سيري، وشعرت بوخز ينمو في رأسها. كان الوخز مشابهًا جدًا لما يصدره صدف البحر عند وضعه على الأذن، لكنه كان أقوى بكثير.

"لا تقاومي"، سمعت صوتًا يقول. "لا تقاتلي. يجب أن أقفز، يجب أن أنقلك إلى مكان آخر. أنتِ في خطر مميت".

وصلتهم صافرة وصرخة طويلة وممتدة من بعيد. وبعد لحظة ارتجت الأرض تحت حوافر خيل مكسوة بالحديد.

ظهر الفرسان من خلف التل. كتيبة كاملة.

[6] الموازم هي وحدة عسكرية خاصة في سلسلة روايات الويتشر، خاصة في نيلفجارد في يستخدم الاصطلاح بشدة.

كان الخيل يرتدي أغطية زخرفية، والفرسان خوذات ذات قمم، وأردية حول أكتافهم ترفرف أثناء الجري. اللون القرمزي-الأرجواني-الناري لأردية الفرسان ذكر بتوهج النار في السماء المضاءة بضوء شمس الأفق الغارب.

صفارات وصرخات. انطلق الفرسان نحوهم بكتلة واحدة.

قبل أن يقطعوا نصف فرلونغ[7]، اختفى وحيد القرن. اختفوا، تاركين وراءهم سحابة من الغبار.

* * *

قائد الفرسان، إلف أسود الشعر، كان جالسًا على حصان بني داكن ضخم كالتنين. كان الحصان مزخرفًا، مثل جميع خيول الكتيبة، بغطاء مطرّز بمقاييس التنانين، وعلى رأسه قرون شيطانية حقيقية في شكل بُكْرانيوم أو جمجمة ثور. وكما كان الحال مع جميع الإلفيين، كان الأسود الشعر يرتدي تحت ردائه الذي يتعدد فيه درجات اللون الأحمر سترةً من حلقات صغيرة جدًا بشكل لا يصدق، مما جعلها تلتصق بجسده بإحكام، مثل قماش الصوف المُحاك.

قال وهو يُحيي: «أفَالّاخْ».

ردّ عليه: «إريدِن».

تابع الإلف الأسود الشعر: «أنت مدين لي بمعروف. ستسدده عندما أطلبه».

ردّ أفَالّاخْ: «سأسدده عندما تطلبه».

نزل الإلف الأسود الشعر عن حصانه. نزل أفَالّاخْ أيضًا، وأشار لسيري أن تفعل الشيء نفسه. صعدوا التل بين صخور بيضاء ذات أشكال غريبة مغطاة بشجيرات الغار القزمية والمشمش البري المزهر.

نظرت سيري إليهم. كانوا بنفس الطول، أي أن كليهما كان طويل القامة للغاية. لكن وجه أفَالّاخْ كان لطيفًا، بينما وجه الإلف الأسود الشعر ذكرها بطائر جارح. فكرت: "الأبيض والأسود. الخير والشر. النور والظلام..."

---

[7] **وحدة قياس طول تعادل حوالي 201 مترًا (660 قدمًا)**، وكانت تُستخدم في العصور الوسطى لتحديد مسافات الأراضي الزراعية والمسافات التي تقطعها الخيول

قال أفَالَّاخْ: «زيرائيل، اسمحي لي أن أعرّفك على إريدِن بريَّاك غلاس».

أجاب الإلف بانحناءة: «سعيد بلقائك». انحنت سيري ردًا عليه، وإن لم يكن بطريقة أنيقة.

سأل أفَالَّاخْ: «كيف عرفت أننا كنا في خطر؟»

أجاب الإلف وهو يحدق في سيري: «لم أكن أعلم». ثم أضاف: «نحن نقوم بدوريات في السهل، لأن الأخبار انتشرت بأن وحيد القرن أصبحوا قلقين وعدوانيين. ولا أحد يعرف السبب. ولكن الآن أعرف السبب. إنه بسببها، بالطبع».

لم يؤكد أفَالَّاخْ ولم ينكر. وفي هذه الأثناء، واجهت سيري نظرات الإلف الأسود الشعر بتعابير متكبرة. لحظة نظروا فيها إلى بعضهم البعض، وكل منهما لا يريد أن يكون أول من يصرف نظره.

علّق الإلف قائلاً: «إذاً، هذا هو ما يسمى بدم الألدر. آن هِن إيشار. إرث شيادهال ولارا دورين؟ لا يمكن للمرء أن يميل إلى تصديق ذلك. فهي ببساطة فتاة صغيرة من البشر. أنثى بشرية».

لم يقل أفَالَّاخْ شيئًا. كان وجهه ثابتًا وغير مبالٍ.

تابع الإلف الأسود الشعر: «أفترض أنك لست مخطئًا. لماذا؟ أعتبر ذلك أمرًا مسلمًا به، لأنك، كما تقول الشائعات، لا تخطئ أبدًا. مخبأ بعمق داخل هذا المخلوق جين لارا. نعم، عند فحصها عن كثب، يمكن رؤية بعض الصفات التي تشير إلى نسب الفتاة. لديها بالفعل شيء في عينيها يذكر بلارا دورين. أليس كذلك يا أفَالَّاخْ؟ من غيرك أكثر استحقاقًا للحكم؟»

لم يتحدث أفَالَّاخْ هذه المرة أيضًا. لكن سيري لاحظت احمرارًا خفيفًا على وجهه الشاحن. كانت متفاجئة للغاية، وبدأت تفكر في الأمر.

قال الإلف الأسود الشعر وهو يعبس: «باختصار... هناك شيء ثمين، شيء جميل، في هذه الفتاة البشرية الصغيرة. أراه. ولدي انطباع بأنني رأيت قطعة ذهب في كومة من السماد».

برقت عينا سيري غضبًا. التفت أفَالَّاخْ ببطء برأسه وقال بصوت بطيء: «تتحدث مثل البشر تمامًا يا إريدِن».

إريدِن بريَّاك غلاس كشف عن أسنانه في ابتسامة. كانت سيري قد رأت مثل هذه الأسنان من قبل: بيضاء جدًا، صغيرة جدًا وغير إنسانية، مستقيمة تمامًا مثل قالب النرد، وخالية من الأنياب. كانت قد

رأت مثل هذه الأسنان على الإلفيين الأموات الذين كانوا مصفوفين في صفوف في ساحة برج الحراسة الخاص بكايدوين. وكانت قد أعجبت بمثل هذه الأسنان على إيسكرا. لكن تلك الأسنان في ابتسامة إيسكرا كانت تبدو جميلة، بينما على إريدِن كانت مروعة.

قال: «هل هذه الفتاة التي تحاول قتلني بنظرتها الحادة تعرف بالفعل السبب الذي جعلها هنا؟»

أجاب أفَالّاخْ: «بالتأكيد».

تابع: «وهل هي مستعدة للتعاون؟»

ردّ أفَالّاخْ: «ليس بالكامل».

كرر إريدِن: «ليس بالكامل؟ ها، هذا ليس جيدًا. لأن طبيعة التعاون تتطلب أن يكون كاملًا. ببساطة لا يمكن إذا كان أقل من ذلك. ولأننا نحن بعيدون عن تير نا ليَا بنصف يوم من الركوب، فسيكون من الجيد أن نعرف أين نقف».

سأل أفَالّاخْ وهو يُطبّق شفتيه قليلًا: «لماذا التسرع؟ ماذا سنستفيد من العجلة؟»

أجاب إريدِن بريَّاك غلاس وقد أصبح جادًا: «الأبدية». لمع شيء سريعًا في عينيه الخضراوين. ثم قال: «لكن هذا تخصصك يا أفَالّاخْ. إنه تخصصك ومسؤوليتك».

ردّ أفَالّاخْ: «لقد تحدثت».

أضاف إريدِن: «نعم، لقد تحدثت. والآن، عذرًا، فالواجب يدعوني. سأترك لكم مرافقين من أجل السلامة. أنصحكم بقضاء الليل هنا، على هذا التل. إذا انطلقتم عند الفجر غدًا، ستصلون إلى تير نا ليَا في الوقت المناسب. فا فايل. آه، أمر آخر».

انحنى، وكسر ثم قطف غصنًا من شجيرة الغار المزهرة. أحضره قرب وجهه، ثم سلمه لسيري.

قال بإيجاز: «أعتذر عن الكلمات المتسرعة. فا فايل، لُنِدْ».

انصرف بسرعة، وبعد لحظة ارتجت الأرض تحت حوافر خيله وهو يغادر مع الكتيبة بأكملها.

قالت وهي تهمس بغضب: «فقط لا تخبرني... أن عليّ أن... إذا كان هو... إذا كان هو، فلن أوافق أبدًا، أبدًا».

ردّ أفَالَّاخْ ببطء: «لا، ليس هو. كوني هادئة».

أحضرت سيري الغصن إلى وجهها. حتى لا يرى الإثارة والإعجاب اللذين سيطرَا عليها.

قالت: «أنا هادئة».

* * *

استُبدلت الأشواك الجافة ونباتات الشيح في السهوب بعشب أخضر مورق وأشجار سرخس رطبة. كان الأرض المستنقعية مزينة باللونين الأصفر والأرجواني بأزهار البابونج والذئب الجميل. وبعد فترة قصيرة، رأوا نهرًا، وعلى الرغم من أنه كان صافيًا كالبلور، إلا أنه كان يحمل لونًا بنيًا خفيفًا. كان يفوح منه رائحة الخث.

كان أفَالَّاخْ يعزف ألحانًا مرحة على مزماره. أما سيري، فكانت غامضة الملامح، تفكر بعمق.

قالت أخيرًا: «من هو الأب الذي سيُنجب الطفل الذي يهمكم كثيرًا؟ أم أن الأمر لا يهم؟»

ردّ قائلاً: «الأمر مهم. هل علي أن أفهم أنك اتخذتِ قرارك؟»

أجابت: «لا، ليس عليك ذلك. إنما أقوم فقط بتوضيح بعض الأمور.»

تابع: «هل يمكنني مساعدتك؟ ماذا تريد أن تعرفي؟»

أجابت: «أنت تعرف جيدًا ما أقصده.»

ركضوا لبعض الوقت في صمت. رأت سيري طيور البجع وهي تبحر برشاقة أسفل النهر.

تحدث أفَالَّاخْ بهدوء ووضوح: «سيكون والد الطفل هو أوبرون مويرسيتاخ. أوبرون مويرسيتاخ هو... كيف تقولين؟ قائدنا الأعلى.»

سألت: «ملك؟ ملك جميع شعب آن سيدهي؟»

أجاب: «آن سيدهي، شعب التلال، هم الإلفيون في عالمك. أما نحن فنحن آن إيليه، شعب ألدر. وأوبرون مويرسيتاخ هو بالفعل ملكنا.»

تابعت: «ملك الألدر؟»

أجاب: «يمكنك أن تسميه بذلك.»

ركضوا مرة أخرى في صمت. كان الجو دافئًا جدًا.

قالت: «أفَالّاخْ.»

أجاب: «نعم.»

تابعت: «إذا وافقت، بعد ذلك... لاحقًا... هل سأكون حرة؟»

أجاب: «ستكونين حرة ويمكنك الذهاب حيثما تريدين. بشرط ألا تقرري البقاء... مع الطفل.»

ضحكت بسخرية، لكنها لم تقل شيئًا.

سأل: «إذن، هل قررتِ؟»

أجابت: «سوف أقرر عندما نصل.»

ردّ: «لقد وصلنا.»

رأت سيري القصور من خلف أشجار الصفصاف الحزينة التي كانت تتدلى نحو الماء كستائر خضراء. لم ترَ في حياتها شيئًا مثلها. القصور، رغم أنها بُنيت من الرخام والألباستر، كانت تشبه البيوت الزجاجية الهشة. بدت رقيقة وخفيفة وهشة، وكأنها ليست مبانٍ بل أطياف لمبانٍ. كانت سيري تتوقع في أي لحظة أن الرياح ستهب وستختفي القصور الصغيرة مع الضباب المتصاعد من النهر. ولكن عندما هبت الرياح، واختفى الضباب، وتحركت أغصان الصفصاف، وظهرت تموجات على سطح النهر، لم تختفِ القصور ولم يكن لديها أي نية للزوال. بل أصبحت أكثر جمالاً.

نظرت سيري بإعجاب إلى الشرفات الصغيرة، إلى الأبراج الصغيرة التي تشبه زهور اللوتس النابتة من الماء، إلى الجسور الصغيرة المعلقة فوق النهر كشرائط من نبات اللبلاب، إلى السلالم، الخطوات، الدرابزينات، إلى الأقواس والأروقة، إلى البرك المفتوحة، إلى الأعمدة الطويلة والقصيرة، إلى القباب الكبيرة والصغيرة، إلى الزخارف الحادة والأبراج التي تشبه سيقان الهليون.

قال أفَالّاخْ بصوت خافت: «تير نا ليَا.»

كلما اقتربوا، زادت روعة المكان تمسكًا بقلبها بقوة، وضغطت على حلقها بشدة أكبر، مما جعل الدموع تتجمع في زوايا عينيها. نظرت سيري إلى النوافير، إلى الفسيفساء والطين المحروق، وإلى النُصب التذكارية والمنحوتات. إلى تلك التصاميم الدقيقة التي لم تستطع تصور الغرض منها. وإلى تصاميم أخرى كانت متأكدة أنها لا تخدم أي غرض، سوى الجمال والانسجام.

كرر أَفَالَّاخْ: «تير نا ليَا. هل رأيتِ شيئًا مثل هذا من قبل؟»

أجابت: «نعم، لقد رأيت. ذات مرة رأيت شيئًا مشابهًا. في شايراويد.»

حينها جاء دور الإلف أن يظل صامتًا لفترة طويلة.

* * *

عبروا النهر عبر جسر مخرم، بدا هشًا جدًا لدرجة أن كِيلبي رقصت وصهلت لفترة طويلة قبل أن تجرؤ على وضع قدميها عليه. وعلى الرغم من القلق والتوتر، كانت سيري تنظر حولها بانتباه شديد، غير راغبة في تفويت أي شيء، أي مشهد تقدمه مدينة تير نا ليَا الخيالية. أولًا، كانت مدفوعة بفضول شديد، وثانيًا لم تتوقف عن التفكير في الهرب، لذلك كانت تراقب بحذر بحثًا عن فرصة.

رأت إلفيين ذوي شعر طويل يرتدون سُترات ضيقة وأردية قصيرة مطرزة بزخارف على شكل أوراق، يسيرون على الجسور الصغيرة والشرفات، على طول الطرق والأروقة المفتوحة، وعلى الشرفات والأروقة. كما رأت نساء الإلفيات ذوات تسريحات شعر متقنة ومكياج استفزازي، يرتدين فساتين شفافة أو ملابس تشبه الزي الذكري.

استقبلهم إريدِن بريَّاك غلاس خارج البرج الكبير لأحد القصور. بأمر قصير منه، انتشر إلفيون صغار ذوو ملابس رمادية اللون، يعتنون بخيولهم بسرعة وهدوء. نظرت سيري إليهم وهي مذهولة بعض الشيء. كان أَفَالَّاخْ وإريدِن وكل الإلفيين الذين التقتهم من قبل طويلي القامة للغاية. كانت بحاجة إلى مد رقبتها للنظر إليهم في عينيهم. أما الإلفيون الصغار ذوو الملابس الرمادية فكانوا أقصر منها بكثير. "عرق مختلف"، فكرت. "عرق الخدم. حتى هنا، في هذا العالم الخيالي، يجب أن يكون هناك من يقوم بالأعمال نيابة عن الكسالى."

دخلوا القصر. تنهدت سيري بدهشة. كانت أميرة من الدم الملكي، نشأت في القصور. لكنها لم ترَ مثل هذه الرخام والملاكيت، ولا مثل هذه الجصيات، الأرضيات، الفسيفساء، المرايا والشمعدانات.

شعرت بعدم ارتياح، غريبة الأطوار في ذلك الداخل المتلألئ، لا تتناسب مع المكان، مغبرة، متعرقة ومتسخة بعد رحلتها.

أما أَفَالَّاخْ، فكان العكس تمامًا، لم يكن قلقًا على الإطلاق. نفض سرواله وحذاءه بقفاز، غير مبالٍ بأن الغبار كان يستقر على مرآة. ثم ألقى قفازيه بفخامة على الإلفية الرمادية التي كانت تنحني أمامه.

سأل بإيجاز: «أوبرون؟ هل هو ينتظر؟»

ابتسم إريدِن.

أجاب: «نعم. إنه في عجلة كبيرة. طلب أن تذهب إليه زيريال فورًا، دون أي تأخير. لقد نصحته بالتخلي عن الفكرة.»

رفع أَفَالَّاخْ حاجبيه.

قال إريدِن بشرح هادئ جدًا: «يجب أن تذهب زيرائيل إلى الملك وهي خالية من الهموم، غير مثقلة، مسترخية، هادئة وفي مزاج جيد. حمام، زي جديد، تسريحة شعر ومستحضرات تجميل ستساهم في هذا المزاج الجيد. أعتقد أن أوبرون سيكون قادرًا على الانتظار حتى ذلك الحين.»

تنهدت سيري بعمق ونظرت إلى الإلف. كانت مندهشة حقًا من مدى لطفه الظاهر. ابتسم إريدِن، مكشوفًا أسنانه المستوية.

أعلن قائلاً: «هناك أمر واحد فقط يثير لدي تحفظات. وهو البريق الحاد في عيني عصفورتنا. إنهاتومض بعينيها يمينًا ويسارًا، تمامًا مثل الوَلَّاس الذي يبحث عن ثغرات في القفص. أرى أن العصفورة لا تزال بعيدة عن الاستسلام غير المشروط.»

لم يعلق أَفَالَّاخْ. وبالطبع، لم تعلق سيري أيضًا.

تابع إريدِن: «لستُ متفاجئًا. لا يمكن أن يكون الأمر مختلفًا، لأنها تحمل دم شيادهال ولارا دورين. لكن استمعي إلي باهتمام شديد يا زيرائيل. لا يوجد هروب من هنا. لا يوجد أي إمكانية لكسر غياس غاراد، تعويذة الحاجز.»

قالت نظرات سيري بوضوح إنها لن تصدق ذلك إلا بعد اختباره.

تابع إريدِن دون أن يرفع عينيه عنها: «حتى لو تمكنتِ بطريقة معجزة من كسر الحاجز... فاعلمي أن ذلك سيعني نهايتك. هذا العالم يبدو جميلًا فقط. لكنه يحمل الموت، خاصة للمبتدئين. حتى السحر لا يستطيع شفاء جرح ناتج عن نتوء وحيد القرن.»

واستمر قائلاً دون انتظار تعليق: «واعلمي أيضًا أن موهبتك الوحشية لن تساعدك إطلاقًا. لن تتمكني من القفز، فلا تحاولي حتى. وحتى إذا نجحتِ، فاعلمي أن دييرغ رواهْدري، فرساني الحمر، يمكنهم اللحاق بك حتى في أعماق الزمن والمكان.»

لم تفهم تمامًا ما كان يتحدث عنه. لكن ما أثار حيرتها هو أن أفَالّاخْ أصبح فجأة عابسًا ومقطب الجبين، وكان واضحًا أنه غير سعيد بكلام إريدِن. وكأن إريدِن قد قال أكثر مما ينبغي.

قال أفَالّاخْ: «لنذهب. توجهي معنا يا زيرائيل. سنسلمك للسيدات. من الضروري أن تكوني جميلة. الانطباع الأول هو الأهم.»

* * *

كان قلبها ينبض بقوة في صدرها، والدم يخفق في صدغيها، ويديها ترتجفان قليلًا. سيطرت عليهما بتقبض كفيها. هدأت نفسها بمساعدة أنفاس عميقة. أرخت كتفيها، وحركت عنقها الذي كان مشدودًا من التوتر.

نظرت مرة أخرى إلى المرآة الكبيرة. لم يعجبها المنظر كثيرًا. شعرها، الذي كان لا يزال رطبًا من الحمام، تم تقليمه وتمشيطه بحيث يخفي جزئيًا ندبتها. المكياج أبرز عينيها وفمها بشكل لطيف، والتنورة الرمادية الفضية الممزقة حتى منتصف فخذها، والسترة السوداء مع بلوزة شفافة من حرير اللؤلؤ بدت أنيقة للغاية. وشاح الحرير حول عنقها أضاف لمسة ملفتة لكل شيء.

عدلت سيري الوشاح وأصلحته، ثم مدّت يدها بين فخذيها وضبطت ما كان يجب تعديله. وكانت ترتدي تحت التنورة بعض القطع المثيرة حقًا – سراويل داخلية رقيقة كشبكة العنكبوت وجرابات طويلة تكاد تصل إلى السراويل، والتي بطريقة لا تصدق بقيت ثابتة دون حمالات.

مدّت يدها نحو المقبض. مترددة، وكأنه لم يكن مقبضًا بل كوبرا نائمة.

"سبت!" فكرت دون قصد باللغة الإلفية: "لقد قاتلت ضد رجال بسيوف. سأواجه رجلًا واحدًا بـ..."

أغلقت عينيها وتنهدت. ثم دخلت إلى الحجرة.

لم يكن هناك أحد في الداخل. كتاب وإبريق على الطاولة من الملاكيت. كانت هناك نقوش غريبة على الجدران، التي كانت مغطاة بالستائر الثقيلة والسجاد المزخرف بالزهور. في زاوية واحدة كانت هناك تمثال. وفي الزاوية الأخرى سرير بأربعة أعمدة.

بدأ قلبها ينبض مرة أخرى. ابتلعت ريقها.

رأَت حركة من زاوية عينها. لم تكن في الحجرة. بل على الشرفة.

كان جالسًا هناك، متجهًا إليها بنصف وجهه.

وعلى الرغم من أنها أصبحت الآن أكثر وعيًا بأن كل شيء يبدو مختلفًا عند الإلفيين عما كانت معتادة عليه، شعرت سيري بصدمة خفيفة. طوال الوقت الذي كان يُتحدث فيه عن الملك، لا تعرف لماذا، كانت تتخيل إرفيل من فيردن، الذي كادت أن تصبح زوجة ابنه ذات يوم. عندما فكرت في ذلك الملك، رأت رجلًا ضخمًا مشلولًا بطبقات من الدهون، وأنفاسه تنضح برائحة البصل والبيرة، وأنفه أحمر وعيناه محمرتان مرئيتان فوق لحية غير مهذبة. يحمل صولجانًا وكوكبًا في يديه المتورمتين الملطختين ببقع الكبد.

لكن الملك الذي كان جالسًا بجانب الدرابزين على الشرفة كان مختلفًا تمامًا.

كان نحيفًا جدًا، وكان واضحًا أنه طويل جدًا أيضًا. شعره كان رماديًا مثل شعرها، مخلوطًا بخطوط بيضاء كالثلج، طويلًا ويسقط على كتفيه وظهره. كان يرتدي سترة من المخمل الأسود. كان يرتدي أحذية إلفية نموذجية مليئة بالأبازيم التي تصل إلى أعلى الساق. يداه كانتا نحيفتين وبيضاوين، بأصابع طويلة.

كان مشغولًا بنفخ الفقاعات. كان يحمل وعاءً صغيرًا مليئًا بالماء والصابون وقشة كان ينفخ من خلالها. كانت الفقاعات اللامعة بألوان قوس قزح تطفو ببطء نحو النهر.

أصدرت سيري صوتًا خفيفًا وهي تُصفّي حلقها.

التفت الملك الألدر برأسه. لم تستطع سيري كبح صرخة مكتومة. عيناه كانتا استثنائيتين. لامعتين مثل الرصاص المذاب، بلا قاع. ومليئتين بحزن لا يمكن تصوره.

قال: «أيتها السنونو زيرائيل. شكرًا لكِ على موافقتكِ على المجيء».

ابتلعت ريقها، ولم تكن تعرف ماذا تقول. وضع أوبرون مويرسيتاخ القشة على شفتيه وأطلق فقاعة أخرى في الهواء.

شبكت أصابعها لتمنع ارتعاشها، مما أحدث صوتًا عند فرك مفاصلها. ثم قامت بتمشيط شعرها بعصبية. بدا أن الإلف يركز فقط على الفقاعات.

سألها: «هل أنتِ قلقة؟»

أجابت كاذبة بغرور: «لا. لست قلقة».

تابع: «هل أنتِ مستعجلة للذهاب إلى مكان ما؟»

ردّت: «في الحقيقة نعم».

يبدو أنها أضافت الكثير من اللامبالاة إلى صوتها، وشعرت بأنها توازن على حافة الأدب. لكن الإلف لم يكن يركز عليها. نفخ فقاعة ضخمة عبر طرف القشة، وجعلها تتمايل حتى أصبحت تشبه الخيار. أمضى وقتًا طويلًا وهو يتأمل عمله.

سألها: «هل سيكون ذلك مصدر إزعاج إذا سألتكِ إلى أين تسرعين للذهاب؟»

أجابت بحدة: «إلى المنزل!» ثم صححت نفسها على الفور بإضافة هادئة: «إلى عالمي».

تابع: «إلى ماذا؟»

ردّت: «إلى عالمي!»

قال: «آه. عذرًا. كنت سأقسم أنكِ قلتِ 'إلى عالمي الصغير'. وكنت مذهولًا بالفعل. تتحدثين لغتنا بشكل رائع، لكن يمكنكِ العمل أكثر على نطقكِ ولهجتكِ».

سألت: «هل لهجتي مهمة؟ بعد كل شيء، أنا لست هنا لأتحدث معكم».

أجاب: «لا شيء يجب أن يمنعنا عن السعي نحو الكمال».

ظهرت فقاعة أخرى في نهاية القشة. عندما انفصلت، ارتفعت وانفجرت عند ملامستها لفرع الصفصاف. تنهدت سيري.

بعد لحظة قال أوبرون مويرسيتاخ: «إذن أنتِ مستعجلة للعودة إلى عالمكِ. إلى عالمكِ! في الواقع، أنتم البشر ليس لديكم الكثير من التواضع».

غمَس القشة في الوعاء، وبنفخة تبدو غير مبالية أحاط نفسه بسرب من الفقاعات الملونة.

تابع قائلاً: «أنتم البشر. ظهر جدكِ المليء بالشعر في العالم متأخرًا جدًا بعد وجود الدجاجة. ولم أسمع أبدًا عن دجاجات تدعي ملكية العالم... لماذا تتحركين وتثبّين في مكانكِ مثل قرد صغير؟ ما أقوله يجب أن يثير اهتمامكِ. بعد كل شيء، هذا هو التاريخ. آه، دعيني أخمن. التاريخ لا يهمكِ ويبغضكِ».

طافت فقاعة كبيرة متعددة الألوان نحو النهر. لم تقل سيري شيئًا، وعضت على شفتها.

تابع الإلف قائلاً وهو يحرك الخليط بالقشة: «جدكِ المشعر تعلم بسرعة كيفية استخدام إبهامه المقابل وذكائه البدائي. وبمساعدتهما قام بأشياء مختلفة، غالبًا ما كانت مسلية كما كانت محزنة. أي أنني أردت أن أقول إنه لو لم تكن الأشياء التي فعلها جدكِ محزنة، لكانت مسلية».

فقاعة أخرى، ثم مباشرة بعد ذلك ثانية وثالثة.

قال: «نحن، شعب آن إيليه، لم نكن نهتم كثيرًا بماذا كان يفعل أسلافكم من الحماقات. نحن، على عكس أبناء عمومتنا شعب آن سيدهي، غادرنا ذلك العالم منذ زمن بعيد. اخترنا كونًا آخر أكثر إثارة للاهتمام. لأن ذلك الوقت – ستتعجبين مما سأقوله – كان يمكن للمرء أن يتنقل فيه بحرية بين العوالم. مع القليل من الموهبة والمهارة، بالطبع. لا شك أنكِ تفهمين ما أقصده».

كانت سيري تموت من الفضول، لكنها ظلت صامتة عنادًا، واعية أن الإلف كان يداعبها قليلًا. لم ترغب في تسهيل مهمته.

ابتسم أوبرون مويرسيتاخ واستدار. كان يرتدي قلادة ذهبية، وهي رمز رسمي يُدعى "تورك" بلغة الشعوب القديمة.

قال: «مِير، لُنِدْ».

نفخ بهدوء، محركًا القشة بخفة. هذه المرة، بدلاً من فقاعة واحدة كبيرة كما في السابق، تعلقت عدة فقاعات صغيرة بنهاية القشة.

همهم قائلاً: «فقاعة بجانب فقاعة، وأخرى بجانب أخرى... آه، هكذا كانت الأمور، هكذا كانت... كنا نقول لأنفسنا، ما الفرق؟ سنقضي بعض الوقت هنا، وبعض الوقت هناك، فما المشكلة إن أصرّ البشر (الدهُوين) على تدمير عالمهم بأنفسهم؟ سنذهب إلى مكان آخر... إلى فقاعة أخرى...».

أومأت سيري برأسها ورطّبت شفتيها تحت نظرته المحرقة. ابتسم الإلف مرة أخرى، هز الفقاعات، ونفخ مرة أخرى، وهذه المرة خلق حزمة كبيرة مكونة من عدد لا يحصى من الفقاعات الصغيرة المتصلة ببعضها عند نهاية القشة.

تابع الإلف قائلاً: «جاء التلاحم نتيجة تصادم العوالم» – رفع القشة المعلقة بالفقاعات – «وخلقت المزيد من العوالم. لكن الباب قد أُغلق. إنه مغلق أمام الجميع باستثناء حفنة من المختارين. والوقت يمر. يجب فتح الباب بسرعة. فالأمر ضروري. هل تفهمين هذا الكلمة؟»

أجابت بحدة: «لست غبية».

ردّ: «لا، لستِ كذلك». التفت برأسه. «لا يمكنكِ أن تكوني كذلك. لأنكِ أَن هِن إيشار، من الدم القديم. اقتربي».

عندما مدّ يده نحوها، عضّت أسنانها دون قصد. لكنه فقط لمس ساعدها، ثم يدها. شعرت بوخز لطيف. تجرأت أن تنظر في عينيه الاستثنائيتين.

همس قائلاً: «لم أصدق عندما قالوا لي ذلك. لكنه صحيح. لديكِ عينا شيادهال. عينا لارا». أخفضت نظرها. شعرت بعدم ثقة وغباء.

استند ملك الألدر بمرفقه على الدرابزين وذقنه على يده. بدا لفترة طويلة وكأنه مهتم فقط بالبجع الذي يسبح في النهر.

قال أخيرًا دون أن يدير رأسه: «شكرًا لكِ على المجيء. والآن اذهبي واتركيني وحدي».

* * *

وجدت سيري أفالاخ على الشرفة قرب النهر وهو يهم بركوب قارب برفقة إلفية فاتنة بشعر بلون القش. كانت الإلفية تضع أحمر شفاه بلون الفستق وبقعًا من بريق ذهبي على جفونها وصُدغَيْها.

همت سيري بالانسحاب، لكن أفالاخ أوقفها بإشارة ودعاها إلى القارب بتحية أخرى. ترددت سيري؛ لم ترغب في الحديث أمام شهود. قال أفالاخ شيئًا سريعًا للإلفية وقبلها قبلةً وداعية. اكتفت الإلفية بهز كتفيها ومضت، التفتت مرةً واحدة فقط لتلقن سيري بنظراتها رأيًا واضحًا فيها.

«لو سمحتِ، امتنعي عن التعليق،» قال أفالاخ حين جلست على المقعد الأمامي. جلس هو أيضًا، أخرج مزماره وعزف بلا اكتراث لحركة القارب. نظرت سيري حولها بقلق، لكن القارب كان ينزلق بانسيابية في مجرى النهر، منحرفًا ببراعة عن الأعمدة والأدراج المغمورة. كان قاربًا غريبًا، لم تر مثله حتى في سكيليج حيث أمضت وقتًا طويلًا تدرس كل ما يطفو على الماء. مقدمته طويلة نحيلة منحوتة على شكل مفتاح، ضيقة وغير مستقرة. فقط إلفي يمكنه الجلوس في شيء كهذا ويعزف بدلًا من الإمساك بالمجداف.

توقف أفالاخ عن العزف.

«ما الذي يقلقك؟»

استمع لها وهو يبتسم ابتسامة غامضة.

«أنت حزينة،» قال بلهجة تأكيد لا سؤال. «حزينة، خائبة، لكن فوق كل شيء غاضبة.»

«لا على الإطلاق! لستُ كذلك!»

"ولا يجب أن تكوني كذلك. لقد عوملتِ بتبجيل من قبل أوبرون، كأنكِ من مواليد عرق الآين إلي. تذكري، نحن شعب الألدر لسنا في عجلةٍ من أمرنا... لأن لدينا الوقت."

«لقد قال لي شيئًا مختلفًا تمامًا.»

«أعلم ما قاله.»

«وما القصة وراء ذلك، أتعلمها أنت أيضًا؟»

«بالفعل.»

كانت سيري قد تعلمت الكثير. لم تظهر أي تململ أو غضب عندما وضع المزمار على فمه مجددًا وعزف لحنًا شجيًا طويلًا. انزلق القارب تحت الجسور، وبدأت تعدهم.

قال بعد المرور بالجسر الرابع: «لدينا، أسباب جادة للاعتقاد أن عالمك مهدد بالدمار. كارثة مناخية هائلة. لا شك أنك تعلمين بنبوءة إيثلين. وماورد فيها من حديث عن الصقيع الأبيض، الذي نراه نحن كعصر جليدي شامل. وحيث أن 90% من أراضيكم في نصف الكرة الشمالي، فقد يقضي هذا على كل الحياة. من ينجو سينحدر إلى الهمجية، أو يباد في حروب على الطعام، أو يفترسه وحوش مجنونة بالجوع. تذكري النبوءة زمن الازدراء، زمن الفأس الدامي، زمن عاصفة الذئب.»

لم تقاطعه سيري، خوفًا من أن يعاود العزف.

تابع أفالاخ حديثه وهو يعبث بالأنابيب قائلاً: "الطفل الذي نُعلّق عليه كل هذا الأمل العظيم، النسل وحامل جين لارا دورين، ذلك الجين الذي صيغ بعناية فائقة من قِبلنا، قد يكون خلاص سكان ذلك العالم. لدينا ما يدعونا للاعتقاد بأن نسل لارا - وبالطبع نسلك أنتِ - سيمتلك قدرات تفوق بألف ضعف ما نملكه نحن، العارفون. وما تمتلكينه أنتِ في صورته الجنينية البدائية. أنتِ تدركين عمّا أتحدث، أليس كذلك؟"

كانت سيري قد أدركت، من خلال تعلمها للغة القديمة، أن مثل هذه الحِيَل البلاغية، رغم كونها تتخذ شكل الأسئلة، لا تطالب بجواب فحسب، بل ترفضه رفضًا باتًا في جوهرها.

أردف أفالاخ قائلاً: "بعبارة موجزة، إنها مسألة تتعلق بإمكانية الانتقال بين العوالم، ليس فقط للذات، تلك الشخصية الهامشية التي لا تكاد تُذكر. بل تتعلق بفتح آرد غايث، البوابة العظمى الدائمة التي سيعبر منها الجميع. لقد نجحنا في ذلك قبل الاقتران العظيم، ونطمح لتحقيقه مجددًا الآن. سنُخلّص الأين سيدي المقيمين في العالم المحتضر من مصيرهم. إخوتنا الذين نتحمل تجاههم واجب المساعدة. لن نطيق العيش وفي أنفسنا شعور بأننا تخلّينا عن أي شيء. وسننقذ، نُجلي من ذلك العالم، كل من يتهدده الخطر. الجميع، يا زيريال. حتى البشر."

لم تستطع سيري كبح جماحها فقالت: "حقًا؟ حتى ذوين أيضًا؟"

أجاب أفالاخ قائلاً: "نعم، ذوين أيضًا. أترين الآن بنفسك مدى أهميتكِ، وكم يتوقف عليكِ من أمور عظيمة؟ كم هو ضروري أن تتحلّي بالصبر؟ كم هو حاسم أن تتوجهي إلى أوبيرون هذا المساء وتبقي معه طوال الليل؟ صدقيني، لم يكن سلوكه دليلاً على العداء. إنه يعلم أن هذا ليس بالأمر الهيّن بالنسبة لكِ، وأنه قد يجرحكِ أو يُثنيكِ عن عزمكِ إذا أفرط في استعجاله المزعج. إنه يمتلك معرفة واسعة، يا زيريال. ولا شك أنكِ قد لاحظتِ ذلك."

ردّت سيري بنبرة حادة قائلة: "نعم، لقد لاحظتُ. ولاحظتُ أيضًا أن التيار قد جرّنا بعيدًا جدًا عن تير نا ليا. حان الوقت لنتناول المجاديف. التي، في الحقيقة، لا أراها هنا."

رفع أفالاخ ذراعه، ولوى يده، ونقر بأصابعه، ثم قال: "لأنها غير موجودة." توقف القارب في الحال. ظلّ معلقًا في مكانه للحظة، ثم بدأ يتحرك عكس التيار.

استوى الإلف في جلسته بمزيد من الراحة، وضع أنابيبه على شفتيه، وانصرف بكليته إلى عزف موسيقاه.

* * *

في المساء، استضافها ملك الألدر إلى العشاء. عندما دخلت، وهي تُحدث حفيفًا بحرير ثوبها، دعاها إلى الطاولة بإشارة من يده. لم يكن هناك خدم. خدمها بنفسه.

تألف العشاء من أكثر من اثنتي عشرة نوعًا من الخضروات. كانت هناك فطريات، مسلوقة ومطهية في صلصة. لم تكن سيري قد تذوقت فطرًا مثلها من قبل. بعضها كان أبيض ورفيعًا كنسائم الأوراق الرقيقة، ذا طعم ناعم ولطيف، والبعض الآخر بني وأسود، لحمي وعطري. كان أوبيرون كريمًا أيضًا مع نبيذ الروزيه. بدا خفيفًا ظاهريًا، لكنه صعد إلى رأسها، أرخاها، وأطلق لسانها. وفي لحظة، وجدت نفسها تحكي له أمورًا لم تتخيل أنها ستفصح عنها.

استمع إليها أوبيرون قائلاً. بصبر. ثم، عندما تذكرت فجأة سبب وجودها هناك، أظلمت ملامحها وصمتت.

قال وهو يقدم لها فطرًا جديدًا، أخضر برائحة فطيرة التفاح: "حسبما أفهم، تعتقدين أن القدر يربطكِ بهذا الويتشر؟"

رفعت سيري كأسًا ملطخًا الآن ببقع عديدة من أحمر الشفاه قائلة: "بالضبط. القدر. هو، أعني جيرالت، مرتبط بي بالقدر، وأنا به. قدرينا متشابكان. لذا سيكون من الأفضل لو غادرت من هنا. على الفور. أتفهم ذلك؟"

أجاب أوبيرون قائلاً: "أعترف أنني لا أفهم تمامًا."

احتست سيري رشفة وقالت: "القدر! قوة من الأفضل ألا نعترض سبيلها. لهذا أعتقد... لا، لا شكرًا، لا تقدّم لي المزيد من فضلك، لقد أكلتُ حتى أوشكتُ على الانفجار."

علّق أوبيرون قائلاً: "لقد ذكرتِ التفكير."

أضافت سيري قائلة: "أعتقد أنه كان خطأً أن يتم استدراجي إلى هنا. وإجباري على... حسناً، أنت تعرف ما أعنيه. يجب أن أغادر من هنا، وأسرع لمساعدته... لأنه قدري..."

قاطعها أوبيرون وهو يرفع كأسه قائلاً: "القدر. التنبؤ المسبق. شيء لا مفر منه. آلية تعني أن عددًا غير محدود عمليًا من الأحداث غير المتوقعة يجب أن ينتهي بنفس النتيجة دون غيرها. أليس كذلك؟"

أكدت سيري قائلة: "بالتأكيد!"

سأل أوبيرون قائلاً: "إذن من أين ولماذا ترغبين في الذهاب؟ اشربي نبيذكِ، استمتعي باللحظة، تذوقي الحياة. ما سيأتي سيأتي، إذا كان لا مفر منه."

ردت سيري بحدة قائلة: "كلا، الأمر ليس بهذه البساطة."

قال أوبيرون: "أنتِ تناقضين نفسك."

أنكرت سيري قائلة: "لا، أنا لا أفعل."

أضاف أوبيرون قائلاً: "أنتِ تناقضين تناقضكِ، وهذا دائرة مفرغة."

هزت سيري رأسها وقالت: "لا! لا يمكنكِ الجلوس دون فعل شيء! لا شيء يأتي من تلقاء نفسه!"

رد أوبيرون قائلاً: "جدلية فارغة."

احتجت سيري قائلة: "لا يمكنكِ إضاعة الوقت بلا تفكير! قد تفوتكِ اللحظة المناسبة... تلك اللحظة الفريدة الصحيحة. فالوقت لا يعيد نفسه أبدًا."

نهض أوبيرون وقال: "اسمحي لي." ثم أشار إلى الحائط قائلاً: "انظري إلى ذلك هناك."

كان على الحائط الذي أشار إليه نقش بارز يصور ثعبانًا هائلاً مغطى بالحراشف. كان الزاحف ملتفًا على شكل ثمانية، يغرس أنيابه العظيمة في ذيله. تذكرت سيري أنها رأت شيئًا مشابهًا من قبل، لكنها لم تستطع استحضار المكان.

أشار الإلف وقال: "هناك، الأفعى القديمة أوروبوروس. أوروبوروس ترمز إلى الأبدية وهي ذاتها أبدية. إنها الرحيل الأبدي والعودة الأبدية. شيء بلا بداية ولا نهاية."

أضاف الإلف قائلاً وهو لا ينظر إليها: "الوقت يشبه أوروبوروس القديمة. الوقت هو لحظات عابرة، حبات رمل تنساب عبر ساعة رملية. الوقت هو اللحظات والأحداث التي نحاول قياسها بسهولة. لكن أوروبوروس القديمة تذكرنا أن في كل لحظة، في كل لمحة، في كل حدث، يختبئ الماضي والحاضر والمستقبل. الأبدية مختبئة في كل لحظة. كل مغادرة هي في الوقت ذاته عودة، كل وداع هو تحية، كل عودة هي فراق. كل شيء هو بداية ونهاية في آن واحد."

تابع قائلاً: "وأنتِ أيضاً، أنتِ البداية والنهاية معاً. وبما أننا نتحدث عن القدر، اعلمي أن هذا هو قدركِ بالضبط. أن تكوني البداية والنهاية. هل تفهمين؟"

ترددت سيري للحظة، لكن عينيه المتوهجتين أجبرتاها على الجواب فقالت: "نعم، أفهم."

أمرها الإلف قائلاً: "اخلعي ثيابكِ."

قال ذلك بلامبالاة وبرود جعلاها تكاد تصرخ من الغضب. لكنها بدلاً من ذلك، بدأت تفك أزرار صدريتها بيدين مرتجفتين.

كانت أصابعها عاصية؛ الخطاطيف والعراوي، الأزرار الصغيرة والشرائط، كلها متشابكة وضيقة. ورغم أن سيري أسرعت قدر استطاعتها، راغبة في إنهاء كل شيء بأسرع ما يمكن، استمر خلع الثياب وقتاً طويلاً مزعجاً. لكن الإلف لم يبدُ مستعجلاً. كأن لديه الأبدية بأكملها تحت تصرفه حقاً.

فكرت سيري: "من يدري، ربما هو كذلك بالفعل؟"

وقفت الآن، عارية تماماً، تنتقل من قدم إلى أخرى، والأرضية تبرد قدميها. لاحظ الإلف ذلك وأشار بلا كلام إلى السرير.

كانت الأغطية مصنوعة من فراء المنك. جلود منك مخيطة في صفائح كبيرة. ناعمة بشكل رائع، دافئة، وممتعة الملمس بدغدغتها.

استلقى الإلف بجانبها، مرتدياً ثيابه كاملة، حتى حذائه. عندما لمسها، تشنجت لا إرادياً، غاضبة من نفسها قليلاً، فقد قررت أن تتصرف بكبرياء ولامبالاة. كانت أسنانها، شاءت أم أبت، ترتجف قليلاً. لكن لمسته أثارتها، وأصابعه علمتها وأمرها. وجهتها. وبمجرد أن بدأت تفهم الإيحاءات جيداً لدرجة أنها كادت تتوقعها، أغمضت عينيها وتخيلت أنها ميستل. لكنها لم تستطع. فقد كان مختلفاً عن ميستل تماماً.

وجهها بيده قائلاً. أطاعت سيري. بمحض إرادتها. بإلحاح.

لم يستعجل الإلف أبدًا. جعلها تلين تحت لمساته كشريط حريري. جعلها تئن. جعلها تعض شفتيها. جعل جسدها كله يرتجف في تشنج مفاجئ وصادم.

ما فعله بعد ذلك، لم تتوقعه سيري على الإطلاق.

نهض الإلف وابتعد. تاركًا إياها مشتعلة، تلهث وترتجف.

لم يلتفت إليها حتى بنظرة.

اندفع الدم إلى وجه سيري وصدغيها. انطوت على نفسها ككرة فوق أغطية المنك وبكت. من الغضب والخزي والإذلال.

* * *

في الصباح، وجدت سيري أفالاخ في الرواق المحيط خلف القصر، بين ممر مزين بالتماثيل. كانت التماثيل - بشكل غريب للغاية - تصور أطفال الإلف. في أوضاع متنوعة، معظمها مرحة. كان التمثال الذي وقف بجانبه أفالاخ مثيرًا للاهتمام بشكل خاص: يظهر إلفًا صغيرًا يقف على ساق واحدة، وجهه مشوه بالغضب، وقبضتاه مضمومتان.

ظلت سيري عاجزة عن رفع عينيها عنه لوقت طويل، وشعرت بألم خافت في بطنها. فقط عندما حثها أفالاخ، روت له كل شيء. بعبارات عامة ومتلعثمة.

قال أفالاخ بجدية بعد أن انتهت: "لقد شاهد هو أدخنة سامهاين أكثر من ستمائة مرة. صدقيني، يا زيريال، هذا كثير حتى بالنسبة لشعب الألدر."

ردت سيري بحدة قائلة: "وما شأني بذلك؟ لقد عقدت اتفاقًا! ألم تتعلموا من الأقزام، رفاقكم، ما هو العقد؟ أنا أفي بجانبي منه! أنا أسلّم نفسي! لا يهمني إن كان لا يستطيع أو لا يريد؟ ما يهمني إن كان ذلك عجزًا شيخوخيًا، أو إنني لا أجذبه؟ ربما ينفر من البشر؟ ربما، مثل إريدين، لا يرى فيّ سوى جوهرة في كومة سماد؟"

تغير وجه أفالاخ، بشكل استثنائي، وتقلّص وقال: "آمل... آمل ألا تكوني قلتِ شيئًا من هذا القبيل له؟"

أجابت سيري قائلة: "لا، لم أقل. رغم أنني شعرت برغبة في ذلك."

كرر أفالاخ قائلاً: "احذري. أنتِ لا تعرفين ما تعرضينه للخطر."

ردت سيري قائلة: "كل ذلك لا يعنيني. لقد أبرمت عقدًا. خذوه أو اتركوه! إما أن تفوا بجانبكم من الصفقة، أو نلغي العقد وأصبح حرة."

أشار أفالاخ إلى تمثال الطفل الغاضب وقال: "احذري، يا زيريال. لا تكوني مثل هذا هنا. فكري في كل كلمة. حاولي أن تفهمي. وإن لم تفهمي شيئًا، لا تتصرفي بتهور تحت أي ظرف. كوني صبورة. تذكري، الوقت لا يعني شيئًا."

صاحت سيري قائلة: "بلى، إنه يعني!"

أضاف أفالاخ قائلاً: "من فضلكِ، لا تكوني طفلة متمردة. أكرر مرة أخرى كوني صبورة مع أوبيرون. لأنه فرصتكِ الوحيدة لاستعادة حريتكِ."

كادت سيري تصرخ قائلة: "حقًا؟ بدأت أشك في ذلك! بدأت أشتبه أنكم خدعتموني! أنكم جميعًا خدعتموني..."

قال أفالاخ، وكان وجهه جامدًا كتمثال حجري: "لقد وعدتكِ ستعودين إلى عالمكِ. لقد أعطيتُ كلمتي. التشكيك في كلمة أحدهم إهانة خطيرة للأين إيلي. لكي أمنعكِ من فعل ذلك، أقترح أن ننهي هذا الحديث."

حاول أفالاخ المغادرة، لكن سيري سدت طريقه. ضيّقت عيناها الزمرديتان، وأدركت سيري أنها تتعامل مع إلف خطير للغاية. لكن كان قد فات الأوان للتراجع.

هست سيري كالأفعى قائلة: "هذا أسلوب الإلف تمامًا. أن تهينوا شخصًا ثم لا تتركوه يرد الإهانة."

حذرها أفالاخ قائلاً: "احذري، يا زيريال."

رفعت سيري رأسها بفخر وقالت: "اسمع. ملك الألدر الخاص بك لن ينجز المهمة، هذا أكثر من واضح. لا يهم إن كان هو المشكلة أم أنا. ذلك تافه ولا معنى له. لكنني أريد أن أفي بالعقد. وأنهي الأمر. دع شخصًا آخر يُنجب الطفل الذي تهتمون به كثيرًا."

رد أفالاخ قائلاً: "أنتِ لا تعرفين عما تتحدثين."

واصلت سيري دون تغيير في نبرتها أو تعبيرها قائلة: "وإن كنتُ أنا المشكلة، فهذا يعني أنكم أخطأتم، يا أفالاخ. لقد استدرجتم الشخص الخطأ إلى هذا العالم."

قال أفالاخ: "أنتِ لا تعرفين عما تتحدثين، يا زيريال."

صاحت سيري قائلة: "ولو أنكم جميعًا تنفرون مني، فاستخدموا طريقة مربي الحمير. ماذا، ألا تعرفون؟ تعرضون الفحل على فرس، ثم تعصبون عينيه وتضعون الأتان أمامه."

لم يتكرم أفالاخ حتى بالرد. تجاوزها بلا مراسم ومضى في طريقه بين ممر التماثيل.

صرخت سيري قائلة: "أو أنت، ربما؟ إذا أردتَ، سأسلم نفسي لك! حسنًا؟ ألن تضحي بنفسك؟ أعني، يقولون إن لدي عيني لارا!"

تقدم أفالاخ نحوها في خطوتين. انطلقت يداه نحو عنقها كالأفاعي وضغطتا كالكماشة الفولاذية. أدركت سيري أنه لو أراد، لكان بإمكانه خنقها كفرخ صغير.

أطلقها أفالاخ. انحنى وقرب وجهه منها، ناظرًا في عينيها عن قرب.

سألها أفالاخ بهدوء شديد قائلاً: "من أنتِ، لتجرئي على تدنيس اسمها بهذه الطريقة؟ من أنتِ لتجرئي على إهانتي بهذه الصداقة البائسة؟ أوه، أعرف، أرى من أنتِ. أنتِ لستِ ابنة لارا. أنتِ ابنة كريجنان. أنتِ ذوين بشرية متعجرفة، أنانية، طائشة، ممثلة مثالية لجنسكِ، لا تفهم شيئًا، ويجب أن تدمري وتخربي، تلوثي بلمستكِ وحدها، تنتقصي وتدنسي بفكركِ وحده. لقد سرق سلفكِ حبي مني، انتزعها مني، أخذ لارا مني بأنانية وتكبر. لكنني لن أسمح لكِ، يا ابنته الجديرة به، أن تنتزعي ذكراها مني."

استدار أفالاخ. تغلبت سيري على الغصة في حلقها.

نادته سيري قائلة: "أفالاخ."

التفت إليها بنظرة.

أضافت سيري قائلة: "سامحني. لقد تصرفت بطيش ودناءة. سامحني. وإن استطعت، انسَ الأمر."

اقترب أفالاخ منها وعانقها.

قال أفالاخ بدفء: "لقد نسيتُ بالفعل. لا، لن نعود إلى ذلك أبدًا."

* * *

عندما دخلت سيري إلى الغرف الملكية في ذلك المساء - بعد أن استحمت وتعطرت وصففت شعرها - كان أوبيرون مويركيتاخ جالسًا على الطاولة، منكبًا على رقعة شطرنج. أشار إليها أن تجلس مقابله دون كلمة.

فاز أوبيرون في تسع حركات.

في المرة الثانية، لعبت سيري بالقطع البيضاء، وفاز هو في أحد عشر حركة.

رفع أوبيرون عينيه فقط حينها، تلك العينين الاستثنائيتين النقيتين، وقال: "اخلعي ثيابكِ، من فضلكِ."

كان يستحق التقدير في شيء واحد - كان رقيقًا ولم يستعجل أبدًا.

نهض أوبيرون من السرير - كما في السابق - وابتعد دون كلمة، فقبلت سيري ذلك بهدوء واستسلام. لكنها لم تستطع النوم حتى اقترب الفجر تقريبًا.

وعندما أضاءت النوافذ بضوء الشروق، وغفت أخيرًا، رأت حلمًا غريبًا جدًا.

* * *

عندما دخلت سيري إلى الغرف الملكية في ذلك المساء - بعد أن استحمت وتعطرت وصففت شعرها - كان أوبيرون مويركيتاخ جالسًا على الطاولة، منكبًا على رقعة شطرنج. أشار إليها أن تجلس مقابله دون كلمة.

فاز أوبيرون في تسع حركات.

في المرة الثانية، لعبت سيري بالقطع البيضاء، وفاز هو في أحد عشر حركة.

رفع أوبيرون عينيه فقط حينها، تلك العينين الاستثنائيتين النقيتين، وقال: "اخلعي ثيابكِ، من فضلكِ."

كان يستحق التقدير في شيء واحد - كان رقيقًا ولم يستعجل أبدًا.

نهض أوبيرون من السرير - كما في السابق - وابتعد دون كلمة، فقبلت سيري ذلك بهدوء واستسلام. لكنها لم تستطع النوم حتى اقترب الفجر تقريبًا.

وعندما أضاءت النوافذ بضوء الشروق، وغفت أخيرًا، رأت حلمًا غريبًا جدًا.

* * *

كان فيسجوتا منحنيًا، ينظف عشب البط من مصيدة فئران المسك. هزّت الريح القصبات فأحدثت حفيفًا.

قال فيسجوتا: "أشعر بالذنب، يا سيري. أنا من اقترح فكرة هذه المغامرة المجنونة. أنا من أرشدكِ إلى ذلك البرج الملعون."

ردت سيري قائلة: "لا تلم نفسك، أيها الغراب العجوز. لولا البرج، لكان بونهارت قد أمسك بي. على الأقل أنا آمنة هنا."

أجاب فيسجوتا قائلاً: "أنتِ لستِ آمنة هناك."

استقام فيسجوتا.

رأت سيري خلفه تلالًا عارية مستديرة، بارزة من العشب كظهر وحش كامن في كمين. كانت صخرة ضخمة ملقاة على التل. وقفت بجانبها صورتان. امرأة وفتاة. اجتذبت الريح شعر المرأة الأسود وجذبته.

احترق الأفق بالبرق.

قال صوت: "الفوضى تمد يدها نحوكِ، يا ابنة لارا، يا طفلة الدم القديم، يا فتاة متشابكة في الحركة والتغيير، الدمار والبعث. مقدَّرة ومقدِّرة. من خلف باب موصد، تمد الفوضى مخالبها نحوكِ، دون أن تعلم بعد إن كنتِ ستكونين أداتها، أم عائقًا في خططها. دون أن تعلم إن كنتِ ستلعبين دور حبة رمل في تروس ساعة القدر بمحض الصدفة. الفوضى تخافكِ، يا طفلة القدر. وتريد أن تجعلكِ تشعرين بالخوف. ولهذا ترسل لكِ الأحلام."

انحنى فيسجوتا ونظف مصيدة فئران المسك. فكرت سيري بوضوح: "لكنه ميت. هل يعني ذلك أن الأموات في عالم الأرواح يجب أن ينظفوا مصائد فئران المسك؟"

استقام فيسجوتا. احترق السماء خلف ظهره بوهج الحرائق. ركض آلاف الفرسان عبر السهل. فرسان يرتدون أردية حمراء.

قال فيسجوتا: "ديرغ روادري. اسمعيني جيدًا، يا فتاة. الدم القديم الذي يجري في عروقكِ يمنحكِ قوة عظيمة. أنتِ سيدة الأماكن والأزمنة. لديكِ قوة جبارة. لا تدعي المجرمين والأوغاد يأخذونها منكِ ويستخدمونها لأغراض مشينة. دافعي عن نفسكِ! اهربي بعيدًا عن متناول أيديهم الدنسة."

ردت سيري قائلة: "هذا سهل القول! لقد أسَروني بحاجز سحري أو قيد ما..."

قال فيسجوتا: "أنتِ سيدة الأماكن والأزمنة. لا يمكن تقييدكِ."

استقام فيسجوتا. كان خلف ظهره هضبة، سهل صخري، وعليه حطام سفن. عشرات الحطام. وبعدها قلعة؛ سوداء، مشؤومة، مسننة بالأسوار، ترتفع فوق بحيرة جبلية.

قال فيسجوتا: "سيهلكون بدون مساعدتكِ، يا طائر السنونو. أنتِ وحدكِ من يستطيع إنقاذهم."

تحرك فم ينيفر، الممزق والملطخ بالدم، بلا صوت، يتدفق منه الدم. تألقت عيناها البنفسجيتان، احترقتا في وجهها؛ الهزيل، المتشنج، المسود من التعذيب، المغطى بشعر أسود متشابك وقذر. بركة كريهة الرائحة في تجويف الأرضية، فئران تتسابق حولها. برودة الجدران الحجرية المرعبة. برودة الأغلال على معصميها، على كاحليها...

كانت يدا ينيفر وأصابعها كتلة من الدم الجاف.

صاحت سيري قائلة: "ماما! ماذا فعلوا بكِ؟"

امتدت درجة رخامية تنحدر للأسفل. درج بثلاث منصات.

قالت صوتًا: "Va’esse deireadh aep eigean... شيء ما سينتهي... ما هو؟"

امتدت درجة. اشتعلت النيران في مشاعل حديدية في الأسفل. احترقت الستائر.

قال جيرالت: "هيا بنا." انحدرت الدرجات للأسفل. "يجب أن نفعل. لا بديل. فقط هذه الدرجة. أريد أن أرى السماء."

لم تتحرك شفتاه. كانتا زرقاوين وملطختين بالدم. دم، دم في كل مكان... غطى الدرج بالكامل بالدم.

قال صوت: "لا سبيل آخر. لا سبيل آخر، يا عين النجم."

صرخت سيري قائلة: "كيف؟ كيف يمكنني مساعدتهم؟ أنا في عالم آخر! مسجونة! وبلا قوة!"

رد فيسجوتا قائلاً: "لا يمكن سجنكِ."

قال فيسجوتا: "كل شيء قد كُتب. حتى هذا. انظري تحت قدميكِ." رأت سيري برعب أنها تقف في بحر من العظام. بين الجماجم وعظام الساقين والأضلاع.

أضاف فيسجوتا قائلاً: "أنتِ وحدكِ من يستطيع منع ذلك، يا عين النجم."

استقام فيسجوتا. كان خلفه الشتاء، الثلج، عاصفة ثلجية. هبت الريح وصفّرت. أمامها، في العاصفة الثلجية، على حصان، كان جيرالت. تعرفت سيري عليه، رغم أن قبعة فرو كانت على رأسه، ووجهه ملفوف بوشاح صوفي. خلفه في العاصفة، ظهر فرسان آخرون، ظلالهم غامضة، ملفوفون بشدة لدرجة أنه لا يمكن التعرف عليهم.

نظر جيرالت إليها مباشرة. لكنه لم يرها. تساقط الثلج في عينيه.

صاحت سيري قائلة: "جيرالت! أنا هنا! هنا!"

لم يستطع رؤيتها. ولا سماعها وسط عويل العاصفة.

صرخت سيري قائلة: "جيراااالت!"

قال جيرالت: "إنه موفلون[8]. مجرد موفلون. لنعد." اختفى الفرسان، ذابوا في العاصفة الثلجية.

صرخت سيري قائلة: "جيراااالت! لاااا!"

ثم إستيقظت.

* * *

في صباح اليوم التالي، توجهت سيري فورًا إلى الإسطبلات دون أن تتناول الفطور. لم تكن ترغب في لقاء أفالاخ، ولا في الحديث معه. كانت تفضل تجنب النظرات الفضولية المتطفلة، المتسائلة،

1. [8] الموفلون (Mouflon) هو نوع من الأغنام البرية، يُعتبر من الأسلاف الطبيعيين للأغنام المستأنسة.

اللاصقة من الإلف الآخرين والإلفيات. في كل مناسبة أخرى، كانوا يبدون لامبالاة مدروسة، لكنهم الآن كانوا يكشفون عن فضولهم حول ما يجري في غرفة النوم الملكية، وكانت سيري متأكدة أن جدران القصر لها آذان.

وجدت سيري كيلبي في حظيرتها، ووجدت سرجها وأدواتها. قبل أن تتمكن من تسريج الفرس، كان الخدم قد تجمعوا بجانبها؛ تلك الإلف الصغيرات الرماديات، القصيرات، أقصر برأس من الأين إيلي العاديين. ساعدوها مع الفرس، منحنين ومبتسمين بتودد.

قالت سيري: "شكرًا. كنت سأتدبر الأمر بنفسي، لكن شكرًا. هذا لطيف منكم."

ابتسمت الفتاة الأقرب إليها، فارتجفت سيري.

كانت للفتاة أنياب كالكلاب.

اقتربت سيري منها بسرعة جعلت الفتاة تكاد تذهل. أزاحت سيري الشعر عن أذنها. أذن لم تنتهِ بنهاية مدببة.

صاحت سيري قائلة: "أنتِ بشرية!"

ركعت الفتاة - وجميع من معها - على الأرضية المكنوسة حديثًا. خفضت رأسها. متوقعة العقاب.

بدأت سيري قائلة: "أنا..." وهي تعجن اللجام بيديها: "أنا..."

لم تعرف ماذا تقول. استمرت الفتيات في الركوع. أصدرت الخيول أصواتًا عصبية وضربت بأقدامها في حظائرها.

خارج الإسطبل، في السرج، وهي تركض بخفة، لم تستطع سيري جمع أفكارها بعد. فتيات بشريات. يعملن كخادمات، لكن ذلك لم يكن مهمًا. المهم أن هناك ذوين في هذا العالم...

صححت نفسها في ذهنها: "بشر. أفكر مثلهم."

انتزعتها من شرودها صهيل كيلبي العالي وانطلاقها. رفعت سيري رأسها ورأت إريدين.

كان جالسًا على جواده الأسمر الداكن، الآن بدون جمجمته الشيطانية ومعظم تجهيزات المعركة الأخرى. لكنه كان يرتدي درعًا متسلسلًا تحت عباءة تتلألأ بدرجات متعددة من الأحمر.

أصدر الجواد صهيل ترحيب خشن، هز رأسه وكشف عن أسنانه الصفراء لكيلبي. وفقًا لمبدأ أن المرء يتعامل مع السيد وليس مع الخادم، مدّت كيلبي أسنانها نحو فخذ الإلف. جذبت سيري اللجام بقوة.

قالت سيري: "احذر. حافظ على مسافة. فرسي لا تحب الغرباء. وهي تعض."

نظر إليها الإلف إريدين بنظرة شريرة وقال: "العاضون يجب أن يُروَّضوا بلجام حديدي. مشدود بما يكفي ليُسيل الدم. طريقة رائعة للقضاء على العادات السيئة. في الخيول أيضًا."

جذب إريدين لجام جواده بقوة حتى أصدر الجواد صوتًا وتراجع عدة خطوات إلى الخلف، يتساقط الرغوة من فمه.

سألت سيري وهي تحدق بالإلف: "لماذا الدرع المتسلسل؟ هل تستعد للحرب؟"

أجاب إريدين قائلاً: "على العكس تمامًا. أرغب في السلام. هل لفرسكِ، إلى جانب كونها نافرة، أي فضائل أخرى؟"

ردت سيري قائلة: "أي نوعٍ؟"

اقترح إريدين قائلاً: "هل يمكنني تحديكِ في سباق؟"

وقفت سيري على الركاب وقالت: "إذا أردتَ، لم لا. هناك، نحو تلك الكرومليك[9]..."

قاطعها إريدين قائلاً: "لا. ليس هناك."

سألت سيري: "لماذا لا؟"

أجاب إريدين قائلاً: "ذلك محظور."

قالت سيري: "للجميع، بالطبع."

رد إريدين قائلاً: "ليس للجميع، بالطبع. صحبتكِ ثمينة جدًا بالنسبة لنا، يا طائر السنونو، لنجازف بحرمان أنفسنا منها بسببكِ أو أي شخص آخر."

---

[9] الكرومليك: في **عالم The Witcher**، تظهر الأحجار الضخمة الدائرية أو التشكيلات الصخرية أحيانًا كأماكن ذات **أهمية سحرية أو دينية**، مثل مواقع الطقوس القديمة أو **أضرحة الكهنة والدرويد**. بعض هذه الأحجار يمكن أن تكون مرتبطة بالسحر القديم أو بقوى الطبيعة.

سألت سيري: "أي شخص آخر؟ لا يمكن أن تكون تفكر في وحيدات القرن؟"

قال إريدين: "لا أريد أن أُمللكِ بما أفكر فيه. أو أن أُحبَط لأنكِ لا تفهمين أفكاري."

ردت سيري قائلة: "أنا لا أفهم."

أضاف إريدين قائلاً: "أعلم أنكِ لا تفهمين. التطور لم يمنحكِ دماغًا مطويًا بما يكفي لتفهمي. اسمعي، إذا أردتِ سباقًا، أقترح على طول النهر. في هذا الاتجاه. إلى جسر البورفيري، الثالث على الطريق. ثم عبر الجسر إلى الجانب الآخر، ثم على طول الضفة، مع التيار، حتى المجرى الذي يصب في النهر. هل أنتِ جاهزة؟"

أجابت سيري قائلة: "دائمًا."

حث إريدين جواده بصرخة، فانطلق الجواد كالإعصار. قبل أن تبدأ كيلبي، كان قد تقدم كثيرًا. جعل الأرض ترتجف، لكنه لم يستطع مجاراة كيلبي. لحقت به سيري بسرعة، حتى قبل جسر البورفيري. كان الجسر ضيقًا. صرخ إريدين، وزاد الجواد من سرعته بشكل لا يصدق. أدركت سيري على الفور ما يحدث. لم يكن هناك مجال لمرور حصانين على الجسر. كان على أحدهما أن يتنازل.

لم تكن سيري تنوي الإبطاء. ضغطت نفسها على عنق كيلبي، فانطلقت الفرس كالسهم. احتكت برجل إريدين واندفعت إلى الجسر. صرخ إريدين مجددًا. قفز الجواد واقفًا، اصطدم جانبه بتمثال من الألباستر[10]، أسقطه من قاعدته وتحطم إلى قطع.

سيري، وهي تضحك بخبث كالغول، انطلقت مسرعة عبر الجسر. دون أن تلتفت خلفها.

نزلت عن فرسها عند الجدول وانتظرت.

اقترب هو بعد لحظة. مبتسمًا ومتماسكًا.

قال بإيجاز وهو ينزل عن فرسه: «احترامي لكِ، وللفرس أيضًا وللأُنثى الشجاعة».

ورغم أنها كانت تتصرف بغرور مثل الطاووس، إلا أنها تظاهرت باللامبالاة.

[10] **الألباستر** هو نوع من **الصخور الرسوبية** الناعمة التي تُستخدم في **النحت والزخرفة**، ويتميز بلونه **الأبيض الحليبي أو الكريمي**، وأحيانًا يظهر بدرجات ألوان مختلفة مثل الوردي والرمادي.

ردّت بسخرية: «آه! ألن تقوم بترويضنا بوحشية الآن؟»

أجاب مبتسماً بإيحاء: «لن أفعل إلا إذا سمحتِ لي». بعض الفرسات يحببن اللمسات الخشنة".

قاطعته بنبرة متعالية: «منذ وقت ليس ببعيد... قارنتني بالسماد. والآن نتحدث عن اللمسات؟»

اقترب من كِيلبي، وربّت على رقبتها ثم هز رأسه عندما وجدها جافة. رفعت كِيلبي رأسها وصهلت بصوت طويل. التفت إريدِن نحو سيري. إذا حاول أن يربت عليّ، فكرت، سيُندم على ذلك.

قال: «تفضلي اتبعيني».

على جانب الجدول، كانت هناك درجات قديمة مصنوعة من حجارة الرمل المغطاة بالطَّحالب، حيث كان الجدول يتدفق من منحدر شديد مغطى بغابة كثيفة نحو النهر. الدرجات كانت قديمة، متصدعة ومتشققة بفعل جذور الأشجار. كانت تتعرج صعودًا، وأحيانًا تعبر الجدول عبر جسور صغيرة. في كل مكان كانت الغابة، غابة برية مليئة بأشجار الفراكس القديمة، الزعرور، السرو، القيقب، البلوط، وأرضها مغطاة بسجاد كثيف من أشجار البندق، الصفصاف البري، والتوت الشوكي. كانت الرائحة عطرة بأعشاب الشيح، المريمية، القراص، الحجارة الرطبة، ينبوع الماء والعفن.

سارَت سيري في صمت، دون أن تستعجل، وكانت تتحكم في تنفسها. كما حاولت أن تسيطر على أعصابها. لم تكن تعرف ما الذي قد يريده منها إريدِن، لكن لديها شكوك.

كان هناك شرفة حجرية بجانب شلال آخر، يسقط بصخب من شق صخري، وعلى الشرفة، مظللة بزهر العسل البري، كوخ قديم مغطى باللبلاب وزهرة العنكبوت. من هنا يمكن رؤية شريط النهر، الأسقف، الأروقة والشرفات في مدينة تير نا ليَا أسفل أغصان الأشجار.

وقفا للحظة، ينظران.

قطعت سيري الصمت أولاً: «لم يخبرني أحد... ما اسم هذا النهر».

أجاب: «إيسناده».

سألت: «الأنين؟ جميل. وماذا عن هذا الجدول؟»

أجاب: «التُّواثي».

«الهمسة. هذا أيضًا جميل. لماذا لم يخبرني أحد أنه يوجد بشر يعيشون في هذا العالم؟»

أجاب: «لأن هذه معلومات غير ذات أهمية ولا معنى لها بالنسبة لكِ. هيا ندخل إلى الكوخ».

سألت: «لماذا؟»

أجاب: «لنذهب إلى الداخل».

أول شيء لاحظته بعد دخولها كان أريكة خشبية عارية. شعرت سيري بأن صدغيها بدآ ينبضان. بالطبع، فكرت، كان يجب أن أتوقع ذلك. ألم أقرأ رواية كتبها آنا تيلر في المعبد؟ عن ملك عجوز، ملكة شابة، وأمير طامع في السلطة. إريدِن بلا رحمة، طموح وحاسم. يعرف أن من يملك الملكة يصبح الملك الحقيقي، الحاكم الحقيقي. الرجل الحقيقي. من يمتلك الملكة، يمتلك المملكة. هنا، على هذا السرير، ستبدأ الانقلاب...

جلس الإلف على طاولة من الرخام، وأشار لسيري أن تجلس على كرسي. كان المنظر من النافذة يثير اهتمامه أكثر منها، ولم يكن ينظر إلى الأريكة إطلاقًا.

«ستظلين هنا للأبد»، قال وهو يفاجئها، «يا عصفورتي السنونوية، خفيفة كفراشة صغيرة. حتى نهاية حياتك الفراشية».

بقيت صامتة، تنظر إليه مباشرة في عينيه. لم يكن هناك أي شيء في تلك العيون.

كرر: «لن يسمحوا لكِ بالمغادرة. لن يقبلوا أنكِ، على خلاف النبوءات والأساطير، لستِ أحدًا ولا تعنين شيئًا، مخلوقة بلا معنى. لن يصدقوا ذلك ولن يسمحوا لكِ بالرحيل. خدعوك بوعد لضمان استسلامك، لكنهم لم ينووا أبدًا الوفاء بذلك الوعد. أبدًا».

قالت بصوت أجش: «أفَالّاخْ أعطاني كلمته. يُقال إن التشكيك في كلمة إلف هو إهانة».

ردّ: «أفَالّاخْ واحد من العارفين. للعارفين شرفهم الخاص الذي يبرر كل جملة ثانية فيه غاية تبرر الوسيلة».

تابعت: «لا أفهم لماذا تخبرني بكل هذا. إلا إذا... تريد شيئًا مني. إلا إذا كان لدي شيء ترغب فيه. وتريد التفاوض. حسنًا؟ يا إريدِن؟ حريتي مقابل... مقابل ماذا؟»

نظر إليها لفترة طويلة. وهي بدورها بحثت عبثًا في عينيه عن أي إشارة، أي إشارة، أي علامة. لأي شيء.

بدأ قائلاً ببطء: «لا شك أنكِ تمكنتِ من التعرف إلى أوبرون قليلاً. بالتأكيد لاحظتِ بالفعل أنه طموح بشكل لا يمكن تصوره. هناك أشياء لن يقبلها أبدًا، ولن يتنازل عنها. سيختار الموت قبل ذلك».

بقيت سيري صامتة، تعض شفتيها وتنظر إلى الأريكة.

تابع الإلف: «أوبرون مويرسيتاش لن يستخدم السحر أو غيره من الوسائل التي قد تغير الوضع الحالي. وتلك الوسائل موجودة. وسائل جيدة، قوية، مضمونة. أكثر فعالية بكثير من المنشطات التي يُشبع بها خدام أَفَالَّاخْ مستحضرات التجميل الخاصة بكِ».

حرك يده بسرعة فوق سطح الطاولة الداكن المحفور بالعروق. عندما سحب يده، كان هناك قارورة صغيرة من اليشم الرمادي-الأخضر موضوعة على الطاولة.

قالت بصوت أجش: «لا. مطلقًا لا. لن أوافق على ذلك».

ردّ: «لم تسمحي لي بإنهاء كلامي».

قاطعته: «لا تتعامل معي وكأنني حمقاء. لن أعطيه ما في تلك القارورة. لن تستخدموني لأمور كهذه».

قال وهو ينظر في عينيها ببطء: «تتوصلين إلى استنتاجات متسرعة جدًا. تحاولين التسابق مع نفسك. وأمور كهذه دائمًا ما تنتهي بالسقوط. سقوط مؤلم جدًا».

أصرّت: «قلت لا».

تابع بهدوء: «فكري في الأمر جيدًا. بغض النظر عما تحتويه القارورة، أنتِ دائمًا الرابحة. دائمًا أنتِ الرابحة، يا عصفور».

أصرّت مرة أخرى: «لا!»

بحركة بارعة كما كانت سابقًا، وبمهارة تستحق الساحر حقًا، مسح القارورة من على الطاولة. ثم بقي صامتًا لفترة طويلة، ينظر إلى نهر إيسناده وهو يتلألأ بين الأشجار.

«ستموتين هنا، أيتها الفراشة الصغيرة»، قال أخيرًا. «لن يسمحوا لكِ بالمغادرة. لكنه خياركِ».

ردّت: «لقد أبرمتُ اتفاقًا. حريتي مقابل...»

قاطعها وهو يسخر: «حرية؟ تظلين تتحدثين عن الحرية. وماذا ستفعلين إذا استعدتِها أخيرًا؟ إلى أين ستذهبين؟ ادخلي في رأسك أنكِ الآن لستِ بعيدة عن عالمك فقط بالمكان، بل بالزمان أيضًا. الوقت هنا يمر بشكل مختلف عنه هناك. الأطفال الذين عرفتهم صاروا الآن شيوخًا هرمين، وأقرانكِ ماتوا منذ زمن طويل».

أجابت: «لا أصدقك».

تابع: «استرجعي أساطيركِ. تلك الأساطير عن أشخاص اختفوا بشكل غامض وعادوا بعد سنوات ليجدوا قبور أحبائهم مغطاة بالأعشاب. هل كنتِ تظنين أنها كانت مجرد خيالات أو افتراءات؟ أنتِ مخطئة. على مدى قرون، كان الناس يُختطفون ويُحملون بعيدًا بواسطة فرسان تسميهم أنتِ "الصيد البري". يُختطفون، يستغلون، ثم يُلقى بهم جانباً مثل قشرة بيضة مصّت. لكن حتى هذا المصير لن يكون من نصيبكِ يا زيرائيل. ستموتين هنا. ولن تحظي حتى بفرصة رؤية قبور أصدقائكِ».

أصرّت: «لا أصدق ما تقوله».

ردّ بهدوء: «معتقداتكِ هي أمر خاص بكِ. وقد اخترتِ مصيركِ بنفسكِ. لنعود الآن. لدي طلب يا عصفور. هل ترغبين في تناول وجبة خفيفة معي في تير نا ليَا؟»

لمدة عدة دقات قلب، دار صراع داخل سيري بين الجوع والفضول المتهور ضد الغضب، الخوف من السم، والنفور العام.

أجابت وهي تخفض عينيها: «بسرور. شكرًا لك على الدعوة».

قال: «لا، أنا أشكركِ. لنذهب».

عندما كانوا يغادرون الكوخ، ألقت نظرة أخرى على الأريكة. وفكرت أن آنا تيلر كانت في الحقيقة كاتبة سخيفة ومبالغة.

نزلوا ببطء نحو نهر الأنين، في صمت، وسط رائحة النعناع، المريمية، والقراص. نزلوا الدرج. عبروا على طول ضفة الجدول الذي يُدعى الهمسة.

* * *

عندما دخلت تلك الليلة، وهي معطرة وشعرها لا يزال رطبًا بعد حمام عطري، إلى الحجرات الملكية، وجدت أوبرون جالسًا على الأريكة، منحنياً فوق كتاب كبير. دون أن ينبس ببنت شفة، أشار لها بإشارة فقط أن تجلس بجانبه.

كان الكتاب مليئًا بالرسوم التوضيحية الغنية. وللأمانة، لم يكن فيه شيء سوى الرسومات. وعلى الرغم من محاولتها أن تتظاهر بأنها سيدة راقية ومثقفة، احمرّت وجنتا سيري خجلاً. فقد كانت قد رأت عدة كتب مشابهة في مكتبة المعبد في إيلاندر. لكنها لم تستطع أن تنافس كتاب ملك الألدر، لا في تنوع الأوضاع ولا في براعة تصويرها.

ظلّا ينظران إليه لفترة طويلة، في صمت.

قال: «ارفعي ملابسكِ».

هذه المرة خلع هو ملابسه أيضًا. كان جسمه نحيلًا وشابيًا، نحيفًا تمامًا مثل جيزلهير، مثل كايليغ، مثل ريف، الذين كانت قد رأتهم كثيرًا وهم يستحمون في الجداول أو البحيرات الجبلية. لكن الحياة كانت تتدفق من جيزلهير و"الفئران"، كانوا ينبضون بالحيوية والرغبة في العيش، تتوهج بين قطرات المياه الفضية التي تتناثر حولهم.

أما منه، من ملك الألدر، كانت تنبعث برودة الأبدية.

كان صبورًا. عدة مرات بدا أن الأمر على وشك الحدوث. لكن لم يحدث شيء. غضبت سيري على نفسها، واعتقدت أن السبب هو جهلها وعدم مهارتها المُعوقة. لاحظ ذلك وهدأها. كما كان دائمًا، بطريقة فعالة للغاية. ونامت في أحضانه.

لكن في الصباح لم يكن معها.

في المساء التالي، ولأول مرة، أظهر ملك الألدر علامات عدم صبره. وجدته منحنيًا على الطاولة حيث كان هناك مرآة مُحاطة بإطار من الكهرمان. كان هناك مسحوق أبيض مُنثر عليها.

"هذا هو البداية"، فكرت.

استخدم أوبرون سكينًا صغيرة لتجميع "فيستتش" وتشكيله في خطين. أخذ أنبوبًا فضيًا واستنشق المخدر، أولًا في المنخر الأيسر ثم في الأيمن. عيناه، اللتان كانتا دائمًا تتلألأن، خفتتا قليلاً وأصبحتا غائمتين، وبدأت الدموع تملأهما. عرفت سيري على الفور أنه ليس جرعته الأولى.

شكل خطين جديدين على الزجاج، ثم أشار إليها بالإيماءة وناولها الأنبوب. "أوه، من يهتم"، فكرت. "سيكون الأمر أسهل".

كان المخدر قويًا بشكل استثنائي.

بعد فترة قصيرة، كان الاثنان جالسين على السرير، يعانقان بعضهما البعض، ويحدقان في القمر وعيناهما تدمعان.

عطست سيري.

قالت وهي تمسح أنفها بكم بلوزتها الحريرية: «ليلة غير مكتشفة».

صحح لها قائلاً وهو يمسح عينه: «أيتها الساحرة. إنْش'ياس، وليس إن'لياس. عليكِ العمل على نطقكِ».

أجابت: «سوف أفعل».

قال: «ارفعي ملابسكِ».

في البداية بدا أن الأمور ستكون جيدة، وأن المخدر سيحفزه كما فعل معها. وكان تأثيره عليها يجعلها نشيطة ومغامرة، حتى أنها همست بضع كلمات غير لائقة للغاية – في رأيها – في أذنه. يبدو أنه تأثر قليلاً، كان التأثير، همم، ملموسًا، وفي لحظة ما كانت سيري متأكدة أن الأمر على وشك الحدوث. لكنه لم يحدث. على الأقل ليس بالكامل.

ومرة أخرى أصبح متوترًا. قام ووضع فرو السمور على كتفيه. ووقف هكذا، مُنعطفًا بظهره، يحدق في النافذة والقمر. جلست سيري وهي تلف ذراعيها حول ركبتيها. كانت تشعر بخيبة أمل وغضب، وفي نفس الوقت شعرت بغصة غريبة. لا شك أن ذلك كان نتيجة تأثير "فيستتش" القوي.

همهمت: «كل هذا خطئي. تلك الندبة تشوهني، أعلم. أعلم ماذا تراه عندما تنظر إليّ. لم يتبقَّ الكثير من الإلفية فيّ. قطعة ذهب في كومة من السماد...»

استدار فجأة.

قال ببطء وسخرية: «أنتِ متواضعة للغاية. يمكنني أن أقول بالأحرى: لؤلؤة في زبل الخنازير. ماسة على إصبع جثة متعفنة. كجزء من تدريبكِ اللغوي يمكنكِ ابتكار المزيد من المقارنات. سأختبركِ عليها

غدًا، يا صغيرة الدهُوين. يا كائنًا بشريًا لم يتبقَّ فيه، لا شيء، أي شيء على الإطلاق، من المرأة الإلفية».

مشى نحو الطاولة، التقط الأنبوب وانحنى فوق المرآة. جلست سيري وكأنها تحجرت. شعرت وكأنها تعرضت للبصق عليها.

صرخت بغضب: «لم آتِ هنا بدافع الحب! كما تعلم جيدًا، أنا مأسورة ومهددة بالابتزاز! لكنني تصالحت مع الأمر، أفعل ذلك من أجل...»

قاطعها بحرارة، بطريقة غير إلفية تمامًا: «من أجل من؟ من أجلي؟ من أجل شعب آن سيدهي المسجون في عالمكِ؟ يا فتاة حمقاء! أنتِ تفعلين ذلك من أجل نفسكِ. تأتين هنا لنفسكِ وتحاولين عبثًا أن تقدمي نفسكِ لي. لأنه هو أملك الوحيد، فرصتك الوحيدة. وسأخبركِ بشيء آخر. صلي، صلي بحماس إلى أصنامكِ البشرية، وألهتكِ وطوطمكِ. لأن الخيار سيكون إما أنا، أو أَفَالّاخْ ومختبره. صدقيني، لن ترغبي في أن تنتهِي في المختبر وتكتشفي البديل».

ردّت بصوت خافت وهي تلتف في السرير: «الأمر بالنسبة لي سواء. سأوافق على أي شيء، طالما سأستعيد حريتي. لأتحرر أخيرًا منك. للمغادرة. إلى عالمي. إلى أصدقائي».

«أصدقاؤكِ!» سخر. «ها هم أصدقاؤكِ!»

استدار وألقى بعنف مرآة مغطاة بمسحوق "فيستتش" نحويها.

كرر: «ها هم أصدقاؤكِ. انظري.»

خرج، تاركًا ذيول فرو السمور ترفرف خلفه.

في البداية رأت فقط انعكاسها الضبابي في الزجاج المتسخ. لكن بعد لحظات قليلة بدأ الزجاج يتلألأ بلون أبيض حليبي، ثم امتلأ بالدخان. وبعد ذلك ظهرت صورة.

ينيفر معلقة في هوة عميقة، ظهرها منحني وذراعيها مرفوعتان. أكمام فستانها تشبه أجنحة طائر ممدودة. شعرها يتحرك كالموج، وسمكتان صغيرتان تتنقلان بين خصلاته. أسراب كاملة من السمكات اللامعة المشغولة. بعضها يقرص وجنتي الساحرة وعينيها. حبل يمتد من ساق يينيفر نحو قاع البحيرة، ونهاية الحبل، عالقة في الوحل والأعشاب المائية، هي سلة كبيرة مليئة بالحجارة. بعيدًا في الأعلى، تلمع وتتلألأ سطح المياه.

فستان يينيفر يتحرك بإيقاع واحد مع الأعشاب المائية.

سطح المرآة، المغطى بمسحوق "فيستتش"، أصبح محاطًا بالدخان.

جيرالت، شاحبًا كالزجاج، عيناه مغلقتان، جالس تحت ثلّاجات طويلة معلقة من صخرة، بلا حراك، مغطى بالجليد ويُدفن سريعًا تحت الثلج الذي يحمله الإعصار. شعره الأبيض أصبح الآن تشابكًا من الجليد الأبيض، وثلّاجات صغيرة معلقة من حاجبيه، رموشه وشفتيه. الثلج يستمر في السقوط والسقوط. الكومة الثلجية التي تغطي ساقي جيرالت تنمو، وكذلك الكتل الرقيقة على كتفيه. الإعصار يعوي ويصفّر...

قفزت سيري من السرير وألقت بالمرآة بقوة نحو الحائط. تحطم إطار الكهرمان وزاد الزجاج إلى مليون شظية.

عرفت، أدركت، تذكرت هذا النوع من الرؤى. من أحلامها السابقة.

صرخت: «كل هذا كذب! هل تسمعني يا أوبرون؟ لا أصدق ذلك! إنه غير صحيح! إنها مجرد غضبك... غضبك العاجز مثلما أنتَ عاجز! إنها غضبك...»

جلست على الأرض وانفجرت في البكاء.

* * *

كانت تشك في أن جدران القصر لها آذان. في اليوم التالي، لم تستطع التخلص من النظرات المبهمة. شعرت بالسخرية خلف ظهرها، واستمعت بحذر للهمسات. لم يكن أفَالّاخْ في أي مكان يمكن العثور عليه. "هو يعرف"، فكرت: "يعرف ما حدث ويتجنبني. مسبقًا، قبل أن أستيقظ، غادر بالسفينة أو على حصانه مع تلك الإلفية ذات الملابس الذهبية. لا يريد التحدث معي، ولا يريد الاعتراف بأن خطته بأكملها قد باءت بالفشل".

لم يكن إريدِن موجودًا أيضًا. لكن هذا كان متوقعًا. فقد كان غالبًا ما يخرج للتنزه مع فرسانه الحمر، ديرغ رواهْدري.

أخرجت سيري كِيلبي من الإسطبل وركضت إلى الجانب البعيد من النهر، وهي تفكر بجنون طوال الوقت، دون أن تلاحظ شيئًا حولها.

"الهروب هو ما يهم. لا يهم إذا كانت كل هذه الرؤى كاذبة أو حقيقية. الشيء الوحيد المؤكد هو أن يينيفر وجيرالت هناك، في عالمي، ومكاني هو معهم. يجب أن أهرب من هنا، وأهرب دون تأخير! بعد كل شيء، لابد أن هناك طريقة. دخلت وحدي، ويجب أن أكون قادرة على الخروج وحدي. قال إريدِن إن لدي موهبة غير مدجنة، وكان فيسوغوتا يشتبه في الأمر نفسه. لم يكن هناك مخرج من برج زيرائيل؛ لقد فحصته بدقة. ولكن ربما يوجد برج آخر..."

نظرت إلى الأفق، إلى التل البعيد، إلى ظل الكرملك الذي يمكن رؤيته هناك. "منطقة محظورة"، فكرت. "ها، أرى أنها بعيدة جدًا. ربما لن تسمح لي الحاجز بالوصول إلى هناك. لا يستحق الجهد. سأركض في اتجاه المنبع بدلاً من ذلك. لم أركض هناك بعد".

صهلت كِيلبي، ورفعت رأسها، وبدأت بالجري السريع. لم تدع نفسها تُدار. بدلاً من ذلك، بدأت بالهرولة بقوة نحو التل. كانت سيري مذهولة لدرجة أنها لم تتفاعل لحظة، وتركت الفرس يجري. فقط بعد لحظة صرخت وشدت على الزمام. النتيجة كانت أن كِيلبي قامت على قوائمها الخلفية، ركلت الهواء، هزت مؤخرتها، وانطلقت مسرعة. مستمرة في نفس الاتجاه.

لم توقفها سيري، ولم تحاول السيطرة عليها. كانت مذهولة تمامًا. لكنها كانت تعرف كِيلبي جيدًا. يمكن أن تكون الفرسة عصبية، لكن ليس لهذه الدرجة. سلوك مثل هذا يجب أن يعني شيئًا ما.

تباطأت كِيلبي إلى هرولة. واصلت السير مباشرة نحو التل الذي توج بالكرملك.

"حوالي فرلونغ واحد"، فكرت سيري. "في أي لحظة سيظهر الحاجز".

دخلت الفرسة دائرة الحجارة، بين الأحجار العملاقة المغطاة بالطَّحالب والمائلة، التي تنبت من بين كثبان الأشواك الكثيفة، وتوقفت تمامًا. الشيء الوحيد الذي تحركه كِيلبي كان أذنيها، التي رفعتهما باهتمام.

حاولت سيري أن تدير كِيلبي ثم تنطلق. لكن دون جدوى. لو لم تكن الأوعية الدموية في عنق كِيلبي تنبض بوضوح، لأخبرت نفسها أنها لا تجلس على حصان، بل على تمثال. فجأة شعرت بشيء يلامس ظهرها. شيء حاد، شيء اختراق ملابسها وألمّ بها. لم يكن لديها وقت لتلتفت. ثم ظهر وحيد قرن بلون محمر من خلف الصخور دون أي صوت، ودفع قرنه تحت ذراعها. بقوة. بخشونة. شعرت بخيط من الدم يسيل على جانبها.

ظهر وحيد قرن آخر من الجهة الأخرى. كان هذا أبيض تمامًا، من طرف أذنيه حتى نهاية ذيله. فقط منخرَيه كانتا وردية، وعيناه سوداء.

اقترب الوحيد القرن الأبيض. وببطء، شديد البطء، وضع رأسه في حجرها. كان الإحساس قويًا لدرجة أنها أنّت.

"لقد نمت"، دوّى صوت في رأسها. "لقد نمت يا عين النجمة. في ذلك الوقت، في الصحراء، لم أكن أعرف كيف أتصرف. الآن أعلم".

"الحصان الصغير؟" أنّت وهي لا تزال معلقة تقريبًا بين القرنين اللذين يخترقانها.

اسمي هو إيهواراكواكس. هل تتذكرينني يا عين النجمة؟ هل تتذكرين أنك عالجتني؟ أنقذتني؟

تراجع خطوة واحدة واستدار. رأت ندبة على ساقه. عرفته. تذكرت.

"الحصان الصغير! إنه أنت! لكن لونك كان مختلفًا..."

لقد كبرت.

فجأة، اجتاحت رأسها حالة من الارتباك، همسات، أصوات، صراخ وصهيل. سُحِبَت الأقران. لاحظت أن وحيد القرن الثاني، الذي كان خلف ظهرها، كان رماديًا مزرقًا مبقّعًا.

الشيوخ يتعلمون منك يا عين النجمة. إنهم يتعلمون من خلالي. بعد لحظة قصيرة سيكونون قادرين على التحدث بأنفسهم. سيقولون لكِ بأنفسهم ما يريدونه منكِ.

انفجرت الفوضى في رأس سيري في ثورة من الاضطراب الوحشي. ثم هدأت فجأة قبل أن تتحول إلى تيار من الأفكار الواضحة والمفهومة.

نريد مساعدتكِ على الهروب يا عين النجمة.

ظلّت صامتة، رغم أن قلبها كان ينبض بقوة في صدرها.

أين الفرح العارم؟ أين الشكر؟

سألت بحدة: "ولماذا، فجأة، هذا الرغبة في مساعدتي؟ هل تحبني كثيرًا؟"

نحن لا نحبكِ إطلاقًا. لكن هذا ليس عالمكِ. هذا ليس مكانكِ. لا يمكنكِ البقاء هنا. ولا نريدكِ أن تبقي.

قبضت سيري على أسنانها. وعلى الرغم من الحماس الذي شعرت به تجاه الفكرة، هزّت رأسها. إيهواراكواكس–الحصان الصغير–رفع أذنيه، وضرب الأرض بحوافره، ونظر إليها بعينه السوداء. أما وحيد القرن المحمر فقد داس بقوة حتى اهتزت الأرض، وحرّك قرنه بطريقة تهديدية. ثم زفر غاضبًا، وفهمت سيري.

أنتِ لا تثقين بنا.

"لا"، اعترفت بابتسامة مشرقة. "كل شخص هنا يلعب لعبته الخاصة، ويحاول استغلال جهلي. لماذا بالضبط يجب أن أثق بكم؟ من الواضح أنه لا يوجد حب بينكم وبين الإلفيين. لقد رأيت بنفسي في السهوب كيف كادت أن تنشب معركة. يمكنني بسهولة أن أفترض أنكم تريدون استخدامي لإزعاجهم. أنا أيضًا لا أحبهم، بعد كل ما فعلوه لي؛ لقد سجنوني وأجبروني على فعل شيء لا أريده تمامًا. لكنني لن أسمح باستغلالي".

هز وحيد القرن المحمر رأسه، وحرك قرنه مرة أخرى بطريقة تهديدية. صهل الوحيد القرن الرمادي المزرق. رنّت رأس سيري كما لو كانت داخل بئر، وكانت الفكرة التي التقطتها غير مريحة.

صرخت: "آه! أنتم مثلهم تمامًا! إما الطاعة والاستسلام، أو الموت؟ أنا لست خائفة! ولن أسمح باستغلالي!"

شعرت مرة أخرى بالارتباك والفوضى في رأسها. استغرق الأمر بعض الوقت قبل أن تتبلور فكرة واضحة.

"هذا جيد يا عين النجمة أنكِ لا تحبين أن تستغلي. هذا بالضبط هو ما يقلقنا. هذا بالضبط ما نريد ضمانه لكِ. لأنفسنا. وللعالم بأسره. لكل العوالم."

"لا أفهم."

أنتِ سلاح خطير، سلاح مدمر. لا يمكننا أن نسمح لهذا السلاح بأن يقع في أيدي ملك الألدر، أو الثعلب، أو العُقاب.

"من؟" تلعثمَت. "آه..."

ملك الألدر عجوز. لكن الثعلب والعُقاب لا يستطيعان الاستيلاء على السلطة في أرد قيت، بوابة العوالم. لقد سيطروا عليها مرة. وخسروها مرة. الآن لا يستطيعون سوى التجول، التسكع بين العوالم بخطوات صغيرة، وحيدين مثل الأشباح، بلا قوة. الثعلب إلى تير نا بيا آرين، والعُقاب وفرسانه حول الحلزون. لا يمكنهم الذهاب أبعد من ذلك، ليس لديهم القوة. لذلك يحلمون بأرد قيت والسلطة.

سنريكِ كيف استغلوا هذه القوة سابقًا. سنريكِ يا عين النجمة عندما تغادرين من هنا.

"لا أستطيع مغادرة هنا. لقد وضعوا عليّ تعويذة. حاجز. غياس غاراد..."

أنتِ لا يمكن أن تُسجني. أنتِ الآن سيدة العوالم.

"هذا هراء. ليس لدي أي موهبة طبيعية، ولا أستطيع التحكم في أي شيء. وقد تخلّيت عن القوة في الصحراء، منذ عام. الحصان الصغير كان شاهدًا."

في الصحراءِ تخلّيتِ عن السحر. لكن القوة التي في دمك لا يمكن التخلي عنها. ما زلتِ تحملينها. سنعلمكِ كيف تستخدمينها.

"وهل"، صرخت: "أنتم تريدون الاستيلاء على هذه القوة، قوة العوالم التي يقال إنني أملكها؟"

ليس الأمر كذلك. لا نحتاج إلى الاستيلاء على تلك القوة. لأننا دائمًا كنا نمتلكها.

طلب إيهواراكواكس: ثقي بهم. ثقي يا عين النجمة.

"بشرط واحد."

رفع وحيدا القرن رؤوسهم وفتحوا مناخرهم بقوة. كنتِ لتُقسمين أن شرارات تنطلق من أعينهم. "إنهم لا يحبون ذلك"، فكرت سيري: "عندما تُفرض عليهم شروط. ولا حتى صوت الكلمة يعجبهم. آه، لا أعرف إذا كنت أفعل الشيء الصحيح... آمل ألا ينتهي الأمر بشكل مأساوي..."

تحدثوا. ما هو الشرط؟

"سيكون إيهواراكواكس معي."

* * *

في المساء، تلبدت السماء بالغيوم وأصبح الجو مُشبَعًا. ارتفعت سحابة كثيفة ولزجة من النهر. وعندما حلّ الظلام على مدينة تير نا ليَا، دوى صوت عاصفة بغمغمة خافتة وبعيدة. كل حين وآخر، كان وهج البرق يضيء الأفق.

كانت سيري مستعدة منذ وقت طويل. مرتدية ملابس سوداء، وسيفها على ظهرها، قلقة ومتوترة، كانت تنتظر بفارغ الصبر حلول الغسق.

عبرت بهدوء عبر الرواق الفارغ، وتسللت عبر الأروقة إلى الشرفة. كان نهر إيسناده يتلألأ في الظلام، وأشجار الصفصاف تئن مع الرياح.

دوى الرعد البعيد في السماء.

أخرجت سيري كِيلبي من الإسطبل. كانت الفرس تعرف ما هو متوقع منها. توجهت بهدوء نحو جسر البورفير. لفترة وجيزة، تبعت سيري آثار حافرها، ثم ألقت نظرة على الشرفة حيث كانت القوارب راسية.

"لا أستطيع"، فكرت. "يجب أن أظهر أمامه مرة أخرى. ربما أتمكن من تأخير المطاردين بهذه الطريقة؟ الأمر محفوف بالمخاطر، لكن لا يوجد خيار آخر."

* * *

في اللحظة الأولى، ظنت أنه ليس هناك، وأن الحجرات الملكية كانت خالية. لأنها كانت صامتة وخالية من الحياة.

لاحظته فقط بعد لحظة. كان جالسًا في كرسي بذراعين في الزاوية، قميصه الأبيض مفتوحًا على صدره النحيل. كان القميص مصنوعًا من قماش ناعم جدًا لدرجة أنه التصق بجسده كما لو كان مبللًا.

كانت وجه وأيدي ملك الألدر شاحبة تقريبًا مثل قميصه.

رفع عينيه نحوها، وكانت عيونه فارغة.

همس: "شيادهال؟ أنا سعيد أنكِ هنا. هل تعلمين، أخبروني أنكِ قد متّ؟"

فتح يده وسقط شيء على السجادة. كان القارورة الصغيرة المصنوعة من اليشم الرمادي-الأخضر. "لارا." حرك ملك الألدر رأسه، ولمس عنقه كما لو كان الطوق الملكي يخنقه. "كايم آ مِه، لُنِذْ. تعالَي إليّ، يا ابنة. كايم آ مِه، إيلين."

شعرت سيري بنَفَس الموت في أنفاسه.

غنى: "إيلين بلاث، فيني ويد... مِير، لُنِدْ، شريطكِ قد انفكّ... اسمحي لي..."

حاول رفع يده، لكنه لم يستطع. تنهد بعمق، ثم رفع يده فجأة، ونظر إليها في العينين. هذه المرة كان واعيًا تمامًا.

قال: "زيرائيل. لوخلايث. أنتِ بالفعل القدر، يا سيدة البحيرة. وقد أصبحتِ كذلك بالنسبة لي أيضًا، كما يبدو.

فا'يس دييرياه آب أيغيان..." قال بعد لحظة، وراقبت سيري بخوف أن كلماته وحركاته بدأت تتباطأ بشكل مروع.

"ولكن"، أنهى كلامه بتنهيدة: "من الجيد أن شيئًا ما بدأ."

سمعوا دوي رعد طويل الأمد خارج النافذة. العاصفة كانت لا تزال بعيدة. لكنها كانت تقترب بسرعة.

قال: "على الرغم من كل شيء، لا أريد الموت حقًا يا زيرائيل. وأنا آسف جدًا لأنني يجب أن أموت. من كان يتخيل ذلك؟ كنت أعتقد أنني لن أندم. لقد عشت طويلًا، وعانيت كل شيء. مللت كل شيء... ومع ذلك أشعر بالندم. وهل تعرفين شيئًا آخر؟ اقتربي. سأخبركِ بسر. دعينا نجعله سرنا."

انحنت نحوه.

همس: "أنا خائف."

أجابت: "أعلم."

سأل: "هل أنتِ معي؟"

أجابت: "نعم، أنا معك."

قال: "فا فيل، لُنِدْ."

"وداعًا، يا ملك الألدر."

جلست معه، ممسكة بيده، حتى أصبح صامتًا تمامًا وتوقفت أنفاسه الرقيقة. لم تمسح دموعها. تركتها تتدفق.

كانت العاصفة تقترب أكثر. أضاء الأفق بالبرق.

* * *

ركضت بسرعة نزولًا على درج الرخام إلى الشرفة ذات الأعمدة الصغيرة، حيث كانت القوارب تتمايل. فكّت أحدها، الخارجي الذي اختارته في الليلة السابقة. دفعت القارب بعيدًا عن الشرفة باستخدام عمود طويل من خشب الماهوغاني كانت قد أزالتها مسبقًا من قضيب ستارة. شكّت في أن يكون القارب مطيعًا لها كما كان لأفَاَلّاخْ.

انطلق القارب بهدوء مع التيار. كانت تير نا ليًا هادئة ومظلمة. فقط التماثيل على الشرفة كانت تلاحقها بنظراتها الجامدة. بدأت سيري تحسب الجسور.

أضاء البرق السماء فوق الغابة. وبعد لحظة، سُمع صوت رعد طويل الأمد.

الجسر الثالث.

تحرك شيء ما عبر الجسر بهدوء، سريعًا كالجرذ الأسود الضخم. اهتز القارب عندما قفز على المقدمة. ألقت سيري العمود جانبًا وسحبت سيفها.

"وهكذا"، قال إريدِن بريَّاك غلاس بصوت هامس: "تتمنين تركنا بدون مرافقتك؟"

سحب هو أيضًا سيفه. في ومضة قصيرة للبرق تمكنت من فحص السلاح. النصل كان بحافة واحدة، ومنحنياً قليلاً. الحافة كانت لامعة ولا شك أنها حادة، والقبضة طويلة والمقبض على شكل لوحة دائرية مخرمة. كان واضحًا على الفور أن الإلف يعرف كيف يستخدمه.

هز القارب فجأة، واضعًا قدمه بقوة على جانب القارب. حافظت سيري على توازنها بسهولة، وأعادت استقرار القارب بميل قوي لجسدها، ثم حاولت نفس الخدعة بعد لحظات بالقفز بكلتا قدميها على الجانب. تمايل، ولكنه حافظ على توازنه وانقض عليها بسيفه. صدت الضربة برد فعل غريزي، لأنها لم تستطع الرؤية جيدًا. ردّت بضربة سريعة ومنخفضة. صدّ إريدِن الضربة وهاجم، وصدّت سيري الضربة. تناثرت شرارات من السيوف كما لو كانت من حجر القداحة والفولاذ.

هز القارب مرة أخرى بقوة، وكاد أن يسقطها. رقصت سيري، متوازنة مع ذراعيها ممدودتين. تراجع نحو المقدمة وأنزل سيفه.

«أين تعلمتِ ذلك يا عصفور؟»

«سيكون الأمر مفاجئًا لك.»

«أشك في ذلك. هل كانت فكرتكِ أن الحاجز يمكن التغلب عليه بالسفر عبر النهر، أم أن أحدًا ما أخبركِ بذلك؟»

«لا يهم.»

«يهم. ودعينا نصل إلى حقيقة الأمر. هناك طرق للقيام بذلك. الآن اسقطي سيفكِ وسنعود.»

«هيهات.»

«نحن عائدون يا زيرائيل. أوبرون ينتظر. الليلة، أضمن لكِ، سيكون نشيطًا ومليئًا بالحيوية.»

«هيهات»، كررت. «لقد تناول جرعة زائدة من ذلك المنشط الذي أريتني إياه. الذي أعطيته له. أو ربما لم يكن من أجل الحيوية على الإطلاق.»

«عن ماذا تتحدثين؟»

«إنه ميت.»

تغلب إريدِن بسرعة على دهشته وهجم عليها فجأة، واضعًا القارب في حالة اهتزاز. وفيما كانوا يحافظون على توازنهم، تبادلا عدة ضربات شرسة، بينما كان صدى صوت الصلب يتردد في الماء.

أضاء البرق الليل. انزلق جسر فوق رؤوسهم. واحد من الجسور الأخيرة لتير نا ليَا. أو ربما كان الأخير؟

قال بصوت أجش: «يجب أن تفهمي يا عصفور أنكِ فقط تؤجلين الأمر الحتمي. لا يمكنني السماح لكِ بالمغادرة من هنا.»

«ولماذا لا؟ أوبرون ميت. وأنا لا شيء ولا أملك أي أهمية، بعد كل شيء. لقد قلتَ ذلك بنفسك.»

«حسنًا، هذا صحيح.» رفع سيفه. «أنتِ لا شيء. أنتِ مثل عثة صغيرة يمكن سحقها بين الأصابع إلى غبار لامع، ولكنها، إذا أُتيح لها، قد تقطع ثقبًا في نسيج ثمين. أنتِ مثل حبة فلفل صغيرة محتقرة، لكن عندما يتم مضغها عن غير قصد، فإنها تفسد ألذ طعام، وتُجبر المرء على بصقه، عندما كان يريد الاستمتاع به. هذا هو ما أنتِ عليه. لا شيء. لا شيء مزعج.»

وميض البرق. في ضوئه رأت سيري ما أرادت رؤيته. رفع الإلف سيفه وانقض وهو يقفز على مقعد القارب. كان يتمتع بميزة الارتفاع. كان متأكدًا من أنه سيفوز في المواجهة القادمة.

«كان عليكِ ألا تسحبي السلاح عليّ يا زيرائيل. الآن أصبح الأمر متأخرًا جدًا. لن أغفر لكِ ذلك. لن أقتلكِ، أوه، لا. لكن بضعة أسابيع في السرير، ملفوفة بالضمادات، ستفيدكِ بالتأكيد.»

«انتظر. أولًا، أريد أن أخبرك بشيء. سأكشف لكَ سرًا معينًا.»

«وماذا يمكنكِ أن تقولي لي؟ ماذا يمكنكِ أن تخبريني به لا أعرفه؟ وما هي الحقيقة التي يمكنكِ أن تكشفينها لي؟»

«أنك لن تمر تحت الجسر.»

لم يكن لديه وقت للرد، اصطدم الجسر بمؤخرة رأسه وطار للأمام، خاسرًا توازنه تمامًا. كان بإمكان سيري أن تدفعه ببساطة خارج القارب، لكنها كانت تخشى أن ذلك لن يكون كافيًا، وأنه لن يوقف مطاردتها. بالإضافة إلى ذلك، لقد قتل ملك الألدر، سواء عن قصد أو لا. وكان يستحق الألم لذلك.

طعنته في فخذه، عند حافة درعه المعدني. لم يصرخ حتى. طار خارج القارب وسقط في النهر، حيث أغلقت المياه عليه.

التفتت ونظرت. مرّ وقت طويل قبل أن يظهر على السطح. قبل أن يجر نفسه إلى بعض درجات الرخام التي تهبط نحو النهر. استلقى بلا حراك، يقطر ماءً ودمًا.

همست: «سيفيده ذلك. بضعة أسابيع في السرير ملفوفًا بالضمادات.»

أمسكت بالعمود ودفعت القارب بقوة. أصبح نهر إيسناده أكثر وأكثر سرعة. كان القارب يتحرك بسرعة أكبر. اختفت المباني الأخيرة لتير نا ليًا قريبًا خلفها.

لم تلتفت خلفها.

أصبح الجو أولًا مظلمًا جدًا، لأن القارب دخل غابة قديمة، بين أشجار فروعها تتلامس فوق النهر، مشكلة قبة. ثم انفرجت الأجواء عندما انتهت الغابة، وعلى ضفتي النهر كانت هناك مستنقعات ألدر، وقصب وبردي. ظهرت كتل من الحشائش، نباتات مائية عائمة وجذوع الأشجار في النهر الذي كان واضحًا سابقًا. عندما أضاء البرق السماء، رأت حلقات على الماء، وبعد أن دوى الرعد سمعت طرطشة الأسماك المذعورة. كان هناك شيء ما يُصدر أصواتًا مُتخاشِنة وطقطقة، مع صوت امتصاص ومضغ. عدة مرات، ولم يكن بعيدًا عن القارب، رأت عيونًا كبيرة مضيئة. عدة مرات اهتز القارب عند اصطدامه بشيء كبير وحي. ليس كل شيء هنا جميل. بالنسبة للغير معتاد، هذا العالم يعني الموت. كررت في ذهنها كلمات إريدِن.

اتسع النهر بشكل كبير، ممتدًا على نطاق واسع. ظهرت الجزر والقنوات. تركت القارب يطفو عشوائيًا، حيثما أخذها التيار. لكنها بدأت تشعر بالقلق. ماذا سيحدث إذا أخطأت واختارت الفرع الخطأ؟

لم تكد تفكر في ذلك حتى جاء صهيل كِيلبي وإشارة عقلية قوية من وحيد القرن من بين القصب على الضفة.

«إنه أنت يا حصان صغير!»

أسرعي يا عين النجمة. اتبعيني.

«إلى عالمي؟»

أولًا، يجب أن أريكِ شيئًا. أمرني الشيوخ بذلك.

ركضوا، أولًا عبر غابة، ثم عبر سهل مليء بالأخاديد والمنحدرات العميقة. وميض البرق وهدّ الرعد. العاصفة كانت تقترب. الرياح بدأت تهب.

قادها وحيد القرن إلى أحد المنحدرات.

هنا.

«ماذا يوجد هنا؟»

انزلي وشاهدي.

أطاعت. الأرض كانت غير مستوية. تعثرت. شيء ما صرّ وانزلق تحت قدمها. وميض البرق وصرخت سيري بصوت أجوف.

كانت تقف وسط بحر من العظام.

انحدرت السفوح الرملية للوادي، ربما بسبب غسلها بالمطر الغزير. وكُشف ما كان مخفيًا. مقبرة. مكبّ عظام. كومة ضخمة من العظام. عظام الساقين، والحوض، والأضلاع، والفخذين. والجماجم.

التقطت واحدة منها.

ومض البرق وصرخت سيري. فهمت على الفور لمن تعود هذه البقايا.

الجمجمة، التي تحمل آثار شفرة، كانت ذات أنياب كلبية.

"الآن تفهمين"، سمعت في رأسها. "الآن تعرفين. هم الذين فعلوها، شعب آن إيليه. ملك الألدر. الثعلب. العقاب. هذا العالم لم يكن عالمهم على الإطلاق. أصبح عالمهم بعد أن استولوا عليه. عندما فتحوا بوابة أرد قيت، بعد أن خدعونا واستفادوا منا، تمامًا كما حاولوا أن يخدعوكِ ويستفيدوا منكِ".

ألقت سيري الجمجمة بعيدًا.

"قتلة!" صرخت في الليل. "أوغاد".

تدحرج الرعد في السماء بصخب. صهل إيهواراكواكس بصوت عالٍ تحذيرًا لها. فهمت. قفزت إلى السرج، وأطلقت كِيلبي في عدو سريع بصيحة.

كان هناك مطاردون على أثرهم.

"هذا حدث من قبل"، فكرت وهي تبتلع الهواء أثناء العدو. "هذا حدث من قبل. مطاردة كهذه، جنونية، في الظلام، في ليلة مليئة بالرعب، الأشباح والظلال".

"إلى الأمام يا كِيلبي!"

عدو محموم، وعيناها تدمعان من السرعة. انقسم السماء بنور البرق إلى نصفين. رأت سيري أشجار الألدر مشتعلة على جانبي الطريق. من كل جانب تمتد إليها أشجار مشوهة بأذرع طويلة ومدببة من فروعها، وتُطبق فكوكها السوداء المجوفة، وتطلق اللعنات والتهديدات في طريقها. صهلت كِيلبي بصوتٍ حاد، تندفع بسرعة بحيث يبدو أن حوافرها تلامس الأرض بلمسة خفيفة فقط. التصقت سيري بعنق الفرس. ليس فقط لتقليل مقاومة الهواء، ولكن أيضًا لتفادي فروع الألدر التي تحاول أن تسحبها أو تدفعها عن السرج. الفروع تصفق، تضرب، وتجلد، محاولة الإمساك بملابسها وشعرها. الجذوع المشوهة تتمايل، والتجاويف تنفتح وتزمجر.

صهلت كِيلبي بجنون. ردّ عليها وحيد القرن. كان هناك نقطة بيضاء كالثلج في الظلام. كانت تشير الطريق.

"أسرعي يا عين النجمة! اركضي بكل قوتكِ"!

يزداد عدد أشجار الألدر، ويصبح من الصعب أكثر فأكثر تفادي فروعها. قريبًا ستحجب الطريق بالكامل...

صرخة من الخلف. صوت المطاردين.

صهل إيهواراكواكس. استقبلت سيري إشارته. فهمت معناها. التصقت بعنق كِيلبي. لم يكن عليها أن تشجعها. الفرس، مدفوعة بالخوف، تطير في عدو محموم.

مرة أخرى إشارة من وحيد القرن، أوضح وأقوى، تخترق دماغها. إنها تعليمات، وببساطة أمر.

"اقفزي يا عين النجمة. عليكِ أن تقفزي. إلى مكان آخر، إلى زمن آخر".

لم تفهم سيري، لكنها حاربت لتفهم. حاولت بجهد كبير أن تستوعب، ركزت، ركزت بشدة حتى بدأ الدم يطن ويتدفق في أذنيها...

وميض البرق. وبعد ذلك ظلام مفاجئ، ظلام ناعم وداكن، ظلام أسود لا يمكن لأي شيء أن يخففه.

طنين في أذنيها.

الرياح على وجهها. ريح باردة. قطرات المطر. رائحة الصنوبر في أنفها.

كِيلبي تتمايل، تزفر وتدوس. عنقها ساخن ورطب.

وميض البرق. وبعد ذلك الرعد. في ضوء البرق، ترى سيري إيهواراكواكس يهز رأسه وقرنه، ويضرب الأرض بقوة بحوافره.

"يا حصاني الصغير؟"

أنا هنا يا عين النجمة.

السماء مليئة بالنجوم. مليئة بالبروج. التنين. العذراء الشتوية. السبعة ماعز. الإبريق.

وعلى مقربة من الأفق تقريبًا ... العين.

"لقد فعلناها"، قالت وهي تلهث. "وصلنا، يا حصاني الصغير. هذا هو عالمي"!

إشارة منه كانت واضحة جدًا حتى أن سيري فهمت كل شيء.

لا يا عين النجمة. لقد هربنا من عالم واحد. لكنه لا يزال ليس مكانكِ ولا وقتكِ. ما زال أمامنا العديد من العوالم.

"لا تتركني وحدي".

لن أفعل. أنا مدينة لكِ. يجب أن أوفي ديني. بالكامل.

* * *

مع اشتداد الرياح، أظلمت السماء من الغرب. كانت الغيوم، القادمة في موجات، تطفئ البروج واحدًا تلو الآخر.

التنين ينطفئ، العذراء الشتوية تنطفئ، ثم السبعة ماعز والإبريق. أما العين، التي كانت تلمع بأقوى إضاءة وأطولها، فقد انطفأت أيضًا.

أضيء خط الأفق بلمعان خاطف قصير الأمد من البرق. الرعد يدوي بصوتٍ مكتوم. الرياح تشتد فجأة، هب الغبار والأوراق الجافة في أعينهم.

صهل وحيد القرن وأرسل إشارة عقلية.

لا وقت نضيعه. فرصتنا الوحيدة هي في الهروب السريع. إلى المكان المناسب والوقت المناسب. يجب أن نسرع يا عين النجمة.

أنا سيدة العوالم. أنا الدم القديم.

أنا من دم لارا دورين، ابنة شيادهال.

صهل إيهواراكواكس، يحثهم على المسير. ردّت كِيلبي بصهيل طويل وممتد. ارتدت سيري قفازاتها.

قالت: "أنا جاهزة".

زاد الطنين في أذنيها. ثم وميض وإشراق. ثم ظلام.

إن محاكمة يواخيم دي ويت والحكم بإعدامه تُنسب عادةً من قبل معظم المؤرخين إلى الطبيعة العنيفة، القاسية، والاستبدادية للإمبراطور إمير. كما أن هناك عددًا لا بأس به من الفرضيات الأدبية الموحية التي تشير إلى دوافع انتقام وتسوية حسابات شخصية بحتة.

لكن آن الأوان لقول الحقيقة...الحقيقة التي يجب أن تكون واضحة لأي باحث متأمل.

الدوق دي ويت قاد "مجموعة فيردين" بطريقة تجعل وصف "عديم الكفاءة" وصفًا مخففًا للغاية. فقد كان يواجه قواتًا أضعف من قواته بمقدار النصف، لكنه تأخر في الهجوم نحو الشمال، ووجه كل جهوده لمقاتلة المقاومة الفيردينية.

"مجموعة فيردين" ارتكبت فظائع لا توصف ضد السكان المدنيين.

وكانت النتيجة متوقعة وحتمية فبينما لم يكن عدد المتمردين في الشتاء يتجاوز نصف الألف، كان مع حلول الربيع قد انتفضت البلاد بأكملها.

الملك إرفيل، الذي كان مخلصًا للإمبراطورية، تمت تصفيته، وتولى قيادة التمرد ابنه، الأمير كيسترين، الذي كان يتعاطف مع سكان الشمال (النوردلينغز).

دي ويت وجد نفسه في وضع كارثي:

من جناحه، قوة إنزال قراصنة من "سكيليجا."

أمامه، هجوم قوات الشماليين من "سيداريس."

وراءه، تمرد شعبي.

وبدلاً من تحقيق الخطة الأصلية — أي مهاجمة الجناح الشمالي — تورط "مجموعة فيردين" في معارك متناثرة، متكبدًا هزيمة تلو الأخرى.

وبسبب هذا التأخير، اضطر "جيش المجموعة الوسطى" إلى التوقف—بدلًا من تنفيذ هجوم مخطط، وجدت قوات "مينو كوهورن" نفسها مشلولة بسبب تخبط "مجموعة فيردين."

استغل النوردلينغز الفرصة على الفور، شنّوا هجومًا مضادًا، واخترقوا الحصار بالقرب من "مايينا" و"ماريبور"، مما أفشل فرصة الاستيلاء على تلك الحصون الحيوية مرة أخرى.

لكن غباء وعدم كفاءة دي ويت لم يكونا مجرد مشكلة عسكرية، بل كان لهما تأثير نفسي هائل:

أسطورة "عدم هزيمة نيلفجارد" تحطمت.

وبدأت أفواج من المتطوعين تتدفق للانضمام إلى جيش الشماليين...

"حروب الشمال: أساطير، أكاذيب، وأنصاف حقائق" لـ ريستيف دي مونثولون

الفصل السادس

جاري – ماذا يمكن أن يُقال أكثر؟ – كان شديد الخيبة. تربيته في المعبد وطباعه المنفتحة جعلتاه يؤمن بالناس، بطيبتهم، ولطفهم، وإيثارهم. لم يتبقَ الكثير من تلك الثقة.

لقد كان قد نام ليلتين بالفعل في العراء، بين بقايا أكوام القش، والآن بدا أنه سيقضي ليلة ثالثة على نحو مشابه. في كل قرية حيث طلب مكانًا للنوم أو قطعة خبز، كان يُجاب إما بصمت ثقيل، أو بشتائم وتهديدات من خلف بوابات مغلقة بإحكام. لم يكن يُجدي نفعًا أن يقول من هو ولماذا كان يسافر. كان شديد الخيبة، شديد الخيبة جدًا في الناس.

كان الظلام يزداد بسرعة. سار الفتى بخفة ونشاط على درب بين بعض الحقول. لمح كومة قش، مستسلمًا ومحبطًا لاحتمال قضاء ليلة أخرى تحت السماء المفتوحة. كان شهر مارس، بالتأكيد، دافئًا للغاية، لكنه كان يصبح باردًا في الليل. ومخيفًا جدًا.

نظر جاري إلى السماء، حيث، كما في كل ليلة منذ ما يقرب من أسبوع، كان يُرى المذنب الذهبي والأحمر مثل نحلة، يعبر السماء من الغرب إلى الشرق، ساحبًا في أثره جديلة نارية متلألئة. تساءل عما قد تكون هذه الظاهرة الغريبة، المذكورة في العديد من النبوءات، تنبئ به فعليًا.

بدأ يمشي مجددًا. كان يزداد ظلامًا وأكثر ظلامًا. قاد الدرب إلى أسفل، إلى ممر من النباتات الكثيفة التي اتخذت أشكالًا مرعبة في شبه الظلام. من الأسفل، حيث كان أكثر ظلامًا، كانت تنبعث رائحة باردة وكريهة من الأعشاب المتعفنة وشيء آخر. شيء غير سار جدًا.

توقف جاري. حاول أن يقنع نفسه أن ما كان يزحف على ظهره وكتفيه لم يكن خوفًا، بل برودة. دون جدوى.

كان جسر مشاة منخفض يربط ضفتي قناة مغطاة بأشجار الصفصاف والصفصاف المشوه، السوداء واللامعة مثل القار المقشر حديثًا. كانت ثقوب طويلة تتسع في الجسر في الأماكن التي تعفنت فيها الأخشاب وانهارت، وكان الدرابزين مكسورًا، وأعمدته مغمورة في الماء. كانت الصفصاف تنمو بكثافة أكبر ما وراء الجسر. وعلى الرغم من أنه كان لا يزال بعيدًا عن الليل الحقيقي، وعلى الرغم من أن المروج البعيدة ما وراء القناة كانت لا تزال تلمع بخيط من الضباب المعلق على قمة العشب، كان

الظلام يسود بين الصفصاف. رأى جاري في الغموض أطلال بناء غامضة – ربما طاحونة، أو قناة مائية، أو مدخنة لتدخين ثعابين البحر.

فكر الفتى: يجب أن أعبر ذلك الجسر. لا مفر من ذلك! على الرغم من أنني أشعر في عظامي أن شيئًا شريرًا يكمن في الظلام، يجب أن أصل إلى الجانب الآخر من هذه القناة. يجب أن أعبر هذه القناة، مثل ذلك القائد الأسطوري أو البطل الذي قرأت عنه في المخطوطات الصفراء في معبد ميليتيلي. سأجتاز هذه القناة وبعد ذلك ... ما كان ذلك؟ هل ستُوزع الأوراق؟ لا، سترمى النرد. خلفي يكمن ماضيّ، وأمامي يمتد مستقبلي...

\خطا على الجسر وعلى الفور عرف أن شعوره بالقلق لم يكن مخطئًا. قبل أن يراهم حتى. أو يسمعهم. قال أحد الرجال الذين سدوا طريقه بنبرة خشنة: "حسنًا؟ ألم أقل؟ قلت، انتظر لحظة وسيظهر أحدهم".

قال آخر من الشخصيات المسلحة بالهراوات، متلعثمًا قليلًا: "بالضبط، أوكولتيتش، حقًا يجب أن نجعلك عرّافًا أو حكيمًا. حسنًا، أيها المار الوديع، تسير وحدك! هل ستعطينا ما لديك بمحض إرادتك، أم سيتعين أن يصل الأمر إلى صراع؟"

صرخ جاري بأعلى صوته، على الرغم من أنه لم يكن لديه الكثير من الأمل أن يسمعه أحد ويهرع لنجدته: "ليس لدي شيء! أنا مجرد متجول فقير! ليس لدي درهم واحد باسمي! ماذا يمكنني أن أعطيكم؟ هذه العصا؟ هذه الثياب؟"

قال المتلعثم، وكان هناك شيء في صوته جعل جاري يرتجف: "ليس ذلك فقط، لأنه يجب أن تعلم، أيها المتجول الفقير، أننا في الحقيقة، ونحن في حاجة ماسة، كنا نبحث عن فتاة. حسنًا، الليل على الأبواب، لم يعد أحد قادمًا الآن، والمتسولون لا يستطيعون أن يكونوا متطلبين. امسكوه، يا رفاق"!
صرخ جاري: "لدي سكين! أحذركم"!

كان لديه سكين بالفعل. لقد سرقه من مطبخ المعبد في اليوم السابق لهروبه وأخفاه في حزمته. لكنه لم يمد يده إليه. كان مشلولًا – ومرعوبًا – بإدراك أن ذلك لا جدوى منه وأن لا شيء سينجده.
صرخ جاري: "لدي سكين"!

سخر المتلعثم وهو يقترب: "حسنًا، تفضل، لديه سكين. من كان ليفكر في ذلك؟"

لم يستطع جاري الهروب. حول الرعب ساقيه إلى عمودين مغروسين في الأرض. قبض الأدرينالين على حلقه مثل حبل مشنقة.

صرخ شخص ثالث فجأة، بصوت شاب ومألوف بشكل غريب: "مرحبًا هناك! أعتقد أنني أعرفه! نعم، نعم، أعرفه! اتركوه، أقول، إنه صديق! جاري؟ هل تتعرف عليّ؟ أنا ميلفي! مرحبًا، جاري؟ هل تتعرف عليّ؟"

قاوم جاري تلك الإحساس البشع، الغامر، الغريب عليه من قبل، بكل قوته، وقال: "نعم ... أتعرف ..." فقط عندما شعر بألم في وركه، الذي اصطدم بخشبة الجسر، فهم ما كان ذلك الإحساس.

كان إحساس فقدان الوعي.

* * *

قال ميلفي باندهاش: "أوه، هذه مفاجأة، يا لها من صدفة بين الصدف! يا لها من مفاجأة، أن أقابل مواطنًا من بلدي. صديقًا من إيلاندر. رفيقًا! أليس كذلك، جاري؟"

ابتلع جاري قطعة من الدهن الصلب المطاطي الذي أعطته له هذه الرفقة الغريبة، وأكل قليلاً من اللفت المشوي. لم يجب، بل اكتفى بإيماءة برأسه نحو المجموعة الستة المحيطة بنار المخيم.

سأل ميلفي: "وإلى أي اتجاه تتجه، جاري؟"

أجاب جاري: "إلى فيزيما."

قال ميلفي بضحكة: "ها! نحن متجهون إلى فيزيما أيضًا! يا لها من صدفة بين الصدف! ماذا عنك، ميلتون؟ تتذكر ميلتون، جاري؟"

لم يتذكر جاري. لم يكن متأكدًا إن كان قد رآه من قبل أصلاً. في الحقيقة، كان ميلفي يبالغ قليلاً في وصفه بـ"الصديق". كان ابن الدباغ من إيلاندر. عندما كانا يدرسان معًا في مدرسة المعبد، كان ميلفي يضرب جاري بانتظام وبقسوة ويناديه "اللقيط-بلا-أم-أو-أب-المولود-في-القراص". استمر هذا لمدة عام تقريبًا، وبعدها أخرج الدباغ ابنه من المدرسة، لأنه ثبت أن نسله لم يكن صالحًا إلا لصنع البراميل. وهكذا، بدلاً من أن يجتهد ميلفي لتعلم أسرار القراءة والكتابة، اجتهد في نحت الألواح الخشبية في

ورشة والده. وبعد أن أكمل جاري دراسته وبفضل توصية من المعبد أصبح مساعد كاتب في محكمة القضاة، بدأ ابن الدباغ – تابعًا مثال والده – ينحني له، ويقدم له الهدايا، ويعلن صداقته.

واصل ميلفي حديثه: "...نحن ذاهبون إلى فيزيما، للانضمام إلى الجيش. كلنا هنا، كل رجل فينا، ذاهبون للانضمام إلى الجيش. هؤلاء هنا، انظر، ميلتون وأوغرابيك، أبناء الفلاحين، تم اختيارهم لواجب الأراضي، كما تعلم ..."

أجاب جاري: "أعلم." رمى جاري عينيه على أبناء الفلاحين، ذوي الشعر الأشقر والمتشابهين كالأخوة، وهم يمضغون طعامًا غير معروف مشويًا في الرماد.

تنهد ابن الدباغ وقال: "بالنسبة لي، الأمر كالتالي، انظر: في المرة الأولى التي كان على النقابات أن توفر فيها مجندًا، أخرجني والدي من المشكلة. لكن عندما جاء الفقر، اضطررنا إلى السحب بالقرعة مرة ثانية، لأن المدينة قررت ذلك ... حسنًا، أنت تعلم ..."

أومأ جاري برأسه مرة أخرى وقال: "أعلم، تم إصدار قرعة إضافية للتجنيد بقرار من مجلس مدينة إيلاندر في السادس عشر من يناير. كان ذلك ضروريًا بسبب تهديد نيلفجارد..."

قاطع الرجل القوي المحلوق الرأس، المدعو أوكولتيتش، الذي ناداه على الجسر قبل قليل، بنبرة خشنة: "اسمع كيف يتكلم، بايك، متأنق! يعرف كل شيء!"

قال مزارع ضخم آخر، بابتسامة غبية ملتصقة دائمًا بوجهه المستدير، بنبرة متثاقلة: "ذكي متعجرف! يعرف كل شيء!"

قال المدعو بايك، وهو الأكبر سنًا في المجموعة، قوي البنية، بشارب متدلٍ وعنق محلوق، بنبرة بطيئة متلعثمة: "اخرس، كلابروث، بما أنه يعرف كل شيء، فمن الجدير الاستماع إليه عندما يتكلم. قد تكون هناك فائدة من ذلك. حقائق. والحقائق لم تضر أحدًا أبدًا. حسنًا، تقريبًا أبدًا. وتقريبًا لا أحد."

أعلن ميلفي: "أؤيده في ذلك، هو، أعني جاري، ذكي بالفعل، يعرف الحروف ... عالم! أعني أنه يعمل كاتبًا في محكمة إيلاندر، وفي معبد ميليتيلي مجموعة الكتب بأكملها تحت رعايته..."

قاطع بايك، وهو يحدق في جاري عبر الدخان والشرر، وقال: "ما الذي يفعله، إذن، أتساءل، أمين مكتبة المحكمة-المعبد اللعين على الطريق السريع إلى فيزيما؟"

قال الفتى: "مثلكم تمامًا، أنا ذاهب للانضمام إلى الجيش."

قال بايك، وعيناه تتلألآن تعكسان الوهج مثل عيني سمكة حقيقية في ضوء مشعل على مقدمة قارب: "وماذا...ماذا يأمل عالم المحكمة والمعبد أن يجده في الجيش؟ فهو لا يمكن أن يكون ذاهبًا للتجنيد. أليس كذلك؟ حسنًا، أي أحمق يعلم أن المعابد معفاة من التجنيد، ليس عليها أن توفر مجندين. وأي أحمق يعلم أن كل محكمة قادرة على حماية كاتبها والتلاعب لإخراجه من الانضمام إلى الجيش. فما القصة إذن، أيها الكاتب الموقر؟"

أعلن جاري: "أنا أنضم إلى الجيش كمتطوع، أسجل نفسي، بمحض إرادتي الحرة، وليس من التجنيد الإجباري. جزئيًا لأسباب شخصية، لكن بشكل رئيسي من واجب وطني."

ضجت المجموعة بضحك عالٍ، مدوٍ، جماعي.

قال بايك أخيرًا: "انتبهوا، يا رفاق، لأي تناقضات تكمن أحيانًا في الجسد. طبيعتان. هنا لدينا شاب صغير، يبدو متعلمًا ومتمرسًا في أمور العالم، وبلا شك ذكي بطبعه فوق كل ذلك. يفترض أن يعرف ما يحدث في الحرب، يعرف من يقاتل من ومن سيهزم من تمامًا قريبًا. وهو، كما سمعتم، بدون إجبار، بمحض إرادته الحرة، من واجب وطني، يريد الانضمام إلى الطرف الخاسر."

لم يعلق أحد. بما في ذلك جاري.

قال بايك أخيرًا: "مثل هذا الواجب الوطني عادةً ما يكون علامة على ضعف العقل فقط. حسنًا، ربما يليق حتى بخريجي المعبد والمحكمة. لكن كان هناك حديث عن أسباب شخصية ما. أنا فضولي جدًا لمعرفة ما قد تكون تلك الأسباب الشخصية."

قاطعه جاري وقال: "إنها شخصية جدًا لدرجة أنني لن أتحدث عنها. خاصة وأنك، سيدي الكريم، لست متعجلاً للحديث عن أسبابك."

قال بايك بعد لحظة: "انتبه الآن، لو تحدث إليّ أحد الفظّين بهذه الطريقة، لكان قد تلقى لكمة في وجهه على الفور. حسنًا، إذا كان كاتبًا متعلمًا ... سأغفر له ... هذه المرة فقط. وأقول: أنا أيضًا ذاهب للانضمام. وأيضًا كمتطوع."

قال جاري، وقد فاجأ نفسه من أين جاءته كل هذه الجرأة فجأة: "من أجل، مثل أحد ضعاف العقل، الانضمام إلى الخاسرين؟ نهب المسافرين على الجسور في الطريق؟"

ضحك ميلفي، متقدمًا على بايك، وقال: "هو، لا يزال غاضبًا منا بسبب ذلك الكمين على الجسر. دعها تمر، جاري، كان مجرد مزحة! مجرد خدع بريئة. أليس كذلك، بايك؟"

تثاءب بايك وطقطق أسنانه بصوت عالٍ تردد صداه وقال: "صحيح، مجرد خدع بريئة. الحياة حزينة وقاتمة، مثل عجل يُقاد إلى الذبح. عندها فقط الخدع أو المزحات يمكن أن تُبهجها. ألا تعتقد ذلك، أيها الكاتب؟"

قال جاري: "أعتقد ذلك. بشكل عام."

قال بايك، دون أن يخفض عينيه اللامعتين عنه: "هذا جيد، لأنه وإلا كنت ستصبح رفيقًا بائسًا لنا وكان من الأفضل أن تسير إلى فيزيما بمفردك. على الفور، على سبيل المثال."

لم يقل جاري شيئًا. تمدد بايك.

قال بايك: "لقد قلت ما قصدت قوله. حسنًا، يا رفاق، لقد تسلينا، ومرحنا، واستمتعنا، والآن حان الوقت. إذا كنا سنصل إلى فيزيما بحلول وقت العشاء، يجب أن ننطلق مع الشمس."

* * *

كانت الليلة باردة جدًا، ولم يستطع جاري النوم على الرغم من تعبه. كان متكورًا على نفسه تحت عباءته، وركبتاه تكادان تلمسان ذقنه. عندما غفا أخيرًا، نام نومًا سيئًا، وكانت أحلامه توقظه باستمرار. لم يستطع تذكر معظمها. باستثناء حلمين. في الحلم الأول، كان الويتشر، جيرالت من ريفيا، جالسًا تحت جليد طويل متدلٍ من صخرة، ساكنًا، مغطى بالجليد، وكان يُدفن بسرعة تحت الثلج المتساقط. في الحلم الآخر، كانت سيري تركض على حصان أسود، متعانقة عنقه، على ممر من أشجار الغار المشوهة التي كانت تحاول جاهدة الإمساك بها بأغصانها الملتوية.

أوه، وقبل الفجر مباشرة، حلم بتريس ميريجولد. بعد إقامتها في المعبد في العام السابق، كان الفتى قد حلم بالساحرة عدة مرات. كانت تلك الأحلام قد جعلت جاري يفعل أشياء شعر بالخجل الشديد منها بعد ذلك. هذه المرة، طبعًا، لم يحدث شيء مخجل. كان الجو باردًا جدًا.

* * *

انطلق السبعة جميعًا في الصباح، بعد شروق الشمس بقليل. قوّى ميلتون وأوغرابيك، ابنا الفلاحين من واجب الأراضي، نفسيهما وهما يغنيان أغنية عسكرية:

ها يركب المحارب، درعه يلمع بريقًا،
اهربي يا فتاة، سيهديكِ قبلة هذه الليلة،
ولما لا؟ من سيوقف يده؟
فسيفه الحاد يدافع عن الأرض الأم.

كان بايك، وأوكولتيتش، وكلابروث، وميلفي ابن الدباغ – الذي التصق بهم – يتبادلون الحكايات والقصص؛ قصصًا مضحكة للغاية، برأيهم.

قال أحدهم وهو يضحك: "...ويسأل النيلفجاردي: 'ما الذي ينتن هنا؟' فيقول الإلف: 'الخراء'. هاها، ها، هاها!"

ضحك الآخرون وقالوا: "ها، ها، ها، ها! وهل تعرفون هذه؟ نيلفجاردي وإلف وقزم يمشون معًا. ينظرون: فأر يركض ..."

كان كلما طال النهار، كلما زاد عدد المتجولين الآخرين، وعربات الفلاحين، والمأمورين، والفرق الصغيرة من الجنود المسيرين الذين صادفوهم على الطريق السريع. كانت بعض العربات محملة بالبضائع. تبعت عصابة بايك هذه العربات وأنوفهم تكاد تلمس الأرض، مثل كلاب الصيد، يجمعون كل ما يسقط، هنا جزرة، هناك بطاطس، لفت، وأحيانًا حتى بصلة. بعض الغنائم كانوا يخبئونها بذكاء ليوم عصيب، وبعضها كانوا يلتهمونها بنهم دون أن يقطعوا رواية النكات.

قال أحدهم وهو يقهقه: "...ويقول النيلفجاردي: فلوووب! ويتغوط على نفسه حتى أذنيه! ها، ها، ها، ها، ها، ها!"

قال آخرون وهم يضحكون بصوت عالٍ: "هاا، هااا، هاا! يا للآلهة، لا أطيق ذلك ... هاها، هااا، هاااا!"

كان جاري ينتظر فرصة وذريعة للابتعاد. لم يكن مغرمًا ببايك، ولم يكن مغرمًا بأوكولتيتش. لم يكن مغرمًا بالنظرات التي كان بايك وأوكولتيتش يلقيانها على عربات التجار المارة، وعربات الفلاحين، والنساء والفتيات الجالسات عليها. لم يكن مغرمًا بنبرة بايك الساخرة، لأنه ظل يتحدث عن جدوى التطوع عندما كانت الهزيمة والإبادة مؤكدتين وواضحتين للعيان.

كانت هناك رائحة أرض محروثة. ودخان. رأوا أسطح المباني في الوادي، بين رقعة منتظمة من الحقول، والغابات الصغيرة، وبرك الأسماك التي تلمع مثل المرايا. كانت تصل إلى آذانهم أحيانًا نباح كلب بعيد، أو خوار ثور، أو صياح ديك.

قال بايك، متلعثمًا وهو يلعق شفتيه: "يمكنك أن ترى أن هذه القرى غنية، صغيرة لكن فاخرة."

سارع أوكولتيتش ليشرح وقال: "الهالفلينغز يعيشون ويزرعون هنا في الوادي، كل شيء لديهم فاخر وجميل. أمة صغيرة مقتصدة، هؤلاء الأقزام."

قال كلابروث بنبرة خشنة: "غير البشر اللعينون، كوبولدز ملعونون! يزرعون هنا، وتُصيب الفقر والبؤس الناس الحقيقيين بسبب مخلوقات مثلهم. حتى الحرب لا تضرهم."

قال بايك، ممددًا فمه في ابتسامة قبيحة: "حتى الآن. تذكروا هذه القرية، يا رفاق. تلك القصوى، بين تلك البتولات، هناك في الغابة مباشرة. تذكروها جيدًا. إذا ما رغبت يومًا في زيارتها مجددًا، لا أريد أن أضل الطريق."

أدار جاري رأسه بعيدًا. تظاهر بأنه لا يسمع. بأن كل ما يراه هو الطريق السريع أمامه.

واصلوا المسير. غنى ميلتون وأوغرابيك، ابنا الفلاحين من واجب الأراضي، أغنية جديدة. أقل عسكرية. ربما أكثر تشاؤمًا قليلاً. والتي يمكن – خاصة بعد تلميحات بايك السابقة – أن تُعتبر نذير شؤم.

اسمع وفكر فيما أقول،
سأتحدث عن الموت اليوم،
فمهما كان عمرك،
لن تفلت من بؤسه،
كن دائمًا واعيًا لما ينتظرك،
الموت سيخنقك بالتأكيد!

قال أوكولتيتش بتقييم كئيب: " لا بد أن لديه نقودًا. إذا لم يكن لديه نقود، فلتقطع خصيتاى."

كان الفرد الذي راهن أوكولتيتش عليه بهذا الرهان المروع تاجرًا متجولًا، يسرع بجانب عربة يجرها حمار.

قال بايك، متلعثمًا: "نقود أو لا نقود، الحمار لا بد أن يساوي شيئًا. أسرعوا خطاكم، يا رفاق."

أمسك جاري بكم ميلفي ابن الدباغ وقال: "ميلفي، افتح عينيك. ألا ترى ما يُخطط له؟"

قال ميلفي، منتزعًا نفسه من قبضته: "أوه، إنها مجرد نكات ياجاري. مجرد نكات ..."

كانت عربة التاجر – كما بدا من قرب – في الوقت نفسه كشكًا، ويمكن نصبها في غضون لحظات قليلة. كانت البنية التي يجرها الحمار مغطاة بكتابات منتشرة بألوان صارخة وصورية، تعلن أن البضائع المعروضة للبيع تشمل مراهم وعلاجات، وتمائم وتعويذات واقية، وإكسيرات، وفلاتر سحرية وكمادات، ومنظفات، وبالإضافة إلى ذلك كواشف للمعادن والخامات والكمأة وطعوم مضمونة للأسماك والبط والفتيات.

نظر التاجر، وهو رجل عجوز نحيف مثقل بعبء سنواته، حوله، ورآهم، فلعن وحث حماره على السير. لكن الحمار، مثل كل الحمير، لم يكن لديه أي نية للإسراع.

قال أوكولتيتش بهدوء وهو يقيّم: "ثياب فاخرة على ذلك الرجل، وبالتأكيد سنجد شيئًا صغيرًا على العربة ..."

قال بايك: "حسنًا جدًا، يا رفاق، هيا بسرعة! سنتعامل مع هذه المسألة بينما الشهود قليلون على الطريق."

تقدم جاري، متعجبًا من شجاعته، أمام المجموعة بخطوات سريعة قليلة واستدار، واقفًا بينهم وبين التاجر، وقال، مجاهدًا ليخرج كلمة من حلقه الضيق: "لا، لن أسمح بذلك ..."

فتح بايك معطفه ببطء وأظهر سكينًا طويلة مدسوسة في حزامه، حادة بوضوح كالموس، وقال، متلعثمًا بنبرة خبيثة: "ابتعد عن الطريق، أيها الكاتب، إذا كنت تحترم رقبتك. ظننت أنك ستناسب رفاقنا، لكن لا، معبدك، كما أرى، جعلك متزمتًا أكثر من اللازم. تفوح منك رائحة البخور التقي أكثر من اللازم. فابتعد عن الطريق، وإلا..."

قال صوت من خلفهم: "وما الذي يحدث هنا؟ أليس كذلك؟"

خرج شكلان غريبان من خلف أشجار الصفصاف الضخمة المنتشرة التي كانت تحيط بالطريق السريع وكانت السمة الأكثر شيوعًا في مناظر وادي إزمينا.

كان الرجلان يرتديان شوارب مشمعة ملتوية للأعلى، وسراويل منتفخة ملونة، وسترات قصيرة مبطنة مزينة بشرائط، وقبعات مخملية ناعمة ضخمة مزينة بحزم من الريش. بالإضافة إلى السيوف والخناجر المتدلية من أحزمتهما العريضة، كان الرجلان يحملان على ظهريهما سيوفًا ثنائية اليد، ربما بطول ياردتين، بمقابض يبلغ طولها قدمين وواقيات متقاطعة كبيرة منحنية.

كان هذان اللاندسكنيخت[11] يقفزان لأعلى ولأسفل، ويرتبان سراويلهما. لم يتحرك أي منهما حتى نحو مقابض سيوفهما المرعبة، لكن على أي حال، أصبح بايك وأوكولتيتش أكثر هدوءًا على الفور، وتقلص كلابروث الضخم مثل جلد ماعز منفوخ قد نفد منه الهواء.

قال بايك، متلعثمًا: "نحن ... لا نفعل شيئًا ... لا شيء لا ينبغي لنا ..."

صرخ ميلفي: "مجرد مزحات!"

قال التاجر المنحني فجأة: "لم يُصب أحد بأذى، لم يُصب أحد!"

تدخل جاري بسرعة وقال: "نحن، ذاهبون إلى فيزيما، للانضمام إلى الجيش. ربما تتجهان إلى نفس الطريق، أيها السادة النبلاء؟"

قال اللاندسكنيخت، منتفخ الأنفاس، مدركًا على الفور ما يدور حوله الأمر: "بالفعل نحن كذلك، نحن متجهون إلى فيزيما. من يرغب يمكنه أن يذهب معنا. سيكون ذلك أكثر أمانًا."

أضاف الآخر، بنبرة واعية وهو ينظر إلى بايك من أعلى إلى أسفل: "آمن، أقسم بذلك، يجدر بي أن أضيف، بالفعل، أننا رأينا منذ قليل دورية خيالة في محيط دائرة فيزيما. إنهم ميالون جدًا للشنق، وبائس سيكون مصير أي نهّاب يقبضون عليه متلبسًا."

استعاد بايك رباطة جأشه، وابتسم ابتسامة مكشوفة الأسنان، وقال: "وهذا حسن جدًا .. سادتي، إنه حسن، أيها السادة، أن يكون هناك قانون وعقاب للأوغاد، هذا هو النظام الصحيح للأمور. لذا فلننطلق إلى فيزيما، إلى الجيش، فواجبنا الوطني ينادينا."

نظر اللاندسكنيخت إليه طويلاً وبازدراء واضح، ثم هز كتفيه، وعدّل سيفه العظيم على ظهره، وانطلق في الطريق. تبعه رفيقه، وجاري، وكذلك التاجر مع حماره وعربته، وفي الخلف، على مسافة ما، تمايلت عصابة بايك الرثة.

قال التاجر بعد فترة، وهو يحث حماره بعصا من الصفصاف: "شكرًا لكم، سادة الفرسان، وشكرًا لك، أيها السيد الشاب."

قال اللاندسكنيخت، وهو يلوح بيده: "لا شيء، نحن معتادون على ذلك."

---

[11] اللاندسكنيخت هو مصطلح ألماني يشير إلى **الجنود المرتزقة الألمان في أواخر العصور الوسطى وبداية العصر الحديث.**

نظر رفيقه خلف كتفه وقال: "شخصيات متنوعة تنجذب إلى الجيش. يأتي الأمر إلى قرية أو مدينة صغيرة لتوفير مجند واحد لكل خمسمائة فدان، وأحيانًا يُستخدم هذا الأسلوب للتخلص فورًا من أسوأ أنواع الأوغاد. ثم تمتلئ الطرق بمضايقات مثل تلك العصابة هناك. حسنًا، في الجيش، عصا الرقيب ستعلمهم الطاعة. سيتعلم هؤلاء الأنذال الانضباط عندما يمرون بالممر العقابي مرة أو مرتين، ويواجهون صفوف السياط..."

سارع جاري بالتوضيح وقال: "أنا، أتطوع للانضمام، وليس بالإجبار."

قال اللاندسكنيخت، ملقيًا نظرة عليه وهو يلوي أطراف شواربه المشمعة: "جدير بالثناء، جدير بالثناء. وأرى أنك مصنوع من طين مختلف بعض الشيء عن هؤلاء الرجال. لماذا أنت معهم؟"

قال جاري: "جمعنا القدر معًا."

قال الجندي، وصوته جاد: "لقد رأيت مثل هذه اللقاءات العَرَضية والتآخي من قبل، وقادت المتآخين إلى نفس المشنقة. خذ عبرة من ذلك، يا فتى."

قال جاري: "سأفعل.

* * *

قبل أن تقف الشمس المعتمة بالغيوم في كبد السماء، وصلوا إلى الطريق الرئيسي. كان هناك استراحة إجبارية في رحلتهم تنتظرهم. كما كانت تنتظر مجموعة كبيرة من المتجولين الذين اضطروا هم أيضًا إلى التوقف، فالطريق الرئيسي كان مكتظًا بالجنود المسيرين.

قال أحد اللاندسكنيخت، معلقًا بمعرفة على اتجاه المسيرة: "جنوبًا، إلى الجبهة. إلى ماريبور ومواينا."

أشار الآخر برأسه وقال: "انتبهوا إلى راياتهم."

قال جاري: "ريدانيون، نسور فضية على قرمزي."

ربت اللاندسكنيخت على ظهره وقال: "لقد خمنت صحيحًا، أنت شاب ذكي حقًا. هذا جيش ريدانيا، الذي أرسلته الملكة هيدويغ لمساعدتنا. الآن نحن أقوياء بالوحدة. تيميريا، ريدانيا، آدين، وكايدون. الآن نحن جميعًا حلفاء، مؤيدون لقضية واحدة."

قال بايك من خلف ظهورهم بنبرة سخرية واضحة: "متأخرون بعض الشيء." نظر اللاندسكنيخت إلى الخلف، لكنه لم يقل شيئًا.

اقترح ميلفي وقال: "فلنجلس إذن، ونريح أرجلنا. لا نهاية تلوح في الأفق لهذا الجيش. سيستغرق الأمر أمدًا طويلاً قبل أن يصبح الطريق خاليًا."

قال التاجر: "فلنجلس، هناك، على تلك التلة. الرؤية ستكون أفضل من هناك."

مرت خيالة ريدانيا، وبعدهم، رافعين الغبار، سار رماة القوس والنشاب وحاملو الدروع الكبيرة. ثم مرت بعد ذلك عمود من الخيالة الثقيلة تركض بخفة.

أشار ميلفي إلى القوات المدرعة وقال: "وهؤلاء، يسيرون تحت ألوان مختلفة. لديهم رايات سوداء، مرقطة بشيء أبيض."

قال اللاندسكنيخت، ملقيًا نظرة عليه بازدراء: "أه، الأقاليم الجاهلة، لا يعرفون حتى شعار ملكهم. إنها زنابق فضية، يا أحمق ..."

قال جاري، الذي شعر فجأة برغبة في إثبات أنه ليس من الأقاليم الجاهلة بين كل الناس: "ميدان أسود مع زنابق فضية." بدأ يشرح: "في شعار مملكة تيميريا السابق، كان هناك أسد يمر. لكن الدوقات الملكيين في تيميريا استخدموا شعارًا مختلفًا. للدقة، أضافوا حقلًا إضافيًا إلى الدرع، يحتوي على ثلاث زنابق. بما أن زهرة الزنبق في الرمزية الشعارية هي علامة على وريث العرش، الابن الملكي، الوريث للعرش والصولجان..."

نبح كلابروث وقال: "متعلم متعجرف ملعون."

قال اللاندسكنيخت بنبرة تهديد: "يمكنك أن تسكت فمك، أيها الأحمق ذو الرأس القماشي. وأنت، يا فتى، تابع. هذا مثير للاهتمام."

بدأ جاري يشرح وقال: "وعندما ذهب الأمير غويديمار، ابن الملك العجوز غارديك، لمحاربة المتمردين تحت قيادة الشيطانة فالكا، قاتل جيش تيميريا، تحت رايته، تحت شعار الزنبق، وحقق انتصارات حاسمة. وعندما ورث غويديمار العرش من والده، أسس ثلاث زنابق فضية على ميدان أسود كشعار للمملكة تذكارًا لتلك الانتصارات وللهروب الإعجازي لزوجته وأطفاله من أيدي العدو. وبعد ذلك غيّر الملك سيدريك شعار الدولة بمرسوم خاص بحيث أصبح درعًا أسود مرشوشًا بزنابق فضية. وشعار تيميريا

ظل على هذا النحو منذ ذلك الحين. وهو ما يمكنكم جميعًا تأكيده بسهولة لأنفسكم، حيث يمر الرماحون التيميريون على الطريق الرئيسي الآن."

قال التاجر: "لقد فسرتها بأناقة شديدة، أيها السيد الشاب."

تنهد جاري وقال: "لست أنا، بل جون من آتري، عالم الشعارات."

قال التاجر: "وأنت لا تقل تعليمًا، كما أرى."

أضاف بايك تحت أنفاسه وقال: "مثالي لمجند، ليُضرب حتى الموت تحت راية تلك الزنابق الفضية، من أجل الملك وتيميريا."

سمعوا غناءً. غناءً عسكريًا، مهددًا، مدويًا مثل موجة البحر، مثل هدير عاصفة تقترب. مر جنود آخرون بعد التيميريين في صفوف متقاربة ومنتظمة. فرسان رماديون، شبه عديمي اللون، لم ترفرف فوقهم لا رايات ولا أعلام صغيرة. كان عمود مزين بقضيب أفقي مزخرف بذيول خيول وثلاث جماجم بشرية مسمرة عليه يُحمل أمام القادة الذين كانوا يركبون في مقدمة العمود.

أشار اللاندسكنيخت الأول بحذر إلى الفرسان الرماديين وقال: "الشركة الحرة، مرتزقة. جنود الحظ."

قال ميلفي، وهو يلهث بدهشة: "من الواضح أنهم شجعان، كل رجل منهم! وهم يسيرون بخطى متساوية، كما لو كانوا في عرض عسكري ..."

كرر اللاندسكنيخت وقال: "الشركة الحرة، انظروا جيدًا، أيها الفلاحون والشباب، إلى جندي حقيقي. لقد خاضوا المعارك من قبل. كانوا هم، هؤلاء المرتزقة، شركات آدم بانغرات، ومولا، وفرونتين، وأباتيماركو، من قلبوا موازين القوى في ماينا. بفضلهم تم كسر الحصار النيلفجاردي. نحن مدينون لهم بتحرير القلعة."

أضاف الآخر وقال: "شعب شجاع وقوي حقًا، هؤلاء المرتزقة، صلبون في المعركة كالصخرة. على الرغم من أن الشركة الحرة تخدم من أجل المال، كما يمكنكم أن تلاحظوا بسهولة من أغنيتهم."

اقتربت القوة بخطى هادئة، وكان غناؤهم المدوي يصدح بنغمة قوية وعالية، لكنها غريبة الأطوار، كئيبة ومريرة.

تنهد ميلفي بحنين واضح في صوته قائلاً: "آه، أن أخدم معهم، أن أقاتل مع أمثالهم... سينال الإنسان المجد والغنائم..."

عبس أوكلتيتش وهو يحدق بتركيز قائلاً: "هل عيوني تخونني أم ماذا؟ في قيادة الكتيبة الثانية... امرأة؟ هل جنود الحظ يقاتلون تحت إمرة امرأة؟"

أكد الألَنْسكَنخت بنبرة جازمة قائلاً: "هي امرأة. لكنها ليست أي امرأة. تلك هي جوليا أبيتماركو، التي يُطلق عليها اسم كيتي الجميلة. إنها محاربة شجاعة! تحت قيادتها، دمّرت القوات المرتزقة رجال العباءات السوداء والقوات الإلفية في مايينا، على الرغم من أن 500 فقط منهم هاجموا 3000."

قال بايك بنبرة غريبة، متملقًا بشكل مقزز ولكن بخبث في الوقت نفسه: "سمعت أن النصر لم يكن مهمًا، وأن الدوكات التي أنفقت على المرتزقة ذهبت هباءً. إعادة تنظيم نيلفجارد وأعطت فرساننا درسًا قاسيًا. وحاصروا مايينا مرة أخرى. وربما استولوا بالفعل على الحصن؟ وربما يكونون في طريقهم إلى هنا؟ ربما يصلون في أي يوم؟ وربما تم رشوتك أولئك المرتزقة الفاسدين بالذهب النيلفجياردي منذ زمن بعيد؟ وربما..."

قاطعه الألَنْسكَنخت غاضبًا قائلاً: "وربما تريد لكمة في وجهك، أيها الأحمق؟ احذر، لأن تشويه سمعة جيشنا يُعاقب بالإعدام شنقًا! إذًا أغلق فمك بينما أنا في مزاج جيد!"

خفف كلاوبروث، الرجل الضخم ذو الفم المفتوح، من حدة الموقف قائلاً: "أوه! انظر! انظر إلى هؤلاء القصار الطريفين!"

شرح الألَنْسكَنخت الأول قائلاً: "قزم الجبال، إحدى أفواج مشاة المتطوعين من ماهاكام."

قال أوكلتيتش بتعجب: "اعتقدت أن القزم ليسوا معنا، بل ضدنا. أن هؤلاء القصار الحقيرين قد خانونا وتحالفوا مع رجال العباءات السوداء..."

نظر إليه الألَنْسكَنخت بشفقة قائلاً: "اعتقدت؟ بماذا اعتقدت، أتسائل؟ إذا ابتلعت صرصورًا مع حساءك، أيها الأحمق، سيكون لديك ذكاء أكبر في أحشائك مما في رأسك. أولئك الذين يسيرون هناك هم أحد أفواج المشاة القزمية التي أرسلها بروفر هوغ، حاكم ماهاكام، لمساعدتنا. معظمهم خاضوا المعارك أيضًا وتعرضوا لخسائر فادحة، لذلك تم سحبهم إلى فيزيما لإعادة التنظيم."

أكد ميلفي قائلاً: "القزم شعب شجاع. عندما ضربني أحدهم على أذني في حانة إيلاندر خلال سامهين، ظلت ترن حتى عيد الميلاد."

حجب الألَنْسكَنخت عينيه بيده وقال: "الفوج القزمي هو الأخير في العمود. هذا نهاية المسيرة. الطريق سرعان ما سيكون فارغًا. لنستعد للانطلاق، لأنه تقريبًا الظهر."

قال بائع الأحجبة والعلاجات: "هناك الكثير من العسكريين يسيرون نحو الجنوب، مما يعني أن هناك حربًا عظيمة قادمة. ستحل كارثة عظيمة على الناس! وهزائم مروعة على الجيوش! سيُقتل الآلاف من الناس بسبب النار والسيف.

لذلك فكروا، يا سادة، في هذا المذنب الذي يمكن رؤيته في السماء كل ليلة، حيث يترك وراءه ذيلًا ناريًا أحمر. إذا كان ذيل المذنب أزرقًا أو باهتًا، فإنه ينذر بأمراض باردة: مثل الرعشة، التهاب الجنب، البلغم والزكام، وكذلك الكوارث المائية مثل الفيضانات، الأمطار الغزيرة أو فترات طويلة من الطقس الماطر. أما اللون الأحمر فهو يشير إلى أنه مذنب الحمى، الدم والنار، وكذلك الحديد الذي ينبثق من النار. هزائم مروعة ستحل بالناس! ستحدث مجازر وفظائع كبيرة.

كما تقول النبوءة: ستتراكم الجثث حتى ارتفاع اثني عشر ذراعًا، وستعوي الذئاب على الأرض الخربة، وسيقبل الرجال خطوات بعضهم البعض... يا للأسى علينا!"

قاطعه الألَنْسكَنخت الأول بهدوء: "ولكن لماذا علينا؟ المذنب يطير عاليًا. يمكن رؤيته أيضًا من نيلفجارد، ناهيك عن وادي إينا، حيث يقال إن مينو كوهوورن يقترب. رجال العباءات السوداء أيضًا ينظرون إلى السماء ويرَون المذنب. فلماذا لا نفترض إذًا أنه ينذر بهزيمتهم وليس هزيمتنا؟ وأن جثثهم هي التي ستتراكم؟"

رد الألَنْسكَنخت الآخر بحدة: "بالضبط! يا للأسى عليهم، على رجال العباءات السوداء."

علّق البائع قائلاً: "لقد حللتم الأمر بشكل أنيق، يا سادة."

أجابوا بثقة: "بالطبع."

* * *

عبروا الغابة المحيطة بفيزيمه ودخلوا إلى مروج ومراعي. كانت هناك قطعان كاملة من الخيول ترعى، من أنواع مختلفة: خيول للسلاح، وخِدمة، وجر العربات. لم يكن هناك تقريبًا أي عشب في المروج، حيث كان شهر مارس، لكن كانت هناك عربات وأكواخ مليئة بالقش.

قال أوكلتيتش وهو يلعق شفتيه: "أرأيتم؟ آه، خيول صغيرة رائعة! ولا أحد يحرسها! هي هناك للأخذ..."

قاطعه بايك بصوت هامس وقال بابتسامة متملقَّة وهو ينظر إلى الألَنْسكَنختس: "أغلق فمك. يا سادة، إنه دائمًا يحلم بالخدمة في سلاح الفرسان، ولذلك ينظر إلى تلك الخيل بنهم كبير."

"في سلاح الفرسان!" قال الألَنْسكَنخت الأول بسخرية. "ما هذه الأحلام التي يحلم بها هذا الأحمق! سيكون أقرب إلى كونه فتى إسطبل، يجمع القاذورات من تحت الخيول بشوكة ويخرجها على عربة."

رد قائلاً: "بالضبط، يا سيدي!"

تابعوا طريقهم، وبعد فترة وصلوا إلى طريق مرتفع يمر بجانب البرك والخنادق. وفجأة رأوا بلاط الأبراج الحمراء لقلعة فيزيمه يظهر فوق بحيرة خلف قمم أشجار الألدر.

قال التاجر: "حسنًا، نحن هنا تقريبًا. هل تستطيعون شم ذلك؟"

عبس ميلفي وقال: "آرْغ! ما هذا الانتان! ما هذا؟"

همهم بايك خلف ظهورهم متأكدًا أن الألَنْسكَنختس لا يسمعون: "على الأرجح جنود الملك الذين ماتوا جوعًا."

ضحك أحدهم وقال: "تقريبًا يجعل عيونكم تدمع، أليس كذلك؟ أجل، آلاف العسكريين أمضوا الشتاء هنا، والعسكريون يجب أن يأكلوا، وعندما يأكلون فإنهم يتبرزون. هكذا رتبت الطبيعة الأمور ولا يمكن فعل شيء حيالها! وما يتم التخلص منه يُنقل إلى هذه الخنادق ويُلقى دون حتى دفنه. في الشتاء، بينما كان الصقيع يجمد الفضلات، كنت تستطيع تحمل الأمر، ولكن منذ الربيع... آخ!"

أضاف الألَنْسكَنخت الآخر وهو يبصق: "والمزيد والمزيد من الجنود الجدد يصلون ليضيفوا إلى الكومة القديمة."

أضاف الآخر أيضًا: "وهل تسمعون هذا الطنين العظيم؟ إنها الذباب. هناك أسراب منها، شيء غير مألوف في بداية الربيع! غطوا أفواهكم بما تستطيعون، لأنها ستتصل إلى أعينكم وأفواهكم، اللعنة عليها. بسرعة. كلما أسرعنا في المرور، كان ذلك أفضل."

* * *

عبروا الخنادق، لكنهم لم يتمكنوا من التخلص من الانتان. على العكس، كان جارّي ليقسم أن كلما اقتربوا من المدينة، زادت رداءة الرائحة. ومع ذلك، كانت أكثر تنوعًا وأغنى في النطاق واللون. كانت معسكرات الجيش والخيام المحيطة بالقلعة تنبعث منها الروائح الكريهة. المستشفى الميداني الضخم فاح بالنتن. الأحياء المزدحمة والمفعمة بالنشاط كانت كريهة الرائحة، كما كان الجسر، البوابة، السور الترابي، الساحات الصغيرة والشوارع، وحتى جدران القلعة العظيمة التي تطل على المدينة. لحسن الحظ، اعتادت الأنوف بسرعة، ولم يعد الأمر يشكل فرقًا إذا كان مصدر الرائحة هو الزبل، أو اللحم الفاسد، أو بول القطط، أو مطبخ ميداني آخر.

كان هناك ذباب في كل مكان. كانوا يطنون بإزعاج، ويتوغلون في العيون، والأذنين، والأنف. لم يكن بالإمكان طردهم. كان من الأسهل سحقهم على الوجه. أو مضغهم.

عندما خرجوا للتو من ظل البرج، أذهلتهم لوحة جدارية ضخمة تصور فارسًا يشير إليهم بإصبعه. تحت اللوحة كُتبت بحروف كبيرة: ماذا عنك؟ هل التحقت بالخدمة؟

تمتم الألَنْسكَنخت قائلاً: "حسنًا، حسنًا. للأسف."

كان هناك الكثير من اللوحات المشابهة. يمكن القول إن هناك لوحة على كل جدار. عادةً ما تكون صورة الفارس الذي يشير بإصبعه، ولكن غالبًا ما كانت تظهر أيضًا صورة الأمّة الجليلة بشعرها الرمادي المتطاير على خلفية قرى مشتعلة وأطفال معلقين على رماح نيلفجارد. كما كانت هناك صور لإلفيين بسكاكين ملطخة بالدماء بين أسنانهم.

نظر جارّي فجأة حوله ووجد أنهم وحدهم: هو، الألَنْسكَنخت، والتاجر. لم يكن هناك أي أثر لبايك، أوكلتيتش، أو الفلاحين المجندّين، أو ميلفي.

أكد الألَنْسكَنخت الأول شكوكه وهو يحدق فيه عن كثب قائلاً: "نعم، نعم. رفاقك اختفوا عند أول فرصة، هربوا عند أول زاوية. وتعلم ماذا سأخبرك به، يا فتى؟ من الجيد أن طرقكم قد انفصلت. لا تسعى لجعلها تتلاقى مرة أخرى."

همهم جارّي قائلاً: "عيب على ميلفي. إنه فتى طيب في قلبه."

رد الألَنْسكَنخت قائلاً: "كل شخص يختار مصيره. وأنت، تعال معنا. سنريك أين توقع الانضمام."

دخلوا إلى ساحة في وسطها منصة حجرية عليها سجن عمودي. كان الناس والجنود المتلهفون للتسلية مجتمعين حول المنصة. السجين المكبل بالأصفاد، الذي كان قد تعرض لتضرب في وجهه بقطعة طين، بصق وبكى. ضحكت الحشود بصخب.

صاح الألَنْسكَنخت قائلاً: "مهلاً! انظروا من وضعوه في السجن العمودي. لماذا، إنه فوسون! أتساءل ما السبب؟"

أسرع بورجوازي سمين يرتدي جلد ذئب وقبعة من الصوف لتفسير الأمر قائلاً: "لأنه كان يزرع!"

"لأنه كان يزرع؟"

كرر الرجل السمين بنبرة مُؤكدة: "نعم، لأنه كان يزرع."

"ها، الآن، إذا سمحت لي، لقد أسقطت قنبلة مثل ثور يُغوط على أرض الدريس"، ضحك الألَنْسكَنخت. "أعرف فوسون، إنه صانع أحذية، ابن صانع أحذية، وحفيد صانع أحذية. لم يحرث أو يزرع أو يحصد في حياته. أنت تبالغ كثيرًا بشأن هذا الزرع."

رد البورجوازي بغضب قائلاً: "هذه كلمات الشرطي! سيقف في السجن العمودي حتى الغسق بسبب الزرع! لأن هذا الخائن كان يزرع بعد أن حرضته نيلفجارد، ولصالح البنسات الفضية لنيلفجارد... لقد زرع محاصيل غريبة، في الحقيقة. أجنبية، أؤكد لك... دعني أفكر... آه! الهزيمة!"

صرخ بائع الأحجبة قائلاً: "نعم، نعم! سمعت عن هذا! الجواسيس النيلفجارديون والإلفيون ينشرون الطاعون، ويفسدون الآبار والينابيع والجداول بالسموم المختلفة، باستخدام نباتات مثل بوق الشيطان، الشوكران، الجرب، والهزيمة."

أومأ البورجوازي ذو جلد الذئب برأسه قائلاً: "نعم. أمس علقوا إلفيين. على الأرجح بسبب التسميم."

* * *

أشار الجندي المرتزق قائلاً: "حول تلك الزاوية، هناك الحانة حيث تجلس لجنة التجنيد. ممدود هناك قماش كبير عليه زنابق تيميريا، التي تعرفها بالطبع، يا فتى. ستجدها بلا أي صعوبة. اعتنِ بنفسك. لعلنا نلتقي مجددًا في أوقات أفضل، إن شاء الله. وداعًا لك أيضًا، أيها التاجر الموقر."

تنحنح التاجر بصوت عالٍ وقال: "أيها السادة النبلاء، دعوني، كدليل على امتناني... لمساعدتكم..."

ابتسم الجندي المرتزق وقال: "لا تتعب نفسك، أيها الرجل الطيب. لقد ساعدنا وانتهى الأمر، لا داعي للذكر..."

عرض التاجر قائلاً وهو ينقب في أسفل صندوق: "ربما مرهم عجائبي ضد آلام الظهر؟ أو دواء عالمي موثوق لالتهاب الشعب الهوائية، النقرس، الشلل، القشرة والقوباء؟ ربما بلسم راتنجي للدغات النحل، الأفاعي ومصاصي الدماء؟ أو ربما تميمة تحميكم من تأثيرات نظرة العين الشريرة؟"

سأل الجندي المرتزق بجدية: "وهل لديك، ربما، شيء يحمي من تأثيرات الطعام الفاسد؟"

أشرق وجه التاجر وقال: "نعم لدي! هذا علاج فعال للغاية مصنوع من جذور سحرية، منكه بالأعشاب العطرية. ثلاث قطرات بعد الوجبة كافية. تفضلوا، أيها السادة النبلاء."

شكر الجندي قائلاً: "شكرًا. وداعًا، سيدي. وداعًا لك أيضًا، يا فتى. حظًا سعيدًا!"

علق التاجر بعد أن اختفى الجنود في الزحام قائلاً: "شرفاء، لبقون، ومهذبون. لا تلتقي بمثلهم كل يوم. حسنًا، لكنك أنت أيضًا بدوتَ بخير، يا سيدي الشاب. ما الذي يمكنني أن أعطيك إذن؟ تعويذة ضد الصواعق؟ حجر بيزوار؟ صدفة سلحفاة فعالة ضد تعاويذ الساحرات؟ ها، لدي أيضًا سن ميت للتدخين وقطعة من روث الشيطان المجفف، من الجيد ارتداؤها في الحذاء الأيمن..."

أبعد جاري نظره عن بعض الأشخاص الذين كانوا ينظفون بعناد شعارًا على جدار مبنى: "اللعنة على الحرب الملعونة"، وقال: "دعه، سيدي. حان وقت ذهابي..."

صاح التاجر وهو يخرج ميدالية نحاسية صغيرة على شكل قلب من الصندوق: "ها! هذا يناسبك، يا شاب، إنه مثالي للشباب. إنه نادر جدًا، الوحيد لدي. تعويذة سحرية. تجعل مرتديها لا ينسى حبيبته أبدًا، حتى لو فرقت بينهما الزمن وأميال لا تُعد. انظر، يُفتح هنا، وداخله ورقة رقيقة من البردي. يكفي أن تكتب على الورقة اسم محبوبك بحبر أحمر سحري، لدي منه، ولن تنساك، لن تغير قلبها، لن تخونك أو تتخلى عنك. حسنًا؟"

تمتم جاري وهو يحمر خجلاً قليلاً قائلاً: "همم... لا أعرف حقًا..."

سأل التاجر وهو يغمس عصا في الحبر السحري: "أي اسم أكتبه؟"

قال جاري: "سيري. أعني، سيريلا."

أجاب التاجر وهو يكتب: "ها هو. خذه."

صاح صوت: "جاري! ما الذي تفعله هنا، بحق مائة شيطان؟"

استدار جاري. فكر آليًا: "كنت أتمنى أن أترك كل ماضيّ خلفي، أن يكون كل شيء الآن جديدًا. لكنني أصطدم باستمرار تقريبًا بمعارف قدامى."

قال جاري: "السيد دينيس كرانمر..."

نظر قزم يرتدي معطفًا ثقيلًا، ودرعًا صدريًا، وواقيات حديدية للساعدين، وقبعة فرو ثعلب عالية بذيل، بنظرة ماكرة إلى الفتى، ثم إلى التاجر، ثم عاد إلى الفتى مجددًا.

كرر دينيس كرانمر بحدة وهو يهز حاجبيه ولحيته وشاربيه قائلاً: "ما الذي تفعله هنا، يا جاري؟"

فكر جاري للحظة في الكذب، ولإضفاء المصداقية أن يورط التاجر الطيب في نسخة مزيفة. لكنه رفض الفكرة على الفور. كان دينيس كرانمر، الذي خدم ذات مرة في حرس دوق إيلاندر، يتمتع بسمعة قزم يصعب خداعه. ولم يكن الأمر يستحق المحاولة.

أجاب جاري قائلاً: "أريد أن أنضم للجيش."

كان يعرف السؤال التالي.

سأل دينيس: "هل سمحت لك نينيكي؟"

لم يكن عليه أن يجيب.

هز دينيس لحيته وقال: "لقد هربت. لقد فررت من المعبد ببساطة. ونينيكي والكاهنات ينتفن شعورهن..."

تمتم جاري قائلاً: "تركت رسالة. السيد كرانمر، لم أستطع... كان عليَّ... لم يكن من الصواب البقاء هناك دون فعل شيء، بينما العدو في الحدود... في لحظة خطرة على الوطن... وأكثر من ذلك، هي... سيري... الأم نينيكي لم ترغب في الموافقة على الإطلاق، رغم أنها أرسلت ثلاثة أرباع الفتيات من المعبد إلى الجيش، لكنها لم تسمح لي... وأنا لم أستطع..."

قطب دينيس جبينه بصرامة وقال: "لذلك هربت. بحق مائة شيطان ملعون، يجب أن أربطك بعصا تحت ركبتيك وأرسلك إلى إيلاندر بالبريد السريع! أأمر بحبسك في زنزانة تحت القلعة حتى تأتي الكاهنات لأخذك! يجب أن..."

تنفس دينيس بغضب.

سأل دينيس: "متى كانت آخر مرة أكلت فيها، يا جاري؟ متى كانت آخر مرة تناولت طعامًا ساخنًا في فمك؟"

أجاب جاري قائلاً: "ساخنًا حقًا؟ منذ ثلاثة... لا، أربعة أيام."

قال دينيس: "تعال معي."

* * *

قال زولتان شيفاي، أحد رفاق دينيس كرانمر، محذرًا: "كُل ببطء، يا ابني. ليس صحيًا أن تلتهم طعامك بهذه السرعة دون مضغ جيد. إلى أين تتسرع؟ صدقني، لن يأخذه أحد منك."

لم يكن جاري متأكدًا من ذلك. كان يجري في تلك اللحظة، في غرفة الحانة الرئيسية لـ"الدب الأشعث"، نزال بالأيدي. كان قزمان ممتلئان، عريضان كالمدافئ، يضربان بعضهما بقوة تُحدث دويًا، وسط هتافات رفاقهما من فوج المتطوعين وتصفيق العاهرات المحليات. كانت الأرضية تهتز، والأثاث والأواني تسقط، وقطرات الدم من الأنوف المحطمة تتناثر حولها كالمطر. كان جاري ينتظر فقط أن ينهار أحد المقاتلين على طاولة الضباط ويصطدم بطبق خشبي من مفصل الخنزير، ووعاء كبير من البازلاء المطهوة على البخار، وأكواب الفخار. ابتلع جاري بسرعة قطعة من اللحم الدهني التي عضها، مفترضًا أن ما ابتلعه ملكه.

قال شيلدون سكاغس، قزم آخر، دون أن يلتفت حتى عندما كاد أحد المقاتلين يصيبه بلكمة يمنى: "لا أفهم حقًا، يا دينيس. بما أن هذا الفتى كاهن، كيف يمكنه التطوع؟ الكهنة ممنوعون من إراقة الدم."

أجاب دينيس قائلاً: "إنه طالب في المعبد، وليس كاهنًا."

رد شيلدون قائلاً: "لم أتمكن أبدًا من فهم تلك الخرافات البشرية الملتوية اللعينة. حسنًا، لكن لا يجوز السخرية من معتقدات الآخرين. الاستنتاج، مع ذلك، هو أن هذا الشاب هنا، رغم تربيته في معبد، ليس لديه مانع من إراقة الدم. خصوصًا دم نيلفجارد. أليس كذلك، يا شاب؟"

قال زولتان: "دعه يأكل بسلام، يا سكاغس."

أجاب جاري قائلاً: "يسعدني الرد..." وابتلع لقمة من مفصل الخنزير وحشا فمه بكف من البازلاء. "الأمر كالتالي: يمكن إراقة الدم في حرب عادلة. دفاعًا عن أسباب عليا. لهذا أنا أتطوع... الوطن ينادي..."

نظر شيلدون سكاغس إلى رفاقه وقال: "يمكنكم أن تروا بأنفسكم كم من الحقيقة في القول إن البشر جنس مشابه ومرتبط بنا، وأننا نأتي من جذر مشترك، نحن وهم. الدليل الأفضل يجلس أمامنا، يلتهم البازلاء. بعبارة أخرى: يمكنك أن تصادف الكثير من المتعصبين الحمقى المشابهين بين الأقزام الشباب."

علق زولتان شيفاي بهدوء قائلاً: "خاصة بعد معركة ماينا. دائمًا يتطوع المزيد بعد انتصار في معركة. سيتوقف الاندفاع عندما تنتشر أخبار جيش مينو كوهورن يتقدم عبر إينا، لا يترك خلفه سوى الأرض والماء."

تمتم دينيس كرانمر قائلاً: "طالما لا يبدأ اندفاع في الاتجاه المعاكس. أنا بطريقة ما لا أثق بالمتطوعين. من المثير للاهتمام أن كل هارب ثانٍ يكون متطوعًا."

كاد جاري يختنق وهو يقول: "كيف يمكنكم... كيف يمكنكم أن تقترحوا شيئًا كهذا، سيدي؟ أنا أتطوع لأسباب مبدئية... لأقاتل في حرب عادلة ومشروعة... الوطن..."

سقط أحد القزمين المتصارعين من ضربة بدت للفتى وكأنها هزت أساسات المبنى ذاته، مع ارتفاع الغبار باردة في الهواء من شقوق ألواح الأرضية. هذه المرة، لم ينهض القزم الساقط ليضرب خصمه، بل ظل ملقىً، يتلوى بأطرافه بصورة خرقاء، مستحضرًا صورة خنفساء عملاقة انقلبت على ظهرها.

نهض دينيس كرانمر وقال بصوت عالٍ وهو ينظر حول الحانة: "الأمر محسوم! منصب قائد الفصيلة الذي خلا بعد استشهاد إلكانا فوستر البطولي، الذي سقط في ساحة معركة ماينا، يتولاه... ما اسمك، يا رفيق؟ لأنني نسيت."

أجاب الفائز في النزال وهو يبصق سنًا على الأرض: "بلاسكو غرانت!"

أضاف دينيس قائلاً: "بلاسكو غرانت يتولى المنصب. هل هناك قضايا أخرى مثيرة للجدل بشأن الترقيات؟ لا يوجد؟ حسنًا وجيد. يا نادل الحانة! جلب البيرة!"

سأل دينيس: "أين كنا...؟"

بدأ زولتان شيفاي يعد على أصابعه وهو يقول: "حرب عادلة. متطوعون. هاربون..."

قاطعه دينيس قائلاً: "بالضبط. علمت أنني أردت الإشارة إلى شيء، والأمر يتعلق بالهاربين والمتطوعين الخونة. تذكرون فيلق سينترا السابق لفيسغيرد؟ تبين أن هؤلاء الأوغاد لم يغيروا حتى رايتهم. أعرف ذلك من المرتزقة في الشركة الحرة، من عصابة جوليا 'كيتي الجميلة'. تشاجرت عصابة جوليا مع السينتريين في ماينا. كانوا يسيرون في طليعة فصيلة نيلفجارد، تحت نفس الراية مع الأسود..."

تدخل سكاغس بنبرة كئيبة قائلاً: "الوطن الأم استدعاهم. والإمبراطورة سيري."

همس دينيس قائلاً: "اصمت."

تحدث ياربن زيغرين، القزم الرابع الذي لم يقل شيئًا حتى الآن، قائلاً: "هذا صحيح. اصمت. أصمت من الصمت نفسه. وليس خوفًا من الجواسيس، بل لأنك لا تتحدث عن أشياء ليس لديك فكرة عنها."

واجهه سكاغس وهو يبرز ذقنه قائلاً: "بينما أنت، يا زيغرين، لديك فكرة، أليس كذلك؟"

أجاب ياربن قائلاً: "نعم، لدي. وسأقول شيئًا واحدًا: لا أحد، سواء كان إمير فار إمريس أو السحرة المتمردون من ثانيد، أو حتى الشيطان نفسه، يمكنه إجبار تلك الفتاة على فعل أي شيء. لم يتمكنوا من كسرها. أعرف ذلك. لأنني أعرفها. ذلك الزواج اللعين مع إمير هو خدعة. خدعة صدّقها بعض الحمقى... تلك الفتاة، أقول لكم، لها مصير مختلف. مختلف تمامًا."

تمتم سكاغس قائلاً: "تتحدث، يا زيغرين، وكأنك تعرفها حقًا."

قاطعه زولتان شيفاي فجأة قائلاً: "اترك الأمر. إنه محق بشأن ذلك المصير. أنا أصدق ذلك. ولدي أسبابي أيضًا."

لوّح شيلدون سكاغس بيده وقال: "آه. لماذا نضيع الأنفاس؟ سيريلا، إمير، المصير... هذه أمور بعيدة. بينما الأقرب، أيها السادة، هو مينو كوهورن ومجموعة جيش الوسط."

تنهد زولتان شيفاي قائلاً: "نعم. شيء ما يخبرني أن معركة ضخمة لن تفوتنا. ربما تكون الأكبر التي شهدها التاريخ على الإطلاق."

تمتم دينيس كرانمر قائلاً: "الكثير... الكثير حقًا سيُحسم..."

أضاف قائلاً: "ويُنهي أكثر من ذلك."

تجشأ جاري، مغطيًا فمه بيده بأدب، وقال: "كل شيء... كل شيء سينتهي."

نظر الأقزام إليه للحظة، صامتين.

قال زولتان شيفاي أخيرًا: "لا أفهمك تمامًا، يا شاب. ألا تريد أن تشرح ما تعنيه؟"

تلعثم جاري قائلاً: "في مجلس الدوق... أعني في إيلاندر، قيل إن الانتصار في هذه الحرب العظيمة مهم جدًا، لأنها... لأنها الحرب العظيمة التي ستُنهي كل الحروب."

ضحك شيلدون سكاغس وتناثرت البيرة على لحيته. انفجر زولتان شيفاي ضاحكًا.

سأل جاري: "ألا تصدقون ذلك، أيها السادة؟"

جاء دور دينيس كرانمر ليتنفس بصوت عالٍ. بقي ياربن زيغرين جادًا، ناظرًا إلى الفتى بتركيز وبما يبدو أنه قلق.

قال ياربن أخيرًا، بجدية كبيرة: "انظر، يا ابني. إيفانجلينا بار جالسة عند البار. يجب الاعتراف أنها كبيرة. بل، حتى هائلة. لكن رغم حجمها، وبدون أدنى شك، ليست عاهرة تنهي كل العاهرات."

* * *

توقف دينيس كرانمر في زقاق ضيق ومهجور وقال: "يجب أن أمدحك، يا جاري. هل تعرف لماذا؟"

أجاب جاري قائلاً: "لا."

قال دينيس: "لا تتظاهر. لست مضطرًا لذلك أمامي. إنه أمر يستحق المديح أنك لم ترمش عندما تحدثوا عن سيريلا. وأكثر استحقاقًا للمديح أنك لم تفتح فمك حينها... مهلاً، مهلاً، لا تعبس. كنت أعرف الكثير مما يجري خلف جدران معبد نينيكي، الكثير، يمكنك أن تصدقني. وإذا كان ذلك قليلاً بالنسبة لك، فاعلم أنني سمعت أي اسم كتبه التاجر على تلك الميدالية لك."

أضاف دينيس وهو يتظاهر بعدم ملاحظة الاحمرار الشديد الذي غمر وجه الفتى قائلاً: "استمر على هذا المنوال، يا جاري. استمر على هذا المنوال. وليس فقط في حالة سيري... ما الذي تنظر إليه؟"

على جدار مخزن مرئي في نهاية الزقاق، كان هناك شعار مائل مطلي بالجير الأبيض يقول: "اصنع الحب لا الحرب". وتحته مباشرة، كتب أحدهم بحروف أصغر بكثير: "واخرج البراز كل صباح".

صرخ دينيس كرانمر قائلاً: "انظر إلى مكان آخر، أيها الأحمق. مجرد النظر إلى كتابات كهذه قد يوقعك في مشكلة، وإذا قلت شيئًا في الوقت الخطأ، سيجلدونك عند العمود، سينزعون الجلد عن ظهرك. الأحكام هنا سريعة! سريعة للغاية!"

تمتم جاري قائلاً: "رأيت صانع الأحذية في قفص العقاب. يقال إنه بسبب بث الانهزامية."

قال دينيس بجدية وهو يجذب الفتى من كمه: "انهزاميته ربما تكمن في أنه عندما أخذ ابنه إلى فصيلته، بكى بدلاً من أن يهتف وطنيًا. يعاقبون بشكل مختلف على البذر الأكثر خطورة. تعال، سأريك."

دخلا ساحة صغيرة. تراجع جاري خطوة، مغطيًا فمه وأنفه بكمه. كانت هناك حوالي اثنتي عشرة جثة معلقة على مشنقة حجرية كبيرة. بعضها - كشفت مظهرها ورائحتها - كان معلقًا هناك منذ وقت طويل.

أشار دينيس وهو يطرد الذباب في الوقت ذاته قائلاً: "ذلك الرجل كتب كتابات سخيفة على الجدران والأسوار. وذاك ادعى أن الحرب شأن السادة وأن الفلاحين المجندين من نيلفجارد ليسوا أعداءه. وذاك روى النكتة التالية وهو سكران: 'ما هو الرمح؟ إنه سلاح النبيل، عصا مع فقير في كل طرف.' وهناك، في النهاية، هل ترى تلك المرأة؟ كانت مديرة بيت دعارة عسكري على عجلات، زينته بالكلمات: 'جندي، ارفع ساقك اليوم! قد لا تستطيع غدًا'."

* * *

توقف دينيس كرانمر في زقاق ضيق ومهجور وقال: "يجب أن أمدحك، يا جاري. هل تعرف لماذا؟"

أجاب جاري قائلاً: "لا."

قال دينيس: "لا تتظاهر. لست مضطرًا لذلك أمامي. إنه أمر يستحق المديح أنك لم ترمش عندما تحدثوا عن سيريلا. وأكثر استحقاقًا للمديح أنك لم تفتح فمك حينها... مهلاً، مهلاً، لا تعبس. كنت أعرف الكثير مما يجري خلف جدران معبد نينيكي، الكثير، يمكنك أن تصدقني. وإذا كان ذلك قليلاً بالنسبة لك، فاعلم أنني سمعت أي اسم كتبه التاجر على تلك الميدالية لك."

أضاف دينيس وهو يتظاهر بعدم ملاحظة الاحمرار الشديد الذي غمر وجه الفتى قائلاً: "استمر على هذا المنوال، يا جاري. استمر على هذا المنوال. وليس فقط في حالة سيري... ما الذي تنظر إليه؟"

على جدار مخزن مرئي في نهاية الزقاق، كان هناك شعار مائل مطلي بالجير الأبيض يقول: "اصنع الحب لا الحرب". وتحته مباشرة، كتب أحدهم بحروف أصغر بكثير: "واخرج البراز كل صباح".

صرخ دينيس كرانمر قائلاً: "انظر إلى مكان آخر، أيها الأحمق. مجرد النظر إلى كتابات كهذه قد يوقعك في مشكلة، وإذا قلت شيئًا في الوقت الخطأ، سيجلدونك عند العمود، سينزعون الجلد عن ظهرك. الأحكام هنا سريعة! سريعة للغاية!"

تمتم جاري قائلاً: "رأيت صانع الأحذية في قفص العقاب. يقال إنه بسبب بث الانهزامية."

قال دينيس بجدية وهو يجذب الفتى من كمه: "انهزاميته ربما تكمن في أنه عندما أخذ ابنه إلى فصيلته، بكى بدلاً من أن يهتف وطنيًا. يعاقبون بشكل مختلف على البذر الأكثر خطورة. تعال، سأريك."

دخلا ساحة صغيرة. تراجع جاري خطوة، مغطيًا فمه وأنفه بكمه. كانت هناك حوالي اثنتي عشرة جثة معلقة على مشنقة حجرية كبيرة. بعضها - كشفت مظهرها ورائحتها - كان معلقًا هناك منذ وقت طويل.

أشار دينيس وهو يطرد الذباب في الوقت ذاته قائلاً: "ذلك الرجل كتب كتابات سخيفة على الجدران والأسوار. وذاك ادعى أن الحرب شأن السادة وأن الفلاحين المجندين من نيلفجارد ليسوا أعداءه. وذاك روى النكتة التالية وهو سكران: 'ما هو الرمح؟ إنه سلاح النبيل، عصا مع فقير في كل طرف.' وهناك، في النهاية، هل ترى تلك المرأة؟ كانت مديرة بيت دعارة عسكري على عجلات، زينته بالكلمات: 'جندي، ارفع ساقك اليوم! قد لا تستطيع غدًا'."

قال جاري: "ومجرد ذلك..."

أضاف دينيس قائلاً: "علاوة على ذلك، تبين أن إحدى الفتيات كانت مصابة بالزهري. وهو ما يخالف القانون المتعلق بالتخريب وتقويض الجاهزية العسكرية."

وقف جاري باستقامة في وضعية اعتبرها جندية وقال: "أفهم، السيد كرانمر. لكن لا تقلق بشأني. أنا لست انهزاميًا..."

قاطعه دينيس قائلاً: "لم تفهم شيئًا ولا تقاطعني، لأنني لم أنتهِ. ذلك المشنوق الأخير، الذي ينتن حتى السماء، كان مذنبًا فقط لأنه رد على ثرثرة جاسوس استفزازي بالصياح: 'كنت محقًا، سيدي، الأمر كذلك وليس بخلاف ذلك، كما أن اثنين زائد اثنين يساوي أربعة!' الآن قل لي إن كنت تفهم."

أجاب جاري قائلاً: "أفهم." ونظر حوله خلسةً. "سأكون حذرًا. لكن... السيد كرانمر... ما هو الوضع حقًا...؟"

نظر دينيس حوله أيضًا.

قال دينيس بهدوء: "الأمر كالتالي. مجموعة جيش الوسط بقيادة المارشال مينو كوهورن تتقدم شمالاً بقوة تقارب مائة ألف رجل. في الحقيقة، لولا التمرد في فيردن، لكانوا هنا الآن. في الحقيقة، سيكون من الأفضل لو جرت مفاوضات. في الحقيقة، تيميريا وريدانيا لا تملكان القوات لإيقاف كوهورن. في الحقيقة، ليس قبل الحدود الاستراتيجية لنهر بونتار."

همس جاري قائلاً: "نهر بونتار يقع شمالاً من هنا."

أكد دينيس قائلاً: "هذا بالضبط ما أردت قوله. لكن تذكر: أبقِ فمك مغلقًا بشأن ذلك."

أجاب جاري قائلاً: "سأحترس. عندما أكون في وحدتي، هل سأضطر لذلك أيضًا؟ هل قد أصادف جاسوسًا؟"

قال دينيس: "في وحدة الخط الأمامي؟ بالقرب من الجبهة؟ ليس حقًا. الجواسيس متحمسون جدًا خلف الجبهة، لأنهم يخافون من الوقوع فيها. علاوة على ذلك، إذا شنقوا كل جندي يتذمر أو يشتكي أو يسب، لما بقي أحد ليقاتل. لكن، كما فعلتَ في مسألة سيري، يا جاري، أبقِ فمك مغلقًا دائمًا. ضع كلامي في ذهنك، فلا ذبابة روث تدخل فمًا مغلقًا. الآن اذهب، سآخذك إلى اللجنة."

سأل جاري بنظرة متفائلة: "هل ستضع كلمة طيبة لأجلي؟ أليس كذلك؟ السيد كرانمر؟"

قال دينيس: "يا للهول، يا كاتب، أنت أحمق! هذا الجيش! إذا وضعت كلمة طيبة لأجلك وحاولت التوسط، سيكون ذلك كما لو كتبت 'جبان' على ظهرك بخيوط ذهبية! ستواجه وقتًا صعبًا في فصيلتك، يا فتى."

رمش جاري وسأل: "ماذا لو انضممت... إلى وحدتك...؟"

قال دينيس: "لا تفكر في ذلك حتى."

قال جاري بمرارة: "لأنه لا مكان إلا للأقزام فيها، أليس كذلك؟"

سأل جاري: "وليس لي؟"

أجاب دينيس قائلاً: "صحيح."

فكر دينيس كرانمر: "ليس لك، يا جاري. لأن لدي ديونًا غير مسددة مع نينيكي. ولهذا أفضل أن تعود من الحرب بقطعة واحدة. وفوج متطوعي ماهكام، المكون من الأقزام، عينات من جنس أجنبي وأدنى، سيُرسل دائمًا لأداء أسوأ المهام، إلى أسوأ القطاعات. تلك التي لا يعود منها أحد. تلك التي لا تُرسل البشر إليها."

واصل جاري، منكسرًا، قائلاً: "فكيف يمكنني أن أتأكد من أنني سأنتهي في فصيلة جيدة؟"

سأل دينيس: "وأي واحدة، حسب رأيك، متميزة لدرجة أنها تستحق المحاولة للانضمام إليها؟"

استدار جاري عندما سمع غناءً يتصاعد كموجة متكسرة، ينمو كرعد عاصفة قادمة. غناء عالٍ، قوي، متبختر، صلب كالفولاذ. كان قد سمع مثل هذا الغناء من قبل.

سارت فصيلة المرتزقة، مصطفة في ثلاثيات، تقود خيولها عبر الشارع الضيق الممتد من القلعة. في المقدمة، على جواد رمادي، تحت عمود مزين بجماجم بشرية، ركب القائد، رجل بشعر أشيب وأنف كنسر وجديلة شعر تسقط على درعه.

تمتم دينيس كرانمر قائلاً: "آدم 'أديو' بانغرات."

دوّى غناء المرتزقة، زأر وهدر. مع رنين حوافر الخيل على الحصى، ملأ الشارع الضيق حتى قمم البيوت، وصولاً إلى السماء الزرقاء فوق المدينة:

لا عاشقات
ولا زوجات تبكي بدموع
عندما يحين وقت عض الغبار الملطخ بالدم
فنحن نذهب إلى الحرب بسرعة
من أجل الدوقات، حمراء كالشمس!

قال جاري، عاجزًا عن رفع عينيه عن الفرسان: "تسأل عن أي فصيلة... لم لا، واحدة مثل تلك! في واحدة كهذه أود أن..."

قاطعه دينيس بهدوء قائلاً: "لكل واحد أغنيته. ولكل واحد يعض الأرض الملطخة بالدم بطريقته الخاصة. كما يصيبه. إما أن يبكوا عليه أو لا. في الحرب، يا كاتب، تغني وتسير معًا، تقف في الصفوف معًا. ولاحقًا في المعركة، يحصل كل واحد على ما كُتب له. سواء في شركة 'أديو' بانغرات الحرة، أو في المشاة، أو في القوافل... سواء في درع لامع مع شعار مجيد، أو في حذاء من القش ومعطف من جلد الغنم الموبوء بالبراغيث... سواء على جواد سريع، أو خلف درع... شيء مختلف يأتي لكل واحد. كما يصيبه! حسنًا، ها هي اللجنة، هل ترى اللافتة فوق المدخل؟ هذا طريقك، بما أنك فكرت أن تصبح جنديًا. اذهب، يا جاري. وداعًا. سنلتقي مجددًا عندما ينتهي كل شيء."

تبع النظر دينيس الفتى حتى اختفى في باب الحانة التي تحتلها لجنة التجنيد.

أضاف دينيس بهدوء: "أو ربما لن نلتقي مجددًا. لا أحد يعرف ما كُتب لأي شخص. أو ما سيصيبه."

* * *

سأل ضابط التجنيد: "هل تستطيع ركوب الخيل؟ هل تستطيع إطلاق القوس الطويل أو القوس الصغير؟"

أجاب جاري قائلاً: "لا، سيدي. لكنني أستطيع الكتابة والخط، والرونية القديمة أيضًا... أعرف اللغة القديمة..."

سأل الضابط: "هل تستطيع استخدام السيف؟ هل تدربت على اللعب بالرمح؟"

أجاب جاري قائلاً: "... لقد قرأت 'تاريخ الحروب'. عمل المارشال بيليغرام... وورودريك دي نوفامبر..."

اقترح الضابط: "أو ربما تعرف كيف تطبخ؟"

قال جاري: "لا، لا أعرف... لكنني أحسب جيدًا..."

عبس ضابط التجنيد ولوّح بيده وقال: "مثقف متعجرف! لست الأول اليوم. اكتب له ورقة توجيه للـ'بي-إف-آي'. ستخدم في الـ'بي-إف-آي'، يا فتى. اركض بهذه الورقة إلى الطرف الجنوبي للمدينة، ثم خارج بوابة ماريبور، نزولاً عند البحيرة."

قال جاري: "لكن..."

أضاف الضابط قائلاً: "ستجدها بالتأكيد. التالي!"

* * *

صاح صوت: "يا جاري! يا! انتظر!"

قال جاري: "ميلفي؟"

أجاب ابن البراميلي وهو يترنح، متمسكًا بالجدار: "من غيري؟ أنا هنا، ههه!"

سأل جاري: "ما بك؟"

قال ميلفي: "ما بي؟ هه! لا شيء! شربنا قليلاً! شربنا لتشتيت نيلفجارد! أوغ، يا جاري، أنا سعيد برؤيتك، لأنني ظننت أنني فقدتك في مكان ما... رفيقي..."

تراجع جاري كما لو أن أحدهم ضربه. فأنفاس ابن البراميلي لم تكن تفوح فقط برائحة بيرة رديئة وفودكا من الدرجة الثالثة، بل أيضًا بالبصل والثوم ويعلم الله ماذا غير ذلك. بشدة كبيرة.

سأل جاري بسخرية: "وأين رفاقك الموقرون؟"

عبس ميلفي وقال: "تسأل عن بايك؟ سأخبرك إذن: إلى الجحيم به! هل تعلم، يا جاري، أعتقد أنه كان رجلاً سيئًا."

علق جاري قائلاً: "برافو. لقد اكتشفت ذلك بسرعة."

تباهى ميلفي، غير منتبه للسخرية، وقال: "أليس كذلك؟ لقد أخفاها، لكن من يخدعني يمكنه أن يأكل الشيطان! أقول لك إنني أعرف ما كان يخطط له! ما جذبه إلى هنا في فيزيما! ربما تعتقد، يا جاري، أنه وأوغاده جاؤوا للتطوع مثلنا؟ ها، أنت مخطئ جدًا! هل تعرف ما كان يخطط له؟ لن تصدق ذلك!"

أجاب جاري قائلاً: "أصدق."

أنهى ميلفي بانتصار قائلاً: "كان بحاجة إلى خيول وأزياء رسمية. كان ينوي سرقتها من هنا. لأنه كان ينوي الذهاب إلى الحرب متخفيًا كجندي!"

تمنى جاري قائلاً: "لتنتهي أيامه على المشنقة."

قال ميلفي وهو يترنح قليلاً ويتوقف عند الجدار ويفك أزرار سرواله: "كلما أسرع كان أفضل! أنا فقط آسف أن أوغرابيك وميلتون، ذينك الأحمقين القرويين، انخدعا. وتبعا بايك، لذا من المحتمل أن يلتقيا بالجلاد أيضًا. حسنًا، تبًا لهما، أغبياء القرية! وكيف حالك، يا جاري؟"

سأل جاري: "بخصوص ماذا؟"

قال ميلفي وهو يرسل تيارًا من البول على الجدار المطلي بالجير: "هل عينك ضباط التجنيد في مكان ما؟ سألت لأنني تم تجنيدي بالفعل. عليّ الذهاب عبر بوابة ماريبور، إلى الطرف الجنوبي للقلعة. وأين عليك أن تذهب؟"

أجاب جاري قائلاً: "إلى الجانب الجنوبي أيضًا."

قفز ميلفي عدة مرات، هز نفسه، وأغلق سرواله وقال: "ها! إذن سنقاتل معًا؟"

نظر جاري إليه باستعلاء وقال: "لا أعتقد ذلك. لقد تم تعييني وفقًا لمؤهلاتي. إلى ال'بي-إف-آي'."

قال ميلفي وهو يتجشأ وينفث خليطه المروع عليه: "حسنًا، بالطبع. أنت متعلم من الكتب! من المحتمل أنهم يعينون الأذكياء مثلك لأمور مهمة، وليس لأي أمور عادية. حسنًا، ما العمل. لكن الآن، سنسافر معًا لفترة أطول قليلاً. فطريقنا إلى الطرف الجنوبي للقلعة."

أجاب جاري قائلاً: "يبدو الأمر كذلك."

قال ميلفي: "هيا بنا إذن."

رد جاري قائلاً: "هيا بنا."

* * *

قال جاري وهو ينظر إلى ساحة استعراض محاطة بالخيام، حيث كانت فصيلة من الأشخاص الرثين يحملون عصيًا طويلة على أكتافهم ويثيرون الغبار: "لا أعتقد أن هذا المكان هو المقصود، يا ميلفي."

لاحظ الفتى أن كل رث كان لديه حزمة قش مربوطة بساقه اليمنى وحزمة تبن مربوطة بساقه اليسرى.

أضاف جاري قائلاً: "أعتقد أننا جئنا إلى المكان الخطأ، يا ميلفي."

دوى صوت عريف يوجه الرثين من ساحة الاستعراض قائلاً: "قش! تبن! قش! تبن! سوّوا الخط، بحق اللعنة!"

قال ميلفي: "هناك راية ترفرف فوق الخيام. انظر بنفسك، يا جاري. تلك الزنابق نفسها التي تحدثت عنها في الطريق. هل هناك راية؟ نعم. هل هناك جيش؟ نعم. هذا يعني أننا هنا. لقد جئنا إلى المكان الصحيح."

رد جاري قائلاً: "أنت، ربما. أما أنا، فبالتأكيد لا."

اقترح ميلفي قائلاً: "ها، هناك ضابط ما يقف عند السياج. لنسأله."

تحرك الأمر بسرعة بعد ذلك.

صاح الرقيب قائلاً: "مجندون جدد؟ من مكتب التجنيد؟ الأوراق! لماذا بحق اللعنة تقفون واحدًا خلف الآخر؟ ارفعوا أقدامكم في مكانكم! لا تقفوا بحق اللعنة! انعطفوا يسارًا! انعطفوا، انعطفوا يمينًا بحق اللعنة! سِروا بسرعة! انعطفوا بحق اللعنة! اسمعوا وتذكروا. أولاً بحق اللعنة، توجهوا إلى المخزن! احصلوا على معداتكم! درع متسلسل، أحذية، رمح، خوذة، وسيف، بحق اللعنة! ثم إلى ساحة التدريب! كونوا جاهزين للاستعراض بحق اللعنة، عند الغسق! سِروا بسرعة!"

قال جاري مترددًا وهو ينظر حوله: "لحظة واحدة. لأنني أعتقد أن لدي تعيينًا مختلفًا..."

صاح الرقيب: "ماذا!!!!!؟"

احمر جاري وقال: "أعتذر، سيدي الضابط. أريد فقط منع خطأ محتمل... فقد تحدث المفوض بوضوح... قال بوضوح عن تعيين في ال'بي-إف-آي'، لذا أنا..."

ضحك الرقيب وقال: "أنت في بيتك، يا فتى." بدا أنه قد تلطف قليلاً بسبب لقب 'الضابط'. "هذا تعيينك. مرحبًا بك في المشاة الفقراء بحق اللعنة."

* * *

كرر روكو هيلدبرانت قائلاً: "ولماذا، وبأي سبب، يجب أن ندفع لكم، أيها السادة، الضريبة؟ لقد دفعنا بالفعل كل ما كان يفترض بنا دفعه."

ابتسم بايك، متربعًا على سرج حصان مسروق، لرفاقه وقال: "انظروا إليه، الهوبيت المتعجرف هذا. لقد دفع بالفعل! ويظن أن هذا كل شيء. حقًا، إنه شبيه تمامًا بذلك الديك الرومي الذي كان يفكر في يوم الأحد. لكنهم قطعوا رأسه يوم السبت!"

ضحك أوكولتيتش، كلابروث، ميلتون، وأوغرابيك معًا. كانت النكتة ممتازة، في النهاية. والتسلية الموعودة كانت تبدو أكثر تميزًا.

لاحظ روكو النظرات البغيضة الرطبة للنهابين، ونظر خلفه. على عتبة كوخه وقفت إنكارفيليا هيلدبرانت، زوجته، وألوي وياسمين، ابنتاه.

نظر بايك ورفاقه إلى فتيات الهوبيت، مبتسمين بنظرات شهوانية. نعم، بالتأكيد، التسلية كانت توعد بأن تكون من الدرجة الأولى.

اقتربت إمباتينسيا فاندربيك، ابنة أخت هيلدبرانت، التي تُعرف عادة بلقبها الحنون "إمبي"، من السياج على الجانب الآخر من الطريق. كانت فتاة جميلة جدًا. أصبحت ابتسامات اللصوص أكثر شهوانية وبغضًا.

قال بايك وهو يحثه: "حسنًا، أيها القصير، سلم النقود للجيش الملكي، أعطنا طعامك، أعطنا خيولك، وأخرج الأبقار من الحظيرة. لن نقف هنا حتى غروب الشمس. يجب أن نطوف بضع قرى أخرى اليوم."

ارتجف صوت روكو هيلدبرانت قليلاً وهو يقول: "لماذا يجب أن ندفع ونسلّم طعامنا؟ تقولون إنه للجيش، إنه لدفاعنا. ومن، أسأل، سيدافع عنا من الجوع؟ لقد دفعنا بالفعل ضريبة الشتاء، والجزية، وضريبة الرأس، وضريبة الأرض، وضريبة الحيوانات، والشيطان وحده يعلم ماذا غير ذلك! إذا لم يكن

ذلك كافيًا، فأربعة من الهوبيت من هذه القرية، بمن فيهم ابني، يعملون سائقي عربات في قوافل الجيش! ولا أحد غير صهري، ميلو فاندربيك، المعروف براستي، جراح ميداني، شخصية مهمة في الجيش. هذا يعني أننا دفعنا مساهمتنا مع الفائدة... لأي سبب يجب أن ندفع أكثر؟ لماذا ولِمَ؟"

نظر بايك طويلاً إلى إنكارفيليا هيلدبرانت، التي كانت تُعرف قبل الزواج بـ"بيبيرفيلدت"، زوجة الهوبيت. إلى ابنتيهما الممتلئتين، ألوي وياسمين. إلى إمبي فاندربيك الرائعة، التي ترتدي فستانًا أخضر. إلى سام هوفماير وجده العجوز، الجد هولوفيرنيس. إلى الجدة بيتونيا، التي كانت تعمل بعناد في حفر الأرض بمعولها. إلى الهوبيت الآخرين من القرية، معظمهم من النساء والصغار، ينظرون بخوف من بيوتهم ومن خلف الأسوار.

انحنى بايك في السرج وهو يهسهس قائلاً وينظر في عيني الهوبيت المذعورتين: "تسأل لماذا؟ سأخبرك لماذا. لأنك هوبيت قذر، غريب، أجنبي، ومن يسرقك، أيها الوحش البغيض، يُسعد الآلهة. من يضايقك، أيها الغير بشري، يقوم بعمل صالح ووطني. ولأنني أشعر بالرغبة في إحراق عشك الغير بشري. ولأنني أتوق لمضاجعة نسائك القزمات. ولأننا خمسة رجال أقوياء، وأنتم حفنة من الأوغاد القصار. هل تعرف الآن لماذا؟"

قال روكو هيلدبرانت ببطء: "الآن أعرف. ارحلوا، أيها القوم الكبار. ابتعدوا، أيها اللصوص الذين لا خير فيهم. لن نعطيكم شيئًا."

استقام بايك ومد يده نحو السيف القصير المعلق على سرجه.

صاح بايك قائلاً: "هاجموهم! اقتلوهم!"

بانحناءة سريعة حتى كادت تكون غير ملحوظة، انحنى روكو هيلدبرانت نحو عربته، أخرج قوسًا صغيرًا مخفيًا تحت حصيرة من القش، رفعه إلى خده وأطلق سهماً مباشرة في فم بايك المفتوح على مصراعيه في صرخته. رمت إنكارفيليا هيلدبرانت، التي كانت تُعرف قبل الزواج بـ"بيبيرفيلدت"، ذراعها بقوة، فدار المنجل في الهواء واصطدم بحلق ميلتون. تقيأ ابن الفلاح دمًا وتدحرج للخلف فوق مؤخرة حصانه، متأرجحًا بساقيه بشكل كوميدي. سقط أوغرابيك تحت حوافر الحصان وهو يئن، مع مقصات الجد هولوفيرنيس مدفونة في بطنه حتى مقابضها الخشبية. صوب القوي كلابروث هراوة نحو العجوز، لكنه طار من السرج، صارخًا بصوت غير بشري، بعد أن أصابته مباشرة في عينه شوكة مثقاب ألقتها إمبي فاندربيك. أدار أوكولتيتش حصانه وحاول الفرار، لكن الجدة بيتونيا قفزت عليه وغرزت أسنان معولها في فخذه. صرخ أوكولتيتش وسقط، وقدمه عالقة في الركاب، فجره الحصان المذعور عبر أعمدة السياج

الحادة. كان اللص يصرخ ويتأوه وهو يُجر، وتبعته الجدة بيتونيا - وإمبي - بسكين وبالمعول المنحني كذئبتين.

نفخ الجد هولوفيرنيس في أنفه بصوت عالٍ.

استغرق الحادث بأكمله - من صرخة بايك إلى نفخ الجد هولوفيرنيس في أنفه - وقتًا يعادل تقريبًا النطق السريع للجملة: "الهوبيت سريعون بشكل لا يصدق ويمكنهم رمي جميع أنواع القذائف بدقة لا تخطئ".

جلس روكو على درجات الكوخ. وقفت زوجته، إنكارفيليا هيلدبرانت، التي كانت تُعرف قبل الزواج ب"بيبيرفيلدت"، بجانبه. ذهبت ابنتاهما، ألوي وياسمين، لمساعدة سام هوفماير في إنهاء الجرحى وتجريد الموتى.

عودت إمبي في فستانها الأخضر وأكمامها ملطخة بالدم حتى المرفقين. عادت الجدة بيتونيا أيضًا، تمشي ببطء، تلهث، تتأوه، متكئة على مدماتها الملطخة بالدم وتمسك ظهرها السفلي. فكر هيلدبرانت: "أوه، إنها تكبر، جدتنا".

سأل سام هوفماير قائلاً: "أين يجب أن ندفن اللصوص، السيد روكو؟"

وضع روكو هيلدبرانت ذراعه حول زوجته ونظر إلى السماء وقال: "في غابة البتولا بجانب الآخرين."

اجتاحت المغامرة المثيرة للسيد مالكوم غوثري من بريمور صفحات العديد من الصحف كالعاصفة. حتى صحيفة "الديلي ميل" في لندن خصصت عدة سطور لها في عمودها "غريب". ومع ذلك، بما أن قلة من قرائنا يقرؤون الصحف جنوب تويد، وإذا فعلوا، فإنهم يقتصرون على صحف أكثر جدية من "الديلي ميل"، دعونا نذكركم بما حدث. في يوم العاشر من مارس من العام الماضي، ذهب السيد مالكوم غوثري للصيد في بحيرة غلاسكارنوك. وهناك، صادف السيد غوثري شابة تحمل ندبة قبيحة على وجهها (كذا!)، تركب فرسًا سوداء (كذا) برفقة وحيد قرن أبيض (كذا)، وهما يخرجان من الضباب والظلام (كذا).

تحدثت الفتاة إلى السيد غوثري المذهول بلغة وصفها السيد غوثري بلطف، وننقل عنه: "ربما الفرنسية، أو بعض اللهجات الأخرى من القارة". وبما أن السيد غوثري لا يتحدث الفرنسية أو أي لهجة أخرى من القارة، لم يكن الحديث ممكنًا. اختفت الفتاة والمجموعة المرافقة لها، وننقل عن السيد غوثري مرة أخرى: "كحلم ذهبي".

علقنا قائلين: لا شك أن حلم السيد غوثري كان ذهبيًا كلون الويسكي المالت الفردي الذي يشربه السيد غوثري عادةً، كما علمنا، يشرب كثيرًا وبكميات تفسر رؤية وحيدات القرن البيضاء، والفئران البيضاء، والوحوش من البحيرات. والسؤال الذي نود طرحه يأتي كالتالي: ما الذي كان يظن السيد غوثري أنه يفعله بقصبة صيد بجانب بحيرة غلاسكارنوك قبل أربعة أيام من بدء موسم الصيد؟

صحيفة إنفرنيس الأسبوعية، طبعة 18 مارس 1906

الفصل السابع

مع اشتداد الريح، أظلمت السماء من الغرب، وأنطفأت الغيوم، التي كانت تقترب على شكل موجات من الكويكبات واحدًا تلو الآخر. انطفأ التنين، وانطفأت عذراء الشتاء، وانطفأت الماعز السبعة. انطفأت العين، التي تتألق بأشد وأطول تألق.

أضاء حافة الأفق وميض خاطف من البرق. دوى الرعد بهدير خافت. اشتدت الريح فجأة، تهب الغبار وأوراق الشجر الجافة في أعينهم.

صهل وحيد القرن وأرسل إشارة ذهنية. فهمت سيري على الفور ما أراد قوله.

لا وقت لنضيعه. أملنا الوحيد يكمن في هروب سريع. إلى المكان الصحيح، والزمان الصحيح. يجب أن نسرع، يا عين النجم.

تذكرت سيري: أنا سيدة العوالم. أنا من الدم القديم، لدي سلطة على الزمان والمكان.

أنا من دم لارا دورين.

صهل إيواراكواكس، حثهم على التقدم. ردت كيلبي عليه بنخرة طويلة ممتدة. ارتدت سيري قفازيها.

قالت سيري: "أنا جاهزة."

اشتد الطنين في أذنيها. فوميض وسطوع. ثم الظلام.

* * *

حملت مياه البحيرة وصمت المساء المبكر لعنات الصياد، الذي كان جالسًا في قاربه يجذب الخيط ويهزه، محاولًا تحرير طُعم علق في قاع البحيرة. دوى سقوط مجداف.

تنحنحت نيمو بفارغ الصبر. استدارت كوندويرامورس بعيدًا عن النافذة، ثم انحنت فوق النقوش. لفت انتباهها لوحة واحدة بشكل خاص. فتاة بشعر متطاير مع الريح، تركب فرسًا سوداء تقف على قائمتيها الخلفيتين. بجانبها وحيد قرن أبيض، أيضًا واقف على قائمتيه، وشعره يتطاير حوله مثل شعر الفتاة.

علقت المتدربة قائلة: "أعتقد أن هذا هو الجزء الوحيد من الأسطورة الذي لم يتنازع عليه المؤرخون أبدًا، متفقين بالإجماع على اعتباره اختلاقًا وزخرفة خرافية، أو استعارة هذيانيه. والرسامون والمصورون، على عكس العلماء، أحبوا هذه الحلقة. انظري، من فضلك: كل صورة تظهر سيري ووحيد القرن. ماذا لدينا هنا؟ سيري ووحيد القرن على جرف فوق شاطئ بحر. وهنا، إذا سمحتِ: سيري ووحيد القرن في منظر طبيعي يشبه ما يُرى في هذيان مخدر، ليلاً، تحت قمرين."

لم تقل نيمو شيئًا.

ألقت كوندويرامورس الألواح على الطاولة وقالت: "بكلمة واحدة، في كل مكان هناك سيري ووحيد القرن. سيري ووحيد القرن في متاهة العوالم، سيري ووحيد القرن في هاوية الأزمنة..."

قاطعتها نيمو وهي تنظر إلى النافذة، إلى البحيرة، إلى القارب والصياد الذي يتخبط فيه، قائلة: "سيري ووحيد القرن يخرجان من العدم كالأشباح، معلقين فوق بحيرة ما... وربما تكون دائمًا نفس البحيرة، تلك التي تمتد عبر الأزمنة والأماكن كجسر، مختلفة في الوقت ذاته، ولكنها مع ذلك واحدة؟"

ردت كوندويرامورس قائلة: "أعتذر؟"

قالت نيمو، دون أن تنظر إليها: "أشباح. زوار من أبعاد أخرى، من مستويات أخرى، أماكن أخرى، أزمنة أخرى. أشباح تغير حياة شخص ما. تغير أيضًا حياتها الخاصة، مصيرها الخاص... دون أن تعلم. بالنسبة لها، إنه مجرد... مكان آخر. ليس ذلك المكان، ليس ذلك الزمان... مرة أخرى، مرة أخرى في الصف، ليس ذلك الزمان..."

قاطعتها كوندويرامورس بابتسامة متكلفة قائلة: "نيمو، أنا قارئة الأحلام، دعيني أذكرك. أنا الخبيرة في رؤى الأحلام والتنبؤ بالأحلام. وفجأة تبدئين بالتنبؤ. وكأنك رأيتِ ما تتحدثين عنه... في حلم."

حسب شدة صوته ولعناته المفاجئة، بدا أن الصياد قد فشل في فك الطُعم وانقطع الخيط. لم تقل نيمو شيئًا، ونظرت إلى النقوش. إلى سيري ووحيد القرن.

قالت نيمو أخيرًا، بهدوء شديد: "لقد رأيتُ حقًا في حلم ما كنت أتحدث عنه. رأيته مرات عديدة في أحلامي. ومرة واحدة وأنا مستيقظة."

* * *

كما هو معروف، قد تستغرق الرحلة من تشوخوف إلى مالبورك في ظروف معينة حتى خمسة أيام. وبما أن الرسائل من قائد تشوخوف إلى وينريخ فون كنيبروده، المايستر الأعظم للنظام، كان يجب أن تصل إلى المرسل إليه دون فشل في موعد لا يتجاوز يوم العنصرة، لم يتأخر الفارس هاينريش فون شويلبورن وانطلق في اليوم التالي لأحد "إكساودي دوميني"، ليسافر بهدوء وبدون مخاطر التأخير. ببطء، لكن بأمان.

أسعد موقف الفارس مرافقيه كثيرًا، وهم ستة من رماة القوس الصغير الممتطين خيولاً، بقيادة هاسو بلانك، ابن خباز من كولونيا. كان الرماة وبلانك معتادين على السادة النبلاء الذين يسبون، يصرخون، يحثونهم ويأمرونهم بالركض بسرعة متهورة، ثم بعد ذلك، عندما لا يصلون في الوقت المحدد على أي حال، يلقون باللوم كله على المشاة المساكين، يكذبون بطريقة لا تليق بفارس، ناهيك عن أحد من نظام عسكري ديني.

كان الجو دافئًا، رغم الغيوم. هطل المطر من حين لآخر، وكانت الأخاديد محاطة بالضباب. ذكّرت التلال المغطاة بالخضرة الوفيرة السير هاينريش بمسقط رأسه تورينجيا، ووالدته، وحقيقة أنه لم يكن مع امرأة منذ أكثر من شهر. كان رماة القوس الصغير الذين يركبون في الخلف يغنون بلهوجة أغنية لوالتر فون دير فوغيلوايد. كان هاسو بلانك يغفو في السرج.

"من يمتلك حب امرأة صالحة
يخجل من كل فعل مشين"...

كانت الرحلة تسير بسلام، ومن يدري، ربما كانت ستبقى هادئة طوال الطريق، لولا أن لاحظ السير هاينريش حوالي منتصف النهار سطح بحيرة يلمع في الأسفل. وبما أن اليوم التالي كان الجمعة وكان يجب عليهم تأمين طعام اليوم المقدس مسبقًا، أمر الفارس رجاله بالنزول إلى الماء والبحث عن مسكن صياد.

كانت البحيرة كبيرة، وكان هناك حتى جزيرة فيها. لم يعرف أحد اسمها، لكن ربما كانت تُسمى البحيرة المقدسة. في هذه الأرض الوثنية - كما لو كان ذلك سخرية - كانت كل بحيرة ثانية تُسمى "مقدسة".

صرّت حوافر خيولهم على الأصداف المتناثرة على الشاطئ. علق الضباب فوق البحيرة، لكن كان من الواضح أنها غير مأهولة. لم يكن هناك أثر لقارب، ولا شبكة، ولا أي روح حية. فكر هاينريش فون

شويلبورن: "سنضطر للبحث في مكان آخر. وإذا لم نجد، فليكن. سنأكل ما لدينا في حقائب السرج، حتى لو كان ذلك لحمًا مدخنًا، وفي مالبورك سنعترف، سيطالبنا الكاهن بتوبة وستُغفر الخطيئة."

كان على وشك إصدار أمر عندما طنّ شيء في رأسه تحت خوذته، وصرخ هاسو بلانك بفزع شديد. نظر فون شويلبورن وأُصيب بالذهول. ورسم إشارة الصليب على نفسه.

رأى هاينريش فون شويلبورن حصانين: أحدهما أبيض والآخر أسود. لكن بعد لحظة، لاحظ برعب أن الحصان الأبيض له قرن لولبي ملتوٍ على جبهته المقببة. رأى أيضًا أن فتاة تجلس على الحصان الأسود، شعرها الرمادي مشط ليغطي خدها. بدا الظهور الجماعي وكأنه لا يلامس الأرض أو الماء - بدا كما لو كان معلقًا فوق الضباب الذي يتدفق على سطح البحيرة.

صهل الحصان الأسود.

قالت الفتاة ذات الشعر الرمادي بوضوح تام: "أوبس... إير لوك، إير تيد! سكويس'مي."

تمتم هاسو، شاحبًا كالورقة، قائلاً: "القديسة أورسولا، يا شفيعتي..."

تجمد رماة القوس الصغير مفتوحي الأفواه، ورسموا إشارة الصليب.

رسم فون شويلبورن إشارة الصليب على نفسه أيضًا، ثم أخرج بيد مرتجفة سيفًا من غمده مربوط تحت رفرف سرجه.

زأر قائلاً: "القديسة مريم، أم الرب! قفي إلى جانبي!"

في ذلك اليوم، لم يُخزِ السير هاينريش أسلافه الشجعان من آل فون شويلبورن، بما في ذلك ديتريش فون شويلبورن، الذي قاتل بشجاعة في دمياط وكان من القلائل الذين لم يفروا عندما استحضر الساراسين شيطانًا وأطلقوه على الصليبيين. بعد أن حث حصانه واستذكر جده الشجاع، هاجم هاينريش فون شويلبورن الظهور وسط رذاذ المحار المياه العذبة المتطاير من تحت حوافر حصانه.

صاح قائلاً: "من أجل النظام والقديس جورج!"

وقف وحيد القرن الأبيض على قائمتيه الخلفيتين كشعار هيرادليك[12] **heraldic**، رقصت الفرس السوداء، وكانت الفتاة قلقة، كان ذلك واضحًا من النظرة الأولى. واصل هاينريش فون شويلبورن الركض. من يدري كيف كان كل شيء سينتهي لو لم يُهب الضباب فجأة نحوه وتذوب صورة المجموعة الغريبة، متفككة إلى عدد لا يحصى من الألوان كما لو كانت نافذة زجاجية ملونة حطمها حجر. واختفى كل شيء. كل شيء. وحيد القرن، الحصان الأسود، والفتاة الغريبة...

اندفع حصان هاينريش فون شويلبورن إلى البحيرة برذاذ، توقف، هز رأسه، صهل، وطحن أسنانه على اللجام.

ركض هاسو بلانك، يكافح للسيطرة على حصانه المتمرد، إلى جانب الفارس. كان فون شويلبورن يلهث ويتأوه، يكاد يصفر، محدقًا بعينين منتفختين كسمكة يوم الصيام.

تمتم هاسو بلانك قائلاً: "على عظام القديسة أورسولا، والقديسة كوردولا، وجميع الشهيدات العذارى الأحد عشر ألف في كولونيا... ما هذا، يا سيدي الفارس النبيل؟ معجزة؟ وحي؟"

تمتم فون شويلبورن قائلاً: "عمل الشيطان!"، وهو يشحب الآن بشكل مرعب ويطرقع أسنانه. "سحر أسود! شعوذة! أمر ملعون، وثني، شيطاني..."

قال هاسو بلانك: "يجب أن نخرج من هنا، سيدي. بأسرع ما يمكن... لسنا بعيدين عن بيلبلين، أي شيء لنكون ضمن نطاق صوت أجراس الكنيسة..."

نظر السير هاينريش للمرة الأخيرة من مرتفع خارج الغابة مباشرة. كانت الريح قد نفضت الضباب، وأصبح سطح البحيرة اللامع باهتًا ومتجعدًا في الأماكن التي لم تحجبها جدار الأشجار.

حلّق نسر بحري كبير فوق الماء.

تمتم هاينريش فون شويلبورن قائلاً: "أرض بلا إله، وثنية. ينتظرنا الكثير، الكثير من العمل، والمشقة والجهد قبل أن يتمكن نظام الفرسان التيوتوني[13] من طرد الشيطان أخيرًا من هذا العش السلافي."

* * *

---

[12] كلمة "**Heraldic**"مشتقة من "**Heraldry**"، وهي تشير إلى **علم الشعارات والنُبالة**، أي دراسة وتصميم **الرموز**، **الشعارات**، **والمعاطف الحربية** التي كانت تُستخدم تاريخيًا في أوروبا لتحديد هوية العائلات النبيلة، الفرسان، والجيوش.

[13] هم **فرسان التويتونيك**، وهي **منظمة عسكرية دينية ألمانية تأسست في أواخر القرن الثاني عشر**

قالت سيري بنبرة توبيخية وساخرة في آن واحد: "أيها الحصان الصغير، لا أريد أن أكون متطفلة، لكنني في عجلة من أمري للعودة إلى عالمي. أصدقائي وعائلتي بحاجة إليّ، أنت تعرف ذلك، أليس كذلك؟ وأولاً نجد أنفسنا بجانب بحيرة مع مهرج سخيف يرتدي ملابس متقلبة، ثم نواجه مجموعة من الرؤوس الشعثاء القذرة الصارخة بالهراوات، وأخيرًا مجنون يحمل صليبًا أسود على عباءته. إنها الأزمنة الخطأ، والأماكن الخطأ! من فضلك، حاول بجدية أكبر. أتوسل إليك."

صهل إيواراكواكس، هز رأسه ذا القرن، وأرسل إليها شيئًا، فكرة ذكية. لم تفهم سيري تمامًا. لم يكن لديها وقت للتأمل، إذ امتلأ داخل جمجمتها بضوء بارد، طنّت أذناها، وخدرت قفاها.

ثم ابتلعتها العدمية السوداء الناعمة جدًا مجددًا.

* * *

سحبت نِيمو الرجل من يده ضاحكةً بفرح. هربا معًا نحو البحيرة، مارين بين أشجار البتولا والألدر الصغيرة، وبين جذوع الأشجار المقطوعة والأخرى التي اقتلعتها الرياح. بعد أن وصلا إلى الشاطئ الرملي، خلعت نِيمو حذاءها، رفعت فستانها، وبدأت تتمشى بقدميها الحافيتين في المياه الضحلة عند الشاطئ. أما الرجل، فقد خلع حذاءه أيضًا، لكنه لم يكن مستعجلًا للدخول في الماء. بدلاً من ذلك، خلع عباءته وفردها على الرمل.

ركضت نِيمو نحوه، وأطلقت ذراعيها حول عنقه، ووقفت على أطراف أصابعها لتقبيله. كان على الرجل أن يميل كثيرًا ليلتقي بها. ولم يكن من دون سبب أن أطلقوا عليها اسم "القزم" – ولكن الآن وقد أصبحت في الثامنة عشرة من عمرها وأصبحت متدربة في فنون السحر، كان استخدام هذا اللقب محجوزًا حصريًا لأصدقائها المقربين. وبعض الرجال.

وضع الرجل فمه على شفتي نِيمو، بينما انزلقت يده داخل فستانها.

بعد ذلك، تسارعت الأمور. انتهى بهما الحال على العباءة الممدودة على الرمل، فستان نِيمو مرتفع فوق خصرها، وساقيها تمسكان بقوة بخصر الرجل، ويديها تغرسان في ظهره. عندما أخذها – كما كان دائمًا، بتهور زائد – عضّت على أسنانها، لكنها سرعان ما لحقت به في الإثارة، وسارت معه بوتيرة واحدة، واستمرت معه. كانت ماهرة.

كان الرجل يصدر أصواتًا مسلية. نظرت نِيمو عبر كتفه إلى السماء حيث كانت الغيوم تتراقص بأشكال خيالية.

رنّ شيء، مثل جرس غارق في قاع المحيط. ثم سمعت طنينًا مفاجئًا في أذنيها. "السحر"، فكرت وهي تدير رأسها، وتتحرر من تحت خد وكتف الرجل الذي كان مستلقيًا عليها.

وقف وحيد القرن الأبيض عند شاطئ البحيرة – حرفيًا معلقًا فوق سطح الماء. بجانبه كان هناك حصان أسود. وعلى ظهر الحصان الأسود كان هناك شخص يجلس...

لكنني أعرف تلك الأسطورة، خطرت الفكرة سريعًا في ذهن نِيمو. أعرف تلك الحكاية! كنت طفلة صغيرة عندما سمعت تلك القصة. الحكواتي المتجول، المتسول بوغويزد، كان قد حكى لها إياها. صيادة الوحوش "سيري"... ذات الندبة على خدها... الفرس السوداء "كِيلبي"... وحيدات القرن... أرض الإلفيين...

أصبحت حركات الرجل، الذي لم يلاحظ الظاهرة على الإطلاق، أكثر إلحاحًا، والأصوات التي كان يصدرها أكثر تسلية.

قالت الفتاة التي كانت تركب الحصان الأسود: "واو، خطأ آخر! هذا ليس المكان المناسب، ولا الوقت المناسب. وأكثر من ذلك، أرى أنه وقت سيء. آسف".

اختفت الصورة وتحطمت، كما تتحطم الزجاجة الملونة فجأة، وسقطت إلى قطع، تفككت إلى وميض متلألئ بألوان قوس قزح، يتلألأ بالذهب. ثم اختفى كل شيء.

صرخت نِيمو: "لا! لا تختفي! لا أريدك أن تذهبي"!

حاولت أن تستقيم بركبتيها وتتحرر من تحت الرجل، لكنها لم تستطع – كان أقوى وأثقل منها. تذمر الرجل وأنّ بصوت عالٍ.

"أوه، نِيمو... أوه"!

صرخت نِيمو وغرست أسنانها في كتفه.

ظلا مستلقين على معطفه الصوفي، يرتجفان وساخنان. نظرت نِيمو إلى شاطئ البحيرة، إلى قبعات الرغوة التي أثارتها الأمواج. إلى القصب المائل بفعل الريح. إلى الفراغ الباهت والمظلم، الفراغ الذي خلفته الأسطورة وهي تختفي.

انحدرت دمعة من أنف المتدربة.

سألها الرجل: "نِيمو... هل هناك شيء غير طبيعي؟"

أجابت: "نعم." احتضنته، لكنها استمرت في النظر إلى البحيرة. "لا تقل شيئًا. فقط احتضنني ولا تقل شيئًا".

ابتسم الرجل بفخر.

قال متباهيًا: "أعلم ما حدث. هل تحركت الأرض؟"

ابتسمت نِيمو بحزن.

ردت بعد لحظة صمت: "ليس فقط الأرض... ليس فقط الأرض".

* * *

ومض المكان في أعين سيري، ثم ساد الظلام .. وانتقلت لمكان وزمنٍ آخر.

* * *

كان المكان التالي مظلمًا، شريرًا وقذرًا.

انحنت سيري بشكل لا إرادي في السرج، وقد هزها الأمر بمعنى الكلمة حرفيًا ومجازيًا. فقد ارتطمت حدوات كِيلبي بشيء صلب ومسطح وغير قابل للثني كالصخرة. وبعد وقت طويل من الانزلاق في حالة من العدم اللين، كانت صدمة الصلابة مذهلة وغير سارة لدرجة أن الفرس الصهيل علَّت واندفعت فجأة إلى الجانب، واضعة إيقاعًا متقطعًا على الأرض جعل أسنان سيري تصطك.

أما الصدمة الثانية، المجازية هذه المرة، فكانت بسبب الرائحة. تأففت سيري باشمئزاز وغطت فمها وأنفها بكمّها. شعرت فورًا بعينيها تمتلئان بالدموع.

من كل جانب ارتفع نتنٌ حامض، لاذع، كثيف ولزج، رائحة احتراق خانقة ومروعة، لا يمكن تعريفها، ولا تشبه أي شيء سبق أن شمه سيري. كانت – وهي متأكدة من ذلك – رائحة التعفن، نتن الجثث التي بلغت مرحلة التحلل النهائي والتدهور، رائحة التفكك والتدمير؛ بالإضافة إلى ذلك، كان هناك انطباع بأن ما كان يتعفن لم يكن أكثر رائحةً عندما كان حيًا. حتى في أوج أيامه الخضراء.

انحنت بفعل رد فعل غثيان لا تستطيع السيطرة عليه. نفخت كِيلبي وأنفها مزمومه، وهزت رأسها. وحيد القرن، الذي تجسد بجانبهما، استند على مؤخرته، قفز للأعلى وركل. أجاب الأرض الصلبة بصوت صدمة وصدى عالٍ.

في كل مكان حولهما كانت الليلة، الليلة المظلمة والقذرة، مكتومة ببقايا الظلام اللاصقة والكريهة.

نظرت سيري إلى الأعلى، تبحث عن النجوم، لكن لم يكن هناك شيء فوقها، سوى هاوية، مضيئة في بعض الأماكن بتوهج أحمر غير واضح، مثل حريق بعيد.

قالت سيري وعبست وهي تشعر بالضباب الحامض والعفن يستقر على شفتيها: "واو! يا للقرف! ليس هذا المكان، وليس هذا الوقت! بأي حال من الأحوال"!

نفخ وحيد القرن وحرك رأسه، ورسم قرنه قوسًا قصيرًا وديناميكيًا.

الأرض التي كانت تطحن تحت حوافر كِيلبي كانت صخرية، ولكنها غريبة، ناعمة بشكل غير طبيعي، تنبعث منها رائحة مكثفة للاحتراق ورماد قذر. استغرق الأمر بعض الوقت قبل أن تدرك سيري أن ما كانت تنظر إليه كان طريقًا. كانت قد سئمت من تلك القساوة المزعجة والمملة. قادت الفرس إلى جانب الطريق، حيث كان هناك شيء كان يومًا ما أشجارًا، ولكنه الآن أصبح هياكل عظمية مشوهة وعارية. جثث معلقة بأشلاء من القماش، تشبه بقايا أكفان متعفنة.

أطلق وحيد القرن تحذيرًا بصهيله وإرسال إشارة عقلية. ولكن كان قد فات الأوان.

فقط خلف الطريق الغريب والأشجار الميتة بدأت كومة من الحطام، وأبعد قليلاً عند حافتها، منحدر شديد يميل إلى الأسفل، تقريبًا كالهاوية. صرخت سيري، وضغطت بكعبيها جوانب الفرس وهي تنزلق.

ارتجت كِيلبي، ساحقة كل ما كانت مصنوعة منه الكومة تحت حوافرها. وكان ذلك النفايات. معظمها نوع من الأواني الغريبة. لم تتفتت تلك الأواني تحت حوافر الأحصنة، ولم تصدر صوت طحن، لكنها انفجرت بشكل لزج ومثير للاشمئزاز، مثل أمعاء أسماك ضخمة. شيء ما تدفق وغطّى، والرائحة التي انبعثت كادت أن تسقط سيري من على السرج.

كِيلبي، وهي تصدر صهيلًا جنونيًا، داست عبر مكب النفايات، وتسلقت بجهد عائدًا نحو الطريق. سيري، التي كانت تختنق من الرائحة الكريهة، أمسكت بعنق الفرس.

نجحوا في الصعود. واستقبلوا بفرح وإغاثة صلابة الطريق الغريبة غير السارة.

سيري، وهي ترتجف من رأسها حتى أخمص قدميها، نظرت إلى أسفل نحو مكب النفايات الذي انتهى ببحيرة سوداء تملأ قاع الحوض. كانت سطح البحيرة خالية من الحياة ولمعانها، حيث لم يكن الماء، بل القطران المتصلب. وراء البحيرة، وراء مكبات النفايات، وأكوام الرماد وكوم الحُثالة، كان السماء محمرًا بسبب توهجات بعيدة، ومعلّمًا بمسارات من الدخان.

نفخ وحيد القرن. كانت سيري على وشك مسح عينيها الدامعتين بكمها، عندما لاحظت فجأة أن كمها بالكامل مغطى بالغبار. كانت ذرات الغبار تغطي أيضًا فخذَيها، ومقود السرج، وشعر وعنق كِيلبي.

الرائحة كانت خانقة.

قالت سيري وهي تتمتم: "مقزز... مثير للاشمئزاز... أشعر وكأنني لزجة في كل مكان. لنخرج من هنا... لنخرج من هنا بأسرع ما يمكن يا حصان صغير."

رفع وحيد القرن أذنيه وأنفخ.

"فقط أنت تستطيعين تحقيق ذلك. افعلي."

"أنا؟ وحدي؟ بدون مساعدتك؟"

أومأ وحيد القرن برأسه ذات القرون.

حكّت سيري رأسها، وزفرت، وأغلقت عينيها. ركزت.

في البداية، لم يكن هناك سوى عدم الإيمان والاستسلام والخوف. لكن سرعان ما غمرتها وهج بارد ومشرق - وهج المعرفة والقوة. لم تكن تعرف من أين أتت هذه المعرفة والقوة، ولا من أين تنبثق جذورها ومصدرها. لكنها علمت أنها تستطيع فعل ذلك. وأنها ستفعله إذا أرادت.

ألقت نظرة أخرى على البحيرة المتصلبة والخالية من الحياة، ومكب النفايات المدخّن، وهياكل الأشجار. كانت السماء تضيء بتوهج بعيد.

"أنا سعيدة أنه ليس عالمي." انحنت وبصقت. "سعيدة جدًا!"

صهل وحيد القرن بمعنى عميق. فهمت ما أراد قوله.

"حتى لو كان لي"، مسحت عينيها وأنفها وفمها بمنديل: "فإنه ليس لي في نفس الوقت، لأنه بعيد في الزمن. إنه الماضي، أو..."

توقفت.

"الماضي"، كررت بصوت هادئ. "أؤمن بشدة أنه الماضي."

* * *

استقبلوا مطراً غزيراً، هطول حقيقي من المطر قد وقعوا تحته في المكان التالي، كبركة. كان المطر دافئًا وعطريًا، تفوح منه رائحة الصيف، والأعشاب والطين والسماد. غسل المطر الأوساخ عنهم، طهّرهم. كان المطر، ببساطة، تطهيرًا.

مثل أي تطهير، أصبح بعد فترة قصيرة رتيبًا، مفرطًا ولا يطاق. بعد بعض الوقت، بدأ الماء الذي كانت تغتسل به يبللها بشكل مزعج، يسيل على رقبتها ويبردها بطريقة غير مريحة. لذا خرجوا من ذلك المكان الممطر.

لأنه لم يكن ذلك المكان أيضًا. ولا ذلك الزمان.

* * *

كان المكان التالي دافئًا جدًا، والطقس حارًا للغاية، حتى أن سيري وكيلبي ووحيد القرن جفوا وتصاعد منهم البخار كثلاث غلايات. وجدوا أنفسهم في مستنقعات حارقة على حافة غابة. يمكن استنتاج فورًا

أنها غابة شاسعة جدًا، ببساطة برية كثيفة ومتوحشة وصعبة الوصول. خفق الأمل في قلب سيري بأن تكون هذه غابة بروكيلون، الأمل بأن يكون أخيرًا مكانًا مألوفًا ومناسبًا.

ركبوا ببطء على طول حافة الغابة. كانت سيري تبحث عن شيء قد يكون علامة. نفخ وحيد القرن، رفع رأسه وقرنه، ونظر حوله. كان قلقًا.

سألت سيري: "هل تعتقد، يا حصان صغير، أنهم قد يكونون يتبعوننا؟"

نفخة - مفهومة ولا لبس فيها حتى بدون التخاطر.

قالت سيري: "لم نتمكن من الفرار بعيدًا بما فيه الكفاية بعد؟"

لم تفهم ما أخبرها به عقليًا في الرد. لا بعيد ولا قريب؟ حلزونية؟ أي حلزونية؟

لم تفهم عما كان يتحدث. لكن القلق أصابها بالعدوى.

لم تكن المستنقعات الحارقة المكان الصحيح أو الزمان الصحيح.

أدركوا ذلك في المساء المبكر، عندما خف الحر، وبدلاً من قمر واحد، طلع قمران في السماء فوق الغابة. أحدهما كبير، والآخر صغير.

* * *

ان المكان التالي شاطئ بحر، جرفًا شديد الانحدار، شاهدوا منه الأمواج تتكسر على صخور غريبة الشكل. شموا ريح البحر، وصرخت النوارس، وطيور النورس ذات الرأس الأسود، و الجلمار، مغطية حواف الجرف بطبقة بيضاء مضطربة.

امتد البحر حتى الأفق المظلم المغطى بالغيوم.

في الأسفل، على الشاطئ الصخري، لاحظت سيري فجأة هيكلًا عظميًا لسمكة عملاقة برأس ضخم بشكل مرعب، مدفون جزئيًا في الحصى. كانت أسنانها الكبيرة، المتقلبة في فكها المبيض بالشمس، بطول ثلاثة أشبار على الأقل، وبدا أنه يمكن للمرء أن يركب حصانًا داخل فمها ويتجول بسهولة تحت أقواس أضلاعها دون أن يصطدم رأسه بعمودها الفقري.

لم تكن سيري متأكدة إن كانت أسماك مثل هذه موجودة في عالمها وزمانها.

ركبوا على طول حافة الجرف، ولم تكن النوارس وطيور القطرس خائفة على الإطلاق، تتحرك على مضض من طريقهم. بل حاولوا بجهد أن ينقروا ويقرصوا ريش كيلبي وإيواراكواكس على مفاصل أرجلهم! فهمت سيري على الفور أن الطيور لم ترَ إنسانًا أو حصانًا من قبل. ولا وحيد قرن.

نفخ إيواراكواكس، هز رأسه وقرنه، واضحًا أنه قلق. تبين أن لديه سببًا لذلك.

صرّ شيء، كما لو كان قماشًا يتمزق. ارتفعت النوارس بصرخة ورفرفة، مغطية كل شيء للحظة بسحابة بيضاء. اهتز الهواء فوق الجرف فجأة وأصبح ضبابيًا كالزجاج المسكوب عليه الماء. ثم تحطم كالزجاج. وتدفق الظلام من الشق، بينما انسكب الفرسان من الظلام. ترفرف حول أكتافهم عباءات بلون قرمزي-أمارانثي-أحمر كان يذكر بوهج نار في سماء مضاءة بحريق غروب الشمس.

ديرغ روادري. الفرسان الحمر.

حتى قبل أن تهدأ صرخات الطيور وصهيل وحيد القرن، كانت سيري قد أدارت فرسها وحثتها على الجري. لكن الهواء انشق في مكان آخر، ومن الشق، ترفرف العباءات كأجنحة، اندفع فرسان آخرون. أغلق نصف دائرة الحبل، يضغط عليهم نحو الجرف. صرخت سيري، مجذبة "السنونو" من غمدها.

استدعاها وحيد القرن بإشارة حادة اخترقت دماغها كإبرة. فهمت على الفور هذه المرة. كان يُظهر لها الطريق. فجوة في الدائرة. بينما وقف هو على قائمتيه الخلفيتين، صهل بصوت حاد، وهاجم الإلف بقرنه خافضاً إياه بتهديد.

صرخت سيري قائلة: "حصان صغير!"

أرسل إيواراكواكس فكرة عقلية: "أنقذي نفسك، يا عين النجم! لا تدعيهم يمسكون بك!"

ضغطت سيري نفسها على عنق كيلبي.

اعترض طريقها إلفان. كان معهما حبال صيد، حلقات على عصي طويلة. حاولا رميها حول عنق كيلبي. لوّت الفرس رأسها بخفة لتفادي واحدة، دون أن تبطئ جريها لثانية. قطعت سيري الحلقة الأخرى بضربة واحدة من سيفها، وحثت كيلبي بصرخة لتركض أسرع. طارت الفرس كإعصار.

لكن آخرين كانوا الآن في أعقابها. سمعت صيحاتهم، دقات حوافر خيولهم، رفرفة عباءاتهم. فكرت سيري: "ماذا عن الحصان الصغير، ماذا فعلوا به؟"

لم يكن هناك وقت للتفكير. كان وحيد القرن محقًا؛ لا يمكن أن تدعهم يأسرونها مجددًا. كان عليها أن تغوص في الفضاء، تختبئ، وتضيع نفسها في متاهة الأماكن والأزمنة. ركزت، مدركة برعب أن كل ما في رأسها كان فراغًا وصخبًا غريبًا، طنينًا ينمو بسرعة.

فكرت سيري: "إنهم يلقون تعويذة عليّ. يريدون خداعي بالسحر. فوق جثتي! التعاويذ لها مدى. لن أدعهم يقتربون مني."

صرخت قائلة: "اركضي، كيلبي!"

مدّت الفرس السوداء رقبتها وطارت كالريح. ضغطت سيري نفسها على رقبتها لتقليل مقاومة الهواء.

خفتت الصيحات من خلفها، التي كانت قبل لحظة عالية وخطيرة القرب، وغرقت في صراخ الطيور المذعورة. ثم أصبحت أصعب فأصعب على التمييز. بعيدة.

طارت كيلبي كإعصار. بسرعة جعلت ريح البحر تعوي في أذنيها.

رنّت نبرة غضب في صيحات المطاردين البعيدة. أدركوا أنهم لا يستطيعون مواكبتها. أنه ليس لديهم أي فرصة للحاق بالفرس السوداء، التي كانت تركض دون أي علامة على التعب، خفيفة، ناعمة ومرنة كفهد.

لم تلتفت سيري للخلف. لكنها علمت أنهم واصلوا مطاردتها لوقت طويل، رغم أن ذلك كان عبثًا. حتى اللحظة التي بدأت فيها خيولهم تلهث وتصدر أصواتًا خشنة، تتعثر وتخفض رؤوسها الرغوية تقريبًا إلى الأرض، مكشوفة الأسنان. عندها فقط توقفوا، مرسلين وراءها لعنات وتهديدات عاجزة لم تعد تسمعها.

طارت كيلبي كعاصفة.

* * *

كان المكان الذي فرت إليه جافًا وعاصفًا. جففت الريح الحادة الهوجاء الدموع على خديها بسرعة.

كانت وحيدة. وحيدة مجددًا. وحيدة تمامًا.

متجولة، متشردة دائمة، بحار ضائع في بحر لا نهائي بين أرخبيل الأماكن والأزمنة.

بحار يفقد الأمل.

صفّرت العاصفة وهدرت، مدحرجة كرات من الأعشاب الجافة فوق الأرض المتشققة.

جففت العاصفة دموعها.

* * *

داخل جمجمتها وضوح بارد، في أذنيها طنين، طنين رتيب، كما لو كان يأتي من داخل صدفة بحرية ملتوية. وخز في قفاها. عدمية سوداء ناعمة جدًا.

مكان جديد. مكان آخر.

أرخبيل من الأماكن.

* * *

قالت نيمو وهي تتلفح بفراء: "هذه الليلة ستكون ليلة جيدة. أشعر بذلك."

لم تعلق كوندويرامورس، رغم أنها سمعت تأكيدات مشابهة مرات عديدة من قبل. لم تكن هذه المرة الأولى التي تجلسان فيها على الشرفة، والبحيرة تتوهج بغروب الشمس أمامهما، وخلفهما المرآة السحرية والنسيج السحري.

وصلت إليهما لعنات الصياد من البحيرة، متضاعفة بالصدى المتدحرج عبر الماء. كان الصياد غالبًا يستخدم لغة حية للتأكيد على استيائه من فشله في الصيد - الضربات الفاشلة، واللعب، والهبوط، وغيرها من التقنيات التي استخدمها. كان الأمر قد ساء بشكل خاص تلك الليلة، بناءً على قوة وتنوع اللعنات.

قالت نيمو: "الوقت ليس له بداية ولا نهاية. الوقت مثل الأفعى أوروبوروس، التي تعض ذيلها بأسنانها. الأبدية مختبئة في كل لحظة. والأبدية تتكون من اللحظات التي تخلقها. الأبدية هي أرخبيل من اللحظات. يمكنك أن تبحر عبر ذلك الأرخبيل، رغم أن الملاحة صعبة جدًا، ومن الخطر أن تضيع. من الجيد أن يكون لديك منارة يرشدك ضوؤها. من الجيد أن تتمكن من سماع من ينادي وسط الضباب..."

صمتت للحظة.

أضافت قائلة: "كيف تنتهي الأسطورة التي تهمنا؟ يبدو لنا - لكِ ولي - أننا نعرف كيف تنتهي. لكن أوروبوروس لا يزال يمسك ذيله بأسنانه. نعم، كيف تنتهي الأسطورة يُحسم الآن. في هذه اللحظة. سيعتمد نهاية الأسطورة على ما إذا كانت سترى البحارة الضائعين بين أرخبيل اللحظات في ضوء المنارة. إذا سمعت النداء."

سُمع من البحيرة لعنة، رذاذ، وطرق المجاديف في حلقات القارب.

قالت نيمو: "ستكون ليلة جيدة الليلة. الأخيرة قبل الانقلاب الصيفي. القمر يصغر. الشمس تنتقل من البيت الثالث إلى الرابع، إلى برج الجدي-السمكة. أفضل وقت للعرافة... أفضل وقت... ركزي، كوندويرامورس."

أطاعت كوندويرامورس، كما فعلت مرات عديدة من قبل، وركزت، تدخل ببطء في حالة قريبة من النشوة.

قالت نيمو: "ابحثي عنها. إنها في مكان ما بين النجوم، بين ضوء القمر. بين الأماكن. إنها هناك. تنتظر المساعدة. دعينا نساعدها، كوندويرامورس."

* * *

تركيز، قبضتان على صدغيها. طنين في أذنيها، كما لو كان من داخل صدفة بحرية. وميض. ثم فجأة عدمية ناعمة وسوداء.

* * *

كان هناك مكان رأت فيه سيري محارق مشتعلة. كانت النساء المقيدات بالسلاسل إلى الأعمدة يصرخن بجنون وبفزع طالبات الرحمة، والحشد المجتمع حولهن يزأر، يضحك ويرقص. كان هناك مكان حيث كانت مدينة عظيمة تحترق، تزأر بالنار وتنفجر باللهب من أسقف منهارة، وغطى الدخان الأسود السماء بأكملها. كان هناك مكان حيث كانت سحالي ضخمة ثنائية الأرجل تتقاتل، وكان الدم الفاقع يتدفق من تحت الأنياب والمخالب.

كان هناك مكان حيث كانت مئات من طواحين الهواء البيضاء المتشابهة تجلد السماء بأشرعتها النحيلة. كان هناك مكان حيث كانت مئات من الثعابين تصفر وتتلوى على الحجارة، تخدش وتصدر حفيفًا بقشورها.

كان هناك مكان حيث كان هناك ظلام، وفي الظلام أصوات، همسات وفزع.

كانت هناك أماكن أكثر حتى. لكن لم يكن أي منها هو المكان الصحيح.

* * *

أصبح الانتقال من مكان إلى آخر سهلاً بالنسبة لها لدرجة أنها بدأت تجرّب. كانت المستنقعات الدافئة على حافة الغابة المتوحشة التي تطلع فوقها قمران من الأماكن القليلة التي لم تخف منها. استحضرت في ذاكرتها مشهد تلك القمرين وكررت في ذهنها ما تريده، ركزت سيري، شدّت أعصابها، وغاصت في العدمية.

نجحت في المحاولة الثانية.

شجعها ذلك الآن، فقررت أن تجرب تجربة أكثر جرأة. كان واضحًا أنها، إلى جانب الأماكن، كانت تزور أزمنة أيضًا. تحدث فيسجوتا عن ذلك، وكذلك الإلف، وذكرها وحيدو القرن. بل إنها تمكنت - وإن كان دون قصد - من فعل ذلك من قبل! عندما أصيبت في وجهها، هربت من مضطهديها إلى الزمن، قفزت أربعة أيام إلى الأمام، ثم لم يستطع فيسجوتا تفسير تلك الأيام. لم يتطابق شيء بالنسبة له...

ربما كانت تلك فرصتها؟ قفزة في الزمن؟

قررت أن تجرب. المدينة المحترقة، على سبيل المثال، لا يمكن أن تظل تحترق بشكل دائم، أليس كذلك؟ وماذا لو وصلت إلى هناك قبل الحريق؟ أو بعده؟

هبطت تقريبًا في وسط النار، محرقة حواجبها ورموشها، ومثيرة ذعرًا رهيبًا بين ضحايا الحريق الفارين من المدينة المشتعلة.

هربت إلى المستنقعات الودودة. فكرت: "ربما لا يستحق الأمر المخاطرة هكذا، الشيطان وحده يعلم كيف قد ينتهي الأمر. أنا أجيد التعامل مع الأماكن أكثر، لذا سألتزم بالأماكن. لنجرب الوصول إلى أماكن. أماكن مألوفة، أتذكرها جيدًا. وأماكن لديّ ارتباطات سارة بها."

بدأت بمعبد ميليتيلي، متخيلة البوابة، المبنى، الساحات، وورشة العمل، ومهجع المتدربات، وغرف ينيفر التي عاشت فيها. ركزت وقبضتاها على صدغيها، مستحضرة في ذاكرتها وجوه نينيكي، وأورنيد، وكاتجي، وإيولا الثانية.

لم ينتج عن ذلك شيء. وجدت نفسها في مستنقعات مغطاة بالضباب ومليئة بالبعوض، تعج بصفير السلاحف ونقيق الضفادع الصاخب.

حاولت بدورها - دون نتيجة أفضل - كاير مورهن، وجزر سكيليج، والبنك في غورس فيلين حيث كان فابيو ساكس يعمل. لم تجرؤ على محاولة سينترا، عالمة أن المدينة محتلة من قبل النيلفجارديين. بدلاً من ذلك، حاولت فيزيما، المدينة التي كانت تذهب إليها مع ينيفر للتسوق.

* * *

تحرك آرينيوس كرانتز، الحكيم والكيميائي وعالم الفلك والمنجم، بعصبية على مقعد صلب وعينه ملتصقة بعدسة التلسكوب. كان المذنب ذو الحجم والقوة الكبيرين، الذي كان من الممكن رؤيته في السماء لما يقرب من أسبوع، يستحق الملاحظة والبحث. كان آرينيوس كرانتز يعلم أن مذنبًا كهذا، بذيله الأحمر الناري، ينبئ عادةً بحروب عظيمة وحرائق ومذابح. الآن، لنقل الحقيقة، كان المذنب قد تأخر قليلاً في نبوءته، لأن الحرب مع نيلفجارد كانت جارية بالفعل، وكان بإمكان المرء أن يتنبأ بالحرائق والمذابح بدقة، دون تردد، إذ لم يمر يوم دونهما. ومع ذلك، كان آرينيوس كرانتز، الملم بحركات الأجرام السماوية، يأمل في حساب متى، بعد كم سنة أو قرن، سيظهر المذنب مجددًا، معلنًا حربًا أخرى، والتي، من يدري، ربما سيكون من الممكن الاستعداد لها بشكل أفضل من الحالية.

نهض عالم الفلك، دلك مؤخرته، وذهب لتفريغ مثانته. من الشرفة، عبر الدرابزين الصغير. كان دائمًا يتبول مباشرة من الشرفة على فراش الفاوانيا، غير مبالٍ على الإطلاق بتوبيخ الخادمة. كان المرحاض بعيدًا جدًا ببساطة. إضاعة الوقت في المشي مسافة طويلة للتبول كانت تحمل مخاطر فقدان تأملات قيمة، وهو ما لا يستطيع أي عالم تحمله.

وقف عند الدرابزين وفك أزرار سرواله، ناظرًا إلى أضواء فيزيما المنعكسة في البحيرة. تنهد براحة ورفع عينيه إلى السماء.

فكر قائلاً: "نجوم، وكويكبات. عذراء الشتاء، الماعز السبعة، الجرة. وفقًا لبعض النظريات، ليست مجرد أضواء متلألئة صغيرة، بل عوالم. عوالم أخرى. عوالم تفصلنا عنها الزمن والفضاء... أؤمن بعمق،" فكر: "أنه في يوم من الأيام ستكون الرحلات إلى تلك الأماكن الأخرى، إلى تلك الأزمنة والأكوان الأخرى، ممكنة. نعم، ستكون ممكنة بالتأكيد يومًا ما. سيُوجد طريقة. لكن ذلك سيتطلب تفكيرًا جديدًا تمامًا، فكرة جديدة وأصلية ستمزق المعرفة العقلانية الذي تقيدنا اليوم..."

فكر وهو يقفز: "آه، لو فقط يمكن تحقيق ذلك... لو يمكن أن تأتي الإلهام. لو كان هناك فرصة واحدة، فريدة..."

ومض شيء تحت الشرفة، انشقت ظلمة الليل كانفجار نجمي، وخرج حصان من الوميض. مع راكب على ظهره. كانت الراكبة فتاة.

قالت الفتاة وهي تحييه بأدب: "مساء الخير. أعتذر إذا كان الوقت غير مناسب. هل يمكن للمرء أن يعرف أي مكان هذا؟ وأي زمان؟"

ابتلع آرينيوس كرانتز ريقه، فتح فمه وتمتم.

كررت الفتاة بصبر ووضوح قائلة: "المكان. الزمان."

تمتم آرينيوس قائلاً: "أممم... إيبي... أممم..."

صهل الحصان. تنهدت الفتاة.

قالت: "حسنًا، يبدو أن هذا مكان خاطئ مرة أخرى. المكان الخطأ، الزمان الخطأ. لكن أجبني، يا رجل! بكلمة واحدة مفهومة على الأقل. فلا يمكن أن أكون في عالم نسي فيه الناس الكلام الواضح!"

تمتم آرينيوس: "أممم..."

قالت الفتاة: "كلمة صغيرة واحدة..."

قال آرينيوس: "أممم..."

قالت الفتاة: "إذن، تبًا لك، أيها العجوز الأحمق."

ثم اختفت. مع الحصان.

أغلق آرينيوس كرانتز فمه. وقف لفترة عند الدرابزين، محدقًا في الليل، إلى البحيرة وأضواء فيزيما البعيدة المنعكسة فيها. ثم أزرر سرواله وعاد إلى تلسكوبه.

ومض المذنب بسرعة عبر السماء. كان يجب مراقبته، عدم السماح لعدسة العين والعين بفقدانه من الرؤية. تتبعه حتى يختفي في هاوية الكون. كانت فرصة، وعالم لا يمكنه أن يضيع مثل هذه الفرصة.

* * *

فكرت سيري وهي تحدق في القمرين فوق المستنقع، اللذين أصبحا الآن مرئيين ك هلالين، أحدهما صغير والآخر كبير وأقل هلالية: "ربما يمكنني المحاولة من اتجاه آخر. ربما لا أتخيل الأماكن أو الوجوه، بل أرغب بقوة... أتمنى شيئًا بشدة، بشدة حقًا، من أعماق بطني... ما الضرر في المحاولة؟"

فكرت قائلة: "جيرالت. أريد الذهاب إلى جيرالت. أريد بشدة الذهاب إلى جيرالت."

* * *

صرخت سيري قائلة: "أوه، لا. أين بحق الجحيم انتهى بي المطاف الآن؟"

أكدت كيلبي أنها تفكر في الشيء نفسه بصهيلها، نفثت بخارًا من منخريها وكشطت حوافرها المغطاة بالثلج.

صفّرت العاصفة الثلجية وتأوهت، تعمي عينيها. وخزتها رقاقات الثلج الحادة في خديها ويديها. اخترق البرد عظامها، عضّ مفاصلها كالذئب. ارتجفت سيري، منحنية كتفيها ومخفية رقبتها في الحماية الهزيلة غير الموجودة لياقتها المرفوعة.

إلى اليسار واليمين، ارتفعت قمم مهيبة ومخيفة، نصب رمادية متجمدة اختفت قممها في مكان ما عاليًا في الضباب والعاصفة الثلجية. تدفق نهر سريع، منتفخ جدًا، كثيف بالجليد الرقيق وكتل الثلج، في قاع الوادي. كان كل شيء حولها أبيض. وباردًا.

فكرت سيري وهي تشعر بتجمد داخل أنفها: "هكذا إذن عن قدراتي. هكذا عن قوتي. يا لها من سيدة عوالم رائعة، حسنًا، حسنًا. أردت الذهاب إلى جيرالت، وانتهى بي الأمر في وسط برية ملعونة، شتاء وعاصفة ثلجية."

قالت وهي تمسك اللجام بأصابع مشلولة من الصقيع: "هيا، كيلبي، تحركي، وإلا ستتجمدين! تقدمي، تقدمي، يا فتاة! أعلم أن هذا ليس المكان المفترض، سأقوم بإخراجنا من هنا قريبًا، سنعود قريبًا إلى مستنقعنا الدافئ. لكن يجب أن أركز، وهذا قد يستغرق بعض الوقت. لذا تحركي! هيا، اركبي!"

نفثت كيلبي بخارًا من منخريها.

هبت الريح القوية. التصق الثلج بوجهها، ذاب على رموشها. زأرت العاصفة الثلجية الباردة وصفّرت.

* * *

صاحت أنغوليم وهي تتغلب على صوت العاصفة الثلجية قائلة: "انظروا! انظروا هناك! هناك آثار. لقد ركب أحدهم في تلك الجهة!"

سأل جيرالت وهو يفك الوشاح الذي لفه حول رأسه لحماية أذنيه من لسعة البرد: "ماذا تقولين؟ ماذا تقولين، يا أنغوليم؟"

أجابت أنغوليم قائلة: "آثار! بصمات حوافر!"

سأل كاهير وهو يضطر للصراخ أيضًا: "حصان، هنا؟"، فقد اشتدت العاصفة الثلجية، وبدا أن نهر سانسريتور يهدر ويزأر بصوت أعلى. "كيف يمكن لحصان أن يصل إلى هنا؟"

قالت أنغوليم: "انظروا بأنفسكم!"

علق مصاص الدماء، وهو العضو الوحيد في الرفقة الذي لم يظهر عليه أعراض التجمد التام، لأنه كان، لأسباب واضحة، غير حساس لدرجات الحرارة المنخفضة كما للمرتفعة، قائلاً: "بالفعل. آثار حوافر. لكن هل هي لحصان؟"

قال كاهير وهو يفرك خديه وأنفه بقوة: "من المستحيل أن يكون حصانًا. ليس في وسط العدم. لا بد أن الآثار تُركت من حيوان بري. على الأرجح كبش جبلي."

صاحت أنغوليم قائلة: "كبش جبلي! تعال وانظر بنفسك! عندما أقول حصان، فأنا أعني حصان!"

فضلت ميلفا، كالعادة، الممارسة على النظرية. نزلت عن حصانها وانحنت، دافعة قبعتها من فرو الثعلب إلى الخلف على رأسها.

قالت بعد لحظة: "الفتاة محقة. إنه حصان. أعتقد أنه حتى مزود بنعل، لكن من الصعب التأكد، فقد غطت العاصفة الثلجية الآثار. لقد ركب في تلك الجهة، إلى ذلك الوادي."

ضربت أنغوليم ذراعيها ببعضهما بسرعة وقالت: "ها! كنت أعلم! شخص ما يعيش هنا! في الجوار! لنتبع الأثر، ربما نجد كوخًا دافئًا أو شيئًا آخر؟ ربما يسمحون لنا بالتدفئة؟ ربما يعطوننا شيئًا؟"

قال كاهير بسخرية: "بالتأكيد. على الأرجح سهم قوس صغير."

قرر ريجيس بنبرته العالمة جدًا قائلاً: "سيكون من الأكثر حكمة الالتزام بخطتنا والنهر. فلن نكون عرضة لخطر الضياع. وكان من المفترض أن يكون هناك مصنع لصيادي الفرو أسفل نهر سانسريتور، هناك احتمال أكبر أن يستضيفونا هناك."

سأل أحدهم: "جيرالت؟ ماذا تقول؟"

لم يقل جيرالت شيئًا، وثبت عينيه على رقاقات الثلج المدورة في العاصفة الثلجية.

قرر أخيرًا قائلاً: "سنتبع الآثار."

بدأ مصاص الدماء قائلاً: "في الحقيقة..."

قاطعه جيرالت فورًا قائلاً: "اتبعوا آثار الحوافر! اركبوا!"

حفزوا خيولهم، لكنهم لم يقطعوا مسافة طويلة. لم يتقدموا أكثر من ربع فرسخ داخل الوادي.

أعلنت أنغوليم حقيقة وهي تنظر إلى الثلج الناعم والبكر قائلة: "هذا كل شيء. الآن تراه، والآن لا. مثل سيرك الإلفيين".

استدار كاهير في السرج وسأل: "ماذا الآن، يا صائد الوحوش؟ الآثار اختفت. لقد غطتها العاصفة".

ردت ميلفا قائلة: "لم تغطِها. العاصفة لا تصل إلى هنا، في الوادي".

سأل كاهير مرة أخرى: "إذن ماذا حدث للحصان؟"

هزت الرامية كتفيها، وضمّت نفسها في السرج، وسحبَت رأسها بين كتفيها.

استمر كاهير في السؤال قائلاً: "أين ذهب ذلك الحصان؟ هل اختفى؟ تبخّر؟ أم ربما تخيلناه؟ جيرالت؟ ماذا تقول؟"

عواء الريح ارتفع فوق الوادي، يرفع الثلج ويدور به.

سأل مصاص الدماء وهو يحدق في جيرالت بتركيز: "لماذا أمرتنا بمتابعة تلك الآثار، يا جيرالت؟"

أجاب جيرالت بعد لحظة قائلاً: "لا أعرف. شعرت بشيء... شيء لمسني. لا يهم ما هو. كنت على حق، يا ريجيس. لنعود إلى نهر سانسريتور ونتبع مجراه دون أي انحرافات أو مغامرات قد تنتهي بشكل سيء. وفقًا لما قاله رينارت، الشتاء الحقيقي والطقس السيئ يبدأ فقط في ممر مالهور. عندما نصل هناك، يجب أن نكون في حالة جيدة. لا تقفوا هكذا، سنعود أدراجنا".

سأل كاهير قائلاً: "بدون أن نكتشف ما حدث لذلك الحصان الغريب؟"

أجاب جيرالت بمرارة قائلاً: "ما الذي يمكن تفسيره؟ الآثار مُحيت، وهذا كل شيء. وعلى أي حال، ربما كان حقًا كبشًا جبليًا؟"

نظرت إليه ميلفا بطريقة غريبة، لكنها امتنعت عن التعليق.

عندما عادوا إلى النهر، لم تعد الآثار الغامضة موجودة أيضًا، فقد غطتها الثلوج الرطبة. كانت قطع الجليف العائمة تتحرك بكثافة، وتتجول وتتدحرج في تيار نهر سانسريتور الرمادي الفضي.

قالت أنغوليم بصوت عالٍ: "سأخبركم بشيء، لكن وعدوني بأنكم لن تضحكوا".

استداروا نحوها. في قبعتها الصوفية ذات الكروشيت المتدلية فوق عينيها، مع وجنتين وأنف محمرتين من البرد، ومرتدية معطفًا من جلد الخراف بلا شكل، بدت الفتاة مضحكَة، تشبه تمامًا كوبولد صغير وممتلئ الجسم.

قالت أنغوليم: "سأخبركم شيئًا عن تلك الآثار. عندما كنت مع نايتينغيل، في الحانة، قالوا إنه خلال الشتاء يركب ملك الجبل، زعيم شياطين الجليد، على حصان مسحور في الممرات. مواجهته تعني الموت المؤكد. ماذا تقول في هذا، يا جيرالت؟ هل من الممكن أن..."

قاطعها جيرالت قائلاً: "أي شيء. كل شيء ممكن. هيا بنا، أيها الرفاق. أمامنا ممر مالهور".

ضرب الثلج والرياح الجليدية، وهبت العاصفة، وصافرت وعَوَت شياطين الجليد وسط الزوبعة.

* * *

إلا أن المستنقع الذي هبطت عليه لم يكن هو المستنقع الذي تعرفه، أدركت سيري فورًا. لم يكن عليها حتى أن تنتظر حتى المساء، كانت متأكدة من أنها لن ترى القمرين.

الغابة التي امتطت كِيلبي على طول حافتها كانت برية وغير قابلة للولوج مثل الأخرى، لكن يمكن رؤية الفروقات. هنا، على سبيل المثال، كان هناك المزيد من أشجار البتولا وأقل من الزان. لم تكن قد سمعت أو رأت أي طيور هناك، بينما هنا كانت الطيور كثيرة. كان هناك فقط الرمل والطحالب بين مجموعات الخلنج؛ أما هنا فكان هناك سجاد كامل من السرخس الأخضر. حتى الجراد الذي كان يجري من تحت حوافر كِيلبي كان مختلفًا بطريقة ما. بطريقة ما مألوفًا. ثم...

بدأ قلبها ينبض بقوة أكبر. رأت طريقًا، مغطى ومُهمَلًا. يؤدي إلى داخل الغابة.

نظرت سيري حولها بعناية وتأكدت أن الطريق الغريب لا يستمر إلى أبعد من ذلك، وأنه ينتهي هنا. أنه لا يؤدي إلى الغابة، بل يأتي منها أو يمر عبرها. دون تفكير طويل، دفعت جانبَي الفرس بكعبيها وركضت بين الأشجار. "سوف أتجه جنوبًا"، فكرت. "إذا لم أعثر على أي شيء في الجنوب، سأعود وأتجه في الاتجاه المعاكس، بعيدًا عن المستنقع".

أدركت سيري على الفور أن المستنقع الذي هبطت عليه لم يكن هو المستنقع الذي تعرفه. لم يكن عليها حتى أن تنتظر حتى المساء، كانت متأكدة من أنها لن ترى القمرين.

الغابة التي امتطت كِيلبي على طول حافتها كانت برية وغير قابلة للولوج مثل الأخرى، لكن يمكن رؤية الفروقات. هنا، على سبيل المثال، كان هناك المزيد من أشجار البتولا وأقل من الزان. لم تكن قد سمعت أو رأت أي طيور هناك، بينما هنا كانت الطيور كثيرة. كان هناك فقط الرمل والطحالب بين مجموعات الخلنج؛ أما هنا فكان هناك سجاد كامل من السرخس الأخضر. حتى الجراد الذي كان يجري من تحت حوافر كِيلبي كان مختلفًا بطريقة ما. بطريقة ما مألوفًا. ثم...

بدأ قلبها ينبض بقوة أكبر. رأت طريقًا، مغطى ومُهمَلًا. يؤدي إلى داخل الغابة.

نظرت سيري حولها بعناية وتأكدت أن الطريق الغريب لا يستمر إلى أبعد من ذلك، وأنه ينتهي هنا. أنه لا يؤدي إلى الغابة، بل يأتي منها أو يمر عبرها. دون تفكير طويل، دفعت جانبَي الفرس بكعبيها وركضت بين الأشجار. فكرت: "سوف أتجه جنوبًا. إذا لم أعثر على أي شيء في الجنوب، سأعود وأتجه في الاتجاه المعاكس، بعيدًا عن المستنقع".

تحركت تحت ظلال الأغصان وهي تنظر حولها بانتباه، تحاول بجهد ألا تغفل أي شيء مهم. وبسبب ذلك، لم تغفل رؤية رجل عجوز يطل من خلف شجرة بلوط.

كان الرجل العجوز قصير القامة، لكنه لم يكن منحني الظهر على الإطلاق، وكان يرتدي قميصًا من الكتان وسراويل مصنوعة من نفس المادة. على قدميه كان يرتدي خفافًا ضخمًا ومثيرًا للسخرية مصنوعًا من لحاء الشجر. في يده اليمنى كان يحمل عصاً ملتوية، وفي اليسرى سلة من الخوص. لم تستطع سيري رؤية وجهه بوضوح، لأنه كان مخفيًا تحت حافة قبعة قش مهترئة ومنحنية، والتي بدت وكأنها تسقط على وجهه، ومن تحتها برّ أنف محروق من الشمس وذقن رمادية متشابكة.

قالت سيري: "لا تخشَ. لن أؤذيك".

حول الرجل ذو اللحية الرمادية وزنه من قدم إلى أخرى وأزال قبعته. كان لديه وجه مستدير مغطى ببقع بنية، أحمر اللون وليس متجعدًا كثيرًا، مع حاجبين نحيلين، وذقن صغيرة جدًا ومنسحبة إلى الخلف. كان شعره الرمادي الطويل مربوطًا في ذيل حصان عند قفا رقبته، لكن الجزء العلوي من رأسه كان أصلع تمامًا، أصفر ولمع كما لو كان قرعًا.

رأت سيري أنه ينظر إلى سيفها، إلى المقبض الذي يبرز فوق كتفها.

كررت قائلاً: "لا تخشَ."

قال الرجل العجوز وهو يهمهم قليلاً: "ها، ها! يا فتاة صغيرة. جد الغابة ليس خائفًا. ليس من النوع الخائف، أبدًا."

ابتسم. كانت لديه أسنان كبيرة وبارزة جدًا بسبب عضة غير منتظمة وفك منسحب. لهذا السبب كان يهمهم كثيرًا.

كرر قائلاً: "جد الغابة ليس خائفًا من المسافرين، ولا حتى من اللصوص. جد الغابة فقير، هو شيء ضعيف. جد الغابة سلمي، لا يزعج أحدًا. ها!"

ابتسم مرة أخرى. عندما ابتسم، بدا وكأنه مجرد أسنان أمامية.

سألها: "وأنتِ يا فتاة صغيرة، ألستِ خائفة من جد الغابة؟"

ضحكت سيري بسخرية وقالت: "بالطبع لا. لستُ من النوع الذي يخاف."

رد العجوز قائلاً: "ها، ها، ها! يا للعجب!"

خطا نحوها متكئًا على عصاه. نفخت كِيلبي أنفها. شدت سيري على زمام الفرس.

حذرت قائلة: "هي لا تحب الغرباء. وهي تعض أيضًا."

رد العجوز قائلاً: "ها، ها! جد الغابة يعرف. فرس شريرة وغير مطيعة! من أين أتيتِ يا آنسة؟ وإلى أين تتجهين، إذا سمحتِ لي بالسؤال؟"

أجابت سيري: "إنها قصة طويلة. إلى أين يؤدي هذا الطريق؟"

سأل العجوز: "ألستِ تعرفين ذلك يا آنسة؟"

ردت سيري بحدة: "لا تجب عن الأسئلة بأسئلة، إن لم تمانع. إلى أين سيأخذني هذا الطريق؟ وما هذا المكان على أي حال؟ وفي أي... وقت نحن؟"

أخرج العجوز أسنانه مرة أخرى، محركًا إياها مثل القندس.

همهم قائلاً: "ها، ها! يا للعجب. ما الوقت تسألين عنه يا آنسة؟ أوه، أرى أنكِ قد جئتِ من بعيد، من بعيد إلى جد الغابة يا آنسة!"

أومأت سيري بلا مبالاة قائلة: "من بعيد جدًا بالفعل. من عوالم وأزمنة أخرى..."

أكمل العجوز جملتها قائلاً: "وجد الغابة يعرف. جد الغابة خمن."

سألته سيري بحماس: "ماذا؟ ماذا خمنت؟ ماذا تعرف؟"

أجاب العجوز: "جد الغابة يعرف الكثير."

أمرته سيري: "تكلم!"

أخرج العجوز أسنانه مرة أخرى وقال: "هل تشعرين بالجوع يا آنسة؟ العطش؟ التعب؟ إذا أردتِ، سآخذكِ إلى كوخ جد الغابة، أطعمكِ، أسقيكِ. سأستقبلكِ."

لقد مر وقت طويل منذ أن فكرت سيري في الراحة أو الطعام بسبب ضيق الوقت وعدم الاستقرار. الآن، كلمات الرجل العجوز الغريب شدّت معدتها، وعقدت أحشاؤها، وأخرست لسانها. كان العجوز يراقبها من تحت حافة قبعته.

همهم قائلاً: "جد الغابة لديه لحم في كوخه. لديه ماء عذب. ولديه تبن للفرس، الفرس الشرير الذي أراد أن يعض جد الغابة الطيب! ها! كل شيء موجود في كوخ جد الغابة. ويمكننا أن نتحدث عن أماكن وأزمنة أخرى... ليس بعيدًا على الإطلاق، أبدًا. هل ستقبل الفتاة المسافرة الدخول؟ أم ستزدري زيارة إلى جد الغابة الفقير؟"

ابتلعت سيري ريقها وقالت: "ادخل بنا."

استدار جد الغابة وتوجه عبر طريق بالكاد مرئي بين الأشجار الكثيفة، وهو يقيس الطريق بخطوات طاقته وعصاه. اتبعته سيري وهي تنحني تحت الأغصان وتتحكم بكِيلبي. كانت الفرس بالفعل مصرة على عض العجوز، أو على الأقل أكل قبعته.

وعلى الرغم من تأكيده، لم يكن المكان قريبًا على الإطلاق. عندما وصلوا إلى ساحة صغيرة، كان الشمس تقريبًا في ذروتها.

كوخ جد الغابة كوخًا ريفيًا خلابًا على دعامات، مع سقف تم إصلاحه عدة مرات باستخدام أي مواد كانت متاحة. كانت جدران الكوخ مغطاة بجلود تشبه جلد الخنزير. أمام الكوخ كان هناك بناء خشبي على شكل مشنقة، وطاولة منخفضة وكوز خشبي مع فأس مغروس فيه. خلف الكوخ كان هناك مدفأة مصنوعة من الحجارة والطين مع قدر كبير أسود اللون موضوع عليها.

أشار العجوز بعصاه قائلاً بفخر: "هذا هو منزل جد الغابة. هنا يعيش جد الغابة. هنا ينام. هنا يطبخ الطعام، إذا كان لديه ما يطبخه. إن الحصول على الطعام في الغابة أمر صعب، صعب للغاية. هل تحب الفتاة المسافرة الشعير اللؤلؤي؟"

أجابت سيري وهي تبتلع ريقها مرة أخرى: "تحبه. تحب كل شيء."

سألها: "مع القليل من اللحم؟ مع بعض الدهن؟ مع القشور؟"

أومأت برأسها قائلة: "مهم."

قال جد الغابة وهو ينظر إليها بتقدير: "ولا يبدو أنكِ قد تذوقت اللحم والقشور مؤخرًا كثيرًا، أبدًا. أنتِ نحيفة يا آنسة، نحيفة. جلد وعظام! ها، ها! وما هذا؟ خلف ظهرك يا آنسة؟"

نظرت سيري حولها، وقد وقعت في أقدم وأبسط خدعة في الكتاب. ضربة قوية من العصا الملتوية أصابتها مباشرة في الصدغ. ساعدها رد فعلها السريع فقط في رفع ذراعها، حيث خففت يدها من قوة

الضربة التي كانت كفيلة بأن تسحق جمجمتها مثل البيضة. لكن على أي حال، انهارت سيري على الأرض مذهولة، مرتبكة وفاقدة تمامًا للتوجيه.

ابتسم جد الغابة بخبث وانقضّ عليها، ثم ضربها مرة أخرى بالعصا. تمكنت سيري مجددًا من حماية رأسها بيديها، لكن النتيجة كانت أن كليهما انهارا بلا حراك. اليد اليسرى كانت مصابة بالتأكيد، والأرجح أن عظام المشط قد تحطمت.

انطلق العجوز للأمام وهاجمها من الجانب الآخر، واضعًا عصاه في بطنها. صرخت وهي تنكمش على نفسها ككرة. ثم انقضّ عليها كالصقر، قلبها على وجهها وأطبق عليها بركبتيه. اشتدت سيري وحاولت ركله بقوة لكنها أخطأت، ثم وجهت له ضربة قوية بمرفقها، وهذه المرة أصابت الهدف. زأر العجوز بغضب وضربها بقبضته في مؤخرة رأسها بقوة كبيرة لدرجة أنها سقطت بوجهها في الرمل. أمسك بشعرها من قفا رقبتها وضغط فمها وأنفها على الأرض. شعرت بأنها تختنق. ركع العجوز عليها، وما زال يضغط رأسها على الأرض، وانتزع السيف من ظهرها وألقى به جانبًا. ثم بدأ يعبث بسرواله. وجد المشبك وفكه.

صرخت سيري وهي تختنق وتلفظ الرمل: "ها، ها"، همهم وهو يلهث. "وهل حصل جد الغابة على شيء لطيف! أوه، أوه، لم يكن لدى جد الغابة واحدة مثل هذه منذ زمن طويل".

صرخت سيري عند شعورها بلمسة يده الجافة والمخالب المخيفة وهي تملأ فمها بالرمل وأوراق الصنوبر.

"استريحي يا آنسة"، سمعته يسيل لعابه وهو يعجن مؤخرتها. "جد الغابة ليس شابًا كما كان، لا يحدث ذلك سريعًا... لكن لا تخافي، جد الغابة سيقوم بما يجب القيام به. ها، ها! وبعد ذلك سيأكل جد الغابة حتى يشبع، ها، حتى يشبع! ببذخ..."

توقف فجأة، وزأر وصرخ.

شعرت سيري بتخفيف قبضته، فركلت وقفزت ووقفت كنابض. وشاهدت ما حدث.

كِيلبي، التي اقتربت بصمت، أمسكت بجد الغابة من ذيله الطويل بأسنانها وكادت أن ترفعه في الهواء. صرخ العجوز وتملص، ركل وتحمّل، وأخيرًا تمكن من التحرر، تاركًا خصلة الشعر الرمادية الطويلة في فم الفرس. حاول الإمساك بعصاه، لكن سيري ركلتها بعيدًا عن متناول يديه. كانت تنوي أن تركله حيث

يستحق، لكن حركاتها كانت مقيدة بسبب سروالها الذي كان قد انزلق إلى منتصف فخذها. استغل العجوز الوقت الذي استغرقته في سحبه بيد واحدة. كان بجانب الكوز بقفزات قليلة، وأخرج الفأس منه، وطارد كِيلبي بحركة محددة. زأر، أظهر أسنانه المروعة، وانطلق نحو سيري وهو يرفع الفأس للضرب.

"جد الغابة سيغتصبك يا آنسة!" صرخ بجنون. "حتى لو اضطر جد الغابة إلى تقطيعك إلى قطع. لا يهمه إن كنت كاملة أو مقطعة إلى أجزاء".

ظنت أنه سيكون من السهل التعامل معه. بعد كل شيء، هو مجرد شيخ مسن وضعيف.

كانت مخطئة جدًا.

على الرغم من نعاله الضخمة، قفز كدوامة، ترنح كأرنب، وهزّ الفأس ذات المقبض المنحني كجزار. بعد أن مرّت الشفرة المظلمة والحادة بالقرب منها عدة مرات، أدركت سيري أن الشيء الوحيد الذي يمكن أن ينقذها هو الهرب.

لكن الصدفة أنقذتها. عندما تراجعت، اصطدمت قدمها بسيفها. التقطته بسرعة البرق.

قالت وهي تلهث وتسحب "السنونو" من غمدها بصوت هسهسة: "أسقط الفأس. أسقط الفأس على الأرض، أيها العجوز الفاسق. ثم، من يدري، ربما أتركك حيًا. ولن أقطعك إلى أشلاء."

توقف. كان يلهث ويصفر، وكانت لحيته مغطاة باللعاب بشكل مقزز. لكنه لم يسقط سلاحه. رأت في عينيه غضبًا وحشيًا.

قالت وهي تلوح بسيفها في حركة دائرية هسهسة: "حسنًا جدًا! أسعدني اليوم!"

نظر إليها للحظة، كما لو كان لا يفهم، ثم كشر عن أسنانه، حدّق، زأر واندفع نحوها. كانت سيري قد سئمت من المزاح. تفادتها بدوران نصفي سريع وقطعت من الأسفل عبر ذراعيه المرفوعتين، فوق المرفقين. أطلق الجد الفأس من يديه الملطختين بالدم، لكنه قفز نحوها مجددًا على الفور. قفزت جانبًا وقطعته في قفاه. كان ذلك أكثر من رحمة منه ضرورة؛ كان سينزف حتى الموت قريبًا من شريانيه العضديين المقطوعين.

رقد، يكافح بشكل لا يصدق لعدم التخلي عن حياته، لا يزال يتلوى كدودة رغم فقراته المشقوقة. وقفت سيري فوقه. كانت آخر حبات الرمل لا تزال تطحن في أسنانها. بصقتها مباشرة على ظهره. كان قد مات قبل أن تنتهي من البصق.

كانت البنية الغريبة أمام الكوخ، التي تشبه مشنقة، مزودة بخطافات حديدية ونظام بكرة وحبل. كانت الطاولة وكتلة التقطيع ناعمتين من كثرة الاستخدام، لزجتين بالدهن، وتنبعث منهما رائحة كريهة بشكل فظيع.

كمذبح.

في المطبخ، وجدت سيري قدرًا من الشعير اللؤلؤي الذي عرضه عليها، يسبح في الدهن، مملوءًا بقطع اللحم والفطر. كانت جائعة جدًا، لكن شيئًا ما أخبرها ألا تأكل منه. اكتفت بشرب بعض الماء من دلو خشبي وتناولت تفاحة صغيرة مجعدة.

خلف الكوخ، وجدت قبوًا بدرجات، عميقًا وباردًا. في القبو، وقفت أواني من شحم الخنزير. كان هناك شيء معلق من السقف. بقايا جانب من اللحم.

ركضت خارج القبو، تتعثر على الدرجات، كما لو كانت الشياطين تطاردها. ثم سقطت في بعض نباتات القراص، نهضت، وركضت متعثرة نحو الكوخ، ممسكة بكلتا يديها بأحد الأعمدة الداعمة له. على الرغم من أن معدتها كانت شبه خاوية، تقيأت بعنف شديد ولوقت طويل جدًا.

كان اللحم المعلق في القبو يعود لطفل.

* * *

بقيادة الرائحة القوية، وجدت سيري تجويفًا مملوءًا بالماء في الغابة، كان الجد الغابي الحكيم يرمي فيه بقايا ما لا يمكن أكله. وهي تنظر إلى الجماجم والأضلاع وأحواض الحوض البارزة من الوحل، أدركت سيري برعب أنها على قيد الحياة فقط بفضل شهوانية العجوز البشعة، فقط بسبب شعوره برغبة في اللهو. لو كان جوعه أقوى من رغباته الجنسية البغيضة، لكان قد ضربها خلسة بالفأس، وليس بالعصا. معلقة من ساقيها على المشنقة الخشبية، كان سيشق بطنها ويسلخ جلدها، ينظفها ويقسمها على الطاولة، يقطعها على كتلة التقطيع...

على الرغم من أنها كانت غير مستقرة على قدميها من الدوخة، وكانت يدها اليسرى متورمة والألم يخترقها، سحبت الجثة إلى التجويف في الغابة ودفعته إلى الوحل النتن، بين عظام ضحاياه. عادت، غطت مدخل القبو بالأغصان والعيدان، والفناء والمزرعة الصغيرة بأكملها بالحطب. ثم أشعلت النار في كل شيء بعناية من الجوانب الأربعة.

لم تركب بعيدًا إلا بعد أن اشتعلت النار جيدًا، عندما كانت النيران تزأر وتهدر بشكل مرضٍ. عندما كانت متأكدة أن لا هطول مطر سيؤثر على محو كل أثر لذلك المكان.

* * *

لم تكن يدها في حالة سيئة للغاية. كانت متورمة، بالفعل، وتؤلمها بشدة، لكن من المحتمل ألا تكون أي عظام مكسورة.

مع اقتراب المساء، طلع قمر واحد فقط بالفعل. لكن، بطريقة ما، وبشكل غريب، لم تشعر سيري برغبة في اعتبار هذا العالم عالمها.

ولا البقاء فيه أكثر مما يجب.

* * *

تمتمتْ نيمويه: " الليلة ستكون ليلةً جيدة، أستشعر ذلك."

تنهدتْ كوندويرامورس.

اشتعل الأفق بالذهبي والأحمر. وامتدتْ شريطةٌ من اللون ذاته على البحيرة، من الأفق إلى الجزيرة.

جلستا على كراسي مريحة في الشرفة، خلفهما المرآة ذات الإطار الأبنوسي والنسيج المطرز الذي يصور القلعة القديمة متعانقةً جدارًا صخريًا، تتأملان نفسيهما في بحيرة الجبل.

فكرتْ كوندويرامورس: "كم من الأمسيات، كم من الأمسيات قضيناها هكذا حتى يهبط الغسق، ثم في الظلام؟ دون أي نتيجة؟ مجرد حديث؟"

بردَ الجو. غطّت الساحرة والمبتدئة نفسيهما بالفراء. سمعَتا من البحيرة صريرَ مجاديف قارب الصياد، لكنهما لم ترياه–كان محجوبًا بلمعان الغروب.

استأنفتْ كوندويرامورس حديثهما المنقطع وقالت: "كثيرًا ما أحلم أنني في أرضٍ جليدية قاحلة، لا شيء فيها سوى بياض الثلج وكتَل الجليد، تلتمع تحت الشمس. وثمة صمت، صمتٌ يرنّ في الأذنين. صمتٌ غير طبيعي. صمت الموت."

أومأتْ نيمويه برأسها، كأنما تشير إلى أنها تفهم ما تعنيه. لكنها لم تُعلّق.

أكملتْ المبتدئة: "فجأة، أشعر أنني أسمع شيئًا. أحسّ الجليد يرتجف تحت قدميَّ. أركع، أزيح الثلج جانبًا. الجليد شفافٌ كالزجاج، كما في بعض البحيرات الجبلية الصافية، حيث تُرى الحصى في القاع والأسماك تسبح عبر طبقةٍ يبلغ سمكها ياردتين. في حلمي، أرى أيضًا، رغم أن طبقة الجليد تمتد لعشرات أو ربما مئات الياردات. لا يمنعني ذلك من رؤية... وسماع... أناسٍ يستغيثون. في القاع، عميقًا تحت الجليد... عالمٌ متجمد."

لم تُعلّق نيمويه هذه المرة أيضًا.

أضافتْ المبتدئة: "بالطبع، أعرف مصدر هذا الحلم. نبوءة إثلين، الصقيع الأبيض الشهير، زمن الجليد وعاصفة الذئب. العالم يموت وسط الثلوج والجليد، لكي، كما تقول النبوءة، يولد من جديد بعد قرون. نقيًا وأفضل."

قالتْ نيمويه بهدوء: "أؤمن بشدة أن العالم سيولد من جديد. أما إن كان إلى شيءٍ أفضل، فلستُ متأكدة تمامًا."

قالتْ كوندويرامورس: "أعذريني، ماذا قلتي؟"
ردَّتْ نيمويه: "سمعتِني".
تساءلتْ كوندويرامورس: "ألم يكن ماسمعته خطأً؟ نيمويه، لقد تُنبئ بالصقيع الأبيض آلاف المرات. وفي كل مرة يكون الشتاء قارسًا يُقال إنه قد أتى.

حتى الأطفال الآن لا يصدقون أن أي شتاء قادر على تهديد العالم".

قالتْ نيمويه: "حسنًا، حسنًا. الأطفال لا يصدقون. لكن أنا، تخيّلي فقط، أفعل".
سألتْ كوندويرامورس بسخرية خفيفة: "بناءً على أي مقدمات عقلانية؟ أم فقط على إيمان صوفي بعصمة تنبؤات الجان؟"

صمتتْ نيمويه طويلاً، وهي تنقّب في الفراء الذي تتدثر به.

بدأتْ أخيرًا بنبرةٍ تحمل شيئًا من الوعظ وقالت: "الأرض كروية الشكل، وتدور حول الشمس. هل تتفقين مع ذلك؟ أم أنكِ تنتمين إلى إحدى تلك الطوائف الرائجة التي تحاول إثبات شيءٍ مغاير تمامًا؟"

ردَّتْ كوندويرامورس: "لا، لستُ كذلك. أقبل المركزية الشمسية وأتفق مع نظرية كروية الأرض".

قالتْ نيمويه: "ممتاز. إذن، تتفقين بالتأكيد مع أن المحور العمودي للكرة الأرضية مائل بزاوية، وأن مسار الأرض حول الشمس ليس دائرةً منتظمة، بل بيضاوي الشكل؟"

أجابتْ كوندويرامورس: "تعلمتُ عن ذلك. لكنني لستُ عالمة فلك، لذا..."

قاطعتْها نيمويه: "لا حاجة أن تكوني عالمة فلك، يكفي أن تفكري بعقلانية. تدور الأرض حول الشمس في مسارٍ بيضاوي الشكل، وبالتالي فإنها خلال دورانها تكون أحيانًا أقرب وأحيانًا أبعد. كلما ابتعدت الأرض عن الشمس، ازداد البرد عليها؛ هذا يجب أن يكون منطقيًا. وكلما قلّ انحراف محور العالم عن العمودية، قلّ الضوء الذي يصل إلى النصف الشمالي من الكرة".

أقرَّتْ كوندويرامورس: "هذا منطقي أيضًا".

أكملتْ نيمويه: "هذان العاملان، أعني بيضاوية المسار ودرجة ميلان محور العالم، عرضةٌ للتغيرات. تغيراتٌ دورية، كما يُمكن ملاحظتها. قد يصبح البيضاوي أكثر أو أقل استطالة، أي مشدودًا وممدودًا، وقد يكون محور الأرض أكثر أو أقل ميلانًا. الظروف المناخية القصوى تنجم عن تزامن الظاهرتين: أقصى استطالة للبيضاوي وانحرافٌ طفيف فقط للمحور عن العمودية. حين تدور الأرض حول الشمس، تتلقى ضوءًا وحرارةً قليلين جدًا عند نقطة الأوج، وتتضرر المناطق القطبية إضافيًا بسبب زاوية الميل غير المواتية للمحور".

قالتْ كوندويرامورس: "طبعًا."

أكملتْ نيمويه: "قلة الضوء في النصف الشمالي تعني أن الثلج يبقى أطول. الثلج الأبيض اللامع يعكس أشعة الشمس، فتنخفض الحرارة أكثر. يستمر الثلج بالبقاء أطول بسبب ذلك، لا يذوب على الإطلاق في مساحاتٍ أكبر فأكبر، أو يذوب لوقتٍ قصير فقط. كلما زاد الثلج وطال بقاؤه، اتسعت السطحية البيضاء اللامعة العاكسة..."

ردَّتْ كوندويرامورس: "أفهم."

أضافتْ نيمويه: "يستمر الثلج بالتساقط، يتساقط ويتساقط، ويزداد أكثر فأكثر. فلاحظي أن كتل الهواء الدافئ تهبّ مع التيارات البحرية من الجنوب، ثم تتكثف فوق الأرض الشمالية المتجمدة. يتكثف الهواء الدافئ ويهطل كثلج. كلما زادت الفروق في الحرارة، ازدادت غزارة التساقط. وكلما ازدادت غزارة التساقط، زاد الثلج الأبيض الذي لا يذوب لوقتٍ طويل. ويزداد البرد. كلما عظم فرق الحرارة وكثر تكثف كتل الهواء..."

كررتْ كوندويرامورس: "أفهم."

تابعتْ نيمويه: "يصبح غطاء الثلج ثقيلاً بما يكفي ليتحول إلى جليدٍ مضغوط. نهرٌ جليدي. يستمر الثلج بالهطول عليه، كما نعلم الآن، فيضغطه أكثر. ينمو النهر الجليدي، لا يزداد سمكًا فقط، بل يتمدد إلى الخارج، مغطيًا مساحاتٍ أوسع فأوسع. مساحاتٍ بيضاء..."

أومأتْ كوندويرامورس وقالت: "تعكس أشعة الشمس، فتصبح أبرد، أبرد، وأبرد باستمرار. الصقيع الأبيض الذي تنبأت به إثلين. لكن هل من الممكن حدوث كوارث؟ هل هناك خطرٌ حقيقي أن الجليد الذي استقر في الشمال إلى الأبد يتحرك فجأة جنوبًا، يسحق ويضغط ويغطي كل شيء؟ بأي سرعة يتمدد غطاء الجليد عند القطب؟ بضع بوصات سنويًا؟"

قالتْ نيمويه، وهي تثبت عينيها على البحيرة: "كما تعلمين بالتأكيد، الميناء الوحيد في خليج براكسيدا الذي لا يتجمد هو بونت فانيس."

أجابتْ كوندويرامورس: "نعم، أعرف."

أكملتْ نيمويه: "لزيادة معرفتكِ: قبل مئة عام، لم يكن أي من موانئ الخليج يتجمد قبل مئة عام، وهناك تقارير عديدة تؤكد ذلك.

كان الخيار والقرع ينموان في تالغار، وكانت زهور الشمس والترمس تُزرع في كاينغورن. لم تعد تُزرع الآن، لأن نموها مستحيل؛ فالجو باردٌ جدًا هناك. وهل تعلمين أن كروم العنب كانت موجودة ذات يوم في كايدوين؟ ربما لم تكن خمور تلك الكروم الأفضل، إذ يظهر من الوثائق الباقية أنها كانت رخيصة جدًا. لكن الشعراء المحليين مدحوها رغم ذلك.

اليوم، لا تنمو الكروم في كايدوين على الإطلاق. لأن الشتاءات الحالية، على عكس السابقة، تحمل صقيعًا قارسًا، والصقيع القارس يقتل الكروم. لا يُبطئ نموها فحسب، بل يدمرها. يُفنيها."

ردَّتْ كوندويرامورس: "أفهم."

تأملتْ نيمويه وقالت: "نعم، ما الذي يُمكن إضافته؟ ربما أن الثلج يهطل في تالغار في منتصف نوفمبر وينجرف جنوبًا بسرعة تزيد عن خمسين ميلاً في اليوم. أن عواصف الثلج تحدث عند نهر ألبا في نهاية ديسمبر وبداية يناير، حيث كان الثلج قبل مئة عامٍ أمرًا مثيرًا للدهشة؟ وكل طفلٍ يعلم أن الثلوج تذوب والبحيرات تتحلل من الجليد في أبريل في منطقتنا، أليس كذلك؟ وكل طفلٍ يتساءل لماذا سُمي ذلك الشهر أبريل–الفتاح. ألم يُدهشكِ ذلك؟"

أقرتْ كوندويرامورس: "ليس كثيرًا. على أي حال، في موطني في فيكوفارو، لم نكن نقول أبريل، بل زهرة زائفة. أو باللغة الإلفية: بيركه. لكنني أفهم ما تُلمحين إليه. اسم الشهر يأتي من أزمنة قديمة حين كان كل شيء يزهر حقًا في أبريل..."

أضافتْ نيمويه: "تلك الأزمنة البعيدة كانت قبل مئة أو مئة وعشرين عامًا فقط. ذلك عمليًا بالأمس، يا فتاة. كانت إثلين محقة تمامًا. سيتحقق تنبؤها. سيهلك العالم تحت طبقةٍ من الجليد. ستنهار الحضارة بسبب خطأ المدمرة، التي كان بإمكانها وامتلكت الفرصة أن تفتح طريقًا للأمل. يُعرف من الأسطورة أنها لم تفعل."

ردَّتْ كوندويرامورس: "لأسباب لا تشرحها الأسطورة. أو تشرحها بمساعدة أخلاقٍ غامضة وساذجة."

أكدتْ نيمويه: "هذا صحيح. لكن الحقيقة تبقى حقيقة. الصقيع الأبيض حقيقة. حضارة النصف الشمالي محكوم عليها بالفناء. ستزول تحت جليد نهرٍ جليدي متمدد، تحت جليدٍ دائم وثلوجٍ لا تنتهي. لا داعي للهلع، مع ذلك، لأن الأمر سيستغرق بعض الوقت قبل أن يحدث."

غربتِ الشمس تمامًا، واختفى الوهج المبهر من سطح البحيرة. امتدتْ الآن شريطةٌ من ضوءٍ ألطف وأشحب على الماء. ارتفع القمر فوق إينيس فيتر، ساطعًا كعملةٍ ذهبية مقطوعة نصفين.

سألتْ كوندويرامورس: "كم من الوقت؟ كم من الوقت، حسب رأيكِ، سيستغرق ذلك؟ أعني، كم من الوقت لدينا؟"

أجابتْ نيمويه: "كثيرًا."

استفسرتْ كوندويرامورس: "كم، يا نيموية؟"

ردَّتْ نيموية: "نحو ثلاثة آلاف سنة."

ضربَ الصياد مجذافه في القارب على البحيرة وشتمَ. تنهدتْ كوندويرامورس بصوتٍ مسموع.

قالتْ بعد لحظة: "لقد طمأنتني قليلاً. لكن قليلاً فقط."

* * *

كان المكان التالي من أقذر الأماكن التي زارتها سيري. بالتأكيد كان يتصدر الترتيب، وعلى رأس ذلك الترتيب.

كان ميناءً، قناة ميناء. رأتْ سيري القوارب والمراكب الشراعية عند الأرصفة والأعمدة، رأتْ غابةً من الصواري، رأتْ الأشرعة متدليةً بثقل في الهواء الساكن. تسللَ الدخان، سحبٌ من الدخان النتن، معلقًا حولها وممتدًا في كل مكان.

تصاعدَ الدخان أيضًا من خلف الأكواخ المتعرجة بجانب القناة. سُمعَ صراخُ طفلٍ عالٍ ومكسور من هناك.

صهلتْ كيلبي، نافضةً رأسها بحدة، وتراجعتْ، مدقةً بحوافرها على الأحجار المرصوفة. نظرتْ سيري إلى الأسفل ولاحظتْ بعض الجرذان الميتة. كانت ملقاةً في كل مكان. قوارض ميتة ملتوية في عذاب، بأقدامٍ وردية باهتة. فكرتْ: "شيءٌ ما ليس على ما يرام هنا"، وشعرتْ بالرعب يعتصرها. شيءٌ خاطئ هنا. اخرجي من هنا. اهربي من هنا بأسرع ما يمكن.

جلسَ رجلٌ يرتدي قميصًا مفتوحًا تحت الشباك والحبال المعلقة، رأسه مستندٌ على كتفه. وبضع خطواتٍ بعيدًا رقدَ آخر. لم يبدُ عليهما أنهما نائمان. لم يتحركا حتى عندما رنَّتْ حوافر كيلبي على الحجارة بجوارهما مباشرة. انحنتْ سيري برأسها، راكبةً تحت الأسمال المعلقة على حبال الغسيل، التي تفوح منها رائحة قذرة نفاذة.

رسمَ صليبٌ على باب أحد الأكواخ بالجير الأبيض. تركَ الدخان الأسود أثرًا في الهواء خلف السطح. استمرَّ الطفل بالبكاء، صرخَ أحدهم من بعيد، وسعلَ آخر من قريب وأطلقَ أنينًا. عوى كلبٌ.

شعرتْ سيري بحكةٍ في يدها. نظرتْ إلى الأسفل.

تناثرتْ على يدها نقاطٌ سوداء من البراغيث، كبذور الكراوية.

صرختْ سيري بأعلى صوتها. ارتجفتْ كلها من الرعب والاشمئزاز، وبدأتْ تنفض نفسها، ملوحةً بذراعيها بعنف. اندفعتْ كيلبي، المذعورة، إلى العدو السريع، وكادتْ سيري تسقط. ضغطتْ بفخذيها على جانبي الفرس، مشطتْ شعرها ومررتْ أصابعها فيه، هزَّتْ معطفها وقميصها. انطلقتْ كيلبي في زقاقٍ مغطى بالدخان. صرختْ سيري برعب.

ركبتْ عبر الجحيم، عبر نارٍ مستعرة، عبر أبشع الكوابيس. بين بيوتٍ موسومة بصلبانٍ بيضاء. بين أكوامٍ متوهجة من الأسمال. بين الموتى المتناثرين منفردين وأولئك الذين تراكموا في أكداس، واحدٌ فوق الآخر. وبين الأحياء، أشباحٌ ممزقة، عارية نصف عارية، بخدودٍ غائرة من الألم، زاحفةً في القذارة، صارخةً بلغةٍ لم تفهمها، ممدةً نحوها أذرعًا عظمية مغطاةً بدماملٍ دموية فظيعة...

فكرتْ: اهربي! اهربي من هنا!

حتى في العدم الأسود، في نسيان أرخبيل الأماكن، ظلَّتْ سيري تشمّ رائحة ذلك الدخان والنتانة في أنفها.

* * *

كان المكان التالي ميناءً أيضًا. وُجدتْ هنا رصيفٌ، مع قناةٍ مكدسة تعجّ بالسفن الصغيرة والزوارق وغيرها من المراكب، وفوقها غابةٌ من الصواري. لكن هنا، في هذا المكان، فوق الصواري، صرختْ النوارس بمرح، وانتشرتْ رائحةٌ مألوفة طبيعية: من الخشب المبلل، والقار، وماء البحر، وكذلك السمك بجميع أنواعه الثلاثة الأساسية: الطازج، والفاسد، والمقلي.

تشاجرَ رجلان على سطح سفينةٍ صغيرة، صارخين فوق بعضهما بأصواتٍ مرتفعة. فهمتْ سيري ما كانا يقولان. كان الأمر يتعلق بسعر الرنجة.

لم يكن بعيدًا حانةٌ. انبعثتْ من الباب المفتوح رائحةُ العفن والبيرة، وصوتُ الأحاديث، والطرق، والضحكات. صدحَ أحدهم بأغنيةٍ بذيئة، مكررًا نفس المقطع طوال الوقت:

لونيد، فارد تيلاين آرس

أين أميث آيل أين سبارس!

علمتْ أين هي. حتى قبل أن تقرأ على مؤخرة إحدى المراكب الشراعية: إيفال موير. وميناء انطلاقها: باكالا. علمتْ أين هي.

في نيلفجارد.

هربتْ قبل أن يتمكن أحدٌ من ملاحظتها عن كثب.

لكن قبل أن تنغمسَ في العدم، قفزَ برغوثٌ، آخر البراغيث التي تسلقتها في المكان السابق، الذي نجا من رحلة الزمن والمكان مختبئًا في طية معطفها، قفزةً عظيمة إلى الرصيف.

في تلك الليلة ذاتها، استقرَّ البرغوث في فراء جرذٍ أجرب، ذكرٍ عجوز، مخضرمٍ في معارك الجرذان العديدة، كما شهدتْ عليه أذنه المقضومة حتى جمجمته. في تلك الليلة ذاتها، ركبَ البرغوث والجرذ سفينةً. وفي صباح اليوم التالي، أبحرا في رحلةٍ. على بارجةٍ قديمة، مهملة، وقذرة جدًا.

كانت البارجة تُسمى كاتريونا. كان ذلك الاسم سيُخلّد في التاريخ. لكن أحدًا لم يكن يعلم ذلك حينها.

* * *

كان المكان التالي – وعلى الرغم من صعوبة تصديقه – مشهدًا ريفيًا مدهشًا بحق. وقفتْ حانةٌ مسقوفة بالقش، متشابكةً مع الكروم البرية واللبلاب والبازلاء العطرة، بين زهور الخطمي على ضفة نهرٍ هادئ كسول، يتدفق بين الصفصاف والألدر والبلوط المنحنية فوق الماء، بجوار جسرٍ يربط الضفتين بقوسه الحجري الأنيق. تأرجحتْ لافتةٌ بأحرفٍ مذهبة فوق المدخل. كانت الأحرف غريبةً تمامًا عن سيري. لكن ثمة صورةٌ لقطٍّ مرسومةٌ بعناية، فافترضتْ أنها حانة القط الأسود.

كانت رائحة الطعام المنبعثة من الحانة ساحرةً ببساطة. لم تترددْ سيري طويلاً. عدّلتْ سيفها على ظهرها ودخلتْ.

كان الداخل خاليًا. شغلَ ثلاثة رجالٍ بمظهر الفلاحين إحدى الطاولات فقط. لم ينظروا إليها حتى. جلستْ سيري في الزاوية، مستندةً ظهرها إلى الحائط.

اقتربتْ صاحبة الحانة، امرأةٌ سمينة ترتدي مئزرًا نظيفًا تمامًا وقبعةً قرنية، وسألتْ عن شيءٍ ما. بدا صوتها رنانًا، لكنه لحنيٌّ. أشارتْ سيري بإصبعها إلى فمها المفتوح، ربتتْ على بطنها، ثم قطعتْ أحد

الأزرار الفضية من معطفها ووضعتْهُ على الطاولة. لاحظتْ نظرةً غريبة، فشرعتْ تقطع زرًا آخر، لكن المرأة أوقفتْها بإشارةٍ وكلمةٍ ساكنة، رغم رنينها اللطيف.

تبيّنَ أن قيمة الزر كانت تكفي لوعاءٍ من حساء الخضار الكثيف، وجرةٍ فخارية من الفاصوليا ولحم الخنزير المدخن، وخبزٍ، وإبريقٍ من النبيذ المخفف بالماء. فكرتْ سيري أنها ربما ستنفجر بالبكاء مع الملعقة الأولى. لكنها تمالكتْ نفسها. أكلتْ ببطء. متمتعةً بالطعام.

اقتربتْ صاحبة الحانة، رنَّتْ سؤالاً، وضعتْ خدها على يديها المضمومتين. هل ستبقى الليلة؟

ردَّتْ سيري: "لا أعلم. ربما. على أي حال، شكرًا على العرض."

ابتسمتْ المرأة وخرجتْ إلى المطبخ.

فكَّتْ سيري حزامها واستندتْ ظهرها إلى الحائط. تساءلتْ عما يجب أن تفعله بعد ذلك. كان المكان – خاصةً مقارنةً بالأماكن القليلة الماضية – لطيفًا، وحثَّها على البقاء أطول. لكنها علمتْ أن الثقة المفرطة قد تكون خطرة، وقلة الحذر قاتلة.

ظهرَ قطٌّ أسود، مطابقٌ تمامًا للرسم على لافتة الحانة، من العدم، وفركَ ساقها، مقوّسًا ظهره. داعبتْهُ، فدفعَ القطُّ كفَّها برفق، جلسَ، وبدأَ يلعق فراء صدره. حدّقتْ سيري في الفضاء، تجولَ بصرها إلى مكانٍ آخر...

رأى جاري يجلس بجوار المدفأة في دائرةٍ من بعض الأشخاص ذوي المظهر البائس. كانوا جميعًا يقلبون أوانٍ صغيرة تحتوي على سائلٍ أحمر.

نادَتْ سيري: "جاري؟"

قالَ الفتى، ناظرًا إلى لهيب النار: "هذا ما يجب أن تفعليه. قرأتُ عن ذلك في 'تاريخ الحروب'، عملٌ كتبه المارشال بيليغرام. يجب أن تفعلي ذلك عندما تكون الأم الوطن في حاجة."

سألتْ سيري: "ما الذي يجب أن تفعليه؟ أن تسفكي الدماء؟"

أجابَ جاري: "نعم. بالضبط. الأم الوطن تنادي. وجزئيًا لأسبابٍ شخصية."

قالتْ ينيفر: "سيري، لا تنامي على السرج. لقد اقتربنا."

رأتْ سيري صلبانًا كبيرة مرسومةً بالجير الأبيض على بيوت المدينة التي وصلتا إليها، على جميع الأبواب والمداخل. تصاعدَ الدخان الكثيف النتن، تدفّقَ الدخان من محارق تحترق فيها الجثث. بدا أن ينيفر لا تلاحظ ذلك.

أضافتْ ينيفر: "يجب أن أجمل نفسي."

طافتْ مرآةٌ صغيرة أمام وجهها، فوق أذني الحصان. رقصَ مشطٌ في الهواء، يسرّح تجعيداتها السوداء. استخدمتْ ينيفر السحر، لم تستخدمْ يديها على الإطلاق، لأن...

لأن يديها كانتا كتلةً من الدم المتخثر.

صرختْ سيري: "ماما! ماذا فعلوا بكِ؟"

قالَ كوين: "قفي، يا فتاة. تغلبي على ألمكِ، انهضي واصعدي إلى القمة! وإلا سيسيطر عليكِ الخوف. هل تريدين أن تموتي من الخوف طوال حياتكِ؟"

لمعَتْ عيناه الصفراوان بطريقةٍ مقلقة. تثاءبَ. برزتْ أسنانه الحادة بيضاء. لم يكن كوين على الإطلاق. كان القط. القط الأسود...

سارتْ قافلةٌ من الجنود تمتد لأميالٍ عديدة. تأرجحتْ غابةٌ من الرماح والرايات فوقها وتموجتْ. سارَ جاري أيضًا، وضعَ خوذةً مستديرة على رأسه، وحملَ رمحًا على كتفه طويلاً جدًا حتى اضطرَ ليمسكه بقوة بكلتا يديه، وإلا لأفقده توازنه. قرعتْ الطبول، ودوّتْ أغنية الجنود وهدرتْ. نعقتْ الغربان فوق القافلة. جموعٌ من الغربان...

امتدَّ شاطئ بحيرةٍ. على الشاطئ، تجمعتْ رغوةٌ مخفوقة بيضاء، وأعواد قصبٍ متعفنة جرفتها الأمواج. جزيرةٌ في البحيرة. برجٌ. أسنانُ الأسوار، وحصنٌ متضخم بإفريز المشقات. فوق البرج، في زرقة السماء المظلمة، أضاءَ القمر، ساطعًا كعملةٍ ذهبية مقطوعة نصفين.

جلستْ امرأتان ملفوفتان بالفراء على الشرفة. رجلٌ في قارب...

مرآةٌ ونسيجٌ مطرز.

رفعتْ سيري رأسها فجأة. جلسَ إيريدين برياك غلاس مقابلها، على الجانب الآخر من الطاولة.

قالَ، مظهرًا أسنانه المتساوية بابتسامة: "لا يمكنكِ ألا تعلمي أنكِ فقط تؤخرين المحتوم. أنتِ ملكنا، وسنمسك بكِ."

ردَّتْ سيري: "كلا، بحق الجحيم!"

قالَ إيريدين: "ستعودين إلينا. ستتجولين قليلاً بين الأماكن والأزمنة، ثم ستصلين إلى الحلزونية وسنمسك بكِ فيها. لن تعودي أبدًا إلى عالمكِ أو زمانكِ. لقد فات الأوان على أي حال. لم يعد لديكِ ما تعودين إليه. الأشخاص الذين عرفتِهم ماتوا منذ زمنٍ طويل. أصبحتْ قبورهم مغطاةً بالعشب وانهارتْ. نسيتْ أسماؤهم. اسمكِ أيضًا."

ردَّتْ سيري: "تكذب! لا أصدقك!"

أجابَ إيريدين: "معتقداتكِ شأنكِ الخاص. أكرر، ستصلين قريبًا إلى الحلزونية، وسأكون بانتظاركِ هناك. تشتهين ذلك سرًا، أليس كذلك، يا لونيد الجميلة؟"

صرختْ سيري: "لا بد أنك تهذي!"

ابتسمَ إيريدين وقال: "نحن، شعب آين إيلي، نحسّ بمثل هذه الأمور. كنتِ مفتونةً بي، اشتهيتِني وخشيتِ ذلك الشوق. اشتهيتِني وما زلتِ تفعلين، يا زيريال. أنا. يداي. لمستي..."

شعرتْ بلمسةٍ، فوثبتْ واقفةً، مقلوبةً كوبًا كان فارغًا لحسن الحظ. مدَّتْ يدها إلى سيفها، لكنها هدأتْ فورًا تقريبًا. كانت في حانة القط الأسود، لا بد أنها غفَتْ، نائمةً على الطاولة. كانت اليد التي لمستْ شعرها تعود لصاحبة الحانة السمينة. لم تعجبْ سيري هذا النوع من الألفة، لكن اللطف والطيبة شعَّا من المرأة، فلم تستطعْ ردَّها بجفاء. تركتْها تداعب رأسها، واستمعتْ إلى كلامها اللحني الرنان بابتسامة. كانت منهكةً.

قالتْ سيري أخيرًا: "يجب أن أرحل."

ابتسمتْ المرأة، رنَّتْ بلحنٍ جميل. فكرتْ سيري: "كيف يحدث ذلك، وإلى ماذا يُعزى، أن تلك الكلمة الواحدة تبدو مفهومة دائمًا في جميع العوالم والأماكن والأزمنة، بجميع اللغات واللهجات؟ ودائمًا متشابهة؟"

أضافتْ سيري: "نعم. يجب أن أركب إلى ماما. ماما تنتظرني."

قادتْها صاحبة الحانة إلى الفناء. قبل أن تجدَ نفسها في السرج، عانقتْها المرأة فجأة بقوة، ضاغطةً إياها إلى صدرها الممتلئ.

ودّعتْها سيري وقالت: "وداعًا. شكرًا على استضافتكِ لي. تقدمي، يا كيلبي."

ركبتْ مباشرةً نحو الجسر المقوس فوق النهر الهادئ. عندما رنَّتْ حوافر الفرس على الحجارة، التفتتْ حولها. كانت المرأة لا تزال واقفةً خارج الحانة.

ركّزتْ سيري، قبضتاها على صدغيها. طنَّتْ أذناها، كما لو من داخل صدفةٍ بحرية. ومضَ ضوءٌ. ثم فجأة، عدمٌ أسود ناعم.

صرختْ تيريز لابان، صاحبة حانة "أو شا نوار" في بونت-سور-يون، على الطريق السريع من ميلون إلى أوكسير: "حظًا سعيدًا، يا ابنتي! رحلةً ممتعة!"

* * *

ركّزتْ سيري، قبضتاها على صدغيها. طنَّتْ أذناها، كما لو من داخل صدفةٍ بحرية. ومضَ ضوءٌ. ثم فجأة، عدمٌ أسود ناعم.

ظهرَ مكانٌ. بحيرةٌ. جزيرةٌ. أضاءَ القمر، كعملةٍ ذهبية مقطوعة نصفين، واستلقى نوره على الماء في شريطٍ لامع. في الشريط، قاربٌ، وعليه رجلٌ يحمل صنارة صيد...

على شرفة البرج... امرأتان؟

* * *

صرختْ كوندويرامورس، غير قادرة على التحمل من الدهشة، وغطّتْ فمها بيدها فورًا. ألقى الصياد المرساة بصوتٍ رذاذي، شتمَ بغلظة، ثم فتحَ فمه وتجمدَ على تلك الحال. لم تتحركْ نيمويه حتى.

ارتجفَ سطح البحيرة، المقسوم بشريطٍ من ضوء القمر، وتموّجَ كما لو ضربته عاصفة. انشقَّ هواء الليل فوق البحيرة، كما تتشقق نافذةٌ زجاجية ملونة محطمة. برزَ حصانٌ أسود من الشق. وعلى ظهره راكبةٌ.

مدَّتْ نيمويه يديها بهدوء، مرتلةً تعويذةً. اشتعلَ النسيج المعلق على الحامل فجأة، متوهجًا في عرضٍ من أضواءٍ صغيرة متعددة الألوان. انعكستْ الأضواء الصغيرة في بيضاوية المرآة، رقصتْ، تزاحمتْ في الزجاج كالنحل الملون، ثم تدفقتْ فجأة كظهورٍ شبحي بألوان قوس قزح، شريطٌ متسع، جعلَ كل

شيءٍ مضيئًا كالنهار. نهقتْ الفرس السوداء بعنف، ورفعتْ رجليها الأماميتين. بسطتْ نيمويه ذراعيها بقوة، وصرختْ بصيغةٍ سحرية. رأتْ كوندويرامورس الصورة تتشكل وتكبر في الهواء، فركّزتْ بشدة. اكتسبتْ الصورة وضوحًا فورًا. أصبحتْ بوابةً. مدخلاً وراءه يُرى...

هضبةٌ مليئةٌ بحطام السفن. قلعةٌ مدمجةٌ في صخور حادة لجرفٍ، تطلُّ على مرآةٍ سوداء لبحيرةٍ جبلية...

صرختْ نيمويه بنبرةٍ حادة: "بهذا الطريق! هذا هو الطريق الذي يجب أن تسلكيه! سيري، يا ابنة بافيتا! ادخلي البوابة، خذي الدرب المؤدي إلى لقائكِ بالقدر. لتُغلق عجلة الزمن! لتغرز الأفعى أوروبوروس أسنانها في ذيلها!

لا تجولي بعد الآن! أسرعي، اسرعي لمساعدة أصدقائكِ! هذا هو الطريق الصحيح، يا فتاة الويتشر."

نهقتْ الفرس مجددًا، ضربتْ الهواء بحوافرها مرةً أخرى. أدارتْ الفتاة في السرج رأسها، ناظرةً تارةً إليهم، وتارةً إلى الصورة التي استحضرها النسيج والمرآة. أزاحتْ شعرها جانبًا، ورأتْ كوندويرامورس الندبة القبيحة على خدها.

صرختْ نيمويه: "ثقي بي، يا سيري! فأنتِ تعرفينني! لقد رأيتني مرةً!"

سمعَتا صوتًا يقول: "أتذكر. أثق بكِ. شكرًا."

رأتا الفرس تُحثّ على الانطلاق، وركضتْ بخطوةٍ خفيفةٍ وراقصةٍ نحو سطوع البوابة. قبل أن تتشوش الصورة وتتفرق، رأتا الفتاة ذات الشعر الرمادي تلوّح بيدها، متجهةً نحوهما في السرج.

ثم اختفى كل شيء. هدأَ سطح البحيرة ببطء، أصبحَ شريط ضوء القمر سلسًا مجددًا.

سادَ الهدوء حتى شعرتا أنهما تستطيعان سماع أنفاس الصياد المتثاقلة. كبحتْ كوندويرامورس الدموع التي تجمعتْ في عينيها، وعانقتْ نيمويه بقوة. شعرتْ برعشة الساحرة الصغيرة. بقيتا في عناقٍ لبعض الوقت. دون كلمة. ثم التفتتا معًا نحو المكان الذي اختفتْ فيه بوابة العوالم.

صرختا معًا: "حظًا سعيدًا، يا فتاة الويتشر! حظًا سعيدًا!"

"بالقرب من ذلك الحقل حيث دارت المعركة الشرسة، حيث تصادمتْ تقريبًا كامل قوة الشمال مع جلّ قوة الغزاة النيلفجارديين، كانتا قريتان للصيادين: القيعان القديمة وبرينا. لكن، بما أن برينا احترقتْ حتى الأرض في ذلك الوقت، شاعَ في البداية تسميتها 'معركة القيعان القديمة'.

اليوم، مع ذلك، لا يقول أحدٌ سوى 'معركة برينا'، وثمة سببان لذلك. أولاً، بعد إعادة بنائها، أصبحتْ برينا اليوم مستوطنةً كبيرةً ومزدهرةً، بينما لم تقاوم القيعان القديمة تآكل الزمن، فغطّاها القراص وعشب الأريكة والأرقطيون حتى اختفتْ آثارها. ثانيًا، بدا أن ذلك الاسم لا يليق بتلك المعركة الشهيرة المحفورة في الذاكرة، والتي كانت، في الوقت ذاته، مأساويةً. فاسألوا أنفسكم: ها هي معركةٌ وضعَ فيها أكثر من ثلاثين ألف رجلٍ حياتهم، وإذا لم تكن القيعان كافيةً، فلا بد أن تكون قديمةً أيضًا.

لذا، أصبحَ من المعتاد في جميع الأدبيات التاريخية والعسكرية أن تُكتب فقط معركة برينا – سواء في الشمال أو في المصادر النيلفجاردي، التي، للإشارة، تفوق مصادرنا عددًا بكثير ".

سجلات المملكة التيميرية المجيدة، لـ الوقور جاري من إيلاندر

الفصل الثامن

الَ القائد: "المتدرب فيتز-أوسترلن، راسب. تفضل بالجلوس. أودّ أن ألفت انتباهكم إلى أن الجهل بالمعارك الشهيرة والمهمة في تاريخ وطننا الأم أمرٌ محرج لكل وطني ومواطن صالح، لكنه في حالة ضابطٍ مستقبلي فضيحةٌ بكل بساطة. سأسمح لنفسي بإبداء ملاحظةٍ صغيرة أخرى، يا متدرب فيتز-أوسترلن. منذ عشرين عامًا، أي منذ أصبحتُ محاضرًا في هذه المؤسسة، لا أتذكر امتحان تخرجٍ لم يظهر فيه سؤالٌ عن معركة برينا. وبالتالي، فإن الجهل في هذا الصدد يقضي عمليًا على أي فرصةٍ لمهنةٍ في الجيش. حسنًا، لكن إذا كان المرء بارونًا، فليس عليه أن يكون ضابطًا، يمكنه أن يجرب حظه في السياسة. أو في الدبلوماسية. وهو ما أتمناه لك بصدق، يا متدرب فيتز-أوسترلن. ولنعد إلى برينا، أيها السادة. المتدرب بوتكامر!"

ردَّ بوتكامر: "حاضر!"

طلبَ القائد: "تفضل إلى الخريطة. واستمر. من النقطة التي تخلت فيها البلاغة عن السيد البارون."

أجابَ بوتكامر: "حاضر، سيدي. كان سبب قرار المشير مينو كوهورن بتنفيذ مناورةٍ والمسير بسرعة غربًا التقارير من الاستطلاع التي أفادت بأن جيش النوردلنجيين كان قادمًا لنجدة حصن ماينا المحاصر. قرر المشير قطع تقدم النوردلنجيين وإجبارهم على معركةٍ حاسمة. لهذا الغرض، قسم قوات مجموعة جيش الوسط. تركَ بعض رجاله في ماينا، وانطلقَ في مسيرٍ سريع مع بقية قواته..."

قاطعَهُ القائد: "المتدرب بوتكامر! أنت لست روائيًا. ستصبح ضابطًا! ما هذا التعبير: 'بقية قواته'؟ أعطني تشكيلة المعركة الدقيقة لقوة المشير كوهورن الضاربة، مستخدمًا المصطلحات العسكرية!"

ردَّ بوتكامر: "حاضر، سيدي. كان لدى المشير كوهورن جيشين تحت قيادته: الجيش الرابع للخيالة، بقيادة اللواء ماركوس برايبانت، راعي مدرستنا..."

أثنى القائد: "جيد جدًا، يا متدرب بوتكامر."

همسَ فيتز-أوسترلن من مكتبه: "ملقّنٌ لعين."

أكملَ بوتكامر: "...والجيش الثالث، بقيادة اللواء ريتز دي ميليس-ستوك. تكوّن الجيش الرابع للخيالة، الذي ضمّ أكثر من عشرين ألف جندي، من: فرقة فينيندال، فرقة ماغن، فرقة فروندسبيرغ، لواء

فيكوفاريا الثاني، لواء دايرلانيا الثالث، وفرقتَي ناوذيكا وفريهد. أما الجيش الثالث فتكوّن من: فرقة ألبا، فرقة دايثوين، و... همم... و"...

* * *

قالتْ يوليا أباتيماركو الملقبة بـ"كيتي الجميلة": "فرقة أرد فاين، إن لم تكن قد أخطأتَ في شيءٍ بالطبع. كان لديهم بالتأكيد شمسٌ فضية كبيرة على رايتهم؟"

أجابَ قائد الاستطلاع بثبات: "نعم، يا عقيد. بلا شك، كان كذلك!"

تمتمتْ كيتي الجميلة: "أرد فاين... همم... مثير للاهتمام. هذا يعني أن ليس فقط جيش الخيالة، بل جزءًا من الجيش الثالث أيضًا يتقدم نحونا في تلك الأرتال التي زعمتَ أنك رأيتها. لا، سيدي! لا شيء يعتمد على الثقة وحدها! يجب أن أراه بنفسي. يا نقيب، أثناء غيابي ستقود الفصيلة. آمرك بإرسال ضابط اتصال إلى العقيد بانغرات..."

اعترضَ النقيب: "لكن، يا عقيد، هل من الحكمة أن تذهبي بنفسكِ..."

قاطعتْهُ: "هذا أمر!"

ردَّ النقيب: "حاضر، سيدي!"

صرخَ قائد الاستطلاع، متغلبًا على ضجيج العدو السريع: "هذا جنونٌ محض، يا عقيد! قد نصطدم بدوريةٍ إلفية..."

قالتْ يوليا: "لا تتكلم! بـ قُدْ!"

اندفعَتْ الفصيلة الصغيرة بقوةٍ أسفل الوادي، مرّتْ كالريح في وادي الجدول، وانطلقتْ إلى الغابة. هنا اضطروا للإبطاء. أعاقتهم الأجمة من الركوب، وفضلاً عن ذلك، كانوا بالفعل في خطر الاصطدام فجأة بقوات استطلاعٍ أو حراسٍ، كان النيلفجارديون قد أرسلوها بلا شك.

تقدمتْ مجموعة المرتزقة خلسةً على العدو من الجانب، لا من الأمام مباشرة، لكن الجوانب كانت محروسةً بالتأكيد أيضًا. كانت اللعبة محفوفةً بالمخاطر كالجحيم. لكن كيتي الجميلة أحبتْ مثل هذه الألعاب. ولم يكن هناك جنديٌّ في كامل الشركة الحرة لم يكن ليتبعها. حتى إلى الجحيم.

قالَ قائد الاستطلاع: " البرج، إنه هنا.."

هزَّتْ يوليا أباتيماركو رأسها. كان البرج معوجًا، مهدمًا، متشابكًا بعوارض مكسورة تشكل شبكةً عزفتْ عليها الريح، الهابة من الغرب، كما لو على صفارةٍ معدنية. لم يُعرف من بنى البرج هنا، في البرية، ولماذا. لكن كان واضحًا أنه بُني منذ زمنٍ بعيد.

"'ألن ينهار؟'

'بالتأكيد لا، أيها العقيد.'

لم يكن استخدام لقب "سيدي" أو "سيدتي" شائعًا بين مرتزقة الشركة الحرة، بل فقط الإشارة إلى الرتبة. تسلقت جوليا قمة البرج بسرعة، كادت تركض. انضم قائد الاستطلاع بعد دقيقةٍ واحدة، يتنفس كثورٍ يطارد عجلة.

اتكأت كيتي الجميلة على السور المائل، تمسك المنظار بينما تلصق لسانها بين شفتيها وتبرز مؤخرتها المتناسقة. شعر قائد الاستطلاع برعشةٍ من الإثارة، لكنه كتمها سريعًا.

لعقت جوليا أباتيماركو شفتيها قائلة "أرد فين، لا شك، أرى أيضًا دايرلانيين إيلان تراه، وإلف لواء فريهد، أصدقائنا القدامى من ماريبور ومايينا... آه! هناك أيضًا رؤوس الموت (لواء النوزيكا) الشهير، أرى أيضاً لهيب رايات فرقة دايثوين المدرعة، والعلم الأبيض مع النسر الأسود... شعار فرقة ألبا..."

همس قائد الاستطلاع: "تعرفينهم، كأنهم أصدقاء... هل لديكم معلوماتٌ بهذا الدقة؟"

قاطعته كيتي الجميلة بحدّة: "أنا خريجة أكاديمية عسكرية، ضابطٌ مؤهل. حسنًا، رأيت ما أردت. لنعد إلى الشركة."

* * *

قالت جوليا أباتيماركو: "كتيبة الفرسان الرابعة والثلاثون يتقدمون نحونا. أكرر، كامل فرقة الفرسان الرابعة، وربما كامل خيالة الجيش الثالث. كانت سحابة من الغبار ترتفع إلى السماء خلف الأعلام التي رأيتها. بحساباتي، أربعون ألف جواد يتجهون إلى هنا في تلك الأعمدة الثلاثة. وربما أكثر. ربما..."

أكمل آدم "أديو" بانغرات، قائد الشركة الحرة، قائلاً: "ربما قام كوهورن بتقسيم مجموعة الجيش المركزي. لقد أخذ فقط الفرسان الرابعة وخيالة الجيش الثالث دون مشاة، ليتمكن من التحرك بسرعة أكبر... ها، يا جوليا، لو كنت مكان القائد ناتاليس أو الملك فولتست..."

قالت كيتي الجميلة وهي تومض عيناها: "أعرف. أعرف ماذا كنت ستفعل. هل أرسلت الرسل إليهما؟"

أجاب "أديو": "طبعاً."

قالت جوليا: "ناتاليس ليس بأحمق. ربما غداً..."

قاطعها "أديو" قائلاً: "ربما. بل أعتقد أن ذلك سيحدث. أسرعي بجوادكِ، يا جوليا. أريد أن أريكِ شيئاً."

امتطيا جواديهما وركضا بضعة فراسخ بسرعة، متقدمين كثيراً عن بقية الجنود. كانت الشمس تكاد تلمس التلال في الغرب، وكانت الغابات المستنقعية تكسو الوادي بظل طويل. لكن ما كان مرئياً كان كافياً لتخمن كيتي الجميلة على الفور ما قصد "أديو" بانغرات أن يريه إياها.

قال "أديو" مؤكداً تخمينها وهو يقف في الركاب: "هنا. سأواجه العدو هنا غداً. لو كنت أنا من يقود الجيش."

أقرت جوليا أباتيماركو قائلة: "أرض جميلة. مستوية، صلبة، ناعمة... هناك متسع للتشكيل... همم... من تلك التلال إلى تلك البرك السمكية هناك... سيكون حوالي ثلاثة أميال... ذلك التل هناك مثالي لموقع القيادة..."

أجاب "أديو": "أنتِ محقة. وهناك، انظري، في الوسط، هناك بحيرة صغيرة أخرى أو بركة سمكية. إنها تلمع هناك. يمكن استغلالها... ذلك النهر الصغير مناسب كحدود، لأنه على الرغم من صغره، فهو مستنقعي... ما اسم ذلك النهر، يا جوليا؟ لقد مررنا من هناك أمس، أليس كذلك؟ هل تتذكرين؟"

ردت جوليا قائلة: "لقد نسيت. أعتقد أنه الهالتر. أو شيء من هذا القبيل."

* * *

من يعرف تلك المناطق يستطيع بسهولة أن يتخيل المشهد بأكمله، بينما سأكشف لمن هم أقل تجوالاً أن الجناح الأيسر للجيش الملكي وصل إلى المكان الذي تقع فيه اليوم مستوطنة برينا. في زمن المعركة، لم تكن هناك مستوطنة، فقد أحرقتها السناجب الإلفية في العام السابق وتحولت إلى رماد على الأرض. فهناك، على الجناح الأيسر، وقف فيلق ريدانيا الملكي، الذي كان يقوده الكونت رويتر. وكان في ذلك الفيلق ثمانية آلاف من المشاة وفرسان الخط الأمامي.

وقف مركز التشكيل الملكي بجانب تل أُطلق عليه لاحقاً اسم تل المشنقة. هناك، على التل، وقف الملك فولتست والقائد يان ناتاليس مع فرقتهما، يطّلعان على ساحة المعركة بأكملها من الأعلى.

هنا تجمعت القوات الرئيسية لجيشنا – اثنا عشر ألفاً من مشاة تيميريا وريدانيا الشجعان، مُشكّلين في أربع مربعات عظيمة، محميين بعشر سرايا من الفرسان، واقفين عند الطرف الشمالي للبركة السمكية التي يسميها السكان المحليون البركة الذهبية. وفي الوقت نفسه، كان للتشكيل المركزي فوج احتياطي في الخط الثاني – ثلاثة آلاف من مشاة فيزيما وماريبور، يقودهم الفويفود برونيبور.

ومن الحافة الجنوبية للبركة الذهبية، حتى صف البرك السمكية ومنعطف نهر تشوتلا، إلى المستنقعات التي يبلغ عرضها ميلاً، وقف الجناح الأيمن لجيشنا، فوج المتطوعين المكون من أقزام ماهاكام، وثماني سرايا من الفرسان الخفيفة، وسرايا الشركة المرتزقة الحرة الموقرة. قاد الجناح الأيمن الكوندوتييرو آدم بانغرات والقزم باركلي إلس.

نشر المارشال الميداني مينو كوهورن جيش نيلفجارد مقابلهم، على بعد ميل أو اثنين تقريباً، في حقل جرداء خلف الغابة. وقف رجال صلبون كالحديد هناك مثل جدار أسود، فوجاً تلو فوج، وسرية تلو سرية، وسرباً تلو سرب، بلا نهاية على ما يبدو، تمتد حتى أقصى ما تراه العين. ومن غابة الأعلام والرماح، يمكن للمرء أن يستنتج أنها لم تكن مجرد صفوف واسعة بل عميقة أيضاً. فقد كان جيشاً يبلغ ستة وأربعين ألفاً، وهو ما لم يكن يعلمه سوى القليل في ذلك الوقت، وكان ذلك أفضل، لأنه عند رؤية تلك القوة النيلفجاردية، خارت قلوب الكثيرين بعض الشيء.

وبدأت القلوب تنبض تحت الدروع الصدرية حتى لدى الأشجع، بدأت تنبض كالمطارق، إذ أصبح واضحاً أن معركة ثقيلة ودامية ستبدأ قريباً، وأن الكثيرين ممن وقفوا في تلك الصفوف لن يروا غروب الشمس.

أمسك جارّي بنظارتيه التي كانت تنزلق عن أنفه، وقرأ المقطع النصي بأكمله مرة أخرى، تنهد، وفرك رأسه، ثم التقط إسفنجة، ضغطها قليلاً ومسح الجملة الأخيرة.

هبت الريح فوشوشت في أوراق شجرة الزيزفون، وطنّت النحلات. بينما كان الأطفال يحاولون -كعادتهم - أن يتفوقوا على بعضهم البعض في الصياح.

تدحرجت كرة عبر العشب واستقرت عند قدم الرجل العجوز. قبل أن يتمكن من الانحناء، بصعوبة وبطء، مر أحد أحفاده كالذئب الصغير مسرعاً، التقط الكرة في منتصف طيرانها. اصطدم بالطاولة فاهتزت، وأنقذ جارّي المحبرة من السقوط بيده اليمنى، مثبتاً أوراق الورق بجذع يده اليسرى.

طنّت النحلات، مثقلة بحبات صفراء صغيرة من لقاح الأكاسيا.

استأنف جارّي الكتابة.

كان الصباح غائماً، لكن الشمس اخترقت السحب، وأشار ارتفاعها بوضوح إلى مرور الساعات. هبت ريح، فارتفعت الأعلام الصغيرة ورفرفت كأسراب الطيور التي تحلق في السماء. و ظل نيلفجارد واقفاً، واقفاً، حتى بدأ الجميع يتساءلون لماذا لم يصدر المارشال مينو كوهورن أمره بالتقدم إلى الأمام...

رفع مينو كوهورن رأسه من الخرائط ووجّه نظره إلى قادته قائلاً: "متى؟ تسألونني متى سأعطي الأمر بالبدء؟"

لم ينبس أحد ببنت شفة. ألقى مينو نظرة سريعة على قادته من أعلى إلى أسفل.

بدا أكثر القلقين والمتوترين هم أولئك الذين سيظلون في الاحتياط: "إيلان تراهي" قائد الفرقة السابعة الدايرلانية، و"كيس فان لو" من لواء ناوذيكا. كان "أودر دي وينغالت" مساعد المارشال، الذي كان أقل من لديه فرصة للمشاركة الفعلية في القتال، متوتراً أيضاً.

بدا أولئك الذين سيهاجمون أولاً هادئين، بل وحتى متململين. إذ كان ماركوس برايبانت يتثاءب. واستمر الجنرال الملازم ريتز دي ميليس-ستوك في إدخال خنصره في أذنه، يسحبه وينظر إليه، كما لو كان يتوقع حقاً أن يجد شيئاً يستحق انتباهه.

أطلق أوبرست رامون تيركونيل، القائد الشاب لفرقة أرد فاين، صفيراً خافتاً، مثبتاً نظره على نقطة في الأفق يعرفها هو وحده. قلب أوبرست ليام أب موير موس من فرقة دايثوين صفحات كتابه الشعري الرفيع الذي لا يفارقه. وحك تيبور إيغبراخت من فرسان ألبا الثقيلة ظهر عنقه بنهاية سوط الركوب.

قال كوهورن: "سنبدأ الهجوم بمجرد عودة الدوريات. تلك التلال في الشمال تقلقني، أيها السادة. قبل أن نضرب، يجب أن أعرف ما خلفها."

* * *

كان لامار فلاوت خائفاً. كان خائفاً بشكل رهيب، وكان الخوف يتسلل إلى أحشائه. بدا له أن هناك ما لا يقل عن اثنتي عشرة ثعباناً لزجاً مغطى بالمخاط النتن في أمعائه، يبحثون بإصرار عن مخرج يمكنهم الهروب منه. قبل ساعة، عندما تلقت الدورية أوامرها وانطلقت، كان فلاوت يأمل في قرارة نفسه أن برودة الصباح ستطرد الرعب، وأن الطقوس الروتينية الممارسة، والاحتفال الصلب والشديد بالخدمة،

ستخمد الخوف. لكنه خاب أمله. الآن فقط، بعد مرور ساعة وبعد قطع مسافة خمسة أميال تقريباً، بعيداً، بعيداً بشكل خطير عن رفاقه، عميقاً، عميقاً بشكل محفوف بالمخاطر في أراضي العدو، قريباً، قريباً بشكل مميت من خطر مجهول، أظهر الخوف ما كان قادراً عليه.

توقفوا عند حافة غابة من أشجار التنوب، متحفظين بعدم الخروج من خلف شجيرات العرعر الكبيرة التي تنمو عند الحافة. امتدت أمامهم حوض واسع، خلف حزام من أشجار التنوب المنخفضة. تمايل الضباب فوق رؤوس العشب.

قال فلاوت: "لا أحد. لا روح هنا. لنعد. لقد ابتعدنا كثيراً بالفعل."

نظر إليه الرقيب بنظرة جانبية. بعيداً؟ لقد ركبنا ميلاً بالكاد. ونتحرك ببطء كالسلاحف العرجاء.

قال الرقيب: "سيكون من الأفضل أن نلقي نظرة خلف ذلك التل، يا سيدي الملازم. أعتقد أن الرؤية ستكون أفضل من هناك. مسافة طويلة، فوق كلا الواديين. إذا كان هناك من يتجه إلى هناك، لا يمكننا ألا نراهم. حسنًا؟ هل نركب إلى هناك، يا سيدي؟ إنها ليست أكثر من بضعة فراسخ."

فكر فلاوت: بضعة فراسخ. فوق أرض مكشوفة، معرضون تماماً. تلوّت الثعابين بعنف، تبحث عن مخرج من أحشائه. شعر فلاوت بوضوح أن واحدًا منها على الأقل كان في طريقه للخروج.

سمع صوت رنين الركاب. نفث جواد من أنفه. هناك، بين اللون الأخضر الزاهي لأشجار الصنوبر الصغيرة على منحدر رملي. هل تحرك شيء هناك؟ شخصية؟

هل يحاصروننا؟

كانت شائعة تنتشر في المخيم أنه قبل أيام قليلة، قضى مرتزقة الشركة الحرة على دورية من لواء فريهيد في كمين، وأسروا إلفاً حياً. قيل إنهم خصوه، انتزعوا لسانه وقطعوا جميع أصابعه... وأخيراً اقتلعوا عينيه. ثم سخروا منه قائلين: الآن لن تتمكن من التسلية مع عاهرتك الإلفية بأي شكل. ولن تتمكن حتى من مشاهدتها وهي تتسلى مع الآخرين.

قال الرقيب وهو يحمحم: "حسنًا، يا سيدي؟ هل نصعد ذلك التل بسرعة؟"

ابتلع لامار فلاوت ريقه.

قال: "لا. لا يمكننا التأخر. لقد تأكدنا: لا عدو هنا. يجب أن نرسل تقريراً بذلك إلى المقر. لنعد!"

* * *

استمع مينو كوهورن إلى التقرير ورفع رأسه من الخرائط.

قال بإيجاز: "إلى سراياكم."

صاح بريبانت وميليس-ستوك: "هجوم!"

صرخ تيركونيل وإيغبراخت: "عاش الإمبراطور!"

نظر إليهم مينو بنظرة غريبة.

كرر قائلاً: "إلى سراياكم. ولْتُنِرْ الشمس العظيمة مجدكم."

* * *

استنشق «مايلو فاندربيك»؛ الهالفلينغ، الجرّاح الميداني، الملقّب بـ«راستي»، بشراهةٍ عبر منخريه ذلك الخليط المُسكر من روائح اليود والأمونيا والكحول والإيثر والإكسير السحري التي كانت تتماوج في فضاء الخيمة. أراد أن يستمتع بهذا العبير قدر استطاعته الآن، ما دام نقيًا، عافيًا، طاهرًا كالعذراء، ولم يلوّث بعدُ بأي تلوثٍ إكلينيكي، لكنه كان يعلم أنه لن يبقى كذلك طويلًا.

ألقى راستي نظرةً خاطفةً إلى طاولة العمليات، هي الأخرى ناصعة البياض كعذراء، ثم إلى الأدوات الجراحية، تلك الأدوات التي تفرض الاحترام وتوحي بالثقة، بما تمتلكه من وقارٍ باردٍ يبعث في النفس رهبة الفولاذ الحادة، وبريقٍ نقيٍ لمعادنها النظيفة، وترتيبٍ دقيقٍ يعكس جماليةً وانضباطًا لا تشوبه شائبة.

بينما انشغل طاقمه — ثلاث نساء — حول الأدوات بصق «راستي» ثم صحّح أفكاره في نفسه: امرأةٌ واحدةٌ وفتاتان. بصق مرةً أخرى، مصححًا مجددًا: عجوزٌ واحدة، جميلةٌ رغم عمرها، جدةٌ تبدو شابةً رغم سنواتها، وطفلتان. الساحرة والمعالجة التي تدعى «مارتي سودرغرين»، والمتطوعتان: «شاني»، الطالبة القادمة من «أوكسنفورت»، و«أيولا»، كاهنةٌ من معبد «ميليتيلي» في «إيلاندر».

أعرف «مارتي سودرغرين»، فكّر «راستي»، سبق لي أن تعاونت مع هذه الفاتنة أكثر من مرة. تعاني شيئًا من الشبق، وهي عُرضةٌ لنوبات الهستيريا، لكن لا بأس في ذلك طالما بقي سحرها فاعلًا. تعويذات التخدير، والتطهير، وإيقاف النزيف.

أمّا «أيولا»، الكاهنة، أو بالأحرى، المُبتدئة؛ فكانت فتاةً ذات ملامحَ عاديةٍ وباهتةٍ مثل قماش الكتان، ذات يدين فلاّحيتين قويتين وطويلتين. استطاع المعبد أن يحول بين هاتين اليدين وبين التشوهات البشعة التي تُخلّفها الكدح الشاق والعمل القذر في الأرض، لكنه عجز عن إخفاء أصولهما الفلاحية.

لا، فكّر «راستي»، لستُ قلقًا عليها كثيرًا، فتلك الأيدي الفلاّحية أيدٍ واثقة، جديرة بالثقة. ثم إنّ الفتيات القادمات من المعابد نادرًا ما يخيّبن الأمل، لا ينهزمن أمام لحظات اليأس، بل يلذن بالدين، ويلوذن بإيمانهنّ الصوفي بحثًا عن العزاء. والمثير للدهشة، أنّ ذلك الأمر ناجعٌ وفعّال.

ألقى نظرةً نحو «شاني» ذات الشعر الأحمر، وهي تُمرّر برشاقةٍ خيوط أمعاء القط عبر إبرٍ مقوّسة.

شاني. طفلةٌ من أزقة المدينة النتنة، التي وصلت إلى أكاديمية أوكسنفورت بفضل عطشها النَهِم للمعرفة، والتضحيات التي لا تُصدّق التي بذلها والداها من أجل دفع رسومها الدراسية. تلميذةٌ صغيرة، مهرّجة، لعوبٌ مرحة. وماذا تعرف هي أصلًا؟ أن تُمرّر الخيوط في الإبر؟ أن تضع عاصبةً لإيقاف النزيف؟ أن تُمسك المبعِّدات؟

ها! السؤال الحقيقي هو: متى ستُصاب هذه التلميذة الصغيرة ذات الشعر الأحمر بالإغماء، فتُفلِت المبعِّدات وتسقط بأنفها في بطن مريض مفتوح على طاولة العمليات؟

ليس البشرُ أشداء كثيرًا، فكّر «راستي». لقد طلبتُ أن يعطوني امرأةً من الجن أو أحدًا من أبناء جنسي. لكنّهم رفضوا. لا ثقة لديهم.

ولا يثقون بي أيضًا، في الواقع.

أنا هالفلينغ. لستُ إنسانًا كاملًا.

أنا غريب.

«شاني!»

«نعم، سيد فاندربيك؟»

«راستي. أعني أنّ عليكِ أن تقولي لي: السيد راستي. ما هذه الأداة يا شاني؟ وما الغرض منها؟»

«أتختبرني يا سيد راستي؟»

«أجيبي فورًا، أيتها الفتاة!»

«هذه مِكشطةُ سمحاق! تُستخدم لكشط السمحاق عن العظام أثناء عمليات البتر، كي لا يتشقّق تحت أسنان المنشار، وليكون القطعُ سلسًا ونظيفًا! هل ارتحت الآن؟ هل نجحتُ في اختبارك؟»

«اهدئي يا فتاة، اهدئي.»

مرّر أصابعه في شعره مُفكّرًا:

مثيرٌ للاهتمام حقًا. نحن أربعة أطباء هنا، وجميعنا ذوو شعرٍ أحمر! أهي الصدفة أم القدر؟

«اخرُجن الآن من الخيمة من فضلكنّ، أيتها الفتيات.» أشار بيده آمرًا.

أطعنَه، رغم أنهن تذمرن بصوتٍ مكتوم، كل واحدةٍ منهن بطريقتها الخاصة.

خارج الخيمة، تجمّع مساعدو الإسعاف يتلذذون بالدقائق الأخيرة من الكسل الحلو. رمقهم «راستي» بنظرةٍ صارمة، واستنشق الهواءَ متأكدًا من أنهم لم يسكروا بعد.

على الجانب الآخر، كان حدّادٌ ضخم البنية يتحرّك بنشاط حول طاولته التي بدت وكأنها غرفة تعذيب، وهو يُرتّب أدواته التي يستخدمها لانتزاع الجرحى من الدروع، والقمصان الحلقية، والخوذ ذات الأقنعة الملتوية.

دون مقدّمات، بدأ «راستي» قائلًا وهو يُشير إلى ساحة المعركة:

«بعد لحظة، هناك، سيبدأ الناس بذبح بعضهم البعض. وبعد لحظةٍ واحدةٍ أخرى، ستظهر الإصابات الأولى. الجميع يعرف جيدًا ما يجب أن يفعل، وكلٌ منا يعرف دوره ومكانه. إذا التزم الجميع بما يجب عليه، فلن يقع أي خطأ. هل هذا واضح؟»

لم تُعلّق أيٌّ من «الفتيات».

تابع «راستي» حديثه مشيرًا مرةً أخرى إلى ساحة المعركة:

«هناك، سيشرع حوالي مئة ألف جندي في إصابة بعضهم البعض بجروح. جروحٍ معقدةٍ للغاية. مجموع الأطباءِ هنا، بمن فيهم الموجودون في المستشفيَين الآخرين، هو اثنا عشر طبيبًا فقط. لا نستطيع، ولو

بكل ما في هذا العالم، أن نساعد كل من سيحتاج إلى مساعدتنا. ولا حتى نسبةً ضئيلةً من أولئك المحتاجين. ولا أحد يتوقّع منّا ذلك أصلًا.»

«لكنّنا سنُعالِجهم رغم ذلك. لأن هذه هي — وأرجو المعذرة على هذا التعبير المبتذل — علّة وجودنا. أن نساعد المحتاجين. إذن، وبمنتهى الابتذال أيضًا، سنساعد أكبر عددٍ ممكن من أولئك الذين نتمكن من مساعدتهم.»

مرةً أخرى، لم يُعلّق أحد. استدار «راستي» نحوهم، وقال بصوتٍ أكثر هدوءًا ودفئًا:

«لن نستطيع القيام بما يفوق طاقتنا، هذا صحيح. لكنّنا جميعًا سنبذل قصارى جهدنا كي لا يكون ما نقوم به أقلّ من هذه الطاقة.»

* * *

قال الشرطي «يان ناتاليس» وهو يمسح يده المتعرّقة على وركه:

«لقد تحرّكوا. يا جلالة الملك، نيلفجارد تحرّكت. إنهم قادمون إلينا!»

سيطر الملك «فولتست» على حصانه المُضطرب، وهو جوادٌ رماديٌّ مزدانٌ بغطاءٍ مُطرّزٍ بزهر الزنبق، وأدار وجهه الوسيم الذي يستحق أن يُنقش على العملات المعدنية نحو الشرطي قائلًا:

«إذن، علينا استقبالهم بما يليق. حضرة الشرطي! أيها السادة!»

صاح المرتزق «آدم "أديو" بانغرات» والكونت «دي رويتر» بصوتٍ واحد:

«الموتُ لذوي الأردية السوداء!»

نظر الشرطي نحوهما، ثم اعتدل في وقفته وأخذ نفسًا عميقًا وهو يهتف:

«كلٌّ إلى فِرقته!»

من بعيدٍ، دوّت طبول الحرب النيلفجاردية على نحوٍ مكتوم، وتعالت نواح المزامير وآلات الكرومهورن وأبواق المعارك. وبدأت الأرض تهتز وترتجف تحت وطأة آلاف الحوافر.

* * *

قال «آندي بيبرِفيلدت»، الهالفلينغ قائد القافلة، وهو يُزيح خصلة الشعر عن أذنه الصغيرة المدبّبة:

«ها هم قادمون. في أي لحظة الآن...»

أومأت «تارا هيلدبراندت»، و«ديدي "برُوَر" هوفماير» وبقية العربجيين الذين تجمّعوا حوله برؤوسهم موافقين. كانوا هم أيضًا يسمعون بوضوحٍ الخبطَ الرتيبَ المكتومَ لوقع حوافر الجياد القادمة من خلف التلّة والغابة، بل وكانوا يشعرون برجفة الأرض وهي ترتعش تحت أقدامهم.

اشتدّ الضجيج فجأةً، وارتفع بدرجةٍ واحدةٍ أعلى.

قال «آندي بيبرِفيلدت»، الذي خَبَرَ العديد من المعارك، ورآها — أو بالأحرى سمعها — من قبل:

«إنها أول دفعةٍ من سهام الرماة. ستكون هناك دفعةٌ ثانية.»

كان مُحقًّا.

«الآن سيصطدمون!»

«أف...أفضّل أن نختـ... نختبئ تحت العربات!» اقترح «ويليام هاردبوتوم»، المعروف بـ«مومونِك»، وهو يتحرك قلقًا ومتلعثمًا. «أنا أخـ... أخبركم...»

نظر «بيبرِفيلدت» وباقي الهالفلينغ إليه بنوعٍ من الشفقة. تحت العربات؟ لماذا؟ كانت ساحة المعركة تبعد عنهم قرابة ربع ميل، وحتى إن وصلت دوريةٌ إلى هنا، خلف الخطوط، إلى قوافل التموين، فهل ستنقذ العربات المختبئين تحتها؟

ازداد الهدير، وتضاعفت شدّة الاهتزازات.

قال «آندي بيبرِفيلدت» مرةً أخرى، وكان مُصيبًا مجددًا:

«الآن.»

عندئذٍ، ومن مسافة ربع ميل، عبر التلّة ومن خلف الغابة، وصل إلى مسامع المموّنين صوتٌ واضحٌ ومروّعٌ جعل شعر رؤوسهم يقف خوفًا، صوتٌ اخترق هدير المعركة وصرير الحديد وهو يرتطم بالحديد.

صهيلٌ حاد. صهيلٌ مروّعٌ ويائس، وصراخٌ جنونيٌّ مخيفٌ لحيواناتٍ كانت تتمزّق.

لعق «بيبِرفيلدت» شفتَيه قائلًا بصوتٍ منخفض:

«الفرسان... لقد انغرست خيول الفرسان في الرماح الطويلة...»

تلعثم «مومونِك» شاحب الوجه مرتجفًا:

«لا أدر... أدر... لا أدري ما ذنب تلك الخيول... أولاد الحرام.»

* * *

مسح «جارّي» جملةً أخرى بالإسفنجة، والله وحده يعلم كم بلغ عدد ما مسحه من جُمل. ضيّق عينيه محاولًا استحضار ذلك اليوم، تلك اللحظة التي اشتبك فيها الجيشان. عندما انقضّا على بعضهما البعض ككلبَي صيدٍ شرسين، وغرزا أنيابهما في حلقي بعضهما البعض، متشبثَين بعناقٍ قاتلٍ لا فكاك منه.

راح يبحث في ذهنه عن كلماتٍ تصف ما رآه.

عبثًا.

* * *

اندفعت كتلةُ الفرسان المُدبّبة نحو التشكيل المربّع كطعنة خنجرٍ عملاق. انغرست فرقة «ألبا» في كل ما يحمي جسد المشاة التيميري الحيّ؛ الرماح الطويلة، الحراب، الرماح الخفيفة، الفؤوس، التروس والدروع، فمزّقتها. وكخنجرٍ عملاق، اخترقت فرقة «ألبا» الجسد الحيّ وسفكت الدماء التي أخذت تتناثر وتتطاير تحت حوافر الخيول. لكن نصل الخنجر — وإن غُرس عميقًا — لم يبلغ القلب ولا أيًا من الأعضاء الحيوية. فقد غرست فرقة «ألبا» نفسها بدلًا من تفتيت المربع التيميري وتمزيقه، ثم علِقت هناك، محشورةً في حشدٍ كثيفٍ من الجنود المُترجّلين، كثيفٍ كالقار.

في البداية، لم يبدُ الأمر خطيرًا. كانت رأس الكتلة وجوانبها مكوّنة من وحدات النخبة الثقيلة المدرّعة، فتطايرت أسلحة جنود اللاندسكنيخت عن دروعهم وصفائحهم المدرعة مثل المطارق على السندان. وبرغم ذلك، لم تتراجع قوات المشاة، بل ضغطت بإصرار، لكن الجنود المدرّعين ردّوا عليهم بضرباتٍ من سيوفهم وأسلحتهم الثقيلة، فاهتزّت كتلة الفرسان العالقة وتقدّمت أعمق فأعمق.

«ألبااااا!» سمع الملازم الثاني «ديفين أيب ميارا» صيحة العقيد «إيغبرخت» ترتفع عاليًا فوق أصوات التصادم، والهدير، والأنين والصهيل.

«إلى الأمام!»

لكن الجنود المُترجّلين، رغم تناقص أعدادهم وتغطّيهم بالدماء، لم يستسلموا، بل تقدّموا بعنادٍ وضغطوا على الفرسان كأنّهم كماشةٌ فولاذيةٌ حتى حطّموهم أخيرًا. تحت ضربات الحراب والفؤوس والسياط الحديدية، انحنت صفوف الجنود المدرّعين في المقدمة وتشقّقت ثم انهارت. تلك الكتلة التي كانت قبل قليل حديدًا مُخيفًا يخترق جسدًا حيًا، أصبحت الآن كقطعة جليدٍ هشّة في قبضة فلاحٍ عملاق.

«تيميريااااا! من أجل الملك، يا رجال! اقتلوا أصحاب العباءات السوداء!»

لكن الأمر لم يكن هيّنًا على الجنود المشاة أيضًا. «ألبا» لم تستسلم بسهولة، بل ظلت تقاوم بضراوة. العقيد «إيغبرخت» الذي اخترق درعه رمحٌ رفيعٌ كالإبرة، صرخ متألّمًا واهتز فوق سرجه. قبل أن يُسعفه أحد، عاجلته ضربةٌ عنيفةٌ من سوطٍ حديدي أسقطته عن جواده، ثم غطّته جموع المشاة. اهتزّ لواء الفرقة الأسود الحامل لشعار العُقاب الذهبي على صدره ثم سقط.

فكّر «ديفين أيب ميارا»، وهو يهوي بسلاحه المدرّع على جنديٍ اخترق رأسه للتو: أريد أن أعرف، قال في نفسه وهو يصدّ ضربة رمحٍ مسنّن النصل كانت موجّهة إليه، أريد حقًا أن أعرف سبب كل هذا. ما الهدف من كل هذا؟ ومن الذي تسبّب فيه أصلًا؟

* * *

قالت المبتدئة «أبوندي» متلعثمة:

«إممم... ثمّ اجتمع مَجمَعُ كبيرات الساحرات الماهرات... أمهاتنا الموقّرات... إممم... اللائي ستبقى ذكراهن خالدةً بيننا إلى الأبد... لأنهنّ... إممم... الساحرات الكبيرات في المحفل الأول... قرّرنَ أن... قرّرن أن...»

قاطعتها المُعلّمة بحزمٍ قائلة:

«المبتدئة أبوندي. أنتِ غير مستعدّة. راسبة. اجلسي.»

«لكنني ذاكرتُ جيدًا حقًا...»

«اجلسي.»

تمتمت «أبوندي» وهي تجلس ممتعضةً:

«لماذا بحق الجحيم علينا تعلُّم هذه القصة القديمة؟ ومن يهتم بها اليوم أصلًا؟ وما فائدتها؟»

«الصمت! المبتدئة نيميو.»

«حاضرةٌ، سيدتي.»

«أنا أرى ذلك بوضوح. هل تعرفين الجواب على السؤال؟ إذا لم تكوني مستعدّةً اجلسي ولا تضيعي وقتي.»

«أعرف الجواب.»

«إذن تفضلي.»

«تعلّمنا السجلات التاريخية أنّ مَجمَع كبيرات الساحرات اجتمعن في قلعة الجبل الأصلع لاتخاذ قرارٍ بشأن إنهاء الحرب المُدمّرة التي كان يخوضها إمبراطور الجنوب ضد ملوك الشمال. قالت الأم الجليلة «أسيري»، الشهيدة المقدسة، إنّ الحكام لن يتوقفوا عن القتال حتى يخسروا عددًا كبيرًا من الرجال. وأجابت الأم الجليلة «فيليبا»، الشهيدة المقدسة، قائلةً: "فلنمنحهم إذن معركةً كبيرةً ودامية، مرعبةً وقاسية. لنجعل هذه المعركة تحدث. لندع جيوش الإمبراطور وقوات الملوك تنزف دمًا في تلك المعركة، وحينها سنجبرهم نحن، المحفل العظيم، على إبرام السلام." وهذا بالضبط ما حدث. لقد تسببت الأمهات الجليلات في وقوع معركة برينا. وأُجبِرَ الحكام بعدها على توقيع سلام سينترا.»

قالت المُعلّمة:

«ممتاز، المبتدئة نيمو. كنتُ سأمنحكِ تقديرًا ممتازًا مع نجمة، لولا أنك بدأتِ كلامكِ بـ"إذن". نحن لا نبدأ الجمل بكلمة "إذن". اجلسي الآن. من ستُحدّثنا عن معاهدة سلام سينترا؟»

عندئذٍ رنَّ الجرس مُعلنًا وقت الاستراحة. لكنّ المبتدئات لم ينطلقن في فوضى فورية ولم يبدأن الطرق على المناضد. حافظنَ على هدوئهنَّ وصمتٍ مُفعمٍ بالوقار. فلم يعُدن طفلاتٍ في روضة الأطفال. أصبحنَ في الصف الثالث. وأعمارهنّ الآن أربعة عشر عامًا!

وهذا يحمل معه توقّعاتٍ مُحددة.

* * *

قال «راستي» وهو يُقيّم حالة الجريح الأوّل الذي راح يُلطّخ لتوّه بياض طاولة العمليات الناصع:

«حسنًا، ليس هناك ما يمكن إضافته هنا. عظم الفخذ مهشّم... الشريان سليمٌ على الأقل، وإلا لأحضروا إلينا جثةً هامدة. يبدو أنها ضربة فأس، وكان سرج الحصان في الوقت نفسه أشبه بجذع خشبي يقطع عليه الحطّاب. تفضّلا وانظرا...»

انحنت «شاني» و«أيولا» لتنظرا، بينما فرك «راستي» يديه وأضاف:

«كما قلت، لا مجال للإضافة هنا. كل ما نستطيع فعله هو أن نُزيل. إلى العمل! أيولا! ضعي عاصبةً بإحكام. شاني، ناوليني السكين. ليس هذا! بل ذلك مزدوج النصل، الخاص بعمليات البتر.»

لم يستطع الجريح أن يُبعد نظراته المضطربة عن أيديهم، وظلّت عيناه تتبعان حركاتهم كحيوانٍ مذعور وقع في فخ.

مال الهالفلينغ نحوه ليملأ مجال رؤيته بالكامل، قائلًا وهو يُومئ برأسه إلى الساحرة:

«بعض السحر يا مارتي، من فضلك. سأضطر لبتر الساق يا بُني.»

صرخ الجريح وهو يهز رأسه محاولًا بشدّةٍ أن يتملّص من يدي «مارتي سودرغرين»:

«لاااا! لا أُريد ذلك!»

«إن لم أبتر، ستموت.»

«أفضل أن أموت...» بدأ الجريح يتكلّم ببطءٍ متزايد تحت تأثير سحر المعالجة. «أفضل الموت... على أن أصبح مُقعدًا... دعني أموت... أتوسّل إليك... دعني أموت!»

رفع «راستي» السكين عاليًا وتأمّل النصل الذي لا يزال نظيفًا وبرّاقًا، ثم قال بهدوء:

«لا أستطيع ذلك. لا أستطيع تركك تموت. لأنني، لسوء حظك، طبيب.»

ثم غرس النصل بحسمٍ وقطع عميقًا. فانطلق الجريح يصرخ ويعوي عواءً ليس بشريًا على الإطلاق.

* * *

شدّ الرسول لجام حصانه بقوّةٍ حتى تطاير العشب والتراب من تحت حوافره، وأسرع مساعدان في الإمساك باللجام لتهدئة الجواد الذي راح يرغي ويزبد، ثم ترجّل الرسول لاهثًا.

صاح «يان ناتاليس» متسائلًا:

«من أي جهةٍ أتيت؟ من أرسلك؟»

أجاب الرسول مُنهكًا:

«من الكونت دي رويتر... لقد صمدنا أمام ذوي العباءات السوداء... لكن خسائرنا فادحة جدًا... الكونت دي رويتر يطلب تعزيزاتٍ عاجلة...»

ردّ الشرطي بعد لحظة صمتٍ قاسية:

«لا توجد تعزيزات. عليكم أن تصمدوا وحدكم. يجب أن تصمدوا!»

* * *

وفي مكانٍ آخر، أشار «راستي» بيده متفاخرًا، كأنه جامع تحفٍ يعرض مجموعته النادرة:

«تأمّلوا هنا النتيجة الرائعة لضربةٍ في البطن. يبدو أن أحدًا سبقنا وأجرى بيديه عملية فتح بطنٍ بدائية لهذا المسكين. من حسن الحظ أنه نُقِلَ إلينا بحذر، ولم نفقد أي عضوٍ حيوي منه... أو هكذا آمل على الأقل. ما الخطب يا شاني؟ لماذا هذا الوجه الشاحب؟ أهذه أول مرةٍ ترين فيها الرجال من الداخل؟»

قالت شاني بصوتٍ مرتجف:

«الأمعاء تالفة يا سيد راستي...»

«يا له من تشخيصٍ دقيقٍ وبديهي! لا حاجة للنظر، يكفي أن نشمّ الرائحة. أيولا، أعطيني قطعة قماش. مارتي، لا يزال هناك نزيفٌ كثير، أرجوكِ قدّمي لنا القليل من سحركِ الثمين. شاني، ملقط. ضعي ملقطًا شريانيًا، ألا ترين الدماء تنساب بغزارة؟ أيولا، ناوليني السكين.»

سأل الجريح فجأةً، بوعيٍ مذهل رغم همهمته الواضحة، وعيناه تدوران في محجريهما:

«من المنتصر؟ قولوا لي... من الذي ينتصر؟»

انحنى «راستي» فوق تجويف البطن المفتوح، الدامي، النابض قائلًا بنبرةٍ جافة:

«بُني، لو كنتُ مكانك، لكان هذا هو آخر ما سأقلق بشأنه.»

* * *

ثم بدأ قتالٌ دمويٌّ عنيفٌ على الجناح الأيسر وفي قلب الصفوف. ولكن هناك، ورغم قسوة المعركة ووحشيتها، ورغم اندفاع الفرسان وتوالي هجماتهم، فقد اصطدموا كالموج بصخرةٍ عنيدة. كانت كتائب اللاندسكنيخت المحترفة، ووحدات الجنود المدرّعة الثقيلة، والمشاة المخضرمون الذين لا يخافون الخيول، تقاوم كالمنحدرات الصخرية الصلبة التي لا يهزّها عنف الأمواج ولا تكسرها هجماتها المتكررة.

وهكذا استمرت المعركة دون أن يستطيع أحدٌ أن يجزم مَن كانت له الغلبة؛ إذ ظلّت الأمواجُ النيلفجاردية تضرب الصخرة التيميرية بلا توقّف، تتلاحق الهجمة تلو الأخرى دون كللٍ أو ضعفٍ، في حين ظلّت الصخرةُ صامدةً ثابتةً في مكانها دون أن تضعف أو تلين، وإن تصدّعت قليلًا.

لكن على الجناح الأيمن من الصف، تغيّر الأمر على نحوٍ مختلف.

فكما يعرف الصقرُ المُحنّك أين يوجّه ضربته القاتلة، عرف المشير «مينّو كوهورن» جيدًا أين يُسدّد ضرباته. وبقبضةٍ من حديدٍ جمع فيها قواته المختارة — فرقة «ديثوين» من الرماحين وفرقة «آرد فين» المدرعة — انقضّ بقوةٍ على نقطة الوصل بين الصفوف فوق «البحيرة الذهبية»، حيث تمركزت كتائب «بروغ». وبرغم ثبات هذه الفرق في مواقعها لفترة، إلا أنها سرعان ما بدأت تتراجع. هُرعت وحدتان من «السرية البروجية» لمساعدتهم، وقاوموا النيلفجارديين بضراوة، ودفعوا لقاء ذلك ثمنًا باهظًا من الدماء. إلا أنّ التهديد المخيف بالتطويق بات الآن يهدّد كتيبة الأقزام المتطوّعين الواقفة على الجناح الأيمن، وأصبح خطر قطع خطوط الجيش الملكي بأكمله وشيكًا.

غمس «جاري» ريشته في الحبر مرةً أخرى وواصل الكتابة، بينما راح يستحضر تلك اللحظات بألمٍ ومرارة:

ثم شعر الأقزام المتطوّعون الذين تمركزوا على الجناح الأيمن بخطرٍ رهيبٍ يحيق بهم؛ خطر الوقوع في فخ الحصار الكامل، لأن الانهيار الذي أصاب القوات في المنتصف هدّد بتقطيع أوصال الجيش الملكي كله.

وفي اللحظة ذاتها، أرسل الشرطي «يان ناتاليس» رسولًا عاجلًا إلى وحدة الأقزام حاملًا أوامر صارمةً للعقيد «إلس...»

* * *

وسط كل ما يحمله من سذاجة أعوامه السبعة عشر، اعتقد الملازم الشاب «أوبري» أن الوصول إلى الجناح الأيمن وتسليم الأوامر والعودة إلى التل لن تستغرق أكثر من عشر دقائق على الأكثر. بل أقل من ذلك! لا سيّما وهو يمتطي «تشيكيتا»، تلك الفرس الرشيقة الخفيفة كغزالة برية.

شرق البركة الذهبية كانت المعركة مُستعرةً بالفعل. كان الفرسان البروغيون وذوو العباءات السوداء الذين هاجموا تشكيلات المشاة يضربون بعضهم البعض بشراسة. أمام عيني «أوبري»، بدأت تظهر فجأةً شخصياتٌ ترتدي العباءات الخضراء والصفراء والحمراء، تتطاير حوله كأنها شظايا من زجاجٍ ملوّن متكسّر، تتطاير كشراراتٍ في كل اتجاه.

همّ «أوبري» بأن يدير لجام فرسه «تشيكيتا»، التي كانت سريعةً كغزالة، كي يبتعد عن طريق الفارّين ومطارِدِيهم الذين بدأوا يتدفّقون نحوه، لكنه سرعان ما استجمع شجاعته، وقرّر الواجبُ أن يتحرّك. مال بجسده إلى عنق فرسه وانطلق بها بأقصى سرعةٍ ممكنة.

من حوله كانت الأصوات تصرخ والحوافر تهدر، وامتلأ بصره بمشاهد متداخلة سريعةٍ كألوان منظارٍ سحري. ومضت في عينيه وجوه الجنود ولمعان أسلحتهم المتداخلة في عراكٍ جنوني.

فجأةً، حجبت رؤيته عباءةٌ سوداء تحمل رمز الشمس الفضّية، وصاح الفارس النيلفجاردي أمامه:

«إفغير أيها الشمالي!»

صرخ «أوبري»، واندفعت «تشيكيتا» فجأةً بحركةٍ أشبه بقفزة غزالةٍ حقيقية، لتنقذ حياته وتُخرجه من نطاق ضربة السيف النيلفجاردي.

تطايرت السهام والمسامير من حوله دفعةً واحدة. وارتفعت أصواتٌ من حوله تصرخ به، سمع من بينها صوت امرأة:

«إلى أين أيها الأحمق؟ ليس من هذا الطريق!»

التفتَ «أوبري» ليرى صاحبة الصوت، كانت امرأةً ترتدي درعًا فوق حصانٍ أسود، وشعرها الطويل يتطاير في الهواء، ووجهها مُلطّخٌ بقطرات الدماء. رافقها فرسانٌ آخرون في دروعهم الثقيلة.

صرخت به المرأة وهي تمسح الدماء عن سيفها بقبضتها:

«من أنتَ بحق الشيطان؟»

أجاب بصوتٍ متقطّعٍ مرتبك:

«الملازم أوبري... أحمل رسالة...»

قاطعتْه المرأة بنفاد صبر:

«من أين؟»

«من القيادة العليا... من الشرطي ناتاليس... أوامر إلى الجناح الأيمن...»

صرختْ مرةً أخرى وهي تُشير بسيفها:

«فات الأوان على ذلك! أنا القائدة جوليا! انظر حولك! النيلفجارديون يطوّقوننا! أيها الفرسان، انطلقوا!»

لم يتح له الوقت للاحتجاج أو التفكير. ولم يكن لذلك فائدة أصلًا.

انطلق «أوبري» مع القافلة المدرّعة، وهم يشقّون طريقهم من بين الفوضى التي أحاطت بهم من كل جانب.

بعد نوبةٍ من العدو الجنوني للخيول، برز أمامهم من وسط الغبار حشدٌ ضخمٌ من المشاة، مصطفّون في تشكيلٍ مربّع، مُحتمين بالدروع الثقيلة كأنهم سلحفاة، وبدا المربّع من بعيدٍ كوسادة دبابيس ممتلئة برؤوس الحراب المُشرعة. فوق التشكيل كان يرفرف لواءٌ ذهبيٌّ ضخمٌ عليه شعار المطارق المتقاطعة، وبجواره عصا مرتفعة تحمل ذيول الخيول وجماجم بشرية.

كان المربع يتعرّض لهجومٍ عنيفٍ من جنود نيلفجارد، الذين اندفعوا ثم تراجعوا سريعًا، كما تندفع الكلاب المتنمّرة على متسوّلٍ يلوّح بالعصا. كانت فرقة «آرد فين»، برموز الشمس الكبيرة الواضحة على عباءاتهم السوداء، واضحةً للغاية بحيث لا يمكن الخلط بينها وبين غيرها.

صرخت المرأة وهي تدور بسيفها في الهواء، صارخةً بصوتٍ عالٍ:

«قاتلوا يا أبناء السرية الحرّة! فلنكسب أجرنا!»

اندفع الفرسان، و«أوبري» معهم، نحو جنود نيلفجارد.

استمرّ الاشتباك بضع لحظاتٍ فقط. لكنه كان مروّعًا.

ثم فُتحت أمامهم فجأةً جدران الدروع الثقيلة، ليجدوا أنفسهم داخل المربّع المُكتظ، بين أقزامٍ يرتدون دروعًا بريدية، وخوذاتٍ مدبّبة، وبين جنود مشاة «ريدانيا»، وفرسان «بروغ» الخفيفين، ومقاتلي المرتزقة المدرّعين.

جذبته «جوليا أباتيماركو» — أو «كيتي الجميلة»، كما أدرك «أوبري» هويتها الآن فقط — من ذراعه، ودفعته نحو قزمٍ بدينٍ يرتدي خوذةً مدبّبةً مزدانةً بريشةٍ رائعة، يجلس بشكلٍ غريب على حصانٍ نيلفجاردي مدرّع، في سرجٍ مصمّمٍ للرماحين بمقابض كبيرة، صعد عليه لكي يتمكن من الرؤية فوق رؤوس جنود المشاة.

سألت جوليا مباشرة:

«العقيد باركلي إليس؟»

أومأ القزم ذو الخوذة المزينة بالريش برأسه موافقًا، متأملًا بارتياحٍ واضح الدماء التي غطّت جسد الملازم الشاب وفرسه. احمرّ وجه «أوبري» خجلًا، فقد كانت تلك دماء النيلفجارديين الذين قتلهم المرتزقة بجانبه مباشرةً، بينما لم يتمكن هو حتى من سحب سيفه.

قال متلعثمًا:

«الملازم أوبري...»

قاطعه العقيد مبتسمًا:

«ابن أنزِلم أوبري؟»

«ابنه الأصغر.»

«ها! أعرف والدك جيدًا! حسنًا، ماذا أتيت تحمل إليّ من أوامر ناتاليس وفولتيست، أيها الملازم؟»

قال أوبري وهو يحاول استعادة أنفاسه:

«الجناح مهدّد... هناك اختراقٌ في منتصف الخطوط... يأمر الشرطي ناتاليس فوج المتطوّعين بالانسحاب فورًا نحو البحيرة الذهبية ونهر خوتلا... من أجل تعزيز...»

لكن ضجيج المعركة، وصليل الأسلحة وصهيل الخيول الغاضب، ابتلع بقية كلماته. في تلك اللحظة، أدرك «أوبري» فجأةً مدى سخافة هذه الأوامر التي جاء بها، وكم كانت ضئيلةً أهميتها الآن بالنسبة للعقيد «باركلي إليس»، أو «جوليا أباتيماركو»، أو حتى بالنسبة لهذا التشكيل المربع من الأقزام الذين يحاصرهم الآن بحرٌ أسودٌ من جنود نيلفجارد، ويهاجمهم من كل جانب.

همس «أوبري» بصوتٍ مخنوق:

«تأخّرتُ كثيرًا... جئتُ متأخرًا...»

سخرت «كيتي الجميلة»، بينما ابتسم «باركلي إليس» ابتسامةً ساخرةً وهو يقول بهدوء:

«لا، أيها الملازم الصغير، بُني. الحقيقة هي أنّ نيلفجارد هي التي جاءت باكرًا جدًا.»

* * *

صاح «باركلي إليس» ملتويًا لحيته بغضب:

«ما الذي تقوله بحق الشيطان، أيها الملازم الصغير؟ ابن أنزِلم أوبري الأصغر؟ هل تظن أننا نتسكّع هنا لا أكثر؟ نحن لم نتزحزح قيد أنملة أمام العدو! ولا إنشًا واحدًا! ما ذنبنا إذا كان رجال بروغ لم يصمدوا؟!»

تمتم «أوبري» بصوتٍ متردّد:

«لكن الأمر العسكري واضح...»

صاح «باركلي» منفجرًا:

«تبًا لأوامركم!»

تدخلت «كيتي الجميلة»، وارتفع صوتها فوق الضجيج والصخب:

«إذا لم نسدّ هذه الثغرات، سيخترق أصحاب العباءات السوداء الصفوف! سيسقط الخط الأمامي! افتح التشكيل!»

تجاهل «باركلي إليس» كلامها مُتجهًا نحو الملازم مرةً أخرى، وصرخ في وجهه بحدة:

«سيخترقون الخط! أهذا واضح لك؟»

كانت عيناه محمرّتين، محتقنتين بالدماء، شرستين إلى حدٍّ مُخيف.

اهتزّت «تشيكيتا» بفزعٍ تحت الملازم «أوبري»، قدر ما أتاح لها الزحام ذلك.

صاح «باركلي» فجأةً بصوتٍ أجشّ:

«استدعوا لي ياربن زيغرين ودينيس كرانمر فورًا!»

بدا واضحًا منذ النظرة الأولى أن القزمين اللذين اقتربا بسرعة كانا قد عانيا في قتالٍ شرس للتوّ. كانت الدماء تغطي وجهيهما وثيابهما، وبدت كتفا «دينيس» مُغطاتَين بخوذة ملطخة بالدماء، بينما رأس «ياربن» ملفوفٌ بضمادةٍ حمراء قانية.

سأل «باركلي»:

«كل شيءٍ على ما يرام، يا زيغرين؟»

ردّ ياربن لاهثًا:

«بدأت أتساءل حقًا لماذا يواصل الجميع طرح هذا السؤال اللعين!»

ثم التفت «باركلي إليس» نحو «أوبري» وحدّق في عينيه طويلًا، وقال بنبرةٍ خشنةٍ ثقيلة:

«إذن، أنت الابن الأصغر لأنزِلم أوبري، أليس كذلك؟»

هزّ الملازم رأسه موافقًا بخوفٍ واضح.

تابع «باركلي إليس» بنبرةٍ غاضبة:

«الآن استمع جيدًا، بُني. إنني لا أعطي أدنى اهتمامٍ للأوامر التي جئت بها. أتفهم هذا؟ فليذهب ناتاليس وأوامره إلى الجحيم!»

ثم أضاف وهو يطلق زفيرًا ثقيلًا:

«ولكن بما أننا على وشك أن نُقتل جميعًا على أي حال، فعلينا أن نفعل ما بوسعنا. أليس كذلك؟»

صاح بعد ذلك بصوتٍ جهوري:

«يا رجال! افتحوا التشكيل! سوف نملأ هذه الثغرة! لا تراجع!»

ثم رمق الملازم «أوبري» بعينين شرستين، محتقنتين بالدم، قبل أن يقول وهو يمسك مقبض سيفه بشدّة:

«هذه هي اللحظة التي سنثبت فيها لماذا خُلقنا، يا ابن أنزِلم!»

* * *

صرخ «راستي» غاضبًا، وهو يتراجع إلى الوراء حاملًا مِبضعه كأنه سلاحٌ يهدّد به السماء:

«تبًا! لماذا؟ اللعنة، لماذا يجب أن يحدث هذا في كل مرة؟»

لم يُجبه أحد. اكتفت «مارتي سودرغرين» بهزّ كتفيها بحزنٍ وهي تبسط يديها، بينما خفضت «شاني» رأسها بصمت، وأطلقت «أيولا» تنهيدةً مكتومة.

كان المريض، الذي مات لتوّه على الطاولة، يُحدّق نحو الأعلى بعينين ثابتتين، مفتوحتين على اتساعهما، تحملان سؤالًا بلا جواب.

* * *

صاح «باركلي إليس» وهو يهدر بصوتٍ كالرعد:

«حافظوا على الصف! خطوةً واحدةً متساوية! لا تتفرقوا! ابقوا متلاصقين، تماسكوا معًا، معًا!»

لن يصدّقوني أبدًا، فكّر الملازم الشاب «أوبري» مذهولًا. لن يصدّقني أحد حين أروي لهم ما يحدث هنا. هذا المربّع يقاتل وهو محاصرٌ بالكامل، من كل الجهات، غارقٌ في بحرٍ أسود من الفرسان الذين يطوقونه ويضغطون عليه. ومع ذلك، ما زال يقاوم، بل ويتقدّم.

«قاتِلوا!» صرخ «باركلي إليس». «خطوةً واحدة! خطوةً واحدةً، متلاحمة! حافظوا على الصف! قريبًا من بعضكم! متراصّين!»

ثم صاح مجددًا:

«الأغنية! بحق الجحيم! أغنيتنا! إلى الأمام يا ماهاكام!»

فانطلقت آلاف الحناجر من الأقزام تُردّد نشيد معركة ماهاكام الشهير بصوتٍ واحدٍ مُدوٍّ يهزّ الأرض:

«ماهكاااام!
يا أرض الحديد، يا جبال الفخر!
ماهكام، لن تخضع أبدًا!»

ارتفع فوق زئير الأقزام الغليظ صوتُ سوبرانو حادّ ورنّان كخنجرٍ دقيق، صوت «كيتي الجميلة»، «جوليا أباتيماركو»، وهي تصرخ في رجالها المرتزقة الذين انطلقوا من الصفوف ليصدّوا هجوم الفرسان النيلفجارديين على المربع:

«قاتلوا يا أبناء السرية الحرّة! اقطعوا الطريق على الأوغاد! قاتلوا!»

كان هجوم المرتزقة هجومًا انتحاريًا حقيقيًا، إذ اصطدموا بكامل ثقل فرسان نيلفجارد. تلقّى «أوبري» فجأةً ضربةً عنيفةً في ظهره، ووجد نفسه ينجرف مع فرسه «تشيكيتا» وسط الحشد، نحو الفوضى المُطلقة والمذبحة المروعة. قبض على سيفه بإحكام، لكنه شعر به فجأةً لزجًا وغريبًا في يده.

بعد لحظات، وجد نفسه خارج خط الدروع الثقيلة، في قلب الجحيم ذاته.

اخترق فارسٌ نيليفغاردي بلا خوذة، مرتديًا عباءةً سوداءَ تحمل شعار الشمس الفضية، صفوف المدافعين بضراوة، وقف في ركاب حصانه، وبضربةٍ مرعبةٍ من فأسه أسقط قزمًا مع درعه الثقيل، ثم شطر رأس قزمٍ آخر إلى نصفين.

صاح «أوبري» دون أن يعي وهو يندفع نحوه، ثم هوى عليه بسيفه، لكنه فشل في إصابته. استدار محاولًا إعادة الكرّة، لكنه تعثّر، وتعلّق جسده للحظةٍ وجيزةٍ بين السماء والأرض، وبين جنبي جوادين هائجين، وصرخ صرخةً حادةً مُريعةً امتزجت بأصوات الصراخ وصليل الحديد وصهيل الخيول.

ورغم أن ذلك المشهد كان مرعبًا للغاية، إلا أنه لم يعانِ طويلًا، إذ ما كاد يسقط أرضًا حتى سحقت خوذةٌ حديدية قدمها حصانٌ هائجٌ جمجمتَه على الفور.

* * *

بعد مرور أعوامٍ طويلة، كانت «جوليا أباتيماركو»، التي كانت يومًا «كيتي الجميلة» من السرية الحرّة، تُسأل عن تلك المعركة، فترفع رأسها وتبتسم، وتزداد ابتسامتها تجعيدًا لوجهٍ صار داكنًا ومتغضّنًا كحبة خوخٍ يابسة. كانت تلوّح بيدها المرتجفة المتصلّبة من التهاب المفاصل بفارغ الصبر، أو ربما كانت تتظاهر بذلك.

تتمتم بصوتٍ خافتٍ قائلة:

«لم يكن لأي طرفٍ من الطرفين أي فرصةٍ في الفوز، صدّقوني. لم يكن ممكنًا أن ينتصر أحدهما على الآخر في ذلك اليوم.»

ثم تسكت قليلًا، وتواصل بحزنٍ كأنها تستحضر ذلك اليوم:

«كانوا شجعانًا مثلنا تمامًا.»

وبعينين اغرورقتا بالدموع، دموعٌ شقّت طريقها بصعوبةٍ وسط التجاعيد والندوب القديمة، أكملت حديثها بصوتٍ متهدّجٍ ضعيف:

«كلا الطرفين كان شجاعًا بذات القدر. لم يكن لأيٍ منا قدرةٌ على أن يكون أشجع من الآخر. لكننا، نحن... نحن نجحنا في أن نكون شجعانًا لدقيقةٍ واحدةٍ إضافية.»

سكتت من جديد، فراح من حولها يُحدّقون إليها في صمتٍ باحترام. لم يعودوا يرون أمامهم سوى عجوزٍ ضعيفة، لكنهم كانوا يعرفون جيدًا أنها كانت يومًا «كيتي الجميلة»، «جوليا أباتيماركو» من السرية الحرة، امرأةً قادت جنودها يومًا في معركة «برينا» الأسطورية، حين قاتلت بشجاعةٍ لا مثيل لها.

كانت هي الآن ترى أمام عينيها بوضوحٍ رفاقها القدامى الذين ذابوا شيئًا فشيئًا في ضباب النسيان والإهمال، الذين نجوا من تلك المعركة المجنونة، فقط ليموتوا فيما بعدُ على نحوٍ حقير، بسبب الخمر والمخدرات أو السُلّ.

اختتمت «جوليا أباتيماركو» حديثها بابتسامةٍ حزينة:

«كنا شجعانًا مثلهم تمامًا. لم تكن لأي من الطرفين قدرةٌ على أن يكون أكثر شجاعةً من الآخر. لكنّنا نحن... كنّا شجعانًا دقيقةً واحدةً أطول.»

* * *

صاح «راستي» بصوتٍ عالٍ: «قليلٌ من سحركِ الرائع يا مارتي! قليلٌ منه بعد، أرجوكِ، بضع قطراتٍ إضافية فقط! بطن هذا المسكين أصبح حساءً من اللحم المُقطّع، متبّلًا بالكثير من الحلقات المعدنية من قميصٍ بريدي! لا يمكنني أن أفعل شيئًا وهو يتلوّى هكذا بجنونٍ كسمكةٍ خرجت من الماء!»

لم تُجبه «مارتي سودرغرين»، بل سارعت بنشر سحرها لتهدئة الجريح قليلًا.

تابع «راستي» صارخًا بتوتر: «ضمّادة! ضمادة! ملقط أمعاء! ليس هذا! أريد الملقط الناعم! انتبهي لما تفعلينه، شاني! خطأٌ آخر وسأصفعكِ بنفسي على وجهكِ!»

في تلك اللحظة كانت «أيولا» على وشك الانهيار. فكّرت المبتدئة، وهي تلهث وتحاول منع نفسها من التقيؤ: لم أعد أحتمل. لم أعد أحتمل كل هذا! لم أعد أحتمل هذه الرائحة الفظيعة، هذا الخليط المقرف من الدماء، والقيء، والبراز، والبول، ومحتويات الأمعاء، والعرق، والخوف، والموت. لم أعد أطيق هذه الصرخات التي لا تتوقف، هذه الآهات، هذه الأيدي الملطّخة بالدماء والسوائل، التي تتشبّث بي وكأنها تطلب مني شيئًا يستحيل عليّ تقديمه.

لم أعد أحتمل كل هؤلاء الجرحى الجدد... الذين يأتون واحدًا وراء الآخر، بلا نهاية...

سأتقيأ الآن. سأُغمى عليّ. سأُهين نفسي أمامهم جميعًا.

صاح «راستي» مرةً أخرى بنبرةٍ حادة:

«ملقط! كمّادة! ضمادة! ملقط الأمعاء! ضعي الملقط اللين! انتبهي جيدًا لما تفعلينه! لو ارتكبتِ خطأً آخر فسأصفع رأسكِ الأحمر الصغير!»

ثم هدأ فجأةً وأضاف بصوتٍ أكثر إرهاقًا ولطفًا:

«هكذا، جيد. أيولا، امسحي عينيه ووجهه... وامسحي وجهي أيضًا...»

* * *

في مكانٍ آخر من المعركة، فكّر الشرطي «يان ناتاليس» متسائلًا بألم:

من أين يأتي هذا الألم؟ ما الذي يؤلمني بهذه الحدّة؟

آه، فهمت الآن...

إنها قبضتاي المضمومتان بقوة.

* * *

صرخ «كيس فان لو» وهو يفرك يديه بحماسٍ مُفرط:

«فلنُجهز عليهم! لنهجم عليهم الآن، يا سيدي! الخط يتصدّع عبر التشكيلات كلها، فلنضرب دون تأخير! وبحق الشمس العظيمة، سينهارون! سيتشتّتون!»

كان «مينّو كوهورن» يقضم ظفره بعصبية، ثم أدرك فجأةً أنّ الجميع يراقبونه، فرفع رأسه وقال بحدّة:

«فرقة ناوسيكا ستبقى مكانها، وكذلك جنود ديرلان. يا سيد فاولتيارنا!»

التفت نحوه قائد فرقة فريهد «إيسينغريم فاولتيارنا»، المُلقّب بالذئب الحديدي، وأدار نحوه وجهه المُروّع المشوّه بندبةٍ بشعة تمتدّ عبر جبهته، وحاجبه، وقصبة أنفه، وخدّه، ثم حدّق في عيني المشير بثبات.

قال «مينّو كوهورن» بصوتٍ أجشّ:

«تقدّموا أنتم.»

لم يرتجف وجه إيسينغريم البشع، ولم يرف له جفنٌ، ولم يتغيّر التعبير الغامض في عينيه الكبيرتين وهو يُحدّق نحو المشير.

فكّر «مينّو كوهورن» وهو يراقبهم يتحركون إلى القتال:

حلفاء... رفاق. نقاتل معًا في صفٍ واحد، ضد عدوّ مشترك.

لكنني لا أفهمهم مطلقًا، هؤلاء الجنّ.

أشعر أنّهم كائناتٌ غريبة.

مختلفة.

لا يُمكن فهمها.

* * *

قال «راستي» وهو يحاول أن يمسح وجهه بمرفقه، لكنّ المرفق أيضًا كان ملطّخًا بالدماء:

«أمرٌ مثيرٌ للاهتمام حقًا. اقتربنَ هنا، يا فتيات، وانظرن جيدًا.»

مالت «مارتي سودرغرين»، و«شاني»، و«أيولا» فوق الجثة، بينما سحب «راستي» جفن الجثة إلى الخلف وكشف العين الساكنة.

أكمل قائلًا:

«إصابة القلب مباشرةً. رمحٌ اخترق الحجرة القلبية بوضوح، وتمزّق الأبهر تقريبًا. والغريب أنّه بقي يتنفّس لبعض الوقت. حتى هنا، على الطاولة. وصل إلينا حيًا رغم طعنةٍ قاتلةٍ كهذه.»

تدخّل أحد الفرسان من المتطوعين، بنبرةٍ قاتمة:

«هل تعني أنه ظلّ حيًا وقلبه ممزّق؟»

«هذا بالضبط ما أعنيه. أمرٌ مذهل، أليس كذلك؟»

سأل متطوعٌ آخر طويل القامة، برأسٍ مضمد:

«إنه مَن فرقتنا يا سيدي الطبيب. كان متطوعًا مثلنا، لكنه كان بارعًا للغاية في المبارزة بالسيف. كانوا يسمّونه «كوين».»

«وكان ويتشرًا، أليس كذلك؟»

«أجل، كان ويتشرًا.»

هزّ «راستي» رأسه، وهو يمسح جبهته بمرفقه المُلطّخ بالدماء مجددًا:

«خسارةٌ حقيقية. كنتُ سأود أن أحتفظ بهذه الجثة للتشريح. أنا محترقٌ بالفضول لرؤية جسده من الداخل. قد يُكتَب عن ذلك بحثٌ علميٌ ممتاز... لكن لا وقت لدينا! أزيحوا هذه الجثة عن الطاولة!»

صاح بعدها بأوامره سريعًا:

«شاني، ماء! مارتي، طهّري الطاولة. أيولا، أعطيني...»

توقّف فجأةً متأملًا وجه «أيولا»، ثم قال بنبرةٍ ألطف:

«مرحبًا، أيتها الفتاة، هل أنتِ تبكين؟ ماذا هناك؟»

هزّت «أيولا» رأسها بسرعةٍ محاولةً إخفاء توترها.

في مكانٍ آخر، كانت أفكار الملازم «أوبري»، قد توقّفت نهائيًا، فلم يعد يشعر بالألم أو الخوف.

فقد انتهى كل شيء.

* * *

قالت «تريس ميريجولد»، وهي تكرّر عبارتها كأنها تُخاطب نفسها:

«أشعر وكأنّني قد سُلبتُ شيئًا عزيزًا.»

لم تُجبها «نينّيكي» لفترةٍ طويلة، وظلّت تنظر من الشرفة نحو حديقة المعبد، حيث كانت الكاهنات والمبتدئات يتحركنَ بين الأشجار بهدوءٍ في عملهنّ المعتاد.

تابعت «تريس» بتوتّر:

«يا نينّيكي، حقًا لا أستطيع قول شيءٍ آخر غير ما قلته. صدّقيني، واغفري لي.»

ردّت «نينّيكي» بنبرةٍ هادئةٍ وحزينة:

«ومن أنا كي أغفر لكِ؟ وماذا ستجنين من مغفرتي؟»

انفجرت «تريس» فجأةً بانفعال:

«لكنني أرى كيف تُحدّقين بي! أرى كيف تنظرين إليّ، كيف تُدينينني بعينيكِ!»

ثم أشاحت الساحرةُ بوجهها بعيدًا نحو الغابة التي تلوح بلونها الأزرق من وراء سور المعبد، حيث تتصاعد أدخنة نيران المخيمات البعيدة.

ظلّت «نينّيكي» صامتة. كانت هي أيضًا سارحةً في أفكارها بعيدًا، حيث تدور المعارك وتسيل الدماء، وحيث أرسلت فتياتها الصغيرات. كانت تفكّر بالفتيات اللواتي بعثت بهنّ إلى هناك.

أكملت «تريس» بصوتٍ مختنقٍ بالأسى:

«لقد أقنعوني... أقنعوني بأن هذا هو الصواب. قالوا إن هناك أمورًا أكثر أهميةً من الأفراد. أن نضحّي بالقليل من أجل الكثير، دون ترددٍ أو ندم. قالوا لي إن إنقاذ من نعرفهم ونحبّهم لا معنى له أمام مصير العالم بأكمله. قالوا إنّ مصير الأفراد لا يساوي شيئًا.»

ثم أضافت وصوتها يرتجف:

«لقد حرموني من فرصةٍ أن أنقذ «سيري» بجنون، أن أجري كالمجنونة لإنقاذ جيرالت وينيفر. وليس هذا فحسب، بل في الحرب التي أرسلتِ فتياتك إليها... في الحرب التي هرب إليها «جاري»، حُرمتُ حتى من فرصة المشاركة في إنقاذ الآخرين.»

أطلقت تنهيدةً مؤلمةً ثم أضافت بنبرةٍ خافتةٍ مُنكسرة:

«لقد حُرمتُ من أن أكون مجنونةً وشجاعةً في الوقت ذاته.»

قالت «نينّيكي» بنعومةٍ وحكمة:

«نحن جميعًا في حربٍ، يا تريس. حربٌ لا مهرب منها. ولابد لكِ أن تخوضيها أيضًا يومًا ما.»

* * *

حدث اضطرابٌ عند مدخل الخيمة، إذ وصل جريحٌ جديد برفقة بضعة فرسان. كان أحدهم، مرتديًا درعًا ثقيلًا كاملًا، يصرخ غاضبًا، يُصدر الأوامر ويستعجل الحمّالين بقسوةٍ واضحة:

«تحرّكوا أيها الحمقى! بسرعة! ضعوه هنا! هنا! أنتَ أيها الطبيب!»

تجاهله «راستي» وهو يواصل محاولاته لإخراج رأس السهم المكسور الذي انزلق مجددًا من الملقط بين يديه.

زمجر الفارس المدرّع بغضب:

«أسرعوا، أيها الحمقى! ضعوه هنا! أنت، أيها المعالج!»

ردّ «راستي» بصوتٍ مرتفع، والغضب يتصاعد في نبرته:

«هذا المستشفى ليس مكانًا ديمقراطيًا أبدًا! هم عادةً لا يُحضرون إلينا سوى الفرسان فما فوقهم؛ بارونات، كونتات، نبلاء، أمراء...»

توقّف لحظةً ليعيد إدخال الملقط والمبزل بحذرٍ في الجرح المفتوح، ثم أكمل صارخًا بغضبٍ واضح:

«لكن هذا لا يُهمّني على الإطلاق! سواء كان الذي على طاولتي فلاحًا، أو فارسًا، أو من طبقة النبلاء، فكلهم متساوون عندي. طالما أنه على طاولتي، فإنني سأخرج قطع الحديد من أحشائه، ولا فرق عندي بين فلاحٍ ومزارعٍ، وبين فارسٍ من عائلة نبيلة. كلّهم أمام الله وأمام المشرط سواء.»

صاح الفارس ذو الدرع الثقيل بغضب، بينما يصطكّ درعه بأسنانه:

«ماذا تقول أيها الهالفلينغ الحقير؟ إنه الكونت العظيم دي رويتر!»

«كونت أو فلاح أو بهلوان!» صرخ «راستي» بغضبٍ مماثل. «إنه سينتظر دوره، شأنه شأن الآخرين!»

خطا الفارس المدرّع خطوةً إلى الأمام، وصاح مهددًا:

«سأشنقك! سأصدر أوامري بشنقك، أيها المخلوق غير البشري!»

لم يكترث «راستي» بتهديده، بل صاح بدلًا من ذلك نحو مساعداته:

«شاني، ساعديني بالملقط الآخر! انتبهي إلى الشريان! مارتي، بعضًا من سحركِ مجددًا، لدينا نزيفٌ خطيرٌ هنا!»

في هذه اللحظة، دوّى من الخارج صليل الدروع، وصهيل الخيول المتعالية، والصراخ الوحشي الذي بات يخترق الجدران القماشية للخيمة. امتزج ذلك بأصوات الأنين العالية من الجرحى المنتشرين في أرجاء المستشفى الميداني.

عندئذٍ تحدّث الكونت الجريح بصعوبة، موجهًا كلامه للفارس الغاضب:

«توقّف عن ذلك... دعه يعمل...»

تردد الفارس، لكن الأصوات القادمة من الخارج ازدادت حدّةً وضراوة.

قال «راستي» بغضب وهو يحاول أن يُسيطر على النزيف:

«مارتي! قليلًا من السحر الإضافي، أرجوكِ! النزيف هنا خطيرٌ جدًا!»

أضاف بعدها موجهًا كلامه للفارس المدرّع بنبرةٍ جافّة:

«والآن، إن كنت ترغب في رؤيتي مشنوقًا، فسيكون عليك الانتظار حتى أنتهي من عملي.»

رفع «راستي» ملقطه عاليًا، عارضًا رأس السهم المهشّم الذي استخرجه أخيرًا من الجرح قائلًا بسخريةٍ لاذعة:

«انظروا إلى هذه التحفة! لا شكّ أنّ حرفيًا صنع هذه الزينة، وأعان بصناعتها عائلةً كبيرة، وساهم بالتالي في تنمية الصناعات اليدوية الصغيرة، ومن ثمّ في الازدهار العام والسعادة الشاملة. والطريقة التي تتشبّث بها هذه التحفة في أمعاء البشر لا بدّ أنها مسجّلةٌ كبراءة اختراع! عاش التقدّم!»

ثم ألقى قطعة المعدن الدامية في سلّة المهملات دون اهتمام، وألقى نظرةً خاطفةً نحو الجريح الذي فقد الوعي أثناء العملية.

هزّ رأسه قائلًا:

«خيطوا جرحه وأخرجوه من هنا. إذا كان محظوظًا فسينجو. هاتوا التالي في الصف، صاحب الرأس المشقوق.»

قالت «مارتي سودرغرين» بهدوءٍ:

«ذلك الجريح تنازل عن دوره للتوّ. منذ لحظات.»

أطلق «راستي» زفيرًا طويلًا وهو يبتعد عن الطاولة دون تعليق، ووقف فوق الكونت الجريح. كانت يدا «راستي» مغطاتين بالدماء، ومريوله ملطّخٌ بها كأنه جزّار. ازداد وجه «دانيال إتشيفيري»، كونت جارامون، شحوبًا واصفرارًا.

قال «راستي» بلهجةٍ مُتعَبةٍ ساخرة:

«حسنًا، ماذا لدينا هنا؟ لا شيء بقي من هذه المفاصل لنُنقذه. مجرّد هريسة! مجرّد عجينةٍ مهشّمة! بحق الجحيم، ما هي الأسلحة التي تضربون بها بعضكم يا حضرة الكونت، حتى تُهشّموا العظام بهذه الطريقة؟»

ثم أضاف بنبرةٍ لطيفةٍ شبه ساخرة:

«سيؤلمك هذا قليلًا، يا صاحب السعادة. في الواقع، سيؤلمك كثيرًا، لكن أرجوك لا تقلق. سيكون الأمر شبيهًا بما هو عليه في ساحة المعركة تمامًا. أيولا، عاصبة! شاني، السكين! سنبدأ بالبتر الآن يا صاحب السعادة!»

عندها، أطلق الكونت «دانييل إيتشيفيري» الذي شحب وجهه أكثر من ذي قبل صرخةً حادةً كعواء الذئب. وقبل أن يُطبق فكيه بقوةٍ من شدة الألم، سارعت «شاني» بوضع قطعة خشبية صغيرة بين أسنانه.

* * *

«يا صاحب الجلالة! حضرة الشرطي!» صاح رسولٌ منهك.

أجاب الشرطي «يان ناتاليس» بصوتٍ قلق:

«تكلّم، يا بنيّ.»

تحدّث الرسول وهو يلهث بصعوبة:

«فوج المتطوعين والسرية الحرّة ما زالا يحافظان على المضيق عند البحيرة الذهبية. الأقزام والمرتزقة يقاومون ببسالة، لكنهم غارقون في الدماء... يقولون إن "أديو بانغرات" مات، و"فرونتينو" مات، و"جوليا أباتيماركو" ماتت أيضًا... كلهم، كلهم لقوا مصرعهم! والسرية الدورية التي وصلت لمساندتهم ذُبحت بالكامل!»

قال الملك «فولتيست» بوضوحٍ وهدوءٍ شديد:

«الاحتياط، يا حضرة الشرطي. إذا أردت رأيي، فقد حان وقت استخدام قوات الاحتياط. ليدفع "برونيبور" قوات مشاته نحو أصحاب العباءات السوداء! فورًا! وإلا فإن خطوطنا ستتفكك بالكامل، وذلك يعني النهاية.»

لم يُجب «يان ناتاليس» بشيء. كان قد رأى للتو رسولًا آخر يندفع نحوهما على حصانٍ مُغطّى بالرغوة، يحمل أنباءً جديدة.

صاح «ناتاليس» بالرسول القادم من بعيد:

«استعد أنفاسك أولًا، يا بنيّ! ثم تحدّث بوضوح!»

«اخترقوا... الصفوف! اخترقها جنود فرقة فريهيد من الجن. الكونت دي رويتر يُبلغ جلالتك وحضرة الشرطي أن...»

«ماذا يقول؟ تكلّم!»

«يقول إن الوقت قد حان لإنقاذ حياتكما.»

رفع «يان ناتاليس» عينيه نحو السماء، وتمتم بصوتٍ أجوف:

«بلينكيرت... ليأتِ بلينكيرت الآن... أو ليأتِ الليل.»

* * *

اهتزّت الخيمة بعنفٍ من قوة صرخات الجنود وصهيل الخيول في الخارج، وانبعثت أصواتٌ هائجة كأن جدران الخيمة ستتمزّق وتنهار. اقتحم جنديٌّ تيميري الخيمة فجأةً وهو يصرخ وراءه جنديَّين من النقالين، صارخًا في ذعر:

«أيها الناس! اهربوا! نيلفجارد تُبيد جيشنا! انهزمنا! دُمّرنا تمامًا! الهزيمة، الهلاك!»

لكن «راستي» تجاهله وهو يأخذ الإبرة من «مارتي سودرغرين» ويبدأ في وضع أول غرزةٍ لإغلاق الجرح. كان الجريح مُمدّدًا دون حراكٍ منذ فترة، لكن قلبه لا يزال ينبض بوضوح.

صرخ أحد الجرحى بوعيٍ مذعور:

«لا أريد أن أمووووت!»

اخترق سهمٌ فجأةً قماش الخيمة بصوتٍ حاد، مُحدثًا صوتًا مدويًا وهو يمر من الجانب الآخر، ولحسن الحظ كان مرتفعًا بما يكفي فلم يُصب أيًا من الجرحى.

صرخ الجندي مرةً أخرى بذعرٍ واضح، ثم اندفع نحو المخرج، لكنّه لم يتمكّن من الخروج؛ إذ تلقّى ضربةً مفاجئةً فصرخ وهو يسقط أرضًا.

توقّفت الحركة داخل الخيمة تمامًا.

ثم انفتح مدخل الخيمة، وظهر أمام «راستي» وجهُ جنديٍ من الجن، طويل القامة، بوجهٍ جميل الشكل، بيضاويّ ذي عينين واسعتين بلونٍ أزرق كالسماء. خلفه مجموعةٌ أخرى من الجنود الجن ذوي العباءات الخضراء الداكنة: فرقة «فريهيد» سيئة السمعة.

تحدّث الجنّي الأول بهدوءٍ مخيف:

«مستشفى ميداني، أليس كذلك؟ تعالجون الجرحى؟»

لم يُجبه أحد. شعر «راستي» بأن يديه بدأت ترتعش.

تابع الجنّي ساخرًا:

«مثيرٌ للدهشة. نحن هناك في ساحة المعركة نجرح الرجال كي يموتوا. وأنتم هنا، تعالجونهم؟ هناك خللٌ في المنطق هنا. وتعارضٌ واضح في المصالح.»

ثم تقدّم الجنّي نحو جريحٍ ملقى على الحمّالة وأغمد سيفه في صدره بلا تردد، دون حتى أن يرفّ له جفن.

شهقت «شاني» و«أيولا» بفزع، بينما ظلت «مارتي» ساكنةً كأنها تمثالٌ من شمع.

تمتم الجريح بصوتٍ خافتٍ بينما كانت الحياة تغادره:

«لماذا...؟»

غرس الجنّي سيفه مرةً أخرى في جريحٍ ثانٍ، ثم قال دون أن يغيّر تعبير وجهه الجميل الهادئ:

«أجد غيابًا تامًا للمنطق هنا. نحن نجرحهم هناك في ساحة المعركة لكي يموتوا، وأنتم تعالجونهم هنا ليعيشوا. هناك تعارضٌ واضحٌ في المصالح.»

رفع «راستي» عينيه أخيرًا ليحدّق مباشرةً في وجه الجنّي الجميل والهادئ، وقال بنبرةٍ حاول أن يُبقيها متماسكة قدر استطاعته، رغم أنها كانت مهزوزة:

«نحن أطباء، وهذه هي وظيفتنا.»

نظر الجنّي إليه للحظة، كأنّه يفكر في شيء، ثم ابتسم ابتسامةً خفيفةً شاحبة، قبل أن يقول بصوتٍ هادئٍ ومخيف:

«بالطبع. وهذا أيضًا جزءٌ من المشكلة.»

صرخت «شاني» بصوتٍ حادّ، مرعبٍ يقطع الأنفاس، غطّى على الأنين الثقيل اللاإنساني الصادر عن الجريح الذي كان يُقتل على يد الجنّي. أما «أيولا»، فقد ألقت بنفسها فوق الحمّالة، وغطّت الجريح التالي بجسدها، ووجهها يزداد شحوبًا كضمادةٍ بيضاء، وراحت شفتاها ترتعشان بشكلٍ لا إرادي.

ضيّق الجنّي عينيه بغضبٍ وصرخ بها:

«ابتعدي، أيتها المرأة! وإلا فسأقتلكِ مع هذا الإنسان!»

قفز «راستي» نحو «أيولا» في ثلاث خطوات، ووقف أمامها مباشرةً، وهو يرتعش خوفًا وغضبًا في آن واحد، صارخًا بصوتٍ حازمٍ ومتحدٍ:

«اخرج من هنا! ابتعد عن خيمتي أيها القاتل! مكانك ليس هنا! مكانك في ساحة المعركة، مع بقية القتلة! اذهبوا وتقاتلوا هناك كما تشاؤون، لكن ابتعد عن هذا المكان!»

نظر الجنّي الطويل إلى الهالفلينغ البدين المرتجف خوفًا، الذي لم يصل رأسه إلى خاصرة الجني إلا بقليل، ثم همس محتقرًا:

«أيها الهالفلينغ الحقير. خادم البشر! ابتعد عن طريقي!»

ردّ «راستي» متحديًا، رغم ارتعاش صوته الواضح:

«لن يحدث ذلك.»

قفز جنيٌّ آخر إلى الأمام ودفع «راستي» بعنفٍ مستخدمًا مقبض رمحه القصير، فسقط الجراح الهالفلينغ أرضًا على ركبتيه.

ثم أمسك الجنّي الطويل «أيولا» وسحبها بوحشيةٍ بعيدًا عن الجريح، رافعًا سيفه عاليًا ليقتله.

لكنه توقّف فجأةً، متجمدًا في مكانه عندما شاهد تحت رأس الجريح عباءةً تحمل شعار فرقة «ديثوين» النيلفجاردية، مع رُتبة «عقيد» واضحة على الشعار.

في تلك اللحظة، اندفعت جنّيةٌ ذات شعرٍ داكن مضفور إلى داخل الخيمة وهي تصرخ:

«يايفين! توقّف! كفانا قتلًا! هؤلاء بشرٌ مصابون، لا تقتلهم! كفى!»

تردّد الجنّي لحظةً وهو يُحدّق في العقيد النيلفغاردي الجريح، ثم في عيني الجراح الصغير اللتين امتلأتا بالدموع من شدة الرعب.

بعد لحظةٍ من التردد، استدار الجنّي على عقبيه وخرج من الخيمة دون أن ينبس بكلمة.

خارج الخيمة، عاد الصخب والصراخ وصليل الحديد ليرتفع من جديد.

حاول «راستي» أن ينهض على قدميه، لكنه لم يستطع. لم تعد ساقاه قادرتين على حمله. كانت ذراعاه ترتعشان أيضًا.

أما «أيولا»، فكانت ترتجف بقوةٍ وهي ملتفّةٌ على نفسها بوضعية الجنين، قرب الحمّالة التي عليها العقيد النيلفغاردي الجريح، وهي تكبت دموعها بصعوبةٍ شديدة.

بينما كانت «شاني» تبكي بلا توقّف، دون أن تحاول إخفاء دموعها، إلا أنها ما زالت تمسك المباعدات الطبية بين يديها.

أما «مارتي سودرغرين»، فكانت تخيط الجرح بهدوءٍ تام، وهي تهمس بشفتيها في حديثٍ داخليٍّ صامتٍ غير مسموع.

جلس «راستي» مرةً أخرى عاجزًا عن الوقوف. والتقت عيناه بعيني أحد المساعدين الطبيين الذي كان يختبئ مرتجفًا في زاوية الخيمة.

قال «راستي» بصوتٍ مُنهك:

«أعطني رشفةً من الخمر. لا تقل لي إنك لا تملك زجاجةً، فأنا أعرفكم أيها الأوغاد جيدًا. دائمًا ما تحتفظون بواحدةٍ على الأقل.»

* * *

وقف الجنرال «بلينهايم بلينكيرت» في ركاب حصانه، وأطال عنقه كطائر الكُركي، مُنصتًا بدقةٍ لأصوات المعركة.

ثم التفت إلى قادته قائلًا بحسم: «جهّزوا الصفوف! سنتحرّك فورًا بخطوةٍ سريعة خلف هذا التل. وفقًا لما أخبرنا به الكشافة، سنخرج مباشرةً على جناح أصحاب العباءات السوداء.»

صاح أحد الملازمين الشبان، وكان شابًا ذا شاربٍ رفيع حريري، متحمسًا للغاية: «وسنُريهم الجحيم!»

ألقى «بلينكيرت» نحوه نظرةً جانبيةً هادئة، ثم قال بصوتٍ حازمٍ واضح: «وحدةٌ تحمل الراية في المقدمة. وعند الهجوم اصرخوا: "ريدانيا!" اصرخوا بأعلى أصواتكم! يجب أن يعلم رجال فولتيست وناتاليس أنّ النجدة قد جاءت.»

* * *

كان الكونت «كوبوس دي رويتر» قد خاض معارك عديدةً على مدى أربعين عامًا، منذ كان في السادسة عشرة من عمره. وكان فوق ذلك جنديًا من الجيل الثامن، كأن الحرب والمعارك قد امتزجت بدمه وأصبحت جزءًا من روحه. ولهذا، فإن صخب المعركة وضجيجها، الذي يبدو للآخرين كفوضى رهيبة، كان يصل أُذنيه كسيمفونية موسيقية هائلة، كأنه يستمع إلى أوركسترا عظيمة. وكان «دي رويتر» قادرًا فورًا على سماع النغمات الخفية، والألحان، والنبرات التي تعلو وسط الصخب.

صاح الكونت رافعًا صوته عاليًا، وهو يلوّح بعصاه في الهواء: «هوراااا! إلى الأمام يا رجال! ريدانيا! ريدانيا قادمة! النسور! النسور!»

من الشمال، من خلف التلال، كانت حشود الفرسان تتدفق مسرعةً إلى ساحة المعركة، تُرفرف فوقها رايةٌ حمراء داكنة، ورايةٌ كبيرةٌ عليها نسر ريدانيا الفضّي.

صرخ «دي رويتر» بحماسٍ متفجر: «النجدة وصلت! جاءتنا النجدة! الموت لأصحاب العباءات السوداء!»

لاحظ الجندي الذي حارب طيلة حياته أن الجناح النيلفجاردي بدأ يدور سريعًا، ويحاول تشكيل صفٍ متينٍ ومنضبط ليواجه الهجوم القادم. عرف «دي رويتر» أنه لا يجب أن يسمح لهم بذلك.

صرخ بأعلى صوته وهو ينتزع الراية من يد حاملها: «اتبعوني! اتبعوني إلى الأمام!»

انقضّوا.

انقضّوا باندفاعٍ جنوني، كأنهم يُلقون بأنفسهم إلى الموت. بضراوةٍ شديدةٍ تليق باليائسين. لكنها كانت ضربةً ناجحةً، فعّالةً، وقاتلةً.

ترنّح الكونت «كوبوس دي رويتر» في سرجه حين تلقّى ضربةً مفاجئةً، وانزلق من على ظهر حصانه. سقط على الأرض وغطّته الرايةُ كأنها كفنٌ يُدفَن فيه، بينما أومأت الأجيال الثمانية من عائلة «دي رويتر»، الذين سقطوا قبله في المعارك، موافقين من مكانهم البعيد في عالم ما وراء الموت، راضين عن أدائه في ساحة المعركة.

* * *

في مكانٍ آخر بعد سنوات، تحدّث «كاديت بوتكامر» بحذرٍ شديد أمام قائده العسكري قائلًا: «يُمكن القول، سيدي النقيب، إنّ الشماليين أنقذتهم معجزةٌ في ذلك اليوم.»

قاطعه النقيب بلهجةٍ قاسية، وهو يُحدّق في المتدرب بنظرةٍ حادّة: «متدرب بوتكامر! أنت الذي قدّمتَ سابقًا أداءً ممتازًا! لماذا بدأت فجأةً تتحدّث عن المعجزات والصدف، بل وتتجرّأ على انتقاد قائدٍ مثل مينّو كوهورن، أحد أعظم قادة الإمبراطورية على الإطلاق؟!»

ثم تابع النقيب بنبرةٍ صارمةٍ وغاضبة: «انتبه جيدًا، أنت وكل من معك من المتدربين والمتدربات! لم يكن الأمر معجزةً ولا مصادفة. لم تكن هزيمة جيشنا هناك إلا نتيجةً لمؤامرةٍ حقيرةٍ قام بها حفنةٌ من الخونة، الجبناء والمتآمرين! كان ذلك سرطانًا كريهًا تم استئصاله بالحديد والنار لاحقًا!»

رفع النقيب صوته بحدة: «لكن قبل ذلك، أوقع هؤلاء الخونة بلادنا في شبكة من الأكاذيب والمؤامرات، ونسجوا لنا شراكًا من الخيانة والغدر! هم من خانوا، وهم الذين خدعوا القائد كوهورن!»

سكت النقيب وهو يحدّق في عيون المتدرب الشاب الذي طأطأ رأسه بصمتٍ شديد، بينما أضاف النقيب بلهجةٍ أكثر هدوءًا، لكنها مليئةٌ بالوعيد: «تذكّروا جيدًا أيها المتدرب بوتكامر، وجميعكم أيضًا، أنّ الإمبراطورية لا تؤمن بالمعجزات. وإنما تؤمن فقط بالخيانة أو الولاء.»

* * *

تمتم «مينّو كوهورن» بصوتٍ غاضبٍ وهو يُخفض منظاره دون أن يُزيح عينيه عن الميدان:

«هؤلاء اللقطاء، لعنهم الآلهة! سأشنقكم جميعًا!»

التفت بوجهه بحدّةٍ نحو مساعده «أودر دي وينغالت»، وقال بصوتٍ باردٍ قاطع:

«عُلّق ذلك الضابط وكل أفراد دوريته على أعواد المشانق. الجميع دون استثناء.»

ضرب المساعد قدميه معًا تحيةً صارمة، ولم يكن يدري أنّ «لامار فلاوت»، قائد الدورية، كان في هذه اللحظة تحديدًا يحتضر، تدوسه حوافر الخيول القادمة من قوات الاحتياط السرية للعدو، التي لم تكن في الحسبان على الإطلاق.

تابع «كوهورن» متحدثًا لـ «فان لو»:

«كم عددهم برأيك، يا قائد الديرلانيين؟»

أجاب قائد الفرقة السابعة بصوتٍ جاف، دون عاطفة:

«عشرة آلاف جندي على الأقل. ريدانيون في معظمهم، لكنني أرى أيضًا أعلام إيدرن ذات الشارات، وهناك أيضًا أعلام أحادي القرن. ذلك يعني وجود قوات كيدوين معهم أيضًا.»

كانت عينا «كوهورن» تتابع الأعلام التي ترفرف فوق الأفق بسرعة، فتمتم بحنقٍ غاضبٍ، يشعر بأن قبضته الحديدية بدأت ترتخي من حول عنق النصر الذي بدا مضمونًا قبل دقائق فقط.

* * *

صرخ «زيفيك» في نفسه وهو يتقدّم مع قوات راية «دان» وسط اندفاع الخيول:

«تبًا... كان عليّ أن أقضي حاجتي قبل بدء المعركة! الآن لا أدري إن كنتُ سأتمكن من ذلك بعدها!»

صرخ قائدهم، قائد الراية، وهو يرفع صوته عاليًا، مخمورًا كعادته، مناديًا بشعارهم القديم:

«إلى الأمام يا أبناء دان! إلى الأمام! اضربوا! اقتلوا!»

تنهّد «زيفيك» في نفسه:

«دائمًا نحن، دائمًا أبناء دان. أينما حدثت كارثة أو ورطة، يرسلون أبناء دان. من أُرسل في مهمةٍ إلى تيميريا؟ نحن! من يُرسل في كل مرّة حين يوشك الخط على الانهيار؟ نحن أيضًا. ليتهم يمنحوننا ولو مرةً واحدة فرصةً للاستراحة... لكن ما العمل؟»

أطلق «زيفيك» صرخةً مدويةً وهو يسحب سيفه عاليًا:

«راية دان! قاتلوا! اقتلوا! قاتلوا لأجل كايدوين!»

اصطدمت راية «دان» بصفوف نيلفجارد كالمطرقة، وسط دويّ الحديد وصراخ الجنود وصهيل الخيول.

* * *

قال «دي لُو» مُشيرًا نحو ساحة المعركة بهدوء: «الأمور تسير لصالحنا، سيدي المشير. سلاح الفرسان في الجناح الأيسر يقاوم بقوة. فِرقة تيريلان تحت قيادة «تايرنا» تتصدى للجناح الأيسر، وقوات «ماغني» و«فيننداال» تسيطر جيدًا على الجناح الأيمن. ونحن هنا... بإمكاننا أن نُرجّح الكفة تمامًا.»

قال المشير «مينّو كوهورن» وهو يُدرك فورًا ما يعنيه: «بأن نضرب في العمق، وندخل خلف جنود الجن. نضرب في الخطوط الخلفية.»

«بالضبط، يا سيدي.»

أصدر المشير أوامره سريعًا وهو يلتفت نحو مساعديه: «دي وينغالت، استدعِ المُساعدين والحرس الشخصي. انتهى زمن التفرّج! سنهجم مع الفيلق الديرلاني السابع!»

شحُب «دي وينغالت» قليلًا، لكنه استعاد رباطة جأشه بسرعة وصرخ: «ليحيا الإمبراطور!»

* * *

في هذه الأثناء، انطلقت صيحاتُ الغضب عند مدخل الخيمة الطبية، بينما كانت «شاني» تصرخ بأعلى صوتها مع الجنود الذين وصلوا حاملين الجثث:

«ماذا تفعلون؟ هل جننتم؟ المرضى الأحياء ينتظرون دورهم لإنقاذ حياتهم، وأنتم تأتونني بجثثٍ هامدة؟»

أجاب أحد الجنود مرتبكًا: «لكنّه البارون "أنزِلم أوبري" شخصيًا يا سيّدتي! قائدُ السرية!»

ردّت عليه «شاني» بعصبيةٍ شديدة: «كان قائد السرية! أمّا الآن فهو مجرّد جثة! أخرجوه من هنا فورًا، وأفسحوا المكان للأحياء الذين ينتظرون إنقاذ حياتهم!»

حاول الجندي الاعتراض مرةً أخرى، لكنها قاطعته بحزم: «قلتُ أخرجوه فورًا! جلبتم جثةً بينما هناك من يتنفّس بانتظار العلاج. لا مجال للموتى هنا!»

تمتم «راستي» مُتهكّمًا وهو يسمع ما يجري بالخارج: «يا لها من امرأة. لكن لحظة... مَن قال إنه أنزلم أوبري؟»

رفع «راستي» حاجبه بدهشةٍ وهو يحاول النظر نحو المدخل.

صرخ «راستي» بحدّة: «شاني! تعالي إلى هنا فورًا!»

ثم قال لها من بين أسنانه وهو ينحني فوق الساق المُهشّمة: «تذكّري جيدًا، يا صغيرة، أن الجرّاح لا يحق له استخدام السخرية إلا بعد عشر سنوات من الخبرة. هل ستتذكرين ذلك؟»

أجابته «شاني» مطأطئة رأسها بطاعة: «نعم، سيد راستي.»

تابع بلهجةٍ جافةٍ عمليّة: «خذي المكشطة وانزعي السمحاق العظمي... اللعنة، ربما علينا أن نخدّره قليلًا بعد... أين مارتي؟»

أجابته «شاني» دون أي سخريةٍ هذه المرة: «إنها تتقيّأ في الخارج. تفرغ كل ما في جوفها.»

تمتم «راستي» بغضبٍ ساخرٍ وهو يأخذ المنشار بين يديه: «الساحرات! بدلًا من ابتكار كل هذه التعاويذ الرهيبة والقوية، كان الأجدر بهن ابتكار تعويذةٍ واحدةٍ صغيرةٍ تسمح لهنّ بإلقاء تعويذات التخدير دون أن يتقيّأن بعدها.»

بدأ المنشار يصرّ ويطحن العظم بصوتٍ مزعج. تأوّه الجريح بصوتٍ مكتوم.

صاح «راستي»: «شُدّي العاصبة جيدًا يا أيولا!»

انكسر العظم أخيرًا، فقام «راستي» بتنعيم موضع القطع بإزميلٍ صغير، ومسح جبينه المتصبّب عرقًا.

قال بعدها بآليةٍ ودون ضرورة، لأن المساعدتين كانتا قد بدأتا بالفعل في ربط الأوعية الدموية والأعصاب: «الآن الأوعية الدموية والأعصاب.»

ثم أمسك بالساق المبتورة وألقاها فوق كومة الأطراف المقطوعة بجانب الطاولة. كان الجريح قد توقف عن الصراخ والأنين منذ فترة.

تساءل بصوتٍ متعب: «هل أغمي عليه أم مات؟»

أجابته «شاني» بسرعة: «أُغمي عليه فقط، يا سيد راستي.»

«جيد. خيطي الجذع إذًا يا شاني. هاتوا المريض التالي! أيولا، اذهبي وتفقّدي مارتي لترى إن كانت قد أفرغت كل ما في جوفها.»

تمتمت «أيولا» بصوتٍ خافتٍ جدًا، دون أن ترفع رأسها عن عملها: «أتساءل، كم سنةً من الخبرة لديك أنت يا سيد راستي؟ مائة عام؟»

* * *

بعد ربع ساعةٍ من المسير المرهق والاختناق بالغبار والتراب، توقّفت أخيرًا صيحات القادة وصراخ العرفاء والنقباء. وتوقفت الكتيبة بأكملها عن السير.

صاح الفويفود «برونيبور» بقوةٍ وهو يستعرض صفوف الجنود بنظراته الساخرة المعتادة، بينما درعه الأزرق المطليّ بشرائط لامعة جعل منه شبيهًا بسمكة ماكريل ضخمةٍ مُغطاةٍ بالفولاذ» :كيف حالكم أيها الحمقى؟«

صدر صوتٌ مكتوم من صفوف حملة الرماح، كأنه هديرٌ عميقٌ أو رعدٌ مكتوم. ضحك «برونيبور» متهكّمًا وهو يُشير نحوهم» :ما هذا الصوت الذي تُصدرونه؟ كأنه صوت الريح حين تمرّ من مؤخّراتكم! يبدو أنكم في حالةٍ ممتازة، أيها السفلة الفيزيميون. يبدو أنكم مشتاقون للقتال حقًا! أنكم تحلمون بالاشتباك مع أصحاب العباءات السوداء، أليس كذلك؟«

لم ينتظر ردًا منهم، بل تابع وهو يلوّح بيديه» :حسنًا، عندي أخبارٌ رائعةٌ لكم، يا أوغاد فيزيما الأشاوس! ستتحقق أحلامكم قريبًا جدًا، قريبًا جدًا. اليوم، هنا، خارج هذه القرية، التي نسيتُ اسمها، سنخوض معركةً عظيمة. وسنرى إن كنتم فعلًا على قدر التحدي«!

زمجر الجنود مُجدّدًا بحماسةٍ مكتومة.

تابع «برونيبور» خطابه بحدةٍ ممزوجةٍ بالسخرية» :حتى هذه اللحظة، لم تحظوا سوى بشمّ مؤخرات الخيول بدلًا من المجد والغنائم. كنتم تسيرون خلف الصفوف، تبتلعون غبار الأرض وروائح بطون الخيول! ولكنكم أخيرًا ستجدون أنفسكم أمام أعدائكم مباشرة. ستحظون بشرف سدّ الفجوة التي فتحت في خطوطنا، والتي نسيَت القيادة إغلاقها«!

أشار «برونيبور» بعصاه نحو الأمام، حيث ظهرت كتلةٌ داكنةٌ من فرسان نيلفجارد» :انظروا جيدًا هناك! ستسدّون تلك الفجوة بصدوركم يا أعظم رماحي فيزيميا! ستسدّونها بأجسادكم! وإذا فعلتم ذلك جيدًا، فقد يتذكّر الناس أسماءكم ولو ليومٍ أو اثنين«!

ارتفع صراخ الجنود بعدها بقوة، كهدير الرعد، متحمّسين ومنفعلين، مستعدين تمامًا للقتال.

نظر «جاري» حوله، وأخذ يُراقب رفاقه الجنود وهم يستعدّون للقتال. كانوا يُشكّلون مربعًا دفاعيًا، وفي الحقيقة لم يبدُ عليهم أي أثرٍ لذلك الحماس الذي تحدّث عنه الفويفود «برونيبور». كان وجه كلّ منهم شاحبًا متوتّرًا، يراقبون في صمتٍ صخب الفرسان القادمين من بعيد. على يمينه، كان «ميلفي» يتمتم صلاةً خافتة، وعلى يساره كان الجنديّ المحترف المخضرم «ديوسلاكس» يزمجر ويلعن ويكحّ بعصبية.

صاح «برونيبور» عاليًا من جديد وهو يمر بحصانه أمام الجبهة:

«جيد! صفوفكم مرتبة كالسور الحجري! الصف الأول راكعٌ والثاني واقف! اثبتوا الرماح جيدًا في الأرض! هيا، تحرّكوا! أيها القادة، ما الذي تنتظرونه؟ اللعنة عليكم!»

وجد «جاري» نفسه في الصف الثاني. غرس مؤخّرة رمحه في الأرض وقبض على عمود الرمح بيديه المرتجفتين المُتعرقتين. لاحظ أن «ميلفي» بدأ يتلو صلواته بصوتٍ أوضح هذه المرة، في حين كان «ديوسلاكس»، الجندي المحترف، يتمتم بين الحين والآخر بلعناتٍ تخصّ نيلفغارد وحظّه السيئ.

مرّ «برونيبور» أمام صفوف الجنود مرةً أخرى، وصاح ساخرًا وهو يلوّح بسيفه نحو الخيول القادمة من بعيد: «لا تظنّوا أيها الأوغاد أنكم قادرون على إخافة ما هو قادم! جنود ناوسيكا والديرلاني السابع، نخبة جنود نيلفغارد، قوّة لا يمكن إخافتها، لا يُمكن هزيمتها! لا يمكن سوى قتلهم!»

ثم أضاف بلهجةٍ أكثر جدّية هذه المرة: «أمامكم فرصةٌ واحدة! رماحكم، التي يبلغ طول الواحد منها واحدًا وعشرين قدمًا، أطول بكثير من سيوفهم ذات الثلاث أقدام ونصف. الجنود النيلفغارديون يدركون هذه الحقيقة جيدًا. إنهم يعتمدون على أنكم ستتخاذلون، أنكم ستخافون وتفرّون. اعلموا جيدًا أنكم إذا هربتم، فسوف تُذبحون جميعًا بلا رحمة!»

رفع «برونيبور» صوته حتى كاد أن يبحّ، مُضيفًا: «أيها الحمقى! تذكروا جيدًا أن الخوف يجعل كعوبكم أسرع، لكنكم لن تسبقوا الفرسان! من يريد الحياة، من يريد المجد والغنائم، عليه أن يصمد! أن يثبت في مكانه! قفوا كجدارٍ منيع! كجدارٍ من الصلب!»

هدأ الصخبُ بعدها لبرهة. وتوقّفت الرياح نفسها عن الهبوب.

سمع «جاري» بوضوحٍ ضربات قلبه وهي تدقّ داخل صدره.

وتمنّى لو أن بإمكانه، ولو مرةً واحدة، أن يكون شجاعًا فعلًا، وأن يصمد.

ألقى «جاري» نظرةً سريعةً إلى الوراء، رأى صفوف رماة القوس والنشّابة يديرون مقابض أقواسهم بسرعةٍ محمومة. كانت مربعات المشاة تعجّ بالرماح الطويلة، والمناجل، والمذاري، وفؤوس الهالبيرد، التي ارتفعت نقاطها المدببة نحو السماء كغابةٍ حديدية.

اهتزّت الأرض تحت أقدامهم بقوةٍ متزايدة، وأصبح بالإمكان الآن تمييز وجوه الفرسان النيلفغارديين بوضوح وهم يندفعون نحوهم كجدارٍ أسود من الموت، يلوّحون بأسلحتهم ويصرخون كالشياطين.

على يمينه، واصل «ميلفي» ترديد صلواته بخوف: «أمي... أمي الحبيبة... أمي...»

وعلى يساره، تمتم «ديوسلاكس» بكلماتٍ مبتورة، لكنها واضحة: «أبناء العاهرات...»

ازداد دوي حوافر الخيول ارتفاعًا ووضوحًا. حاول «جاري» أن يبلل شفتيه الجافتين، لكنه لم يتمكّن. لسانه تيبّس وتخشّب داخل فمه كقطعةٍ من الخشب الجاف.

رفع «برونيبور» سيفه عاليًا وصرخ بأعلى صوته مُخاطبًا جنوده: «تراصّوا الصفوف! تلامسوا بالأكتاف! لا أحد يقاتل بمفرده هنا! الدواء الوحيد للخوف هو الرمح الذي بين أيديكم! استعدوا! وجّهوا رماحكم إلى صدور الخيول! ماذا سنفعل، يا رجال فيزيما؟»

صرخ الجميع بصوتٍ واحد كهدير الرعد: «نقف كجدار! نثبت في أماكننا! نقف كالسور!»

صرخ «جاري» معهم بكل قوته أيضًا، إذا كان الجميع يصرخون، فلا بأس أن يصرخ هو أيضًا.

أطبق يديه المرتجفتين على رمحه، أغلق عينيه بإحكام، وغرس رأسه بين كتفيه منتظرًا الصدمة التي لا مفرّ منها.

* * *

أبعد «جاري» الذبابة التي كانت تحوم حول محبرته بحركةٍ عنيفةٍ من يده المبتورة، دون أن يقطع تسلسل الكتابة:

"«وهكذا، تحطّمت خطط المشير مينّو كوهورن تمامًا. فقد توقّفت قواته الجانبية أمام مقاومةٍ شرسةٍ من المشاة الفيزيميين الأبطال، الذين دفعوا حياتهم ثمنًا لشجاعتهم بقيادة الفويفود برونيبور. وعند البحيرة الذهبية، أوقفت تضحيات الأقزام وفرقة المرتزقة ضربات نيلفجارد، حتى انكسر هجومهم أخيرًا. ارتفع

حينها هتافُ الانتصار عظيمًا، يمتدّ من طرف المعركة إلى الطرف الآخر، فدبّت الروح في جنودنا واشتدت سواعدهم، بينما ضعفت قلوب نيلفجارد، وبدأ جنودنا يسحقونهم بلا هوادة.»"

رفع «جاري» رأسه، وطرد ذبابةً كانت تُحاول الوقوف على محبرته، ثم واصل الكتابة بيده اليسرى، وبما تبقى له من يمينه المبتورة.

تابع جاري الكتابة:

«وحين جاءت الساعة الحاسمة، وحاول القادة إقناع مينّو كوهورن أن ينسحب من أرض المعركة حفاظًا على حياته الثمينة للإمبراطورية، رفض بشدة. قال: «لا يليق بي أن أهرب كالجبان من ميدانٍ سقط فيه الكثير من الرجال الشجعان من قواتي في سبيل الإمبراطور. لن أهرب!» لكن القائد «سيفرز» نزع عنه خوذته وعباءته، وناوله عباءةً أخرى ليحميه بها، وألحّ عليه كي يُبدّل جواده بآخر ويهرب. وحين حاول المشير الاحتجاج، صاح به «سيفرز»: «عليك أن تعيش، سيدي! فحياتك ثمينة، ولا غنى عنها للإمبراطورية. أما نحن الجنود، فواجبنا أن نموت من أجلك!» واندفع يقود جنوده من الفرقة الديرلانية السابعة في هجومٍ يائسٍ ليفتح الطريق أمام قائده.»

توقف «جاري» لحظةً ليتأمّل ما كتبه، ثم تابع مُتذكّرًا تلك اللحظة التي نزع فيها «كوهورن» عباءته ورمى خوذته، مرتديًا عباءةً ديرلانيةً تحمل شعار العقرب الأسود، بينما انطلق «سيفرز» وجنوده نحو الموت المحتوم وهم يهتفون باسمه.

تابع الكتابة:

«تبادل المشير كوهورن ثيابه مع «سيفرز»، وقفز على حصانٍ آخر، وغادر ساحة المعركة في خفاء. أما القائد «سيفرز» وجنوده فقد اندفعوا نحو الموت، بأرواحٍ ملتهبةٍ بالشجاعة والولاء، وصيحاتهم تصدح: "من أجل الإمبراطور!"، حتى سقطوا جميعًا.»

توقّف «جاري» عن الكتابة لحظةً أخرى، بينما تأمّل جذع يده المبتورة، ثم أضاف بصوتٍ خافتٍ كأنه يُحدّث نفسه:

«كان من الممكن أن أكون معهم. كان من الممكن أن أكون بطلًا. لكن القدر اختار لي حياةً أخرى.»

قال كوهورن أخيرًا، بصوتٍ منخفضٍ وهادئ: «لا شيء. حظًا طيبًا، يا بني.»

صرخ «سيفرز» بحماس: «وحظًا موفقًا لك أيضًا يا سيدي! إلى الأمام، ثِقوا بالنصر!»

راقب المشير كوهورن «سيفرز» وجنوده وهم يندفعون بعيدًا، يتقلّصون شيئًا فشيئًا حتى اصطدموا بقوّةٍ هائلةٍ بصفوف الكوندوتييري. كانت المواجهة قصيرةً لكنّها عنيفةٌ ومدمّرة. ابتلعهم الغبار تمامًا، واختفت عباءاتهم السوداء وسط صفوف المرتزقة الرمادية التي سرعان ما توافدت من كل صوب.

نبّه السعال العصبي لـ «دي وينغالت» والمساعدين كوهورن إلى الواقع. ركب الحصان بتوترٍ وأصدر أمره: «إلى الأمام!»

* * *

سارت الأمور جيدًا في البداية، فعند مدخل الوادي المؤدي إلى النهر، كانت بقايا جنود لواء ناوسيكا تدافع بضراوةٍ أخيرة، وقد تجمّعوا في حلقةٍ يائسة من الحراب، ما سمح لكوهورن ومن معه بالمرور. لكنهم اضطروا للاشتباك لفترةٍ قصيرةٍ مع سريةٍ خفيفة من الفرسان المتطوعين، ربما كانوا من بروغ، وفقًا لشاراتهم.

كانت المواجهة قصيرةً وعنيفةً للغاية، وفقد كوهورن أثناءها كل أثرٍ للبطولة والهيبة، ولم يعد يفكر سوى في النجاة بحياته. لم يلتفت خلفه ليرى حراسه الذين يتبادلون الضربات الوحشية مع فرسان بروغ، بل اندفع بكل قوةٍ نحو النهر، مُنحنيًا على عنق حصانه.

الطريق أمامهم كان مفتوحاً. خلف النهر الضيق الممتلئ بأشجار الصفصاف، كانت السهول الجرداء الممتدة بلا أي أثرٍ لقوات الأعداء، ما دفع «دي وينغالت» للصراخ فرحًا بانتصارٍ مبكر.

لكن فرحته كانت سابقةً لأوانها.

عند اقترابهم من النهر الصغير الذي بدا خاملًا مُظلمًا، مغطّىً بنباتاتٍ خضراء زاهية، غرقت الخيول فجأةً في وحلٍ عميقٍ وصل إلى بطونها.

طار المشير من فوق رأس حصانه، وسقط برأسه في الوحل مباشرة. بدأت الخيول تصهل بجنون، وامتلأ المكان بصراخ الرجال الغارقين في الوحل المغطّى بالطحالب الخضراء. سمع «مينّو كوهورن» في هذه الفوضى فجأةً صوتًا مختلفًا، صوتًا يعرف جيدًا أنه صوت الموت.

صوت السهام وهي تشق الهواء.

اندفع كوهورن نحو مجرى النهر الصغير، وهو غارقٌ حتى خصره في الوحل اللزج. سقط مساعدٌ إلى جواره، وجهه في الوحل، وقد اخترق ظهره سهمٌ غاص حتى نهايته. في تلك اللحظة نفسها، شعر كوهورن بضربةٍ رهيبةٍ على رأسه، ترنّح لكنه لم يسقط، فقد كان الوحل يثبّته في مكانه.

حاول أن يصرخ، لكنه لم ينجح إلا بإصدار صوتٍ مختنقٍ متقطّع.

«ما زلت حيًا»، فكّر وهو يحاول التخلّص من قبضة الوحل القاتل. «حصانٌ ضربني بحافره في رأسي. خوذتي غاصت إلى الداخل. تحطم خدّي... انكسرت أسناني... جُرحت لساني... الدم يملأ فمي...»

ابتلع الدم بصعوبة وهو يختنق، لكن فكرةً واحدةً ظلّت واضحة في ذهنه:

«لكنني حيّ... ما زلتُ حيًا.»

مرةً أخرى ارتفع صوت الأوتار وهي تئنّ، ثم جاء هسيس ريش السهام سريعًا يتبعه ارتطام السهام وانغرازها في الأجساد. صهيل الخيول المصابة التي تخبط المياه بعنف، وصيحات الرجال الذين كانوا يختنقون بالماء والطين.

«أقزام...» فكّر «كوهورن» وهو يحدّق نحو صفّ الرماة على الضفة الأخرى. كانوا قصيري القامة، ذوي وجوهٍ صلبة وبشرة سمراء وأذرع مفتولة، أقزامًا يحملون أقواسًا ونشّابات.

التفت «أودر دي وينغالت» نحو الرماة الأقزام رافعًا يديه عاليًا، وصرخ بصوتٍ مرتعشٍ مرتفع:

«أنا أستسلم! أستسلم، بحق السماء!»

لكنهم لم يفهموا صراخه، أو ربما لم يريدوا أن يفهموه. انطلقت نشّابتان نحوه، واخترقتا صدره بقوةٍ هائلةٍ جعلت جسده يرتفع قليلًا عن الأرض قبل أن يسقط في الوحل جثةً هامدة.

مزّق «مينّو كوهورن» الخوذة المبعوجة عن رأسه بصعوبة، والتفت نحوهم صارخًا بلغة الشماليين بوضوح:

«أنا مارفال كوهورن... أنا المارشال كوهورن! أستسلم!»

ثم أدرك فجأة أنه ارتكب خطأً فادحًا. لأن الأقزام كانوا يحدقون الآن بوضوح في شعار العقرب الفضي المطرز على عباءته، وارتفعت أصواتهم بغضبٍ جنوني:

«عقرب فضّي! هذا هو المجرم! اضربوا! انتقموا لكاليب ستراتون! من أجل كاليب ستراتون!»

أطلقت الأوتار صفيرها الحادّ. اخترق السهمُ الأول صدر «كوهورن» مباشرةً، والثاني استقر في وركه، أما الثالث فغاص عميقًا في عظمة الترقوة. سقط المارشال النيلفجاردي إلى الوراء، وغاص جسده في الوحل اللزج، بينما تمتم في نفسه وهو يشعرُ بالحياة تنسابُ منه بسرعة:

«مَن هو هذا الـ "كاليب ستراتون" بحقّ الآلهة؟ لم أسمع في حياتي عن شخصٍ بهذا الاسم...»

ثم سرعان ما أغلقَت مياهُ نهر «تشوتلا» الداكنة اللزجة الملطّخة بالطين والدماء فوق رأسه، وتدفّقت بشراسةٍ داخل رئتيه.

وسقطت أمام عينيه ستارةٌ من الظلام، ولم يعد يسمع شيئًا سوى الهمس العميق للمياه، الذي بدا وكأنه صوتٌ قادمٌ من أعماق الجحيم.

* * *

خرجت «أيولا» من الخيمة بارتباكٍ لتلتقط أنفاسها، ثم وقفت متسمّرةً عندما لمحته جالسًا على مقعدٍ بجانب منضدة الحدّاد.

صاحت دون تفكير:

«جاري!»

رفع الشاب رأسه إليها ببطء، وكانت نظراته خاويةً تمامًا، كأنّها تنظر إلى الفراغ.

سأل بصوتٍ خافتٍ، تحرّكت شفتاه المتورّمتان بصعوبة:

«أيولا؟ ماذا تفعلين هنا؟ كيف أنتِ...»

قاطعته بسرعةٍ وهي تقترب منه:

«أي سؤالٍ هذا؟ بالطبع أنا هنا! قل لي، ماذا حدث لك؟»

حدّق فيها بعينين فارغتين، وكأنه لا يراها حقًا:

«إنها الحرب... عليكِ أن تقفي مثل جدارٍ منيع... أن تقفي بثباتٍ وسط الصف. الجرحى الذين جراحهم بسيطة عليهم أن يحملوا الجرحى الأخطر إلى الخيام الطبية...»

رأت شفتيه المتشققتين ترتجفان قليلًا. انتبهت فجأةً إلى أن يده مبتورة، وأن الدم يغطي ما تبقى من ملابسه.

أضاف جاري بصوتٍ أكثر خفوتًا هذه المرة:

«هذا هو الأمر الوحيد المطلوب... أن نقف كجدارٍ صلب... أن نصمد في الصف...»

ساعدته «أيولا» على النهوض وقالت بحنانٍ يختلط بالقلق:

«تعال معي فورًا... أنت جريح وتحتاج للعلاج.»

قادته معها نحو الخيمة. عندما دخلا، تراجع وجهه إلى الوراء فجأةً كمن أصابه سهم. شحب لونه، واهتز جسده بقوّةٍ حين اجتاحته رائحة الموت والدم الكثيفة التي تغلّف الخيمة. تراجع قليلًا، لكنها أمسكت به لتثبّته.

توقّفت نظراته على المنضدة الملطّخة بالدم، وعلى الرجل الراقد فوقها وقد تمزّق بطنه، وعلى الجرّاح القزم الذي يغوص بيديه في أحشاء الجريح، بينما يصرخ بأوامره الحادّة. التفت الجرّاح إلى «جاري» بنظرةٍ غاضبة، قبل أن يشيح بوجهه دون أن يُعلّق.

تمتم الجرّاح «راستي» لنفسه بصوتٍ مرتعشٍ وغاضب:

«اللعنة... لماذا يجب أن يكون الأمر هكذا؟ لماذا يجب أن يحدث كل هذا بحق الآلهة؟»

لكن أحدًا لم يُجب على سؤاله.

سألت «أيولا» بصوتٍ مرتجف: «من كان ذلك الرجل؟»

أجاب «جاري» بصوتٍ خافت، محدّقًا نحو الفراغ بعينين فارغتين: «الفويفود برونيبور... قائدنا... أمرنا أن نصمد كجدار. وقفنا في الصف. قتلوا ميلفي أمامي...»

التفتت «أيولا» إلى الجرّاح «راستي» وقالت بتوسّل: «سيد راستي... هذا الفتى صديقي... إنه جريح ويحتاج إلى مساعدة...»

قاطَعها الجرّاح بجفاءٍ دون أن ينظر إليها: «إنه يقف على قدميه. وهنا، أمامي، رجلٌ يحتضر يحتاج إلى فتحٍ للجمجمة. لا مكان للمشاعر والعلاقات الشخصية هنا...»

في تلك اللحظة، فقد «جاري» وعيه وسقط أرضًا بطريقةٍ دراميةٍ تمامًا، ما جعل الجرّاح يُطلق زفيرًا ساخرًا:

«حسنًا! ارفعوه إلى الطاولة. يبدو أن الذراع مهشمة بشكلٍ جيد... لا أدري ما الذي يُبقيها متصلة بجسده، ربما قميصه فقط؟ أيولا، ضعي العاصبة وشدّيها جيدًا! ولا تجرؤي على البكاء! شاني، ناوليني المنشار!»

غرقت أسنان المنشار في العظم المكسور فوق المرفق تمامًا، مُصدرةً صوتًا رهيبًا مُثيرًا للقشعريرة. استيقظ «جاري» للحظة وصرخ بقوةٍ مُفزعة، لكنه سرعان ما فقد الوعي مجددًا حين انكسر العظم.

* * *

وهكذا تحطّمت قوّة نيلفجارد العظيمة على سهول «برينا»، وتوقّف زحفُ الإمبراطورية إلى الشمال. في معركة برينا، فقدت نيلفجارد، بين قتيل وأسير، أربعة وأربعين ألفًا من رجالها. هُزِم فيها زهرة فرسان الإمبراطورية ونُخبة فرسانها المدرّعين، وقُتل أو أُسر أو فُقد فيها قادةٌ عظام، من أمثال مينّو كوهورن، وبراييانت، ودي ميليس-ستوك، وفان لو، وتايركونيل، وإيغبرخت، وغيرهم من القادة الذين ضاعت أسماؤهم بين صفحات التاريخ.

وهكذا، كانت «برينا» بداية النهاية. لكن من الإنصاف القول إن تلك المعركة لم تكن سوى حجرٍ صغيرٍ في صرحٍ عظيم، وإن أهميتها كانت ستظلُّ محدودةً لو لم تتم الاستفادة من نصرها بشكلٍ حكيمٍ وحاسم. يجب أن نذكر أنه بدلًا من أن يستريح «يان ناتاليس» على أمجاد النصر، ويختال فخورًا، منتظرًا التمجيد والأوسمة، توجّه جنوبًا دون أن يتوقّف للحظة.

فقد اندفع سلاح الفرسان بقيادة «آدم بانغرات» و«جوليا أباتيماركو» نحو الجنوب، ودمّرا فرقتين كاملتين من الجيش الثالث الذي كان يسير ببطءٍ لتقديم الدعم المتأخر إلى «مينو كوهورن»، وسحقوهما تمامًا حتى لم يبقَ من أثرهما شيء سوى الرماد.

وعند سماع هذا النبأ، استولى الذعر على ما تبقى من مجموعة جيوش المركز النيلفجاردية، فانكسروا وفرّوا مُسرعين نحو الضفة الجنوبية من «ياروغا»، تاركين وراءهم جميع القوافل وآلات الحصار التي كانوا ينوون بواسطتها، في غطرستهم، إسقاط مدن فيزيما وغورس فيلين ونوفيغراد.

وكما تتدحرج كرة الثلج من أعالي الجبال، فتتضخّم وتزداد قوتها شيئًا فشيئًا، كانت معركة «برينا» تتسبب بنتائج وخيمةٍ متتابعةٍ لنيلفجارد.

وهكذا حلّت أيام عصيبة بجيش «فيردين» بقيادة الدوق «دي ويت»، الذي أنهكته حرب العصابات بقيادة قرصان سكيلجا والملك «إيثين» من سيداريس. وحين وصلت أخبار الهزيمة في «برينا» إلى «دي ويت»، وأدرك أن الملك «فولتيست» و«ناتاليس» يتقدّمان نحوه بخطىً حثيثة، أمر على الفور بالتراجع العاجل والفرار نحو سينترا، تاركًا خلفه طريق انسحابٍ مليئةً بالجثث، إذ كانت أخبار الهزيمة النيلفجاردية قد أشعلت الثورة في فيردين من جديد. ولم يتبقَّ سوى الحصون التي لم تُهزم قط: «ناستروغ»، و«روزروغ»، و«بودروغ»، حيث ظلت حامياتها صامدةً حتى توقيع «سلام سينترا»، ثم غادرتها بشرفٍ وراياتها مرفوعة.

وفي إيدين، أدّت أنباء «برينا» إلى تصالح الملكين المتخاصمين «ديموفيند» و«هينسلت»، فتضافرت جهودهما وتوحّدا ضد نيلفجارد. ولم يتمكن الجيش الشرقي، بقيادة الدوق «أردال أيب داهي»، من الصمود أمام الملكين المتحالفين. فقوّات «ديموفيند» و«هينسلت»، معززةً بدعمٍ من «ريدانيا» وقوات حرب العصابات للملكة «ميف»، التي عذّبت نيلفجارد بلا رحمة، دفعت «أردال أيب داهي» إلى الوراء حتى بلدة «ألدرسبرغ».

هناك قرر الدوق «أردال» إعطاء المعركة الأخيرة، لكن القدر تدخّل في اللحظة الحاسمة، إذ أصابه مرضٌ مفاجئ، بعد تناوله وجبةً غريبة. عانى من المغص والإسهال بشكل غامض، ومات بعد يومين في عذابٍ شديد.

عندها هاجم الملكان «ديموفيند» و«هينسلت» جيش نيلفغارد في ألدرسبرغ على الفور، مُحقّقين انتصارًا ساحقًا رغم التفوق العددي الكبير للعدو. وهكذا انتصر، كالمعتاد، الروح والإبداع على القوة الوحشية الخالية من البصيرة.

ولا بدّ لي من تدوينِ أمرٍ أخير:

لا أحد يعلم على وجه الدقّة ماذا حلّ بالمشير «مينّو كوهورن» في معركة برينا. يقول البعض إنه سقط في المعركة، ودُفن جثمانه مجهولًا في مقبرةٍ جماعية. ويقول آخرون إنه نجا بحياته، لكنه لم يعد إلى نيلفجارد خوفًا من غضب الإمبراطور، بل هرب إلى غابة «بروكيلون» حيث اختبأ وسط الدريادات، وعاش كناسك، حتى نمت لحيته وبلغت الأرض. ويُقال إنه مات هناك بعد فترةٍ قصيرة من الحزن والندم.

وتتداول العامة حكايةً أخرى تقول إن المشير عاد ليلًا إلى ميدان برينا وظلّ يجوب أرض المعركة صارخًا: «أعيدوا إليَّ جحافلي!» حتى فقد عقله، وانتهى به المطاف مشنوقًا فوق جذع شجرة حورٍ ضخمة فوق

تلّة سُمّيت منذ ذلك الوقت بـ«تلّ المشنقة». ويقولون إنه في الليالي المظلمة يمكن للمرء رؤية شبح المشير المشهور يتجوّل بين قبور القتلى وأشباحهم التي تحوم فوق السهل.

«جدي جاري! جدي جاري!»

رفع «جاري» رأسه من بين أوراقه، وأعاد نظّارته التي كانت تنزلق عن أنفه المتعرّق.

«جدي جاري!» صاحت حفيدته الصغرى مرةً أخرى بصوتٍ رفيع. كانت طفلةً مشرقةً وحازمةً تبلغ من العمر ست سنوات، وكانت تشبه أمها — ابنة جاري — أكثر بكثير مما تشبه والدها الخامل، وهو ما أسعد جاري كثيرًا.

تابعت الصغيرة بحماس:

«أمرتني الجدة لوسيين أن أخبرك أن تكفَّ عن هذه الكتابة الكسولة فورًا، وأن الشاي ينتظرك على الطاولة!»

ابتسم جاري، ورتّب أوراقه بعناية، ثم أغلق محبرة الحبر. في تلك اللحظة شعر بألمٍ خفيفٍ يخفق في جذع ذراعه المبتورة. الطقس يتغيّر، فكّر جاري. يبدو أنه سيُمطر قريبًا.

«جدي جاااري!»

«أنا قادمٌ يا سيري... قادم.»

* * *

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بكثير عندما انتهوا أخيرًا من التعامل مع آخر المصابين. أجروا العمليات الأخيرة تحت ضوءٍ صناعي — بدايةً باستخدام مصباحٍ عادي، ثم لاحقًا بمساعدة السحر. استعادت «مارتي سودرغرين» قوتها بعد الأزمة التي مرّت بها، ورغم أنها كانت شاحبةً كالموت، متصلّبة الحركة كأنها تمثالٌ مسحور، فقد استخدمت سحرها بمهارةٍ وكفاءة.

عندما خرجوا من الخيمة، كان الليل حالكًا، فجلس الأربعة متكئين على قماشها المنهك مثلهم تمامًا. امتدت أمامهم السهول المظلمة، ممتلئةً بألسنة اللهب المتفرّقة — نيران المخيمات الثابتة، وأضواء المشاعل المتراقصة في الظلام. كان الهواء مشبعًا بأصوات الغناء البعيد، التراتيل، الهتافات، والهُتاف المنتصر.

لكن في ذات الوقت، كان الليل نابضًا بصوتٍ آخر، متقطعٍ ومتكرر — أنين الجرحى، تنهيدات المحتضرين، النداءات المتوسّلة البائسة. لم يعودوا يسمعونها بآذانهم، فقد أصبحت جزءًا من نسيج العالم حولهم، طبيعيةً كصوت نقيق الضفادع في مستنقعات «تشوتلا»، أو غناء صراصير الليل في أشجار الأكاسيا والصفصاف قرب «غولدن بوند».

جلست «مارتي سودرغرين» بصمتٍ شعريّ، مستندةً برأسها إلى كتف «راستي»، بينما كانت «أيولا» و«شاني» تتعانقان بلا اكتراث، تضحكان بين الحين والآخر على أمورٍ بلا معنى.

قبل جلوسهم، كان كلٌّ منهم قد شرب كوبًا صغيرًا من الفودكا، ثم ألقت «مارتي» آخر تعاويذها عليهم جميعًا — تعويذةً خفيفةً للبهجة، عادةً ما تُستخدم عند خلع الأسنان. لكن «راستي» شعر بالخديعة؛ فبدلًا من أن تُريحه المشروبات والسحر، زادته تخديرًا وخمولًا. وبدلًا من أن تخفّف من إرهاقه، ضاعفته. وبدلًا من أن تمنحه النسيان، أيقظت ذكرياته من سباتها.

بدا له، وهو غارقٌ في أفكاره، أن الكحول والسحر قد أثّرا فقط على «أيولا» و«شاني» كما ينبغي لهما أن يفعلا.

استدار ينظر إليهما، وفي ضوء القمر الخافت لمح خطوطًا فضيةً من الدموع اللامعة تنحدر على وجنتيهما.

لعق شفتيه المخدرتين وتمتم بصوتٍ واهن:

«أتساءل... من انتصر في هذه المعركة؟ هل يعرف أحد؟»

استدارت «مارتي» نحوه، لكنّها لم تنطق بكلمة.

في الأفق البعيد، كان غناء صراصير الليل يملأ أشجار الأكاسيا والصفصاف قرب «غولدن بوند»، فيما استمر نقيق الضفادع في المستنقعات، ممزوجًا بأنين الجرحى، وتنهّدات المحتضرين، وصرخاتهم المتقطعة التي خفتت واحدةً تلو الأخرى.

وفي وسط كل ذلك، كانت «شاني» و«أيولا» تضحكان... تضحكان من بين دموعهما.

* * *

عد أسبوعين من المعركة، لقيت مارتي سودرغرين حتفها.

بدأت في التقرّب من أحد ضباط «الفرقة الحرة للكوندوتييري»، وأخذت علاقتها به بخفةٍ كما اعتادت دائمًا، لكن الضابط لم يفعل الشيء ذاته. وحين ملّت مارتي من تلك العلاقة وبدأت بالتودّد إلى قائدٍ في سلاح الفرسان التيميري، استبدّ الجنون بالكوندوتييري المغدور، فطعنها بسكينٍ في نوبةٍ من الغيرة العمياء.

حُكم عليه بالإعدام وشنق لاحقًا، لكن لم يكن بالإمكان إنقاذ المعالجة الشابة.

راستي وأيولا ماتا بعد عامٍ واحدٍ من المعركة، في ماريبور، خلال أسوأ تفشٍ لوباءٍ نزفيٍّ فيروسي شهدته البلاد حتى ذلك الحين — المرض الذي عُرف باسم الموت الأحمر، أو كما أُطلق عليه لاحقًا، طاعون كاترينا، نسبةً إلى السفينة التي حملته إلى الموانئ الشمالية.

حين انتشر الوباء، فرّ جميع الأطباء تقريبًا، وكذلك معظم الكهنة، تاركين المدينة فريسةً للمرض والموت. لكن راستي وأيولا لم يفعلا، بطبيعة الحال. بقيا حيث كانا دائمًا، يعالجان المرضى، لأنهما كانا طبيبين. لم يكن مهمًا بالنسبة لهما أن لا علاج للموت الأحمر، فهذا لم يكن ليُثنيهما.

أصيب كلاهما بالعدوى. مات راستي بين ذراعي أيولا، في حضنها الدافئ، وسط قبضة يديها القرويتين الكبيرتين والقويتين، التي كانت رغم خشونتها أكثر طمأنينةً من أي شيءٍ آخر في العالم. أما أيولا، ففارقت الحياة وحيدةً، بعد أربعة أيام.

أما شاني، فعاشت بعد المعركة اثنين وسبعين عامًا، وأصبحت إحدى أكثر الشخصيات احترامًا، وعميدةً متقاعدة لكلية الطب بجامعة أوكسنفورت. كانت أجيالٌ من الجراحين تردد على الدوام عبارتها الشهيرة:

«خِط الأحمر إلى الأحمر، الأصفر إلى الأصفر، الأبيض إلى الأبيض. وسيكون كل شيءٍ على ما يرام.»

لكنّ قلةً قليلةً فقط من طلابها لاحظت أنها، بعد كل مرةٍ كانت تقول فيها تلك الدعابة، كانت تمسح دمعةً خفيةً عن خدّها.

* * *

نقنقت الضفادع، وغنّت صراصير الليل بين أشجار الصفصاف قرب غولدن بوند.

كانت شاني وأيولا تضحكان وسط دموعهما، بين البكاء والضحك، كأنهما عاجزتان عن التمييز بين الحزن والسخرية من كل ما مرّ بهما.

تمتم ميلو فاندر بيك المعروف براستي، الجرّاح الميداني القزم، وهو يلعق شفتيه المخدرتين:

«أتساءل... أتساءل من انتصر؟»

التفتت إليه مارتي سودرغرين، ثم ابتسمت بسخريةٍ حزينة، وقالت بصوتٍ هادئٍ، متعبٍ لكنه مفعمٌ باليقين:

«راستي... لو كنتُ مكانك، لكان هذا آخر ما أفكر فيه.»

كانت بعض ألسنة اللهب طويلةً وقوية، تتراقص بوضوحٍ وسط الظلام، مشتعلةً ببريقٍ حيٍّ نابض.

بينما كانت أخرى صغيرة، واهنة، تتمايل وتترنّح، يتضاءل ضوؤها حتى تخبو وتختفي تمامًا.

وفي النهاية، بقي لهبٌ واحدٌ فقط، ضعيفٌ لدرجةٍ بالكاد يمكنه أن يتوهّج أو يومض، يتخبّط بين محاولاته للاتقاد، وبين استسلامه للانطفاء التام.

تساءل الويتشر بصوتٍ خافت:

"لمن تعود هذه الشعلة المحتضرة؟"

أجاب الموت بصوتٍ هادئٍ، لا يعرف التردد:

«إنها لك.»

من كتاب الحكايات والقصص الخرافية لـ فلورينس ديلانوي

الفصل التاسع

امتدّت الهضبة إلى ما يقارب الجبال البعيدة، التي بدت رماديةً مائلةً إلى الزرقة وسط الضباب، أشبه ببحرٍ حجريٍّ مترامٍ لا نهاية له. في بعض المواضع كانت الأرض تتماوج على هيئة تلالٍ ونتوءاتٍ صخرية، وفي أماكن أخرى كانت تعجُّ بتكويناتٍ حادةٍ كأنياب شعابٍ مرجانيةٍ متحجرة.

وقد عزّزت هذا الانطباع تلك السفن الغارقة عشرات الحطام المتناثر هنا وهناك، مراكب ضخمة، وغالياسات، وسفن شراعية، وكرافيلات، وبريغات، وهولكات، وسفنٌ طويلة. بعضها بدا وكأنه لم يصل إلى هناك إلا مؤخرًا، بينما لم يكن البعض الآخر سوى أكوامٍ من الأخشاب المتآكلة والعوارض المحطمة، بالكاد يمكن التعرف على معالمها، وقد تبيّن أنها رقدت هناك لعقودٍ إن لم يكن لقرونٍ.

كانت بعض السفن مقلوبةً على ظهورها، بينما استلقت أخرى على جوانبها، وكأن عواصف جهنميةً ألقت بها هناك بلا رحمة. بينما بدت سفنٌ أخرى وكأنها لا تزال تُبحر وسط هذا المحيط الصخري، منتصبةً بفخر، رؤوس تماثيلها الأمامية مشدودةٌ إلى الأمام، صواريها تشير نحو عنان السماء، وأشرعتها البالية، وأطراف حبالها الممزقة، ترفرف في الريح الخافتة. حتى أنّ لها طواقمها الشبحية هياكل عظميةٌ متشابكة بين ألواح السفن المتعفنة، متشابكةٌ في الحبال، بحّارةٌ موتى، مشغولون للأبد بملاحةٍ لا تنتهي.

ارتفعت أسرابٌ من الطيور السوداء ناعقةً من فوق الصواري، والعوارض، والحبال، والجماجم، مفزوعةً بظهور الفارسة، وفرقعة حوافر جوادها على الحجارة الصلبة. حلّقت للحظاتٍ في السماء، ثم استدارت فوق حافة الجرف، حيث أسفل منه امتدّت بحيرةٌ رمادية، ساكنة، ناعمةٌ كأنها من زئبقٍ سائل.

وعند الحافة، انتصبت قلعةٌ مظلمةٌ موحشة، أبراجها مشرفةٌ جزئيًا على مقبرة السفن، وجزءٌ منها يتدلّى فوق البحيرة، أما معاقلها، فقد غُرست في الصخر العمودي، كأنما هي جزءٌ من الجبل نفسه.

"كيلبي" قفزت بخفّةٍ، ثم شخرت بصوتٍ خفيف، وأرهفت أذنيها، قلقةً من منظر الحطام، ومن الجماجم المترامية، ومن هذا المشهد الذي يغمره الموت في كل زاوية. من الطيور السوداء التي عادت لتحطَّ مجددًا على الصواري المحطّمة والعوارض المتآكلة، بين الحبال المتدلية والجماجم الفارغة.

لكن إن كان هناك من يجدر به الخوف في هذا المكان، فلم يكن الفرس.

تمتمت سيري بصوتٍ مغاير، صوتٍ لم يكن صوتها المعتاد:

«اهدئي، كيلبي... هذه هي النهاية. هذا هو المكان الصحيح، واللحظة المناسبة.»

وجدت نفسها أمام البوابة، لا تدري كيف وصلت إلى هناك، وكأنها شبحٌ خرج من بين الحطام.

كان الحراس عند أسفل البوابة أول من رآها، انتبهوا إليها بفزعٍ عندما تعالى نعيق الغربان، ثم صاحوا، مشيرين إليها بأيديهم، يستدعون الآخرين.

وعندما وصلت إلى برج البوابة، كان المكان يعجُّ بالحشود. ارتفع صخبٌ متحمّس، وتحوّلت جميع العيون نحوها. بعضهم عرفها من قبل، مثل بورياس مون وداكر سيليفانت، لكن الأكثرية كانت من المجنّدين الجدد تحت إمرة سكيلين، ومن المرتزقة وقطاع الطرق القادمين من إيبينغ والمناطق المجاورة. كانوا يحدّقون فيها باندهاش...تلك الفتاة ذات الشعر الرمادي الرماد، والندبة على وجهها، والسيف المستقرّ على ظهرها. وفي فرسها السوداء اللامعة، المنتصبة برأسها عالياً، تشخر وتضرب حوافرها بحزم على الحجارة المرصوفة في ساحة القلعة.

تلاشى الضجيج فجأة. عمّ الصمت.

تقدّمت كيلبي بخطواتٍ محسوبة، ترفع ساقيها برشاقة راقصة باليه، بينما كان رنين حوافرها على الأرضية يشبه صوت المطرقة على السندان. استمر هذا طويلاً، حتى قُطعت طريقها بصفٍّ من الجيسارمات والرونسيورات المتصالبة.

مدّ أحدهم يده نحو لجامها بترددٍ وخوف. الفرس شخرت بقوة.

قالت الفتاة بصوتٍ واثق:

«خذوني إلى سيّد هذه القلعة.»

بورياس مون، دون أن يدرك سبب ما يفعله، أمسك بركابها وثبّت يده ليساعدها على النزول. آخرون كانوا يمسكون بالفرس المتهيجة، التي لم تكف عن الضرب بحوافرها على الأرض.

همس بورياس، متردداً:

«هل تذكرينني يا سيدتي؟ لقد التقينا من قبل.»

قالت الفتاة، وهي تنظر إليه نظرةً ثابتة:

«أين؟»

قال: بورياس مون وهو يخفض صوته:

«على الجليد.»

رفعت عينيها نحوه مباشرة، وردّت بنبرةٍ خاليةٍ من الانفعال:

«لم أنظر إلى وجهك في ذلك الوقت، يا سيدي.»

قال: بورياس مون بجديّة:

«كنتِ سيّدة البحيرة آنذاك. لِمَ أتيتِ إلى هنا، يا فتاة؟ ولأيّ غرض؟»

قالت: الفتاة بصوتٍ هادئ:

«لأجل ينيفر. ولأطالب بمصيري.»

همس: بورياس مون وكأنه يخشى أن يسمعه أحد:

«إنّما تطالبين بموتكِ، على الأرجح. هذه قلعة ستايغا. لو كنتُ مكانكِ، لفررتُ بعيدًا قدر ما أستطيع.»

نظرت إليه ثانيةً، وفهم بورياس فورًا ما أرادت التعبير عنه من خلال تلك النظرة.

ظهر: ستيفن سكيلين بعد لحظات. حدّق في الفتاة طويلًا ويداه متقاطعتان على صدره. وأخيرًا أشار لها بحركةٍ حازمةٍ تتبعه، فمشت معه دون أن تنبس ببنت شفة، يحيط بها رجالٌ مسلّحون من كل جانب.

تمتم: بورياس مون وهو يرتجف قليلًا:

«يا لها من فتاةٍ غريبة.»

قال: داكر سيليفانت بتبرّم:

«لحسن الحظ، لم تعد مشكلتنا الآن. وأتعجّب منك، كيف تجرأت على محادثتها بتلك الطريقة؟ إنها الساحرة التي قتلت فارغاس وفريب، ثم أولّا هارشيم فيما بعد..»

قاطعه: بورياس مون بصرامة:

«البومة هو من قتل هارشيم، وليست هي. لقد أبقت على حياتنا فوق جليد البحر، وكان بإمكانها إغراقنا جميعًا كأننا جراءٌ صغيرة. بمن فينا البومة نفسه.»

قال: داكر سيليفانت وهو يبصق على حجارة الساحة:

«حسنٌ. سيكافئها على تلك الرحمة، هو والساحر وبونهارت. سترى يا مون، سيُشرّحونها بوحشية. سيُقطّعون جلدها شرائح رفيعة في طقوسٍ مريعة.»

ردّ: بورياس مون بانفعال:

«أجل، سيُقطّعونها. إنهم جزارون. ولسنا أفضل منهم، ما دمنا نخدم تحت إمرتهم.»

أضاف: داكر سيليفانت بمرارةٍ:

«وهل لدينا خيار آخر؟ لا.»

فجأة، أطلق أحد مرتزقة سكيلين شهقةً خافتة، وتبعه آخر. أطلق بعضهم السباب، وزفر أحدهم بصوتٍ متشنّج. وراح أحدهم يشير صامتًا نحو الأبراج.

تبيّن أنّ أسرابًا من الطيور السوداء وقفت على أسوار القلعة، وعوارضها، وأسقف أبراجها، وطيّات الحجارة، وعلى عتبات النوافذ وشرفات الأسطح، بل وعلى مزاريب المياه وتماثيل الغارغويل والماسكرونات. لقد أتت من مقبرة السفن بصمتٍ مطبق، دون أن تنعق، وجثمت هناك تنتظر ساكنةً.

تمتم: أحد المرتزقة بخوف:

«إنهم يشتمّون رائحة الموت.»

أضاف: ثانٍ بوجل:

«والجيف أيضًا.»

ردّد: داكر سيليفانت بجمودٍ وهو ينظر إلى بورياس:

«لا خيار أمامنا... أليس كذلك؟»

حدّق: بورياس مون في الطيور المعتمة، ثم تمتم بصوتٍ خافت:

«ربما حان الوقت ليكون لدينا خيار.»

* * *

صعدوا سُلَّمًا عظيمًا ذا ثلاث منصات، وساروا عبر ممرٍّ طويلٍ تصطفّ على جانبيه تماثيلٌ منصوبةٌ في تجاويف الجدران، ثم اجتازوا رواقًا يُحيط بهوًا فسيحًا.

"سيري" كانت تسير بثقةٍ، دون أدنى قلق؛ لم تخفها الأسلحة ولا ملامح مرافقيها القاتمة. لقد كذبت حين ادّعت أنها لا تذكر وجوه الرجال من فوق البحيرة المتجمدة. كانت تذكرهم جميعًا. وكانت تذكر "ستيفان سكيلين" — الرجل الذي يقودها الآن بوجهٍ كئيبٍ إلى أعماق هذه القلعة المروعة — وهو يرتجف من البرد، أسنانه تصطك، فوق الجليد.

أما الآن، وهي تلاحظ نظراته الملتوية نحوها بين الحين والآخر، شعرت أنه لا يزال يخشاها قليلًا.

استنشقت الهواء بعمق.

دخلوا قاعةً ذات قبةٍ نجميةٍ شاهقة، ترتكز على أعمدةٍ ضخمة، يعلوها ثرياتٌ متشابكةٌ مثل أرجل العناكب. هناك، في ظلال القاعة، رأت "سيري" من كان بانتظارها.

قبضة الخوف انغرست في أحشائها، شدّت عليها بقوة، التوت بداخلها مثل مخالب قاتلة.

بثلاث خطواتٍ فقط كان "بونهارت" أمامها. أمسكها من مقدمة سترتها الجلدية، رفعها عن الأرض، وجذبها نحوه بعنف، مقربًا وجهها من عينيه الباردتين، الخاليتين من الحياة.

"«لا بد أن الجحيم كان مرعبًا حقًّا،»" صرخ: "«إذا كنتِ قد اخترتِني!»"

لم تُجِب.

كانت رائحة الكحول تفوح من أنفاسه.

"«أم لعلّ الجحيم رفضكِ، أيتها الصغيرة؟ ربما بصقكِ ذلك البرج اللعين بعد أن تذوّق سُمّكِ وعافه؟»"

شدّها نحوه أكثر. أمالت وجهها بعيدًا عنه، متجنّبة أنفاسه المتخمرة.

"«أنتِ على حق،»" قال بصوتٍ خفيض: "«على حقٍّ تمامًا بأن تخافي. هذه هي نهايتك. لن تفلتي من هنا. هنا، في هذه القلعة، سأستنزفكِ حتى آخر قطرة دم.»"

"«هل انتهيت، يا سيد بونهارت؟»"

عرفت فورًا من كان المتحدث.

"الساحر فيلغيفورتز."

ذلك الرجل الذي رأته أول مرة مكبّلًا بالسلاسل، والذي لاحقها في "برج النورس".

في الجزيرة كان جميلًا، وسيمًا، مشعًا بالقوة.

أما الآن، فشيءٌ ما تغيّر في وجهه، شيءٌ جعله يبدو بشعًا ومُرعِبًا.

"«السيد بونهارت...»" لم يتحرك الساحر من على كرسيه الضخم الذي بدا كعرشٍ ملكي. "«اسمح لي بتولي المهمة السارة في الترحيب بضيفة قلعة ستايغا، الآنسة سيريلا من سينترا، ابنة بافيتا، حفيدة كالانثي، وسليلة الشهيرة لارا دورين أيب شيادهال. مرحبًا بكِ. اقتربي، من فضلكِ.»"

سخريته، المستترة تحت قناع التهذيب، تسللت إلى كلماته الأخيرة، فكان فيها ما لا يحتمل إلا التهديد والأمر. "سيري" أدركت على الفور أنها لن تستطيع مقاومة ذلك الأمر. شعرت بالخوف، خوفٍ عارٍ، قاتل.

"«اقتربي.»"

همس "فيلغيفورتز"، والآن لاحظت "سيري" ما كان مختلفًا في وجهه.

عينه اليسرى، الأصغر بكثير من عينه اليمنى، كانت ترفّ، وتختلج، وتدور في محجرها الرماديّ الأزرق وكأنها مسكونة بجنونٍ رهيب. كان منظرًا مقززًا، مرعبًا.

"«وضعٌ شجاع، لكن لمحة خوفٍ في الوجه،»" قال الساحر، مائلًا رأسه. "«أُقَدِّر ذلك. بافتراض أن شجاعتكِ ليست نتيجة للغباء. لذا، سأقضي فورًا على أيّ أوهام قد تساورك. لن تهربي من هنا، كما أشار السيد بونهارت بحق. لا عبر السحر، ولا عبر تلك القدرات الخاصة التي تمتلكينها.»"

كانت تعلم أنه صادق.

لطالما أقنعت نفسها بأنه إن لزم الأمر، فبإمكانها دومًا — حتى في آخر لحظة — الهروب والاختباء في ثنايا الزمن والمكان.

أما الآن، فقد أدركت أن ذلك لم يكن سوى وهم، مجرد خرافة.

"القلعة كانت تهتزّ، تنبض بطاقاتٍ غريبة، شريرة، معادية."

تلك الطاقة تسللت إلى داخلها، توغلت في أحشائها، زحفت على جسدها كطفيليّ، تململت بطريقة مقرفة فوق عقلها.

لم تستطع فعل شيء حيال ذلك.

"لقد أصبحت في قبضة عدوها. عاجزة."

فكّرت سيري في نفسها: يا للخسارة. كنتُ أعلم تمامًا ما أفعله. كنت أعرف لِمَ أتيت إلى هنا. أما الباقي فلم يكن سوى وهم. فليحدث ما يجب أن يحدث.

قال: فيلغيفورتز: "أحسنتِ، هذا تقييمٌ دقيقٌ للموقف. ما يجب أن يحدث سيحدث. أو بالأحرى: ما أقرّره أنا هو الذي سيحدث. أتساءل، يا فاتنتي، هل تُخمّنين أيضًا القرار الذي سأتّخذه؟"

همّت سيري بالرد، لكنّ حلقها الجاف والمشدود قاومها، وقبل أن تتغلّب على ذلك التشنّج، استبقها الساحر بقراءته لأفكارها.

قال: فيلغيفورتز: "بالطبع أنتِ تعلمين. سيّد العوالم، سيّد الأزمنة والأمكنة. أجل، أجل يا فاتنتي، لم تُفاجئني زيارتكِ أبدًا. ببساطة، أعرف أين هربتِ من البحيرة وكيف فعلتِ ذلك. وأعرف كيف وصلتِ إلى هنا. الشيء الوحيد الذي لا أعرفه هو: هل كانت رحلةً طويلة؟ وهل منحتكِ الكثير من الإثارة؟

أوه..." ابتسم ابتسامةً خبيثةً وقد سبقها مرةً أخرى باستباق ردّها. "لستِ مضطرةً للإجابة. أعلم أنها كانت ممتعةً ومثيرة. ترين؟ أنا متشوقٌ لتجربتها بنفسي. أغار من موهبتكِ يا فاتنتي. عليكِ أن تشاركينني

هذه الموهبة. نعم، كلمة عليكِ هي الصحيحة تمامًا. إلى أن تشاركينني هذه الموهبة، لن أدعكِ تفلتين من قبضتي. لن أدعكِ تفلتين، لا في النهار ولا في الليل."

عندها أدركت سيري أخيرًا أن ما كان يخنقها لم يكن الخوف وحده. الساحر كان يُكمّم فمها ويخنقها بالسحر. كان يسخر منها ويُذلّها أمام الجميع.

قالت وهي تسعل حتى انحنى ظهرها من شدّة الكحة: "أطلِق... ينيفر. أطلِق سراحها... ثم افعل بي ما تشاء."

أطلق بونهارت ضحكةً عاليةً، وضحك ستيفان سكيلين بضحكةٍ جافةٍ مقتضبة. أما فيلغيفورتز فمدّ إصبعه الصغير ليلمس الركن المشوّه من عينه البشعة.

قال فيلغيفورتز بصوتٍ بارد:

"لا يمكنكِ أن تكوني بليدةً إلى هذا الحد بحيث لا تدركين أنني قادرٌ على فعل ما أشاء بكِ مهما كان الأمر. عرضكِ متعالٍ، ولذلك فهو بائسٌ ومثيرٌ للسخرية."

قالت سيري وهي ترفع رأسها بشقّ الأنفس، كأن هذا الفعل وحده يستهلك منها قوةً هائلة:

"أنتَ بحاجةٍ إليّ... لإنجاب طفلٍ مني. الجميع يريد ذلك، وكذلك أنتَ. نعم، أنا بين يديك، جئت إلى هنا بمحض إرادتي... لم تلقِ القبض عليَّ، على الرغم من أنك طاردتني عبر نصف العالم. لقد جئتُ بمفردي، وأنا أُسلِّم نفسي لك. من أجل ينيفر... من أجل حياتها. أهذا مضحكٌ بنظرك؟ حسنًا، حاول استخدام العنف معي... وسترى بنفسك كم ستفقد رغبتك في الضحك سريعًا."

قفز بونهارت نحوها ولوّح بسوطه. لكن فيلغيفورتز أشار إشارةً بدت لا مبالية، مجرد حركةٍ خفيفةٍ من يده، ولكنها كانت كافيةً ليطير السوط من يد الصياد، فيترنح كأن عربة فحمٍ صدمته.

قال فيلغيفورتز وهو يدلك أصابعه بتروٍ:

"أرى أن السيد بونهارت لا يزال يجهل مهام الضيف وواجباته. حاول أن تتذكر: حين يكون المرء ضيفًا، لا يحقّ له تحطيم الأثاث أو الأعمال الفنية، ولا سرقة الممتلكات الصغيرة، ولا تلويث السجاد أو الزوايا المخفية. ولا يحق له اغتصاب الضيوف الآخرين أو ضربهم. على الأقل ليس قبل أن ينتهي المضيف من الاغتصاب والضرب، وليس قبل أن يعطي الإشارة للضيف بأن بإمكانه الآن أن يغتصب ويضرب. أنتِ أيضًا، يا سيري، ينبغي أن تستخلصي الاستنتاجات المناسبة مما قلتُه. ألا تستطيعين؟ سأساعدكِ

إذن. أنتِ تستسلمين لي وتقبلين بكل تواضع كل شيء، وتسمحين لي بفعل ما أريده بك. تظنين أن عرضكِ هذا عظيم السخاء. أنتِ مخطئة. الأمر هو أنني سأفعل بكِ ما يجب عليَّ فعله، وليس ما أرغب في فعله. على سبيل المثال: أودّ اقتلاع واحدةٍ من عينيكِ على الأقل ثأرًا لما جرى في تانيد، لكنني لا أستطيع، لأنني أخشى أن ذلك قد يقتلكِ."

عرفت سيري أن اللحظة الحاسمة قد حانت، وإما أن تفعلها الآن أو لن تفعلها أبدًا. استدارت نصف استدارة، وانتزعت سيفها "السنونو" من غمده. لكن فجأةً بدا كأن القلعة بأسرها تدور حولها، وشعرت بنفسها تسقط أرضًا، ركبتاها تصطدمان بقسوة على الأرضية الحجرية. انحنت بجسدها، حتى لامس جبينها الأرض تقريبًا، وهي تقاوم رغبةً عارمةً في التقيؤ. أفلت السيف من أصابعها المرتعشة. تقدّم أحدهم ورفعها عن الأرض.

قال: فيلغيفورتز وهو يضع ذقنه على يديه المتشابكتين كأنه يصلّي:

"آه، نعم. أين كنتُ؟ آه، صحيح، عرضُكِ. حرية ينيفر وحياتها مقابل... ماذا؟ مقابل استسلامكِ طوعًا، من دون عنفٍ أو إكراه؟ آسف، يا سيري. العنف والإكراه ضروريّان تمامًا في كل ما أنوي فعله بك."

ثم تابع يراقبها باهتمام وهي تلهث وتتفل وتكاد تتقيّأ:

"لا يمكن أن يتمّ ذلك من دون عنف. أنا واثقٌ أنكِ ما كنتِ لتوافقي طوعًا على ما سأفعله بك، أؤكد لكِ ذلك. وهكذا ترين أن عرضكِ، الذي لا يزال بائسًا ومثيرًا للشفقة، ليس سوى عرضٍ بلا قيمة. لذا أرفضه."

رفع يده بإشارةٍ حاسمة، ثم أكمل بأمرٍ قاطع:

"هيا، خذوها إلى المختبر! في الحال."

* * *

لم يكن المختبر يختلف كثيرًا عن ذاك الذي عرفته سيري في معبد ميليتلي في إيلاندر. كان أيضًا مضاءً بضوءٍ ساطع، نظيفًا، ممتلئًا بطاولاتٍ طويلة ذات أسطح معدنية، تعجّ بالزجاجيات، الجرار الكبيرة، القوارير، الدوارق، الأنابيب، العدسات، والمقطرات التي كانت تهمس وتغلي، إلى جانب أجهزةٍ غريبة أخرى. هنا أيضًا، كما في إيلاندر، انتشرت في الأجواء روائح قوية للإيثر، والكحول، والفورمالين، وشيء آخر... شيء أثار في نفسها الخوف.

حتى في ذلك المعبد الودود، وبين الكاهنات الطيّبات، وتحت عناية يينيفر، كانت سيري تشعر بالخوف داخل المختبر. فما بالك هنا، حيث لم يأتِ بها أحد طواعية، بل جرّوها عنوة، ودفعوها بعنفٍ إلى الطاولة، وأمسكوا بكتفيها وذراعيها بقبضةٍ من حديد؟

في إيلاندر، لم يكن هناك كرسيٌّ فولاذيٌّ رهيب، وظيفته تبدو بوضوحٍ سادية. لم يكن هناك رجالٌ حليقي الرؤوس، يرتدون ملابس بيضاء، يقفون في وسط المختبر. لم يكن هناك بونهارت، ولا سكيلين، الذي بدا متحمسًا، متورد الوجه، يلعق شفتيه بتلذذ. ولم يكن هناك فيلغيفورتز، ذلك الرجل ذو العين الطبيعية، والأخرى الصغيرة، المرتعشة بشكلٍ مروّع.

استدار فيلغيفورتز بعيدًا عن الطاولة، حيث كان قد أمضى وقتًا طويلًا في ترتيب بعض الأدوات ذات المظهر الشرير.

قال، وهو يقترب منها بخطى هادئة:

"هل ترين، أيتها العذراء الرائعة، أنكِ مفتاح السيطرة والقوة؟ ليس فقط على هذا العالم، ذلك الغرور الزائل، المحكوم عليه بالفناء المبكر على أية حال، بل على جميع العوالم. على جميع الأزمنة والأماكن التي نشأت منذ التقاطع العظيم وتصادم العوالم. لا شك أنكِ تفهمينني جيدًا؛ فقد زرتِ بالفعل بعضًا من تلك الأماكن والأزمنة."

"أشعر بالخجل من الاعتراف بذلك،" تابع حديثه بعد لحظة، وهو يرفع أكمامه: "لكنني مفتون بالقوة إلى حدٍّ مخزٍ. أعلم أن الأمر يبدو مبتذلًا، لكنني أريد أن أكون حاكمًا. حاكمًا ينحني الناس أمامه، ويمدحونه فقط لأنني سمحت لهم بالبقاء، ويعبدونه كإلهٍ إذا قررتُ، لنقل، أن أُنقذ عالمهم من كارثةٍ ما. حتى لو أنقذته فقط من باب النزوة."

ابتسم فيلغيفورتز، وعيناه تلمعان بجنون، ثم واصل حديثه بصوت خافت أشبه بالهمس:

"آه، سيري، يغمرني شعورٌ بالغبطة عندما أفكر في مدى كرمي العظيم تجاه المخلصين، وفي مدى قسوتي المريعة تجاه المتمردين والمتغطرسين. تخيّلي أجيالًا بأكملها تقدم لي الصلوات، وتتضرع إليّ، من أجل رحمتي ومن أجل محبتي... آه، أي بلسمٍ سيكون ذلك لروحي!

أجيال بأكملها، سيري، عوالم بأسرها. أنصتي جيدًا... هل تسمعين؟

"أنقذنا من الطاعون، والمجاعة، والحرب، ومن غضب فيلغيفورتز...!""

حرك أصابعه أمام وجهها كما لو كان يعزف على أوتار غير مرئية، ثم انقضّ فجأة وأمسك بخديها بقوة.

صرخت سيري وحاولت المقاومة، لكنها كانت محاصرة بقبضةٍ حديدية. شفتيها بدأتا بالارتجاف.

رأى ذلك... فضحك.

"طفلة القدر،" ضحك بصوتٍ متوتر، وظهرت في زوايا فمه رغوة بيضاء، "دماء الأجداد المقدسة... دماء الإلف العليا..."

"والآن، باتت كلها ملكي."

استقام فجأة... ومسح فمه بيده.

"الحمقى والمهووسون بالأوهام"، أعلن الآن ببروده المعتاد، "حاولوا أن يلائموا قصتك مع الخرافات والأساطير والنبوءات. تعقبوا الجينات التي تحملينها، إرث أسلافك، معتقدين أن السماء ليست سوى انعكاسٍ للنجوم على سطح بركةٍ راكدة. ومن هذا الوهم، افترضوا بطريقة غامضة أن هناك جينًا قادرًا على تطوير قدرات عظيمة، وأنه سيصل إلى ذروة قوته في ابنك أو حفيدك. هكذا، نُسجت حولك هالةٌ ساحرة، وتبخرت خلفك أدخنة البخور."

"لكن الحقيقة، يا فتاتي الرائعة، أكثر ابتذالًا بكثير. أكثر دنيويةً. دنيويةٌ عضوية، إن صح التعبير. دمك مهم، نعم. لكنه مهمٌ بالمعنى الحرفيّ تمامًا، وليس بأي معنى شاعريّ أو أسطوريّ."

رفع عن الطاولة محقنًا زجاجيًا طوله نحو ست بوصات، كانت نهايته مدببة على شكل أنبوبٍ شعريٍّ رفيع منحني قليلًا.

شعرت سيري بأن حلقها قد جفّ.

أدار الساحر المحقن في يده، ورفع رأسه قليلًا لينظر إليه تحت الضوء.

"في غضون لحظات"، تابع ببرود، "ستُجرَّدين من ملابسك وتُجْلَسين على هذا الكرسي، نعم، هذا تحديدًا، الذي تنظرين إليه بمثل هذا الاهتمام. ستقضين بعض الوقت عليه، وإن كان بوضعيةٍ غير مريحة. وبمساعدة هذا الجهاز، الذي ألاحظ أنه يثير فضولك أيضًا، سيتم تخصيبك."

اقترب صوته أكثر، كأنما يريد أن يتأكد أنها تستوعب كل كلمة.

"لن يكون الأمر فظيعًا جدًا، لأنك ستكونين طوال الوقت تقريبًا تحت تأثير الإكسير الذي سأحقنه في عروقك، لضمان استقرار الجنين المزروعِ والتأكد من عدم حدوث حمل خارج الرحم. لا داعي للخوف، لدي خبرة واسعة، فقد فعلت ذلك مئات المرات. لم أجرِ ذلك على فتاةٍ مختارة من القدر والمصير من قبل، لكنني لا أعتقد أن أرحامهن تختلف كثيرًا عن أرحام الخادمات العاديات."

"والآن إلى الأهم." قال فيلغيفورتز مستمتعًا بكلماته، متذوقًا كل حرفٍ ينطق به. "قد يقلقك هذا، أو ربما يبهجك، لكن اعلمي أنك لن تضعي هذا الطفل أبدًا. من يدري؟ ربما كان ليصبح هو الآخر مُختارًا عظيمًا، صاحب قدرات خارقة، مخلّص العالم وملك الأمم؟ لكن لا أحد يستطيع أن يضمن ذلك، وأنا، فوق ذلك، لا أنوي الانتظار طويلًا. ما أحتاجه ليس الطفل، وإنما دمه. أو لنقل بشكلٍ أكثر دقة: دم المشيمة. ما إن تنمو المشيمة، سأستخلصها منك. أما بقية خططي ونواياي، يا فتاتي الرائعة، فلن تعنيك بعد ذلك، كما تفهمين الآن، لذلك لا فائدة من إخبارك بها، فلن يجلب ذلك سوى إحباط لا لزوم له."

توقف، تاركًا فجوة مدروسة في حديثه، متلذذًا بالصمت الذي يفصل بين الجملة والأخرى.

لم تستطع سيري التحكم في ارتجاف شفتيها.

"والآن،" أومأ الساحر بإيماءة مسرحية: "أدعو الآنسة سيريلا إلى الكرسي."

"سيكون من الممتع أن تشاهد تلك العاهرة ينيفر هذا المشهد." قال بونهارت، كاشفًا عن أسنانه من تحت شاربيه الرماديين. "إنها تستحقه!"

"بلا شك، تستحقه." عاد الزبد الأبيض للظهور عند زاويتي فم فيلغيفورتز وهو يبتسم. "فالتخصيب، في النهاية، أمرٌ مقدّس، احتفالي وشعائري. في العادات القديمة، كانت العائلة كلها تحضر الطقس، بل إن الأم تشارك أحيانًا مشاركةً مباشرة في الطقوس التي يتم فيها استهلال ابنتها لأول مرة. أليس كذلك؟ بما أن ينيفر هي أمك البديلة، فإن حضورها سيكون منطقيًا تمامًا. هيا، أحضروها إلى هنا!"

"لكن بشأن هذا التخصيب ..." انحنى بونهارت فوق سيري، التي بدأ حواريّو الساحر حليقي الرؤوس بتمزيق ملابسها عنها، وقال بصوت خفيض، مشوبٍ بالهمس: "ألا يمكننا، يا سيد فيلغيفورتز، أن نجعل الأمر أكثر طبيعية؟ كما أرادت الطبيعة؟"

قهقه سكيلين، ملوّحًا برأسه بالموافقة. أما فيلغيفورتز فقد قطب حاجبيه قليلًا، لكنه لم يُطل التفكير.

"لا،" أجابه ببرود. "لا، سيد بونهارت. لا يمكن."

عندها، وكأنها لم تدرك فظاعة ما يجري إلا في تلك اللحظة، أطلقت سيري صرخة حادة، مرعبة، مزقت سكون المكان.

صرخت مرة. ثم ثانية.

"حسنًا، حسنًا." قطّب الساحر جبينه في امتعاض. "دخلنا عرين الأسد بشجاعة، برأس مرفوع وسيف مشهر، والآن نخاف من أنبوب زجاجي صغير؟ يا للعار، آنسة شابة مثلك!"

لكن سيري لم تكترث للخزي أو العار. صرخت بكل ما أوتيت من قوة، صرخة حادة اخترقت الهواء، فاهتزت القوارير في المختبر، وارتجفت السوائل داخل أنابيبها.

وفجأة، استجابت قلعة ستيغا بأكملها لصراخها، دوّت الأصوات، ارتفع الضجيج، وتعالى الصراخ والفوضى في أرجاء الحصن المظلم.

* * *

"ستكون هناك مشاكل، يا رفاق"، قال زادارليك، وهو يحكّ بعقب رمحه المعدني الأوساخ الجافة المتراكمة بين حجارة ساحة القلعة. "أوه، سترون، ستقع علينا المصائب، نحن البائسين."

نظر إلى رفاقه، لكن لم يعلّق أحد من الحراس. لم يقل بورياس مون شيئًا أيضًا. بقي عند البوابة باختياره، وليس بأمر. كان بإمكانه، مثل سليفانت، أن يتبع البومة الكستنائية، أن يرى بنفسه ما سيحدث لسيدة البحيرة، أن يشهد مصيرها. لكنه لم يرد المشاهدة. فضّل البقاء هنا، في الساحة، تحت السماء المفتوحة، بعيدًا عن القاعات العلوية للقلعة، حيث اقتادوها. كان متأكدًا أن صرخاتها لن تصل إلى هنا.

"تلك الغربان السوداء نذير شؤم." أشار زادارليك برأسه نحو الطيور الجاثمة على الجدران والكرانيش. "تلك الفتاة التي وصلت إلى هنا على فرس سوداء ليست سوى فأل سوء. نحن نخدم البومة الكستنائية في أمر شرير، صدقوني. يقولون إنه لم يعد قاضيًا أو رجلًا ذا نفوذ، بل أصبح مجرد خارج عن القانون مثلنا. والإمبراطور يضمر له حقدًا شديدًا. إن أمسك بنا جميعًا، فسنلقى العذاب والويل، نحن البائسين."

"أجل، أجل!" قال حارس آخر، وهو يعبث بشاربه الطويل ويرتدي قبعة مزينة بريش اللقلق الأسود. "المشنقة في انتظارنا! لا خير في غضب الإمبراطور..."

"هراء،" قاطعه ثالث، كان قد وصل حديثًا إلى قلعة ستيغا مع آخر دفعة من المرتزقة الذين جندهم سكيلين. "الإمبراطور قد لا يجد وقتًا لنا. يقولون إنه منشغل بأمور أخرى. يُقال إن معركة حاسمة دارت في الشمال، وأن النوردلينغ سحقوا جيوش الإمبراطورية، وهزموهم شر هزيمة."

"في هذه الحالة،" قال الرابع، وهو ينظر إلى رفاقه، "ربما ليس سيئًا أننا هنا مع البومة ؟ فالأفضل دائمًا أن تكون مع المنتصرين."

"بالتأكيد هو الأفضل،" قال القادم الجديد، مبتسمًا بثقة. "يبدو لي أن البومة الكستنائية سيصل بعيدًا. وسنصل نحن بعيدًا معه أيضًا."

'أوه، أيها الفتيان.' قال زادارليك وهو يستند إلى رمحه. 'أنتم أغبى من أن تفهموا، كالخنازير في الوحل.'

تطايرت الطيور السوداء في السماء بصخب، تصاحبها رفرفة أجنحتها وصياحها القاسي. حجبت الضوء للحظة، ثم حلقت على شكل دوامة فوق الحصن.

'ما هذا بحق الجحيم؟' تمتم أحد الحراس.

'افتحوا البوابة، رجاءً.'

بوريس مون استنشق فجأة رائحة قوية للأعشاب: المريمية، النعناع، والزعتر. ابتلع ريقه وهز رأسه، وأغمض عينيه ثم فتحهما مجددًا. لم يُجدِ ذلك نفعًا. كان هناك رجل مسن، نحيل، ذو شعر رمادي، أشبه بجابٍ للضرائب، قد ظهر بينهم فجأة، مبتسمًا ابتسامة ضيقة الشفتين. شعر بوريس يقف على أطرافه.

'افتحوا البوابة، رجاءً،' كرر العجوز المبتسم. 'من دون تأخير. سيكون هذا أفضل لكم جميعًا.'

زادارليك أسقط رمحه على الأرض بصوت مرتجف، شفتاه تتحركان بلا صوت، وعيناه فارغتان من أي تعبير. أما بقية الرجال فقد تحركوا ببطء نحو البوابة، وكأنهم دُمى مسحورة، خطاهم ثقيلة، حركاتهم غير طبيعية. فكّوا العارضة، وأزالوا الأقفال والمزالج.

وفي لحظة، اندفع أربعة فرسان إلى فناء القلعة، خيولهم تثير الغبار تحت وقع حوافرها.

كان أحدهم ذو شعر أبيض كالثلج، وسيفه يشع كوميض البرق. الثانية، امرأة شقراء، وهي تقوّس قوسها بينما تمتطي جوادها. والثالثة، شابة يافعة، شقت صدغ زادارليك بضربة من سيفها المنحني، شقًا أعمق من الزمن نفسه.

بوريس مون حمل رمحه ليصد الضربة، لكن الفارس الرابع كان قد أصبح فوقه بالفعل، خوذته مزينة بجناحي صقر، وسيفه المسلول يتلألأ في الضوء.

'دعه، كاهير،' قال الرجل ذو الشعر الأبيض بحدة. 'وفر الوقت والدماء. ميلفا، ريجيس، من هناك...'

'لا،' تمتم بوريس، غير مدرك حتى لما يفعله. 'ليس من ذلك الاتجاه... إنه طريق مسدود فقط. طريقكم هناك، عبر ذلك الدرج... نحو القلعة العليا. إن كنتم تريدون إنقاذ سيدة البحيرة... فعليكم أن تُسرعوا.'

'أشكرك،' قال الرجل ذو الشعر الأبيض. 'شكرًا لك، أيها الغريب. ريجيس، سمعت؟ تقدم وقُدنا!'

وبعد لحظة، لم يبق في الفناء سوى الجثث. وبوريس مون، لا يزال متكئًا على رمحه، غير قادر على الإفلات منه، إذ كانت قدماه ترتجفان بعنف.

الغرابان حلقوا في السماء، صياحهم يملأ الأفق، ثم عادوا ليغطوا أبراج وحصون قلعة ستيغا بسحبهم الداكنة.

* * *

أصغى فيلغيفورتز إلى التقرير اللاهث للمرتزق الذي اقتحم الغرفة، محتفظًا بهدوء قاسي لا يُخترق، لكن عينه القلقة التي تومض بلا توقف كانت تفضحه.

قال وهو يطحن أسنانه: "تعزيزات اللحظة الأخيرة؟ هذا أمر لا يُصدق. أشياء كهذه لا تحدث. أو إن حدثت، فهي تحدث فقط في العروض الرخيصة المبتذلة، مما يجعلها بلا جدوى. أمتِعني، أيها الرفيق، وأخبرني أنك اختلقت كل هذا... دعنا نقول، كمزحة."

صرخ المرتزق بغضب: "لم أختلق شيئًا! أنا أقول الحقيقة! بعض الفرسان اقتحموا القلعة... فوجٌ كامل منهم..."

"حسنًا، حسنًا." قاطعه الساحر ببرود. "كنت أمزح. سكِيلين، تعامل مع هذا الأمر شخصيًا. ستكون هذه فرصة رائعة لإظهار مدى كفاءة جيشك، الذي استأجرته بذهبي."

وثب البومة فجأة، ملوحًا بذراعيه بعصبية.

صرخ: "ألا تأخذ هذا الأمر بجدية، فيلغيفورتز؟! يبدو أنك لا تدرك خطورة الموقف! إن كانت القلعة تتعرض للهجوم، فهذا يعني أنها جيش إمير! وهذا يعني..."

"لا يعني أي شيء." قاطعه الساحر بحدة. "لكنني أعرف ما يدور في بالك. حسنًا، إذا كان وجودي خلفك سيُحسِّن من معنوياتك، فليكن كما تريد. هيا بنا. وأنت أيضًا، سيد بونهارت."

التفت بعينه المرعبة إلى سيري وقال:

"أما أنتِ، فلا تأملي كثيرًا. أعلم جيدًا من الذي وصل إلى هنا مع هذه التعزيزات البائسة التي لا تليق إلا بمسرحية هزلية رخيصة. وأعدك، سأحوِّل هذه المسرحية الرخيصة إلى كابوس."

ثم أشار إلى الخدم والمريدين قائلاً بصرامة:

"قيدوا الفتاة بأغلال الديميريتيوم، وألقوها في زنزانة محكمة الإغلاق. لا يتحرك أحد من مكانه عند الباب. ستدفعون حياتكم ثمنًا إن هربت. مفهوم؟"

"نعم، سيدي."

* * *

اندفعوا إلى الممر، ومن الممر إلى قاعةٍ واسعةٍ مليئةٍ بالتماثيل، كانت بمثابة معبدٍ للنحت الحقيقي؛ لم يُعترض طريقهم أحد، فلم يروا سوى بعض الخدم الذين فرّوا فور رؤيتهم.

ركضوا صعودًا على الدرج، فقام كاهير بركل باب مفتوح، وانطلقت أنغوليم إلى الداخل بصراخٍ قتالي، وضربت بسيفها ما أسقط خوذة بدلة درع كانت تظنُّها حارسًا واقفًا عند الباب؛ أدركت خطأها فاندفعت ضاحكةً بصوتٍ عالٍ.

قالت ضاحكةً:

«هي، هي، هي! انظري إلى ذلك...»

تولى جيرالت توبيخها قائلاً:

«لا تبقي واقفةً هنا فقط! تقدّمي!»

انفتح باب أمامهم، وكانت أشكالٌ غامضة ترتسم في المدخل. انحنت ميلفا بقوسها وأطلقت سهمًا دون ترددٍ؛ فصرخ أحدهم.

أُغلق الباب، وسمع جيرالت صوت طلقة سهمٍ ترتطم، ثم قال:

«تقدّموا، تقدّموا! لا تبقوا مكتوفي الأيدي!»

قال ريجيس:

«أيها الويتشر، إن هذا الركض بلا جدوى. سأطير لأقوم ببعض الاستطلاع.»

فرد جيرالت:

«طِر!»

انطلق المصاص الدماء كما لو أن الريح قد حملته بعيدًا؛ فلم يكن لدى جيرالت وقتٌ للدهشة.

ثم صادفوا بعض الرجال، وهذه المرة مسلحين؛ فقفز كاهير وأنغوليم نحوهما بصياحٍ، فهرب الرجال على الأرجح بسبب كاهير وخوذته المذهلة ذات الأجنحة.

اندفعوا إلى الدير، وإلى المعرض الذي يُحيط بالمدخل الداخلي؛ وكان يفصل بينهم وبين البوابة المؤدية إلى القلعة حوالي عشرين خطوة، حينما ظهرت أشكال على الجانب الآخر من الدير، وارتفعت صيحاتٌ مدوية في الأرجاء، بينما طارت الأسهم في الهواء.

صرخ الويتشر: «احتموا!»

انهمرت عليهم السهام كالمطر، تتطاير ريشاتها، وترتطم رؤوسها المعدنية بالأرض محدثة شرارات، وتنتزع قطعًا من الزخارف الجدارية، فتساقط عليهم غبارٌ ناعمٌ.

«انبطحوا! خلف الدرابزين!»

ألقوا بأنفسهم أرضًا، متوارين عشوائيًا خلف أعمدةٍ حلزونيةٍ منقوشةٍ بأوراق الشجر. لكنهم لم ينجوا تمامًا؛ إذ سمع جيرالت صرخة أنغوليم، ورآها تمسك بذراعها، حيث كانت كمّها قد تشبع بالدم على الفور.

«أنغوليم!»

صاحت الفتاة، بصوتٍ كان يرتجف قليلًا فقط، مؤكدةً ما رآه: «لا بأس! السهم مرَّ من خلال العضلة!»

لو أن رأس السهم قد حطم العظم، لكانت أنغوليم قد فقدت وعيها من الصدمة.

استمر الرماة في إطلاق سهامهم من المعرض دون توقف، يصرخون، وينادون طلبًا للتعزيزات. ركض بعضهم إلى الجانب، محاولين إطلاق النار من زاوية حادة تحاصر المجموعة. شتم جيرالت، وهو يقدِّر المسافة التي تفصلهم عن الرواق. كان الوضع يبدو سيئًا، لكن البقاء في أماكنهم يعني الموت المؤكد.

صرخ بأعلى صوته: «فلنركض!» ثم أضاف: «كاهير، ساعد أنغوليم!»

رد كاهير بقلق: «سيذبحوننا!»

أصر الويتشر بحزم: «يجب أن نحاول! لا خيار لدينا!»

لكن فجأة، صرخت ميلفا: «لا!»

وقفت، تمسك قوسها بثبات، جسدها متوترٌ كوتر السهم، تقف شامخةً كتمثال رخامي لمحاربة أمازونية. صرخ الرماة في المعرض، مدركين الخطر المحدق بهم.

انخفض رأس ميلفا قليلًا.

وفي لحظة، طار أحد الرماة إلى الخلف، مرتطمًا بالجدار بقوة، وانفجرت بقعة دموية على الحجر، تبدو كأنها أخطبوط هائل. دوَّى صراخٌ من المعرض، كان مزيجًا من الغضب، والرعب، والذهول.

تنهَّد كاهير قائلاً: «باسم الشمس العظمى...» لكن جيرالت ضغط على كتفه بقوة وقال: «الآن! اركضوا! كاهير، ساعد أنغوليم!»

صبَّ الرماة على المعرض نيرانهم على ميلفا، لكن جسدها لم يرتعش حتى، رغم أن الغبار والقطع المتناثرة من الجص والرخام تطايرت حولها كالأمطار. أطلقت الوتر مجددًا، دون أن يطرف لها جفن.

صرخة أخرى، وسقط رامي سهام آخر كدمية مهترئة، متناثرًا بدمائه ودماغه على رفاقه.

صرخ جيرالت، مشيرًا إلى الحراس الذين بدأوا بالفرار من المعرض، بعضهم انبطح أرضًا، وآخرون اختبأوا خوفًا من رؤوس الأسهم القاتلة. بقي فقط الثلاثة الأكثر جرأة يواصلون الرماية، لكنها كانت مسألة وقتٍ فقط...

اندفع رأس السهم نحو العمود، مرتطمًا به بقوة، مما نثر سحابة من غبار الجص فوق ميلفا. نفخت الرامية على خصلات شعرها المتساقطة على وجهها، ثم شدّت وتر القوس مجددًا.

صرخ جيرالت، وقد وصل مع أنغوليم وكاهير إلى الرواق: «ميلفا! دعيه! اركضي!»

لكن ميلفا لم تتراجع، تمتمت وهي تثبت سهمًا جديدًا بين شفتيها: «رمية صغيرة أخرى فقط.»

انطلق الوتر بصوت حاد، وتبعه عواء ألمٍ مدوٍّ. مال أحد الرجال الثلاثة الشجعان فوق الدرابزين، ثم هوى نحو الأسفل، ليتهشم جسده فوق حجارة ساحة القلعة. عند رؤية ذلك، تلاشت شجاعة الآخرين في لحظة، فسقطوا أرضًا، ملتصقين بها كالأموات، فيما اختبأ القادمون خلف الجدران، مترددين في الظهور على المعرض وتعريض أنفسهم لرمايات ميلفا القاتلة.

لكن كان هناك استثناء.

لمحت ميلفا الرجل على الفور. قصير القامة، نحيف، داكن البشرة. يضع واقيًا جلديًا على ساعده الأيسر، كان ملمّعًا من كثرة الاستخدام، وقفاز رماة على يده اليمنى. رأته يرفع قوسًا مركبًا أنيقًا، محفورًا بشكل مميز، يشدّه بسلاسة، يثبّت وتره بقوة.

رأت الوتر المشدود حتى أقصاه، يقطع وجهه الداكن، رأت ريشة السهم الحمراء تلامس وجنته. رأت عينيه مركزتين، يقيس المسافة بدقة قاتلة.

رفعت ميلفا قوسها في اللحظة ذاتها، شدّت وترها بسلاسة، بالفعل كانت تصوب نحوه.

لامس وترها وجهها، وريشة السهم زاوية فمها.

* * *

قال والدها: "أقوى، أقوى، يا ماريشكا. حتى تصلي إلى خدكِ. لفي وتر القوس بأصابعكِ حتى لا يسقط السهم من المسند. ضعي يدكِ بقوة على خدكِ. صوّبي! افتحي عينيكِ معاً! الآن احبسي نفسكِ. أطلقي!"

لسع وتر القوس، رغم الحامية الصوفية، ساعدها الأيسر بألم.

كان والدها على وشك أن يتكلم عندما انتابته نوبة سعال. نوبة سعال ثقيلة، جافة، مؤلمة. فكرت ماريشكا بارينغ وهي تخفض قوسها: إنه يسعل بشكل أسوأ وأسوأ. بشكل أكثر بشاعة، وأكثر تكراراً. بدأ يسعل أمس وهو يصوّب على غزال. وكان العشاء مجرد سلق السلق البري. لا أطيق السلق البري المسلوق. أكره الجوع. والفقر.

استنشق بارينغ العجوز الهواء، مصدراً صوتاً مزعجاً كالصرير.

قال: "سهمكِ مرّ على بعد شبر من مركز الهدف، يا فتاة! شبر كامل! ألم أقل لكِ ألا ترتجفي عندما تطلقين الوتر؟ وأنتِ تقفزين كما لو أن دودة زحفت إلى شق مؤخرتكِ. وتأخذين وقتاً طويلاً في التصويب. تطلقين بذراع متعبة! هكذا تهدرين السهام!"

ردت ماريشكا قائلة: "لكنني أصبت الهدف! وليس شبراً، بل نصف شبر من مركز الهدف."

قال والدها: "لا تعانديني! كيف عاقبني الآلهة بإرسال فتاة غبية بدلاً من ابن!"

ردت قائلة: "أنا لست غبية!"

قال: "سنرى قريباً. أطلقي مرة أخرى. وانتبهي لما قلته لكِ. يجب أن تقفي كما لو كنتِ مغروسة في الأرض. صوّبي وأطلقي بسرعة. لماذا تعبسين؟"

أجابت قائلة: "لأنك تذمني."

قال: "هذا حقي الأبوي. أطلقي."

سحبت الوتر بعبوس، لقد كانت على وشك البكاء. وقد لاحظ ذلك.

قال بهدوء: "أحبكِ، يا ماريشكا. تذكري ذلك دائماً."

أطلقت الوتر عندما لامست الريشة زاوية فمها بالكاد.

قال والدها: "أحسنتِ. أحسنتِ، يا فتاة."

ثم سعل بشدة، مصدراً صوتاً مزعجاً كالأزيز. كان أزيز أنفاسه الخافت يختلط بصوت الريح، وكأنه يحاول انتزاع روحه.

* * *

مات الرامي الأسمر في الرواق فورًا. سهم ميلفا اخترق جسده تحت إبطيه الأيسر، نافذًا عميقًا إلى أكثر من نصف طول السهم، محطمًا ضلوعه، وساحقًا رئتيه وقلبه.

أما سهم الرامي الأسمر، ذو الريش الأحمر، الذي أطلقه قبل لحظة واحدة فقط، فقد أصاب ميلفا في أسفل البطن، وخرج من ظهرها، محطمًا حوضها، وساحقًا أمعاءها وشرايينها.

تهاوى الرامي على الأرض كما لو صدمه جدار من الحديد.

صرخ جيرالت وكاهير بصوت واحد. غير عابئين بأن رماة السهام في الرواق قد رفعوا أقواسهم من جديد، اندفعا خارج الممر الواقي، أمسكوا بميلفا، وجرّوها بعيدًا، متجاهلين وابل السهام المنهمر.

ارتطم أحد رؤوس السهام بخوذة كاهير، وآخر – أقسم جيرالت على ذلك – مرّ عبر شعره، كأنه فأس يفصله عن رأسه.

خلفت ميلفا خلفها أثرًا واسعًا من الدم اللامع. وفي غمضة عين، تشكلت بركة ضخمة من الدم في المكان الذي وضعوها فيه. شتم كاهير بحدة، يداه ترتجفان. شعر جيرالت باليأس يجتاحه. والغضب.

"خالتي!" عوت أنغوليم، صوتها يختلط بالدموع. "خالتي، لا تمووووتي!"

ماريا بارينغ فتحت فمها، سعلت سعالًا رهيبًا، تبصق الدم على ذقنها.

قالت بصوت واضح، بالكاد تقطعه الأنفاس: "أحبك أيضًا، أبي."

ثم ماتت.

* * *

لم يتمكن المساعدون ذوو الرؤوس المحلوقة من السيطرة على سيري التي كانت تكافح وتصرخ، فهرع

الخدم لمساعدتهم. قفز أحدهم، بعد أن ركلته سيري بين ساقيه، إلى الخلف، منحنياً على نفسه، وسقط على ركبتيه، ممسكاً بمنطقته الحساسة وهو يلهث بحثاً عن الهواء بشكل متقطع.

لكن ذلك لم يزد الآخرين إلا غضباً. تلقت سيري لكمة في رقبتها وصفعة على وجهها. أسقطوها أرضاً، ركلها أحدهم بقوة في وركها، وجلس آخر على ساقيها. ركع أحد المساعدين – كان حليق الرأس ذو عينين شريرتين ذهبيتين وخضراوين - على صدرها، وأمسك بشعرها بأصابعه وسحبه بقوة فصرخت سيري.

صرخ هو أيضاً فجأة وحدّق بعينين متسعتين ورأت سيري تيارات من الدم تنبثق من رأسه المحلوق، ملطخة معطفه الأبيض المخبري بنمط مروع.

في اللحظة التالية، اندلع الجحيم في المختبر.

ارتطمت الأثاث المقلوب بصوت عالٍ. امتزج صرير وطقطقة الزجاج المكسور العالية مع أنين الرجال الجهنمي. انسكبت المقطرات والفيلترات والإكسيرات والمستخلصات وغيرها من المواد السحرية على الطاولات والأرض، مختلطة ومتحدة، بعضها يصدر فحيحاً عند التماس ويطلق سحباً من الدخان الأصفر. امتلأت الغرفة على الفور برائحة نفاذة.

وسط الدخان، من خلال الدموع التي تسببت بها رائحة الحريق، رأت سيري برعب شكلاً أسود يشبه خفاشاً هائلاً يندفع حول المختبر بسرعة مذهلة.

رأت الخفاش وهو يحلق عالياً ويضرب الرجال، ورأتهم وهم يسقطون صارخين. أمام عينيها، وخادم رُفع من الأرض وهو يحاول الفرار بشدة وأُلقي على طاولة، حيث تلوى، ورذاذ الدم يتناثر، وأخيراً مات بين القوارير المحطمة والأنابيق وأنابيب الاختبار والقوارير.

تطاير مزيج السوائل المسكوبة ليصطدم بالمصباح مطلقاً هسيسًا كريه الرائحة، ثم اندلعت ألسنة اللهب فجأة في أرجاء المختبر. و بددت موجة من الحرارة الحارقة الدخان، بينما عضّت سيري على أسنانها حتى لا تصرخ.

كان يجلس بهدوء على الكرسي الفولاذي الذي كان مخصصًا لها رجل نحيل ذو شعر رمادي، أنيق المظهر في زيه الأسود، كان يمتص ببطء نحر المريد الحليق الرأس المنهار فوق ركبتيه. كان المريد يصرخ بصوت حاد، جسده يتشنج بعنف، أطرافه الممدودة تهتز بإيقاع غير طبيعي.

على الطاولة المعدنية، كانت ألسنة لهب بلون أزرق قد بدأت شاحبة تتراقص، بينما بدأت القوارير والأنابيق بالانفجار واحدة تلو الأخرى، محدثة فرقعات مدوية.

رفع مصاص الدماء أنيابه الحادة من عنق ضحيته، وحدق في سيري بعينيه السوداوين كالعرق الأبيض.

قال بصوت هادئ كما لو كان يبرر فعلته، وهو يلعق الدم من شفتيه:

"هناك أوقات يكون من المستحيل فيها مقاومة الشراب."

ثم ابتسم ابتسامة مطمئنة، إذ لاحظ تعبير وجهها المتجمد.

"لا تخافي، سيري. أنا سعيد لأنني وجدتك. اسمي إيميل ريجيس. أنا، رغم أن الأمر قد يبدو غريبًا لك، رفيقٌ للويتشر جيرالت. جئتُ معه إلى هنا لإنقاذك."

في تلك اللحظة، اقتحم مرتزق مسلح المختبر المشتعل. التفت ريجيس نحوه، أطلق هسهسة شرسة، وكشف عن أنيابه الحادة.

عوى المرتزق عواءً مرعبًا مازجاً بين الخوف واليأس، واستمر صراخه طويلًا قبل أن يتلاشى في الممرات البعيدة.

ألقى إيميل ريجيس بجسد المريد جانبًا كأنه خرقة بالية، ثم نهض وتمطى بكسل أشبه بقط واثق.

قال بلهجة ساخرة:

"من كان يظن ذلك؟ مجرد جرذ صغير، لكنه يحمل في داخله دمًا جيدًا! يا له من موهبة خفية!"

ثم التفت إلى سيري، ومدّ يده إليها:

"تعالي معي، سيريللا، سأقودك إلى جيرالت."

تمتمت سيري، وهي تهز رأسها:

"لا ..."

رفع حاجبيه وقال: "لا داعي للخوف مني."

قاومت رعشة أسنانها التي كادت تخونها، ثم أضافت بحزم: "لست خائفة. لكن ينيفر محتجزة هنا في مكان ما. عليّ إنقاذها بسرعة. أخشى أن فيلغيفورتز ..."

كرر ريجيس، وعيناه تضيقان: "فيلغيفورتز؟".

"نعم ... أيها السيد ..." ترددت، ثم قالت: "إيميل ريجيس."

"عليك تحذير جيرالت، أيها السيد الكريم. إن فيلغيفورتز هنا، إنه ساحر .. ساحر قوي. جيرالت يجب أن يكون على حذر."

* * *

كرر ريجيس وهو ينظر إلى جثة ميلفا قائلاً: "يجب أن تكون حذراً. لأن فيلغيفورتز ساحر قوي وهو هنا في هذه الأثناء، إن سيري تعمل على تحرير ينيفر."

لعن جيرالت في سره.

وصاح محاولاً إحياء معنويات رفاقه المنخفضة بصرخة: "هيا بنا!"

وقفت أنغوليم وقالت وهي تمسح دموعها: "هيا بنا! لقد حان الوقت لركل بعض المؤخرات اللعينة!"

قال مصاص الدماء وهو يفحّ ويبتسم ببشاعة: "أشعر بقوة داخلي يمكنني بها أن أدمر هذا القلعة بأكملها على الأرجح."

نظر إليه الويتشر بشك.

قال: "لا تبالغ إلى هذا الحد. لكن اقتحموا الطابق العلوي واصنعوا بعض الضجيج لتشتتوا انتباههم عني. سأحاول العثور على سيري. لم يكن ذلك جيداً، لم يكن جيداً، يا مصاص الدماء، أن تتركها وحدها."

أوضح ريجيس بهدوء قائلاً: "لقد طالبت بذلك. بنبرة وموقف لا يسمحان بأي نقاش. لقد أذهلتني، أعترف."

قال جيرالت: "أعرف. اذهبوا إلى الطابق العلوي. اعتنوا بأنفسكم! سأحاول العثور عليها. عليها، أو على ينيفر."

* * *

وجدها، وبسرعة كبيرة.

اصطدم بهم فجأة، بشكل غير متوقع تماماً عندما التف حول منعطف في الممر. رأى. وجعل هذا المنظر الأدرينالين يخز عروق ظهر يديه.

كان عدة خدم يجرون ينيفر عبر الممر. كانت الساحرة مشعثة ومكبلة بالسلاسل، وهو ما لم يمنعها من الركل والمقاومة والشتائم كجندي محترف.

لم يدع جيرالت الخدم يتغلبون على دهشتهم. ضرب مرة واحدة فقط، بدفعة قصيرة من المرفق. صرخ الرجل ككلب، تعثر، وحطم رأسه بصوت رنين وارتطام ضد درع لوحي واقف في تجويف، وانزلق عليه، ملطخاً الألواح الفولاذية بالدم.

أطلق الباقون – وكانوا ثلاثة – ينيفر وقفزوا جانباً. باستثناء الرابع، الذي أمسك الساحرة من شعرها وأمسك سكيناً على حلقها، فوق طوق الديميريتيوم مباشرة.

صرخ قائلاً: "لا تقترب أكثر! سأشق حلقها! أنا لا أمزح!"

قال جيرالت: "ولا أنا." حرك سيفه بحركة دائرية ونظر إلى عيني الشرير. كان ذلك كافياً له. أطلق ينيفر وانضم إلى رفاقه. كانوا جميعاً يحملون أسلحة الآن. انتزع أحدهم فأساً قديماً ولكن بمظهر مهدد من مجموعة أسلحة على الحائط. كانوا جميعاً، منحنين، يترددون بين الهجوم والدفاع.

قالت ينيفر وهي تقف بفخر: "كنت أعلم أنك ستأتي. جيرالت، أظهر لهؤلاء الأوغاد ما يمكن لسيف ويتشر أن يفعله."

رفعت يديها المكبلتين عالياً، مشدودة حلقات السلسلة.

أمسك جيرالت سيفه السيهيل بكلتا يديه، أمال رأسه قليلاً وصوّب. وضرب. بسرعة لم يرَ أحدٌ حركة الشفرة.

سقطت حلقات السلسلة على الأرض بصوت رنين. شهق أحد الخدم. أمسك جيرالت المقبض بقوة أكبر وحرك إصبعه السبابة تحت واقي اليد.

قال: "قفي ساكنة، يا ين. وأميلي رأسكِ قليلاً إلى الجانب، من فضلك."

لم ترمش الساحرة حتى كان رنين المعدن وهو يُضرب بالسيف خافتاً جداً.

سقط طوق الديميريتيوم بجانب الأغلال. ظهرت قطرة صغيرة واحدة فقط على رقبة ينيفر.

ضحكت وهي تدلك معصميها. ثم التفتت نحو الخدم. لم يتحمل أحد منهم نظرتها.

وضع الذي يحمل الفأس السلاح القديم بحذر على الأرض، كما لو كان يخشى أن يصدر صوتاً.

تمتم قائلاً: "دع البومة يقاتل شخصاً كهذا بنفسه، إن حياتي عزيزة عليّ."

تمتم آخر وهو يتراجع: "لقد أمرونا. أمرونا... كنا أسرى..."

قال ثالث وهو يلعق شفتيه: "بعد كل شيء، لم نكن وقحين معكِ، يا سيدتي... في سجنكِ... إشهدي بذلك..."

قالت ينيفر: "اخرجوا."

بعد أن تحررت من أغلال الديميريتيوم، واقفة منتصبة، ورأسها مرفوع بفخر، بدا شعرها الأسود الجامح وكأنه يصل إلى القبو.

فر الخدم. خلسة ودون النظر إلى الخلف، بعد أن عادت لطبيعتها، التفتت ينيفر إلى جيرالت وعانقته.

تمتمت وهي تبحث عن فمه بشفتيها: "كنت أعلم أنك ستأتي من أجلي. أنك ستأتي، مهما حدث."

قال بعد لحظة وهو يلهث بحثاً عن الهواء: "هيا بنا. الآن إلى سيري."

قالت: "سيري." وفي ثانية، أضاء توهج بنفسجي مخيف في عينيها.

أضافت: "وفيلغيفورتز."

* * *

ظهر رجل يحمل قوساً نشاباً كان مختبئاً خلف الزاوية، صرخ وأطلق النار، مصوباً نحو الساحرة. فقفز جيرالت كما لو أن نابضاً دفعه، ملوحاً بسيفه فارتد السهم ليمر فوق رأس رامي القوس مباشرة، قريباً جداً

لدرجة أنه اضطر للانحناء. لكنه لم يتمكن من الاستقامة، فقفز الويتشر نحوه مباشرة ليقطعه كسمكة كرب.

كان لا يزال هناك اثنان يقفان في الممر، ويحملان أيضاً أقواساً نشابيه. أطلقا النار أيضاً، لكن أيديهما كانتا ترتجفان كثيراً لتصيبا الهدف. في اللحظة التالية، كان الويتشر فوقهما وكلاهما يلفظ أنفاسه.

سأل جيرالت: "أي طريق، يا ين؟"

ركزت الساحرة، مغمضة عينيها.

قالت: "هذا الطريق. صعوداً على تلك السلالم."

سأل: "هل أنتِ متأكدة أنه الطريق الصحيح؟"

أجابت: "نعم."

تعرضوا لهجوم من الأوغاد بعد منعطف الممر مباشرة، ليس بعيداً عن بوابة مزينة بقوس علوي. كان عددهم يزيد عن عشرة، وكانوا مسلحين بالرماح والفؤوس الحربية والخناجر الطويلة. كانوا حتى مصممين وشرسين. رغم ذلك، لم يدم الأمر طويلاً.

طعنت ينيفر أحدهم في منتصف صدره على الفور برأس سهم ناري انطلق من يدها. بينما دار جيرالت في حركة راقصة وسقط بين الآخرين، وسيفه السيهيل القزمي يومض ويفحّ كالأفعى. بعد أن سقط أربعة فر الباقون، وصدى الممرات يتردد بصوت رنينهم وخطواتهم الخائفة.

سأل جيرالت: "كل شيء على ما يرام، يا ين؟"

أجابت: "لا يمكن أن يكون أفضل."

وقف فيلغيفورتز تحت القوس العلوي.

قال بهدوء وصوت عميق: "أنا معجب. أنا حقاً معجب، يا ويتشر. أنت ساذج وغبي وبلا أمل، لكن تقنيتك مثيرة للإعجاب."

ردت ينيفر بهدوء مماثل قائلة: "لقد انسحب جيش قطاع الطرق الذي يدافعون عنك للتو، لقد تركوك وراءهم تحت رحمتنا. سلم سيري، وسنعفو عن حياتك."

ابتسم الساحر وقال: "هل تعلمين، يا ينيفر، أن هذا هو العرض السخي الثاني الذي أتلقاه اليوم؟ شكراً، شكراً. وها هو ردي."

صاحت ينيفر: "احترس!" وقفزت جانباً. قفز جيرالت أيضاً جانباً. في الوقت المناسب. عمود النار الذي انطلق من يدي الساحر الممدودتين حول المكان الذي كانا يقفان فيه قبل لحظة إلى طين أسود يفور.

مسح الويتشر السخام وبقايا حواجبه عن وجهه. رأى فيلغيفورتز يمد يده. غاص جانباً واستلقى على الأرض خلف قاعدة عمود. كان هناك دويّ هائل ألم أذنيهما، واهتزت القلعة بأكملها حتى أسسها.

ترددت أصداء الدوي عبر القلعة، ارتجفت الجدران، وتمايلت الثريات بصوت رنين. وسقطت لوحة زيتية كبيرة في إطار مذهب بصخب عظيم.

كان الخوف الشديد يظهر في عيون المرتزقة الذين هرعوا من الدهليز. هدأهم ستيفان سكيلين بنظرة مهددة، ووبخهم بتعبيره القاتم وصوته.

سأل: "ما الذي يحدث هناك؟ تكلموا!"

لهث أحدهم قائلاً: "سيدي المحقق... هناك رعب هناك! هناك شياطين وأبالسة... يطلقون النار بلا خطأ... إنها مذبحة... الموت هناك... كل شيء ملطخ بالدماء في كل مكان!"

أضاف آخر: "سقط حوالي عشرة رجال... ربما أكثر... هناك... ألا تسمع، يا سيدي؟" دوى انفجار آخر واهتزت القلعة.

تمتم سكيلين: "سحر. فيلغيفورتز... حسنًا، سنرى. سنكتشف من يهزم من."

جاء مرتزق آخر راكضاً. كان شاحباً ومغطى بالجص. لم يتمكن من النطق لفترة طويلة، وعندما تكلم أخيراً، كانت يداه ترتجفان وصوته يهتز.

قال: "هناك... هناك... وحش... سيدي المحقق... يشبه خفاشاً أسود عملاقاً... كان يمزق رؤوس الناس أمام عيني... الدم كان يتدفق في كل مكان! وكان يتحرك بسرعة ويضحك... كانت أسنانه هكذا!"

همس صوت من خلف ظهر البومة: "لن ننجو بحياتنا..."

قرر بورياس مون أن يتكلم قائلاً: "سيدي المحقق. إنهم أشباح. لقد رأيت... الشاب كاهير أب سيلاخ. لكنه ميت."

نظر إليه سكيلين، لكنه لم يقل شيئاً.

تمتم داكر سيليفانت قائلاً: "سيدي ستيفان... من علينا أن نقاتل هنا؟"

أنّ أحد المرتزقة قائلاً: "إنهم ليسوا بشرًا. إنهم سحرة وشياطين جهنمية! القوة البشرية لا يمكنها أن تقاوم مثل هؤلاء..."

عقد البومة ذراعيه على صدره وجال بنظرة جريئة وسلطوية على المرتزقة.

أعلن بصوت رعدي ومؤكد قائلاً: "لذلك لن نتدخل في هذا الصراع بين القوى الجهنمية! دع الشياطين تقاتل الشياطين، والساحرات تقاتل الساحرات، والأشباح تقاتل الجثث الناهضة من القبور. لن نتدخل في أمرهم! سننتظر هنا بهدوء نتيجة المعركة."

أضاءت وجوه المرتزقة. ارتفعت معنوياتهم بشكل ملحوظ.

واصل سكيلين بصوت قوي قائلاً: "تلك السلالم هي المخرج الوحيد. سننتظر هنا. سنرى من يحاول النزول منها."

تردد دويّ رهيب من الأعلى وسقطت قوالب من القبو مع خشخشة مسموعة.

كانت هناك رائحة كبريت وحريق.

صاح البومة الرمادية بصوت رعدي وجريء لرفع معنويات جنوده: "الظلام شديد هنا! بسرعة، أشعلوا ما تستطيعون! المشاعل، الحطب! يجب أن نرى جيداً من يظهر على تلك السلالم! امتلأوا تلك المشاعل الحديدية ببعض الوقود أو غيره!"

سأل أحد المرتزقة: "أي نوع من الوقود، يا سيدي؟"

أشار سكيلين بلا كلام إلى ما يقصد.

سأل مرتزق بذهول: "لوحات؟ لوحات فنية؟"

أجاب البومة الرمادية وهو يتنفس بصوت مسموع: "نعم، بالطبع. لماذا تنظرون هكذا؟ الفن قد مات!"

تحطمت الإطارات ومزقت اللوحات. اشتعل الخشب الجاف جيداً والقماش المشبع بزيت بذر الكتان على الفور وتوهج بلهب ساطع.

شاهد بورياس مون. كان قد اتخذ قراره تماماً.

* * *

دَوى انفجارٌ ووميضٌ، فتزعزع العمود وسقط والذي بالكاد تمكنوا من الفرار منه في اللحظة الأخيرة تقريبًا. فسقط رأس العمود المزخرف بأوراق الأكاثوس على الأرض، محطمًا فسيفساءً من التراكوتا. اندفعت كرةٌ من البرق نحوهُم مصدرة هسيساً مزعجاً، فصدَّتها ينيڤر، وهي تصرخ بتعويذةٍ وتلوّح بيديها.

سار فيلغيفورتز نحوهم، ومعطفه يرفرف كأجنحة التنين.

قال فيلغيفورتز وهو يمشي:
"أنا لست مندهشًا من ينيڤر .إنها امرأة، وبالتالي هي مخلوق تطوريٌّ أدنى، تحكمه فوضى الهرمونات. لكنك أنت، يا جيرالت، لست مجرد رجل عاقل بطبيعتك، بل أنت أيضًا متحوِّر، لا يتأثر بالعواطف"

لوّح فيلغيفورتز بيده، فدَوى انفجارٌ ووميضٌ آخر. ارتدت صاعقة برقية عن الدرع الذي استحضرته ينيڤر.

تابع فيلغيفورتز حديثه وهو ينثر نارًا من يده إلى الأخرى:
"رغم حسن عقلكِ في أمرٍ واحد تُظهر ثباتًا مذهلاً وغباءً فاحشًا، إنك ترغب دومًا في أن تجدف عكس التيار. لا بد أن ينتهي ذلك بشكل سيء. اعلم أنه اليوم، هنا، في قلعة ستيغا، لقد تبولتِ في وجه إعصار".

* * *

كانت معركة تدور في مكان ما في الطوابق السفلية. صرخ أحدهم بفظاعة، تأوه، وولول من الألم. كان شيء ما يحترق. شمّت سيري رائحة الدخان والحريق، وشعرت بهبة من الهواء الساخن.

دوى شيء بقوة جعلت الأعمدة التي تدعم القبو ترتجف، وسقطت الزخارف الجصية من الجدران.

نظرت سيري بحذر حول الزاوية. كان الممر خالياً. سارت فيه بسرعة وهدوء، مع صفوف من التماثيل تقف في تجاويف على يمينها ويسارها. كانت قد رأت تلك التماثيل من قبل.

في أحلامها.

خرجت من الممر. واصطدمت مباشرة برجل يحمل رمحاً. قفزت جانباً، مستعدة للتفادي والقفزة الخلفية.

ثم أدركت أنه لم يكن رجلاً، بل امرأة نحيفة بشعر رمادي، منحنية الظهر. وأن ما تحمله لم يكن رمحاً، بل مكنسة.

قالت سيري وهي تصحح حنجرتها: "ساحرة بشعر أسود مسجونة في مكان ما هنا. أين؟"

ظلت المرأة التي تحمل المكنسة صامتة لفترة طويلة، تحرك فمها كما لو كانت تمضغ شيئاً.

تمتمت أخيراً قائلة: "وكيف لي أن أعرف، يا كنزي؟ فأنا أنظف هنا فقط. لا شيء آخر، فقط أنظف بعدهم." كررت ذلك دون أن تنظر إلى سيري على الإطلاق قائلة: "وكل ما يفعلونه هو إبقاء المكان متسخاً. انظري بنفسك، يا كنزي."

نظرت سيري. كان هناك خط متعرج ملطخ بالدم على الأرض. امتد الخط لبضع خطوات وانتهى بجوار جثة متكورة عند الحائط. كانت هناك جثتان أخريان ملقيتان أبعد من ذلك، إحداهما متكورة على شكل كرة، والأخرى ممدة بشكل فاحش. وبجانبهما كانت توجد أقواس نشابية.

قالت المرأة: "يستمرون في إحداث الفوضى بالمكان."

أخذت دلواً وقطعة قماش، ركعت وبدأت في التنظيف قائلة: "قذارة، لا شيء سوى القذارة، طوال الوقت قذارة. وعليّ أنا أن أنظف وأنظف. هل سيكون هناك نهاية لذلك؟"

قالت سيري بهدوء: "لا. أبداً. هكذا أصبح هذا العالم."

توقفت المرأة عن التنظيف. لكنها لم ترفع رأسها.

قالت وهي تواصل التنظيف:

«أنا أنظف، لا أكثر. ولكن سأخبركِ، يا كنزتي، عليكِ أن تذهبي مباشرة، ثم تنعطفي يسارًا.»

قالت سيري بسرعة:

«شكرًا لكِ.»

انخفض رأس المرأة أكثر، واستأنفت التنظيف بصمت.

* * *

كانت سيري وحدها. وحدها تمامًا، تائهة في متاهة الممرات.

صرخت بصوت عالٍ:

«سيِّدتي ينيييفيييير!»

حتى تلك اللحظة، كانت قد التزمت الصمت، خوفًا من أن تفضح مكانها أمام رجال فيلغيفورتز. ولكن الآن...

«ينيييفيييير!»

ظنت أنها سمعت شيئًا. نعم، بلا شك!

اندفعت إلى رواق، ومنه إلى قاعة كبيرة، بين أعمدة رشيقة. عاد إليها مجددًا ذلك النتَن القاسي لرائحة الاحتراق.

بونهارت خرج من الظل كما لو كان شبحًا، ووجَّه لكمة إلى وجهها. ترنَّحت للخلف، لكنه انقضَّ عليها مثل صقر، أمسكها من عنقها، وسحقها بذراعه ضد الجدار.

نظرت سيري إلى عينيه الباردتين، السمكيتين، وشعرت بقلبها يهبط إلى قاع بطنها.

قال بصوت أجش، بالكاد يخرج من بين أسنانه:

«لولا أنكِ ناديتِ، لما وجدتُكِ.»

شدَّ قبضته أكثر، وضغطها أكثر نحو الجدار.

«لكنَّكِ ناديتِ، وبشوقٍ أيضًا! هل اشتقتِ إليَّ لهذا الحد؟ صغيرتي العزيزة؟»

بينما كان يسحقها ضد الجدار، دسَّ أصابعه في شعرها عند عنقها. حاولت سيري التملص، لكنه أمسك بها بقوة. ابتسم الصياد البارد.

مرَّر يده على ذراعها، ثم شدَّ على صدرها بقسوة، وأمسكها بخشونة بين فخذيها. بعد ذلك، أفلتها فجأة، دافعًا إياها بقوة جعلتها تنزلق على طول الجدار.

ثم، رمى سيفًا عند قدميها. سيف السنونو الخاص بها.

وعرفت على الفور، ماكان يريد.

قال بونهارت ببطء، متمطياً كلماته بتلذذ:

«كنت لأفضِّل أن يحدث ذلك داخل الحلبة، كخاتمة مهيبة، تتويجاً للعديد من العروض الرائعة. الفتاة الويتشرية في مواجهة ليو بونهارت! آه، الناس كانوا سيدفعون ذهبًا لمشاهدة شيء كهذا! هيا، التقطي السلاح واستليه من غمده.»

نفَّذت سيري ما قاله، لكنها لم تستل السيف، بل علَّقته على ظهرها، بحيث يكون مقبضه في متناول يدها.

تراجع بونهارت خطوة إلى الوراء.

قال بصوت كمن يتذوق كلماته:

«ظننتُ أنني سأكتفي بمتعة النظر إلى الجراحة التي كان فيلغيفورتز يُحضِّرها لكِ.»

ثم قطَّب حاجبيه، عابسًا:

«كنتُ مخطئًا. يجب أن أشعر بحياتكِ تتدفق على نصل سيفي.»

حدَّق إليها بعينين لامعتين من شدة الهوس، وصاح بحدة:

«أتحدَّى السحر والسحرة، أتحدَّى القدر والنبوءات، أتحدَّى مصير العالم، وأتحدَّى الدماء القديمة والجديدة! ماذا تعني لي كل هذه التنبؤات والتعاويذ؟ ماذا سأجني منها؟ لا شيء! لا شيء يضاهي اللذة...»

توقف فجأة، زمَّ شفتيه، وعيناه اشتعلتا بوميض قاتل.

وهمس كالأفعى:

«سأجعلكِ تنزفين حتى آخر قطرة، أيتها الويتشرية. وبعدها، قبل أن يبرد جسدكِ، سنحتفل بزفافنا. أنتِ لي. وستفارقين الحياة وأنتِ لي. استلي سيفكِ.»

دوى انفجار بعيد، واهتزَّت أرجاء القلعة.

قال بونهارت بوجه جامد، لا يظهر عليه أي تأثر:

«إنه فيلغيفورتز، يسحق أولئك الويتشريين الحمقى الذين جاءوا لإنقاذكِ. هيا، أيها العصفور الصغير، استلي سيفكِ.»

فكرت سيري، مجمدةً من الرعب: "هل أهرب؟ أأهرب إلى أماكن أخرى؟ إلى أزمنة أخرى؟"

"لو أستطيع فقط أن أبتعد عنه، لو أستطيع الهروب منه، فقط!"

شعرت بالخزي:

"كيف لي أن أهرب؟ كيف أترك ينيفر وجيرالت لمصيرهما؟"

لكن صوت العقل كان يصرخ:

"لن أكون ذات نفع لهما إن كنتُ جثة هامدة!"

ركَّزت أفكارها، وضغطت قبضتيها على صدغيها، تحاول دفع نفسها عبر الفجوات الزمنية.

لكن بونهارت فهم على الفور ما تنوي فعله، فانقضَّ عليها كالوحش.

لكن الأوان كان قد فات.

دوَّى طنين في أذني سيري، وفجأة، وميض خاطف!

"لقد فعلتها!" فكرت بانتصار.

لكن الفرحة لم تدم.

سمعت صراخًا غاضبًا، وشتائم متفجرة. أدركت حينها أن المكان مشبعٌ بهالة شريرة، معادية، طاقة خانقة أفسدت محاولتها.

لم تسافر بعيدًا. لم تتجاوز حتى مدى بصره. وجدت نفسها عند الطرف المقابل من المعرض، بعيدةً عن بونهارت، لكن ليس بالقدر الكافي.

بعيدة عن يديه وسيفه. مؤقتًا فقط.

ومن خلفها، انطلقت زئيره كالرعد.

استدارت، وأطلقت ساقيها للريح.

* * *

ركضت في ممر طويل وعريض، تتبعها النظرات الميتة للكارياتيدات المصنوعة من الألباستر التي تدعم الأقواس. انعطفت مرة ثم مرة أخرى. أرادت أن تفقد بونهارت وتحيره، وبالإضافة إلى ذلك كانت تتجه نحو أصوات المعركة. كانت متأكدة أن أصدقاءها سيكونون حيث تدور القتال بعنف.

اندفعت إلى غرفة دائرية كبيرة، في وسطها كان يقف تمثال يصور امرأة مغطاة وجهها، على الأرجح إلهة، على قاعدة رخامية. كان هناك ممران يؤديان بعيداً عن الغرفة، كلاهما ضيقان إلى حد ما. اختارت عشوائياً. وطبيعياً اختارت بشكل خاطئ.

صرخ أحد الأوغاد قائلاً: "الفتاة! لقد أمسكناها!"

كان عددهم كبيراً جداً لتتمكن من المخاطرة بالقتال، حتى في ممر ضيق. وكان بونهارت بالتأكيد قريباً. استدارت سيري وركضت عائدة. اقتحمت الغرفة التي بها الإلهة الرخامية. وتجمدت.

وقف أمامها فارس بسيف عظيم، يرتدي عباءة سوداء وخوذة مزينة بأجنحة طائر جارح.

كانت المدينة تحترق. سمعت هدير النار، رأت اللهب يتألق، وشعرت بحرارة الحريق. كان صهيل الخيول وصراخ المقتولين في أذنيها. رفّت أجنحة الطائر الأسود فجأة، مغطية كل شيء... النجدة!

فكرت سيري وهي تستعيد وعيها: سينترا. جزيرة ثانيد. لقد تتبعني حتى هنا. إنه شيطان. أنا محاطة بالشياطين، بكوابيس من أحلامي. بونهارت خلفي، وهو أمامي.

كان يُسمع خلفها صراخ وخطوات الأعداء القادمين راكضين.

تقدم الفارس ذو الخوذة المزينة بالريش فجأة خطوة إلى الأمام.

وتغلبت سيري على خوفها. سحبت سيفها من غمده بقوة قائلة: "لن تلمسني!"

تحرك الفارس للأمام، ولاحظت سيري بذهول أن فتاة شقراء مسلحة بسيف منحنٍ كانت تختبئ خلف عباءته. قد انطلقت الفتاة مثل الظبي أمامها وأطاحت بأحد الأتباع الذين كانوا يقتربون بضربة قوية وبشكل مفاجئ، وبدلاً من أن يهاجم الفارس الأسود سيري، شقّ بطن أحد الأشرار بضربة قوية. بينما انسحب الباقون نحو الممر.

هرولت الفتاة الشقراء نحو الباب، لكنها لم تتمكن من إغلاقه. وعلى الرغم من أنها كانت تدور بسيفها بشكل تهديدي وتصرخ، دفعها الأتباع بعيدًا عن المدخل.

رأت سيري أحدهم يطعنها بحربة، وشاهدتها تسقط على ركبتيها. فقفزت سيري وقطعت بسيفها في حركة خلفية، بينما هرع الفارس الأسود من الجانب الآخر، يضرب بعنف بسيفه الطويل. كانت الفتاة الشقراء ما زالت على ركبتيها، لكنها أخرجت فأسًا من حزامها وألقته، فأصابت أحد البلطجية مباشرة في وجهه. ثم اندفعت نحو الباب وأغلقته بقوة، وسدّه الفارس بالمسامير.

قالت الفتاة وهي تتنفس بعمق: "وااااو، يا للشجرة القوية والحديد! سيستغرقون بعض الوقت لكسر هذا الباب!"

رد الفارس الأسود بهدوء: "لن يضيعوا وقتهم، بل سيبحثون عن طريق آخر." ثم تغيرت ملامح وجهه فجأة عندما رأى ساق الفتاة الملطخة بالدماء. لكن الفتاة أشارت بيدها بإهمال. وقالت: "لنرحل من هنا."

نزع الفارس خوذته ونظر إلى سيري. "أنا كاهير مور ديفرين، ابن سيللاخ. جئت إلى هنا مع جيرالت. لإنقاذكِ، يا سيري. أعلم أن الأمر يبدو غير معقول."

ردت سيري بنبرة حادة: "لقد رأيت أشياء أكثر استحالة. لقد قطعتم طريقًا طويلًا... يا كاهير... أين جيرالت؟"

نظر إليها. تذكرت عينيه من ذكريات ثانيد. عيون زرقاء داكنة، ناعمة كالحرير. جميلة.

أجاب: "إنه ينقذ الساحرة."

قاطعته سيري: "ينفر. لنذهب."

قالت الفتاة الشقراء وهي تضع ضمادة مؤقتة على فخذها: "نعم! ما زال علينا أن نركل مؤخرات أخرى! من أجل العمة!"

كرر الفارس: "لنذهب."

ولكن كان قد فات الأوان.

قالت سيري هامسة وهي ترى من يقترب عبر الممر: "اهربوا... إنه الشيطان في صورة إنسان. لكنه يريدني وحدي. لن يطاردكم... اهربوا... ساعدو جيرالت..."

هز كاهير رأسه.

قال كاهير بلطف: "سيري، أشعر بالدهشة مما تقولينه. لقد جئت من نهاية العالم للعثور عليكِ، إنقاذكِ والدفاع عنكِ. والآن تريدني أن أهرب؟"

أجابت سيري: "أنت لا تعرف من تواجه."

رفع كاهير كمّه، مزق عباءته ولفها حول ذراعه اليسرى. أخرج سيفه وأداره بسرعة حتى بدأ يصدر صوتًا خافتًا.

قال كاهير: "سأكتشف قريبًا."

توقف بونهارت عندما رآهم الثلاثة. ولكن فقط لبرهة.

قال بونهارت: "آه! هل وصلت التعزيزات؟ رفاقكِ يا فتاة الساحرات؟ حسنًا. أقل أو أكثر، لا فرق."

فجأة، لمعت فكرة في ذهن سيري.

صرخت سيري: "قل وداعًا لحياتك يا بونهارت! هذا هي نهايتك! لقد وجدت من يعادلك!"

يبدو أنها بالغت، فقد اكتشف الكذب في صوتها. توقف ونظر إليها بريبة.

سأل بونهارت: "الساحر؟ حقًا؟"

أدار كاهير سيفه وهو يقف في وضعية الاستعداد. لم يتحرك بونهارت.

زمجر بونهارت: "هذه الساحرة تفضل الشباب أكثر مما توقعت. انظر هنا أيها الفارس الصغير."

فتح قميصه. لمعت وسوم فضية في قبضته. قطة، غريفون، وذئب.

قال بونهارت مطبقًا أسنانه: "إذا كنت حقًا ساحرًا فاعلم أن تعويذتك ستُزيّن مجموعتي قريبًا. وإذا لم تكن كذلك، فستكون جثة قبل أن تطرف عينيك. لذا سيكون من الحكمة أن تبتعد عن طريقي وتهرب. أنا أريد هذه الفتاة؛ لا أحمل ضغينة ضدك."

رد كاهير بهدوء وهو يدير شفرته: "كلامك كبير. دعنا نرى إن كانت ضربتك أقوى من كلامك. أنغوليم، سيري. اهربي!"

قالت سيري: "كاهير..."

صحح كاهير قوله: "اهربي، وساعدي جيرالت."

ركضوا. كانت سيري تحمل أنغوليم وهي تعرج.

قال بونهارت وهو يضيق بعينيه الشاحبتين ويتحرك للأمام، ملوحاً بسيفه: "كما تشاء."

"أنا من طلبت هذا؟" كرر كاهير مور ديفرين آب سيللاخ بلهجة باهتة. "لا. إنها إرادة القدر!"

انقضّ كل منهما على الآخر، وتشابكت سيوفهم بسرعة، محاطين بدائرة جنونية من الشفرات المتراقصة. امتلأ الممر بصدى صرير الحديد، مما جعل التماثيل الرخامية تبدو وكأنها ترتجف وتتمايل.

قال بونهارت بصوت أجش عندما افترقا للحظة: "أنت لست سيئًا. أنت لست سيئًا يا فارس الصغير. لكنك لست ساحرًا. خدعتني تلك الحية الصغيرة. لقد انتهيت. استعد للموت."

رد كاهير: "لنر مايمكنك فعله"

استنشق كاهير نفسًا عميقًا. كان الاشتباك قد أقنعه بأنه لا يملك سوى فرصة ضئيلة أمام الرجل ذي العينين السمكيتين. كان هذا الرجل سريعًا جدًا وقويًا جدًا بالنسبة له. كانت فرصته الوحيدة هي أن بونهارت مستعجل لمطاردة سيري. وكان واضحًا أنه غاضب.

هاجم بونهارت مرة أخرى. صدّ كاهير الضربة، انحنى، قفز، أمسك خصمه من حزامه، ودفعه بقوة نحو الجدار وضربه بركبته في منطقة الحوض. أمسك بونهارت وجه كاهير، وضربه بعنف بقبضة سيفه على جانب رأسه؛ مرة، مرتين، ثلاث مرات. أبعدت الضربة الثالثة كاهير إلى الخلف. رأى وميض الشفرة. صدّها بغرائزه.

ولكن ببطء شديد.

* * *

"كان من التقاليد المتبعة بدقة في عائلة دايفرين أن يقيم جميع الذكور وقفة صامتة تدوم يومًا وليلة كاملة فوق جسد أحد أقربائهم المتوفين، بعد أن يتم وضعه في مستودع الدروع بالقلعة. أما النساء – فقد كنَّ يجتمعن في جناح بعيد من القلعة حتى لا يشتتن الرجال، ولا يقطعْنَ عليهم تأملاتهم – كنَّ ينتحبن، ويُصدرن عويلًا مريرًا، ويُغمى عليهن. وعندما يُستعدن إلى وعيهن، يعاودن النحيب والعويل مرة أخرى. ثم تتكرر المأساة من جديد.

كان النحيب والبكاء، حتى بين النساء، خطيئة اجتماعية غير مستحبة وعارًا كبيرًا. لكن في عائلة دايفرين، كان هذا هو التقليد، ولم يحاول أحد تغييره، ولا كان ينوي ذلك.

كان كاهير في العاشرة من عمره، أصغر أشقاء أيليل، الذي قُتل في نازير واستُودع جسده في مستودع الدروع بالقلعة. لم يكن كاهير قد بلغ سن الرجولة بعد وفقًا للعادات والتقاليد، ولذلك لم يكن مسموحًا له بالانضمام إلى الرجال المجتمعين حول التابوت المفتوح، ولم يكن مسموحًا له بالجلوس في صمت إلى جانب جده غروفيد، أو والده سيلاك، أو شقيقه ذيران، أو بقية الأعمام وأبناء العم. ولم يكن مسموحًا له، بطبيعة الحال، أن يشارك في النحيب والإغماء مع جدته وأمه وشقيقاته الثلاث، وسائر عماته وقريباته. لذلك، كان كاهير يتسكع ويثير الشغب فوق أسوار القلعة مع بقية الفتيان الصغار الذين قدموا إلى دارن دايفرا لحضور مراسم الجنازة والدفن والمأتم. وكان يتعارك مع أي صبي يجرؤ على الادعاء بأن آباءهم وإخوتهم الأكبر كانوا أشجع المحاربين في معركة نازير، وليس أيليل أب سيلاك.

"كاهير! تعالَ إلى هنا، يا بُني!"

في الرواق، وقفت ماور، والدة كاهير، إلى جانب شقيقتها، عمته سينيد فار أناهيد. كان وجه أمه متورمًا ومحمرًا من شدة البكاء، لدرجة أن كاهير شعر بالرعب. صُدم حين رأى أن البكاء يمكن أن يحوِّل امرأة جميلة مثل أمه إلى هذا الشكل المخيف. عندها، عقد العزم، بكل إصرار، ألا يبكي أبدًا، أبدًا.

ناحت ماور وهي تضغط على الصبي بقوة ضد صدرها لدرجة أنه لم يستطع التقاط أنفاسه:

"تذكّر يا بني، تذكّر هذا اليوم. تذكّر من الذي سلب الحياة من أخيك الحبيب أيليل. اللعناء على النورديين! هم من فعلوها. إنهم أعداؤك يا بني. عليك أن تكرههم دائمًا. عليك أن تبغض تلك الأمة اللعينة القاتلة!"

"سأكرههم يا أماه"

وعدها كاهير، وهو يشعر ببعض الدهشة. أولًا، لقد مات أخوه أيليل الموت المشرف والمُحسود للمحارب، في ساحة المعركة، وبكل فخر. فلماذا إذن البكاء؟ ثانيًا، لم يكن الأمر سرًا أن جدته إيفيفا – والدة ماور – كانت منحدرة من النورديين. فقد كان والده يُسمي جدته في لحظات الغضب "ذئبة الشمال". ولكن بالطبع خلف ظهرها.

حسنًا، لكن إذا كانت أمي تأمرني الآن...

تعهد بحماس: "سأكرههم، أنا أكرههم بالفعل! وعندما أكبر وأحمل سيفًا حقيقيًا سأذهب إلى الحرب وأقطع رؤوسهم! سترين يا سيدتي!"

أخذت أمه نفسًا عميقًا ثم بدأت تنوح. أمسكت خالته سينيد بها لتدعمها. قبض كاهير بقبضتيه الصغيرتين وارتجف من شدة الكراهية. كراهية لأولئك الذين آذوا أمه وجعلوها تبدو بهذا الشكل القبيح.

* * *

ضربة بونهارت شقت جبين كاهير، وخدّه، وفمه. أسقط كاهير سيفه وتراجع مترنحًا، ثم قطعه صياد الجوائز بين عنقه وعظمة الترقوة بحركة نصف دائريّة. انهار كاهير عند أقدام تمثال الإلهة الرخامي، وتناثر دمه على قاعدة التمثال كما لو كان قربانًا وثنيًا.

* * *

دوى انفجار، واضطرمت الأرض تحت الأقدام، وسقط درع من عرض الحائط بارتطام ثقيل. تسللت سحب دخان لاذعة واختلست الزحف عبر الممر. مسحت سيري وجهها بيدها. الفتاة الشقراء التي كانت تعتمد عليها أصبحت تثقل كاهلها كالرحى.

"أسرعي... يجب أن نركض أسرع"...

"لا أستطيع الركض أسرع"، قالت الفتاة، ثم جلست فجأة على الأرض بثقل. رأت سيري بفزع بركة حمراء تبدأ بالانتشار والتجمع تحت الفتاة الجالسة، تحت ساقها الملطخة بالدماء.

كانت الفتاة شاحبة كالورقة.

ألقت سيري بنفسها على ركبتيها بجانبها، وخلعت حجابها ثم حزامها، تحاول تطبيق ضمادات لوقف النزيف. لكن الجرح كان خطيرًا للغاية. وكان قريبًا جدًا من فخذها. استمر الدم بالتنقيط.

أمسكت الفتاة يدها بأصابع باردة كجليد.

"سيري..."

"نعم."

"أنا أنغوليم. لم أكن أصدق... لم أكن أصدق أننا سنجدك. لكني تبعت جيرالت... لأنه من المستحيل ألا تتبعه. أليس كذلك؟"

"بلى. هذه طبيعته."

"وجدناكِ. وأنقذناكِ. وسخرت منّا فرينغيلا... أخبريني..."

"لا تقولي شيئًا. أرجوكِ."

"أخبريني..." كانت أنغوليم تتحرك ببطء شديد وبصعوبة متزايدة. "أخبريني... أنتِ ملكة، أليس كذلك... في سينترا... سنحظى برضاكِ، أليس كذلك؟ هل ستجعليني... كونتيسة؟ أخبريني. لكن لا تكذبي... هل يمكنكِ؟ أخبريني!"

"لا تقولي شيئًا. احتفظي بقوتكِ."

تنهدت أنغوليم، ثم مالت فجأة للأمام واستندت بجبهتها على كتف سيري.

"كنت أعلم..." قالت بوضوح تام. "كنت أعلم أن العمل في بيت دعارة في توسان كان سيوفر لي حياة أفضل بكثير."

مر وقت طويل جدًا قبل أن تدرك سيري أنها تحتضن فتاة ميتة بين ذراعيها.

* * *

رأتْه وهو يقترب، مُتّبعًا بنظرات خالية من الحياة كتلك التماثيل العاجية التي تحمل الأقواس. وفجأة أدركت أن الهروب مستحيل، وأنه لا مفرّ منه. وأن عليها أن تواجهه. كانت تعلم ذلك.

ولكنها ما زالت تخافه بشدة.

سحب سلاحه. غنّت شفرة "السنونو" بصوت خافت. كانت تعرف تلك الأغنية.

تراجعت عبر الممر الواسع، وتبعها وهو يحمل سيفه بكلتا يديه. كان الدم يسيل على طول الشفرة، تنقط منه قطرات ثقيلة من حامية السيف.

قال وهو يخطو فوق جثة أنغوليم: "ميتة. حسنًا. سيفك الشاب قد سقط أيضًا."

شعرت سيري باليأس يتملكها. شعرت بأصابعها تقبض على مقبض السيف بشدة لدرجة الألم.

استمرت في التراجع.

قال بونهارت ببطء وهو يتبعها: "خدعتني. لم يكن لدى السيف الشاب وسام. لكن شيئًا ما يخبرني بأن شخصًا ما سيُوجد في هذا القصر يرتدي واحدًا.

شخص مثل هذا سيُوجد قريبًا من الساحرة يينيفير. لكن أولًا، يا أيتها الحية الصغيرة، نحن. أنتِ وأنا. وزواجنا."

استجمعت سيري قواها. وصفت قوسًا قصيرًا بسيف "سوان" وأخذت موقعها. بدأت تدور حوله، أسرع فأسرع، مما أجبر صياد الجوائز على الدوران في مكانه.

غمغم قائلاً: "في المرة الأخيرة، لم تكن تلك الخدعة ذات فائدة كبيرة لكِ. حسنًا؟ ألم تتعلمي من أخطائكِ بعد؟"

زادت سيري من سرعتها. خدعته وأذهلته، وأغرته وسحرته بحركات ناعمة وسلسة لشفرتها.

أدار بونهارت سيفه في حركة دائرية صاخبة.

زمجر قائلاً: "هذا لا يؤثر عليّ. ويصيبني بالملل!"

قلّص المسافة بخطوتين سريعتين.

صاح قائلاً: "عزف، موسيقى!"

قفز وضرب بقوة. دارت سيري حول نفسها في حركة باليه، ثم قفزت وهبطت بثقة على قدمها اليسرى، وضربت على الفور دون أن تتخذ وضعية قتالية. قبل أن يرتطم السيف بدفاع بونهارت، كانت قد انطلقت بعيدًا، متحركة بسلاسة أسفل الضربة الصفيرية.

ضربت مرة أخرى، دون رجوع للخلف، مستخدمة انثناء غير طبيعي وغير تقليدي لمرفقها. تصدى بونهارت باستخدام زخم الدفاع ليعود ويضرب فورًا من الجهة اليسرى. كانت تتوقع ذلك، وكل ما احتاجته كان ثنيًا بسيطًا لركبتيها وميلاً بجذعها لتنحرف بجسدها كله بعيدًا عن مسار الشفرة. ردّت الضربة وهاجمت على الفور. لكن هذه المرة كان ينتظرها، وخدعها بحركة زائفة. عندما لم تجد مقاومة، كادت أن تفقد توازنها، لكنها أنقذت نفسها بقفزة خاطفة كالبرق، إلا أن سيفه أصاب ذراعها على أي حال. في البداية ظنت أن الشفرة قطعت فقط كمّها المبطن، لكن بعد لحظة شعرت بالسائل الدافئ يسيل تحت إبطها وعلى ذراعها.

راقبتهم الكارياتيدات المصنوعة من المرمر بعيون غير مكترثة.

تراجعت، فتبعها وهو منحنٍ، ملوحًا بسيفه بحركات واسعة وسريعة، مثل الموت العظمي الذي رأته على لوحات المعبد. "رقصة الهياكل العظمية"، فكرت. "حاصد الأرواح قادم."

تراجعت خطوة أخرى. السائل الدافئ كان الآن يتقطر من ساعدها ويدها.

قال وهو يراقب القطرات التي تناثرت على الأرض مثل نجوم صغيرة: "الدم الأول لي، فمن سيرسم الدم الثاني؟ خطيبتي، ربما؟"

استمرت في التراجع.

"انظري حولك. هذه نهايتك."

كان محقًا. انتهى الممر إلى العدم، إلى هاوية تطل على الطابق السفلي حيث تراكمت ألواح الأرضية المحطمة والمغبرة. هذا الجزء من القلعة كان مدمَّرًا بالكامل، لم تكن هناك أرضية، بل مجرد هيكل من الأعمدة الداعمة والعوارض المتقاطعة.

لم تتردد طويلًا. قفزت فوق إحدى العوارض وتراجعت عليها، دون أن تغفل تحركات بونهارت، مراقبة كل حركة يقوم بها. وهذا ما أنقذها. إذ اندفع فجأة ناحيتها، راكضًا فوق العارضة، مسددًا ضربات قطرية سريعة، محركًا سيفه في خدع واهية كلمعان البرق. كانت تعرف تمامًا ما كان يراهن عليه. لو أخطأت

في صد إحدى الضربات، أو سقطت ضحية لخدعة من خدعه، لفقدت توازنها وسقطت إلى الطابق السفلي، حيث تنتظرها نهايتها على تلك الألواح المحطمة.

لكن هذه المرة، لم تنخدع سيري. بل على العكس، استدارت برشاقة، ملوحة بسيفها بضربة وهمية من اليمين، وحينما تردد للحظة، هاجمته بضربة ثنائية قوية، سريعة كالإعصار، جعلته يترنح عند صدها. كاد يسقط لولا طوله الفارع، إذ تمكن من التشبث بأحد العوارض بيده اليسرى ليحافظ على توازنه. لكنه فقد تركيزه للحظة. ولم تحتج سيري سوى لتلك اللحظة.

انقضَّت بقوة، ممددةً ذراعها وسيفها بأقصى ما تستطيع.

لم يهتز حتى عندما مرَّ نصل سنونو فوق صدره وذراعه اليسرى، قاطعًا قماش ردائه بصفير حاد. لكنه على الفور ردَّ بهجمة شرسة، كان من شأنها أن تقسم سيري إلى نصفين لو لم تؤدِ شقلبة خلفية متقنة. هبطت على العارضة المجاورة، مرتكزة على ركبة واحدة، ممسكة بسيفها أفقيًا فوق رأسها، مستعدةً للضربة التالية.

ألقى بونهارت نظرة على كتفه ورفع ذراعه اليسرى، التي كانت قد امتلأت بالفعل بنمط من الخطوط القرمزية المتموّجة. نظر إلى القطرات الكثيفة وهي تسيل نحو الهاوية.

قال وهو يزمجر: "حسنًا، حسنًا. يبدو أنكِ تعلمتِ شيئًا من أخطائكِ."

ارتجف صوته من الغضب. لكن سيري كانت تعرفه جيدًا. كان هادئًا، متزنًا، وجاهزًا للقتل.

قفز نحو العارضة الخشبية التي تقف عليها، واضعًا سيفه في الدوران، وانطلق نحوها مثل الإعصار، متحركًا بثقة دون ترنح أو حتى النظر إلى قدميه. دوى صرير العارضة، وأمطرت بالغبار والخشب المتعفن.

تابع تقدمه، واضعًا ضرباته بشكل قطري. أجبرها على التراجع. هاجم بسرعة كبيرة لدرجة أنها لم تستطع المجازفة بالقفز أو التمدد الهوائي، واضطرت فقط إلى الدفاع عن نفسها والتنحي جانباً.

رأَت وميضًا في عينيه السمكيتين. وفهمت ما كان يخطط له. كان يدفعها نحو عمود، نحو الإرتكاز تحت السقف. كان يجبرها على التراجع نحو مكان لا مهرب منه.

كان عليها أن تفعل شيئًا. وفجأة عرفت ما يجب أن تفعله.

"كاير مورن. البندول."

"تدفعين نفسك بعيدًا عن البندول، تأخذين زخمه، طاقته. تأخذين زخم البندول عن طريق الدفع بعيدًا. هل تفهمين؟"

"نعم يا جيرالت."

فجأة، وبسرعة أفعى مهاجمة، انتقلت من الدفاع إلى الضربة. غنّت شفرة سيفها عندما اصطدمت بشفرة بونهارت. وفي الوقت نفسه، دفعت سيري نفسها بعيدًا وقفزت إلى العارضة المجاورة. هبطت، وبمعجزة حافظت على توازنها. أخذت خطوات سريعة وخفيفة وعدت للقفز مرة أخرى، هذه المرة عادت إلى العارضة التي كان بونهارت يقف عليها، لتظهر خلف ظهره مباشرة. استدار في اللحظة المناسبة، ووجه ضربة عمياء تقريبًا إلى حيث كان من المفترض أن تقودها قفزتها. أخطأها بأقل من شعرة، وجعلته قوة الضربة يتراجع. هاجمت سيري كالوميض. انقضّت وهي تنزل على ركبة واحدة. ضربت بقوة ويقين.

وتجمّدت وهي تحمل سيفها إلى الجانب، تشاهد بهدوء كيف بدأ الشق الطويل المائل والمستقيم تمامًا في معطفه بالامتلاء وطفح بلون أحمر كثيف.

"أنتِ..." ترنّح بونهارت. "أنتِ"...

انطلق نحوها. كان بطيئًا وخاملًا الآن. ابتعدت عنه بقفزة خلفية، ففقد توازنه. سقط على ركبة واحدة لكنه لم يثبت الأخرى على العارضة. وكانت الخشبة الآن مبللة وزلقة. نظر إلى سيري للحظة. ثم سقط.

رأتْه يتدحرج على أرضية الباركيه في ثورة من الغبار والجص والدماء، وشاهدت سيفه يطير لعدة أمتار إلى أحد الجوانب. استلقى بلا حراك، ممددًا، ضخمًا وهزيلًا. جريحًا وعاجزًا تمامًا. لكنه ما زال مخيفًا.

استغرق الأمر بعض الوقت، لكنه تحرك أخيرًا. تذمّر. حاول رفع رأسه. حرّك ذراعيه. حرّك ساقيه. زحف نحو عمود واتكأ بظهره عليه. تذمّر مرة أخرى وهو يتحسس صدره وبطنه الملطخين بالدماء بكلتا يديه.

قفزت سيري إلى الأسفل. وسقطت بجانبه على ركبة واحدة. بهدوء ونعومة مثل قطة. رأت عينيه السمكيتين تتوسعان خوفًا.

"لقد... ربحتِ..." قال بصوت أجش وهو ينظر إلى شفرة "سوان". "لقد ربحتِ يا فتاة الساحر. يا ليت ذلك كان في الحلبة... لكانت ستكون مواجهة مذهلة"...

لم ترد عليه.

"أنا من أعطيتكِ هذا السيف، هل تتذكرين؟"

"أتذكر كل شيء".

"بالتأكيد لن..." غمغم. "بالتأكيد لن تنهي حياتي، أليس كذلك؟ لن تفعلي ذلك... لن تقتلي رجلًا هزم وعاجز عن الدفاع عن نفسه... أنا أعرفكِ، يا سيري. أنتِ نبيلة جدًا... لهذا".

نظر إليها طويلاً. لفترة طويلة جدًا. ثم انحنَتْ. اتسعت عيناه أكثر. لكنها فقط انتزعت من عنقه الوسوم: الذئب، القطة، والغريفون. ثم التفتت وبدأت تسير نحو المخرج.

انقضّ عليها بسكين، قفز نحوها بطريقة حقيرة وخائنة. وكان صامتًا مثل الخفاش. فقط في اللحظة الأخيرة، عندما كانت الخنجر على وشك أن ينغرس حتى الحرفة في ظهرها، زمجر بكل كراهيته المحتشدة في صرخة مدوية.

تجنبت الضربة الماكرة بانعطاف نصفي سريع ووثبة، ثم حركت ذراعها وضربت بسرعة وقوة، بحركة كاملة للسيف، وزادت من قوته بلف خصرها.

سُمع أزيز السيف وهو يقطع، ويقطع بطرف النصل الحاد. كان هناك صوت سحل وخفق.

أمسك بونهارت بعنقه. كانت عيناه الباهتتان تبرزان من محجريهما.

قالت سيري ببرود: "ألم أقل لك أنني أذكر كل شيء؟"

ازدادت عينا بونهارت انبثاقًا. ثم سقط. فقد توازنه وانقلب على ظهره، مثيرًا الغبار. واستلقى هناك، هائلًا، نحيلًا كحاصد الأرواح، على الأرضية القذرة بين قوالب الخشب المكسورة. كان لا يزال يقبض على عنقه بقوة بكل ما أوتي من قوة. لكن رغم شدّته، كانت حياته تتسرب بسرعة بين أصابعه، وتنتشر حول رأسه في هالة سوداء عظيمة.

وقفت سيري فوقه. صامتة. لكنها سمحت له بأن يراها بوضوح. حتى يأخذ معه صورتها، صورتها وحدها، إلى حيثما كان ذاهبًا.

ألقى بونهارت نظرة عليها، وكانت نظرته تفقد تركيزها وتصبح ضبابية. كان يرتجف ارتجافًا تشنجيًا، ويجرّ كعبيه على ألواح الأرضية. ثم أطلق غرغرة مشابهة لتلك التي يصدرها القمع قبل أن يفرغ تمامًا.

وكانت تلك هي آخر أصواته.

* * *

دوى انفجار، وانفجرت نوافذ الزجاج الملون بطنين ورنة.

صرخت سيري: "تحمّل يا جيرالت"!

قفزوا جانبًا في اللحظة المناسبة. وميض خاطف مذهل اجتاح الأرضية، وأطلق رُقَم الطين وشظايا الفسيفساء الحادة صريرًا في الهواء. ضرب وميض آخر من البرق العمود الذي كان الساحر يختبئ خلفه. تصدّع العمود إلى ثلاثة أجزاء. انهار نصف القوس الكبير من القبة وسقط على الأرض بصوت مدوي هائل. جيرالت، مستلقيًا على الأرض، غطّى رأسه بيديه، وهو يدرك مدى ضعف حمايتهما ضد أكثر من عشرة أطنان من الأنقاض. كان قد استعدّ للأسوأ، لكن الأمور لم تكن سيئة للغاية. نهض سريعًا، وتبيّن له لمعان درع سحري فوقه، فأدرك أن سحر ينفر قد أنقذه.

استدار فيلغيفورتز نحو الساحرة وحطم العمود الذي كانت تلوذ به إلى شظايا ناعمة. زأر بغضب عارم، ونسج سحابة من الدخان والغبار بخيوط من النار. تمكنت ينفر من القفز بعيدًا وأطلقت عليه وميضًا من البرق ردًا منه، لكن فيلغيفورتز صدّه بسهولة واستخفاف شديدين. ردّ بضربة قوية أرسلت ينفر تسقط أرضًا.

انطلق جيرالت نحوه وهو يمسح الجبس عن وجهه. التفت فيلغيفورتز باتجاهه وأطلق يده التي انفجرت منها النيران مع صوت زئير. غريزة الساحر دفعته إلى حماية نفسه بسيفه. وبشكل مذهل، حمى السيف القزمي المزيّن بالرموز الرونية جيرالت، حيث قطع تيار اللهب إلى نصفين.

"ها!" زأر فيلغيفورتز. "مثير للإعجاب يا ساحر! وماذا تقول الآن عن هذا؟"

لم يقل الساحر شيئًا. طار في الهواء كما لو كان قد اصطدم بقوة، وسقط على الأرض ثم انزلق عليها حتى توقف عند قاعدة العمود. تفكّك العمود وتحطم إلى قطع، مُحدثًا انهيارًا كبيرًا آخر في جزء من

القبة. هذه المرة لم تكن ينفر سريعة بما يكفي لمنحه حماية سحرية. ضربه كتلة ضخمة من الأنقاض في الكتف. أصابه الألم بالشلل لحظةً.

بينما كانت ينفر تتلو التعاويذ، أطلقت وميضًا تلو الآخر من البرق نحو فيلغيفورتز. لم يصل أي منها إلى الهدف، حيث ارتدّت جميعها بأمان عن الكرة السحرية التي تحمي الساحر. مدّ فيلغيفورتز ذراعيه ثم فردهما فجأة. صرخت ينفر من الألم وارتفعت في الهواء معلقةً. لوى فيلغيفورتز يديه تمامًا كما لو كان يعصر قماشًا مبللًا. صرخت الساحرة بصوتٍ مخترق. وأخذت تدور.

قفز جيرالت واقفًا متغلبًا على الألم. لكن ريجيس كان أكثر هدوءًا.

ظهر المصاص دماء فجأة في هيئة خفاش ضخم وهبط على فيلغيفورتز بانسيابية صامتة. قبل أن يتمكن الساحر من حماية نفسه بتعويذة، كان ريجيس قد خدش بمخالبه وجهه، ولم يُخطئ عينه إلا بسبب صغر حجمها. زمجر فيلغيفورتز وراح يلوح بذراعيه.

سقطت ينفر، وقد أُطلقت، على كومة من الأنقاض مع أنينٍ مدوٍ، وتدفقت الدماء من أنفها على وجهها وصدرها.

اقترب جيرالت الآن، وكان قد رفع سيف السِّهيل استعدادًا للضرب. لكن فيلغيفورتز لم يكن مهزومًا بعد ولم يكن في نيته الاستسلام. دفع الساحر بعيدًا بقوة عظيمة وأطلق شعلة بيضاء مشرقة نحو الخفاش المهاجم، والتي قطعت عمودًا كما تقطع السكين الساخنة الزبدة. تجنّب ريجيس اللهب برشاقة وظهر مرة أخرى في هيئته الطبيعية بجانب جيرالت.

"تحمّلْ!" أطلق الساحر وهو يحاول رؤية حال ينفر. "تحمّلْ يا ريجيس..."

"أتحذرني؟!" صرخ مصاص الدماء. "أنا؟! لم آتِ إلى هنا لأحذر!"

بقفزة خاطفة كالبرق، لا تُصدَّق، هجم على الساحر وأمسك بحلقه. لمعت أنيابه.

زمجر فيلغيفورتز من الرعب والغضب. لحظةً بدا وكأنها نهايته. لكن ذلك كان وهمًا.

كان لدى الساحر سلاحٌ في ترسانته لكل موقف. ولكل خصم. حتى مصاص دماء. الأيدي التي أمسكت بريجيس توهجت مثل الحديد المحموم. صرخ مصاص الدماء.

صرخ جيرالت أيضًا، وهو يرى الساحر يمزق ريجيس حرفيًا إربًا.

قفز لإنقاذه، لكنه لم يكن سريعًا بما يكفي.

دفع فيلغيفورتز مصاص الدماء المشوه نحو عمود وأطلق عليه نارًا بيضاء من كفّيه عن قرب. صرخ ريجيس، صرخة مروعة لدرجة أن الساحر غطى أذنيه بيديه.

انفجر باقي الزجاج الملون مع زئير وتصادم. والعمود... ببساطة ذاب. ذاب مصاص الدماء معه، ليصبح كتلة غير منتظمة الشكل.

لعَن جيرالت بكل ما فيه من غضب ويأس. وقفز نحو فيلغيفورتز، رافعًا سيف السِّهيل استعدادًا للضرب. لكنه فشل.

التفت فيلغيفورتز وضربه بطاقة سحرية. طار الساحر عبر طول القاعة بأكملها واصطدم بالجدار، ثم انزلق إلى الأرض. استلقى مثل سمكة تلهث للهواء، غير عابئ بما هو مكسور، بل بما بقي سليمًا.

تقدم فيلغيفورتز نحوه. وتجلّى في يده قضيب حديدي طوله ستة أقدام. وقال:

"كان بإمكاني تحويلك إلى رماد بتعويذة كان بإمكاني إذابتك إلى جمرة كما فعلت بذلك الوحش قبل لحظات. لكنك، يا أيها الويتشر، يجب أن تموت بطريقة مختلفة. في معركة. ربما ليست شريفة تمامًا، لكنها كذلك."

لم يصدق جيرالت أنه سيستطيع الوقوف. لكنه فعل. بصق الدم من شفته المقطوعة. أمسك بسيفه بإحكام أكبر.

تقدم فيلغيفورتز، ودار بالقضيب الحديد في حركة دائرية قائلاً:
"في ثانيد.. فقط كسرتك قليلًا حينها، بحذر، لأنني أردت أن تكون عبرة. وبما أنك لم تتعلم الدرس، فهذه المرة سأكسرك تمامًا إلى عظام صغيرة جدًا بحيث لا يستطيع أحد أبدًا لصقك معًا مرة أخرى."

هاجمه. لم يهرب جيرالت. تقبل القتال.

تلألأ القضيب وصفّر، والتف الساحر حول الساحر الراقص. كان جيرالت يتفادى الضربات ويوجه ضرباته الخاصة، لكن فيليجفورتز كان يصدّها بمهارة، ثم اشتكى الفولاذ بصوتٍ حزين عندما اصطدم بالفولاذ.

كان الساحر سريعًا وخِفيف الحركة كالشيطان.

خدع فيلغيفورتز جيرالت بحركة ملتوية من جذعه وضربة وهمية من اليسار، ثم ضربه بقوةٍ تحت أضلاعه. وقبل أن يتمكن الويتشر من استعادة توازنه وأنفاسه، أصابه بضربة قوية على كتفه جعلته يسقط على ركبتيه.

وتحرك جانبًا لينجو من ضربةٍ كانت ستُصيب رأسه من الأعلى، لكنه لم يستطع تجنب طعنة معكوسة من الأسفل، فوق الورك. ترنَّح جيرالت واصطدم ظهره بالجدار. وما زال يحتفظ بما يكفي من الحضور الذهني ليستلقي على الأرض، وذلك في الوقت المناسب، إذ اصطدم القضيب الحديدي بشعره وارتطم بالجدار، مطلقًا شراراً يتطاير.

تدحرج جيرالت بعيدًا، فضرب القضيب الأرض بجوار رأسه مباشرة، مما أطلق شرارات. ثم أصابته الضربة الثانية على لوح كتفه. واجتاحه صدمةٌ وآلام عارمة وتسللت إليه حالة من الضعف حتى غمرت ساقيه.

رفع الساحر القضيب مرة أخرى، وقد اشتعلت نظرات الانتصار في عينيه.

قبض جيرالت بإحكام على ميدالية فرينجيلا في قبضته.

سقط القضيب بصوتٍ معدني عالٍ، وضرب الأرض على بعد قدمٍ واحدة من رأس الويتشر. الذي تدحرج مبتعدًا، ثم نهض سريعًا على ركبة واحدة. قفز فيلغيفورتز للأمام وضرب؛ لكن القضيب أخطأ الهدف من جديد مرة أخرى بفارق بضع بوصات. هزَّ فيلغيفورتز رأسه بعدم تصديق وتردد للحظة، ثم تنهد فجأة لقد فهم متأخراً. فاشتعلت عيناه بالنور، فقفز، متأرجحًا، ثم جاء بضربة أخيرًا، لكنها كانت متأخرة جدًا.

بادره جيرالت بضربة على بطنه بسيفه، فصرخ فيلغيفورتز وترك القضيب ليسقط، وتراجع مترنحًا ومنحنيًّا على نفسه. كان الويتشر قد اقترب منه بالفعل؛ دافعاً إياه بحذائه نحو جذع العمود المكسور، ثم بدأ يقطعه بالسيف بقوة، بزاوية مائلة، من عظمة الترقوة حتى الورك. تدفقت الدماء على الأرض، راسمةً نمطًا متعرجًا يتماوج. صرخ الساحر وانهار على ركبتيه، وخفض رأسه ناظراً إلى بطنه وصدره كغير المصدق، حتى لم يستطع أن يبعد عينيه عما رآه لفترة طويلة.

انتظر جيرالت بهدوءٍ في وضعية الاستعداد، وسيف سيهيل جاهزٌ للضربة التالية.

تأوه فيلغيفورتز وأصدر أنينًا يملأ المكان، ثم رفع رأسه.

"جيرالـ..."

لم يمنح الويتشر الفرصة لإكمال كلماته وأجهز عليه.

ساد الصمت لفترة طويلة.

قالت ينيڤر أخيرًا، وهي تنفث بصعوبة وتخرج من كومة الأنقاض:

"لم أكن أعلم..."

بدت بمظهرٍ مروعٍ؛ فقد تسرب الدم من أنفها وغمر ذقنها وصدرها.

كررت:

"لم أكن أعلم أنك تستطيع إلقاء تعاويذ وهمية،"

رأت نظرة جيرالت غير المفهومة، ثم أضافت:

"قادرة حتى على خداع فيلغيفورتز."

قال الويتشر:

"إنها قلادتي."

أجابته ينيڤر بابتسامة مريبة:

"آه. شيء غريب. لكن على أية حال، نحن على قيد الحياة بفضل سيري فقط."

قال جيرالت:

"عذرًا؟"

أضافت:

"عين فيلغيفورتز لم تستعد تنسيق حركته بالكامل. ألم تلاحظ أنه لم يكن دائمًا يسدد ضرباته تجاهك بدقة. أنا أدين بحياتي في المقام الأول لسيري وما فعلته بهذا اللعين".

صمتت، ونظرت إلى بقايا العمود المذاب، حيث كان بالإمكان تمييز ملامح شكلٍ باهت.

قالت:

«من كان ذلك، يا جيرالت؟»

أجاب:

«صديق. سأفتقده.»

سألت:

«هل كان إنسانًا؟»

فردّ:

«كان أسمى تجسيد للإنسانية. كيف حالكِ، يا يِن؟»

أجابت:

«بعض الضلوع المكسورة، ارتجاج، ومفصل الورك ملتوي، وعمود فقري مصاب بالكدمات. غير ذلك، أنا بخير. وأنتَ؟»

فقال:

«أكثر أو أقل على حالٍ مماثل.»

نظرت يِن بلا مبالاة إلى رأس فيلغيفورتز الواقع تمامًا في مركز فسيفساءِ الأرض، وكانت عيناه الصغيرتان، اللتان باتتا غائرتين، تحدقان فيهما بصمتٍ ملؤه التوبيخ.

قالت:

«إنه منظر جميل.»

بعد لحظة، قال:

«إنه كذلك. لكنني قد رأيتُ ما يكفي بالفعل. هل ستستطيعين المشي؟»

أجابت:

«مع مساعدتك، نعم.»

* * *

والتقت ثلاثتهم في مكان تتلاقى فيه الممرات، تحت الأروقة.

والتقوا تحت نظرات التماثيل البيضاء.

قال الويتشر:

«سيري»

قالت ينيفر، وهي تتكأ على ذراع الويتشر:

«سيري»

قالت سيري:

«جيرالت»

وتغلب على دموعه وانقباض مفاجئ في حلقه، فرد قائلاً:

«سيري، من الجميل أن أراكِ مجددًا»

قال جيرالت:

«مدام ينيفر»

فتحررت الساحرة من ذراع ويتشر واستقامت بأعظم ما استطاعت.

قالت ينيفر بصرامة:

«ما هذا المظهر عليكِ، يا فتاة؟ انظري إلى نفسكِ! رتبّي شعركِ! لا تنحني. تعالي إلى هنا رجاءً»

اقتربت سيري متصلبة. وقامت ينيفر باستقامتها وسوت طوقها، وحاولت مسح الدم الذي جف من كم سيري.

لمست ينيفر شعر سيري، وكشفت عن الندبة على خدها.

وعانقتها بقوة، بقوة شديدة.

ربت جيرالت يديها على ظهر سيري،

كانت ينيفير تحتضن سيري بشدة رغم آلام الأصابع المشوهة.

لم يشعر جيرالت بالغضب أو الاستياء أو الكراهية؛ بل شعر بالتعب فقط، ورغبة جارفة في أن ينتهي كل ذلك.

قالت سيري:

«ماما»

قالت ينيفر:

«ابنتي»

قرر جيرالت مقاطعتهم، فقال:

«لنذهب»

ولكن ذلك حدث بعد مرور وقت طويل.

شمّت سيري بأنفها بصخب، ومسحت أنفها بظهر يدها وكفكفت دموعها.

وأطلقت ينيفر نظرة غاضبة نحوها، ومسحت عينها التي ربما دخل إليها شيء.

نظر جيرالت إلى الممر من حيث خرجت سيري، كما لو كان يتوقع خروج شخص آخر.

هزت سيري رأسها، فاستوعب جيرالت الأمر.

أعاد جيرالت قائلاً:

«لنخرج من هنا»

قالت ينيفر:

«نعم، أريد أن أرى السماء»

قالت سيري برفق:

«لن أترككما أبدًا»

ثم أكدت:

«أبدًا»

أعاد جيرالت قائلاً:

«لنخرج من هنا. سيري، احملي ينيفر»

قالت سيري:

«لا أحتاج إلى أن أُحمل!»

قالت ينيفر بابتسامه:

«دعيني، ماما»

أمامهم كان درجٌ عظيم يغرق في الدخان، تتوهج فيه مشاعل النار ولَهَبِ النيران في حواملٍ حديدية.

ارتجفت سيري.

لقد رأت ذلك الدرج من قبل، في الأحلام والرؤى.

* * *

في الأسفل، بعيدًا، كان هناك رجال مسلحون ينتظرون.

همست ينيفر: «أنا متعبة.»

اعترف جيرالت: «وأنا أيضًا» وهو يُسحب سيفه السِهيل.

قالت ينيفر: «لقد سئمتُ من القتل.»

رد جيرالت قائلاً: «وأنا أيضًا.»

ثم سألت ينيفر: «ألا يوجد سبيل آخر للخروج؟»

فأجاب جيرالت: «لا، ليس هناك. هذا الدرج وحده. يجب أن نفعل ذلك، يا فتاة. ينيفر تريد أن ترى السماء، وأنا أريد أن أرى السماء، ينيفر وأنتِ.»

نظرت سيري إلى الوراء وألقت نظرة على ينيفر، التي كانت ترتكز على الدرابزين كي لا تسقط.

أخرجت ينيفر القلائد المأخوذة من بونهارت؛ وضعت قلادة القط على عنقها وأعطت جيرالت قلادة الذئب.

قال جيرالت: «آمل أن تعلمي أنها مجرد رمز؟»

فأجابت ينيفر: «كل شيء مجرد رمز.»

ثم أخرجت ينيفر سيفها «السنونو» من غمده.

قالت ينيفر: «لنذهب، يا جيرالت.»

فرد جيرالت قائلاً: «لنذهب. التزمي بقربي.»

كان مرتزقو سكيلين ينتظرون في أسفل الدرج، متماسكين بأسلحتهم في قبضات متعرقة، فأرسل تاوني أول موجة صاعدة على الدرج، وكانت أحذيتهم الحديدية تدق على الدرج.

قال جيرالت: «ببطء، يا سيري. لا تسرعي. اقتربي مني.»

فقالت سيري: «نعم، يا جيرالت.»

ثم تابَع جيرالت قائلاً: «وبهدوء، يا فتاة، بهدوء. تذكري، دون غضب ودون كراهية. علينا أن نخرج لنرى السماء، والرجال الذين يقفون في طريقنا يجب أن يموتوا. لا تترددي.»

فردت سيري: «لن أتردد. أريد أن أرى السماء.»

وصلوا إلى المنصة الأولى دون وقوع أي مكروه، فتراجع المرتزقون أمامهم، مذهولين ومتفاجئين من هدوئهم.

لكن بعد لحظة، قفز ثلاثة منهم نحوهم، صارخين ويدورون بسيوفهم؛ فهلكوا على الفور.

صاح البومة من الأسفل: «اجتاحوهم! اقتلوهم!»

قفز الثلاثة الذين يلونهم إلى الأمام.

اندفع جيرالت بسرعة لملاقاتهم، فخدعهم بمناورة زائفة، وقطع أحدهم من أسفل في حلقه.

ثم استدار، وفسح المجال لسيري تحت ذراعه اليمنى، فقامت سيري بشقِّ الجندي التالي بسلاسة في إبطيه.

وحاول الجندي الثالث إنقاذ حياته بالقفز فوق الدرابزين، لكنه كان بطيئًا جدًا.

على الدرابزين. كان بطيئًا جدًا.

مسح جيرالت رذاذ الدم عن وجهه.

قال جيرالت: «اهدئي، يا سيري.»

قالت سيري: «أنا هادئة.»

ثم ظهر الثلاثة التاليون؛ ومضة من الشفرات، صرخات، وموت.

زحف الدم الكثيف نحو الأسفل، متقطرًا على درجات الدرج.

قفز جندي يرتدي درع بريجانديني مزين بأزرار من النحاس نحوه برمح طويل.

كانت عيناه برية بفعل المخدرات.

دفعت سيري عمود الرمح جانبًا بمناورة مائلة، وشرع جيرالت في الضرب بسيفه.

مسح جيرالت وجهه.

ساروا قدمًا دون أن يلتفتوا خلفهم.

أصبحت المنصة الثانية قريبة الآن.

صرخ سكيلين قائلاً: «اقتلوهم! هاجموا! اقْتِلُووهم!»

كانوا يدوسون ويصرخون على الدرج.

ومضة من الشفرات، صرخات، وموت.

قال جيرالت: «جيد، يا سيري، ولكن بهدوء أكثر، دون نشوة، وابقي قريبة مني.»

قالت سيري: «سأكون دائمًا قريبة منك.»

قال جيرالت: «لا تجرحي من الكتف إن كان بإمكانك أن تجريحي من المرفق. احذري.»

قالت سيري: «أنا كذلك.»

ومضة من سيف، صرخات، دماء، وموت.

قال جيرالت: «جيد، يا سيري.»

قالت سيري: «أريد أن أرى السماء.»

قال جيرالت: «أحبكِ كثيرًا.»

قالت سيري: «وأنا أحبك أيضًا.»

قال جيرالت: «احذري، إن الطريق يزداد انزلاقًا.»

ومع ومضة من الشفرات وأنين، ساروا قدمًا، ملتحقين بتلك الدماء التي كانت تنهمر على درجات الدرج.

ساروا إلى الأسفل، دائمًا إلى الأسفل، على درجات قلعة ستيغا.

انزلق جندي مهاجم على درجة ملطخة بالدم، فسقط على الأرض عند أقدامهم وهو يصرخ طالبًا الرحمة، مغطياً رأسه بكلتا يديه.

مرّوا به دون أن ينظروا إليه.

لم يجرؤ أحد على عرقلة طريقهم حتى المنصة الثالثة.

صرخ ستيفان سكيلين من الأسفل قائلاً: «الأقواس! أطلقوا النار من الأقواس المتقاطعة! كان من المفترض أن يجلب بورا مون الأقواس المتقاطعة! أين هو؟»

كان بورا مون – الذي لم يكن بإمكان البومة معرفة مكانه – قد ابتعد بالفعل مسافة كبيرة.

كان يركب نحو الشرق، وجبهته ملتصقة بلبدة حصانه، مستخلصًا أقصى هرولة من جواده.

عاد رجل واحد فقط ممن تم إرسالهم للأقواس.

كان الرجل الذي قرر إطلاق النار، ويداه ترتجفان قليلاً وعيناه تدمعان من الفستيتش.

لم يلمس السهم الأول الدرابزين إلا بالكاد، ولم يصب السهم الثاني حتى درجات الدرج.

قال تاوني أول: «أعلى! اصعدوا أعلى، يا أحمق! أطلقوا النار من قرب!»

تظاهر رماة الأقواس المتقاطعة بعدم سماع نداءه.

ثم قال سكيلين ملئًا لسانه بالسباب، وانتزع القوس المتقاطع منه، وقفز إلى الدرج، جثا على ركبتيه وتصوب.

غطى جيرالت سيري بجسده بسرعة.

لكن الفتاة انزلقت من خلفه كالصاعقة، فحينما ارتطم وتر القوس، كانت قد اتخذت موقعها بالفعل.

أدارت سيري سيفها نحو الربع العلوي وضربت الرمية بقوة حتى تدحرجت عدة مرات قبل أن تسقط.

متمتمًا قال جيرالت: «جيد جدًا، يا سيري، جيد جدًا. ولكن إن فعلت ذلك مجددًا، سأجلد جلدكِ.»

أسقط سكيلين القوس المتقاطع، وأدرك فجأة أنه بات وحيدًا.

كان جميع رجاله في أسفل الدرج في مجموعة صغيرة ضيقة، ولم يكن أحدهم حريصًا على الصعود إلى الأعلى.

بدا أن عددهم أصبح أقل مما كان عليه من قبل، ومرة أخرى هرب بعضهم إلى مكان ما، على الأرجح لجلب المزيد من الأقواس المتقاطعة.

سار جيرالت وسيري، دون استعجال ولا تباطؤ، إلى الأسفل، إلى أسفل الدرج الملطخ بالدماء في قلعة ستيغا؛ كانا قريبين من بعضهما البعض، كتفًا إلى كتف، يُغوون ويُحيّرون أعداءهم بحركات سريعة من شفراتهم.

سار سكيلين إلى الخلف دون أن يتوقف، حتى وصل إلى القاع.

حين وجد نفسه بين رجاله، لاحظ أن التراجع لا يزال مستمرًا، فسبَّ عاجزًا.

صرخ سكيلين قائلاً: «يا رجال! امضوا! هاجموا! بالجملة! هيا، اقتلوهم! اتبعوني!»

تمتم أحدهم قائلاً: «اذهب بنفسك، يا سيدي»، رافعًا يده المتأثرة بالفستيتش إلى أنفه.

فضربه البومة بقبضة، فغَطَّت وجه الرجل وكمّه والجزء الأمامي من سترته بمسحوق أبيض.

عبر جيرالت وسيري منصة أخرى.

صرخ سكيلين قائلاً: «حين يصلون إلى القاع سنتمكن من إحاطتهم! هيا يا رجال! هاجموا! إلى سلاحكم!»

نظر جيرالت إلى سيري، وكاد أن يزأر من شدة الغضب، حينما رأى خصلًا تتلألأ بيضاء كالفضة في شعرها الرمادي.

سيطر على نفسه؛ فليس هذا وقت الغضب.

قال جيرالت بصوت خافت: «كوني حذرة. ابقي قريبة مني.»

قالت سيري: «سأكون دائمًا قريبة منك.»

قال جيرالت: «سيكون الوضع ساخنًا هناك في الأسفل.»

قالت سيري: «أعلم. لكننا معًا.»

قال جيرالت: «نحن معًا.»

قالت ينيفر، وهي تتبعهم نزولًا عبر الدرج الأحمر الزلق بالدم: «وأنا معكما.»

صرخ البومة: «اصطفوا! اصطفوا!»

عاد بعض الرجال الذين ركضوا لإحضار الأقواس المتقاطعة. ولكن بدونها. كانوا مذعورين للغاية.

تعالت ضوضاء الأبواب وهي تتحطم تحت ضربات الفؤوس القتالية، وصوت الارتطامات، ووقع الخطوات الثقيلة عبر الممرات الثلاثة المؤدية إلى الدرج.

وفجأة، خرج الجنود مرتدين خوذات سوداء، ودروعًا، وعباءات تحمل علامة السلمندر الفضي من جميع الممرات الثلاثة.

وعند سماع صياحهم الهادر والمهدد، بدأ مرتزقة سكيلين بإلقاء أسلحتهم على الأرض، واحدًا تلو الآخر.

تم تصويب الأقواس المتقاطعة وشفرات الرماح تجاه الأكثر ترددًا منهم، وكان يتم دفعهم إلى الطاعة عبر صرخات أشد تهديدًا.

الآن، جميعهم أطاعوا، فقد كان واضحًا أن الجنود ذوي العباءات السوداء كانوا متحمسين جدًا لقتل رجال سكيلين، ولم يكونوا بحاجة سوى لذريعة.

بينما وقف البومة عند قاعدة العمود، عاقدًا ذراعيه على صدره.

تمتمت سيري: «جاءتنا النجدة كمعجزة؟»

هزّ جيرالت رأسه نافيًا.

تم تصويب الأقواس المتقاطعة وشفرات الرماح نحوهما أيضًا.

صرخ أحد الجنود بلغة غير مألوفة: "ارموا أسلحتكم! و "استسلموا!"

لم يكن هناك جدوى من المقاومة.

كان الجنود ذوو العباءات السوداء يتكاثرون كالنسيج الحي عند أسفل الدرج، وكان الساحران مرهقين جدًا، جدًا.

لكنهم لم يُسقطوا سيوفهم. بل وضعوها بعناية على الدرجات. ثم جلسوا.

شعر جيرالت بحرارة كتف سيري، وسمع أنفاسها.

نزلت ينيفر، تمر بجانب الجثث وبرك الدماء، مظهرة لجنود العباءات السوداء يديها الخاليتين من السلاح.

ثم جلست بثقل بجوارهم على الدرج.

شعر جيرالت بالدفء يضغط على كتفه الآخر.

كم هو مؤسف ألا يكون الأمر هكذا دائمًا، فكر جيرالت.

ولكنه كان يعلم أنه لن يكون كذلك أبدًا.

تم تقييد رجال البومة واقتيادهم واحدًا تلو الآخر.

كانت أعداد الجنود ذوي العباءات السوداء التي تحمل علامة السلمندر في ازدياد أكثر فأكثر.

وفجأة، ظهر بينهم ضباط رفيعو الرتبة، يمكن تمييزهم من خلال الريش الأبيض والزخارف الفضية على دروعهم، وكذلك من خلال الاحترام الذي أظهره الجنود لهم عند تنحيهم جانبًا لمرورهم.

ثم ابتعد الجنود عن الطريق بمزيد من الاحترام لرجل واحد من بينهم، كان يرتدي خوذة مزينة بشكل فاخر بالفضة، وأخذوا ينحنون أمامه.

توقف الرجل أمام سكيلين، الذي كان يقف عند قاعدة العمود.

كان البومة – حتى في الضوء المتذبذب للمشاعل واللوحات المحترقة في الحوامل الحديدية – قد شحب وجهه بشدة، ليصبح أبيض كالشبح.

قال الضابط بصوت رنان، صوت ارتفع حتى بلغ قبو القاعة: «ستيفان سكيلين، ستُحاكم في المحكمة. وستعاقب على خيانتك.»

اقتيد البومة بعيدًا، لكن لم تُقيد يداه كما حدث مع الجنود العاديين.

استدار الضابط. بينما من الأعلى قد انفصلت خرقة محترقة من نسيج جداري وسقطت، تدور في الهواء مثل طائر ناري ضخم.

انعكس وهجها على الدرع المحاط بالحواف الفضية، وعلى القناع الذي امتد حتى منتصف الوجنتين، والذي كان - مثل جميع خوذات الجنود ذوي العباءات السوداء - مصممًا على شكل فك مسنن مخيف.

الآن دورنا، فكر جيرالت. ولم يكن مخطئًا.

حدق الضابط في سيري، واحترقت عيناه في فتحتي خوذته، متفحصًا كل شيء بدقة، وسجل ملاحظاته: الشحوب، الندبة على خدها، الدم على كمها ويدها، والخصلات البيضاء في شعرها الرمادي.

ثم حول الضابط النيلفجاردي بصره إلى الويتشر.

سأل بصوته الرنان: «فيلغيفورتز؟»

هز جيرالت رأسه نافيًا.

«كاهير أيب كيلاك؟»

هزة أخرى بالنفي.

نظر الضابط إلى الدرج، ثم قال: «مجزرة. حمام دم. حسنًا، من يحيا بالسيف... على أي حال، لقد وفرتم على الجلادين عملهم.»

«لقد سافرت لمسافة طويلة، أيها الويتشر.»

لم يُعلق جيرالت.

تنشقت سيري بصوت عالٍ ومسحت أنفها بمعصمها. ألقت ينيفر عليها نظرة مؤنبة. لاحظ الضابط النيلفجاردي ذلك أيضًا، وابتسم.

كرر قائلاً: «لقد سافرت مسافة طويلة. أتيت إلى هنا من أقاصي العالم. تتبعها، ومن أجلها. حتى لو كان ذلك وحده، فهو يستحق شيئًا.»

«أيها اللورد دي ريدو!»

«نعم، سيدي، جلالة الإمبراطور!»

لم يتفاجأ جيرالت.

«يرجى العثور على غرفة هادئة يمكنني فيها التحدث، دون أي إزعاج، مع السير جيرالت من ريفيا. وخلال ذلك، قدموا جميع وسائل الراحة والخدمات الممكنة للسيدتين. تحت حراسة يقظة لا تكل ولا تهمل.»

«نعم، سيدي، جلالة الإمبراطور.»

«السير جيرالت، تفضل بمرافقتي.»

نهض الويتشر. ألقى نظرة على ينيفر وسيري، راغبًا في تهدئتهما وتحذيرهما بعدم فعل أي شيء متهور.

لكن لم يكن هناك داعٍ لذلك.

كانتا كلتاهما مرهقتين للغاية. ومستسلمتين.

* * *

قال إمير فار إمريس، ديثوين أذان ين كارن أيب مورفود، اللهب الأبيض الراقص على قبور أعدائه، وهو يزيل خوذته: «لقد سافرت مسافة طويلة.»

أجاب جيرالت بهدوء: «لست متأكدًا، إن لم تكن أنت من سافر أبعد، دوني.»

ابتسم الإمبراطور: «لقد تعرفت عليّ، حسنًا، حسنًا. ويقولون إن غياب اللحية وطريقة حملي لنفسي قد غيرتني تمامًا. العديد ممن كانوا يرونني سابقًا في سينترا جاؤوا لاحقًا إلى نلفجارد وشاهدوني خلال المجالس الرسمية. ولم يتعرف عليّ أحد. لكنك رأيتني مرة واحدة فقط، وذلك كان قبل ستة عشر عامًا. هل تركتُ في ذاكرتك أثرًا عميقًا إلى هذا الحد؟»

قال جيرالت: «لم أكن لأتعرف عليك، لقد تغيرت حقًا كثيرًا. لكنني ببساطة استنتجت من تكون. منذ بعض الوقت. خمّنت...ليس بدون مساعدة وإشارة من شخص آخر...الدور الذي لعبه سفاح القربى في عائلة سيري. في دمها. لقد حلمتُ حتى بأسوأ، وأبشع سفاح قربى يمكن تخيله في كابوس مرعب. وها أنت ذا، أمامي بشخصك.»

قال إمير ببرود: «أنت بالكاد تستطيع الوقوف، وعنادك المعهود يجعلك أكثر تمايلًا، يمكنك الجلوس في حضرة الإمبراطور. أمنحك هذا الامتياز... حتى نهاية أيامك.»

جلس جيرالت براحة. استمر إمير في الوقوف، مستندًا إلى خزانة منحوتة.

قال الإمبراطور: «لقد أنقذتَ حياة ابنتي. عدة مرات. أشكرك على ذلك. باسمي، وباسم الأجيال القادمة.»

قال جيرالت ساخرًا: «لقد نزعْتَ سلاحي.»

تابع إمير بلا مبالاة تجاه السخرية: «سيريلّا ستذهب إلى نيلفجارد. ستصبح إمبراطورة في اللحظة المناسبة. بنفس الطريقة التي أصبحت بها عشرات الفتيات ملكات، وما زلن يصبحن كذلك. أي دون أن يعرفن أزواجهن تقريبًا. وغالبًا لا يحملن عنهم رأيًا جيدًا بناءً على اللقاء الأول. وغالبًا ما يصبن بخيبة أمل خلال الأيام الأولى... والليالي الأولى... من الزواج. سيريلّا لن تكون الأولى.»

امتنع جيرالت عن التعليق.

تابع الإمبراطور قائلًا: «سيريلّا ستكون سعيدة، مثل معظم الملكات اللواتي كنت أتحدث عنهن. هذا سيأتي مع الوقت. سيريلّا ستحوّل الحب الذي لا أطلبه منها على الإطلاق إلى الابن الذي سأنجبه منها. أرشيدوق، ولاحقًا إمبراطور. إمبراطور سينجب ابنًا. ابنًا سيكون حاكم العالم، وسيُنقذ العالم من الدمار. هكذا تقول النبوءة، التي لا يعلم محتواها الدقيق سواي.»

استطرد اللهب الأبيض قائلًا: «بالطبع، سيريلّا لن تعرف أبدًا من أكون. سيظل السر مدفونًا. مع من يعرفه.»

أومأ جيرالت برأسه قائلًا: «هذا واضح. لا يمكن أن يكون أوضح من ذلك.»

قال إمير بعد فترة صمت طويلة: «لا يمكنك إلا أن ترى يد القدر في كل هذا. كل شيء. بما في ذلك أفعالك. منذ البداية.»

قال جيرالت بهدوء: «أنا أرى يد فيلغيفورتز بدلًا من ذلك. فهو من أرسلك إلى سينترا، أليس كذلك؟ عندما كنت الوحش المسحور؟ لقد جعل بافيتا...»

قاطعه إمير بحدة وهو يلقي عباءته المزينة بالسلمندر فوق كتفه: «أنت تتخبط في الظلام. لا تعرف شيئًا. ولا تحتاج إلى أن تعرف. لم أستدعك إلى هنا لأروي لك قصة حياتي. أو لأبرر نفسي أمامك. الشيء الوحيد الذي استحققته هو التأكيد على أن الفتاة لن تُؤذى. ليس لدي أي ديون تجاهك، ويتشر. لا شيء..»

«بل لديك!» قاطعه جيرالت بحدة. «لقد خالفت العقد. نكثت بوعدك. هذه ديون، دوني. لقد خنت عهدًا كأمير، وعليك دين كإمبراطور. بفائدة إمبراطورية. عشر سنوات مستحقة!»

سأل إمير ببرود: «هل هذا كل شيء؟»

أجاب جيرالت: «هذا كل شيء. لأن هذا فقط ما يُستحق لي، لا أكثر. لكن لا أقل أيضًا. كنت سأحصل على الطفلة عندما تبلغ السادسة من عمرها. لم تنتظر الموعد المتفق عليه. خططت لسرقتها مني قبل أن يحين الأوان. لكن القدر الذي لا تكف عن الحديث عنه سخر منك. حاولت محاربة ذلك القدر طيلة السنوات العشر التالية. والآن هي لديك، لديك سيري، ابنتك، التي حرمتها ذات يوم من والديها، والتي تنوي الآن إنجاب أطفال سفاح قربى منها. دون أن تطلب منها الحب. وهذا عن حق، في الواقع. أنت لا تستحق حبها. بيني وبينك، دوني، لا أدري كيف ستتمكن من النظر في عينيها.»

قال إمير بصوت أجوف: «الغاية تبرر الوسيلة. ما أفعله، أفعله من أجل الأجيال القادمة. لإنقاذ العالم.»

* * *

«إذا كان إنقاذ العالم سيتم بهذه الطريقة — رفع الويتشر رأسه — فالأفضل له أن يفنى. صدقني، دوني، سيكون من الأفضل له أن يفنى.»

قال إمير فار إمريس، بصوت بدا شبه لطيف: «أنت شاحب اللون. لا تتحمس كثيرًا، فقد يغمى عليك.»

ابتعد عن الخزانة، واختار كرسيًا وجلس عليه. كان رأس الويتشر يدور بالفعل.

بدأ الإمبراطور حديثه بهدوء وسكينة:

«كان القنفذ الحديدي وسيلة لإجبار والدي على التعاون مع المغتصب. حدث ذلك بعد الانقلاب. كان والدي، الإمبراطور المخلوع، في السجن وتحت التعذيب. لم يتمكنوا من كسره، فقرروا تجربة طريقة أخرى. قام ساحر، استأجره المغتصب، بتحويلي إلى وحش أمام عيني والدي. وأضاف الساحر لمسته الخاصة، من باب الفكاهة. في لغتنا، تعني كلمة إمير "القنفذ"، وهو اسم قديم لهذا المخلوق.»

«لم يسمح والدي لهم بكسره، لذا قتلوه. أما أنا، فقد أُطلِقتُ في غابة وسط السخرية والازدراء، وأُطلقت عليّ الكلاب. لكنني نجوت. لم يكونوا جادين في ملاحقتي، لأنهم لم يكونوا يعلمون أن الساحر قد أخطأ في تعويذته، وأن هيئتي البشرية تعود إليّ ليلًا. ولحسن الحظ، كنت أعرف عددًا قليلًا من الأشخاص الذين كنت أثق بولائهم. وبالمناسبة، كنت في الثالثة عشرة من عمري حينها.»

«كان علي الفرار من البلاد. وحقيقة أنني كنت بحاجة للبحث عن علاج للعنة في الشمال، وراء درَج مَرنادال، قرأها في النجوم منجمٌ مجنون قليلًا يُدعى زارثيسيوس. لاحقًا، عندما أصبحت إمبراطورًا، وهبته برجًا ومعدات فلكية للعمل بها. أما حينها، فقد كان يعمل على أجهزة مستعارة.»

«كما تعلم، من إضاعة الوقت التعمق فيما حدث في سينترا. ومع ذلك، أنكر تمامًا أن يكون لذلك أي علاقة بفيلغيفورتز. أولًا، لم أكن أعرفه حينها، وثانيًا، كنت أشعر بنفور شديد من السحرة. وحتى اليوم، في الواقع، لا أحبهم كثيرًا. آه، وبما أنني تذكرت: عندما استعدت العرش، تمكنت من القبض على الساحر الذي خدم المغتصب وعذبني أمام عيني والدي. وأظهرت حسًا من الفكاهة بدوري. كان اسم الساحر براثينز، والذي يشبه في لغتنا لفظ كلمة "مقلي".»

«ولكن يكفي من هذه الاستطرادات، لنعد إلى صلب الموضوع. زارني فيلغيفورتز سرًا في سينترا، بعد ولادة سيري بفترة قصيرة. قدّم نفسه على أنه صديق موثوق لأشخاص في نيلفجارد ما زالوا موالين لي، ومتآمرين ضد المغتصب. عرض عليّ المساعدة، وسرعان ما أثبت قدرته على ذلك. وعندما سألته، وأنا ما زلت مرتابًا، عن دوافعه، أجاب بصراحة أنه يعوّل على الامتنان. من أجل المكافآت، الامتيازات، والسلطة التي سيمنحها له الإمبراطور العظيم لنيلفجارد. أي أنا. الحاكم القوي الذي سيسيطر على نصف العالم. الذي سينجب وريثًا سيحكم النصف الآخر من العالم. لقد خطط للصعود عاليًا بنفسه — كما صرّح بلا أي مواربة — إلى جانب هؤلاء الحكام العظام. ثم أخرج بعض المخطوطات، ملفوفة بجلد الأفعى، وحثني على الاطلاع على محتواها.»

«وهكذا، علمت عن النبوءة. علمت عن مصير العالم والكون. عرفت ما يجب أن أفعله. وخلصت إلى أن الغاية تبرر الوسيلة.»

قال جيرالت ببرود: «بالطبع.»

«في ذلك الوقت، كانت شؤوني في نيلفجارد تسير على ما يرام.» تجاهل إمير السخرية في نبرة الويتشر. «أنصاري كانوا يكتسبون المزيد والمزيد من النفوذ. وأخيرًا، بعد أن نجحوا في كسب مجموعة من الضباط في الخطوط الأمامية وفيلق من الضباط الشباب، قرروا شن انقلاب. لكنهم كانوا لا يزالون بحاجة لي. أنا شخصيًا. الوريث الشرعي للعرش والتاج الإمبراطوري، أحد أفراد سلالة إمريس الحقيقية، بدم إمريسي أصيل. كنت سأكون بمثابة راية الثورة. وبيننا فقط، كان الكثير من الثوار يأملون أنني لن أكون أكثر من ذلك. والذين ما زالوا على قيد الحياة منهم حتى اليوم لم يتمكنوا من تجاوز خيبة أملهم.»

«لكن، كما قيل من قبل، دعنا نترك الاستطرادات. كان عليّ العودة إلى وطني. لقد حان الوقت لدوني، الأمير الزائف لمايخت والدوق المزيف لسينترا، للمطالبة بميراثه. ومع ذلك، لم أنسَ النبوءة. كان عليّ أن أعود ومعي سيري. وكانت كالانثي تراقبني عن كثب.»

قال جيرالت: «لم تثق بك أبدًا.»

قال إمهر: «أعلم. أعتقد أنها كانت تعرف شيئًا عن تلك النبوءة. وكانت ستفعل أي شيء لتعطيل خططي، وفي سينترا كنت تحت سلطتها. كان الأمر واضحًا: كان عليّ العودة إلى نيلفجارد، لكن بطريقة لا يستطيع أحد أن يكتشف بها أنني كنت دوني وأن سيري هي ابنتي. اقترح فيلغيفورتز طريقة لتحقيق ذلك. كان يجب أن يموت دوني، وبافيتا، وطفلهما. يختفون دون أثر.»

قال جيرالت: «في غرق سفينة مُدبّر.»

قال إمير: «هذا صحيح. أثناء الرحلة من سكيلجا إلى سينترا، كان فيلغيفورتز سيجذب السفينة إلى دوامة سحرية فوق هوة سيدنا. كنا — بافيتا، سيري، وأنا — قد حبسنا أنفسنا مسبقًا في قارب نجاة مؤمن بشكل خاص، لننجو من الحادث. أما الطاقم...»

أكمل الويتشر ببرود: «فكان من المفترض ألا ينجو.» ثم أضاف: «وهكذا بدأت طريقك الذي لا يرحم.»

ظل إمير فار إمريس صامتًا لبرهة.

ثم قال أخيرًا بصوت هادئ: «لقد بدأ الأمر قبل ذلك.» ثم أضاف بأسف: «للأسف، في اللحظة التي اكتشفت فيها أن سيري لم تكن على متن السفينة.»

رفع جيرالت حاجبيه.

تابع الإمبراطور بوجه خالٍ من أي تعبير: «للأسف، لم أُقدّر بافيتا كما ينبغي في خططي. تلك الفتاة الحزينة، ذات العيون المنخفضة دومًا، رأت من خلالي وفهمت مخططاتي. فأرسلت الطفلة إلى الشاطئ سرًا قبل أن تُرفع المرساة. ثرتُ غضبًا. وكذلك هي. أصابتها نوبة هستيرية. وخلال العراك... سقطت من فوق سطح السفينة. قبل أن أتمكن من الغوص لإنقاذها، كان فيلغيفورتز قد جذب السفينة إلى دوامته. اصطدمتُ بشيء ما وفقدت وعيي. نجوت بمعجزة، إذ تشابكت أطرافي في الحبال. عندما أفقت، كنت مغطى بالضمادات. وكان ذراعي مكسورًا.»

قال الويتشر ببرود: «أتساءل كيف يشعر الرجل بعد أن يقتل زوجته.»

رد إمير دون تردد: «مريع.» ثم أضاف «شعرتُ وأشعر بمروعٍ وقذرٍ ومخزٍ. حتى حقيقة أنني لم أحبها قط لا تغيّر من الأمر شيئًا. الغاية تبرر الوسيلة، ومع ذلك فأنا أندم بصدق على موتها. لم أرد ذلك، ولم أخطط له. لقد ماتت بافيتا بالصدفة.»

قال جيرالت بجفاف: «أنت تكذب. وهذا لا يليق بإمبراطور. لم يكن يمكن لبافيتا أن تبقى على قيد الحياة. لقد كشفت حقيقتك. ولم تكن لتسمح لك أبدًا بفعل ما تريد فعله بسيري.»

قال إمير بحدة: «كانت ستعيش. في مكان ما... بعيد. هناك ما يكفي من القلاع... دارن روان، مثلًا. لم أكن لأقتلها.»

سأل جيرالت بسخرية: «حتى من أجل غاية تبرر الوسيلة؟»

مسح الإمبراطور وجهه وقال: «يمكن دائمًا العثور على وسيلة أقل قسوة.» ثم أضاف: «هناك دائمًا الكثير منها.»

قال الويتشر وهو ينظر في عينيه: «ليس دائمًا.»

تجنب إمير نظره.

قال جيرالت وهو يومئ برأسه: «هذا بالضبط ما كنت أفكر فيه. أكمل قصتك. الوقت يمضي.»

قال إمير: «كانت كالانثي تحرس الصغيرة سيري كحدقة عينها. لم يكن بإمكاني حتى أن أحلم باختطافها. علاقتي بفيلغيفورتز كانت قد بردت تمامًا، وما زلت أشعر بالكراهية تجاه السحرة الآخرين... لكن ضباطي والنبلاء كانوا يضغطون عليّ بشدة من أجل الحرب، من أجل الهجوم على سينترا. كانوا يؤكدون أن الشعب يطالب بذلك، أن الناس يريدون مجالًا حيويًا، وأن الاستماع إلى صوت الشعب سيكون بمثابة اختبار إمبراطوري. قررت قتل عصفورين بحجر واحد. بالاستيلاء على سينترا وسيري معًا. أنت تعرف البقية.»

أومأ جيرالت برأسه وقال: «أعلم.» ثم أضاف بلهجة متعبة: «شكرًا على المحادثة، دوني. أنا ممتن لأنك خصصت لي بعضًا من وقتك. ولكن لا يمكنني أن أطيل أكثر. أنا متعب جدًا. لقد شاهدت موت أصدقائي الذين تبعوني إلى هنا، إلى نهاية العالم. لقد جاؤوا لإنقاذ ابنتك. دون أن يعرفوها حتى.

باستثناء كاهير، لم يكن أي منهم يعرف سيري. لكنهم جاؤوا لإنقاذها. لأن هناك شيئًا فيها نقيًا ونبيلًا. وماذا كانت النتيجة؟ وجدوا الموت.

أرى أن هذا غير عادل. وإذا أراد أحد أن يعرف، فأنا لا أوافق عليه. لأن قصة يموت فيها الطيبون ويعيش الأوغاد ليواصلوا أفعالهم هي قصة تعج بالقذارة. لم يتبقَ لدي أي قوة، أيها الإمبراطور. استدعِ رجالك.»

قال إمير: «ويتشر...»

«يجب أن يموت السر مع من يعرفونه. لقد قلت ذلك بنفسك. ليس لديك خيار. ليس صحيحًا أنك تملك الكثير من الخيارات. سأهرب من أي سجن. سأأخذ سيري منك. لا يوجد ثمن لن أدفعه لاستعادتها. كما تعلم جيدًا.»

قال إمير بهدوء: «أعلم.»

قال جيرالت: «يمكنك أن تدع ينيفر تعيش. فهي لا تعرف السر.»

قال إمير بجديّة: «ستدفع أي ثمن لإنقاذ سيري. وللانتقام لموتك.»

أومأ الويتشر برأسه وقال: «صحيح. لقد نسيت حقًا كم تحب ينيفر سيري. أنت على حق، دوني. حسنًا، لا يمكنك الهروب من القدر. لديّ طلب.»

«ما هو؟»

«دعني أودعهما معًا. ثم سأكون تحت تصرفك.»

وقف إمير بجانب النافذة، يحدّق في قمم الجبال.

قال أخيرًا: «لا يمكنني أن أرفض لك ذلك. ولكن...»

قال جيرالت مقاطعًا: «لا تقلق. لن أخبر سيري بشيء. سأؤذيها فقط إذا أخبرتها من تكون. وأنا لا يمكنني أن أؤذيها.»

ظل إمير صامتًا لوقت طويل، ما زال ملتفتًا نحو النافذة.

ثم قال أخيرًا وهو يستدير على عقبيه: «ربما لديّ بالفعل دين لك.»

«فاسمع ما سأعرضه عليك كتعويض.»

«منذ زمن بعيد، في عصور قديمة، عندما كان الناس لا يزالون يملكون الشرف، والفخر، والكرامة، عندما كانوا يثمّنون كلمتهم، ولم يخشوا إلا العار، حدث أنه عندما يُحكم على شخص شريف بالإعدام، ولكي يتجنب يد الجلاد المهينة، كان يدخل حوضًا من الماء الساخن ويفتح عروقه. هل هذا ممكن؟»

قال جيرالت ببرود: «لتأمر بملء الحوض.»

تابع الإمبراطور بهدوء: «هل من الممكن أن ترغب ينيفر في مرافقتك إلى ذلك الحوض؟»

قال جيرالت: «أنا شبه متأكد من ذلك. ولكن عليك أن تسألها. لديها طبيعة متمردة إلى حد ما.»

قال إمير وهو يبتسم قليلاً: «أعلم ذلك.»

* * *

وافقت ينيفر على الفور.

قالت، وهي تنظر إلى معصميها: «لقد أُغلق الدائرة. الأفعى أوروبوروس قد غرزت أنيابها في ذيلها.»

«لا أفهم!» همست سيري غاضبة كقطة مستنفرة. «لا أفهم لماذا عليّ أن أذهب معه! إلى أين؟ ولماذا؟»

قالت ينيفر بهدوء: «ابنتي، هذا هو قدرك. لا يوجد طريق آخر. افهمي، ببساطة لا يمكن أن يكون الأمر على نحو مختلف.»

«وأنتما؟»

نظرت ينيفر إلى جيرالت وقالت: «قدرنا ينتظرنا. لا يوجد طريق آخر. تعالي إليّ، ابنتي. عانقيني بقوة.»

صرخت سيري بغضب، عيناها تلتمعان: «إنهم يريدون قتلكما، أليس كذلك؟ لا أوافق! لقد استعدتكما لتوي! هذا ليس عدلًا!»

قال إمير فار إمريس بهدوء: «من يحيا بالسيف، يموت بالسيف. لقد قاتلوني وخسروا. لكنهم خسروا بشرف.»

تقدمت سيري نحوه بخطوات ثلاث، بينما استنشق جيرالت الهواء بصمت. سمع شهقة ينيفر.

اللعنة، فكر. الجميع يرونها! كل جنوده بزيهم الأسود يرون ما لا يمكن إخفاؤه! نفس الوقفة، نفس النظرة المتألقة، نفس التجهم. الأذرع المتشابكة على الصدر بنفس الطريقة تمامًا.

لحسن الحظ، لحسن الحظ الشديد، أنها ورثت شعرها الرمادي عن أمها. لكن، عند التمحيص... من الواضح تمامًا أي دماء تجري في عروقها...

قالت سيري، وهي تحدق فيه بعيون مشتعلة: «لكنّك انتصرت.»

لم يرد إمير، فقط ابتسم، متفحصًا الفتاة بنظرة راضية.

قبضت سيري على أسنانها وقالت: «لقد مات الكثيرون. الكثير من الناس ماتوا بسبب كل هذا. هل ماتوا بشرف؟ هل الموت شرف؟ فقط وحش يمكنه أن يفكر بهذه الطريقة. رغم أنني رأيت الموت عن قرب، لن تستطيع تحويلي إلى وحش. ولن يكون ممكنًا.»

لم يرد. فقط نظر إليها، وكأنه يشربها بعينيه.

همست سيري بصوت منخفض، لكنه كان مليئًا بالتهديد: «أعرف ما تخطط له. أعرف ما تنوي فعله بي. وسأخبرك الآن: لن أسمح لك بلمسي. وإذا حاولت... إذًا... فسأقتلك. حتى لو كنت مقيدة. عندما تغفو، سأمزق حنجرتك بأسناني.»

بحركة سريعة، أسكت الإمبراطور التذمر المتزايد بين الضباط المحيطين بهم.

قال ببطء، دون أن يشيح بنظره عن سيري: «ما هو مقدر، سيكون.» ثم أضاف: «قولي وداعًا لأصدقائكِ، سيريلّا فيونا إيلين ريانون.»

نظرت سيري إلى الويتشر.

هزّ جيرالت رأسه.

تنهدت الفتاة.

عانقت ينيفر طويلاً، وهمستا لبعضهما لفترة طويلة.

ثم اقتربت من جيرالت.

قالت بصوت منخفض: «مؤسف.» ثم أضافت: «كانت الأمور تبدو أكثر إشراقًا.»

قال جيرالت: «أكثر بكثير.»

عانقا بعضهما.

قال جيرالت: «كوني شجاعة.»

همست: «لن يحصل عليّ.» ثم أضافت: «لا تقلق. سأهرب منه. لديّ طريقة...»

قاطعه جيرالت بصرامة: «لا يمكنكِ قتله. تذكري ذلك، سيري. لا يمكنكِ.»

قالت مطمئنة: «لا تقلق. لم أكن أفكر في القتل على الإطلاق. كما تعلم، جيرالت، لقد اكتفيت من القتل. لقد كان هناك منه الكثير.»

قال جيرالت بهدوء: «الكثير جدًا.» ثم أضاف: «وداعًا، يا فتاة الويتشر.»

قالت سيري بصوت مرتجف: «وداعًا، يا ويتشر.»

قال جيرالت بحنان: «فقط لا تبكي.»

قالت سيري مبتسمة بمرارة: «قول ذلك أسهل من فعله.»

مهر فار إمريس، إمبراطور نيلفجارد، رافق ينيفر وجيرالت طوال الطريق إلى الحمام. حتى حافة حوض رخامي كبير، ممتلئ بماء ساخن معطر يتصاعد منه البخار.

قال بهدوء: «وداعًا. لا حاجة لأن تتعجلا. سأذهب، لكنني سأترك هنا أناسًا سيتلقون تعليماتي وأوامري. عندما تكونان مستعدين، ما عليكما سوى المناداة، وسيعطيكما أحد الضباط سكينًا. لكنني أكرر: لا داعي للعجلة.»

أومأت ينيفر برصانة: «نقدر لك لطفك، جلالة الإمبراطور.»

«نعم؟»

قالت ينيفر بصوت خافت، لكنه ثابت: «رجاءً، بقدر الإمكان، لا تؤذِ ابنتي. لا أريد أن أموت وأنا أفكر في أنها تبكي.»

ساد الصمت. وقف إمير طويلًا، طويلًا جدًا، مستندًا إلى النافذة، رأسه مائل إلى الجانب.

أخيرًا قال، بصوت بدا غريبًا، كما لو كان شخصًا آخر يتحدث باسمه: «مدام ينيفر، يمكنكِ أن تكوني واثقة تمامًا من أنني لن أؤذي ابنتكِ وابنة ويتشر جيرالت. لقد سرت فوق جثث البشر، ورقصت فوق قبور أعدائي. وكنت أعتقد أنني قادر على فعل أي شيء. ولكن الشيء الذي تتهمينني به، ببساطة لا أستطيع فعله. أعلم ذلك الآن. لذا، أشكركما كلاكما. وداعًا.»

ثم خرج، وأغلق الباب خلفه بصمت.

تنهد جيرالت.

قال وهو ينظر إلى حوض الماء الدافئ: «هل علينا أن نخلع ملابسنا؟ فكرة أن يتم انتشالي من هنا كجثة عارية لا تثير حماسي كثيرًا.»

قالت ينيفر بلا مبالاة، وهي تخلع خفيها وتفك فستانها بحركات سريعة: «وهل تصدق؟ بالنسبة لي، الأمر سيان. حتى لو كان هذا حمامي الأخير، فلن أستحم بملابسي.»

نزعت بلوزتها من فوق رأسها، ودخلت الحوض، متناثرة الماء بقوة.

«حسنًا، جيرالت؟ لماذا تقف هناك كتمثال؟»

قال بصوت هادئ، وهو يتأملها: «لقد نسيت كم أنتِ جميلة.»

ابتسمت بخفة: «تنسى بسهولة. هيا، انزل إلى الماء.»

وعندما جلس بجانبها، أحاطت عنقه بذراعيها فورًا.

قبّلها، يده تتجول على خصرها، فوق الماء وتحته.

«هل هذا،» سأل جيرالت شكليًا، «وقت مناسب؟»

تمتمت ينيفر، بينما وضعت يدها تحت الماء ولمسته: «أي وقت هو الوقت المناسب لهذا. إمير كرر مرتين أننا لسنا بحاجة للعجلة. كيف تفضل قضاء الدقائق الأخيرة الممنوحة لك؟ بالنحيب والعويل؟ هذا غير لائق، أليس كذلك؟ بمراجعة ضميرك؟ هذا مبتذل وغبي، أليس كذلك؟»

قال جيرالت بهدوء: «لم أقصد ذلك.»

«إذًا ماذا كنت تقصد؟»

تمتم جيرالت، بينما كانت يده تلامس صدرها: «الجروح ستكون مؤلمة إذا برد الماء.»

وضعت ينيفر يدها الأخرى في الماء وقالت: «الألم ثمن يستحق الدفع...» ثم أضافت بصوت خافت، لكن حازم، «...مقابل اللذة. هل تخاف من الألم؟»

«لا.»

«ولا أنا.»

ثم تمتمت، بنبرة تحمل مزيجًا من الحب والتحدي: «اجلس على حافة الحوض. أحبك، لكنني لن أفعل ذلك تحت الماء اللعين.»

«يا إلهي، يا إلهي،» تمتمت ينيفر، مائلة رأسها إلى الخلف، تاركة شعرها المبلل بالبخار يتدلى فوق الحافة مثل أفاعٍ سوداء صغيرة. «يا إلهي... آه.»

قال جيرالت: «أحبكِ، يين.»

قالت ينيفر: «وأنا أحبك، جيرالت.»

* * *

قال جيرالت بهدوء: «لقد حان الوقت. سنناديهم.»

قالت ينيفر: «سنناديهم.»

ناديا. أولًا نادى الويتشر، ثم نادت ينيفر. ثم، عندما لم يسمعا أي استجابة، صرخا معًا بصوت واحد:

«الآن! نحن جاهزان! أعطونا السكين! هيبي! اللعنة! الماء يبرد!»

* * *

نظرت سيري إلى الداخل من الباب، ثم قالت ببرود: «اخرجوا من هناك. لقد رحلوا جميعًا.»

«ماذا؟»

«أقول لكم، لقد ذهبوا. لم يبقَ هنا أحد على قيد الحياة سوانا نحن الثلاثة. ارتدوا ملابسكم. تبدوان مضحكين جدًا كما أنتما.»

بينما كانوا يرتدون ملابسهم، بدأت أيديهم ترتجف...يد جيرالت ويد ينيفر على حد سواء. كانت الخطافات والأزرار والمشابك تبدو فجأة معقدة بشكل غير مفهوم. أما سيري، فكانت تثرثر دون توقف.

«لقد رحلوا. هكذا فقط. جميعهم، بكل عددهم. أخذوا كل من كان هنا، وامتطوا خيولهم ورحلوا. بأقصى سرعة ممكنة.»

سأل جيرالت، وهو بالكاد يصدق: «لم يتركوا أحدًا؟»

«لا أحد على الإطلاق.»

همس جيرالت بدهشة: «هذا مذهل. مذهل.»

تساءلت ينيفر، محاوِلة أن تخفي قلقها: «هل حدث شيء...» سعلت قليلًا قبل أن تكمل «...يبرر ذلك؟»

أجابت سيري بسرعة: «لا، لم يحدث شيء.»

لقد كانت تكذب.

* * *

في البداية، حاولت التظاهر بالشجاعة.

مرفوعة القامة، برأس منتصب بغطرسة ووجه متحجر، دفعت بعيدًا الأيدي المغلفة بالقفازات لفرسان العباءات السوداء، متحديةً بنظرتها الجريئة واقيات الأنوف والمغافر المهددة لخوذهم.

لم يجرؤ أحد على لمسها مجددًا، لا سيما بعد أن أوقفهم زجرٌ غاضب من ضابط، جندي عريض المنكبين، بشرائط فضية وريشة بلشون بيضاء على خوذته.

سارت نحو المخرج، محاطة من الجانبين. رأسها ما زال مرفوعًا بفخر.

دوت خطوات الأحذية الثقيلة، واصطكت الدروع البريدية، وطنّت الأسلحة وهي تتمايل مع المشي.

بعد عدة خطوات، نظرت إلى الخلف لأول مرة.

وبعد خطوات أخرى، نظرت مرة ثانية.

لماذا؟ لن أراهم مجددًا أبدًا، أبدًا.

انطلقت الفكرة في رأسها بوضوح مخيف وبارد كالنصل. لا جيرالت، ولا ينيفر. أبدًا.

ذلك الإدراك، في لحظة واحدة، مسح تمامًا قناع الشجاعة الزائف.

تشنج وجه سيري، وانكمش، وامتلأت عيناها بالدموع، وبدأ أنفها يسيل.

حاربت بكل قوتها، لكن بلا جدوى. اجتاحتها موجة بكاء كسرت سد التظاهر.

نظر إليها النيلفجارديين، ذوو شارات السلمندر على عباءاتهم، في صمت وذهول.

بعضهم رآها على الدرج الدموي، جميعهم رأوها وهي تتحدث مع الإمبراطور. فتاة الويتشر، تحمل السيف، التي لم تُقهر، التي تحدّت الإمبراطور في وجهه بغطرسة.

والآن، ها هم يرون طفلة تبكي، أنفها يسيل وهي تنتحب.

كانت تشعر بذلك. نظراتهم تحرقها كالنار، تلسعها كالإبر.

قاومت، لكن بلا فائدة.

كلما حاولت حبس دموعها، انفجرت بقوة أكبر.

تباطأت، ثم توقفت.

فتوقفت الحراسة معها، لكن للحظة فقط.

عند سماع الأمر الغاضب للضابط، قبضت عليها أيادٍ حديدية من أعلى ذراعيها ورسغيها.

بين شهقاتها وبكائها الذي حاولت كتمانه، نظرت سيري إلى الخلف للمرة الأخيرة.

ثم بدأوا في جرها.

لم تقاوم، لكنها بكت بصوت أعلى، وأعلى، بمرارة متزايدة ويأس غامر.

أوقفهم الإمبراطور إمير فار إمريس، ذلك الرجل ذو الشعر الداكن والوجه الذي أيقظ في داخلها ذكريات غامضة ومبهمة.

بأمر مقتضب منه، أطلقوا سراحها.

شَهَقَت سيري، ومسحت عينيها بكمّها.

وعندما رأته يقترب، توقفت عن النحيب، ورفعت رأسها بغطرسة.

لكنها أدركت في تلك اللحظة كم بدا ذلك سخيفًا.

نظر إليها إمير طويلًا. بصمت.

ثم اقترب منها.

ومدّ يده نحوها.

لطالما كانت سيري تبتعد لا إراديًا عن أي يد تمتد نحوها، لكنها الآن، لدهشتها الكبيرة، لم تفعل.

ولدهشتها الأكبر، لم تجد لمسته غير مريحة على الإطلاق.

لامس شعرها، وكأنه يعدّ الخصلات البيضاء الثلجية التي خطّت رأسها.

مرر أصابعه على خدها، حيث الندبة التي شوهته.

ثم ضمّها إليه، ومسح على رأسها وظهرها.

وهي، المُستغرقة في البكاء، تركته يفعل، رغم أن ذراعيها بقيتا متصلبتين كفزاعة الحقول.

سمعته يهمس:

«إنه لأمر غريب، هذا القدر.»

ثم قال بصوت خافت، يكاد يكون غير مسموع:

«وداعًا، ابنتي.»

«ماذا قال؟»

تشنج وجه سيري قليلًا.

«قال: va faill, luned. بلغة الإلدر، تعني: وداعًا، يا فتاة.»

أومأت ينيفر برأسها: «أعلم. وماذا بعد؟»

«ثم... ثم تركني. استدار ومشى بعيدًا. صرخ ببعض الأوامر. ثم رحل الجميع. مروا بجانبي بلا أي اكتراث، أصوات خطواتهم الثقيلة ودوي دروعهم تتردد في الممر. امتطوا خيولهم ورحلوا، سمعت صهيل الخيول ودكّ حوافرها. لن أفهم هذا أبدًا. لأنه لو كنت سأفكر في الأمر...»

«سيري.»

«ماذا؟»

«لا تفكري في الأمر.»

* * *

«قلعة ستيغا،» كررت فيليبا إيلهارت، وهي تنظر إلى فرينجيلا فيجو من تحت رموشها.

لم تحمرّ خجلًا. خلال الأشهر الثلاثة الماضية، تمكنت من تحضير كريم سحري يجعل الأوعية الدموية تنقبض. بفضل ذلك الكريم، لم تكن تحمرّ، مهما كان إحراجها شديدًا.

«كان مخبأ فيلغيفورتز في قلعة ستيغا،» أكدت أسيريه فار أناهيد. «في إيبينج، فوق بحيرة جبلية، لم يستطع مخبري، وهو جندي بسيط، تذكر اسمها.»

«قلتِ: كان...» لاحظت فرانسيسكا فيندابير.

قاطعتها فيليبا: «كان، لأن فيلغيفورتز قد مات، يا سيداتي العزيزات. هو وكل أعوانه، عصابته بأكملها لم تعد موجودة. ذلك الفضل يعود إلى صديقنا الطيب، الويتشر، جيرالت من ريفيا. الذي لم نقدّره حق قدره. لا أي واحدة منا. الذي أخطأنا جميعًا بشأنه. بعضنا أقل من غيره، والبعض أكثر.»

نظرت جميع الساحرات إلى فرينجيلا فيجو في وقت واحد، لكن الكريم أثبت فاعليته بالفعل.

تنهدت أسيريه فار أناهيد، بينما ضربت فيليبا بيدها على الطاولة.

قالت بجفاف: «رغم أن كثرة المهام المرتبطة بالحرب والاستعدادات لمفاوضات السلام تعذرنا، يجب أن نعترف بأن تعرضنا لمثل هذه المناورة الكاملة في قضية فيلغيفورتز هو هزيمة لأخويتنا. وهذا يجب ألا يتكرر أبدًا، سيداتي العزيزات.»

أومأت الأخوية بالموافقة، باستثناء فرينجيلا، التي كانت شاحبة كرماد.

تابعت فيليبا: «الآن، الويتشر جيرالت موجود في مكان ما في إيبينج. برفقة ينيفر وسيري، اللتين حررهما. علينا أن نفكر في كيفية العثور عليهم...»

قاطعتها سابرينا غليفيسيج: «وتلك القلعة؟ ألم تنسي شيئًا، فيليبا؟»

قالت فيليبا بهدوء: «لا، لم أنسَ. الأسطورة، إن كان لا بد أن تنشأ، يجب أن يكون لها رواية واحدة دقيقة. ولهذا، أود أن أكلفكِ بالأمر، سابرينا. خذي كايرا وتريس معكِ. حسموا المسألة. تأكدوا من أن لا أثر يبقى فيها»

* * *

دوى هدير الانفجار حتى وصل إلى مايخت، وكان وميضه — بما أنه وقع ليلًا — مرئيًا حتى في ميتنّا وجيسو.

سلسلة الهزات التكتونية اللاحقة كانت محسوسة على نطاق أوسع، أبعد من ذلك.

إلى أقاصي العالم.

كونغريف، إستيلّا أو ستيلا، ابنة البارون أوتو دي كونغريف، كانت مخطوبة إلى كونت ليدرتال، وبعد وفاته المبكرة أدارت أملاكه بذكاء شديد، مما مكّنها من جمع ثروة ضخمة.

حظيت بمكانة عالية في نظر الإمبراطور إمهر فار إمريس (انظر أيضًا)، وكانت شخصية مهمة للغاية في بلاطه.

ورغم أنها لم تشغل أي منصب رسمي، إلا أنه كان معروفًا أن الإمبراطور كان يولي صوتها ورأيها اهتمامًا بالغًا.

بسبب محبتها العميقة للإمبراطورة الشابة سيريلّا فيونا (انظر أيضًا)، التي أحبتها كابنتها الخاصة، أُطلق عليها مازحًا لقب "الإمبراطورة الأم."

بعد أن نجت من كلٍّ من الإمبراطور والإمبراطورة، توفيت في عام 1331، وورّثت ثروتها الطائلة لأقارب بعيدين، وهم فرع جانبي من عائلة ليدرطال يُعرفون بـ "الليدرطال البيض."

لكن هؤلاء، نظرًا لطيشهم وسوء إدارتهم، بددوا الثروة بالكامل.

إيفنبيرج وتالبوت، الموسوعة الكبرى للعالم، المجلد الثالث

الفصل العاشر

كان الرجل الذي يتسلل إلى المخيم - للإنصاف - رشيقاً وماكراً كالثعلب، إذ غيّر موقعه بسرعة كبيرة وتحرك برشاقة وهدوء، لدرجة أنه كان بإمكانه التسلل إلى أي مكان دون أن ينتبه له أي شخص. أي شخص.

لكن ليس بورياس مون، إذ كان لدى بورياس مون خبرة كبيرة في أمور التتبع.

صاح قائلاً: "اخرج، يا رفيق!"

حاول جاهداً أن يلون صوته بالثقة والغطرسة المطمئنة قائلاً: "حيلك هذه بلا جدوى، أنا أراك، أنت هناك."

إرتجفت إحدى الصخور العملاقة، التي كانت تبرز كتلالها على سفح التل، مواجهة السماء الزرقاء العميقة المرصعة بالنجوم. وتحركت ليبرز شكلاً بشرياً.

قلّب بورياس بعض اللحم المشوي على سيخ، عندما شم رائحة احتراق. ووضع يده على قوسه، متظاهراً بالاتكاء بلا مبالاة.

أكمل قائلاً: "ممتلكاتي قليلة."

نسج خيطاً خشناً معدنياً من التحذير في نبرته الهادئة على ما يبدو قائلاً: "هناك القليل منها. لكنني متعلق بها. سأدافع عنها حتى الموت."

قال الرجل، الذي تظاهر بأنه صخرة، بصوت عميق: "أنا لست لصاً. أنا حاج."

كان الحاج طويلاً وقوي البنية، يصل طوله بسهولة إلى سبعة أقدام، وكان بورياس سيراهن على أي شيء أن وزنه لا يقل عن خمسة وعشرين حجراً لموازنته على ميزان. كانت عصاة الحاجّ أشبه بعمود بسمك عمود عربة، لكنها بدت كعصا مشي في يده.

تعجب بورياس مون حقاً كيف استطاع هذا العملاق أن يتسلل برشاقة كهذه، كما شعر ببعض القلق. عندما لاحظ قوسه الذي كان يمكنه أن يسقط به أيلاً من مسافة أربع عشرات خطوة، وقد بدا فجأة كلعبة أطفال صغيرة هشة.

كرر الرجل القوي قائلاً: "أنا حاج. لا أقصد.."

قاطعه بورياس بحدة قائلاً: "والرجل الآخر. دعوه يخرج أيضاً."

تلعثم الحاج قائلاً: "أي رجل آخ ... " وتوقف، حين رأى ظلاً نحيفاً، صامتاً كالظل، يظهر من الظلام على الجانب الآخر.

هذه المرة لم يندهش بورياس مون على الإطلاق. كان الرجل الآخر الذي كشفته طريقته في الحركة فوراً لعين المتتبع المدربة – إلفاً. وليس من العار أن يتسلل إليك إلف.

قال الإلف بصوت غريب، ليس إلفياً تماماً، خشن قليلاً: "أرجو أن تسامحوني. لقد اختبأت من كلاكما، أيها السادة ليس بنوايا شريرة، بل خوفاً. حبذا لو قلبت ذلك السيخ حتى لايحترق."

قال الحاج وهو يتكئ على عصاه ويشم بصوت مسموع: "بالفعل. اللحم قد نضج أكثر من اللازم على هذا الجانب."

قلّب بورياس السيخ، تنهد وتنحنح بحنجرته. ثم تنهد مرة أخرى.

قال وقد اتخذ قراره: "اجلسا، أيها السادة. وانتظرا. سينضج الحيوان في أي لحظة. ها، حقاً، إنه من الحمق أن يرفض المرء مشاركة اللحم المسافرين على الطريق."

تقطّر الدهن على النار مع فحيح، واشتعلت النار. أصبح المكان أكثر إضاءة.

كان الحاج يرتدي قبعة لبادية ذات حافة عريضة، كان ظلها يغطي وجهه بفعالية كبيرة. كان عمامة مصنوعة من قماش ملون، لا تغطي وجهه، بمثابة غطاء رأس للإلف. عندما رأيا وجهه في وهج نار المخيم، ارتجف كل من الرجلين – بورياس والحاج. لكنهما لم ينطقا حتى بأنّة خافتة، عند رؤية الوجه، الذي كان يوماً ما جميلاً بلا شك على الطراز الإلفي، والآن بدا مشوهاً بندبة بشعة تمتد قطرياً عبر جبهته، حاجبه، أنفه، وخده إلى ذقنه.

صحح بورياس مون حنجرته وقلّب السيخ مرة أخرى.

قال، مؤكداً أكثر من أن يسأل: "هذه الرائحة الشهية يبدو أنها قد جذبتكما إلى نار مخيمي. أليس كذلك، أيها السادة؟"

قال الحاج وهو يميل حافة قبعته وتغير صوته قليلاً: "بالفعل. شممت رائحة الشواء من بعيد، بكل تواضع. لكنني بقيت حذراً. كانوا يشوون امرأة على نار مخيم اقتربت منه قبل يومين."

أكد الإلف قائلاً: "هذا صحيح. كنت هناك في الصباح التالي، رأيت عظاماً بشرية في الرماد."

كرر الحاج بصوت بطيء وممدود قائلاً: "في الصباح التالي." وكان بورياس سيراهن على أي شيء أن ابتسامة سيئة قد ظهرت على الوجه المخفي بظل القبعة.

قال الإلف: "نعم."

سأل الحاج: "وما الذي منعك من الكشف عن نفسك؟"

أجاب الإلف: "العقل السليم."

قال بورياس مون وهو يقلب السيخ ويقاطع الصمت المحرج: "ممر إلسكيرديغ مكان لا يتمتع بأفضل سمعة. لقد رأيت أيضاً عظاماً على نار المخيمات، وهياكل عظمية على أوتاد. ورجال معلقون على الأشجار. هذا المكان مليء بأتباع الطوائف القاسية المتوحشين وكائنات تنتظر فقط لتأكلك. وفقاً لما يُقال."

قال الإلف مصححاً: "هذا ليس مجرد قيل وقال، للأسف إنها الحقيقة، وكلما اتجهت أكثر إلى الجبال نحو الشرق، سيزداد الأمر سوءاً."

سأل بورياس: "هل أنتما، أيها السادة، متجهان أيضاً شرقاً؟ ما وراء إلسكيرديغ؟ إلى زيريكانيا؟ أو ربما أبعد من ذلك، إلى هاكلاند؟"

لم يرد لا الحاج ولا الإلف. لم يكن بورياس يتوقع إجابة حقاً. أولاً، كان السؤال غير لبق. ثانياً، كان سخيفاً. من حيث كانوا، لم يكن من الممكن سوى العودة أو التوجه شرقاً. عبر إلسكيرديغ. حيث كان هو متجهاً أيضاً.

قال بورياس: "الشواء جاهز." فتح سكيناً ببراعة، محاولاً إثارة الإعجاب. ثم قال: "تفضلا، أيها السادة. خذا حاجتكما."

كان لدى الحاج سيف قصير، ولدى الإلف خنجر، لم يشبه أيضاً سكين مطبخ على الإطلاق. لكن الشفرات الثلاث، المشحوذة لأغراض أكثر تهديداً، خدمت في تقطيع اللحم في ذلك اليوم. لفترة، كان كل ما يُسمع هو الطحن والمضغ. وحفيف العظام الممضوغة التي أُلقيت في الجمر.

تجشأ الحاج بطريقة كريمة.

قال وهو يتفحص عظم الكتف الذي نَهَشَه حتى نظفَه ولعقه حتى بدا كما لو كان محفوظاً لثلاثة أيام في عش نمل: "مخلوق صغير غريب. طعمه يشبه الماعز قليلاً، وكان طرياً كالأرنب... لا أتذكر أنني أكلت شيئاً كهذا."

قال الإلف وهو يطحن الغضروف بصوت طقطقة: "كان ذلك سكريك. ولا أتذكر أنني أكلته في أي وقت."

قام بورياس بمسح حلقه بهدوء.

تلك النغمة الخافتة المملوءة بسخرية مرحة في صوت الألف، أثبتت أنه كان يعلم أن الشواء جاء من فأر هائل ذي عينين متورمتين بالدم وأسنان هائلة، حيث قاس ذيلها وحده ثلاثة أذرع.

لم يكن المتبع على الإطلاق قط صيد مثل هذا الكائن بحجم هائل. لقد أطلق النار عليه دفاعًا عن نفسه، لكنه قرر شوائه. كان رجلاً عاقلاً وذكيًا. لم يكن ليأكل فأرًا يتغذى على قمامة ويأكل بقايا. لكن كان هناك نحو ثلاثمائة ميل من الممر الضيق لمعبر إسكيرديغ إلى أقرب مجتمع قادر على إنتاج النفايات. كان الفأر — أو، كما قال الألف، سكريك — يجب أن يكون نظيفًا وصحيًا. لم يكن قد تعرض لأي اتصال بالحضارة. لذا، لم يكن هناك شيء يمكن أن يتلوث به أو يصاب به.

سرعان ما سقط العظم الأخير، الأصغر، الممضوغ والمُمتص حتى النهاية، في الجمر. ارتفعت القمر فوق سلسلة الجبال المتقطعة لجبال النار. غذى الريح النار، وانطلقت شرارات، انطفأت وتلاشت وسط النجوم المتلألئة العديدة.

قال بورياس مون، مخاطبًا برفق: "طويلة هي الطريق، أيها السادة؟" وسأل سؤالًا آخر لم يكن دقيقًا جدًا: "هنا، في البراري؟ هل تركتم بوابة سولفيغا خلفكم منذ زمن بعيد، إن سمحتم لي بالسؤال؟"

رد الحاج: "منذ زمن بعيد، منذ زمن بعيد، شيء نسبي. مررت بسولفيغا في اليوم الثاني بعد بدر سبتمبر."

قال الألف: "أما أنا، ففي اليوم السادس."

تابع بورياس مون، مشجعًا بالرد: "هاه، إنه أمر مدهش أننا التقينا الآن فقط، لأنني أيضًا سيرت ذلك الطريق، أو بالأحرى ركبت، فقد كان لدي حصان آنذاك."

سكت، مدفوعًا ليطرد الأفكار وذكريات الشعور السيئة المرتبطة بالحصان وفقدانه. كان متأكدًا أن رفيقيه العَرَضيين كان لديهم مغامرات مماثلة. لو كانا يمشيان طوال الوقت، لما لحقا به هنا، بالقرب من إلسكيرديغ.

استطرد: "أجزم، إذًا، أنكما انطلقتم مباشرة بعد الحرب، بعد توقيع سلام سينترا، أيها السادة. ليس من شأني، بالطبع، لكن أجرؤ على الافتراض أنكما لم تكونا راضيين عن النظام ورؤية العالم التي تم إنشاؤها وإقامتها في سينترا."

إنقطع الصمت الطويل الذي حل حول نار المعسكر بزئير ذئب آتٍ من بعيد، على الأرجح. على الرغم من أنه بالقرب من معبر إلسكيرديغ، لم يمكن أبدًا التأكد.

قال الألف بشكل مفاجئ: "إذا كنت سأكون صريحًا، لم يكن لدي أسباب لأكون راضيًا عن العالم وصورته بعد سلام سينترا. دون أن أذكر النظام الجديد."

قال الحاج، معتضداً ذراعيه القويَّين على صدره بشكل متقاطع: "في حالتي كان الأمر مشابهًا. على الرغم من أنني أدركت ذلك، كما قال صديق، بعض الحقيقة."

استمر الصمت طويلًا. حتى ما كان يزأر في المعبر سكت.

تابع الحاج — على الرغم من أن بورياس والألف كانا مستعدين للمراهنة على أنه لن يفعل — "في البداية، كل شيء كان يشير إلى أن سلام سينترا سيجلب تغييرات مواتية، سينشئ نظامًا عالميًا مقبولًا إلى حد ما. إن لم يكن للجميع، فأقلها لي..."

مسح بورياس حلقه، قائلاً: "إذا كانت ذاكرتي تخدمني وصلوا الملوك إلى سينترا في أبريل؟"

صححه الحاج: " كان الثاني من أبريل، بدقة، أتذكر أن البدر كان كاملًا."

* * *

على طول الجدران، معلقة أسفل العوارض الخشبية الداكنة التي تدعم رواقاً صغيرًا، كانت صفوف من الدروع تحمل تمثيلات ملونة للرموز والشعارات الأسرية لأرستقراطية سينترا. ومن النظرة الأولى، يمكن ملاحظة الفروق بين الشعارات الباهتة الآن للعائلات القديمة وتلك الخاصة بالعائلات التي حصلت على النبل مؤخرًا خلال عهود داجوراد وكالانثي. كانت الشعارات الأحدث ذات ألوان زاهية ولم تتعرض بعد للتشقق، ولم تظهر عليها أي ثقوب ناتجة عن خنافس الخشب.

أما الشعارات الخاصة بالعائلات النبيلة الجديدة من نيلفجارد، والتي كوفئت خلال الاستيلاء على القلعة والإدارة الإمبراطورية التي استمرت لخمس سنوات، فكانت تحمل الألوان الأكثر إشراقًا.

"عندما نستعيد سينترا"، قال الملك فولتيست لنفسه "سيكون من الضروري التأكد من أن السينتريين لن يدمروا تلك الدروع في حماسة التجديد. " السياسة شيء، وزخرفة القاعة شيء آخر، لا يمكن لتغيير الأنظمة أن يكون مبررًا للتخريب.

"إذن كل شيء بدأ هنا"، فكر ديكسترا وهو ينظر حول القاعة الكبرى "الوليمة، الخطوبة الشهيرة، حيث ظهر الشاب ذو رأس القنفذ وطالب بيد الأميرة بافيتا ... والملكة كالانثي استدعت الويتشر... كم هي غريبة التقلبات في مصير الإنسان"، كان متفاجئًا من سذاجة أفكاره آنذاك.

بينما كانت الملكة ميف تقول لنفسها "قبل خمس سنوات، تناثر دماغ كالانثي، لبوة سينترا على أرضية الفناء، هذا الفناء الذي أراه من النوافذ. كالانثي، التي رأينا صورتها الفخورة في الممر، كانت الحاملة ما قبل الأخيرة للدم الملكي. بعد غرق ابنتها بافيتا، لم يتبقَ سوى حفيدتها. سيريلا. إلا إذا كانت الأخبار التي تفيد بأن سيريلا ماتت أيضًا صحيحة".

قام كيريس إنجلكايند هيملفارت، الحبر الأعظم ورئيس الكنيسة في نوفيغراد، والذي تم اختياره بالإجماع بسبب عمره، موقعه، والاحترام العالمي له كرئيس للقاء، أشار بيده المرتعشة:

"أرجوكم .. أرجوكم، اجلسوا في أماكنكم".

وجدوا مقاعدهم، التي كانت معلمة بألواح من خشب الماهوغاني، وجلسوا حول الطاولة المستديرة. ميف، ملكة ريفيا وليبيريا. فولتست، ملك تمريا، وتابعه الملك فينسلاف من بروج. ديمافيند، ملك أيدرن. هنسلت، ملك كيدوين. الملك إيثين من سيداريس. الشاب الملك كسترين من فيردن. الدوق نيتيرت، رئيس مجلس الوصاية في ريدانيا. والكونت ديكسترا.

"يجب أن نتخلص من ذلك الجواسيس، وأن نبعده عن طاولة المؤتمر"، فكر الحبر الأعظم. الملك هنسلت والملك فولتيست، بل حتى الشاب كسترين، قد تجرأوا على تقديم تعليقات لاذعة، لذلك من المحتمل أن يأتي تحرك دبلوماسي في أي لحظة من قبل ممثلي نيلفجارد. سيغسموند ديكسترا هو شخص من أصول غير لائقة، بالإضافة إلى أنه شخص ذو ماضٍ قذر وسمعة سيئة، شخصية مشينة. لا يمكن السماح بأن يلوث وجود شخصية مشينة أجواء المفاوضات.

رئيس الوفد النيلفجاردي، البارون شيلارد فيتز-أوسترلين، الذي خُصص له مكان على الطاولة المستديرة مباشرة مقابل ديكسترا، حيّا الجاسوس بانحناءة دبلوماسية مهذبة.

عندما رأى الجميع جالسين، جلس الحبر الأعظم لنوفيغراد أيضًا. ولم يكن ذلك دون مساعدة صبية يدعمون ذراعيه المرتجفتين. جلس الحبر الأعظم على كرسي كان قد صنع منذ سنوات عديدة للملكة كالانثي. كان للكرسي ظهر مرتفع ومزخرف بشكل غني، مما جعله يبرز بين الكراسي الأخرى.

* * *

إذن كان هنا، فكرت تريس ميريجولد وهي تنظر حول الغرفة، محدقة في السجاد المزخرف، اللوحات العديدة، والكؤوس الصيد الكثيرة، وقرون حيوان غير معروف لها تمامًا.

كان هنا، بعد الفوضى المشهورة في قاعة العرش، حيث جرت تلك المحادثة الخاصة الشهيرة بين كالانثي، والويتشر، وبافيتا، والقنفذ المسحور. عندما أعطت كالانثي موافقتها على ذلك الزواج الغريب. وبافيتا كانت حاملًا بالفعل. وُلدت سيري بعد حوالي ثمانية أشهر... سيري، وريثة العرش... الشبلة الصغيرة من دم لبوة سينترا... سيري، أختي الصغيرة، التي ما زالت بعيدة في الجنوب. لحسن الحظ، لم تعد وحدها. إنها مع جيرالت وينيفر. إنها بأمان. ما لم يكونوا قد كذبوا عليّ مرة أخرى.

"اجلسي يا سيداتي العزيزات"، قالت فيليبا إيلهارت التي كانت تراقب تريس عن كثب منذ فترة. "بعد قليل سيبدأ حكام العالم بإلقاء خطبهم الافتتاحية واحدًا تلو الآخر؛ لا أريد أن أفوّت كلمة واحدة".

الساحرات، بهمسهن الخفي، جلسن بسرعة في أماكنهن. شيلا دي تانكارفيل، مرتدية قبعة من فرو الثعلب الفضي، مما أضاف لمسة أنثوية إلى زيّها الرجالي الجاد. أسيريه فار أناهيد، مرتدية فستانًا من حرير بنفسجي، يجمع بتناغم شديد بين البساطة المتواضعة والأناقة العصرية. فرانسيسكا فيندابير، ملكية كما هي عادتها دائمًا. إيدا إيمين آب سيفني، غامضة كما اعتادت أن تكون. مارغريتا لاوكس-

أنتيل، راقية وجادة. سابرينا غليفيسيغ متشحة باللون الفيروزي. كيرا ميتز باللون الأخضر والأصفر النرجسي. وفرنجيلا فيغو. منحنية الرأس. حزينة. وشاحبة بشحوب موتّر حقًا، مرضي، مروع تمامًا.

كانت تريس ميريجولد تجلس بجانب كيرا، مقابلة فرينجيلا. لوحة تصور فارسًا يسابق حصانه بجنون عبر طريق محاط بأشجار الألدر معلقة فوق رأس الساحرة النيلفجاردية. كانت أشجار الألدر تمد أغصانها الشبيهة بالذراعين الوحشية نحو الفارس، مبتسمة بخبث بفمٍ مخيف من تجاويفها. ارتجفت تريس دون إرادتها.

كان جهاز الاتصال السحري متعدد الأبعاد الموضوع في منتصف الطاولة نشطًا. استخدمت فيليبا إيلهارت تعويذة لتركيز الصورة والصوت.

* * *

"سيداتي، كما ترين وتسمعن"، قالت بسخرية واضحة لا تخطئها الأذن، "إن حكام العالم في هذه اللحظة بالذات قد بدأوا يقررون مصير هذا العالم في قاعة العرش في سينترا، الموجودة مباشرة أسفل منا، طابقًا واحدًا تحتنا. وأما نحن، هنا فوقهم بطابق واحد، فسنراقب كي لا يتجاوز الأولاد حدودهم."

* * *

انضمّت أصوات عواء أخرى إلى العواء الذي كان يتردّد في "إلسكيرديغ". لم يكن لدى "بورياس" أدنى شك.

لم يكونوا ذئابًا.

قال، محاولًا إحياء المحادثة التي ماتت منذ لحظات:

"لم أكن أتوقع الكثير من تلك المحادثات السينترانية أيضًا."

ثم أضاف: "في الواقع، لا أعرف أحدًا كان يتوقع خيرًا منها."

اعترض الحاج بهدوء، قائلاً:

"إن مجرد بدء المفاوضات كان أمرًا ذا أهمية." ثم تابع: "الرجل البسيط — وأنا بالفعل رجل بسيط، إن جاز لي القول — يفكر ببساطة. والرجل البسيط يدرك أن الملوك والأباطرة المتحاربين ليسوا غاضبين

بشدة من بعضهم كما قد يبدو. لو كان بوسعهم ذلك، ولو امتلكوا القوة الكافية، لكانوا قد قتلوا بعضهم البعض منذ زمن. غير أنهم توقفوا عن محاولة قتل بعضهم البعض، وبدلًا من ذلك، جلسوا حول طاولة مستديرة؟ هذا يعني ببساطة أنهم فقدوا قدرتهم على القتال. لقد أصبحوا، ببساطة، عاجزين. ونتيجةً لهذا العجز، لم تعد هناك جيوش تهاجم بيوت البسطاء، لم يعد هناك قتل، لا تشويه، لا إحراق للمنازل، لا ذبح للأطفال، لا اغتصاب للنساء، ولا سوق للبشر نحو العبودية. لا، بدلًا من ذلك، اجتمعوا في سينترا وأخذوا يتفاوضون. فلنفرح بهذا!"

أنهى القزم تقليب جذع الحطب بعصاه في النيران التي كانت تتطاير منها الشرارات، ثم نظر إلى الحاج بطرف عينه قائلاً بسخرية غير مخفية:

"حتى الرجل البسيط، حتى لو كان سعيدًا، بل حتى لو كان منتشيًا من الفرح، ينبغي عليه أن يفهم أن السياسة هي حرب، لكنها تُدار بأسلوب مختلف قليلًا. عليه أن يدرك أن المفاوضات تشبه التجارة، كلاهما يسير بنفس الآلية الذاتية. النجاحات في المفاوضات تُشترى بالتنازلات. تربح شيئًا، وتخسر شيئًا. وبمعنى آخر، لكي يتم شراء البعض، يجب بيع آخرين."

ظل الحاج صامتًا للحظات، ثم قال أخيرًا:

"بالفعل. إنه أمر بسيط وواضح لدرجة أن كل إنسان يفهمه... حتى البسيط منهم."

* * *

صرخ الملك هنسلت واضعًا كلا قبضتيه على الطاولة بقوة حتى أطاح بكأس وجعل أحبار الكتابة تقفز. "لا، لا، وألف مرة لا! لا مناقشات حول هذا الموضوع! لا مساومات في هذه المسألة! هذا هو النهاية، تمامًا، ديرياد!"

تحدث فولتيست بعقلانية وبالغ التهدئة: "هنسلت.. لا تجعل الأمور صعبة، ولا تحرجنا أمام سعادته بصراخك."

شيلارد فيتز-أوسترلين، المفاوض عن إمبراطورية نيلفجارد، انحنى بابتسامة زائفة كان يقصد بها أن حركات ملك كيدوين ليست مثيرة للصدمة ولا تزعجه.

استمر فولتيست: "نحن نتفاوض مع الإمبراطورية وفجأة بدأنا نعض بعضنا البعض كالكلاب؟ إنه عار ياهنسلت."

"لقد توصلنا إلى اتفاق مع نيلفجارد في قضايا صعبة مثل دول أنغر وريفرديل"، قال ديكسترا بأسلوب يبدو عرضيًا. "سيكون من الغباء.."

"لن أقبل مثل هذه التعليقات!" زمجر هنسلت، وهذه المرة بصوت عالٍ لدرجة أن حتى جاموسًا لم يكن ليضاهيه. "لن أتحمل مثل هذه التعليقات، خاصةً من الجواسيس، من بين كل الناس! أنا الملك، بحق الآلهة..!"

قالت ميف بسخرية: "هذا واضح تمامًا".

أما ديمافيند، الذي كان مستديرًا ظهره لهم، فقد كان ينظر إلى الشعارات على الحائط، مبتسمًا بازدراء، وكأن اللعبة لا تتعلق بمملكته.

قال هنسلت وهو يلهث، وعيناه تتجولان حول الغرفة:

"كفى ...كفى، كفى باسم الآلهة، وإلا سيغلي دمي. قلت: ولا حتى شبر واحد من الأرض. لا، بل لا، استعادة! لن أوافق على تقليص مملكتي بشبر واحد، حتى نصف شبر من الأرض! الآلهة ائتمنتني على شرف كيدوين ولن أسلمه إلا للآلهة! السهول السفلى هي أرضنا... أرضنا... إث... إيثنيك... أرض عرقية. السهول السفلى تنتمي إلى كيدوين منذ قرون..."

تحدث ديكسترا مرة أخرى:

"أيديرن العليا تنتمي إلى كيدوين منذ العام الماضي. وتحديدًا، منذ الرابع والعشرين من يوليو من العام الماضي. منذ اللحظة التي غزت فيها قوة الاحتلال الكيدوينية تلك المنطقة."

قال شيلارد فيتز-أوسترلين دون أن يُطلب منه:

"أطلب أن يتم تسجيل ذلك رسميًا للأجيال القادمة بأن إمبراطورية نيلفجارد لم يكن لها أي علاقة بتلك الضمية."

"باستثناء حقيقة أنهم كانوا ينهبون فينجربيرج في ذلك الوقت."

"لا علاقة له بالموضوع!"

"حقًا؟"

عاتبهم فولتيست: "ياسادة!".

قال هينسلت بصوت أجش:

"دخل الجيش الكيدويني إلى السهول السفلى كمحررين! جنودي استقبلوا بالورود هناك! جنودي..."

قاطعه صوت الملك ديمافيند الذي كان هادئًا، لكن من الواضح من وجهه مدى الجهد الذي كان يبذله:

"قطاع طرقك ... لصوصك الذين غزوا مملكتي بحملة قتل ودمار، قتلوا، اغتصبوا ونهبوا.

يا سادة! لقد اجتمعنا هنا ونحن نناقش منذ أسبوع ما يجب أن تكون عليه ملامح مستقبل العالم.

بحق الآلهة، هل ستوافقون على الجريمة والنهب؟ هل سيتم الحفاظ على الوضع القائم المليء بالقتل؟ هل ستبقى الغنائم في أيدي اللصوص والمرتزقة؟"

انتزع هنسلت خريطة من على الطاولة، مزقها بحركة عنيفة وألقى بها نحو ديمافيند. لم يتحرك الملك ديمافيند حتى.

قال هنسلت بصوت متقطع، ووجهه أصبح بلون النبيذ الأحمر الجيد:

"جيشي استعاد السهول السفلى من نيلفجارد.

مملكتك البائسة لم تكن حتى موجودة حينها، يا ديمافيند.

سأقول أكثر: لولا جيشي لما كنت لديك مملكة اليوم. أود أن أراك تطرد رجالات الملابس السوداء عبر نهر ياروجا وخارج دول أنغر بدون مساعدتي. لذلك، القول بأنك ملك بفضلي ليس مبالغة كبيرة. لكن هنا ينتهي كرمي!

قلت إنني لن أتنازل عن شبر واحد من أرضي. لن أدع مملكتي تتقلص."

قال ديمفند وهو ينهض: «ولا أنا!» ثم أردف: «إذن لن نتوصل إلى اتفاق!»

قال سيروس هيميلفارت، كبير كهّان نوفيغراد، الذي كان يغطّ في النوم حتى تلك اللحظة وبنبرةٍ تصالحية مفاجئة: «أيها السادة. لا شكّ أنّ هناك نوعًا من الحلّول الوسط ممكن...»

قال شيلارد فيتز-أوسترلن مجددًا، الذي كان يهوى التدخُّل على حين غرّة: «إنّ إمبراطورية نيلفغارد لن تقبل بأي اتفاقٍ يضرّ بأرض الجان في دول بلاثانا. وإذا لزم الأمر، فسأقرأ عليكم محتوى المذكّرة مرةً أخرى...»

شخر هنسلت وفولتست وديكسترا، لكن ديمفند نظر إلى السفير الإمبراطوري بهدوءٍ وبشيءٍ من الرضا.

قال ديمفند: «من أجل المصلحة العامة ومن أجل السلام، أنا أعترف باستقلالية دول بلاثانا. ليس كمملكة، بل كدوقية. والشرط هو أن تؤدي الدوقة إيند آن غليانا واجب الولاء لي، وأن تلتزم بمنح الحقوق والامتيازات المتساوية للبشر والجان. أنا مستعدّ لذلك، كما قلت، من أجل المصلحة العامة"

قالت ميف: «لقد تحدّثتَ كملكٍ حقيقي.»

قال كبير الكهّان هيميلفارت، الذي كان يبحث منذ وقتٍ عن فرصةٍ لاستعراض معرفته بالمصطلحات الدبلوماسية باللاتينية: «المصلحة العامة هي القانون الأسمى"

قال ديمفند وهو ينظر إلى هنسلت المتعجرف: «سأضيف، مع ذلك، أنّ التنازل بشأن دول بلاثانا ليس سابقةً. إنه التعدي الوحيد على سلامة أراضيَّ الذي سأقبل به. لن أعترف بأي تقسيمٍ آخر. أمام جيش كيدوين، الذي اقتحم حدودي بصفته معتديًا وغازيًا، أسبوعٌ واحدٌ لإخلاء الحصون والقلاع التي احتلها بشكلٍ غير شرعي في أعالي أيدرن. هذا هو شرط استمراري في المشاركة في هذا المؤتمر. ولأن الكلمات المنطوقة تزول والعبرة بماهو مكتوب، فسوف يرفع سكرتيري إلى المحضر خطوةً رسمية (بخصوص هذه المسألة.»

قال فولتست وهو ينظر بقلقٍ إلى الملك الملتحي: «هنسلت؟»

زأر ملك كيدوين وهو يطيح بكرسيٍّ ويقفز كأنه شمبانزيٌّ لدغته دبور: «أبدًا! لن أتخلى عن مناطق الحدود مطلقًا! فوق جثتي! أبدًا! لا شيء سيجبرني! لا قوّة! ولا أي قوّةٍ لعينة!»

ولكي يثبت أنّه أيضًا من عائلةٍ نبيلةٍ ومتعلم، رفع صوته بعبارة لاتينية: «لا نستطيع "

* * *

زمجرت سابرينا غليفيسيغ في الغرفة العلوية بغضب وقالت: «سأجعله يتجرّع المر ..لا نستطيع! .. أيها العجوز الأحمق!»

ثم أتبعت بلهجة حازمة: «لا تقلقن، يا سيّداتي، سأجبر ذلك البليد على الاعتراف بمطالب استرداد الأراضي في قضية أيدرن العُليا. سيغادر جيش كيدوين قبل مرور عشرة أيام. الأمر واضح، لا مجال للتردّد. وإن كانت إحداكن تشك في ذلك، فلها الحق أن تثير حنقي حقًا.»

أبدت فيليبا إيلهارت وشِيالا دي تانكارفيل موافقتهما بانحناءة، وقدّمت آسير فار أنهيد شكرها بابتسامة.

قالت سابرينا وهي تشيح بيدها: «لم يبقَ أمامنا اليوم سوى أن نحسم مسألة دول بلاثانا. نعرف محتوى المذكّرة التي بعث بها الإمبراطور إمير. أما الملوك في الأسفل، فلم ينالوا بعد فرصة مناقشة الأمر، لكنهم أعربوا عن مواقفهم. وأكثرُ الأطراف — كما أظن — اهتمامًا بالأمر قد أعلن موقفه إنه الملك ديمفند.»

قالت شيالا دي تانكارفيل وهي تلفّ وشاحها المصنوع من فرو الثعلب الفضي حول عنقها: «يحمل موقف ديمفند ملامح تسوية بعيدة المدى. إنه موقف إيجابي ومدروس ومتوازن. وسيجد شيلارد فيتز-أوسترلن صعوبة كبيرة في محاولة الدفع نحو تنازلاتٍ أكبر. لا أعلم إنْ كان يرغب في ذلك أصلًا.»

قالت: آسير فار أنهيد بهدوء: «سيفعل، لأن تلك هي التعليمات التي يحملها من نيلفجارد. سيطالب بالتريّث ويرفع مذكراتٍ رسمية. سيجادل على الأقل ليومٍ كامل. بعد انقضاء ذلك اليوم سيشرع في تقديم التنازلات...»

قاطعتها سابرينا غليفيسيغ قائلة: «هذا أمرٌ طبيعي؛ من الطبيعي أن يعثروا أخيرًا على أرضية مشتركة ويتفقوا على شيء. لكننا لن ننتظر ذلك، سنقرّر منذ الآن ما الذي سيسمح لهم بفعله في نهاية المطاف. فرانسيسكا! تكلّمي! فالأمر يخص بلدك في النهاية.»

ابتسمت زهرة الوديان، فرانسيسكا فيندابير، ابتسامةً فائقة الجمال وقالت بهدوء: «ولهذا السبب بالذات — فقط لهذا السبب — ألزم الصمت، يا سابرينا.»

قالت مارغريتا لوكس-أنتيل بجدية: «تغلّبي على كبريائك. علينا أن نعرف ما الذي يمكننا السماح للملوك به.»

ابتسمت فرانسيسكا فيندابير ابتسامةً أكثر إشراقًا وقالت: «من أجل السلام ومن أجل المصلحة العامة ، أوافق على عرض الملك ديمفند. ومن هذه اللحظة، يمكنكنّ التوقّف عن مخاطبتي بصاحبة السمو الملكي، يا عزيزاتي؛ تحية "صاحبة السمو النير" تكفي.»

قطّبت سابرينا جبينها وقالت بامتعاض: «نكات الجان لا تضحكني البتة، ربّما لأنني لا أفهمها. ماذا عن الشروط الأخرى لديمفند؟»

رفرفت فرانسيسكا بأهدابها وقالت بجدية: «أوافق على إعادة توطين المستوطنين البشريين وإرجاع ممتلكاتهم. وأضمن المساواة لجميع الأجناس...»

ضحكت فيليبا إيلهارت قائلة: «بحقّ الآلهة، إينيد، لا تقبلي بكل شيء! عليك فرض بعض الشروط!»

قالت الإلف وهي تشحذ نظرتها بجدية مفاجئة: «سأفعل. لن أقبل بأداء واجب الولاء الإقطاعي. أريد دول بلاثانا كعقارٍ مستقل، بلا التزاماتٍ إقطاعية سوى قسم الولاء، ودون أي إجراءاتٍ تضرّ بالحاكم المُسيطر.»

علّقت فيليبا بلهجةٍ مقتضبة: «لن يوافق ديمفند. لن يتنازل عن الدخل والإيجار الذي اعتادت وادي الأزهار أن تدرّه عليه.»

رفعت فرانسيسكا حاجبيها وقالت: «في هذه المسألة، أنا مستعدة للتفاوض الثنائي. أنا متأكدة من إمكانية التوصّل إلى توافق. الملكية الحرة لا تشترط الدفع، لكنها لا تحظره ولا تستبعده أيضًا.»

قالت فيليبا إيلهارت وهي تمضي في التنقيب: «وماذا عن الإرث العائلي؟ ماذا عن حق البِكْرِ في الوراثة (primogeniture)؟ فحين توافقين على ملكيةٍ حرة، سيرغب فولتست في ضمان عدم قابليّة الدوقيّة للتجزئة.»

ابتسمت فرانسيسكا مجددًا وقالت: «قد تغوي بشرتي وقوامي فولتست بالفعل، لكنّني مندهشةٌ منكِ أنتِ يا فيليبا. إن الزمن الذي كان يمكنني فيه الحمل قد ولّى منذ زمنٍ بعيدٍ جدًا. وفيما يتعلّق بحقّ البِكْرِ في الوراثة (primogeniture) و"فيديكوميسوم" (fideicommissum)، فلا ينبغي أن يخشى ديمفند شيئًا؛ فسأكون أنا "أولتيموس فاميليا" (ultimus familiae)، آخر فردٍ من سلالة ملوك دول بلاثانا. لكن رغم فارق العمر الذي يعدّه ديمفند ميزة، فإننا سنحسم قضيّة الوراثة لا معه هو بل مع أحفاده. وأؤكّد لكنّ، يا سيّداتي، أنّه لن تكون هناك نقاطٌ عالقةٌ في هذا الشأن.»

وافقت آسير فار أنهيد قائلة وهي تحدّق في عيني الساحرة الإلفيّة: «لن تكون هناك نقاطٌ عالقة في هذه المسألة تحديدًا. وماذا عن قضيّة وحدات كوماندوز السناجب؟ ماذا بشأن أولئك الجان الذين حاربوا

لصالح الإمبراطوريّة؟ إن لم أكن مخطئة، فهذا الأمر يخصّ رعاياكِ بالدرجة الأولى، سيّدتي فرانسيسكا؟»

توقفت زهرة الوديان عن الابتسام. ونظرت إلى إيدا إميان، لكن الإلف الصامتة من الجبال الزرقاء تهرّبت من نظرتها.

بدأت فرانسيسكا قائلة: «من أجل المصلحة العامة » ثم توقفت، فأومأت آسير برأسها وهي في غاية الجدّية دليلًا على تفهّمها.

قالت وهي تلفظ الكلمات ببطءٍ: «ما العمل؟ لكلّ شيءٍ ثمن. الحرب تطلب ضحايا، ويبدو أنّ السلام أيضًا له ثمنه.»

* * *

قال الحاجّ وهو يكرّر عبارته بتأمُّل، محدّقًا في الإلف الجالس برأسٍ منكس:

«أجل، صحيحٌ في كلّ الجوانب. إنّ محادثات السلام بمثابة سوقٍ كبيرة، معرضٌ قروي؛ ليُشترى البعض ويُباع آخرون. هكذا يسير العالم في مداره. المهمّ ألّا ندفع ثمنًا باهظًا للغاية...»

قال الإلف دون أن يرفع رأسه:

«وألّا يبيع المرء نفسه بثمنٍ بخس.»

* * *

تعالت الصرخات:

«خونة! أيها الأنذال المحتقرون!»

«أبناء العاهرات!»

«"An’badraigh aen cuach! (اللعنةٌ عليكم!)»

«كلاب نيلفجاردية!»

زأر هاميلكار دانزا، ضاربًا بقبضته المدرّعة على حاجز الرواق:

«صمتٌ!»

وأشهر الرماة على الشرفة أقواسهم نحو الجان المتكدّسين في الممرّ المسدود.

زأر دانزا بصوتٍ أعلى:

«اهدؤوا! كفى! اهدؤوا أيها الضباط الكرام! قليلٌ من الكرامة!»

صاح كويِنيخ دَا ريو:

«أتجرؤ أن تتحدث عن الكرامة أيها الوغد؟ لقد أرقنا دماءنا من أجلكم، أيها الـ دا هوين (البشر) الملاعين! من أجلكم ولأجل إمبراطوركم الذي تلقى منا قسم الولاء! وهكذا تردّون الجميل؟ تسلّموننا إلى قتلة الشمال؟ كمجرمين! وكخارجين عن القانون!»

قال دانزا وهو يضرب بقبضته مجددًا على الحاجز:

«كفى قلت!»

وأضاف بنبرةٍ صارمة:

«تقبّلوا هذا الواقع، أيها الجان الأعزّاء! فالاتفاقات التي تمّ التوصّل إليها في سينترا، وفق شروط معاهدة السلام التي توشك على الإبرام، تفرض على الإمبراطورية تسليم مجرمي الحرب إلى أهل الشمال...»

صرخ ريوردين:

«مجرمون؟ مجرمون؟ أيها الـ دا هوين (البشر) البائسون!»

أكّد دانزا بلهجةٍ باردة، متجاهلًا صخب الساحة:

«مجرمو حرب. كلّ ضابطٍ تثبت عليه تهم الإرهاب وقتل المدنيين وقتل الأسرى وتعذيبهم، أو ارتكاب مذابح بحق الجرحى في المستشفيات الميدانية...»

زأر أنغوس بري كري:

«يا أبناء العاهرات! كنّا نقتل لأننا في حرب!»

أضاف ضابطٌ آخر:

«قتلنا بأوامركم أنتم!»

عوى ثالث بلغة الإلف:

« (اللعنة عليكم، أيها البشر الأوغاد!)»

ردّ دانزا بصرامة:

«لقد صَدَرَ الحُكم! سبّكم وصراخكم لن يغيّر شيئًا. تفضّلوا بالذهاب إلى مركز الحراسة واحدًا تلو الآخر، ولا تقاوموا عندما تُوضع الأغلال في أيديكم.»

صكّ ريوردين على أسنانه وقال:

«كان علينا البقاء حين فرّوا عبر نهر الياروجا. كنّا سنبقى ونقاتل في وحدات الكوماندوز "السناجب". لكنّنا — أغبياء نحن — حافظنا على قسم الجندية! نستحقّ ما حصلنا عليه!»

انتزع إيسينغريم فاويلتيارنا، الذئب الحديدي أشهر قادة السناجب، وعقيدٌ حاليٌّ في صفوف الإمبراطورية شارات البرق الفضّي الخاصة بلواء فريهد عن كمّه وواقية كتفه بوجهٍ متجمّد، وألقى بها إلى ساحة الفناء. وحذا بقية الضباط حذوه. عبس هاميلكار دانزا وهو يراقب المشهد من الرواق العلوي.

قال دانزا:

«إنها مناورةٌ غير مسؤولة. علاوةً على ذلك، لو كنتُ مكانكم لما تخلّيتُ بتلك السهولة عن شارات الإمبراطورية. أشعر بأن من واجبي إخباركم أنّه، بوصفكم ضبّاطًا إمبراطوريين، فقد ضُمنت لكم — أثناء المفاوضات حول شروط معاهدة السلام — محاكماتٌ عادلة وأحكامٌ مخففة وعفوٌ سريع...»

ضجّ الجان المتجمّعون في الممرّ المسدود بضحكةٍ جماعيّةٍ صاخبةٍ ارتدّت أصداؤها بين الجدران.

قال هاميلكار دانزا بهدوءٍ وهو يضيف: «وألفتُ انتباهكم أيضًا إلى أنّنا لا نسلّم لأهل الشمال سوى أنتم وحدكم. اثنان وثلاثون ضابطًا، لا غير. ولا واحد من الجنود الذين كانوا تحت قيادتكم. ولا جنديّ واحد.»

انقطعت الضحكات في الممرّ المسدود على الفور.

* * *

هبّت الريح على موقد المعسكر، فتناثرت شرارات النار وتطاير الدخان ليملأ عيونهم. وعاد صوت العواء يتردد من الممرّ الجبليّ.

قال الإلف، وهو أوّل من كسر الصمت: «لقد باعوا كلّ شيءٍ بغاية الخسّة. كلّ شيءٍ عُرض للبيع. الشرف، والولاء، والروابط التي تجمعنا، والوعود، وحسن التعامل اليوميّ... تحوّلت جميعها إلى مجرد سلعٍ ذات قيمةٍ ما دامت مطلوبةً في السوق. وحين انتفى الطلب، صارت لا تساوي قشةً وأُلقِي بها إلى كومة النفايات.»

أومأ الحاجّ برأسه وقال: «إلى كومة نفايات التاريخ، أجل. أنت محقٌّ يا سيّدي الإلف. هكذا كانت الأمور آنذاك في سينترا. كلّ شيءٍ له ثمن. وكانت قيمته تُقاس بما يُمكن مقايضته به. وكان السوق يُفتَح كلَّ صباح. وكأيِّ سوقٍ حقيقيّةٍ، كانت تشهد أحيانًا ازدهارًا مفاجئًا أو كسادًا. وكأيِّ سوقٍ أيضًا، لا يسع المرء إلا أن يشعر بأنّ هناك من يحرك الخيوط من وراء الستار.»

* * *

سأل شيلارد فيتز-أوسترلن ببطءٍ وبصوتٍ متهدّج، وقد بدت علامات عدم التصديق على وجهه وفي نبرته: «هل ما أسمعه صحيح؟ أم أنّ أذنيّ تخدعانني؟»

لم يتفضّل بيرينغار ليوفاردِن، المبعوث الإمبراطوريّ الخاصّ، بالردّ عليه. فقد ظلّ متمدّدًا على كرسيّه، يراقب دوامات النبيذ وهو يُدوّر كأسه.

انتفخ صدر شيلارد، ثم ارتسمت على وجهه ملامح الاحتقار والتعالي. وكأنما يقول: إمّا أنك تكذب أيها الوغد، أو تريد خداعي واختباري، وفي كلا الحالين فقد كشفتُ أمرك.

قال وهو ينفخ صدره أكثر: «إذن، هل أفهم من ذلك أنّ الإمبراطور يأمرني بأن أقدّم تنازلاتٍ جديدة بعد كلّ تلك التنازلات الواسعة المتعلقة بالحدود، وبأسرى الحرب وردّ الغنائم، وبضبّاط لواء فريهد ووحدات الكوماندوز التابعة لسكويا تيل (السناجب)، وأن أقبل مطالب أهل الشمال المستحيلة بخصوص إعادة توطين المستوطنين؟»

ردّ عليه بيرينغار ليوفاردِن وهو يطيل في مدّ المقاطع على طريقته المعتادة: «لقد فهمتَ تمامًا، يا بارون. وفي الواقع، أُكنّ إعجابًا كبيرًا لنفاذ بصيرتك.»

قال شيلارد فيتز-أوسترلن بحدّةٍ، وهو يكاد يصرخ منفعِلًا: «بحقّ الشمس العظمى، يا لورد ليوفاردِن، هل تفكرون في العاصمة قطّ في عواقب قراراتكم؟ أهل الشمال يتهامسون بالفعل بأنّ إمبراطوريتنا عملاقٌ قدماه من طين! والآن يزعمون أنّهم هزمونا وضربونا وطردونا! هل يدرك الإمبراطور أنّ تقديم مزيدٍ من التنازلات يعني قبول إملاءاتهم المتعجرفة والمفرطة؟ هل يفهم الإمبراطور أنّهم إن اعتبروا ذلك علامة ضعف فقد تكون العواقب وخيمةً في المستقبل؟ هل يستوعب الإمبراطور أخيرًا المصير الذي ينتظر بضعة آلافٍ من مستوطِنينا في بروج وليريا؟»

توقّف بيرينغار ليوفاردِن عن تدوير كأسه وحدّق بعينيه السّوداوين في شيلارد.

قال بيرينغار ليوفاردِن وهو يضغط على أسنانه: «لقد أبلغتُكَ أمرًا إمبراطوريًّا، أيّها البارون. وعندما تُنفّذه وتعود إلى نيلفجارد، بوسعك عندها أن تسأل الإمبراطور بنفسك لماذا يتصرّف على هذا النحو غير الحكيم. ربّما تنوي توبيخه، أو نهره، أو معاتبته. ولمَ لا؟ لكن على انفراد. دون تدخلي.»

فكّر شيلارد: "إذًا، هذا هو ستيفان سكيلين الجديد الذي يجلس أمامي الآن. وعليّ أن أتعامل معه بالطريقة ذاتها التي كنت أتعامل بها مع سكيلين."

لكنه أدرك أيضًا أنّ حضوره هنا ليس بلا غاية. كان يمكن لرسولٍ عادي أن يسلّم ذلك الأمر.

قال شيلارد بنبرةٍ أكثر ودّية، محاولًا الظهور بمظهر المتمكّن: «حسنًا، ويلٌ للمهزوم! غير أنّ الأمر الإمبراطوري واضحٌ وصريح، وسيُنفَّذ. وسأحاول جاهدًا أيضًا أن يبدو الأمر وكأنّه نتاج مفاوضات لا خنوعٌ مذلّ. لديّ بعض الخبرة في هذا المجال؛ فقد قضيت ثلاثين عامًا في مهنة الدبلوماسية، وسبقتني إليها أربعة أجيال في عائلتي. عائلتي من أغنى العائلات وأكثرها بروزًا... وأشدّها نفوذًا...»

قاطع بيرينغار ليوفاردِن بسمكةٍ خفيفة: «أعرف ذلك، أعرفه تمامًا. وهذا هو السبب الذي جعلني آتي شخصيًّا.»

انحنى شيلارد بانضباطٍ طفيف، منتظرًا بصبرٍ ما سيأتي.

قال المبعوث وهو يعاود هزَّ كأسه: «لقد نشأت صعوباتٌ في الفهم لأنّك، أيها البارون العزيز، تميل إلى الاعتقاد بأنّ النصر والفتح يقومان على إبادةٍ عمياء: برفع الراية في تربةٍ مخضّبةٍ بالدماء والادّعاء: "هذا كلّه لي! لقد استوليّتُ عليه!" للأسف، هذا الرأي شائعٌ للغاية. أمّا بالنسبة لي، يا سيدي، وكذا بالنسبة للذين منحوني سلطاتي، فإنّ النصر والفتح يعتمدان على أمور مغايرة تمامًا. يجب أن يبدو النصر هكذا: أن يُجبَر المهزومون على شراء السلع المصنوعة لدى المنتصرين. بل إنهم يشترونها برضا، لأنّ بضائع

المنتصرين أفضل وأرخص. عملة المنتصر أقوى من عملة المهزوم، والمهزوم يثق بها أكثر ممّا يثق بعملته. هل تفهمني، يا بارون فيتز-أوسترلن؟ هل بدأت تستوعب شيئًا فشيئًا الفرق بين المنتصرين والمهزومين؟ هل تعي حقًّا مَنْ الذي يحلّ به الويل؟»

أومأ السفير برأسه ليؤكّد أنّه يفهم.

قال ليوفاردِن بعد برهةٍ وهو يطيل في مدّ مقاطعه: «ولكن كي نرسّخ النصر ونجعله مُلزِمًا، يجب إبرام السلام. بسرعة وبأي ثمن. ليس وقفًا لإطلاق النار أو هدنة، بل سلامٌ حقيقي. تسويةٌ خلاقة. اتفاقٌ بنّاء. وبدون فرض حظرٍ تجاريّ أو زيادةٍ انتقاميّة في الرسوم الجمركيّة أو إجراءاتٍ حمائيّة.»

هزّ شيلارد رأسه مجددًا تأكيدًا لاستيعابه المعنى.

واصل ليوفاردِن كلامه بصوتٍ هادئٍ ممتدّ وتجرّده من أي انفعال: «لم ندمّر زراعتهم ونخرّب صناعتهم عبثًا. فعلنا ذلك كي يضطرّوا لشراء بضائعنا نظرًا لشحّ بضائعهم. لكن إن كانت حدودهم معادية ومغلقة، فلن يتمكن تجّارنا وبضائعنا من العبور. وحينذاك، ماذا سيحدث؟ سأخبرك بما سيحدث، يا باروني العزيز. ستقع أزمة فائض إنتاج، لأنّ مصانعنا تعمل بكامل طاقتها. وستتكبّد شركات التجارة البحرية التي دخلت في شراكةٍ مع نوفيغراد وكوفير خسائرَ فادحة. عائلتكم النافذة، يا بارون، تمتلك حصصًا كبيرة في تلك الشركات. وكما تعلم بلا شك، الأسرة هي الخلية الأساسية في المجتمع. هل تدرك ذلك؟»

قال شيلارد فيتز-أوسترلن بخفوتٍ وقد خفّض صوته على الرغم من أنّ القاعة كانت مُحكَمة الإغلاق ضد أي تنصّت: «أدرك، وأفهم. لكنني أريد أن أتأكد أنّني أنفّذ أمر الإمبراطور... لا أمرَ... شركةٍ ما...»

قال ليوفاردِن وهو يمدّ حروفه: «الأباطرة يأتون ويذهبون، أما الشركات فتبقى وستظل باقية. لكنه كلامٌ بديهي. أفهم مخاوفك يا بارون. يمكنك أن تكون على يقينٍ، سيدي، بأنني أنفّذ أمرًا أصدره الإمبراطور، يهدف إلى خير الإمبراطورية ومصلحتها. وهو أمرٌ صد ر — لا أنكر ذلك — بناءً على نصيحة قدمتها للإمبراطور شركةٌ معيّنة.»

فتح المبعوث ياقة قميصه وسترته قليلًا، ليكشف عن مداليةٍ ذهبيةٍ نُقش عليها نجمٌ في مثلثٍ تحيط به ألسنة اللهب.

أقرّ شيلارد بابتسامةٍ وانحناءةٍ طفيفة أنّه فهم: «زينةٌ جميلة. وأعلم أنّها باهظة... وحصرية... هل يمكن الحصول عليها من أي مكان؟»

قال بيرينغار ليوفاردِن بتوكيدٍ: «لا.. عليك أن تنالها باستحقاق.»

* * *

قال شيلارد فيتز-أوسترلن بنبرةٍ خاصة اعتاد عليها المشاركون في المناظرة، إذ دلّت على أنّ ما سيقوله يعدّه في غاية الأهميّة:

«إن سمحتِ، يا سيّدتي، وإن سمحتم يا سادتي.»

أضاف: «إن سمحتِ يا سيّدتي، ويا سادتي، فسأقرأ عليكم مذكّرة التذكير (aide memoire) التي بعث بها إليّ صاحب السمو الإمبراطوري، إمير ڤار إمْرِيس، بعون الشمس العظمى، إمبراطور نيلفجارد...»

زمجر ديمفند وهو يضغط على أسنانه: «أوه لا، ليس مرّة أخرى.» وأطلق ديكسترا آهةً مكتومة. ولم يغِب ذلك عن شيلارد، إذ يستحيل أن يفوته.

قال شيلارد معترفًا: «المذكّرة طويلةٌ حقًّا، لذا سأختصرها بدلًا من قراءتها كلّها. يقول صاحب السمو الإمبراطوري إنّه سعيدٌ للغاية بسير المفاوضات، وباعتباره رجلًا مُحبًّا للسلام، فإنّه يستقبل كلَّ حلٍّ وسطٍ ومصالحةٍ تحقّقت بسعادةٍ عارمة. كما يأمل صاحب السمو الإمبراطوري في مواصلة التقدّم وإنهاء المفاوضات بما يخدم مصلحة الطرفين...»

قاطع فولتست مداخلة شيلارد في منتصف الجملة قائلًا: «فلنختصر الطريق وننتقل إلى صلب الموضوع، وبسرعة! ولنُنْهِ الأمرَ على نحوٍ يعود بالنفع على الجميع كي نعود إلى ديارنا.»

قال هنسلت، الذي كان عليه أن يقطع أطول مسافةٍ للعودة: «صحيح، فلننتهِ من الأمر، وإلّا فسيُدركنا الشتاء إن تأخّرنا!»

ذكّرتهم ميف: «ما زالت أمامنا تسويةٌ أخرى تنتظرنا، قضيةٌ تطرّقنا إليها مرارًا دون أن نخوض فيها بجدّية؛ ربّما خوفًا من أن تثير خلافًا فيما بيننا. حان الوقت لتجاوز ذلك الخوف. فالمشكلة لن تختفي لمجرّد أنّنا نتجاهلها.»

أكّد فولتست: «حقًّا. إذن، دعونا نبدأ. يجب أن نقرّر وضع سينترا، وقضيّة خلافة العرش، ووريث كالانثي. إنّها قضيّةٌ شائكة، لكنّني على يقينٍ بأنّنا سنجيد التصرّف حيالها. أليس كذلك، سعادة السفير؟»

ابتسم شيلارد فيتز-أوسترلن ابتسامةً دبلوماسيّة غامضة وقال:

«أوه... إنّي على يقينٍ بأنّ مسألة خلافة عرش سينترا ستتمّ في غاية السلاسة. إنّها أسهل بكثيرٍ ممّا يظنّه الجميع، يا سيّدتي ويا سادتي.»

* * *

قالت فيليبا إيلهارت بنبرةٍ لا تقبل الجدل: «أطرحُ للنقاش المشروع التالي: سنحوّل سينترا إلى "إقليمٍ مؤتمن". وسنمنح فولتيست من تيميريا تفويضًا لإدارتها.»

قالت سابرينا غليفيسيغ بامتعاض: «ذلك الفولتيست بات يتصرف وكأنه أكبر من حجمه. شهيته تكبر يومًا بعد يوم. بروغ، سودين، آنغرين...»

قاطعتها فيليبا بحدّة: «نحن بحاجةٍ إلى دولةٍ قويّة عند مصب نهر الياروجا. وعلى درجات مارنادال (Marnadal Stairs).»

قالت شيالا دي تانكارفيل وهي تهزّ رأسها بالإيجاب: «لا أنكر ذلك. إنّها ضرورةٌ بالنسبة إلينا. لكنّها ليست كذلك بالنسبة إلى إمير ڤار إمريس. وغايتُنا الوصول إلى حلٍّ وسط، لا إثارة صراع.»

ذكّرتهم فرانسيسكا فينداببير قائلة: «قبل أيامٍ قليلة، اقترح شيلارد رسم خطّ فصلٍ، وتقسيم سينترا إلى مناطق نفوذ، منطقةٍ شمالية وأخرى جنوبية...»

قالت مارغريتا لوكس-أنتيل وهي تردّ بأنفٍ مرفوع: «هذا عبثٌ طفوليّ. تلك التقسيمات لا جدوى منها سوى زرع بذور نزاعاتٍ قادمة.»

قالت شيالا: «أرى أنّه ينبغي تحويل سينترا إلى "إمارةٍ تُدار بشكلٍ مشترك"، على أن تُمارَس السلطة فيها عبر ممثلين مُعيَّنين من الممالك الشمالية وإمبراطورية نيلفجارد. أمّا مدينة سينترا وميناؤها، فسوف تكتسبان وضع المدينة الحرّة... هل لديك ما تضيفينه، عزيزتي مدام آسير؟ تفضلي. أعترف أنّني عمومًا أفضل الحوارات الواضحة المتكاملة، لكن لا بأس، قولي ما لديك. كلّنا آذانٌ صاغية.»

رفعت الساحرات أنظارهنّ نحو آسير فار أنهيد، بما في ذلك فرينغيلا فيغو التي بدا وجهها شاحبًا كالورق. لم تبدُ الساحرة النيلفجارديّة مضطربةً على الإطلاق.

قالت آسير بصوتٍ رقيقٍ وعذب: «أقترح أن نركّز على مشكلاتٍ أخرى، وأن نترك سينترا وشأنها. فلم تتح لي الفرصة حتى الآن لإطلاعكنّ على بعض الأمور التي وصلتني تقارير عنها. إنّ قضيّة سينترا، يا أخواتي الفاضلات، قد جرى حلّها والتكفّل بها بالفعل.»

قطّبت فيليبا حاجبيها وقالت وهي تضيق عينيها: «معذرة؟ ماذا تعنين بذلك، لو سمحتِ؟»

شهقت تريس ميريجولد بصوتٍ مسموعٍ، إذ أدركت سلفًا ماذا تعنيه تلك الكلمات.

* * *

كان فاتيير دي ريدو مهمومًا ومُكتئبًا. فقد هجرته عشيقته الساحرة الرائعة، كانتاريلا الشقراء، فجأةً وبلا سابق إنذار، دون أن توفّر أي سببٍ أو تفسير. بالنسبة لفاتيير، كانت تلك صدمةً مريعةً تركته شارد الذهن بائسًا، يعاني القلق والتشتت والذهول. وكان عليه أن يظلّ حذرًا يقظًا، حتى لا يرتكب خطأً في سجله، أو زلّة لسانٍ أمام الإمبراطور. إذ لم تكن حقبة التغييرات الكبرى في صالح من يتخبّط في الحيرة أو يعجز عن التصرف.

قال إمير ڤار إمريس وهو يقطّب جبينه: «لقد سددنا بالفعل ديننا حيال نقابة التجار مقابل عونها الذي لا يقدّر بثمن. لقد منحناهم ما يكفي من الامتيازات، بل أكثر ممّا تلقوه من الأباطرة الثلاثة السابقين مجتمعين. أمّا بشأن بيرينغار ليوفاردِن، فنحن مدينون له أيضًا لما قدّمه من مساعدةٍ لكشف المؤامرة. ونظرًا لذلك، فقد تولّى منصبًا رفيعًا ومجزياً. لكن لو اتضح أنه غير كفء، فسنطرده فورًا، رغم خدماته. من الجيّد أن يعلم ذلك.»

قال فاتيير دي ريدو: «سأبذل أقصى جهدي، يا صاحب السمو. وماذا بشأن ديكسترا؟ وذلك المخبر الغامض الذي يعمل معه؟»

أجاب إمير ڤار إمريس: «من الأرجح أن ديكسترا يفضّل الموت على أن يبوح بهوية مخبره. وأرى أنّه يستحقّ جزاءً مقابل تلك المعلومات الثمينة... ولكن بأي صورة؟ لا يودّ ديكسترا أن يتلقّى مني أي شيء.»

قال فاتيير: «إن سمحتَ، يا صاحب الجلالة الإمبراطوري...»

قال إمير وهو يومئ برأسه إذنًا: «تحدّث.»

قال فاتيير: «سيقبل ديكسترا المعلومات. شيئًا لا يعرفه ويرغب في معرفته. فيمكن لصاحب السمو أن يسدّد له الدين بالمعلومات.»

قال إمير ڤار إمريس وقد ارتسمت في عينيه علامة الرضا: «أحسنت، فاتيير.»

تنفّس فاتيير دي ريدو الصعداء. وأدار رأسه جانبًا ليأخذ شهيقًا عميقًا. وبسبب ذلك، كان أول من لمح السيدتين المقتربتين: السيدة ستيلا كونغريف، كونتيسة ليدرتال، وتلك الفتاة الشقراء التي أوكلت إليها رعايتها.

قال فاتيير وهو يشير بحركةٍ من حاجبيه: «إنهما قادمتان. صاحب الجلالة الإمبراطوري، هل لي أن أجرؤ على تذكيركم... بأسباب الدولة... وبمصالح الإمبراطورية...»

قاطع إمير ڤار إمريس كلامه بنبرةٍ حازمة: «توقّف. قلتُ إنني سأفكّر في الأمر. سأُعمِلُ عقلي في المسألة ثم أتّخذ القرار. وبعدها سأخبرك به.»

قال فاتيير بخضوع: «نعم، يا صاحب الجلالة الإمبراطوري.»

سأل إمير وهو يضرب قفازه بنفاد صبرٍ على ورك تمثال حوريةٍ رخاميةٍ تزيّن قاعدة النافورة: «ماذا أيضًا؟ لِمَ لا تزال هنا يا فاتيير؟»

قال فاتيير: «قضية ستيفان سكيلين...»

قاطع إمير: «لن أُظهر الرحمة. الموت للخائن. ولكن بعد محاكمةٍ نزيهةٍ وشاملة.»

قال: «نعم، صاحب الجلالة الإمبراطوري.» ولم يلتفت إمير نحوه وهو ينحني وينسحب؛ فقد كان يوجّه بصره نحو ستيلا كونغريف، وتلك الفتاة الشقراء.

فكّر إمير: "ها هي مصلحة الإمبراطورية تتقدّم." الأميرة المزيّفة، الملكة المزيّفة على سينترا، الحاكمة المزيّفة لمصبّ نهر يارا، الذي يعني الكثير للإمبراطورية. ها هي تقترب، بعينين مطأطأتين، مرتعبة، في ثوبٍ حريريٍّ أبيض وقفّازاتٍ خضراء، تعتمر في نحرها عقدًا من حجر البيريدوت. في دارن روان، ذات مرّة، أثنيتُ على ثوبها، وعلى حُسن اختيار حُليّها. ستيلا تعرف ذوقي. لكن ماذا أفعل بتلك الفتاة اليافعة؟ أضعها على قاعدة تمثال؟

قال وهو ينحني أولًا: «سيّداتي النبيلات.»

وفي نيلفجارد – خارج قاعة العرش – ما يزال احترام النساء جزءًا من لياقة البلاط، حتى للإمبراطور نفسه.

ردّت السيدتان بانحناءةٍ عميقةٍ وخفضتا رأسيهما؛ إذ كانتا أمام إمبراطورٍ مهذّب، لكنه يظلّ إمبراطورًا.

ضاق إمير ذرعًا بالبروتوكولات.

قال بجفاءٍ آمِر: «ابقي هنا، يا ستيلا. وأنتِ، أيتها الفتاة، سترافقينني في نزهة. أمسكِي ذراعي. ارفعي رأسك. كفى انحناءات. إنها مجرّد نزهة.»

سارا عبر ممرّ تحيط به الشجيرات والأسيجة التي بالكاد بدأت تتبرعم. ظلّت كتيبة الحرس الإمبراطوري، جنود فرقة إمبيرا النخبوية المعروفة باسم «السمندلات » على مقربةٍ، في حالة تأهّبٍ دائم، لكنهم لم يتدخّلوا؛ فهم يعرفون متى يجب ألّا يزعجوا الإمبراطور.

مرّا بالقرب من بركةٍ بدت خاليةً وموحشة. كانت سمكة الشبوط (الكارب) القديمة التي أطلقها الإمبراطور تورّس قد نفقت قبل يومين.

"سأُطلق سمكةً جديدة، فتية، قويّة، جميلة" حدث إمير ڤار إمريس نفسه "وسآمر بحفرِ اسمي وتاريخ اليوم على ميداليةٍ تُعلَّق بها، "لقد انتهى شيء وبدأ آخر" إنّه عصرٌ جديد. زمنٌ جديد. حياةٌ جديدة. ولتكن هناك سمكةٌ جديدة أيضًا، اللعنة."

غاص في أفكاره، حتى كاد ينسى أمر الفتاة التي تتأبّط ذراعه، وعن دفئها، وعن عطر زنبق الوادي الذي يفوح منها، وعن مصلحة الإمبراطورية. بهذا الترتيب، لا بغيره.

توقّف عند البركة، التي تعلو في وسطها جزيرةٌ اصطناعيةٌ تتضمن حديقة صخرية ونافورة وتمثالًا رخاميًّا.

سألها: «هل تعلمين ما الذي يجسّده ذلك التمثال؟»

لم تُجِب على الفور. قالت أخيرًا: «أجل، يا صاحب الجلالة الإمبراطوري. إنّه تمثالٌ لطائر البجعة (البيلكان)، الذي يمزّق صدره ليطعم فراخه من دمه. إنّه رمزٌ للتضحية النبيلة. وأيضًا...»

قاطعها قائلًا وهو يصغي بانتباه: «أنا أسمعك جيّدًا.»

أتمّت حديثها: «وأيضًا رمزٌ للحبّ العظيم.»

سألها وهو يديرها لتواجهه ويضمّ شفتيه: «هل تظنّين أنّ الصدر الممزّق يتألّم أقلّ بسبب ذلك؟»

تلعثمت وهي تقول: «لا أدري... يا صاحب الجلالة الإمبراطوري... أنا...»

أمسك بيدها. شعر بارتجافها؛ وسرى الارتجاف عبر يده وذراعه وكتفه.

قال إمير فار إمريس، بصوتٍ أكثر هدوءًا من عادته:

«كان والدي حاكمًا عظيمًا، لكن لم يكن له باعٌ في الأساطير أو الحكايات، ولم يكن لديه وقتٌ لها. وكان دائمًا يخلط بينها. كلّما أحضرني إلى هنا، إلى الحديقة — وأتذكّر ذلك كأنه حدث بالأمس — كان يقول إنّ النحت يمثّل بجعةً تنهض من رمادها. حسنًا يا فتاة، ابتسمي على الأقلّ حين يروي الإمبراطورُ طرفةً. شكرًا. هكذا أفضل بكثير. إنّ فكرة ألّا تكوني سعيدةً بالتجوال معي هنا ستزعجني. انظري في عينيّ.»

قالت وهي تخفض بصرها أولًا، ثم ترفعه بخجل:

«إنني سعيدةٌ... لوجودي هنا... مع جلالتكم الإمبراطورية. هذا شرفٌ لي، أدركه تمامًا... لكنّه أيضًا سرورٌ عظيم. أنا أستمتع...»

قاطعها وقال وهو يحدّق فيها:

«حقًّا؟ أم أنّه تملّقٌ في بلاط الحكم؟ قواعد السلوك، ومدرسة ستيلا كونغريف الرفيعة؟ كلماتٌ حفظتها بأمرٍ من ستيلا؟ اعترفي، يا فتاة.»

صمتت. وخفضت عينيها مرةً أخرى.

قال إمير فار إمريس، مكرّرًا بسؤالٍ مشوبٍ بحزم:

«لقد طرح عليكِ الإمبراطور سؤالًا. وعندما يسأل الإمبراطور، لا يجرؤ أحدٌ على التزام الصمت. ولا يجرؤ أحدٌ على الكذب طبعًا.»

قالت بنبرةٍ عذبةٍ موسيقية:

«حقًّا... أنا سعيدةٌ حقًّا، يا صاحب الجلالة الإمبراطوري.»

قال إمير بعد لحظةٍ من الصمت:

«أصدّقكِ. أصدّقكِ، رغم أن ذلك يثير دهشتي.»

همست قائلة:

«أنا أيضًا... يراودني الشعور بالدهشة.»

قال إمير وهو يقترب منها أكثر:

«معذرة؟ لا تخجلي، تكلّمي.»

قالت في خفوتٍ أقرب للرجاء:

«كنتُ أودّ... لو تسنّى لي أن أتمشّى كثيرًا وأتحدّث كثيرًا مع جلالتكم. لكني أدرك... أدرك أن هذا غير ممكن.»

قال إمير وهو يضغط شفتيه:

«أحسنتِ الإدراك. الأباطرة يحكمون إمبراطورياتهم، لكن ثمة أمران يعجزون عن حكمهما: قلوبهم وأوقاتهم. هذان الشيئان ملكٌ للإمبراطورية.»

تمتمت:

«أعرف هذا جيدًا...»

استأنف قائلًا بعد فترةٍ من الصمت الخانق:

«لن أطيل البقاء هنا. يجب أن أرحل إلى سينترا وأشرّف بحضوري احتفالية توقيع معاهدة السلام. أما أنتِ فستعودين إلى دارن روان... ارفعي رأسكِ يا فتاة. آه لا. هذه ثاني مرّة تشهقين أمامي. وما ذلك في عينيك؟ دموع؟ يا لكِ من خارقةٍ للبروتوكول. سأضطرّ إلى إبلاغ الكونتيسة ليدرتال باستيائي الشديد. قلتُ: ارفعي رأسكِ...»

قالت بصوتٍ مختنق:

«أرجوك... اعفِ عن السيدة ستيلا... يا صاحب الجلالة الإمبراطوري. إنه خطئي أنا. خطئي وحدي. لقد علّمتني السيدة ستيلا... وأعدّتني جيدًا.»

قال: «لقد لاحظتُ ذلك وأقدّره. لا تقلقي، لن تقع ستيلا كونغريف تحت طائلة غضبي. ولم تكن كذلك يومًا. ما فعلتُه قبل قليل لم يكن سوى مزاحٍ على حسابك... مزاحٌ مستهجن.»

همست الفتاة وهي تشحب وقد روعتها جسارتها: «أدركتُ ذلك.»

ضحك إمير نوعًا ما، وإن بدا ضحكه متكلّفًا بعض الشيء.

قال: «أفضّللكِ هكذا. صدّقيني. جريئة. تمامًا مثل...»

توقّف عن الكلام. "تمامًا مثل ابنتي"، فكّر. وكان الشعور بالذنب يعذّبه كما ينقضّ كلبٌ على فريسته.

لم تحوّل الفتاة بصرها عنه. "ليس هذا مجرّد صنيعٍ من ستيلا"، فكّر إمير. "إنه طبعها حقًّا. رغم مظهرها الوديع، فهي جوهرةٌ صلبة، عصيّة على الخدش." قال في نفسه: "كلا، لن أسمح لفاتيه أن يقتل هذه الطفلة. سينترا هي سينترا، ومصلحة الإمبراطورية هي مصلحة الإمبراطورية، لكن يبدو أنّ لهذه المسألة حلًّا واحدًا معقولًا ومشرّفًا."

قال بصوتٍ صارم وقد مدّ يده: «أعطني يدك.»

أمرٌ جاء بنبرةٍ قاسية. لكن على الرغم من ذلك، شعر وكأنها امتثلت له برضًا لا عن إكراه.

كانت يدها صغيرةً وباردة، لكنّها لم ترتجف الآن.

قال: «ما اسمك؟ رجاءً، لا تقولي إنّه سيريلّا فيونا.»

أجابته: «سيريلّا فيونا.»

قال وهو يحدّق فيها بنظرةٍ حادّة: «أشعر برغبةٍ في معاقبتكِ، أيتها الفتاة. عقابًا شديدًا.»

قالت: «أدرك ذلك، يا صاحب الجلالة الإمبراطوري. أنا أستحقّه. لكن... لا بدّ لي أن أكون سيريلّا فيونا.»

قال وهو لا يزال ممسكًا بيدها: «قد يظنّ المرء أنّكِ تندمين لأنّكِ لستِ هي.»

همست: «أجل. أنا نادمةٌ لأنني لستُ إيّاها.»

قال متفاجئًا: «حقًّا؟»

قالت بصوتٍ متكسّر: «لو كنتُ... سيريلّا الحقيقية... لتطلّع الإمبراطور إليّ بعينٍ أكثر وُدًّا. لكنني مجرّد مزيّفة. محاكاة رديئة. بديلة لا تستحق شيئًا... لا شيء...»

استدار فجأةً وقبض على ذراعيها، ثم أطلقها على الفور وتراجع خطوة.

قال بصوتٍ خفيضٍ سريع: «أتشتهين تاجًا؟ سلطةً؟» متجاهلًا هزّها رأسها بعنف رفضًا لما يرمي إليه. «مراتب شرف؟ أوسمة؟ ترفًا...»

بتر كلامه وهو يلهث، متظاهرًا بعدم ملاحظته استمرار الفتاة في هزّ رأسها إلى الأسفل نافيةً. كانت تنفي اتّهاماته القاسية التي ربما ازدادت قسوة لأنها لم تُنطَق صراحةً.

زفر زفرةً عميقة وصاخبة.

سأل: إمير فار إمريس بنبرةٍ منخفضة، وهو ينظر إلى الفتاة الشقراء: «هل تعلمين، أيتها الفراشة الصغيرة، أنّ ما ترينه أمامكِ هو لهب؟»

أجابت هامسة: «أعلم ذلك، يا صاحب الجلالة الإمبراطوري.»

ساد بينهما الصمت طويلًا. نفحةُ الربيع المباغتة جعلت رأسيهما يدوران بخفّة. كليهما شعر بذلك.

قال: إمير فار إمريس أخيرًا، بنبرةٍ خافتةٍ تفتقرُ للحماس: «رغم الظواهر، فإنّ كونكِ إمبراطورةً ليس عملًا سهلًا. لا أدري إن كنتُ سأتمكّن من حبّك.»

هزّت رأسها دليلًا على إدراكها ذلك أيضًا. لمح دمعةً تنساب على خدّها. وللحظة، تمامًا كما حدث في قلعة ستيغا، أحسّ بوخزةٍ من زجاجٍ باردٍ صغيرٍ مغروسٍ في قلبه وقد تحرّك مكانه.

ضمّها بشدّةٍ إلى صدره، وغاصت أصابعه في شعرها المعطَّر برائحة أزهار زنبق الوادي.

قال بصوتٍ غريبٍ عليه: «أيتها الصغيرة المسكينة... يا مسكينتي، يا مصلحة الدولة " الصغيرة.»

قرعت الأجراس في أرجاء سينترا بقوّةٍ ورصانة، وشيءٌ من الكآبة غير المفهومة يسري في رنينها.

* * *

فكّر هيرارخ هيميلفارت وهو يتأمّل اللوحة المعلّقة — كما فعل الجميع — والتي لا يقلّ حجمها عن ياردةٍ واحدة عرضًا في اثنتين طولًا: "إنّ ملامحها غير عاديّة. أنا واثقٌ تمامًا أنّها من عِرقٍ مختلط. أقسم أنّ دماء الجان الملعونة تجري في عروقها."

قال فولتست لنفسه: " إنها جميلة. أجمل مما ظهر في الصورة المصغّرة التي أطلعني عليها رجال الاستخبارات. حسنٌ، فاللوحات عادةً ما تُجَمِّل."

فكّرت ميف: "لا تشبه كالانثي إطلاقًا. ولا تشبه روغنر. ولا تشبه بافيتا... هه... صدرت شائعاتٌ هنا وهناك... لكن لا، هذا مستحيل. لا بدّ أنّ لديها دمًا ملكيًّا، وأن تكون الحاكمة الشرعية لسينترا. لا بدّ. هكذا تقتضيها مصلحة الدولة. وهكذا تقتضيها مسيرة التاريخ."

فكّر إستراد ثيسن ، ملك كوفير، الذي كان قد وصل حديثًا إلى سينترا: "إنّها ليست تلك التي رأيتها في أحلامي. يقينًا ليست هي. لكنني لن أخبر أحدًا بذلك. سأحتفظ بالأمر لنفسي ولزوليبكا (Zuleyka). وسنقرّر معًا كيف نستفيد من تلك المعرفة التي منحتها لنا الأحلام."

فكّر كيسترين أمير فيردن: "لقد كانت تلك الفتاة سيري (Ciri) على وشك أن تصير زوجتي. كنتُ سأصبح دوق سينترا حينها، وحسب العرف، الوريث التالي للعرش... ولربما لقيت حتفي على غرار كالانثي. من حسن الحظ — أجل، من حسن الحظ الشديد — أنّها فرّت مني حينذاك."

فكّر شيلارد فيتز-أوسترلن "لم أؤمن ولو للحظةٍ واحدة بقصة الحب العظيم من النظرة الأولى. ليس ولو للحظة. ومع ذلك، ها هو إمهير يتزوّج تلك الفتاة. إنّه يرفض فرصة المصالحة مع الدوقات. عوضًا عن ابنة أحد دوقات نيلفجارد، يختار سيريلّا من سينترا زوجةً له. لماذا؟ لكي يستولي على تلك المملكة البائسة، التي كنتُ على أيّة حال سأنتزع نصفها — إن لم يكن أكثر — لصالح الإمبراطورية عبر المفاوضات. وليستولي أيضًا على مصب نهر الياروغا، الواقع على أيّة حال تحت سيطرة شركةٍ بحرية للتجارة، تجمع نيلفجارد ونوفيغراد وكوفير."

"أنا لا أفهم شيئًا من مصلحة الدولة (raison d'état)."

"أظنّ أنّهم لا يطلعونني على كلّ شيء."

فكّر ديكسترا "إنّهن الساحرات. هذا من صنيع الساحرات. ولكن لا بأس. لقد كُتب بوضوحٍ أنّ سيري ستصبح ملكة سينترا، وزوجة إمير، وإمبراطورة نيلفجارد. لقد شاء القدر ذلك. حُكم الأقدار."

فكّرت تريس ميريجولد "فليكن. فليظلّ الأمر هكذا. هذا حسن. ستصير سيري الآن في مأمن. سينسونها. سيسمحون لها بالحياة."

أُنجِز أخيرًا وضع اللوحة في مكانها، وتراجع الخدم الذين علّقوها وأنزلوا السلالم.

في صفٍّ طويلٍ من اللوحات التي غمرها العتم والغبش — لوحات ملوك سينترا — وبعد سلسلة صور سيريبينز وكورامز، وبعد كوربيت وداغوراد وروغنر، وبعد كالانثي الفخورة وبافيتا الكئيبة، علّقت آخر لوحة. تصوّر الحاكم الحاليّ الكريم، الوريثة للعرش والدم الملكي.

إنّها لوحة فتاةٍ نحيلة، شقراء الشعر، بنظرةٍ حزينة، ترتدي ثوبًا أبيض وقفّازاتٍ خضراء.

سيريلّا فيونا إيلين ريانون.

ملكة سينترا وإمبراطورة نيلفجارد.

فكّرت فيليبا إيلهارت "إنه القدر." وشعرت بنظرات ديكسترا نحوها."

فكّر ديكسترا وهو ينظر إلى اللوحة "يا للمسكينة. لعلّها تظنّ أنّ هذه هي نهاية همومها ومصائبها. مسكينة."

رنّت أجراس سينترا عالية، تملأ الفضاء، فزرعت الفزع في نفوس طيور النورس.

* * *

قال الحاجّ وهو يستأنف الحكاية: «بعد نهاية المفاوضات وتوقيع معاهدة سلام سينترا بوقتٍ وجيز، أُقيم في نوفيغراد احتفالٌ عظيمٌ استمرّ لعدّة أيام، وكان ذروته استعراضًا عسكريًا رسميًا مهيبًا. وكان اليوم، كما يليق بأوّل أيام العهد الجديد، جميلاً بحقّ...»

سأل الإلف بسخرية: «أفنفهم من هذا، يا سيّدي، أنّك كنتَ حاضرًا هناك؟ في ذلك الاستعراض؟»

قال الحاجّ بلا تردّد، وكأنّ السخرية لا تربكه البتّة: «في الواقع، وصلتُ متأخرًا بعض الشيء. لكن اليوم، كما ذكرتُ، كان جميلاً. وقد ظهرت بوادر جماله منذ الفجر.»

* * *

ضرب فاسكوين، قائد دراكينبورغ — والذي شغل حتى وقتٍ قريبٍ منصب نائب رئيس الشؤون السياسية — سوطَه على جانب حذائه، وقال بنفاد صبر: «أسرعوا هناك، أسرعوا! فالطابور الذي ينتظرنا طويلٌ بسبب تلك معاهدة السلام التي وُقِّعت في سينترا.»

وأخذ الجلّادون يضعون الحبال في أعناق المحكوم عليهم، ثم تراجعوا إلى الخلف. فضرب فاسكوين بسوطه على حذائه مرةً أخرى.

قال بصوتٍ جافّ: «إن كان لدى أيٍّ منكم ما يقوله، فهذه فرصته الأخيرة.»

قال كايربري إيپ ديارد: «عاشت الحريّة طويلًا.»

قال أورستس كوبس وهو سارقٌ وقاطع طريقٍ وقاتل: «كانت المحاكمة مزيّفة.»

قال روبرت بيلتش، الفارّ من الخدمة: «اللعنة عليكم»

قال يان لينّيپ، العميل السرّي المدان بالرشوة والسرقة: «قولوا للورد ديكسترا إنني آسف.»

أما إيستفان إيغالفّي، القائد السابق للحصن — والذي أُقيل من منصبه وأُحيل إلى المحكمة جرّاء ما اقترفه بحقّ السجينات — فكان واقفًا يتأرجح فوق جذعٍ من شجر البتولا وهو ينتحب: «لم أكن أقصد... حقًا لم أكن أقصد...»

وكانت الشمس — في بريقها الذهبيّ المُبهر — قد انفجرت خلف أسوار الحصن الخشبية. فرسمت أعواد المشانق ظلالًا طويلة. وارتفع صباحٌ جميلٌ مشرق فوق دراكينبورغ، صباح اليوم الأوّل من عهدٍ جديد.

ضرب فاسكوين بسوطه على حذائه، ثم رفع يده وأنزلها بإشارةً منه. فُركِلت الجذوع من تحت الأقدام.

* * *

دقّت كلُّ أجراس نوفيغراد، وارتدّ رنينُها العميق الحزين عن أسطح منازل التجّار وأسقفها العليّة، ثم خبا صداه في الأزقّة الضيّقة. حلّقت الصواريخ والألعاب النارية عاليًا، وصاح الجمهور وهتف ورمى بالزهور، ولوّح بالقبّعات والمناديل والأوشحة والرايات، بل وحتى بالسراويل.

هتفوا بصوتٍ واحد: «لتَحْيَا الفرقة الحرّة!»

«هورررراااه!»

«عاشت الكوندوتييري (condottieri)!»

حيّا لورينزو مولا الحشدَ وهو يرسل القبلات إلى سيّدات المدينة الجميلات.

صاح وهو يعلو صوته فوق الضوضاء: «لو كانوا سيدفعون المكافآت بسخاءٍ يشبه هتافهم هذا، فسنصبح أغنياء!»

قالت جوليا أباتيماركو، وهي تغالب غصّةً في حلقها: «يا للأسف... لو كان فرونتينو قد عاش ليرى هذا اليوم...»

تقدّمت الفرقة في موكبها على خيولها وسط الطريق الرئيسي للمدينة. في مقدّمتهم كانت جوليا، وآدم "أديو" بانغرات ولورينزو مولا، يرتدون أزيائهم الرسمية الفخمة، مصطفّين في صفوفٍ من أربعة، متساويةٍ تمامًا إلى درجةٍ لا يتقدّم فيها رأسُ حصانٍ ولو بمقدار بوصة. وقد بدت خيول الكوندوتييري — كما هو حال فرسانها —ساكنةً ومعتزّة بنفسها، غير منزعجةٍ من صيحات الحشود وهتافاتها، لا تتحرّك عند إلقاء أكاليل الزهور عليها سوى برفعٍ خفيفٍ يكاد لا يلحظ للرؤوس.

هتف الجمع: «عاش الكوندوتييري!»

«عاش أديو بانغرات! عاشت كيتي الجميلة!»

مسحت جوليا دمعةً خلسةً، والتقطت قرنفلًا أُلقي نحوها من بين الحشود.

قالت بشعورٍ يغلبه التأثر: «لم أحلم قطّ... بتحقيق مثل هذا النصر... يا للأسف، فرونتينو...»

ابتسم لورينزو مولا وقال: «إنكِ حالمة، أيتها الرومانسية. تتأثرين بسهولة، يا جوليا.»

قالت وهي تتماسك: «هذا صحيح. انتباه! بحقّ الآلهة! ارفعوا الرؤوس يسارًا! انظروا!»

اعتدلوا في السروج وأداروا رؤوسهم باتجاه المنصّة التي صُفّت عليها العروش والمقاعد.

"أرى فولتست"، قالت جوليا في سرها. "ذلك الملتحي هو على الأرجح هنسلت ملك كيدوين، أما ذلك الوسيم فهو ديمفند ملك أيدرن. تلك السيدة الجليلة لا بدّ أن تكون الملكة هِدويغ ... وذلك الشاب اليافع جوارها هو الأمير رادوفيد، ابن الملك المقتول... ياله من صبي مسكين..."

هتف الجمهور بصوتٍ واحد: «عاشت الكوندوتييري! عاشت جوليا أباتيماركو! هورررا لأديو بانغرات! هورررا للورينزو مولا!»

هتف بعضهم: «عاش الضابط (كونستابل) ناتاليس!»

صاح آخرون: «عاش الملوك! عاشت فولتست وديمفند وهنسلت!»

زمجر متزلّفٌ: «عاش ديكسترا!»

صرخت عدّة أصواتٍ كانت قد دُفعت أجرًا لذلك: «عاش صاحب القداسة!»

نهض كبير كهّان نوفيغراد، سايرس إنغل كايند هيميلفارت، وحيّى الجموع والجيش المارّ برفع ذراعيه، مديرًا ظهره بطريقةٍ غير ملائمةٍ نحو الملكة هدويغ والأمير الصغير رادوفيد، حاجبًا إياهما بأذيال ثوبه الفضفاض.

فكّر الأمير رادوفيد وهو مُخفىً خلف مؤخرة الكاهن البدين:
"لا أحد سيهتف "عاش رادوفيد". لا أحد سينظر إليّ حتى. لن يرفع أحدٌ صوته تكريمًا لأمي. ولن يذكروا والدي بشيءٍ من المجد. رغم أنّه ساهم في هذه المصالحة، في هذا التحالف، وهو نفس السبب الذي قُتِل من أجله."

أحسّ بشيءٍ يشبه نظراتٍ تلامس قفا عنقه، ناعمةً وحارّةً كأنّها قبلة امرأةٍ في حلمٍ ما. التفت برأسه فرأى عيني فيليبا إيلهارت السوداوين العميقتين تحدّقان فيه.

"انتظري فقط"، فكّر الأمير محوّلًا بصره بعيدًا عنها، "فقط انتظري."

لم يكن أحدٌ ليتنبأ آنذاك أو يتخيّل أنّ هذا الفتى ابن الثلاثة عشر ربيعًا — الذي صار مجرّد شخصيةٍ بلا تأثيرٍ يذكر، في دولةٍ يحكمها مجلس الوصاية وديكسترا — سيكبر فيصبح ملكًا. ملكًا ردّ الاعتبار لنفسه ولوالدته نظير الإهانات التي لحقت بهما، وصار يُعرَف في التاريخ باسم رادوفيد الخامس الصارم.

تعالى هتاف الحشود، وتهاوت الزهور تحت سنابك خيول الكوندوتييري التي تواصل مسيرتها الاستعراضية.

* * *

قال أديو بانغرات: «جوليا؟»

ردت جوليا أباتيماركو: «نعم، أديو.»

فاجئها بطلبه: «تزوجيني. كوني زوجتي.»

توقّفت كيتي الجميلة عن الكلام طويلًا، بينما تستجمع أنفاسها من وقع الدهشة. وهتف الجمهور بحماسة. وكان كبير كهّان نوفيغراد، سايرس إنغل كايند هيميلفارت، واقفًا فوق منصة العرض، يتصبّب عرقًا وينهج كسمك قرموطٍ ضخْم، يبارك سكان المدينة والموكب والمدينة والعالم أجمع.

قالت جوليا بارتباك: «لكنّك متزوّج، آدم بانغرات!»

أجاب آدم: «أنا منفصل حاليًّا. سأسعى للطلاق.»

لم تنبس جوليا أباتيماركو ببنت شفة. أدارت رأسها بعيدًا، وقد استبدّ بها الذهول والارتباك... والسعادة أيضًا. ولعل الله وحده يعلم سبب ذلك.

هتف الحشد، وألقى الزهور في الهواء. وأطلقت الألعاب النارية والمقذوفات صخبًا وهي تنفجر فوق أسطح البيوت.

وجأرت أجراس نوفيغراد بأنينٍ حزين.

* * *

فكّرت نينيكي: "ها هي امرأةٌ كاملة الآن. حين أرسلتُها إلى الحرب، كانت فتاةً صغيرة، وها هي تعود امرأةً واثقة، واعية بنفسها، هادئة، رصينة، أنثوية. لقد خرجت منتصرة في تلك الحرب، إذ رفضت أن تسمح لها بتحطيمها."

قالت إيورنييد وهي تواصل سرد القائمة بصوتٍ رقيقٍ، لكنه واثق: «ديبورا... ماتت بالتيفوس في معسكرٍ بمايينا، وغرقت برين في نهر الياروغا عندما انقلب القارب الذي كان ينقل الجرحى. أما ميرّا، فقُتلت على يد ''سناجب'' الجان أثناء هجومهم على مستشفى ميدانيّ في آرميريا ... وكاتيي...»

حثّتها نينيكي برفق: «أكملي يا ابنتي.»

قالت إيورنييد وهي تغالب حشرجة البكاء التي احتبست في حلقها: «كاتيي... التقت جنديًّا جريحًا من نيلفجارد في المستشفى. عادت معه إلى نيلفجارد بعد إبرام السلام، عندما جرى تبادل أسرى الحرب.»

تنهدت الكاهنة البدينة قائلة: «كنتُ دائمًا أردّد أنّ الحب لا يعرف حدودًا ولا حواجز. ماذا بشأن أيولا الثانية؟»

أجابت إيورنييد بسرعةٍ مطمئنة: «ما زالت على قيد الحياة. هي في ماريبور »

سألت نينيكي: «ولماذا لا تعود؟»

انحنت المبتدئة برأسها وقالت بهدوء: «لن تعود إلى المعبد، يا أمي. لقد التحقت بمستشفى السيد ميلو فاندر بيك، الجرّاح القزم. وقالت إنّها تريد رعاية المرضى، وإنّ هذا هو ما ستكرّس نفسها له لا غير. فاغفري لها، أمي نينيكي.»

قهقهت الكاهنة بخفة: «أغفر لها؟ إنني فخورةٌ بها.»

* * *

همست فيليبا إيلهارت بصوتٍ حانق: «لقد تأخّرتَ عن الاحتفال الذي شرفه الملوك. بحق ألف شيطان، سيجيسموند، غطرستك بشأن البروتوكول معروفة بما فيه الكفاية دون أن تستعرضها بهذا الشكل الفاضح. وخصوصًا اليوم، في مثل هذا اليوم...»

أجاب ديكسترا وهو ينحني بتهذيب أمام نظرة الملكة هدويغ وحاجبي كبير كهّان نوفيغراد المرفوعين: «كانت لديّ أسبابي.» ثم لاحظ على الفور التكشيرة التي علت وجه الكاهن ويليمر، ونظرة الاحتقار على ملامح الملك فولتست الوسيم إلى حدٍّ مستفز.

قال ديكسترا بلهجةٍ منخفضة: «عليّ التحدث إليكِ، يا فيل.»

قطّبت فيليبا حاجبيها: «على انفراد، على الأرجح؟»

ابتسم ديكستر ببرود وقال: «هذا الأفضل. ولكن إذا رأيتِ أن من المناسب أن يطّلع آخرون على الأمر، فلا مانع لديّ من بضع عيونٍ إضافية. ولتكن مثلاً عيون السيدات الجميلات في مونتيكالڤو.»

همست الساحرة من خلف ابتسامتها: «اخرس.»

سأله: «متى يمكنني توقّع مقابلتك؟»

قالت فيليبا وهي تصرفه: «سأفكّر وأخبرك. والآن دعني وشأني. إنها مراسمٌ مهيبة، واحتفالٌ عظيم. وأذكّرك بذلك إن كنت لم تُدركه بنفسك.»

ردّ ديكسترا ببرود: «احتفالٌ عظيم؟»

قالت فيليبا بصوتٍ مفعمٍ بالثقة: «إننا على عتبة عهدٍ جديد، يا ديكسترا.»

هزّ الجاسوس كتفيه بلا مبالاة.

هتف الجمع، وانطلقت الألعاب النارية في السماء. وقرعت أجراس نوفيغراد، قرعت للمجد والنصر، لكن أنغامها بدت على نحوٍ ما كئيبة.

* * *

قالت لوسيان وهي تسلّم اللجام: «أمسك باللجام، يا جار، فقد شعرتُ بالجوع وأريد قضم شيءٍ ما. خذ، سألفّ الحزام على ذراعك. أعرف أن هذه الذراع ليست ذات فائدةٍ كبيرة.»

شعر جاري بوجهه يشتعل خجلًا ومرارة. لم يعتد بعد على وضعه. ما زال يتصوّر أنّ الدنيا بأسرها لا شاغل لها سوى التحديق ببتر ذراعه، وبكمّه المخيط فوقه. وكأنّ الناس لا تفكّر إلا بشفقته المصطنعة وتعامله باعتباره عاهةً تثير الاشمئزاز، فتشوّه الجمال من جرّاء وجودها بكل جرأة.

ومع ذلك، تميّزت لوسيان عن الآخرين في هذا الشأن؛ فهي لا تتظاهر بعدم رؤيتها ما أصابه، ولا تبالغ في مساعدةٍ مهينة أو شفقةٍ أكثر إيلامًا. كاد جار يصدّق أنّ هذه الفتاة الشقراء التي تقود العربة تعامله على نحو طبيعي وعاديّ. لكنه نبذ تلك الفكرة عن رأسه، ورفض التسليم بها.

ذلك أنه لم ينجح بعد في أن يتعامل مع نفسه بنحوٍ طبيعي.

تشقّقت مركبة الجرحى العسكريّين واهتزّت فوق الطريق. كانت الأمطار قد انقضت سريعًا وجاء الطقس الحارّ بعدها، فتحوّلت الأخاديد التي خلّفتها قوافل الجيش إلى نتوءاتٍ وصلبانٍ جافّة صلبة ذات أشكال عجيبة، اضطُرّت العربة ذات الأحصنة الأربعة إلى تخطّيها بصعوبة. وكانت العربة تكاد تقفز كلّما عبرت أخدودًا أعمق، مُصدِرةً صريرًا وهي تتمايل يمينًا ويسارًا كالسفينة في العاصفة. وراح الجنود المبتورو الأطراف — خصوصًا من بُترت سيقانهم — يصبّون شتائمهم المُتقنة البذيئة، بينما تشبّثت لوسيان بجاري كي لا تسقط، تعانقه وتمنحه دفئها العجيب، ونعومتها الفائقة، ومزيجها المُغرِي من روائح الأحصنة وأحزمة الجلد والتبن والشوفان وعرق الفتيات اليافعات القويّ.

هزّت حفرةٌ أخرى العربة، فتولّى جاري لفّ فائض اللجام حول رسغه. وكانت لوسيان — وهي تتناول لقيمات متعاقبة من رغيف خبزٍ وقطعة نقانق — تستندُ بجانبها عليه.

قالت لوسيان وهي تُشِير إلى ميداليّته النحاسية وتستغلّ انشغاله باللجام:

«مهلًا، أيّها الصبي! أرأيتَ؟ هل أوقعوك أيضًا في فخّ تلك القلادة الساحرة التي تُسمّى "المنسيّة لا تُنسى"؟ يا له من أحمق ذاك الذي اخترعها، فقد لاقت رواجًا كبيرًا في زمن الحرب، ولم يتجاوزها في ذلك سوى الخمرة. ما اسم الفتاة المنقوش بداخلها؟ دعنا نرى...»

احمرّ وجه جاري كالبنجر، وقال متلعثمًا:

«لو... لوسيان. أرجوكِ... ألا تفتحيها... سامحيني، لكنّ الأمر يخصّني وحدي. لا أقصد إهانتك، غير أنّ...»

قفزت العربةُ مجدّدًا، فتشبّثت لوسيان بجاري، فصمت خوفًا من أن يُفلتها.

قرّبت الفتاةُ القلادة من عينيها وتهجّأت بصعوبةٍ:

«سي... ري... لا. إذًا هي سيريلّا هذه؟ لا تقلق، لن تنساك. أقصد سيريلّا هذه، إن كانت تحبّك حقًّا. فما جدوى تلك التعويذات والتمائم السخيفة؟ إن كانت تحبّك حقًّا، فلن تنساك. ستظلّ وفيّة، وستنتظرك.»

قال جاري وهو يرفع ذراعه المبتورة:

«تنتظرني؟ تنتظرني لماذا؟»

ضيّقت لوسيان عينيها الزرقاوين قليلًا وقالت بثبات:

«إن كانت تحبّك حقًّا، فهي تنتظرك، وما سوا ذلك هراء لا يعنيني. أعرف ذلك جيّدًا.»

سألها جاري متردّدًا:

«يبدو أن لكِ في هذا الأمر خبرةٌ عظيمة؟»

احمرّت وجنتاها قليلًا وقالت بانزعاجٍ مصطنع:

«ليس من شأنك ما عشته، ومع مَن. ولا تظنّ أنّني من تلك الفتيات اللاتي تكفيهنّ إشارةٌ فيندفعن لـ"خوض بعض... التجارُب" في التبن. لكنني أعرف ما أعرفه. إذا أحبّتِ الفتاةُ رجُلًا، تحبّه كلّه لا بعضه. حينها لا يهمّ إن فقد أحد أجزائه.»

ارتفعت العربة فجأة، فقطع جاري أسنانه غيظًا واستنشق ما استطاع من رائحة الفتاة الدافئة.

قال بصوتٍ خافت:

«تبسّطين المسألة كثيرًا يا لوسيان، بل تبسّطينها وتُلبسينها حُلّة المثاليّة. ألا يخطر ببالكِ أنّ هناك "تفصيلًا صغيرًا" يجعل مقدرة الرجل على إعالة زوجةٍ وأطفال معلّقةً بكونه... سليم الجسد؟ المعاق لا... لا يستطيع...»

قاطعته العربة بهزّةٍ أخرى، فابتلع بقية كلماته.

صاحت، مقاطعةً كلامه بنبرةٍ جافّة:

«هيه، هيه، هيه! لا تبكِ على ثوبي! على الأقلّ "الرداء الأسود" (جنود نيلفغارد) لم يقطعوا رأسك، وعندك عقلٌ تشتغل به. لماذا تحدّق هكذا؟ صحيحٌ أنا فتاةٌ ريفيّة، لكن عندي أذنان وعينان. وقدرةٌ كافية لأميّز نبرة الكلام حين تكون نبرةً فخمة وعالِمة. وبالإضافة إلى...»

انحنت برأسها وسعلت. فسعل جاري هو الآخر. واهتزت العربة من جديد.

أكملت وهي تتحاشى النظر إليه:

«وبالإضافة إلى ذلك، فقد سمعتُ الآخرين يقولون إنك ناسخ. وقسّ في معبد. إذًا انظر بنفسك، تلك الذراع... مجرّد تفصيل، لا أكثر ولا أقل.»

لم تتأرجح العربة منذ برهة، لكنّ جاري ولوسيان بدا أنّهما لم يلحظا ذلك إطلاقًا. ولم يُزعجهما البتة.

قالت الفتاة بعد صمتٍ طويل:

«يبدو أنني أجذب أهل العلم. فقبل زمنٍ... صادف أن راودني أحدهم... وكان مثقفًا وتعلّم في الأكاديميات. من اسمه تستطيع أن تستنتج ذلك.»

سأل جاري متردّدًا:

«وما كان اسمه؟»

أجابت:

«سمِستر.»

جاء صوت العريف كورنكرايك من خلفهما، وكان رجلًا كالح المزاج، أصيب أثناء معركة "ماييبنا":

«أيّتها الآنسة، لو تكرّمتِ، اصفعي ظهور الأحصنة بالسوط؛ عربتكِ تزحف كما يتدلى المخاط على حائط!»

أضاف جريحٌ آخر، وهو يحكّ نفسه عند طرفٍ مبتورٍ مغطى بندبةٍ لامعة تحت البنطال المطويّ:

«صدّقيني، مللتُ هذه البراري! أحنُّ الآن إلى حانةٍ أحتسي فيها جعةً. ألا يمكننا الإسراع قليلًا؟»

استدارت لوسيان على المقعد وقالت:

«بوسعنا طبعًا. لكن إن انكسرت القصبة (الدعّامة) أو محور العجلة فوق كتلةٍ صلبة، فسوف تقضون أحد يومي الأحد أو كليهما تشربون ماء المطر أو عصارة البتولا، بانتظار من ينجدكم. إذ لا تستطيعون المشي على أرجلكم هذه، ولن أحمل أحدًا على ظهري. أليس كذلك؟»

ابتسم كورنكرايك ابتسامةً خبيثة وقال:

«يا للخسارة الكبيرة! فأنا أحلمُ ليلًا بأن تحمّليني... على ظهركِ، أعني... من الخلف. فأنا أُحبّها هكذا. وأنتِ، آنسة؟»

صرخت لوسيان غاضبةً:

«أيّها المعاق الوقح! أيها التيس القذر! يا...»

لكنّها توقّفت فجأة حين أبصرت الوجوه التي تشاركها العربة وقد امتقع لونها وأخذت شحوبًا أقرب إلى الموت.

تنهّد واحدٌ منهم باكيًا:

«تبًّا! كنّا قريبين جدًّا من الديار...»

قال كورنكرايك بصوتٍ هادئٍ خالٍ من أي انفعال، كما لو أنّه يقرّ حقيقةً لا جدال فيها:

«قضي علينا...»

"ويقال" — فكّر جاري في نفسه — "إنّه لم تبقَ "سناجب" بعد الآن. وإنّهم كلهم قُتلوا. وأنّ قضية الجان قد حُلّت، كما يزعمون."

كان هناك ستّةٌ من الفرسان. لكن، وعند التدقيق، اتّضح أنّ الخيول ستّة، بينما كان الفرسان ثمانية؛ إذ امتطى اثنان منهم جوادَيْن بشكلٍ ثنائيّ. كانت جميع الخيول تمشي بخطًى متصلّبةٍ ومتباينة، ورؤوسها متدلّية. وبدا عليها البؤس والإجهاد الشديد.

شهقت لوسيان بصوتٍ عالٍ.

اقترب الإلف (الجان) أكثر، وقد ظهر أنّ حالتهم أسوأ من حالة الخيول ذاتها.

لم يبقَ من كبريائهم شيء، ولا من فرادتهم المتعالية المبنية بشقّ الأنفس. بدت ملابسهم — التي كانت عادةً جميلة ومتقنة حتى على أفراد الكوماندوز — متسخةً، ممزّقةً، وملطّخة بالبقع. وكانت شعورهم الطويلة موضع فخرهم — قد بدت متشابكةً ومتجلّطةً بدمٍ تخثّر وأوساخٍ لزجة. أمّا عيونهم الواسعة — التي كانت يومًا ما تنضح بالغرور أو الخواء — فقد غدت الآن كهوفًا تملؤها الرهبة واليأس.

لم يبقَ شيءٌ من اختلافهم السابق؛ فالموت والرعب والجوع والتشرّد بدّلتهم كليًّا، ليصيروا أناسًا عاديّين، عاديّين جدًّا.

بل حتّى إنّهم تخلّوا عن كونهم مصدرًا للرعب.

للحظةٍ، تصوّر جاري أنّهم سيتجاوزونهم فحسب، يعبرون الطريق إلى الغابة المقابلة ويختفون فيها، دون أيّ التفاتةٍ للعربة أو ركّابها. وكأنّ كل ما سيظلّ من ذكرهم هو تلك الرائحة التي لا تمتّ للإلف بشيء، رائحةٌ نتنة، بائسة، يعرفها جاري جيدًا من المستشفيات الميدانية؛ رائحة البؤس والبول والأوساخ والجروح المتقيّحة.

مرّوا بهم دون أن يعيروهم انتباهًا.

لكن ليس جميعهم.

أوقفت جنيةٌ ذات شعرٍ داكنٍ التصق بدمٍ متخثّر حصانها قُبالة العربة مباشرةً. كانت تجلس في السرج مائلةً، تحمي ذراعها الملفوفة في ضمادةٍ غارقةٍ بالدماء، يطنّ حولها الذباب.

التفت جانٌ آخر وقال:

«Toruviel. En’ca digne, luned.» (توروفييل، لا تفعلي ذلكِ، يا فتاة)

على الفور أدركت لوسيان ما يحدث، وفهمت ما الذي تنظر إليه الإلفيّة. كانت الفتاة الريفيّة تعرف منذ طفولتها شبح الجوعِ الأزرق الرماديّ الذي يكمن عند زاوية كوخها. لذا تصرّفت بغريزةٍ لا تخطئ؛ مدّت قطعة الخبز نحو الإلفيّة.

قال الإلف نفسه مجددًا وهو الوحيد الذي بقيت على كمّ سترته المغبرّة الممزّقة شارةُ البرق الفضي الخاصة بلواء فريهِد:

«En’ca digne, Toruviel.» (كفى، لا تأخذي ذلك يا توروفييل)

كان المصابون على العربة — وقد استولى عليهم الذعر حتى صُعِقوا وبقوا في صمتٍ تام — يستفيقون الآن كما لو أيقظتهم تعويذةٌ سحرية. وظهرت قطع أرغفة الخبز، ودوائر الجبن، وقطع الشحم، والنقانق — وكأنما نشأت من العدم — في أيديهم، وقد مدّوها نحو الإلف.

قال الراوي: ولأوّل مرةٍ منذ ألف عام، كانت أيدي الإلفيّة تمتدّ نحو البشر.

ولأوّل مرّة أيضًا، كانت لوسيان وجاري أول من رأى الدموع تبلّل وجوه الجان. رأياهم ينتحبون بحشرجةٍ، دون أن يُحاولوا حتى مسح الدموع المتدفّقة على وجوههم المتّسخة، ليفنّدوا بذلك الزعم القائل إنّ الإلف لا يملكون غددًا دمعيّة إطلاقًا.

قال الإلف ذو شارة البرق الفضيّ على كمّه بصوتٍ متقطّع: «En’ca … digne» "(كفى ... لا تفعلي ذلك)

ثم مدّ يده وتناول قطعة الخبز من يد كورنكرايك.

قال بصوتٍ أجشّ، وهو يجاهد ليُكيّف شفتَيه ولسانه مع اللغة الغريبة: «شكرًا ... شكرًا أيها الإنسان.»

وبعد وقتٍ قصير، لمّا انقضى المشهد كلّه، نقرت لوسيان بلسانها تأمر الأحصنة بالمسير ولوّحت باللجام. فانطلقت العربة تئزّ وتترنّح، ولم ينبس أحدٌ ببنت شفة.

وعند اقتراب المساء، بدأت الطريق تعجّ بأفواج الفرسان المدرّعين. وكانت تقودهم امرأةٌ ذات شعرٍ أبيض قصيرٍ تمامًا، ولها وجهٌ شرسٌ مشوّهٌ بالندوب؛ واحدةٌ منها تمتدّ من صدغها حتى زاوية فمها، وأخرى تشبه حدوةً تحيط بمحجر عينها. كما كانت تفتقد جزءًا كبيرًا من أذنها اليمنى، فيما ذراعها اليسرى تنتهي عند ما دون المرفق حيث استُبدلت بكمٍّ جلديّ وخطّافٍ نحاسيّ ثُبّتت عليه زمام حصانها.

نظرت المرأة إليهم بعينين مليئتين بالحقد والرغبة في الانتقام، ثم قالت وهي تجول ببصرها: «أخبروني عن الإلف. عن الـ **Scoia'tael** السيكوتايل عن الإرهابيّين. عن الفارّين، أولئك الذين نجوا من وحدة الكوماندوز التي دُمِّرت قبل يومين.»

تحاشى جاري ولوسيان والجرحى نظرات المرأة بيضاء الشعر، أحاديّة الذراع، وردّوا بتمتماتٍ غير مفهومةٍ أنّهم لم يروا أحدًا ولم يقابلوا أحدًا.

"أنتم تكذبون"، فكّرت رايلا البيضاء — التي كانت تُعرف سابقًا بـ«رايلا السوداء» — "أعرف أنكم تكذبون، تكذبون بدافع الشفقة."

"لكنّ الأمر لا يهم."

"فأنا، رايلا البيضاء، لا أعرف للشفقة سبيلًا."

* * *

تردّد هتافٌ مدوٍّ في شوارع نوفيغراد:

«هووورررااه، عاش الأقزام! عاش باركلاي إيلس!»

«عاش الأقزاااام!»

دوى وقع أحذية المحاربين القدامى من الفوج التطوعيّ على الطريق المرصوفة، وكانت أبواقهم الحديديّة الثقيلة تضرب الأرض بقوة. تقدّم الأقزام في تشكيلٍ نموذجي لهم، خمسةً خمسةً، وقد رفرفت رايتهم التي تحمل رسم المطارق فوق صفوفهم.

صرخ جمعٌ آخر:

«عاشت ماهكام! عاشت الأقزام!»

«المجد لهم! والخلود لبطولاتهم!»

فجأةً دوّى ضحكٌ من مكانٍ ما وسط الحشد. سرعان ما انضمّ إليه آخرون، وفي غضون لحظاتٍ كان الجميع ينفجر ضاحكًا.

لهث كبير كهّان نوفيغراد سايرس هيميلفارت غضبًا:

«إنه إهانةٌ... إنها فضيحةٌ... إنه أمرٌ لا يُغتفر...»

غمغم الكاهن ويليمر بحنقٍ:

«ما أوقح الناس.»

نصحهم فولتست بهدوءٍ:

«تظاهروا بأنكم لا ترون شيئًا.»

قالت ميف بمرارةٍ:

«كان يجب ألّا نبخل عليهم بأجورهم. ولا أن نحرمهم حصصهم التموينية.»

حافظ ضبّاط الأقزام على وقفتهم وهيئتهم الرسمية، كانوا منتصبين ومحيويين أمام المنصّة. أمّا ضباط الصف والجنود في الفوج التطوعي، فقد عبّروا عن سخطهم تجاه تخفيض الميزانية الذي فرضه الملوك والهيرارخ. بعضهم رفع أذرعهم وهم يثنون الأكواع في إشارةٍ معروفة، وآخرون استخدموا حركتهم المفضّلة الأخرى؛ القبضة المضمومة مع إصبع الوسط مرفوعًا بقسوة. كانت تلك الحركة تُدعى في الأوساط الأكاديمية "digitus infamis" (الإصبع المشين)، بينما تُعرف بين العامة بتسميةٍ أكثر فظاظة.

لم يكن احمرار وجوه الملوك والكاهن الكبير دليلًا إلا على معرفتهم بالاصطلاحين معًا.

ردّدت ميف:

«ما كان ينبغي لنا أن نُهينهم ببخلنا. إنهم قومٌ يعتزّ بأنفته.»

* * *

علا نُواحٌ من مكانٍ ما في إلسكيرديغ، اشتدّ حتّى صار عويلًا مُرعبًا. ومع ذلك، لم يلتفت أحدٌ ممّن جلسوا حول نار المخيّم.

تكلم بورياس مون أخيرًا بعد صمتٍ طويل:

«لقد تغيّر العالم. تحقّق العدل.»

ابتسم الحاجّ ابتسامةً خفيفة وقال:

«حسنًا، قد تكون مبالغًا في قولك "عَدْل". لكنني أوافقك بأنّ العالم قد تأقلم بشكلٍ ما مع القانون الفيزيائي الأساسي.»

سأل الإلف بنبرةٍ متمهّلةٍ وهي تجرّ حروفها:

«أتساءل إن كنا نفكّر في القانون نفسه؟»

قال الحاجّ:

«كلّ فعلٍ يولّد رد فعل.»

أطلق الإلف صوتًا أشبه بالشخير، لكنه بدا شخيرًا وديًّا:

«أُحرزت نقطةٌ لصالحك، أيها البشري.»

* * *

قال القاضي بصوتٍ جهوريّ في قاعة المحكمة:

«ستيفان سكيلين، ابن برترام سكيلين، قف منتصبًا. لقد قضت المحكمة العليا للإمبراطورية الأبدية، بعون الشمس العظمى، بإدانتك بارتكاب الجرائم والأفعال غير الشرعية المنسوبة إليك، وهي: الخيانة والمشاركة في مؤامرةٍ ترمي إلى تنفيذ اعتداءٍ دمويٍّ على النظام القانونيّ للدولة الإمبراطورية، وعلى شخص صاحب الجلالة الإمبراطوريّ. لقد ثبُت جرمك، يا ستيفان سكيلين، وتأكد يقينًا، ولم تعثر المحكمة على ظروفٍ مخفّفة، فلم يمنحك صاحب الجلالة الإمبراطوري عفوًا ملكيًا.

ستيفان سكيلين، ابن برترام سكيلين. ستُنقَل من قاعة المحكمة إلى القلعة، ومنها، متى حان الموعد المحدّد، سيُؤخَذ بك خارجها. وبوصفك خائنًا لا يستحقّ أن تطأ قدماه أرض الإمبراطورية، سيُوضَع جسدك على عربةٍ خشبية تُجرّها الخيول إلى ميدان الألفيّة. وبوصفك خائنًا لا يستحقّ أن يستنشق هواء الإمبراطورية، ستُعلَّق من عنقك على مشنقةٍ، على يد الجلّاد، بين السماء والأرض. وستظلّ مُعلّقًا إلى أن تفارق الحياة. ثم سيُحرَق جثمانك وتُذرّى رمادُك في جهات الأرض الأربع.

يا ستيفان سكيلين، ابن برترام، أيّها الخائن: أنا رئيس المحكمة العليا للإمبراطورية، إذ أنطق بحكمك، أذكر اسمك للمرّة الأخيرة. ليُنسَ هذا الاسم من الآن فصاعدًا.»

* * *

صاح البروفيسور أوبِّنهاوزر وهو يقتحم مكتب العميد:

«إنها تعمل! إنها تعمل! يا سادة، لقد نجحت أخيرًا! أخيرًا! إنها تدور! إنها تعمل! إنها تعمل!»

سأله الأستاذ جان لا ڤوازير — أستاذ الكيمياء، الملقّب بـ«البيض الفاسد» من قِبل طلبته — مباشرةً وبنبرةٍ مليئةٍ بالشكّ:

«حقًّا؟ يستحيل هذا! وما الذي — للمجرّد من الفضول — يعمل؟»

هتف أوبِّنهاوزر:

«آلتي ذات الحركة الدائمة (perpetual motion machine)!»

سأله الأستاذ إدموند بومبلر، أستاذ علم الحيوان الوقور، باهتمامٍ ظاهر:

«آلة حركة دائمة؟ حقًّا يا زميلي العزيز؟ ألستَ مبالغًا؟»

صاح أوبِّنهاوزر وهو يثبُ كالعنز:

«لا أبالغ مطلقًا! عملتُ عليها ثلاثين سنة، والآن ها هي تعمل! وضعتُها في الحركة فاستمرت بالدوران بلا انقطاع، بلا توقّف، للأبد والأبد. لا أستطيع وصف ذلك، عليكم رؤيتها بأنفسكم! هلمّوا إلى مختبري حالًا!»

اعترض الأستاذ «البيض الفاسد» وقد كان يتناول إفطاره:

«إنني أتناول إفطاري،» بيد أنّ اعتراضه ضاع في جلبة الحاضرين وحماسهم. فقد ألقى الأساتذة والمعيدون والطلبة خفافاتهم وأرديتهم على عجل، واندفعوا نحو الخارج بقيادة أوبِّنهاوزر، الذي واصل الصياح والإشارة بيديه. فما كان من «البيض الفاسد» إلّا أن لوّح لهم بحركة (الإصبع المشين)، ثم عاد إلى لفافته المحشوة.

سار جمعٌ صغيرٌ من أهل العلم — وكان ينضمّ إليهم آخرون في الطريق، بدافع فضولهم لرؤية نتيجة جهود أوبِّنهاوزر التي امتدت ثلاثين عامًا — بسرعةٍ نحو مختبر الفيزيائي الشهير. ولمّا كادوا يفتحون الباب، اهتزّت الأرض فجأةً تحت أقدامهم. اهتزازًا حقيقيًا. قويًّا، بل قويًّا جدًّا.

كانت تلك موجةً زلزالية، واحدةً من سلسلة الهزّات الأرضية التي تسبّبت بها الساحرات إثر تدميرهنّ "قلعة ستيغا"، المخبأ الذي كان يختبئ فيه "فيلغيفورتز"، في مقاطعة "إيبينغ" البعيدة. وقد وصلت تلك الموجة الزلزالية إلى مدينة "أوكسنفورت" على الرّغم من بُعد المسافة.

انفجرت عشرات قطع الزجاج بصوتٍ مدوٍّ من النوافذ الملوّنة في واجهة "قسم الفنون الجميلة". وسقط التمثال النصفيّ لـ"نيكوديموس دي بوت"، أوّل رئيسٍ للأكاديمية، والذي كان مشوّهًا بعباراتٍ فظّةٍ، من على قاعدته. كما وقع كوب شاي الأعشاب الذي كان به الأستاذ المعروف بـ"البيض الفاسد" يغسل لقيماته من الخبز المحشوّ، فسقط عن الطاولة. أما طالب الفيزياء في سنته الأولى، "ألبرت سولبيبترا"، فقد سقط من فوق "شجرة لسان الحمل" في حديقة الأكاديمية، وكان قد تسلّقها ليلفت انتباه بعض طالبات الطب.

وأما "آلة الحركة الدائمة" الخاصة بالبروفيسور "أوبّنهاوزر" — ذلك المحرّك الأسطوريّ الذي يُفترَض أن يدور إلى الأبد بلا توقّف — فقد استدار دورةً أخرى ثم توقّف نهائيًّا. ولم يكن ممكنًا مطلقًا إعادة تشغيله من جديد.

* * *

«عاشت الأقزام! عاشت ماهاكام!»

فكّر "هيرارخ هيميلفارت"، كبير كهّان نوفيغراد، وهو يبارك الاستعراض بيدٍ مرتعشة:

"ما هذه المجموعة المختلطة من الناس؟ أي زُمْرةٍ من الأشقياء هذه؟ لمن يهلّلون؟ مرتزقةٌ انتهازيون، وأقزامٌ بذيئون... يا لها من فئةٍ عجيبة! من الذي انتصر في هذه الحرب؟ هم أم نحن؟ بحقّ الآلهة، لا بدّ لي أن ألفت انتباه الملوك إلى هذا. حينما يبدأ المؤرخون والكتّاب عملهم، ينبغي فرض رقابةٍ صارمةٍ

على كتاباتهم؛ يجب طمس كلّ ذكرٍ للمرتزقة، والصيّادين مقابل الأجر، وقطاع الطرق المأجورين، واللا-بشريين، وكل العناصر المريبة، من سجلّات البشرية. يجب حذفهم تمامًا، محوهم محوًا. لا كلمة عنهم. ولا كلمة."

"ولا كلمةً عنه هو أيضًا،" فكّر هيميلفارت، مزمًّا شفتيه وهو يوجّه بصره نحو "ديكسترا"، الذي كان يتابع الاستعراض بتعبيرٍ يسوده الملل الواضح.

"لا بدّ من إعطاء الملوك تعليماتٍ فيما يخصّ ديكسترا. إن وجوده إساءةٌ للناس الشرفاء. إنه وثنيٌّ وخسيس. فليندثر دون أثر. وليُنسَ."

"فوق جثّتي أيها الخنزير الملوّن بالتقوى،" هكذا فكّرت "فيليبا إيلهارت"، وقد قرأت بسهولةٍ خواطر الكبير الكهّان المشتعلة.

"تريد أن تحكم وأن تملي وتؤثّر؟ تريد أن تتخذ القرارات؟ فوق جثّتي. لا تستطيع أن تحكم سوى على بواسيرك، وهي لا تهمّ إلا مؤخرتك. أما ديكسترا فسيبقى... ما دمتُ بحاجة إليه."

"سترتكبون خطأً يومًا ما،" فكّر الكاهن "ويليمر" وهو يتطلّع إلى شفتي فيليبا اللامعتين بلونٍ قرمزيّ.

"سيأتي يومٌ يخطئ فيه أحدكم. كبرياؤكم وغروركم وعظمتكم الزائفة ستكون هلاككم. وكذلك مؤامراتكم، وانحلالكم الأخلاقي. ذلك الانحطاط والانحراف الذي تستغرقون فيه وتحيون به. سيظهر للعيان، وستفوح رائحة خطاياكم حين ترتكبون الخطأ. لا بدّ أن يأتي ذلك اليوم. وحتى لو لم تخطئوا، فستتهيّأ فرصةٌ لإلقاء اللوم عليكم. قد تحلّ مصيبةٌ ما أو كارثةٌ أو وباءٌ—ربما طاعون أو جائحة—على البشر... فيُلقى ذنبها عليكم. لن يلوموكم على عجزكم عن منع الوباء، بل سيلومونكم على عجزكم عن إزالة آثاره. ستصبحون أنتم المسؤولين عن كل شيء. وعندها... ستُضرم النيران تحت الأخشاب."

* * *

كان القط العجوز المخطط، الذي يُدعى "جنجر" بسبب لون فرائه، يحتضر. كان يحتضر بطريقةٍ بشعة. كان يتدحرج ويتلوّى، يخدش الأرض، ويتقيّأ دمًا ومخاطًا، تغزو جسده التشنّجات. وإضافةً إلى ذلك، عانى إسهالًا دمويًا. أخذ يموء، بالرغم من أنّ المواء كان دون كرامته عادةً؛ يموء بشكلٍ كئيبٍ خافت، وما لبث أن بدأ يضعف بسرعة.

كان جنجر يعرف السبب وراء موته. أو على الأقل يشكّ في ماهيّة ما يقتله. قبل بضعة أيام، رست سفينة شحنٍ غريبة في ميناء سينترا، بدت قديمةً وقذرةً إلى حدٍّ كبير، أشبه بقطعةٍ مهملةٍ لا تكاد تصلح للإبحار، أوشكت أن تكون حطامًا. حمل اسمها، المنقوش بحروفٍ بالكاد تُقرأ على مقدمتها، كلمة "كاتريونا" لم يكن باستطاعة جنجر طبعًا قراءة تلك الحروف.

نزل جرذٌ من تلك السفينة المهترئة مستخدمًا حبل التثبيت، حطّ على الرصيف. جرذٌ واحدٌ فقط. كان ذلك الجرذ عاري الفرو تقريبًا، موبوءًا بالقمل، بطيئ الحركة، ويمتلك أذنًا واحدةً لا غير.

قتل جنجر الجرذ. وكان جائعًا، لكنه اتّبع غريزته التي منعته من أكل ذلك المخلوق البغيض. بيد أنّ عدّة براغيث كبيرةٍ لامعةٍ تعجّ في فراء الجرذ تمكّنت من الزحف إلى فراء جنجر والعيش فيه.

قال أحد المارة: «ما بال هذا القط اللعين؟»

وأضاف آخر: «ربما سمّموه. أو لُعن بسحرٍ ما!»

قالت امرأةٌ ضجرت من رائحته النفاذة: «أُف، يا لِهذه البشاعة! إنّه يصدر نتانةً فظيعة! أزيليه من على تلك الدرجات، يا امرأة!»

تصلّب جسد جنجر، وفتح فمَه الملطخ بالدم بصمت. ما عاد يشعر بالركلات أو نقرات المكنسة التي كانت ربّة المنزل تشكره بها الآن على إحدى عشرة سنةً قضاها في صيد الفئران. طُرد خارج الساحة، وعندها كان يحتضر في مصرف مياهٍ تغليه فقاعات الصابون وبول المارة. مات وهو يُمنّي نفسه بأن يصاب أولئك الناس عديمو الجميل بالمرض هم أيضًا، وأن يتألّموا كما تألّم.

وقد كانت أمنيته في طريقها للتحقق. وعلى نطاقٍ واسع. واسعٍ جدًا.

توقّفت المرأة التي طردت جنجر ورفعَت ثوبها لتحكّ ربلة ساقها أسفل الركبة. كان الموضع يحكّها.

فقد عضّتها برغوثة.

* * *

تألّقت نجوم سماء "إلسكيرديغ" بنورٍ كثيف. شكّلت خلفيّةً انطفأت أمامها شرارات نار المخيّم المتضائلة.

قال الإلف: «لا يُمكن اعتبار سلام سينترا، ولا الاستعراض الباذخ في نوفيغراد، نقطةَ تحوّلٍ أو علامةً فاصلة. ما هذه التصوّرات؟ السلطة السياسية لا تصنع التاريخ بواسطة قراراتٍ أو مراسيم. ولا تملك السلطة السياسية حقّ تقييم التاريخ، ومنح الدرجات له أو توصيفه، رغم أنّ كبرياء أي سلطةٍ يمنعها من الاعتراف بتلك الحقيقة.

ومن العلامات المتطرّفة على غطرسة البشر ما تُسمّونه "علم التأريخ"، أي محاولات إصدار الأحكام وإطلاق الأوصاف على ما تُسمّونه بـ"التاريخ القديم". هذا سلوكٌ بشريٌّ نموذجي، وينبع من حقيقة أنّ الطبيعة منحتكم حياةً قصيرةً أشبه بحياة الحشرات أو النمل، إذ نادرًا ما تعيشون لمئة سنة. لكنكم تحاولون تطويع العالم ليلائم حياتكم الزهيدة تلك.

ومع ذلك، يبقى التاريخ عمليةً لا تتوقّف أبدًا، ولا تنتهي. لا يمكن تقطيع التاريخ إلى أجزاءٍ منفصلة، من هنا إلى هناك، أو من هذه السنة لتلك. لا يمكنكم تحديد ماهية التاريخ، ولا تغييره ببيانٍ ملكيّ. حتى لو ربحتم حربًا.»

قال الحاجّ وهو يهزّ رأسه: «لن أدخل في جدالٍ فلسفيّ. كما قيل من قبل، أنا رجلٌ بسيطٌ ولستُ بليغًا كثيرًا. لكن أسمح لنفسي بملاحظتين: أولًا، إن قِصَرَ عمرنا كبشر—على غرار الحشرات—يحمينا من التفسّخ، ويدفعنا إلى احترام الحياة، والعيش بكثافةٍ وإبداعٍ لنستثمر كلّ لحظةٍ منها وننعم بها. أتحدّثُ وأفكّرُ بصفتي إنسانًا، لكن الإلفيّة (الجان) الذين يعمّرون طويلًا فكروا كذلك، فخرجوا يقاتلون ويموتون في وحدات الكوماندوز (Scoia'tael). إن كنتُ مخطئًا، فليصحّحني أحدكم.»

انتظر الحاجّ برهةً ملائمةً، لكن ما من أحدٍ قاطعه أو صحّحه.

استأنف يقول: «ثانيًا، يبدو لي أنّ السلطة السياسية، على الرغم من عجزها عن تغيير مجرى التاريخ، تستطيع—بأفعالها—أن تخلق وهمًا لا بأس به ومظهرًا يوحي بقدرتها تلك. إنّ السلطة تملك أدواتٍ ووسائل تتيح لها ذلك.»

قال الإلف وهو يُشيح بوجهه: «أجل، لقد أصبت الهدف هنا، أيها الحاج. إنّ السلطة تمتلك أساليب وآليات. وهي أمورٌ لا تقبل النقاش بتاتًا.»

* * *

ارتطمت سفينة التجذيف بالركائز الخشبيّة المتحجّرة بطبقاتٍ من الأعشاب البحرية والقواقع. وقُذِفت حبال الإرساء في الهواء. وتعالت أصوات الصراخ والسباب والأوامر.

صرخت النوارس وهي تفتّش في المياه الخضراء القذرة في المرفأ، باحثةً عمّا يمكن التهامه من فضلات. وكان الرصيف يعجّ بالبشر، أكثرهم يرتدي الزيّ العسكريّ.

قال قائد القافلة النيلفجاردي: «انتهت الرحلة، أيها السادة الإلف. لقد وصلنا إلى ديلينغن. انزلوا جميعًا! هناك من ينتظركم هنا.»

وبالفعل، كان هناك من ينتظرهم.

لم يكن أيّ من أفراد الإلف — لا سيّما إيسينغريم فاويلتيارنا — يُصدّق وعود المحاكمات العادلة أو العفو. فالجان من السناجب وضبّاط لواء فريهِد، لم تكن تراودهم أوهامٌ بشأن المصير المنتظر لهم على الضفة الأخرى من نهر الياروغا. وفي الأغلب، اعتادوا الأمر وتقبّلوه برصانة، وربما باستسلامٍ أيضًا. ولم يظنّوا أنّ شيئًا قد يدهشهم بعد الآن.

لكنهم كانوا مخطئين.

أُخرجوا من سفينة التجذيف، مُكبّلين بالأغلال التي تصدر أصواتَ رنينٍ واحتكاك، وسِيقوا إلى رصيف المرفأ، ثم إلى الشاطئ، وسط صفّين من المرتزقة المسلّحين. وكان هناك أيضًا مدنيّون، تتنقّل نظراتهم الثاقبة بسرعةٍ بين الوجوه والأجساد.

"انتقاءات"، فكّر فاويلتيارنا. ولم يخطئ في ذلك.

لم يتوقّع بطبيعة الحال أن تُغفل الندوبُ التي تشوّه ملامح وجهه. ولم تُغفَل فعلًا.

قال رجلٌ مدنيٌّ وهو ينظر إليه بتشفٍّ بارد: «السيد إيسينغريم فاويلتيارنا؟ الذئب الحديدي؟ يا لها من مفاجأةٍ سارّة! تعال معنا، تعال من هنا!»

جرّه المرتزقة خارج الصفّ.

صاح كوينيخ دا ريو موجّهًا إليه النداء: «Va fail!» "(وداعًا!)" ثم أضاف بلسان الإلف: « Se'ved, se caerme dea!» "(احرص على سلامتك، لعلّ الفرج آتٍ!)" إذ كان قد تعرّف إليه جنودٌ آخرون، يحملون شارات النسر الرِدانيّ على دروعهم الحديدية حول أعناقهم، فانتزعوه هو أيضًا من الصفّ.

قال المدني الذي اختار فاويلتيارنا وهو يزفر باستهزاء: «ستلتقون مجدّدًا، ولكن على الأرجح في الجحيم. إنهم ينتظرونه في دراكينبورغ. هيه، انتظروا! أليس ذاك السيد ريوردين؟ أمسِكوا به!»

في النهاية، استلّوا ثلاثةً فقط من بين الجميع. أدرك فاويلتيارنا ما يجري، وباغتته مشاعر الخوف على نحوٍ لم يتوقّعه.

صاح أنغوس بري كري وهو يُنتزع من الصفّ مصدِرًا رنين الأغلال: «Va fail, fraeren!» "(الوداع يا إخوتي!)"

دفعه أحد المرتزقة بعنف.

لم يُؤخَذوا بعيدًا. لم يصلوا إلا إلى أحد الأكواخ القريبة من المرفأ، بجوار الرصيف حيث تتمايل غابةٌ من الصواري.

أشار المدني بيده. دُفِع فاويلتيارنا نحو عمودٍ تحت عارضةٍ عُلّقت عليها حبال، يتدلّى منها خُطّافٌ حديديّ. أُجلِس ريوردين وأنغوس على كرسيَّيْن فوق الأرضية الترابيّة.

قال المدني بصوتٍ بارد: «السيد ريوردين، والسيد بري كري. لقد حصلتما على عفو. رأت المحكمة أن تظهر الرحمة.»

أضاف وهو لا ينتظر أي ردّ: «لكن لا بدّ للعدالة أن تتحقّق. عائلاتُ أولئك الذين قتلتموهم دفعوا لتجري الأمور هكذا، يا سادة. لقد صدر الحكم.»

لم يكد ريوردين وأنغوس يجدان وقتًا للصرخة؛ أُلقِيَت الحبال فوق عنقيهما، فاختنقا وسقطا مع الكرسيَّيْن وسُحِبا على الأرض. وبينما كانا يحاولان عبثًا بنزع الحبال المُحكَمة حول عنقيهما بأيديهما المقيّدة، انحنى الجلّادون على صدريهما. لمعت السكاكين وهوت، فتفجّر الدم. لم تمنع الحبال صراخهما المروع، ولم تخنق تلك العويلات المُقشعِرّة.

واستمرّ الأمر طويلًا، كما يحدث دائمًا.

* * *

قال المدني وهو يدير رأسه ببطء: «أمّا حكمك أنت يا سيد فاويلتيارنا، فقد أُلحِق به بندٌ إضافي.» ثم أردف: «شيءٌ زائد...»

لم يكن في نيّة فاويلتيارنا الانتظار لمعرفة ذلك الشيء الزائد. فأسقط قيد الحديد عن معصمه — ذاك الذي عمل على فكّه طيلة يومين وليلتين — كأنّ عصًا سحريّةً نقرت عليه. وبضربةٍ هائلةٍ من السلسلة

الثقيلة أسقط المرتزِقَيْن اللّذين يحرسانه. وفي اندفاعه، ركل وجه المرتزق التالي، ثم هَوَى بالسلسلة على المدني، وانطلق مندفعًا صوب النافذة العتيقة المكسوّة بغبار خيوط العنكبوت. اخترقها آخذًا معها الإطار والخشب، تاركًا دماءً وقطعًا من ثيابه عالقةً على المسامير. هبط على ألواح الرصيف الخشبيّ بقوّة، استدار ثم تدحرج للأمام، وألقى بنفسه في الماء بين قوارب الصيد والمراكب الصغيرة.

كانت السلسلة الثقيلة — المثبتة بمعصمه الأيمن — تجرّه نحو القاع. شرع فاويلتيارنا يصارعها بكل ما يملك من قوّةٍ ليتشبث بالحياة، تلك الحياة التي لم يكن يحسب لها حسابًا قبل لحظات.

صاح المرتزقة وهم يندفعون خارج الكوخ: «أمسكوا به! اقتلوه!»

صرخ آخرون وهم يركضون على طول الرصيف: «هناك! لقد ظهر هناك!»

قال بعضهم: «إلى القوارب!»

صاح المدني وهو يحاول بكلتا يديه أن يوقف تدفّق الدم من محجر عينه: «أطلقوا النار! اقتلوه!»

توتّرت أوتار الأقواس. حلّقت طيور النورس وهي تصرخ. واهتاجت المياه الخضراء العكرة بين القوارب بوابلٍ من السهام.

* * *

قال الحشد وقد أخذ منه التعب والبُحَّة: «ليحيا الجيش!»

«هورررراه!»

«المجد للملوك! المجد!»

نظرت فيليبا إيلهارت حولها لتتأكّد من عدم إصغاء أحد، ثم مالت نحو ديكسترا وقالت بهمس: «عمّا أردت الحديث معي؟»

نظر الجاسوس حوله هو الآخر وقال: «حول اغتيال الملك فيزيمير الذي وقع في يوليو الماضي.»

قالت فيليبا وهي ترفع حاجبيها: «عفوًا؟»

انخفض صوت ديكسترا أكثر: «النصف-إلف الذي نفّذ تلك الجريمة... لم يكن معتوهًا يا فيل. ولم يكن يتحرّك بمفرده.»

سألته: «ما الذي تقصده؟»

ابتسم ديكسترا وقال: «اصمتي، يا فيل. اصمتي.»

قالت فيليبا وهي ترمقه بنظرةٍ حادة: «لا تناديني باسم فيل. هل لديك أي أدلة؟ أي نوع من الأدلة؟ ومن أين حصلتَ عليها؟»

ابتسم ديكسترا ابتسامته المعهودة وقال: «ستُفاجئين يا فيل إذا أخبرتكِ من أين حصلت عليها. متى يمكنني أن أتوقّع مقابلتكِ يا سيّدتي المحترمة؟»

كانت عينا فيليبا إيلهارت تبدوان كبحيرتين سوداويتيْن بلا قرار.

قالت بنبرةٍ مقتضبة: «قريبًا، يا ديكسترا.»

عادت الأجراس تقرع. هتف الجمهور بصوتٍ مبحوح. كان الجيش يمرّ في الاستعراض بينما يتناثر الورد على حجارة الشوارع في نوفيغراد كأنّه الثلج.

* * *

سأل صوتٌ في الغرفة: «هل ما زلت تكتب؟»

انتفض أوري روفن وكاد يشوّه الورقة بالبقع. خدم أوري روفن لدى ديكسترا طيلة تسعة عشر عامًا، ومع ذلك لم يعتد قطّ على تلك الحركات الصامتة لرئيسه، والذي لا يدري أحدٌ من أين يأتي أو كيف يظهر.

قال وقد أخذ يجلو حلقه مرتبكًا: «مساء الخير، همم همم، يا سيـ...»

كان ديكسترا قد التقط مخطوطة من على الطاولة بخفةٍ ودون اعتذار. قرأ العنوان بصوتٍ واضح:

«رجال من الظلال. تاريخ أجهزة السرّ الملكية، تأليف أورِيباسيوس جيانفرانكو باولو روفن، ماجِستر... آهٍ يا أوري، أوري... رجلٌ عجوز، وما زلتَ تشغلك هذه الحماقات...»

همهم أوري بشيءٍ غير مفهوم: «هم، هم...»

واصل ديكسترا حديثه: «جئتُ لأقول وداعًا يا أوري.»

نظر إليه روفن مذهولًا.

تابع الجاسوس بلا انتظارٍ لأي اعتراضٍ من سكرتيره: «كما ترى، يا رفيقي الوفي، أنا أيضًا عجوز، واتضح أنني أحمق مثلك. قلتُ كلمةً واحدةً لشخصٍ واحد. مجرّد كلمةٍ واحدة. لكنها كانت كلمةً زائدة، وشخصًا زائدًا. أصغِ إليّ جيدًا يا أوري. هل تسمعهم؟»

هزّ أوري روفن رأسه نافياً وقد اتّسعت عيناه دهشةً. ظلّ ديكسترا صامتًا لبعض الوقت.

ثم قال بعد قليل: «أنت لا تسمعهم. لكنني أسمعهم أنا. في كلّ الممرّات. جرذانٌ تعدو في مدينة تريتوغور. إنهم يقتربون إلى هنا. يأتون على أقدام الجرذان الصغيرة، لينةٍ وصامتة.»

* * *

خرجوا من العتمة، بملابس سوداء وأقنعةٍ مخفية، خفّافًا كالجرذان. سقط الحراس والحماة في الردهات الأمامية صرعى بلا أنين، تحت ضربات خناجر ذات شفراتٍ ضيقةٍ وذات زوايا حادة.

سال الدم على أرض قلعة تريتوغور، وانتشر على البلاط، ولطّخ ألواح الخشب، وتشرّبته سجاجيد قادمة من فينغيربرغ.

تقدّموا عبر كلّ الممرّات، وخلفهم جثثٌ هامدة.

قال أحدهم وهو يشير بيده: «إنه هناك. دخل من هذا الباب. من خلال ديوان القصر حيث يعمل روفن، ذاك العجوز كثير السعال.»

ردّ الآخر، قائد المجموعة، وهو يُبرق بعينيه من خلال فتحات قناعه المخمليّ الأسود: «لا منفذ من هناك. الغرفة التي وراء ديوان القصر لا نوافذ فيها. لا منفذ على الإطلاق.»

أضاف رجلٌ ثالث: «جميع الممرّات الأخرى تحت السيطرة. وجميع الأبواب والنوافذ. لا يستطيع الهرب. لقد وقع في الفخّ.»

قال أحدهم بصوتٍ عالٍ: «إلى الأمام!»

استسلم الباب لركلاتهم. وبرقت الخناجر.

قال آخر: «الموت! الموت لذاك السفّاح الدّموي!»

سعل أوري روفن وقال بخفوت: «هم، هم؟» ثم رفع عينيه نصف الكليلتين فوق الأوراق.

قال ببرود: «نعم؟ كيف أستطيع... هم، هم... مساعدتكم، أيها السادة؟»

اقتحم القتلة باب غرفة ديكسترا الخاصة، وتحركوا فيها كالفئران، ينبشون في كل زاويةٍ وركن. مزقوا الأقمشة والرسومات والألواح المعلقة على الجدران، فانهارت على الأرض. مزقت خناجرهم الستائر والأغطية المنجّدة.

صاح أحدهم وهو يندفع عائدًا إلى مكتب المستشار: «ليس هنا! ليس هنا!»

سأله زعيمهم بصوتٍ خشن، وهو يطوي جسده على أوري وينظر إليه من خلال فتحات قناعه الأسود: «أين هو؟ أين ذلك الكلب المتعطش للدماء؟»

قال أوري روفن بهدوء: «غير موجود هنا. أنتم ترون بأعينكم.»

صرخ القائد: «أين هو؟ تكلم! أين ديكسترا؟»

قال أوري وهو يسعل: «هل أنا... هم، هم... حارسٌ لأخي؟»

صرخ أحدهم: «مت أيها العجوز!»

قال أوري بصوتٍ واهن: «أنا عجوزٌ، مريضٌ، ومتعبٌ جدًا... هم، هم. لا أخافكم ولا أخاف سكاكينكم.»

ترك القتلة الغرفة وذابوا في العتمة بسرعةٍ مثلما قدموا. لم يقتلوه، إذ لم تتضمن أوامرهم ذكرًا لأوري روفن.

* * *

قضى أورياسيوس جيانفرانكو باولو روفن، الذي يحمل الماجستير في القانون، ست سنواتٍ في سجونٍ مختلفة، خضع خلالها للاستجواب على أيدي محققين شتى، استُجوب حول أمورٍ بدت بلا معنى وموضوعاتٍ شتى.

أُفرِج عنه بعد ست سنوات، وكان حينها عليلًا للغاية، فقد سلبه الإسقربوط أسنانه، والأنيميا شعره، والغلوكوما بصره، والربو أنفاسه. أما أصابع يديه فقد كُسرت أثناء التحقيقات.

لم يعش أكثر من عامٍ بعد إطلاق سراحه، ومات في ملجأٍ للفقراء تابعٍ لمعبد، في شقاءٍ تام، منسيًّا.

واختفى بلا أثر المخطوط الذي كتبه بعنوان «رجالٌ من الظلال: تاريخ الأجهزة السرية الملكية».

* * *

أضاء الفجر جهة الشرق، وظهر شحوبٌ خفيفٌ فوق التلال، مُعلنًا عن قرب بزوغ الصبح.

خيم الصمت حول نار المخيّم منذ وقتٍ طويل. حدّق كلٌّ من الحاجّ والإلف والصيّاد في الجمر المحتضر بلا كلام.

ساد السكون في أرض إلسكيرديغ، إذ ملّ الشبح العويل فانصرف يائسًا من صرخاته التي لم تحرك في الرجال الثلاثة شيئًا؛ كانوا قد شهدوا ما يكفي من الأهوال مؤخرًا فلم يعد شبحٌ قديمٌ يُثير فيهم أدنى رهبة.

قال بورياس مون فجأةً، وهو يحدق في بقايا النار المتوهجة كالياقوت: «إن كنا سنسافر معًا، يجب أن نتخلى عن الريبة. فلنترك ما كان وراءنا. لقد تغيّر العالم، وهناك حياةٌ جديدة أمامنا. انتهى شيءٌ وبدأ آخر. أمامنا...»

توقف ليسعل، إذ لم يعتد الخُطب، وخشي أن يبدو ساذجًا. لكنه لاحظ أن رفيقيه لم يسخرا منه، بل أحس بشعورٍ من الألفة ينبعث منهما.

قال بنبرةٍ أكثر ثقة: «أمامنا ممرّ إلسكيرديغ، ومن بعده زيريكانيا وهكلاند. طريقٌ طويلٌ وخطرٌ ينتظرنا. إن أردنا المضيّ سويًا... فلنتخلَّ عن الشكوك. اسمي بورياس مون.»

نهض الحاجّ صاحب القبعة العريضة، فردّ قامته الطويلة، ثم صافح اليد التي امتدت إليه. كذلك قام الإلف. التوت ملامح وجهه المشوهة تشنجًا غريبًا.

وبعد أن صافحا الصياد، تبادل الحاجّ والإلف المصافحة بدوريهما.

قال الحاجّ: «لقد تغيّر العالم، انتهى شيء... اسمي... سيغي روفن.»

قال الإلف وهو يلوّي وجهه الممزّق فيما بدا أنّه ابتسامة: «إنّ شيئًا ما يبدأ الآن. اسمي... الذئب إيسينغريم.»

تبادل الثلاثة المصافحة سريعًا وبشدّة، بل بدت المصافحة أشبه بمقدّمةٍ لعراكٍ لا لبادرة مصالحة. ولكن لم يدم ذلك الانطباع طويلًا.

تطايرت شراراتٌ من جذع الحطب في موقد النار، كأنها تحتفل بالحدث بعرضٍ ناريٍّ مبهج.

ابتسم بورياس مون ابتسامةً عريضة وقال:

«أقسم أنّها بداية صداقةٍ جميلة، أو فلينزل بي غضب الآلهة!»

...ومع سائر الأخوات الشهيدات، اتُّهِمَت القدّيسة فيليبا بالخيانة ضد المملكة، وإثارة الاضطرابات والتحريض على الفتنة، ودعوة الناس للتمرّد والتآمر. فأمر ويلمريوس — وهو هرطوقيٌّ وعبَدَة طقوسيّ، نصّب نفسه رئيسًا للكهنة — بإلقاء القبض على القدّيسة، وإلقائها في زنزانةٍ مظلمةٍ نتنةٍ مبتلاةٍ بالبرد والعفونة. ودعاها إلى الاعتراف بخطاياها وإشهار ما اقترفته، ثم عَرَضَ لها أدوات تعذيبٍ شتى وهدّدها تهديدًا شديدًا، فلم تجبه القدّيسة إلا بالبصق في وجهه واتهامه بالمجامعة الشاذة.

فأمر الهَرطوقيّ بتجريدها من ثيابها وجَلدها بلا رحمةٍ بأحزمةٍ جلديّة، ثم إدخال الشظايا تحت أظافرها. وبعد ذلك طالبها بالتخلي عن إيمانها والارتداد عن الإلهة، لكنّ القدّيسة لم تفعل سوى الضحك ونصحته بأن يبتعد.

عندها أمر بسحبها إلى حجرة التعذيب، وبتمزيق جسدها كلّه بخطّافاتٍ وحواملٍ حديديّة، وتسليط الشموع على جنبيها كي تحرقها. وعلى الرغم ممّا نالها من عذاب، صبرت القدّيسة فيليبا في جسدها الفاني صبرًا خالدًا. حتى ملّ معذبوها وأصيبوا بالذعر الشديد، فتراجعوا، غير أنّ ويلمريوس انتهرهم بشدّة وأمرهم أن يواصلوا تعذيبها ويفتكوا بها أشد الفتك.

فعمدوا إلى كيّ القدّيسة فيليبا بحديدٍ محمًّى، وخلع مفاصل أطرافها، وتمزيق ثديها بالكماشات، ولم تقرّ لهم بشيء حتى فاضت روحها تحت هذا العذاب.

أمّا ويلمريوس الكافر عديم الحياء—ويُمكن الإطلاع على أخباره في مؤلفات الآباء القدّيسين—فقد لقي عقابًا أليمًا؛ إذ تغشّى عليه القمل والديدان حتى أكلته من رأسه إلى أخمص قدمه، ثم مات منتنًا فألقوه في نهرٍ بلا دفن.

ولذا استحقت القدّيسة فيليبا الثناء والتاج الإكليليّ للشهادة، وللإلهة الأمّ العظمى المجد أبد الدهر، ولنا في ذلك عظةٌ وتحذير. آمين.

— من سيرة القدّيسة فيليبا شهيدة جبل كالفوس، منسوخة عن كَتَبَة الاستشهاد، في خلاصة "الرتبة التريتورية"، مستوحاة من مؤلفات كثيرٍ من الآباء القدّيسين الذين أثنوا عليها في كتاباتهم.

الفصل الحادي عشر

إندفعوا كالعاصفة، بجنونٍ وبسرعةٍ مهلكة. امتطوا خيولهم عبر الأيام التي أخذت تزدهر بربيعها. حملتهم الجياد في عدوٍ خفيفٍ واثق، والناس — وهم يقوّمون رقابهم وظهورهم المنحنية على التربة — راحوا يتطلّعون إليهم في ارتباك، غير واثقين مما أبصرته أعينهم: هل هم فرسانٌ أم أطياف؟

تابعوا امتطاء الخيل عبر الليالي الداكنة المبتلة بمطرٍ دافئ، والناس — حين يستفيقون في فزعٍ من مرقدهم المتواضع — راحوا يتلفتون حولهم مرعوبين، يحاولون كبح الوجع الخانق في حناجرهم وصدورهم. الناس كانوا يقفزون من فرشهم، منصتين إلى ارتطام النوافذ الخشبية، وصراخ من اقتلعهم الكابوس من نومهم، ونباح الكلاب في الخارج. كانوا يضغطون وجوههم على رقيقة الجلد المشدودة مكان الزجاج في نوافذهم، وهم في حيرةٍ عمّا إذا كانوا قد أبصروا حقًا فرسانًا أم أشباحًا.

بعد عبور إيبنغ، بدأت الحكايات تنتشر عن "الشياطين الثلاثة".

* * *

جاؤوا من لا أحد يعلم أين ولا أحد يعلم كيف، ظهروا بغتةً أمام "بيغ ليغ" ولم يتركوا له مهربًا. ولم يكن ثمّة أملٌ في استغاثة؛ إذ تفصله نحو خمسمئة خطوةٍ جيدة عن أبنية البلدة البعيدة. وحتى لو كانت الأقرب، ففرصة نيل مساعدةٍ من سكّان "غيرة" كانت ضئيلةً جدًا، فهم في وقت قيلولتهم المعتادة، التي تبدأ قبل الظهيرة ولا تنتهي إلا عند المغيب. وقد كان "أريستوتيليس بوبِك"، الملقّب بـ"بيغ ليغ" — متسوّل البلدة وفيلسوفها — مدركًا جيّدًا أنّ أهل جيالوسي لا يستجيبون لأي نداء في ساعات القيلولة.

ثلاثة فرسانٍ إذًا. امرأتان ورجل. شعر الرجل أبيضٌ، وقد علق السيف على ظهره. أمّا المرأة الأشدّ نضجًا، والتي ترتدي ثوبًا بالأبيض والأسود، فكان شعرها حالك السواد مجعّدًا بخصلات. والفتاة الأصغر، بشعرٍ رماديّ اللون يمتدّ باستقامة، تحمل ندبةً بشعةً في خدّها الأيسر. كانت تمتطي فرسًا سوداء فخمة. خالج "بيغ ليغ" شعورٌ بأنه رأى فرسًا مماثلةً من قبل.

قالت الأصغر سنًّا أوّلًا: «أأنت من هذه الأنحاء؟»

ارتعش صوت بيغ ليغ وهو يجيب وقد تصاعد صرير أسنانه:

«لم أفعل شيئًا! لا أجمع سوى الفطر! اغفروا لي، لا تؤذوا مُقعَدًا...»

عادت الفتاة ذات الندبة تكرّر السؤال بحدّة: «أأنت من هنا؟» وأومض في عينيها الخضراوين وميضٌ مخيف. انكمش بيغ ليغ وقد عقد الخوف لسانه.

قال بخفوتٍ متلعثم:

«أجل، يا سيدتي النبيلة، أنا من هنا بالفعل. وُلِدتُ هنا في "بيركا"، أقصد في "جيالوسي" (Jealousy). ولعلّي سأموت هنا أيضًا...»

قاطعته وهي تشدّ من نبرتها: «في السنة الماضية، في الصيف والخريف، هل كنتَ هنا؟»

قال بيغ ليغ محاولًا التماسك:

«أين عساني قد أكون غير ذلك؟»

قالت بصرامة: «أجب حين أسألك.»

قال في خضوع:

«كنتُ هنا، يا سيدتي.»

هزّت الفرس السوداء رأسها وشرعت تتحسّس الجوّ بأذنيها. أحسّ بيغ ليغ بعيون الأخرى ذات الشعر الأسود — والرجل ذي الشعر الأبيض — تغرز نظراتهما فيه كأنّها أشواك قنفذ. وكان الرعب يملأه أكثر من الرجل أبيض الشعر تحديدًا.

استأنفت الفتاة ذات الندبة قائلة:

«منذ عام، في شهر أيلول (سبتمبر)، في اليوم التاسع تحديدًا، خلال الربع الأوّل من القمر، قُتل ستّة شبانٍ هنا. أربعة فتيان... وفتاتان اثنتان. أتتذكّر؟»

ازدرد بيغ ليغ ريقه بصعوبة. ظلّ لفترةٍ يظنّ الأمر، أما الآن فأيقن... تيقّن تمامًا.

تغيّرت تلك الفتاة؛ تغيّرت كثيرًا. ولم يكن السبب الندبة على وجهها فحسب. صارت مختلفة تمامًا عمّا كانت عليه حين كانت تصرخ موثقةً إلى عمود الرسن، وهي ترى بونهارت يقطع رؤوس "الفئران" المقتولين. مختلفة عمّا رآها في حانة "رأس الكيميرا" حين جرّدها بونهارت من ثيابها وضربها. وحدهما عيناها بقيتا كما كانتا... لم تتغيّرا.

قالت المرأة ذات الشعر الأسود وهي توجّه الكلام إلى بيغ ليغ:

«تكلّم. لقد طُرح عليك سؤال.»

أومأ بيغ ليغ برأسه قائلاً:

«أذكر ذلك يا سيّدي وسيدتَيّ. وكيف لا أذكر؟ ستّة فتيانٍ يافعين قُتلوا. أجل، كان ذلك في العام الفائت، في سبتمبر فعلًا.»

صمتت الفتاة برهةً، ولم تكن تنظر إليه بل نحو الأفق من خلفه.

قالت أخيرًا وهي تتكلّم بصعوبة:

«إذن لا شكّ أنك تعرف... تعرف أين دفنوا أولئك الفتية وتلكما الفتاتين. عند أيّ سياج؟ في أيّ مكبّ للقمامة أو مزبلة؟ أم حُرقت جثثهم؟ هل أُلقي بهم في الغابة طعامًا للذئاب والثعالب؟ ستُريني هذا المكان. ستأخذني إليه. أتفهم؟»

قال بيغ ليغ بخفوت:

«أفهم، يا سيدتي النبيلة. تعاليا معي. فليس بعيدًا إطلاقًا.»

كان يعرج في سيره، شعر بحرارة أنفاس خيولهم على عنقه. لم يجرؤ على الالتفات خلفه. شيءٌ في داخله أنبأه ألّا يفعل.

قال وهو يشير بيده أخيرًا: «ها نحن قد وصلنا. هذا هو مدفن "جيالوسي" في هذه الحرجية. وأولئك الذين تسألين عنهم، يا آنسة فالكا... يرقدون هناك.»

شهقت الفتاة بوضوح، فاختلس بيغ ليغ نظرةً خاطفةً ورأى وجهها يتغيّر. ظلّت المرأة ذات الشعر الأسود، والرجل أبيض الشعر، صامتين، يستحيل قراءة تعابيرهما.

تأملت الفتاة طويلًا تلك الرابية الصغيرة. كانت مرتّبة، مستوية، محاطةٌ من أطرافها بكتلٍ من حجر الرمليّ وألواحٍ من العقيق والصفائح الصخريّة. أغصان التنّوب التي وُضِعت هناك للتزيين قد ذبلت واحمرّت، والأزهار التي زُرعت فوقها قد جفّت واصفرّت.

ترجّلت الفتاة عن فرسها.

قالت بصوتٍ خافت مبحوح وهي لم تزل تنظر إلى التربة، دون أن تدير رأسها: «من فعل هذا؟»

سعل بيغ ليغ قبل أن يجيب: «الكثير من أهالي جيالوسي قد ساعدوا، لكن على الأخصّ الأرملة غولو، والشابّ نيكلار. كانت الأرملة امرأةً طيّبةً مخلصة، أمّا نيكلار فكان كوابيسه تؤرّقه بشدّة، ولم يجد راحةً إلا عندما وفر للمقتولين دفنًا لائقًا...»

قالت بصوتٍ ضعيف: «أين أجد الأرملة غولو ونيكلار؟»

صمت بيغ ليغ طويلًا، ثم نظر إلى عينيها الخضراوين بشيءٍ من الجرأة وقال: «الأرملة دُفنت هناك، خلف تلك البتولا المعوجة. توفيت بالتهابٍ رئويٍّ شتاء العام. أمّا نيكلار، فقد انضم إلى الجيش في بلدانٍ بعيدة... يقول الناس إنّه سقط في الحرب.»

تمتمت وهي تشيح بنظرها: «لقد نسيتُ... نسيتُ أنّ القدر ربط مصيرهما بي.»

تقدّمت الفتاة نحو الرابية وانحنت على إحدى ركبتيها، بل سقطت عليها سقوطًا. انحنت إلى الأمام حتى كاد جبينها يلامس الحجارة المحيطة بالقبر. رأى بيغ ليغ الرجل أبيض الشعر يهمّ بالنزول عن جواده، لكنّ المرأة ذات الشعر الأسود أمسكته من ذراعه، كفّته بحركةٍ ونظرةٍ معًا.

نفخت الخيول من مناخيرها وهزّت رؤوسها، فصدرت رنّةٌ خفيفة من الحديد في ألجمتها.

ركعت الفتاة عند سفح الرابية زمنًا طويلًا، منحنيةً في صمت، وقد تمتمت شفتاها بشيءٍ أقرب إلى الصلاة الخافتة. وحين وقفت، ترنّحت، فاندفع بيغ ليغ يمسك بها بتلقائيّة. انتفضت ذراعه بقوّة، وانتشلت مرفقها بعيدًا، ونظرت إليه بعينين دامعتين يشوبهما العداء. لكنها لم تنبس بحرف. بل أومأت له شاكرةً عندما ناولها ركابها لتمتطي فرسها من جديد.

قال بيغ ليغ وقد تشجّع: «نعم، يا آنسة فالكا النبيلة. القدر دار دورته الغريبة. كنتِ في ضيقٍ شديد آنذاك، وفي أحلك الأيام... قليلون هنا في جيالوسي ظنّوا أنكِ ستنجين بحياتك... وها أنتِ الآن معافاة، أمّا غولو ونيكلار فقد قضيا نحبهما. وليس هناك حتى من تشكريه، أليس كذلك؟ ولا من تردّي له الجميل على دفنهم...»

قالت بصرامةٍ: «اسمي ليس فالكا. اسمي سيري. أمّا بخصوص الشكر...»

قاطعتها المرأة ذات الشعر الأسود بنبرةٍ باردة جعلت القشعريرة تسرى في عروق بيغ ليغ:

«تلقيتم نعمةً، أنت وقريتكم بأسرها. ولا تعلمون حتى مقدار تلك النعمة. إنّه جزاء مدفنكم. جزاء إنسانيتكم، وكرامتكم، واستقامتكم.»

* * *

في التاسع من أبريل، بعد منتصف الليل بقليل، استيقظ أوائلُ سكّان مدينة كليرمونت على ضوءٍ متقطّعٍ بلونٍ أحمرٍ متوهّجٍ اخترق نوافذ بيوتهم. أمّا الباقون فقاموا من فرشهم على صرخات الفزع والجلبة، وعلى وقع جرس الإنذار الذي يدقّ بلا توقف.

كان مبنى واحدًا فقط يحترق: بناءٌ ضخمٌ من الخشب، كان فيما مضى معبدًا مُكرَّسًا لإلهٍ لا يذكر شيوخ البلدة اسمه. تحوّل المعبدُ لاحقًا إلى مدرّجٍ (أمفيثياتر) تقام فيه عروض مهاجمة الحيوانات ومعاركُ ترفيّةٌ تزيل عن سكان كليرمونت مللهم وكآبتهم وسباتهم الثقيل.

ذلك المدرّج هو ما كان الآن يشتعل وسط محيطٍ من النيران الهادرة، يهتزّ من وقع الانفجارات الداخلية. ألسنةُ لهبٍ طولها أمتار تندفع من جميع النوافذ.

صاح التاجر هوڤيناغل، مالك المدرّج، وهو يركض ملوّحًا بذراعيه ومتدليًا كرشه الضخم، مرتديًا قلنسوة النوم ومعطفًا ثقيلًا مصنوعًا من جلد الخراف فوق قميصه الليلي، فيما داست قدماه الحافيتان على الوحل المختلط بروث الدواب في الطريق:

«حريقٌ! حريييقٌ! النجدة! أطفِئوا النار! أطفِئوا النار بالماء!»

قالت واحدةٌ من أقدم الجدّات، وهي تهزّ رأسها بحزم: «إنّها عقوبةٌ إلهية على ما ارتكبوه في بيت العبادة من ضجيجٍ وفجور...»

وردّد بعض الواقفين: «صحيحٌ يا سيدتي، لا ريب في ذلك!»

انعكس وهج النيران على خشبة المسرح المحترق، فتصاعد بخار البول الذي سُكب لمحاولة الإطفاء، وملأت الشرارات المشتعلة البرك ماءً وصوتًا. هبّت ريحٌ من حيث لا يدري أحد، وزادت من اشتعال الحريق.

ركض هوڤيناغل في جنونٍ وهو يراقب النيران تمتدّ إلى مبنى الجعة ومستودع الحبوب، فصرخ:

«ساعدوني! اسرعوا بإحضار الدِّلاء! الدِّلاء!»

لم يتأخّر المتطوّعون في الوصول؛ فكليرمونت فيها فرقة إطفاء تأسّست على نفقة هوڤيناغل نفسه. قاوموا الحريق بعنادٍ وتفانٍ، لكن بلا جدوى.

قال قائد فرقة الإطفاء وهو يمسح وجهه المتقرّح من شدة الحرارة:

«إننا نعجز عن السيطرة... هذا حريقٌ ليس عاديًّا... إنه فعل الشيطان!»

شهق رجلٌ آخر من فرقة الإطفاء وهو يحاول التنفّس وسط الدخان الكثيف:

«سحرٌ أسود...»

من داخل المدرّج، تعالت أصوات التهشّم المروّعة، حيث تحطّمت العوارض والركائز والأعمدة تحت ضغط النيران المتّقدة. ثم دوّى انفجارٌ عظيم، وانبعثت ألسنة لهبٍ عملاقة وشراراتٌ متطايرة إلى السماء، قبل أن ينهار السقف كليًا ويسقط على الساحة. عندها، أخذ المبنى بأكمله يميل، وكأنه يُؤدّي انحناءةً أخيرة لجمهوره، وكأنه يودّعهم بعرضٍ ناريٍّ أخّاذ، في مشهدٍ يفوق في روعته أيّ عرضٍ قدّمه من قبل.

ثم انهارت الجدران.

بفضل جهود رجال الإطفاء، تمكّنوا من إنقاذ نصف مستودع الحبوب وما يقارب ربع مصنع الجعة.

أطلّ فجرٌ كريه الرائحة.

جلس هوڤيناغل في الوحل والرماد، لا يزال مرتديًا قلنسوته الليلية الملطّخة بالسخام ومعطفه الثقيل. جلس ينوح، منتحبًا كطفلٍ صغير.

بالطبع، كان المسرح والمصنع والمستودع جميعها مؤمّنةً ضدّ الحرائق. لكن المشكلة أنّ شركة التأمين كانت أيضًا مملوكةً لهوڤيناغل. لم يكن هناك حيلة، ولا حتى تلاعبٌ ضريبيٌّ، يمكن أن يعوّضه ولو بجزءٍ بسيطٍ من خسائره.

* * *

قال جيرالت وهو يتأمّل عمود الدخان الذي ارتفع، مخطًّا شريطًا داكنًا على السماء التي أخذت تشعّ بوهج الفجر الوردي:

«إلى أين الآن؟ من تبقّى لديك لتسدّدي دينكِ له، سيري؟»

نظرت إليه، فأدرك فورًا أنه ندم على سؤاله. في تلك اللحظة، تمنّى لو يستطيع احتضانها، أن يلفّ ذراعيه حولها، أن يربّت على شعرها، أن يحميها. ألّا يتركها وحيدةً مجددًا، ألّا يتركها تواجه الشرّ، أو أيّ شيءٍ قد يزرع في قلبها الرغبة في الانتقام.

كانت ينيفر صامتةً. لقد صارت صامتةً لفتراتٍ طويلة مؤخرًا.

قالت سيري بهدوء:

«سنذهب الآن إلى مستوطنةٍ تُدعى "يونيكورن". الاسم مستوحى من تمثالٍ من القشّ لوحيد القرن، ذلك الرمز البائس الهزيل الذي يتوسّط القرية. أرغب في أن يحظى السكان بتذكارٍ أكثر... حسنًا، إن لم يكن أكثر قيمة، فعلى الأقلّ أكثر أناقة. أعتمد على مساعدتك، ينيفر، فبدون السحر...»

أجابت ينيفر دون تردد: «أعرف، سيري. وبعد ذلك؟»

«مستنقعات بيربلوت. أرجو أن أتمكّن من إيجاد الطريق... إلى كوخٍ وسط المستنقعات. سنجد بقايا رجلٍ هناك. أريد أن تُدفن تلك البقايا في قبرٍ يليق به.»

لم يعلّق جيرالت بشيء. ولم يشيح بنظره.

تابعت سيري، محتفظةً بنظرتها الثابتة، دون أدنى تردّد:

«بعدها، سنتوقف في مستوطنة "دن دار". النُزل هناك قد يكون قد احترق، وصاحبه ربّما يكون قد قُتل... بسببي. العمى الناجم عن الكراهية والرغبة في الانتقام جعلني أقترف خطأً. سأحاول التعويض لعائلته.»

ردّ جيرالت وهو لا يزال ينظر إليها بثبات: «لا يوجد سبيلٌ للتعويض عن ذلك.»

ردّت على الفور، بصوتٍ حادّ، يكاد يكون غاضبًا: «أعلم ذلك. لكنّي سأقف أمامهم بتواضع. سأحفظ نظرة أعينهم في ذاكرتي. وآمل أن يمنعني ذلك من تكرار خطأٍ مماثل. هل تفهم ذلك، جيرالت؟»

قالت ينيفر: «إنّه يفهم، سيري. صدّقينا، كلانا يفهمكِ جيّدًا يا ابنتي. لنذهب.»

* * *

حملت الخيولُ ركّابها كأنها الريح، كعاصفةٍ سحريةٍ هادرة. رفع المسافرون رؤوسهم بدهشةٍ وانبهار، وهم يشاهدون الفرسان الثلاثة يلمعون كالبرق الخاطف. تاجرٌ يسوق عربته المليئة بالبضائع، هاربٌ من العدالة، ومستوطِنٌ مُهجّرٌ من الأرض التي سكنها بعدما خدعه ساسةٌ بوهم الأمن، كلّهم رفعوا رؤوسهم، متعجّبين، مشدوهين. متسوّل، فارٌّ من الجيش، وحاجٌّ يحمل عصاه، جميعهم نظروا إلى السماء، غير متأكدين مما رأوه.

وبدأت الحكايات تنتشر في "إيبّينغ" و"جيسو"، تُروى عن "الصيد البري"، وعن "فرسان الأطياف أو الأشباح الثلاثة". وحيكت القصص وانتشرت في الليالي، في الغرف التي تفوح منها رائحة الشحم الذائب والبصل المقلي، وفي قاعات القرى، وفي الحانات المُعتمة، وفي استراحات الطرقات، وفي الأكواخ والغابات وأبراج المراقبة الحدودية.

كانت تُروى الحكايات، وكانت الناس تسعد بها. حكاياتٌ عن الحروب، عن البطولة والفروسية، عن الصداقة والعداوة، عن الخيانة والوفاء، عن الحب الصادق الحقيقي الذي ينتصر دومًا. عن الجرائم والعقاب الذي ينال المجرمين دومًا، وعن العدالة التي تكون عادلةً دائمًا، وعن الحقيقة التي تطفو على السطح دائمًا، كقطرات الزيت.

استمع الناس إلى تلك القصص في نشوةٍ غامرة، غارقين في سحر السرد، منجذبين إلى الروايات التي تُحاك عن "الويتشر" والساحرة، عن "برج السنونو"، عن "سيري"، الفتاة ذات الندبة، وعن "كيلبي"، الفرس الأسود المسحور. عن "سيدة البحيرة".

لكن كل ذلك لم يأتِ إلا لاحقًا، بعد سنواتٍ طويلة، سنواتٍ كثيرة جدًّا.

أما الآن، فقد بدأت الأسطورة تنمو، كحبة بذورٍ امتلأت بالماء بعد مطرٍ دافئ، تتغلغل في قلوب الناس، تأخذ في التبرعم، في التوسّع، في الامتداد.

* * *

حلّ شهر مايو بغتةً، أولًا خلال الليل، حيث تلألأت نيران "بيلتاين" في الأفق. وعندما شعرت "سيري" بتلك الإثارة الغامضة، قفزت على ظهر "كيلبي" وانطلقت تعدو نحو المشاعل المشتعلة، مستغلّةً الفرصة للانطلاق وحدها.

أما "جيرالت" و"ينيفر"، فقد استغلا الفرصة للحظةٍ من الخصوصية. دون أن يخلعا من ملابسهما سوى ما كان ضروريًّا، احترقت أجسادهما ببعضها في محض جنونٍ وتسرّع، في صمتٍ تام، دون كلمةٍ واحدة.

كان الأمر سريعًا، فوضويًّا، مُتقدًا بالرغبة، لكنه كان حقيقيًّا، كان كافيًا، بل وأكثر.

وعندما هدآ أخيرًا، متشابكين في عناقٍ دافئ، يمسحان دموع بعضهما بالقبلات، تعجّبا كم جلب لهما ذلك الوصال العجول من سعادةٍ غير متوقعة.

قالت ينيفر بصوتٍ هامس:

«جيرالت؟»

«نعم، ين؟»

«عندما... عندما لم نكن معًا، هل كنت مع نساءٍ أخريات؟»

«لا.»

«ولا مرة؟»

«ولا مرة.»

«لم يتغيّر صوتك حتى... لا أدري لماذا لا أصدّقك.»

«لم أفكّر سوى بكِ، ين.»

«الآن أصدّقك.»

* * *

جاء مايو فجأةً في وضح النهار أيضًا، حين امتلأت المروج ببقعٍ ذهبيةٍ من أزهار الهندباء، وتدلت الأشجار في البساتين مُثقلةً بالأزهار البيضاء.

أما غابات البلوط، الأكثر وقارًا من أن تسرع في التغيّر، فقد بقيت داكنةً عارية، لكن خضرةً خفيفة بدأت تزحف على أغصانها، وراح نورٌ أخضرٌ فاتح يضيء أطراف الغابة، حيث تناثرت أشجار البتولا النضرة.

في إحدى الليالي، بينما كانوا يخيمون في وادٍ تغطيه أشجار الصفصاف، استيقظ الويتشر من حلمٍ غريب. كان كابوسًا، حيث وجد نفسه مشلولًا، عاجزًا عن الحركة، بينما كانت بومة رمادية ضخمة تمزق وجهه بمخالبها، تبحث عن عينيه بمنقارها المعقوف. استيقظ مذعورًا، لكنه لم يكن متأكدًا مما إذا كان قد انتقل من كابوسٍ إلى آخر.

كان هناك نورٌ متوهجٌ يلفّ المخيم، جعل الخيول تتراجع مذعورة، تزمجر وتنخر بجنون. وفي قلب ذلك التوهج، كان هناك شيءٌ ما، شيءٌ كأنّه قاعةٌ مظلمة في قصرٍ قديم، تحيط بها أعمدةٌ سوداء. كان يرى طاولةً ضخمة يجلس حولها عشرة أشكال. عشر نساء.

ثم سمع كلمات، جُملًا متناثرة:

"...أحضريها إلينا، ينيفر. نحن نأمرك بذلك."

"لا تستطيعنَ أمري. ولا تستطيعنَ أمرها! لا سلطة لكنّ عليها!"

"أنا لست خائفةً منهن، ماما. لا يمكنهنّ إيذائي. إذا أردن ذلك، فسأقف أمامهنّ."

"... الاجتماع سيكون في الأول من يونيو، في ليلة القمر الجديد. نحن نأمركما بالحضور. نحذركما من أن العصيان لن يمر دون عقاب."

"سآتي فورًا، فيليبا. لكن دعوها تبقى معه قليلًا. لا تتركوه وحيدًا. فقط بضعة أيام. سأكون عندكم فورًا. كرهينةٍ لحسن النية."

"أرجوكن، نفذن طلبي، فيليبا. أرجوكن."

بدأ الضوء ينبض، وكأنّه كائنٌ حيٌّ يتنفس. كانت الخيول تهتاج أكثر، تضرب الأرض بحوافرها.

استيقظ الويتشر. هذه المرة، كان الاستيقاظ حقيقيًا.

* * *

في اليوم التالي، أكّدت ينيفر مخاوفه. بعد محادثةٍ طويلةٍ أجرتها مع سيري على انفراد، عادت إليه بنبرةٍ جافة، مباشرة:

"«سأغادر.»"

لم يكن هناك أي مقدمات.

"«عليّ الرحيل. سيري ستبقى معك. لبعض الوقت على الأقل. ثم سأستدعيها، وستذهب أيضًا. وبعدها سنجتمع من جديد.»"

أومأ برأسه. لكن هذه المرة، أومأ بامتعاض. لقد سئم من هذا. سئم من القبول الصامت، من أن يوافق على كل ما تقرره ينيفر، من أن يخضع لكل ما تخبره به. لكنه أومأ على أي حال. لقد أحبها، في نهاية المطاف.

"«إنه أمرٌ لا يمكن معارضته.»" قالت بصوتٍ أكثر ليونة. "«ولا يمكن تأجيله. لا بد من تنفيذه. أنا أفعله من أجلك، على أية حال. من أجل خيرك. ومن أجل سيري، خصوصًا.»"

أومأ.

"«عندما نلتقي مجددًا،»" قالت، وصوتها يزداد رقّة، "«سأعوّضك عن كل شيء، جيرالت. عن الصمت أيضًا. لقد كان هناك الكثير من الصمت بيننا. أكثر مما ينبغي. والآن، بدلًا من الإيماء، عانقني وقبّلني.»"

فعل ما طُلب منه. لقد أحبها، في نهاية المطاف.

* * *

بعد فترةٍ قصيرةٍ من اختفاء ينيفر في وهجٍ خاطفٍ عبر البوابة البيضاوية، سألت سيري بنبرةٍ جافة:

"«إلى أين الآن؟»"

تنحنح جيرالت، محاولًا كتم الألم الذي كان يخنق صدره ويحبس أنفاسه.

"«النهر...»" قال بصوتٍ خافت. "«النهر الذي نعبره يُدعى سانسرتور. إنه يقودنا إلى أرضٍ أريد أن أريكِ إياها. إنها أرضٌ خرافية.»"

عبست سيري، وشدّت قبضتيها.

"«كل قصةٍ خرافية تنتهي نهايةً سيئة.»" تمتمت. "«ولا وجود لأراضٍ خرافية.»"

"«بل هناك.»" قال بهدوء. "«سترين بنفسك.»"

* * *

كان ذلك في اليوم التالي لاكتمال القمر عندما ظهرت لهم توسان، غارقةً في الخضرة ومغمورةً بأشعة الشمس. رأوا التلال والمنحدرات والكروم تمتد أمامهم، ورأوا أسطح أبراج القلاع تلمع بعد زخات المطر الصباحية.

لم يخيب المشهد ظنهم. كان مذهلًا. كما كان دائمًا.

"يا لها من روعة!" قالت سيري، مبهورةً. "يا إلهي! تبدو تلك القلاع كألعاب الأطفال... وكأنها زينةٌ على كعكة عيد ميلاد! أشعر برغبةٍ في لعقها!"

"إنها من تصميم فَراموند نفسه،" قال جيرالت بنبرة العارف. "انتظري حتى تري قصر وحدائق بوكلير عن قرب."

"قصر؟ سنذهب إلى قصر؟ هل تعرف ملك هذه البلاد؟"

"الدوقة."

"وهل هذه الدوقة،" تساءلت سيري بحدة، تحدق إليه من تحت غرتها، "تملك عينين خضراوين، وشعرًا أسود قصيرًا...؟"

"لا." قاطعها، محوّلًا نظره بعيدًا. "إنها تبدو مختلفة تمامًا. لا أدري من أين جئتِ بهذه الفكرة—"

"اترك الموضوع، جيرالت، ألن تخبرني شيئًا عنها إذن؟"

"كما قلت، أعرفها. قليلًا فقط. ليست معرفةً وثيقةً أو قريبة، إن أردتِ الحقيقة. لكنني أعرف رفيقها، أو بالأحرى، من يُرشّح ليكون رفيقها. وأنتِ تعرفينه أيضًا، سيري."

غرزت سيري مهمازها في خاصرة كيلبي، جعلتها تدور على الطريق.

"لا تعذبني أكثر! من؟"

"دانديليون."

"داندیلیون؟! والدوقة؟! كيف حصل ذلك؟!"

"إنها قصة طويلة. تركناه هنا، إلى جانب محبوبته. وعدناه بأن نزوره عند عودتنا بعد—"

توقف فجأة، واكتست ملامحه بالكآبة.

"لا يمكنك فعل شيء حيال ذلك،" قالت سيري بلطف. "لا تعذب نفسك، جيرالت. ليس ذنبك."

"بل هو ذنبي، فكر في نفسه. إنه خطئي. داندیلیون سيسأل. وسأضطر للإجابة."

"ميلفا. كاهير. ريجيس. أنغوليم."

"السيف سلاحٌ ذو حدين."

"يا للآلهة، لقد اكتفيت من هذا. كفى. حان الوقت لإنهائه. "

"لننطلق، سيري."

"بهذه الملابس؟" شهقت. "إلى القصر...؟"

"لا أرى شيئًا خاطئًا في ملابسنا،" قاطعها. "لن نذهب لتقديم أوراق اعتمادنا. ولا إلى حفلة راقصة. يمكننا حتى مقابلة داندیلیون في الإسطبلات."

ثم أضاف، عندما رأى نظرة الامتعاض على وجهها:

"على أي حال، سأتوجه إلى البنك في المدينة أولًا. سأسحب بعض المال، وهناك العديد من الخياطين وصانعي القبعات في قاعات النسيج في الساحة. يمكنك شراء ما تشائين وارتداء ما ترغبين به."

"هل تملك كل هذا المال؟" مالت برأسها بمكر.

"يمكنك شراء ما تشائين،" كرر. "حتى معطف من فرو القاقم، ونعال مصنوعة من جلد البازيليسق. أعرف إسكافيًا ينبغي أن يكون لديه بعضٌ منها في المخزون."

"وكيف جمعت كل هذه الثروة؟"

"بالقتل." قال، دون تغيير في نبرته. "لننطلق، سيري، ولا نضيع الوقت."

* * *

جيرالت أجرى تحويلًا ماليًا وأعد خطاب اعتماد، واستلم شيكًا وبعض النقود من فرع بنك "سيانفانيلي". كتب بعض الرسائل التي كان من المفترض أن تُرسل عبر خدمة البريد السريع إلى ما وراء نهر "ياروغا". ثم اعتذر بلطف عن تلبية دعوة الغداء التي قدمها له المصرفي المضياف والمُنتبه.

كانت "سيري" تنتظره في الشارع، تراقب الخيول. كان الشارع خاليًا قبل لحظات، لكنه الآن يعج بالناس.

"يبدو أننا صادفنا احتفالًا أو مهرجانًا ما." أشارت برأسها نحو الحشد المتوجه إلى ساحة البلدة. "ربما يكون سوقًا."

جيرالت حدق إلى الأمام بحدة.

"ليس سوقًا."

"آه..." هي أيضًا نظرت، واقفةً على الركابين. "ليس إعدامًا آخر؟"

"إعدام،" أكد جيرالت. "أكثر وسائل الترفيه شعبية منذ الحرب. ما الذي رأيناه حتى الآن، سيري؟"

"الهروب من الجيش، الخيانة، الجبن أمام العدو." أجابت بسرعة. "وقضايا مالية."

"لبيع خبز يابس متعفن للجيش." أومأ ويتشر برأسه. "حياة التاجر الطموح صعبة في زمن الحرب."

"لا أظن أنهم سيُعدمُون تاجرًا هنا." شدت سيري لجام كيلبي، التي كانت تغوص بالفعل في الحشد كما يغوص السنبلة في حقلٍ مموج. "فقط انظر، المنصة مغطاة بالقماش، والجلاد يرتدي قلنسوة جديدة تمامًا. سيُعدم شخص مهم، على الأقل بارون. إذن، ربما يكون جبنًا في وجه العدو."

"توسان لم يكن لديها جيش في وجه أي عدو." هز جيرالت رأسه. "لا، سيري، أعتقد أن الأمر يتعلق بالاقتصاد مرةً أخرى. ربما يُعدَم أحدهم بسبب عمليات احتيال تتعلق بتجارة نبيذهم الشهير، الذي هو أساس اقتصادهم هنا. لنُكمل طريقنا، سيري. لن نشاهد."

"نُكمل طريقنا؟ كيف بالضبط؟"

كان التقدم مستحيلًا بالفعل. فقد وجدوا أنفسهم محاصرين بسرعة وسط الحشد المتجمع في الساحة، عالقين في الزحام الكثيف. لم يكن هناك فرصة للوصول إلى الجهة الأخرى من الساحة. شتم جيرالت بفظاظة ونظر خلفه. لسوء الحظ، كان التراجع أيضًا مستحيلًا، إذ إن الموجة البشرية المتدفقة إلى الساحة قد سدت الشارع خلفهم تمامًا. للحظة، جرفتهم الحشود كما يجرف التيار سفينة، ولكن الحركة توقفت عندما اصطدم الناس بجدارٍ متراصٍّ من الحرس المسلحين بحرابهم، الذين أحاطوا بالمنصة.

"ها هم قادمون!" صرخ أحدهم، فتعالى الهمس في الحشد، وبدأت أصوات الهتاف تتصاعد. "ها هم قادمون!"

اختفت أصوات حوافر الخيول وقرقعة عربة وسط هدير الحشد، لذلك كان الأمر مفاجئًا حين خرجت عربة التعذيب التي تجرها حصانان من أحد الأزقة الجانبية. كان هناك شخصٌ يقف عليها، بالكاد يحافظ على توازنه...

"دانديليون..." تأوهت سيري.

فجأة، شعر جيرالت بالسوء. بالسوء الشديد.

"إنه دانديليون،" كررت سيري بصوت غريب. "نعم، إنه هو."

"هذا ظلم"، قال الويتشر في نفسه. "ظلمٌ كبيرٌ دموي. لا يمكن أن يكون الأمر كذلك. لا يجب أن يكون كذلك. أعلم أن من السذاجة والغباء أن أظن أن لي أي تأثير على مصير هذا العالم، أو أن العالم يدين لي بشيء. أعلم أن هذه فكرةٌ ساذجةٌ ومتعجرفة... لكنني أعرف ذلك! لا حاجة لإثبات ذلك لي! لا حاجة لإظهار ذلك لي بهذه الطريقة..."

"هذا ظلم! "

"لا يمكن أن يكون دانديليون،" قال بصوت أجوف، محدقًا في عُرف روتش.

"إنه دانديليون،" قالت سيري مجددًا. "جيرالت، علينا أن نفعل شيئًا."

"ماذا؟" سأل بمرارة. "قولي لي ماذا."

* * *

سحب بعض الجنود دانديليون من العربة، ولكنهم عاملوه بشكل مدهش من اللطف والاحترام، دون قسوة أو عنف، بل بكثير من التبجيل، بقدر ما يستطيعون. فكوا قيوده قبل أن يصعد الدرج المؤدي إلى المنصة. عندها، حك مؤخرته بلا مبالاة وصعد الدرجات دون أن يحتاج إلى حث.

إحدى الدرجات أصدرت صريرًا فجأة، كما أن الدرابزين المصنوع من عمود خشبي خشن تصدع، مما كاد يفقد دانديليون توازنه.

"هذا يحتاج إلى إصلاح، اللعنة!" صاح. "سترون، يومًا ما، سيقتل شخصٌ نفسه على هذه الدرجات. ولن يكون الأمر مضحكًا."

استقبله على المنصة مساعدان للجلاد، يرتديان صداري جلدية بلا أكمام. أما الجلاد نفسه، فكان ضخم الكتفين مثل برج قلعة، يحدق في المحكوم عليه عبر شقوق قناع قماشي يغطي وجهه. إلى جانبه وقف رجل يرتدي زيًا فخمًا، لكنه أسود قاتم مثل الحداد. كان تعبيره كذلك كئيبًا.

"أيها السادة والبرجوازيون من بوسكلير والمناطق المحيطة!" قرأ الرجل بصوت جهوري وكئيب، بينما يفرد لفافة من ورق الرق. "من المعروف أن جوليان ألفريد بانكراتز، الفيكونت دي ليتينهوف، المعروف أيضًا باسم دانديليون..."

"بانكراتز ماذا؟" همست سيري مستفسرة.

"...بحكم محكمة الدوق العليا، وُجد مذنبًا بجميع الجرائم والأفعال والجنح المنسوبة إليه، وهي: الخيانة العظمى، والتآمر ضد سيادة الدوقة، وتشويه سمعة الطبقة النبيلة من خلال الحنث باليمين، والقدح والتشهير، وكذلك العربدة والانحلال الأخلاقي، أي الفجور والعهر. وبناءً عليه، حكمت المحكمة بتوقيع العقوبات التالية:

أولًا: تشويه شعاره النبالي برسم خطوط سوداء مائلة على درعه.

ثانيًا: مصادرة ممتلكاته وأراضيه وغاباته وقلاعه..."

"قلاع؟" تمتم جيرالت متأففًا. "أي قلاع؟"

داندیلیون تنحنح بسخرية، وتعبير وجهه كان يدل بوضوح أنه مستمتع بمسرحية المحكمة الساخرة حول مصادرة ممتلكاته المزعومة.

"ثالثًا: العقوبة الأساسية. لقد تفضلت آنا هنرييتا، الحاكمة علينا بصفتها دوقة توسان وسيدة بوسكلير، واستبدلت العقوبة المقررة للجرائم المذكورة — أي السحل خلف الخيول، ثم التكسير على العجلة، ثم التقطيع إلى أربعة أجزاء — بإعدام سريع بقطع الرأس بالفأس.

لتتحقق العدالة!"

تعالت بعض الهتافات المتفرقة من الحشد. بدأت بعض النساء الواقفات في الصفوف الأمامية في البكاء والتذمر بنفاق واضح. رفع الأطفال على الأكتاف كي لا يفوتهم المشهد.

دفع مساعدو الجلاد جذعًا خشبيًا إلى وسط المنصة، وغطوه بمنديل. حدثت بعض الفوضى عندما اكتشفوا أن سلة القش المخصصة للرأس قد سُرقت، لكنهم سرعان ما وجدوا أخرى.

في الأسفل، انتشر أربعة أولاد حفاة، يبسطون منديلاً كبيرًا أسفل المنصة ليلتقطوا دماء داندیلیون حالما يُنفذ الحكم، إذ كانت هناك سوق رائجة لهذا النوع من التذكارات، حيث يمكن كسب أموال طائلة منها.

"جيرالت." لم ترفع سيري رأسها. "علينا أن نفعل شيئًا..."

لم يُجب.

"أود أن ألقي كلمة على أهل المدينة!" أعلن داندیلیون بفخر.

"اجعلها قصيرة، فيكونت."

وقف الشاعر على حافة المنصة، ورفع يديه. تململ الحشد، ثم خيم الصمت.

"مرحبًا أيها الناس!" نادى داندیلیون. "كيف الحال؟ كيف أنتم؟"

سكت الحشد، ثم رد صوت متأخر من الخلف: "آه... نحن نتدبر أمورنا بصعوبة."

"جيد،" أومأ الشاعر. "أنا مسرور بذلك. حسنًا، يمكننا أن نبدأ الآن."

"سيدي الجلاد،" نطق الرجل الكئيب بنبرة متكلفة. "قم بواجبك!"

رفع الجلاد فأسه الضخمة واقترب من دانديليون، ثم جثا على ركبتيه أمامه وفقًا للعُرف القديم، وانحنى برأسه المغطى بالقلنسوة.

"سامحني، أيها الطيب،" طلب الجلاد بوقار.

"أنا؟" سأل دانديليون بدهشة. "أسامحك؟"

"أوه، نعم."

"ليس هناك فرصة."

"ماذا؟"

"لن أسامحك أبدًا. لماذا أفعل؟ هل سمعتموه، أيها الناس؟ إنه على وشك أن يقطع رأسي، ويريدني أن أسامحه؟ هل تسخر مني؟ في مثل هذا الوقت؟"

"ولكن يا سيدي،" قال الجلاد بحزن، "فهناك قانون... وعُرف... المحكوم عليه يجب أن يغفر للجلاد مسبقًا. أيها السيد النبيل، طهر ذنبي، سامح خطيئتي..."

"لا."

"لا؟"

"لا!"

"لن أقطع رأسه،" أعلن الجلاد بعبوس، وهو ينهض من ركبتيه. "يجب أن يسامحني، وإلا فلن يتم الأمر."

"يا سيادة الفيكونت،" أمسك الكاتب الجنائزي دانديليون من مرفقه. "لا تعقد الأمور. الناس قد تجمعوا، وهم ينتظرون... سامحه. إنه يطلب منك بأدب، أليس كذلك؟"

"لن أسامحه، وهذا كل شيء!"

"سيدي الجلاد!" اقترب الكاتب الكئيب من الجلاد. "اقطع رأسه حتى لو لم يسامحك، هيا؟ سأدفع لك..."

دون أن ينبس بكلمة، مدّ الجلاد يده الضخمة، بحجم مقلاة، وانتظر. تنهد الكاتب الجنائزي وأخرج بعض العملات من كيسه، وألقى بها في يد الجلاد. نظر الجلاد إليها قليلًا، ثم قبض عليها بقبضة محكمة. لمع بريق شرير في عينيه المختبئتين خلف القناع.

"حسنًا،" قال، وهو يضع المال في جيبه، ثم استدار نحو الشاعر. "اركع إذن، أيها العِنيد. ضع رأسك على الكتلة، أيها المتعجرف. يمكنني أن أكون عنيدًا أيضًا، إن شئت. سأستغرق ضربتين لقطع رأسك. وربما ثلاثًا، إن كنت محظوظًا."

"أُبرئك!" عوى دانديليون فجأة. "أسامحك! أسامحك!"

"شكرًا لك."

"بما أنه قد سامحك،" قال الكاتب الجنائزي بعُبوس، "أعد إليّ نقودي."

استدار الجلاد ورفع فأسه عاليًا.

"ابتعد، أيها النبيل،" قال بصوت أجش قاتم. "لا تعترض طريق الأداة. فمن يقترب أكثر من اللازم أثناء قطع الرؤوس، قد يخسر أذنه."

تراجع الكاتب فجأة، وكاد يسقط من على المنصة.

"هكذا؟" ركع دانديليون ومدّ عنقه على كتلة الإعدام. "سيدي الجلاد؟ أيها السيد؟"

"ماذا؟"

"كنت تمزح، أليس كذلك؟ ستقطع رأسي بضربة واحدة، أليس كذلك؟ بضربة واحدة؟ أليس كذلك؟"

تلألأت عينا الجلاد خلف قناعه.

"لتكن مفاجأة."

فجأة، اهتز الحشد، متراجعًا أمام فارسٍ اقتحم الساحة ممتطيًا حصانًا متصببًا عرقًا، وهو يلوّح بلفافة كبيرة ممهورة بأختام حمراء.

"أوقفوا التنفيذ!" صرخ الفارس. "أوقفوا الإعدام! بأمر من الدوقة! افسحوا لي الطريق! أوقفوا الإعدام! أحمل عفوًا عن المحكوم عليه!"

"ليس مرة أخرى؟" زمجر الجلاد، وهو يخفض فأسه التي كان قد رفعها بالفعل. "عفو آخر؟ الأمر بدأ يصبح مملًا."

"رحمة! رحمة!" تعالى هتاف الحشد. وبدأت السيدات العجائز في الصف الأمامي يندبن بصوتٍ أعلى، بينما أطلق بعض الشبان صافرات استهجانٍ تعبيرًا عن خيبة أملهم.

"اهدأوا، أيها السادة والتجار المحترمون!" صاح الكاتب الجنائزي وهو يفتح اللفافة الممهورة. "هذا هو أمر صاحبة السمو، الدوقة آنا هنريتا! ففي كرمها اللامحدود، واحتفالًا بمعاهدة السلام التي، كما يُشاع، قد تم توقيعها في مدينة سنترا، فإن صاحبة السمو تعفو عن الفيكونت جوليان ألفريد بانكراتز دي ليتنهوف، المعروف باسم دانديليون، عن جميع أفعاله، وتتخلى عن تنفيذ حكم الإعدام عليه—"

"حبيبتي الصغيرة،" قال دانديليون مبتسمًا بسعادة.

"...لكنها تأمر في الوقت ذاته أن يغادر الفيكونت المذكور أراضي العاصمة وحدود دوقية توسون على الفور وألا يعود إليها أبدًا، لأنه يسيء لصاحبة السمو، ولم تعد قادرة على احتماله! أنت حر الآن، أيها الفيكونت."

"وممتلكاتي؟" صاح دانديليون. "ماذا عن ممتلكاتي؟ يمكنكم الاحتفاظ بأملاكي، وغاباتي، وقلاعي، ولكن أعيدوا لي، تبا لكم جميعًا، عودي، وحصاني بيغاسوس، ومائة وأربعين تالرًا وثمانين هالرًا، ومعطفي المبطن بفرو الراكون، وخاتمي..."

"اصمت!" صاح جيرالت وهو يدفع بحصانه وسط الحشد المتململ والمتردد في المغادرة. "اصمت، انزل وتعال إلى هنا، أيها الأحمق! سيري، افسحي الطريق! دانديليون! أتسمعني؟"

"جيرالت؟ هل هذا أنت؟"

"لا تسأل، فقط انزل! تعال إلى هنا! اقفز على حصاني!"

اندفعوا وسط الزحام وخرجوا مسرعين عبر الأزقة الضيقة، سيري في المقدمة، تليها جيرالت ودانديليون على ظهر روتش.

"لم العجلة؟" قال الشاعر من خلف جيرالت. "لا أحد يطاردنا."

"حتى الآن،" رد جيرالت. "دوقتك تحب تغيير رأيها فجأة وإلغاء قراراتها. اعترف، هل كنت تعلم بأمر العفو؟"

"لا، لم أكن أعلم،" تمتم دانديليون. "لكن، أعترف أنني كنت أعتمد عليه. حبيبتي الصغيرة ذات القلب الطيب."

"كفى من هذا 'حبيبتي الصغيرة'، تبًا لك، لقد نجوت للتو من تهمة إهانة الحاكم، أتريد أن تعيد الكرة؟"

صمت دانديليون. أبطأت سيري خطوات كيلبي وانتظرتهم، وعندما لحقوا بها، نظرت إلى دانديليون ومسحت دمعة.

"أوه، أيها الأحمق... بانكراتز..."

"لنواصل،" قال جيرالت. "لنغادر هذه البلدة وحدود هذه الدوقية الساحرة، بينما لا يزال بإمكاننا ذلك."

لحق بهم رسول دوقي عند حدود توسون، حيث أصبحت جبال غورغون في الأفق. كان يجر خلفه بيغاسوس، السرج لا يزال عليه، ويحمل عود دانديليون، ومعطفه وخاتمه. تجاهل السؤال عن المال المفقود، واستمع بصمت لطلب الشاعر أن يوصل قبلة للدوقة.

ركبوا بمحاذاة سانسرتور، التي كانت الآن مجرد مجرى مائي ضيق. تجاوزوا بلهافن وتوقفوا للتخييم في وادي نيوي، في مكان تذكره جيرالت ودانديليون جيدًا.

دانديليون صمد طويلًا دون أن يسأل، لكنه في النهاية كان لا بد أن يعرف كل شيء.

كان لا بد من إخباره بالحقيقة.

ثم تلت ذلك لحظات طويلة من الصمت الرهيب، صمتٌ ثقيل ومشحون، كأنه جرح نازف.

عند الظهيرة في اليوم التالي، وصلوا إلى المنحدرات، خارج ريدبرون. كان السلام والنظام سائدين في كل مكان. الناس كانوا مطمئنين ومتعاونين. كان الجو آمنًا.

لكن المشانق، المثقلة بالجثث المتدلية، كانت في كل مكان.

تفادوا دخول البلدة واتجهوا نحو دول أنغرا.

وفجأة، تذكر جيرالت ما كان يجب أن يلاحظه منذ وقت طويل.

"دانديليون! أنبوبك الثمين! قرونٌ من الأشعار! لم يكن مع الرسول. لقد تُرك في توسون!"

"أجل،" أومأ الشاعر بلا اكتراث. "إنه في خزانة حبيبتي الصغيرة، تحت كومة من فساتينها، وسراويلها الداخلية، ومشداتها. وليبقَ هناك للأبد."

"هل لك أن تشرح؟"

"ماذا هناك لتفسير؟ لقد كان لديّ وقتٌ كافٍ في توسون لأقرأ بتمعن ما كتبته."

"و؟"

"سأعيد كتابته. من جديد."

"أنا أفهم." أومأ جيرالت. "باختصار، اتضح أنك كاتب سيئ بقدر ما كنت عاشقًا مفضلاً. أو بعبارة أكثر صراحة: أنت تفسد كل ما تلمسه. حسنًا، لكن حتى لو سنحت لك الفرصة لتحسين وإعادة كتابة كتابك نصف قرن، فلا أمل لك مع الدوقة آنا رييتا. آه، العاشق المطرود بعار. نعم، نعم، لا فائدة من التكشير! لم يكن مقدرًا لك أن تكون زوج الدوقة في توسون، دانديليون."

"سنرى بشأن ذلك."

"لا تعوّل عليّ. لا أنوي أن أكون هناك لأشهد ذلك."

"ولا أحد يطلب منك ذلك. لكنني أخبرك، فتاتي الصغيرة ذات القلب الطيب والمُتفهم ستسامحني. في الحقيقة، لقد اندفعت قليلًا عندما ضبطتني مع الشابة نيك، ابنة البارون... لكنها الآن بالتأكيد هدأت. أدركت أن الرجل لم يُخلق ليكون مخلصًا لامرأة واحدة فقط. لقد سامحتني بلا شك، وهي تنتظرني..."

"أنت غبي ميؤوس منه،" قال جيرالت ببرود، وأكدت سيري ذلك بهزة قوية من رأسها.

"لن أناقش ذلك معكما،" قال دانديليون بعبوس. "خصوصًا لأنها مسألة شخصية. أقول لكما مرة أخرى: فتاتي الصغيرة ستسامحني. سأكتب لها بالادًا أو سوناتة مناسبة، وأرسلها إليها، وست—"

"ارحمنا، دانديليون."

"آه، لا جدوى من الحديث معكما. لنواصل طريقنا! انطلق، بيغاسوس! أسرع، أيها الطائر ذو السيقان البيضاء!"

وانطلقوا.

* * *

كان شهر مايو في أوجه.

"بسببك،" قال جيرالت بتأنيب، "بسببك، أيها العاشق المطرود، اضطررت أيضًا للفرار من توسون مثل مجرم أو منفي. لم أتمكن حتى من لقاء..."

"فرينجيلا فيغو؟ لن تكون قد رأيتها، لقد رحلت بعد فترة وجيزة من مغادرتك في يناير. اختفت ببساطة."

"لم أكن أفكر بها." سعل جيرالت قليلًا، عندما لاحظ اهتمام سيري المتزايد. "كنت أريد أن ألتقي برينارت. وأعرّفه على سيري..."

دانديليون ثبت عينيه على لجام بيغاسوس.

"رينارت دي بوا-فرينس،" تمتم، "قُتل في اشتباك مع قطاع الطرق عند ممر سيرفانتيس، في نهاية فبراير، قرب برج المراقبة في فيديت. قامت آنا رييتا بتكريمه بميدالية بعد وفاته—"

"اصمت، دانديليون."

دانديليون التزم الصمت، مطيعًا على غير العادة.

* * *

مايو تقدم ونضج. اختفت زهور الهندباء الصفراء من المروج، واستُبدلت بزغبها الأبيض المتطاير. كان كل شيء أخضر ودافئًا جدًا. الهواء، إن لم تُنعشه العواصف القصيرة، كان كثيفًا، حارًا، ولزجًا كالعسل.

عبروا نهر ياروجا في السادس والعشرين من مايو على جسر جديد، أبيض، تفوح منه رائحة الراتنج. لا تزال بقايا الجسر القديم — ألواح سوداء، محترقة، متفحمة — مرئية في المياه وعلى الضفاف.

بدأت سيري تشعر بالقلق.

جيرالت كان يعلم. كان يعرف نواياها، يعرف خططها، الاتفاق الذي أبرمته مع ينيفر. كان مستعدًا. لكن رغم ذلك، فكرة الفراق لسعته بشدة. كما لو أن عقربًا صغيرًا غافلًا كان نائمًا داخل صدره، خلف ضلوعه، وقد استيقظ فجأة.

كانت شجرة بلوط عظيمة تنتصب عند مفترق الطرق خارج قرية كوبرزيوينيتسا، تمامًا كما كانت لعقود طويلة، وربما أكثر من مئة عام. الآن، في الربيع، كانت أغصانها تتفتح بأزهار صغيرة.

اعتاد الناس من جميع أنحاء المنطقة، حتى من سبالا البعيدة، استخدام الأغصان الضخمة والمنخفضة للشجرة لتعليق الألواح الخشبية التي تحمل مختلف الإعلانات والمعلومات. لهذا السبب، أُطلق على هذه الشجرة اسم "شجرة الأخبار الطيبة والسيئة"، لأنها كانت وسيلة تواصل بين الناس.

"سيري، ابدأي من هذا الجانب،" أمر جيرالت وهو يترجل عن جواده. "دانديليون، تفقد الجانب الآخر."

كانت الألواح المعلقة تتأرجح مع الريح، مصدرة أصواتًا خشبية متشابكة. كانت معظم الإعلانات تخص البحث عن أفراد العائلات المفقودين بعد الحرب، إلى جانب رسائل مثل "عُد، لقد سامحتك"، وعروض لمساجات مثيرة وخدمات مشابهة في القرى والبلدات المجاورة، وإعلانات تجارية متنوعة.

كما تضمنت بعض اللوحات رسائل حب، وتقارير وشكاوى موقعة من أصحاب النوايا الطيبة، وخطابات مجهولة الهوية تحمل تهديدات وانتقادات. إضافة إلى ذلك، كانت هناك لوحات تعبر عن آراء فلسفية لأصحابها معظمها كان غبياً بشكل سخيف أو فاحشًا بذيئًا.

"هاه!" نادى دانديليون، وهو يشير إلى إحدى اللافتات. "هناك طلب عاجل لويتشر في قلعة راستبورغ. كتبوا أن الأجر جيد، والإقامة فاخرة، والطعام رائع للغاية. هل ستقبل العرض، جيرالت؟"

"مطلقًا."

عندها، وجدت سيري الإعلان الذي كانوا يبحثون عنه.

ثم استدارت إلى جيرالت، وقالت ما كان يتوقعه منذ فترة طويلة.

"أنا ذاهبة إلى فينغيربيرغ، جيرالت."

قالت ذلك مجددًا، بنبرة حازمة.

"لا تبتسم بهذه الطريقة،" أضافت. "أنت تعرف أن عليّ الذهاب، أليس كذلك؟ ينيفر استدعتني، إنها تنتظرني هناك."

"أعلم."

"وأنت ذاهب إلى ريفيا، إلى ذلك اللقاء الذي لا تزال تخفيه عني..."

"إنه مفاجأة،" قاطعها. "مفاجأة، وليس سرًا."

"حسنًا، مفاجأة. أما أنا، فسأنهي بعض الأمور في فينغيربيرغ، وأصطحب ينيفر، وسنكون معك في ريفيا خلال ستة أيام. لا تتجهم، أرجوك. لنفترق وكأنها ليست سوى أيام معدودة. مجرد ستة أيام! وداعًا."

"وداعًا، سيري."

"ريفيا، خلال ستة أيام،" كررت مرة أخرى، وهي تشد لجام كيلبي.

ثم انطلقت بالفرس في لحظة، وسرعان ما تلاشت في الأفق، تاركة جيرالت بشعور ثقيل كأن مخالب باردة تمسك بأحشائه.

"ستة أيام،" قال دانديليون مفكرًا. "من هنا إلى فينغيربيرج ثم العودة إلى ريفيا... المسافة كلها تقارب مئتين وخمسين ميلًا... هذا مستحيل، جيرالت. بالفعل، على تلك الفرس اللعينة، التي يمكنها السفر بسرعة تفوق حتى سرعة الرسل، قد يكون ذلك ممكنًا نظريًا. لكن حتى تلك الفرس تحتاج للراحة. كما أن الأمر الغامض الذي عليها إنجازه في فينغيربيرج سيأخذ بعض الوقت. لذا، الأمر مستحيل..."

ضمّ جيرالت شفتيه " لا شيء مستحيل بالنسبة إلى سيري."

"هل يمكن أن يكون...؟"

"إنها ليست الفتاة التي كنت تعرفها،" قاطعه جيرالت بحدة. "لم تعد كذلك."

دانديليون ظل صامتًا لفترة طويلة.

ثم همس أخيرًا: "لديّ شعور غريب..."

"اصمت،" قال جيرالت بهدوء، لكنه كان صوتًا ممتلئًا بالضيق. "لا تقل شيئًا. أرجوك."

انتهى شهر مايو. كان الهلال الجديد يقترب، بينما كان القمر القديم يتلاشى، رقيقًا بالكاد يظهر. كانوا يتجهون نحو الجبال البعيدة، بالكاد مرئية في الأفق.

كان المشهد مألوفًا بعد الحرب. فجأة، انتشرت القبور والتلال الترابية بين الحقول؛ الجماجم والهياكل العظمية تلمع ببياضها وسط العشب الأخضر الربيعي. الجثث تدلت من الأشجار على جانب الطريق، بينما جلست الذئاب غير بعيد، تراقب المسافرين المنهكين، تنتظر لحظة ضعفهم.

لم ينبت العشب مجددًا فوق الأرض السوداء المحترقة حيث مرت النيران، تاركة أثرها.

في القرى والمستوطنات، لم يتبق سوى المداخن المحترقة، ومع ذلك، كان هناك صوت الطرق بالمطارق ونشر الخشب يملأ الهواء. قرب الأنقاض، كانت النساء الفلاحات يحفرن الأرض المتفحمة بالمعاول. بعضهن، متعثرات، كن يجررن المحاريث بأجسادهن، والأحزمة الجلدية تحفر في أكتافهن النحيلة. الأطفال كانوا يبحثون في الأخاديد المحروثة حديثًا عن الديدان والحشرات.

* * *

"لدي شعور غامض أن هناك شيئًا غير طبيعي هنا،" قال دانديليون، متأملًا المشهد حوله. "هناك شيء ناقص... هل تشعر بذلك، جيرالت؟"

"ماذا؟"

"الأمور ليست على ما يرام هنا."

"لا شيء على ما يرام هنا، دانديليون. لا شيء."

* * *

خلال ليلة دافئة، مظلمة، ساكنة، كانت السماء تتوهج بين الحين والآخر بوميض البرق البعيد، يرافقه هدير رعد متململ. رأى جيرالت ودانديليون، من معسكرهما، الأفق في الغرب يتوهج بوميض نار متصاعدة. لم تكن بعيدة، والريح التي هبت جلبت رائحة الدخان، وأيضًا أصواتًا متقطعة.

سمعا، رغمًا عنهما، عواء ضحايا يُذبحون، نحيب النساء، وصياح المنتصرين المليء بالعجرفة.

لم يقل دانديليون شيئًا، لكنه ظل يختلس النظر إلى جيرالت، مترقبًا. لم يتحرك جيرالت. لم يلتفت حتى. كان وجهه مثل تمثال برونزي لا حياة فيه.

عند الفجر، واصلا طريقهما. لم ينظر أي منهما إلى الخيط الرفيع من الدخان الذي كان لا يزال يرتفع فوق الأشجار.

في وقت لاحق، صادفوا موكبًا من المستوطنين.

كانوا يسيرون في طابور طويل، بطيء. كانوا يحملون حزمًا صغيرة. كانوا يمشون في صمت تام. رجال، فتيان، نساء، وأطفال. لم يكن بينهم تذمر، ولا بكاء، ولا صرخات يائسة.

لكن الرعب واليأس كانا في عيونهم. في عيون خاوية لأناس مكسورين، منهوبين، مضروبين، مطرودين من بيوتهم.

"من هؤلاء؟" سأل دانديليون، متجاهلًا العداء الصامت الذي كان واضحًا في عيون الضابط المشرف على الموكب. "من هؤلاء الذين تطردونهم هكذا؟"

"إنهم نيلفجارديون،" تذمر الضابط الشاب، الذي لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره.

كان وجهه محمرًا بالحماس والغضب. "مستوطنون نيلفجارديون. ظهروا في أراضينا مثل الصراصير! وسنكنسهم كما نكنس الصراصير. هكذا قرر في سينترا، وهكذا كتب في معاهدة السلام."

بصق على الأرض بازدراء.

"ولو كان الأمر بيدي،" واصل، متفحصًا دانديليون و جيرالت بعينين متحديتين، "لما سمحت لهم بالخروج من هنا أحياء. هؤلاء الجرذان."

عندها، قال ضابط آخر، كان ذا شارب رمادي، وصوت هادئ متأنٍ، وهو ينظر إلى قائده باحتقار لم يُخفِه:

"لو كان الأمر بيدي، لكنت تركتهم في سلام في مزارعهم. لما طردت مزارعين جيدين من الأرض. لكنت سعيدًا بازدهار الزراعة، بوجود طعام على المائدة."

"أنت أغبى من حذاء قديم، أيها الرقيب،" قاطعه الضابط الشاب باحتقار. "إنهم نيلفجارديون! ليسوا من لغتنا، ولا ثقافتنا، ولا دمنا. سنكون مغفلين إن تركناهم هنا، نُغذّي أفعى في صدرنا. هؤلاء خونة، مستعدون لطعننا في الظهر. ماذا تظن، أن السلام مع الرداء الأسود سيدوم إلى الأبد؟ لا، عليهم أن يعودوا من حيث أتوا... أيها الجنود! ذاك الرجل لديه عربة! خذوها منه، فورًا!"

نُفذ الأمر بحماس مفرط، باستخدام الأقدام والقبضات، بل والهراوات أيضًا.

دانديليون تنحنح بخفة.

"ما بك؟" التفت إليه الضابط الشاب، متجهمًا. "هل هناك ما لا يعجبك؟ ربما تكون أحد المتعاطفين مع النيلفجارديين؟"

"حاشا لله،" ابتلع دانديليون ريقه بصعوبة.

النساء والفتيات في الطابور كن يمشين كما لو كن دمى آلية بلا روح. بعضهن كانت ملابسهن ممزقة، ووجوههن متورمة، وسيقانهن مغطاة بآثار دم جاف. الكثير منهن كن يحتجن إلى من يسندهن أثناء المشي.

دانديليون ألقى نظرة على وجه جيرالت، وبدأ يشعر بالخوف.

"يجب أن نرحل،" تمتم، محاولًا دفع روشه إلى الأمام. "وداعًا، أيها السادة."

لم يلتفت الضابط إليهم، كان مشغولًا بالتأكد من أن أمتعة المطرودين لم تتجاوز الحدود المسموح بها في معاهدة سينترا.

الموكب واصل طريقه.

ثم سمعوا صرخة امرأة، حادة، يائسة، مليئة بالألم.

"جيرالت، لا،" تأوه دانديليون، وهو يحاول جاهدًا كبح صديقه. "لا تفعل شيئًا، أرجوك... لا تتدخل..."

استدار جيرالت ونظر إليه.

لكن دانديليون لم يعد يتعرف على ملامحه.

"أتدخل؟" كرر الويتشر، بصوت خالٍ من المشاعر. "أنقذ شخصًا؟ أخاطر بحياتي من أجل بعض المبادئ النبيلة؟ بعض الأفكار السامية؟ أوه، لا، دانديليون. ليس بعد الآن."

* * *

كان الليل مضطربًا، مضاءً بأضواء بعيدة لوميض البرق. استيقظ جيرالت مجددًا بسبب حلم غامض، ولم يكن متأكدًا هذه المرة أيضًا، ما إذا كان قد انتقل مباشرة من كابوس إلى آخر.

مرة أخرى، انبثقت سطوعات نابضة فوق بقايا موقد المعسكر، أرعبت الخيول. ومرة أخرى، رأى أمامه قلعة عظيمة، أعمدة سوداء، ومائدة تجلس حولها نساء في دائرة النور.

ولكن اثنتين من النساء لم تكونا جالستين، بل واقفتين. إحداهما كانت ترتدي الأسود والأبيض، والأخرى الأسود والرمادي.

كانت ينيفر وسيري.

تأوه الساحر في نومه.

كانت ينيفر محقة تمامًا عندما نصحت سيري بعدم ارتداء ملابس رجالية. لو كانت ترتدي زيًا ذكوريًا، لشعرت بالحمق الآن، وسط هؤلاء النساء الأنيقات، المتلألئات بالمجوهرات. كانت ممتنة لأنها وافقت على ارتداء مزيج من الأسود والرمادي، وشعرت بالإطراء عندما لاحظت النظرات الموافقة على أكمامها المنتفخة والمفتوحة، وعلى الخصر المرتفع، وعلى الشريط المخملي الذي يحمل بروشًا صغيرًا على شكل وردة مرصعة بالألماس.

"اقتربي."

ارتجفت سيري قليلًا، ليس فقط بسبب صوت المرأة التي تحدثت، ولكن أيضًا بسبب البرد الذي شعرت به على صدرها العاري جزئيًا. كانت ينيفر قد نصحتها بعدم ارتداء فستان ذو فتحة صدر عميقة، لكنها أصرت عليه، والآن شعرت بأن تيارات الهواء تكاد تعصف على صدرها، وبأن جلدها مغطى بالقشعريرة حتى سرتها تقريبًا.

"اقتربي،" كررت المرأة ذات الشعر والعينين الداكنتين، والتي عرفتها سيري منذ لقاءها على جزيرة ثانيد. على الرغم من أن ينيفر قد أخبرتها مسبقًا بمن ستلتقي في مونتيكالفو، وعلمتها أسماء الجميع ووصفتهن بالتفصيل، إلا أن سيري أطلقت على المرأة لقب "السيدة البومة" في أفكارها.

"مرحبًا بكِ في مجلس مونتيكالفو، آنسة سيري."

انحنت سيري كما علمتها ينيفر، ولكن ليس بانحناءة نسائية مطيعة، بل بطريقة رجولية أكثر، وبدون خفض عينيها بتواضع. ابتسمت لابتسامة تريس ميريجولد الدافئة، وأومأت برأسها قليلاً لمارغريتا لوكس-

أنتيل التي بدت ودودة. لكنها تحملت بقية النظرات الثمانية الأخرى، التي اخترقت جلدها كالإبر، وغرزت في قلبها كالرماح.

"اجلسي،" أشارت السيدة البومة بحركة ملكية مهيبة. "لا، ليس أنتِ يا ينيفر! أنتِ لستِ ضيفة مدعوة، بل مجرمة، تم استدعاؤها للمحاكمة والعقاب. ستبقين واقفة حتى يقرر المجلس مصيركِ."

لم يدم البرتوكول الرسمي طويلًا بالنسبة لـ سيري.

"في هذه الحالة، سأبقى واقفة أيضًا،" قالت بصوت مسموع تمامًا. "لستُ ضيفة كذلك. لقد استُدعيت هنا كي أُخبر بمصيري. هذا أولًا. وثانيًا، مصير ينيفر هو مصيري. ما ينطبق عليها ينطبق عليّ. لا يمكنكم فصلي عنها. مع كامل احترامي."

ابتسمت مارغريتا لوكس-أنتيل، ناظرة إليها مباشرة في عينيها. المرأة الأنيقة ذات الأنف المستقيم قليلاً، والتي لم يكن يمكن أن تكون سوى "أسيري فار أناهيد"، الساحرة القادمة من نيلفجارد، أومأت برأسها قليلًا وربتت على الطاولة بأصابعها برفق.

"فيليبا،" قالت امرأة تلف عنقها بفراء ثعلب فضي، "ليس علينا أن نكون بهذه القسوة، على ما يبدو. على الأقل، ليس اليوم، ليس الآن. هذه الطاولة مستديرة، جميعنا نجلس حولها كندّيات. حتى لو كان هناك محاكمة، فيجب أن يكون هناك بعض الاتفاق حول ما يجب أن..."

لم تكمل حديثها، لكنها ألقت نظرة فاحصة على بقية الساحرات. أما هن، فقد أظهرن موافقتهن بإيماءات صغيرة: مارغريتا، أسيري، تريس، سابرينا غليفيسيغ، كيرا ميتز، والجميلتان الإلفيتان. لكن المرأة النيلفجاردية الأخرى، ذات الشعر الأسود الغراب، فرينجيلا فيغو، ظلت جالسة بلا حراك، شاحبة جدًا، وعيناها مثبتتان فقط على ينيفر.

"ليكن كذلك،" قالت فيليبا إيلهارت وهي تلوّح بيدها المرصعة بالخواتم. "اجلسا، كلاكما. رغم معارضتي. ولكن وحدة المجلس فوق كل شيء. مصالح المجلس فوق كل شيء. والمجلس هو كل شيء، وما عداه لا شيء. أتمنى أن تفهمي ذلك، سيري؟"

"أفهم جيدًا." لم تكن سيري تنوي خفض نظراتها. "خصوصًا أنني أنا ذلك اللا شيء."

أطلقت فرانسيسكا فيندابير، الإلفية فائقة الجمال، ضحكة رنّانة وموسيقيّة.

"تهانينا، ينيفر،" قالت بصوتها الساحر العذب، "يمكنني التعرف على البصمة الفريدة، نقاء الذهب. أتعرف هذه المدرسة."

"ليس من الصعب التعرف عليها." ألقت ينيفر نظرة محمومة حول الطاولة. "إنها مدرسة تيسايا دي فريس."

"تيسايا دي فريس ماتت." قالت السيدة البومة بهدوء. "لم تعد بيننا. لقد نُحِبَت وحُزِنَ عليها، ولكنها مثلت علامة فارقة ونقطة تحول. لقد بزغ عصر جديد، وزمن جديد قادم، وهناك تغييرات عظيمة على الأبواب. والمصير قد خصص لكِ دورًا مهمًا في هذه التغييرات، سيري، أنتِ التي كنتِ يومًا سيريللا من سينترا. ربما تعرفين بالفعل ما هو هذا الدور."

"أعرف،" قاطعت سيري الكلام دون أن تعبأ بهمسة التحذير التي أطلقتها ينيفر. "فيلغيفورتز أوضح لي ذلك! بينما كان يستعد لغرس محقن زجاجي بين ساقيّ. إذا كان ذلك قدري، فإني، بكل احترام، أرفض."

تلألأت عيون فيليبا ببرود غاضب، لكن شيلا دي تانكارفيل هي من تحدثت.

"لديكِ الكثير لتتعلميه، يا صغيرتي،" قالت، وهي تلف فرو الثعلب الفضي حول عنقها. **"ويبدو أن هناك الكثير لتنسيه أيضًا، سواء بمجهودك أو بمساعدة أحدهم. لقد حصلتِ مؤخرًا على قدر ليس بالقليل من المعرفة الشريرة، ومن الواضح أنكِ قد عانيتِ من الشر، بل اختبرته. والآن، في غضب طفولي، ترفضين رؤية الخير، وتنكرين النوايا الحسنة. تتصلبين كالقنفذ، غير قادرة على التعرف على من يهتمون لأمرك حقًا. تزفرين وتكشفين عن مخالبكِ كقط بري، فلا تتركين لنا خيارًا: يجب أن نمسككِ من قفاكِ. وسنفعل ذلك، يا صغيرة، دون تردد. فنحن أكبر منكِ، وأحكم منكِ، ونعرف كل ما كان، وكل ما هو كائن، ونعرف الكثير عما سيكون. سنمسككِ من قفاكِ، أيتها الهرة الصغيرة، لكي تجلسي هنا يومًا ما، بيننا، كقطة حكيمة ذات خبرة. كإحدانا. لا! ولا كلمة! لا تجرئي على فتح فمكِ بينما شيلا دي تانكارفيل تتحدث!"

صوت الساحرة من كوفير، الحاد والنافذ كحد السكين على المعدن، علق في الهواء فوق الطاولة. لم تكن سيري وحدها من تجمد في مكانه؛ بل إن باقي الساحرات في المجلس ارتعشن قليلاً وانكمشن في مقاعدهن. ربما باستثناء فيليبا، وفرانسيسكا، وأَسيري فار أناهيد. وأيضًا ينيفر.

"كنتِ محقة،" واصلت شيلا وهي تلف الفرو حول عنقها، "عندما اعتقدتِ أنكِ استُدعيتِ إلى مونتيكالفو لتُخبري بمصيركِ. لكنكِ لم تكوني محقة عندما ظننتِ أنكِ لا شيء. لأنكِ في الحقيقة كل

شيء. أنتِ مستقبل العالم. في هذه اللحظة، بالطبع، لا تعرفين ذلك، لا يمكنكِ أن تعرفي ذلك، لأنكِ الآن قطة صغيرة منتفخة، تزمجر وتبصق، مجرد طفلة مصابة بالصدمة، ترى في كل من حولها إما إمير فار إمريس أو فيلغيفورتز ممسكًا بأداته المقيتة. لا فائدة الآن، في هذه اللحظة، من محاولة شرح أي شيء لكِ، لا جدوى من إخباركِ أنكِ مخطئة، بأن الأمر يتعلق بخيركِ وخير العالم. سيحين الوقت لمثل هذه التوضيحات. يومًا ما.

أما الآن، وأنتِ غاضبة ومشتعلة، فلن ترغبي في الاستماع إلى صوت العقل. الآن، ستردين على كل حجة بإصرار طفولي وحنق صاخب. الآن، سيتم الإمساك بكِ من قفاكِ فحسب. لقد انتهيت. أخبري الفتاة بمصيرها، فيليبا."

جلست سيري في صمت، تمسح بأطراف أصابعها رؤوس تماثيل أبي الهول المنحوتة في مساند الكرسي.

"ستذهبين إلى كوفير معنا، أنا وشيلا،" قطعت السيدة البومة الصمت الثقيل. "إلى بوينت فانيس، العاصمة الصيفية الملكية. وبما أنكِ لم تعودي سيريلا من سينترا، فسيتم تقديمكِ خلال اللقاء على أنكِ تلميذة في السحر، إحدى متدرباتنا. خلال اللقاء، ستلتقين بملك حكيم للغاية، إستيراد تايسن، من دم ملكي أصيل. وستلتقين بزوجته، الملكة زوليكا، سيدة ذات نبل وطيبة استثنائيين. كما ستلتقين بابنهما، الأمير تانكريد."

فتحت سيري عينيها باتساع، مدركةً لما يُراد منها. السيدة البومة لاحظت ذلك.

"نعم،" أكّدت، "يجب أن تتركي انطباعًا قويًا على الأمير تانكريد قبل كل شيء. لأنكِ ستصبحين عشيقته، وستنجبين له وريثًا."

"لو كنتِ لا تزالين سيريلا من سينترا—" تابعت فيليبا بعد صمت طويل، "لو كنتِ لا تزالين ابنة بافيتا وحفيدة كالانثي، لجعلناكِ زوجة تانكريد الشرعية، أميرةً ثم ملكةً على كوفير وبوفيس. لكن، وللأسف الشديد، وأقولها بكل أسف، فقدركِ قد سلبكِ كل شيء. حتى مستقبلك. لذا لن تكوني سوى عشيقة. مفضلة—"

"بالاسم والشكل فقط،" قاطعتها شيلا، وهي تلاعب طرف وشاحها الفضي ببرود. "لأننا سنعمل جاهدين لجعلكِ تحظين بمكانة أقرب للأميرة بجانب تانكريد، وحتى لتصبحي ملكة لاحقًا. وسنحتاج إلى مساعدتكِ بالطبع. يجب أن يرغب تانكريد في وجودكِ بجانبه. ليلاً ونهارًا. وسنعلّمكِ كيف تشعلين فيه هذه الرغبة. ولكن تعلم الدرس يعتمد عليكِ."

"كل هذه الألقاب مجرد تفاصيل،" قالت السيدة البومة. "الأهم أن تانكريد يجب أن يُخصبكِ بأسرع وقت ممكن."

"حسنًا، هذا بديهي،" تمتمت سيري بسخرية.

"المجلس سيتكفل بمستقبل ومكانة طفلكِ،" قالت فيليبا، دون أن ترفع عينيها عن سيري. "عليكِ أن تعرفي أننا نتحدث هنا عن قضايا ذات شأن عظيم. ستشاركين فيها، بأي حال، إذ بمجرد ولادتكِ للطفل، ستبدئين بحضور اجتماعاتنا. ستتعلمين. لأنكِ، وإن بدا لكِ الأمر غير مفهوم اليوم، واحدةٌ منا."

"لقد نعتني بالمسخ في جزيرة ثانيد، سيدتي البومة،" قاومت سيري الاختناق في حلقها. "واليوم تخبرينني أنني واحدةٌ منكن."

"لا تناقض في ذلك،" جاء صوت إينيد آن غلينّا، زهرة الوديان، سلسًا كخرير الماء. "نحن جميعًا مسوخ، كل واحدة بطريقتها. أليس كذلك، سيدتي البومة؟"

فيليبا هزت كتفيها بلا مبالاة.

"سنخفي ذلك الندب البشع على وجهكِ بالخداع البصري،" تحدثت شيلا مرة أخرى، وهي تعبث بوشاحها ببرود. "ستكونين جميلةً وغامضةً، وسيُفتتن بكِ تانكريد تايسن، أؤكد لكِ ذلك. وسنحتاج لاختلاق بعض التفاصيل الشخصية لكِ. سيريلا اسم جميل وليس نادرًا جدًا بحيث يُلزمكِ بتغييره لتبقي مجهولة الهوية. لكننا سنمنحكِ لقبًا. لا أمانع إن اخترتِ لقبي."

"أو لقبي،" قالت السيدة البومة، مبتسمةً بأطراف شفتيها. "سيريلا إيلهارت له وقع جميل أيضاً."

"هذا الاسم—" دوّت ضحكة ناعمة كجرس الفضة في القاعة، زهرة الوديان مرة أخرى. "سيبدو جميلًا بأي تركيبة. وكل واحدةٍ منا هنا، تجلس حول هذه الطاولة، تتمنى لو كان لها ابنةٌ مثلكِ، زيرائيل، أيتها السنونو ذات عيني الصقر، أنتِ التي تحملين دماء وعظام لارا دورين. كل واحدةٍ منا قد تتخلى عن كل شيء، حتى عن المجلس، حتى عن مصير الممالك والعالم بأسره، لتحظى بابنةٍ مثلكِ. لكن هذا مستحيل. ونعلم أنه مستحيل. ولهذا نحسد ينيفر."

"أشكركِ، سيدتي فيليبا،" قالت سيري بعد لحظة، وقبضت يديها على رأسي التماثيل المنحوتة في مساند الكرسي. "أنا أيضًا أتشرف بعرض حمل اسم تانكارفيل. ولكن، بما أن اللقب هو الشيء الوحيد

في هذه القضية كلها الذي يعتمد عليّ وحدي، الشيء الوحيد الذي لا يُفرض عليّ، فإني مضطرة لرفضه واختيار لقب بنفسي. أريد أن أدعى سيري من فينغيربرج، ابنة ينيفر."

"هاه!" أطلقت سابرينا غليفيسيغ، الساحرة ذات الشعر الأسود، ضحكة ساخرة. "سيكون تانكريد تايسن غبيًا إن لم يتزوجها زواجًا غير متكافئ. إن سمح لهم بفرض أميرة تافهة عليه عوضًا عنها، فسيكون أحمقًا وأعمى، غير قادر على تمييز الألماس من الزجاج. تهانيّ، يينّا. أحسدكِ. وأنتِ تعرفين كم أستطيع أن أحسد بإخلاص."

ينيفر شكرتها بإيماءة من رأسها. دون حتى ظل ابتسامة.

"وهكذا،" قالت فيليبا، "كل شيء قد تم الاتفاق عليه."

"لا،" قالت سيري.

أطلقت فرانسيسكا فيندابير ضحكة ناعمة. رفعت شيلا دي تانكارفيل رأسها، وتصلبت ملامح وجهها بشكل غير مريح.

"يجب أن أفكر في الأمر،" أعلنت سيري. "أن أتمعن فيه. أن أرتب كل شيء في ذهني. بهدوء. وبعد أن أفعل ذلك، سأعود إلى مونتيكالقو. سأقف أمامكن، سيداتي، وسأخبركن بما قررت."

تحركت شفاه شيلا، كما لو كانت قد وجدت شيئًا في فمها ينبغي أن تبصقه فورًا. لكنها لم تتكلم.

"لقد وعدت بمقابلة الويتشر جيرالت في مدينة ريفيا." رفعت سيري رأسها. "وعدته أن ألتقيه هناك، أن أذهب إليه مع ينيفر. وسأفي بوعدي، سواء بموافقتكن أو بدونها. السيدة ريتا، التي تجلس هنا، تعلم أنني دائمًا ما أجد ثغرة في الجدار عندما يكون الأمر متعلقًا بالذهاب إلى جيرالت."

مارغريتا لوكس-أنتيل أومأت برأسها بابتسامة.

"عليّ التحدث إلى جيرالت. أن أودّعه. وأن أعترف أنه كان على حق. لأن هناك شيئًا يجب أن تعرفنه، سيداتي. عندما كنا نغادر قلعة ستيجّا، تاركين الجثث خلفنا، سألت جيرالت إن كان هذا هو الختام، إن كنا قد انتصرنا، إن كان الشر قد هُزم، وإن كان الخير قد انتصر. لكنه اكتفى بالابتسام بطريقة غريبة وحزينة. ظننت حينها أن ذلك بسبب التعب، لأننا كنا قد دفنا جميع أصدقائه عند سفح ستيجا. لكن الآن أعرف معنى تلك الابتسامة. كانت ابتسامة شفقة على سذاجة طفلة اعتقدت أن قطع حناجر

فيلغيفورتز وبونهارت يعني انتصار الخير على الشر. يجب أن أخبره أنني أصبحت أكثر حكمة، أنني فهمت. يجب أن أخبره."

"يجب أيضًا أن أحاول إقناعه بأن ما تحاولن فعله بي يختلف جوهريًا عما أراد فيلغيفورتز فعله بي بمحقنه الزجاجي. يجب أن أشرح له أن هناك فرقًا بين قلعة مونتيكالڤو وقلعة ستيجّا، حتى لو كان فيلغيفورتز يزعم أنه كان يعمل من أجل خير العالم، وأنتن أيضًا تدّعين أنكن تعملن من أجل خير العالم."

"أعلم أن إقناع ذئب عجوز مثل جيرالت لن يكون أمرًا سهلاً. سيقول إنني فتاة حمقاء، وأنه من السهل خداعي بمظاهر النُبل، وأن كل هذا القدر والمصير وخير العالم مجرد تفاهات جوفاء. لكن يجب أن أحاول. من المهم أن يفهم ويقبل بذلك. هذا مهم جدًا. لكن بالنسبة لكن أيضًا، سيداتي."

"لم تفهمي شيئًا،" قالت شيلا دي تانكارفيل بحدة. "أنتِ لا تزالين طفلة، تنتقلين من مرحلة الصراخ الأحمق وضرب الأقدام إلى الغطرسة الحمقاء. الشيء الوحيد الذي يمنحنا الأمل هو حدة ذهنك. ستتعلمين بسرعة. قريبًا، صدقيني، ستضحكين عندما تتذكرين الهراء الذي تفوهتِ به هنا. أما بالنسبة لرحلتكِ إلى ريفيا، فدعينا نسمع رأي المجلس. أعبر عن معارضتي القاطعة. لأسباب أساسية. ولكي أثبت لكِ أنني، شيلا دي تانكارفيل، لا أقول كلامًا بلا معنى، وأنني قادرة على جعلكِ تحنين عنقكِ المتكبر. تحتاجين إلى تعلم الانضباط، من أجل مصلحتك الخاصة."

"فلنحسم هذا الأمر إذن." وضعت فيليبا إيلهارت راحتيها على الطاولة. "سيداتي، رجاءً عبرن عن آرائكن. هل نسمح للفتاة المتعجرفة سيري بالذهاب إلى ريفيا؟ للقاء ذلك الويتشر الذي لن يكون له قريبًا أي مكان في حياتها؟ هل نسمح للمشاعر بالتغلغل فيها، مشاعر ستحتاج قريبًا إلى التخلص منها تمامًا؟ شيلا تعارض. والبقية؟"

"أنا ضد،" أعلنت سابرينا غليفيسيغ. "لأسباب جوهرية أيضًا. أنا أحب الفتاة، أحب ما تقوله، جرأتها ووقاحتها المتقدة. أفضّل ذلك على الامتثال الباهت. ليس لدي مانع من طلبها، خاصةً أنها بالتأكيد ستعود؛ فالأشخاص مثلها لا يخلّون بوعودهم. لكن الصغيرة هددتنا. ويجب أن تعرف أننا لا نأبه لمثل هذه التهديدات!"

"أنا أعارض،" قالت كيرا ميتز. "لأسباب عملية. أحب الفتاة أيضًا، وحملني جيرالت بين ذراعيه في ثانيد. لا يوجد فيّ ذرة عاطفية، لكنه كان أمرًا ممتعًا للغاية. كان سيكون وسيلة لرد الجميل. لكن لا! لأنكِ مخطئة، سابرينا. الفتاة ويتشر، وتحاول خداعنا. ببساطة، ستهرب."

"هل يجرؤ أحد هنا،" تحدثت ينيفر ببطء وسخرية، "على التشكيك في كلام ابنتي؟"

"أنتِ، ينيفر، اصمتي،" هسّت فيليبا. "لا تتحدثي، وإلا فسأفقد صبري. لدينا ثلاث أصوات ضد. فلنسمع البقية."

"أنا أوافق على السماح لها بالذهاب،" قالت تريس ميريجولد. "أنا أعرفها وأضمنها. وأود أيضًا مرافقتها في رحلتها، إن وافقت. لمساعدتها في تفكيرها وتأملاتها، إن أرادت. ولمساعدتها في محادثتها مع جيرالت، إن رغبت."

"وأنا أيضًا مع،" ابتسمت مارغريتا لوكس-أنتيل. "ما سأقوله قد يفاجئكن، سيداتي، لكنني أفعل ذلك من أجل تيزايّا دي فريس. لو كانت تيزايّا هنا، لكانت ستشعر بالغضب من فكرة أن الإكراه وتقييد الحرية الشخصية ضروريان للحفاظ على وحدة المجلس."

"أنا مع،" قالت فرانسيسكا فيندابير، وهي تعدّل الدانتيل على ياقة ثوبها. "هناك أسباب عديدة، لكنني لست مضطرةً لذكرها، ولا أنوي ذلك."

"أنا أُصوِّت بالموافقة،" قالت إيدا إيميان أيب سيفني، بنفس اللُغة المقتضبة. "لأن قلبي يُملي عليَّ ذلك."

"وأنا أُعارض،" أعلنت أسير فار أنهايد بجفاف. "ليس بدافع أي تعاطف أو كراهية أو قضايا جوهرية. أنا قلقة على حياة سيري. إنها في أمان تحت رعاية المجلس، لكنها ستكون هدفًا سهلاً على الطرق المؤدية إلى ريفيا. وأخشى أن هناك من، حتى بعد أن انتزعوا اسمها وهويتها، سيظلون يعتقدون أن ذلك لا يكفي."

"يبقى لنا معرفة موقف السيدة فرينجيلا فيجو،" قالت سابرينا غليفيسيغ بلهجة ساخرة. "مع أنه ينبغي أن يكون واضحًا. وأُذكِّركن جميعًا بقلعة ريس-رون."

"مع أنني ممتنة لهذا التذكير،" رفعت فرينجيلا فيجو رأسها بفخر، "إلا أنني أصوِّت لصالح سيري. لأُظهر لها احترامي ومودتي. وقبل كل شيء، أفعل ذلك من أجل جيرالت من ريفيا، الويتشر، الذي لولاه لما كانت هذه الفتاة هنا اليوم. والذي، من أجل إنقاذها، ذهب إلى أقصى أطراف العالم، مُحاربًا كل ما وقف في طريقه، حتى نفسه. سيكون من الظلم منعه من لقائها."

"لكن يبدو أن هناك الكثير من الطيبة،" قالت سابرينا بسخرية، "وقليلًا جدًا من القسوة، وهي القسوة التي ننوي اقتلاعها من هذه الفتاة. لقد تم حتى الحديث عن القلوب. والنتيجة أننا عالقون. التصويت متساوٍ. لم نقرر شيئًا. علينا التصويت مرة أخرى. أقترح أن يكون التصويت سريًا."

"ولماذا؟"

التفت الجميع إلى صاحبة الصوت. ينيڤر.

"لا أزال عضوًا في هذا المجلس،" قالت ينيڤر. "لم يُجردني أحد من عضويتي. لم يأخذ أحد مكاني. لدي الحق الرسمي في التصويت. وأعتقد أنه من الواضح لمن سأمنح صوتي. التصويت لصالحها سيتغلب، وبالتالي فإن الأمر محسوم."

"وقاحتك،" قالت سابرينا، مشبكة أصابعها المُرصَّعة بالخواتم الونيكسية، "تقترب من سوء الذوق، ينيڤر."

"لو كنت مكانكِ، سيدتي، لجلست بصمت متواضع،" أضافت شيلا بحدة. "متذكرةً التصويت الذي ستُصبحين موضوعه قريبًا."

"لقد دعمتُ سيري،" قالت فرانسيسكا، "لكن يجب أن أُؤنبكِ، ينيڤر. لقد غادرتِ المجلس، هاربة منه ورافضة التعاون. لم يعد لديك أي حقوق. لديكِ فقط التزامات، وديون يجب دفعها، وعقوبة يجب سماعها. ولولا ذلك، لما سُمح لكِ حتى بعبور عتبة مونتيكالڤو."

ينيڤر أمسكت سيري، التي كانت على وشك الوقوف والصراخ. لكنها لم تُقاوم، جلست بهدوء، تُراقب فيليبا إيلهارت، سيدة البوم، وهي تنهض من مقعدها، لتُصبح فجأة أعلى من الطاولة.

"ينيڤر لا تملك حق التصويت، هذا واضح،" أعلنت فيليبا بصوت رنان. "لكن أنا أملك. لقد استمعت إلى أصوات جميع الحاضرات هنا، لذا أعتقد أنني أخيرًا يمكنني التصويت بنفسي."

"ماذا تقصدين، فيليبا؟" قطبت سابرينا حاجبيها.

فيليبا إيلهارت نظرت عبر الطاولة. التقت عيناها بعيني سيري، ونظرت فيهما بعمق.

* * *

قاع البركة مغطى بفسيفساء متعددة الألوان، تتلألأ بلاطاتها وكأنها تتحرك. يرتجف سطح الماء بالكامل، يتوهج بالضوء والظل. أسماك الكارب والأورف تلمع تحت أوراق الزنابق الضخمة، وسط الأعشاب المائية الخضراء. تنعكس عينا الفتاة السوداوان الكبيرتان في الماء، وشعرها الطويل يصل إلى السطح، يطفو فوقه.

الفتاة، غافلة عن العالم بأسره، تمرر يديها الصغيرتين بين سيقان الزنابق المائية، متدلية فوق حافة البركة المحيطة بالنافورة. تتمنى لو تلمس إحدى تلك الأسماك الصغيرة ذات اللون الذهبي والأحمر. الأسماك تقترب من يدي الفتاة، تدور حولها بفضول، لكنها لا تسمح لنفسها بأن تُقبض؛ فهي زلقة مثل الأطياف، مثل الماء نفسه. تنغلق أصابع الفتاة ذات العينين الداكنتين على الفراغ.

"فيليبا!"

إنه صوتها المفضل، ومع ذلك لا تتفاعل الفتاة الصغيرة على الفور. تظل تنظر إلى الماء، إلى الأسماك الصغيرة، إلى الزنابق المائية، وإلى انعكاسها.

"فيليبا!"

"فيليبا." صوت شيلا دي تانكارفيل الجاف انتشلها من تأملها. "نحن بانتظارك."

هبت ريح ربيعية باردة عبر النافذة المفتوحة. ارتجفت فيليبا إيلهارت. الموت، فكرت. الموت مر بجانبي.

* * *

"هذا المجلس،" قالت أخيرًا بثقة، بصوت عالٍ وحازم، "سيقرر مصائر العالم. لأن هذا المجلس هو انعكاس للعالم، هو مرآته. الفطنة، التي لا تعني دائمًا البرودة القاسية والحسابات الجافة، توازن العاطفة، التي ليست دائمًا ساذجة. المسؤولية، الانضباط الحديدي – حتى لو فرض بالقوة – مقابل النفور من العنف؛ الرقة والثقة. البرود المحسوب للقدرة المطلقة ... والقلب."

"وأنا، بإدلائي بصوتي الأخير، آخذ في الحسبان أمرًا إضافيًا،" تابعت وسط الصمت الذي خيم على القاعة ذات الأعمدة في مونتيكالڤو. "أمرًا لا يوازن شيئًا، لكنه يقلب كل شيء."

باتباع نظرتها، حولت جميع النساء أنظارهن إلى الجدار، إلى الفسيفساء المصنوعة من بلاطات صغيرة ملونة، تصور الأفعى أوروبوروس، التي تعضّ ذيلها بأسنانها.

"هذا الأمر هو القدر،" واصلت، مثبتة عينيها الداكنتين على سيري. "الذي بدأت أنا، فيليبا إيلهارت، أؤمن به مؤخرًا فقط. الذي بدأت أفهمه مؤخرًا فقط. القدر ليس أحكام العناية الإلهية، وليس حتمية صارمة. القدر هو الأمل. كوني مليئة بالأمل، مؤمنة بأن ما يجب أن يحدث سيحدث، أدلي بصوتي. أصوّت لصالح سيري. الطفلة التي أرسلها القدر. الطفلة التي تمثل الأمل."

استمر الصمت في قاعة الأعمدة في قلعة مونتيكالڤو، التي غمرها الضوء الخافت والظلال الرقيقة، لفترة طويلة. من الخارج، وصل إليهن صوت صرخة صقر بحري يحلق فوق البحيرة.

"سيدتي ينيڤر،" همست سيري. "هل يعني هذا ..."

"لنذهب، يا ابنتي،" أجابت ينيڤر بصوت ناعم. "جيرالت بانتظارنا، والطريق أمامنا طويل."

* * *

استيقظ جيرالت، وقفز واقفًا، مع صدى صرخة طائر الليل في أذنيه.

ثم تزوجت الساحرة والصياد، وأقاموا حفل زفاف عظيم. كنت هناك، شربت الميد والنبيذ. ثم عاشا بسعادة، لكن لفترة قصيرة جدًا. مات هو بطريقة عادية، بسبب نوبة قلبية. أما هي، فتوفيت بعده بفترة وجيزة، لكن الحكاية لا تذكر السبب.

يقولون إنها ماتت من الحزن والحنين، لكن من ذا الذي سيصدق القصص الخرافية؟

فلورنس ديلا نوي، حكايات وأساطير

الفصل الثاني عشر

دنا اليوم السادس بعد القمر الجديد لشهر يونيو حينما وصلوا إلى ريفيا.

خرجوا من الغابات إلى سفوح التلال، ومن ثم، أسفلهم، فجأة ودون إنذار، أضاءت سطح بحيرة إسكالوت، تتلألأ وتعكس شكل الرون الذي سُميت على اسمه. منحدرات كراج روس، الطرف البارز لسلسلة ماهكام الجبلية، المغطاة بأشجار التنوب والصنوبر، تأملت انعكاسها في سطح البحيرة، كما فعلت أسطح الأبراج المغطاة بالقرميد الأحمر لقلعة ريفيا، المقر الشتوي لملوك ليريا، الواقعة على لسان من الأرض ممتد في قلب المياه. وفي خليج عند الطرف الجنوبي للبحيرة، ترامت بلدة ريفيا، بمنازلها المضيئة ذات الأسقف المصنوعة من القش، وتجمع مبانيها الداكنة على ضفاف البحيرة، كأنها فطر نما في أرض رطبة.

"حسنًا، يبدو أننا وصلنا،" قال دانديليون، واضعًا يده على جبينه ليحجب أشعة الشمس. "ها نحن نعود إلى ريفيا، الدائرة تكتمل... غريب، كم هي غريبة تقلبات القدر... لا أرى رايات زرقاء وبيضاء ترفرف فوق أي من أبراج القلعة، لذا فالملكة ميف ليست هنا. لا أظن، على أي حال، أنها لا تزال تتذكر هروبنا—"

"صدقني يا دانديليون،" قاطعه جيرالت، موجهًا جواده أسفل التل، "أنا لا أكترث بمن يتذكر ماذا."

خارج المدينة، غير بعيد عن بوابة الجمارك، نُصبت خيمة ملونة تشبه كعكة زاهية الألوان. أمامها، عُلِّق درع أبيض يحمل خطًا مائلًا باللون الأحمر على عمود خشبي. تحت ظل رفرف الخيمة المرفوع، وقف فارس في درع كامل، مرتديًا معطفًا أبيض مزينًا بنفس الشعار على الدرع. كان يتفحص المارة؛ النساء المتشحات بالأوشحة، والعمال الذين ينقلون براميل القطران والراتنج، والرعاة، والتجار الجوالين، والمتسولين. لكن عيناه لمعتا بالأمل عندما وقع بصره على جيرالت ودانديليون، اللذين كانا يتقدمان ببطء نحوه.

"المرأة التي تملك قلبك" جمد صوت جيرالت برودة الأمل في نظرات الفارس، "أياً كانت، فهي أجمل وأنبل عذراء من نهر ياروجا إلى بوينا."

"بحق شرفي،" رد الفارس بحدة، "لقد صدقت القول، أيها السيد."

* * *

فتاة شقراء، مرتدية سترة جلدية مرصعة بكثافة، كانت تتقيأ في وسط الشارع، منحنية إلى الأمام، متشبثة بركاب فرس رمادي ضعيف البنية ومليء بالبراغيث. كان رفيقاها، شابان يرتديان زيًا مماثلًا ويحملان سيوفًا على ظهورهم، ويضعان عصابات على جباههم، يسبّان المارة بلغة قذرة، بصوت غير مترابط إلى حد ما. كلاهما كان في حالة سكر واضح، يترنحان ويصطدمان بجوانب الخيول وقضبان عامود الربط أمام النزل.

"هل يجب علينا حقًا الدخول إلى هناك؟ "سأل دانديليون بتوجس" .قد يكون هناك المزيد من الشبان اللطفاء مثل هؤلاء في الداخل".

"أنا ألتقي بشخص هنا. هل نسيت؟ هذا هو 'الديك والدجاجة الأم' الذي ورد ذكره في الإعلان على شجرة الأخبار ".رد جيرالت بثبات.

انحنت الفتاة الشقراء مجددًا، تتقيأ بعنف ووفرة. الفرس رمح فجأة، رافعًا رأسه، مما أدى إلى دفع الفتاة وسقوطها في قيئها بينما سحبها الركاب.

"عمّاذا تنظر، أيها الأحمق؟ "تمتم أحد الشبان، متطلعًا إلى جيرالت بعيون شبه مغلقة" .أيها العجوز الرمادي؟"

"جيرالت، "همس دانديليون، وهو يترجل عن حصانه" .لا تفعل أي شيء طائش، أرجوك".

"لا تخف. لن أفعل".

ربطوا خيولهم على جانب آخر من الدرج الخشبي للنزل. ترك الشبان سكرى العنان لأصواتهم القبيحة، موجهين إهاناتهم وبصاقهم نحو امرأة تعبر الطريق ممسكة بيد طفلها. حدق دانديليون في وجه جيرالت، ولم يعجبه ما رآه هناك.

أول ما لفت انتباههم عند دخول النزل كان لافتة معلقة عند المدخل" :مطلوب: طباخ ."ثم ظهرت أمامهم لوحة كبيرة معلقة على جدار مصنوع من ألواح خشبية، تُصوّر وحشًا ملتحيًا ممسكًا بفأس معقوف تتساقط منه الدماء .كان النص المصاحب مكتوبًا بحروف كبيرة" :القزم – قزم غادر ووضيع."

"هذا ليس جيدًا "...تمتم دانديليون، محاولًا إبقاء صوته منخفضًا.

لم يكن قلقه في غير محله، فقد كان النزل يعجّ بمجموعة من "الشبان "بملابس جلدية مرصعة، بسيوف مثبتة على ظهورهم. كان عددهم ثمانية، رجالًا ونساءً، لكن صخبهم كان يكفي لعشرة أضعاف هذا العدد، يتشاجرون ويتراشقون بالكلام القاسي.

"أعرفكما وأعلم من تكونان، أيها السادة ".باغتهما صاحب النزل بمجرد أن رآهما" .ولديّ لكما رسالة. أنتما مطلوبان في حانة تُدعى 'ويرسينغ' في حيّ إلم".

"آه، هذا خبر جيد "!...تهلل وجه دانديليون، مستبشرًا.

"لست متأكدًا من ذلك ".قال صاحب النزل بجفاف، وهو يمسح كوبًا بمئزره المتسخ" .إذا كنتما تحتقران مكاني، فهذا شأنكما. لكن دعوني أخبركما أن 'إلم' هو حي الأقزام، حيث يقيم غير البشر".

سأله جيرالت، مضيقاً عينيه: "وماذا في ذلك؟".

"أوه، أنا متأكد أن ذلك لا يزعجكما ".رفع صاحب النزل كتفيه بلا مبالاة" .فالشخص الذي ترك لكما الرسالة كان قزمًا. وبما أنكما تتعاملان مع أمثالهم... فهذا شأنكما. اختيار الرفقة هو خيار شخصي، كما تعلمون".

"نحن لسنا صعبي الإرضاء عندما يتعلق الأمر بالرفقة، "قال دانديليون، مشيرًا برأسه نحو الشبان السكارى ذوي الجباه المليئة بالبثور، الذين كانوا يتشاجرون عند طاولة قريبة" .لكنني أقسم لك أننا لا نحب هذا النوع من الصحبة".

وضع صاحب النزل الكوب الجاف جانبًا وحدّق فيهما بنظرة غير مرحّبة.

قال بلهجة حازمة:

"عليكما أن تكونا أكثر تفهّمًا."

ثم أضاف بتوكيد: "على الشباب أن يُنفّسوا عن أنفسهم. هناك مثل يقول ذلك، الشباب بحاجة إلى التنفيس. الحرب ألحقت بهم الضرر. آباؤهم هلكوا..."

قال جيرالت بصوت بارد كبحيرة جبلية:

"وأمهاتهم عابثن مع الآخرين."

ثم تابع: "أنا أفهم، بل إنني مليء بالتفهّم. أو على الأقل أحاول جاهداً أن أكون كذلك. هيا بنا، دانديليون."

قال صاحب النزل بلا احترام رغم كلماته:

"انصرفا إذن مع احترامي. ولكن لا تأتيا إليّ شاكيَين مما قد حذّرتكما منه. فمن السهل في هذه الأيام أن ينتهي المرء برأس متألّم في حي الأقزام. إن حدث أي شيء."

سأل جيرالت وهو يتوقف للحظة:

"إن حدث ماذا؟"

رفع صاحب النزل كتفيه بلا مبالاة:

"وكيف لي أن أعرف؟ وهل هذا من شأني؟"

حثّ دانديليون رفيقه قائلاً بنبرة مستعجلة، وهو يرى بطرف عينه أن أولئك الشبان المتضررين من الحرب، أولئك الذين ما زالوا في وعيهم جزئيًا، كانوا يراقبونهم بعيون متوهجة بفعل الـ"فيستيك":

"لنذهب، جيرالت."

قال جيرالت وهو يخطو نحو الخارج:

"وداعًا، يا سيد النزل. من يدري، ربما نزور نُزُلك يومًا ما، بعد فترة. عندما تختفي تلك اللافتات من المدخل."

قطب صاحب النزل حاجبيه واتخذ وقفة عدوانية، ساقاه متباعدتان:

"وأيّ واحدة لا تعجبكما، أيها السادة؟ ها؟ لافتة القزم، ربما؟"

قال جيرالت بلا اكتراث:

"لا. لافتة الطاهي."

نهض ثلاثة شبّان من طاولتهم، متمايلين قليلًا، وكانت نواياهم واضحة: اعتراض طريقهما. فتاة وشابان، جميعهم يرتدون سترات سوداء، وبسيوف على ظهورهم.

لم يُبطئ جيرالت خطواته، بل واصل سيره، وملامحه باردة وعيناه غارقتان في لامبالاة تامة.

في اللحظة الأخيرة، تراجع الشبّان وتفرقوا، متيحِين لهما الطريق. استنشق دانديليون رائحة الجعة التي تفوح من أنفاسهم. ورائحة العرق. ورائحة الخوف.

قال الويتشر حين أصبحا في الخارج:

"عليك أن تعتاد على الأمر. عليك أن تتأقلم."

قال دانديليون بتنهيدة:

"الأمر صعب أحيانًا."

ردّ جيرالت بحزم:

"هذا ليس مبررًا. هذا ليس مبررًا، دانديليون."

كان الهواء حارًا، كثيفًا ولزجًا. كالحساء.

في الخارج، أمام النزل، كان الشابان بستراتهما السوداء يساعدان الفتاة ذات الشعر الفاتح على غسل وجهها في حوض الخيول. تنهّدت الفتاة بصوت مرتجف، مشيرة إلى أنها تشعر بتحسن، ثم أعلنت أنها بحاجة إلى مشروب. ثم بالطبع ستذهب إلى السوق لقلب بعض الأكشاك من باب التسلية، لكن أولًا، كانت بحاجة إلى الشراب.

كان اسم الفتاة ناديا إسبوزيتو.

ذلك الاسم حُفر في السجلات.

ذلك الاسم دخل التاريخ.

لكن جيرالت ودانديليون لم يكونا ليعلما ذلك حينها. ولا الفتاة كذلك.

* * *

كانت الشوارع الضيقة في مدينة ريفيا تعج بالحياة، وكان ما يشغل سكانها وزوّارها بالكامل تقريبًا هو التجارة. بدا وكأن الجميع يبيعون ويشترون كل شيء، ويسعون لاستبدال أي شيء بشيء آخر أكثر قيمة.

ترددت أصداء الصياح من كل جانب، إعلانات عن بضائع، مساومات محتدمة، شتائم متبادلة، واتهامات مدوية بالغش والسرقة والاحتيال، بل وأيضًا بارتكاب زلّات أخرى لا تمتّ للتجارة بصلة.

قبل أن يصل جيرالت ودانديليون إلى حي "إلم"، تلقّيا كمًا هائلًا من العروض المغرية. عُرض عليهما، من بين أشياء أخرى، إسطرلاب، بوق نحاسي، طقم أدوات مائدة مزين بشعار عائلة فرانجيباني، أسهم في منجم نحاس، جرة ضخمة من العلق، كتاب ممزق بعنوان معجزة مزعومة أو رأس الميدوزا، زوج من القوارض، إكسير لتعزيز الفحولة، وكجزء من صفقة شاملة امرأة لم تكن صغيرة السن، ولا نحيفة، ولا نضرة تمامًا.

حاول قزم ذو لحية سوداء بإلحاح شديد إقناعهما بشراء مرآة رديئة ذات إطار من النحاس المغشوش، مدّعيًا أنها مرآة كامبوسكان السحرية، لكن سرعان ما رُمي حجر من مكان ما، ليطيح بالبضاعة من يده.

صرخ صبي أشعث القدمين، متسخ الملابس بصوت لاذع:

"كوبولد قذر! غير بشري! تيس عجوز ملتحٍ!"

زمجر القزم بغيظ وردّ عليه:

"ولتتعفن أحشاؤك، أيها القذارة البشرية! لتتعفن وتتساقط من مؤخرتك!"

راح الناس ينظرون إليهما في صمت كئيب.

كان حي "إلم" يقع بجوار البحيرة، داخل خليج تحيط به أشجار النير، والصفصاف الباكي، وبالطبع أشجار الدردار. كان أكثر هدوءًا وسكينة؛ لم يكن هناك من يشتري أو يبيع، وكان النسيم القادم من البحيرة منعشًا، خصوصًا بعد الهروب من رائحة المدينة الخانقة المتخمرة بالذباب.

لم يستغرق الأمر طويلًا للعثور على حانة ويرسينج. فقد أرشدهم أول مارٍ صادفوه إليها بلا تردد.

كان قزمان بلحيتهما الكثة يجلسان عند مدخل الحانة، يحتسيان الجعة من أكواب متشبثين بها عند بطنيهما، تحت سقف مغطى بالطحالب الخضراء الزاهية وأعشاش السنونو، وعلى درجات شرفة مغطاة بنباتات البازلاء المتسلقة والورود البرية.

قال أحد القزمين متثائبًا وهو يتجشأ برقة:

"جيرالت و دانديليون، ما الذي أخركما، أيها الأوغاد؟"

ترجّل جيرالت عن جواده.

"تحياتي، ياربن زيغرين. سعيد برؤيتك، زولتان شيفاي."

* * *

كانت الحانة خالية من الزبائن، تفوح منها رائحة قوية للحم المشوي، والثوم، والأعشاب، وشيء آخر غامض لكنه ممتع للغاية.

جلسوا إلى طاولة ثقيلة، تطل نوافذها الزجاجية ذات الأطر الرصاصية على البحيرة، التي بدت من خلالها غامضة، فاتنة، ورومانسية.

سأل ياربن زيغرين مباشرة، دون مقدمات:

"أين سيري؟ لا يمكن أن تكون..."

قاطعه جيرالت بسرعة:

"لا، إنها قادمة. ستكون هنا في أي لحظة."

ثم رفع حاجبيه ونظر إليهما قائلاً:

"والآن، أيها الملتحيان، أخبراني، كيف تسير الأمور؟"

"ألم أقل ذلك؟" قال ياربن بتهكم، ثم التفت إلى زولتان. "ألم أقل ذلك، زولتان؟ يعود من أقاصي العالم، حيث — إن صدقنا الشائعات — قد خاض في الدماء، وقتل التنانين، وأطاح بالإمبراطوريات. ثم يسألنا نحن كيف تسير الأمور. هذا هو الويتشر على حقيقته—"

قاطعه دانديليون، متسائلاً بنبرة فضولية:

"ما هذه الرائحة الشهية هنا؟"

أجاب ياربن زيغرين وهو يمد يده لكأسه:

"العشاء. لحم."

ثم أضاف، مبتسمًا بمكر:

"دانديليون، اسألني من أين حصلنا على اللحم."

هزّ الشاعر رأسه بلا مبالاة:

"لن أفعل، لأنني أعرف هذه النكتة بالفعل."

قال ياربن باستياء زائف:

"لا تكن خنزيرًا."

تنهد دانديليون مستسلمًا:

"حسنًا، من أين حصلتم على اللحم؟"

قهقه القزم وقال:

"لقد زحف إلينا بنفسه!"

ثم مسح دموع الضحك من عينيه، رغم أن النكتة كانت قديمة جدًا، وأضاف بصوت أكثر جدية:

"أما بجدية... فالوضع فيما يخص المؤن كارثي، كما هو معتاد بعد الحرب. لا تجد اللحم، ولا حتى الطيور، والحصول على السمك صعب أيضًا... الأمور سيئة فيما يخص الطحين والبطاطا، البازلاء والفاصوليا... المزارع أُحرقت، والمخازن نُهبت، وأحواض السمك أُفرغت، والحقول صارت قاحلة..."

أكمل زولتان بغمغمة ثقيلة:

"لا يوجد تدفق تجاري. لا توجد وسائل نقل. كل ما يعمل الآن هو الربا والمقايضة. هل رأيتم السوق؟ المحتالون يجنون الثروات بينما الفقراء يبيعون أو يتبادلون ما تبقى لديهم من ممتلكات..."

تنهد ياربن وأردف:

"وإن فشلت المحاصيل أيضًا، فسيبدأ الناس بالموت جوعًا في الشتاء."

رفع جيرالت حاجبه بتوجس:

"هل الأمر بهذا السوء فعلاً؟"

قال زولتان بهدوء:

"أنتما أتيتما من الجنوب. مررتما بالقرى والمستوطنات، أليس كذلك؟ فكر قليلاً... كم مرة سمعتما نباح الكلاب؟"

حدّق دانديليون للحظة، ثم فتح فمه على اتساعه، وصفع جبهته بيده:

"اللعنة! كنت أعرف أن هناك شيئًا غريبًا... قلت لك يا جيرالت، هذا لم يكن طبيعيًا! كان هناك شيء ناقص! ها! الآن فهمت! لم نسمع نباح الكلاب! لم تكن هناك أي كلاب في الطريق—"

ثم قطع كلماته فجأة، وتحولت عيناه برعب نحو المطبخ، حيث كانت تفوح رائحة الثوم والأعشاب.

ضحك ياربن بصوت عالٍ، مشيرًا بيده بلا مبالاة:

"لا تخف، يا مغفل! لحمنا ليس من أي شيء ينبح أو يموء أو يتوسل قائلاً ارحموني!. إنه لحم من نوع آخر تمامًا. لحم ملكي!"

رفع دانديليون حاجبه وقال مستفسرًا:

"أفصح عن الأمر، أيها القزم!"

رفع ياربن كأسه مبتسمًا وقال:

"عندما تلقينا رسالتك، وعلمنا أننا سنلتقي في ريفيا، أخذنا أنا وزولتان نفكر فيما نقدمه لكما. فكرنا حتى تعبنا، وحينها ذهبنا إلى ضفاف البحيرة تحت شجرة نير صغيرة. نظرنا، ووجدنا أنها تعج بالقواقع. وهكذا، أخذنا كيسًا وبدأنا في جمع أكبر عدد ممكن من هذه الرخويات العزيزة..."

أومأ زولتان شيفاي وأضاف بضحكة مكبوتة:

"لكن كثيرًا منها هرب! كنا في حالة سُكر بسيطة، وهي سريعة بشكل شيطاني!"

عندها انفجر القزمان في موجة جديدة من الضحك، غير قادرين على التوقف، رغم أن النكتة كانت قديمة جدًا حتى إنها أصبحت مجعّدة مثل وجوه العجائز.

"ويرسينج " أشار ياربن إلى صاحب النزل الذي كان مشغولًا بالحركة حول الموقد، وأضاف:

"يعرف تمامًا كيف يطهو القواقع، وهذا، كما ينبغي أن تعلم، يتطلب معرفة سحرية عظيمة. ومع ذلك، فهو طاهٍ بالفطرة. قبل أن يصبح أرملًا، كان يدير مع زوجته نُزُلًا على طريق ماربور مع طعام جعل حتى الملك نفسه يستضيف ضيوفه هناك. سنلتهم الطعام قريبًا، أؤكد لك"!

"وقبل ذلك، "أومأ زولتان برأسه وهو يملأ الكؤوس، "سنبدأ بمقبّلات من سمك المياه البيضاء المدخّن حديثًا، صِيد من أعماق هذه البحيرة الغامضة. وسنغسلها بشراب معتّق من أعماق القبو".

رفع ياربن كأسه وقال بجدية:

"والآن القصة، أيها السادة. القصة"!

كان السمك الأبيض لا يزال ساخنًا، دهنيًا، تفوح منه رائحة الدخان المنبعثة من رقائق خشب النير. أما الفودكا، فكانت باردة لدرجة أنها لدغت الأسنان.

* * *

بدأ دانديليون الحديث أولًا؛ بأسلوب متأنق، سلس، ومزخرف، مزينًا قصته بزخارف جميلة وخيالية إلى درجة أنها كادت تحجب الأكاذيب والخيالات التي دسّها بين ثناياها.

ثم تحدث جيرالت .حكى نفس الحقيقة، لكن بأسلوب جاف، مملّ، ومباشر لدرجة أن دانديليون لم يحتمل ذلك وظل يقاطعه، مما جعل الأقزام يوبخونه مرارًا.

وحين انتهت القصة، خيّم صمت طويل ومؤثر.

رفع زولتان شيفاي كأسه بحزن وقال:

"نخب الرامية ميلفا"!

ثم تنحنح وأضاف:

"نخب النيلفجاردي. نخب ريجيس العشّاب الذي أكرم المسافرين في كوخه بالقمر المقطر ونبات الماندريك. ونخب أنغوليم، التي لم ألتقِ بها قط. ليكن التراب خفيفًا عليهم جميعًا. وليحظوا في الآخرة بكل ما حُرموا منه على الأرض. ولتظل أسماؤهم خالدة في الأغاني والقصص. فلنشرب نخبهم"!

أحضر ويرسينج، الرجل الشاحب ذو الشعر الرمادي والجسد النحيف كنصل المنجل — عكس تمامًا صورة صاحب النزل التقليدي وسيد الأسرار الطهوية — سلةً من الخبز الأبيض الطري، تفوح منه رائحة شهية.

ثم وضع على الطاولة طبقًا خشبيًا ضخمًا مملوءًا بالقواقع الساخنة، تستقر فوق أوراق الفجل الحار، وتصدر طقطقة وهي تغرق في زبدة الثوم المذابة.

بدأ جيرالت، دانديليون، والأقزام بالأكل بنهم واضح .كان الطعام لذيذًا بشكل استثنائي، وفي ذات الوقت مضحكًا للغاية، نظرًا إلى الطريقة التي كان عليهم التعامل بها مع الملاقط الغريبة والشوك الصغيرة.

أكلوا، ولعقوا شفاههم، والتقطوا الزبدة المتساقطة على الخبز. شتموا بمرح كلما انزلقت قوقعة من بين الملاقط وهربت عبر الطاولة.

على الأرض، كان هناك هرّان صغيران يلهوان، يدحرجان القواقع الفارغة ويطاردانها بحماسة عبر الأرضية الخشبية.

* * *

في المطبخ، كانت رائحة الثوم والزبدة تشير إلى أن ويرسينج كان يعدّ دفعة أخرى من القواقع، بينما العشاء، والضحكات، وكؤوس الخمر المتشابكة استمرت في ملء المكان.

لوّح ياربن زيغرين بيده بتردد، لكنه أدرك أن الويتشر لن يتراجع عن سؤاله.

قال وهو يمتص آخر ما تبقى في قوقعة بين أصابعه:

"لا شيء جديد عندي، عمومًا. قليل من الجندية... وقليل من السياسة، لأنهم انتخبوني نائبًا للعمدة. سأصنع لي اسمًا في عالم السياسة. فالمنافسة شديدة في كل المجالات الأخرى، أما في السياسة، فلا نهاية للأغبياء والمرتشين واللصوص. من السهل أن تصنع لنفسك سمعة هناك."

قال زولتان شيفاي بينما يلوّح بقوقعة يمسكها بملاقطه:

"أما أنا، فلا موهبة لي في السياسة. لكنني أؤسس ورشة لصناعة المطارق البخارية والمائية، بالشراكة مع فيغز ميرلوزو ومونرو برويس. هل تتذكرهما، يا ويتشر؟ فيغز وبرويس؟"

رفع جيرالت حاجبه وأجاب:

"ليس هما فقط."

قال زولتان بنبرة جافة:

"يازون فاردا سقط في معركة الياروغا. سقط بغباء شديد، في إحدى المناوشات الأخيرة."

أطرق جيرالت رأسه قليلاً وقال بصوت خافت:

"مؤسف. وماذا عن بيرسيفال شوتنباخ؟"

ابتسم زولتان بمكر:

"القزم؟ أوه، إنه بخير. ذلك الماكر تفادى التجنيد مستخدمًا بعض القوانين القديمة للأقزام، مدّعيًا أن ديانته تحرّم عليه القتال. ونجح في ذلك، رغم أن الجميع يعرفون أنه قد يبيع كل آلهته وإلهاته مقابل سمكة رنجة مخللة."

ثم ضحك وأضاف:

"الآن لديه ورشة مجوهرات في نوفيغراد. أتدري ماذا فعل؟ اشترى ذلك الببغاء المشهور، فيلد مارشال دودا، وحوّله إلى إعلان حيّ! علمه أن يقول: 'ألماااس، ألماااس!'. وتخيل، لقد نجحت الفكرة! متجره يعج بالزبائن، يديه مليئتان بالعمل، وخزائنه ممتلئة بالذهب. نعم، نعم، هذه هي نوفيغراد! المال هناك ملقى على قارعة الطريق. ولهذا أيضًا نريد أن نبدأ ورشتنا للمطارق هناك."

زمجر ياربن بامتعاض:

"سيدهنون بابكم بالقذارة، ويرشقون نوافذكم بالحجارة، وينعتونكم بالأقزام القذرين. لن يفيدكم أبدًا كونكم محاربين قدامى أو أنكم قاتلتم من أجلهم. ستكونون منبوذين في نوفيغرادك هذه."

ضحك زولتان ضحكة صاخبة وهز رأسه بلا اكتراث:

"سنكون بخير. المنافسة في ماهكام شرسة جدًا. والسياسيون هناك كثيرون أكثر مما ينبغي. لنشرب نخبًا، أيها الرفاق. نخب كاليب ستراتون. ونخب يازون فاردا."

أضاف ياربن، وقد خيمت عليه الكآبة فجأة:

"نخب ريغان داهلبيرغ أيضًا."

هز جيرالت رأسه بأسى، قائلاً بصوت مبحوح:

"ريغان أيضًا؟"

أومأ ياربن بحزن، وحدّق في كأسه:

"أجل. في ماينا. السيدة داهلبيرغ العجوز أصبحت أرملة."

ثم تنهد، ولوّح بيده وكأنه يطرد الأفكار السوداء:

"لكن كفى، كفى، لا مزيد من هذا الحديث الكئيب! فلنشرب! وأسرعوا في التهام تلك القواقع، أرى أن ويرسينج يجلب طبقًا آخر!"

* * *

كان الأقزام، وقد أرخوا أحزمتهم بعد الوليمة، يستمعون إلى قصة جيرالت عن كيف انتهت مغامرة دانديليون العاطفية مع الدوقة على منصة الإعدام.

الشاعر، متظاهرًا بالغضب، التزم الصمت ولم يعلّق. أما ياربن وزولتان، فقد انفجرا في ضحك صاخب.

قال ياربن زيغرين في النهاية، وهو يبتسم ابتسامة عريضة:

"نعم، نعم، كما تقول الأغنية القديمة: رغم أن الرجل يستطيع ثني قضبان الفولاذ، إلا أن المرأة ستجبره دائمًا على الانحناء. لدينا اليوم حول هذه الطاولة عدة أمثلة رائعة على مدى صحة هذا المثل. وأول من

يتبادر إلى الذهن هو زولتان شيفاي. عندما أخبرتكم بما هو جديد في حياته، نسيت أن أذكر أنه على وشك الزواج! وقريبًا، في سبتمبر. الفتاة المحظوظة تُدعى يودورا بريكيكيكس."

"بريكنريغز!" صاح زولتان بغضب، عاقدًا حاجبيه. "بدأت أملّ من تصحيح نطقك، يا زيغرين. انتبه جيدًا، لأنني عندما أملّ من شيء، أبدأ في تحطيم الرؤوس...!"

"أين سيكون الزفاف؟ ومتى بالضبط؟" قاطع دانديليون بسرعة بنبرة مهدئة. "أسأل فقط لأننا قد نمرّ لإلقاء التحية... إن كنت ستدعونا، بالطبع."

تمتم زولتان، وقد بدا عليه بعض التوتر:

"لم نقرر بعد متى أو أين أو كيف... بل لم نقرر حتى إن كان سيحدث أصلًا. ياربن يسبق الأحداث. أنا ويودورا مخطوبان، نعم، لكن من يدري ما قد يحدث؟ في هذه الأوقات اللعينة؟"

"أما المثال الثاني على قوة المرأة المطلقة،" تابع ياربن زيغرين، وهو يرمق **جيرالت بنظرة ساخرة، "فهو جيرالت من ريفيا، الويتشر."

تظاهر جيرالت بأنه منشغل بقوقعة في طبقه.

قهقه ياربن واستأنف حديثه:

"بعد أن استعاد سيري بمعجزة، يسمح لها بالرحيل مجددًا، متقبلًا وداعًا آخر. يتركها وحدها مرة أخرى، رغم أن شخصًا ما هنا لاحظ بحق أن الأوقات ليست مستقرة، تبا لها. ويفعل كل ذلك لأن امرأة معينة أرادت ذلك. الويتشر دائمًا يفعل كل ما تريده تلك المرأة—المعروفة للمجتمع باسم ينيفر من فينغيربرغ. ولو أنه على الأقل كان يجني بعض الفائدة من ذلك. لكنه لا يفعل. في الواقع، كما كان يقول الملك ديزمود وهو يحدّق في قاع مبصقته بعد قضاء حاجته: " العقل عاجز عن استيعاب الأمر! "

رفع جيرالت كأسه بابتسامة ساحرة وقال:

"أقترح أن نشرب ونغيّر الموضوع."

"كلام حكيم!" قال دانديليون وزولتان بصوت واحد، ورفعوا كؤوسهم في انسجام.

* * *

أحضر ويرسينج إلى الطاولة الوعاء الثالث، ثم الرابع، المليئين بالقواقع. ولم ينسَ بالطبع الخبز والفودكا.

وبعد أن امتلأت بطونهم، لم يكن مفاجئًا أن تتوالى الأنخاب بوتيرة أسرع. ولم يكن مفاجئًا أيضًا أن الفلسفة بدأت تتسلل إلى الحديث أكثر فأكثر.

قال الويتشر، مكرّرًا بصوت متزن:

"الشر الذي حاربتُه كان علامة على نشاط الفوضى، نشاط مُوجّه لزعزعة النظام. فحيثما يسود الشر، لا يمكن للنظام أن يهيمن، وكل ما يبنيه النظام ينهار، لا يستطيع الصمود. نور الحكمة ولهيب الأمل، توهج الدفء، بدلًا من أن يتوهّج، ينطفئ. سيكون الظلام حالكًا. وفي الظلام، لن يكون هناك سوى أنياب، ومخالب، ودم."

مرّر ياربن زيغرين يده عبر لحيته، التي التصقت بها بقايا زبدة الأعشاب والثوم التي تقطّرت من القواقع.

قال معترفًا، بابتسامة ساخرة:

"كلمات جميلة جدًا، ويتشر. لكن كما قالت الشابة سيرو للملك فريدانيك خلال لقائهما الأول: 'يبدو شيئًا حسن المظهر، لكن هل له أي فائدة عملية؟'"

لم يبتسم جيرالت، بل أجاب بنبرة ثابتة:

"سبب وجود الويتشرات ومبرر وجودهم قد تم تقويضه، لأن معركة الخير والشر تُخاض الآن في ساحة مختلفة، وبطريقة مختلفة تمامًا. لم يعد الشر فوضويًا. لم يعد قوة عمياء متهورة، تستلزم محاربًا قاتلًا ومتحوّرًا مثله للتصدي له. اليوم، الشر يعمل وفق القوانين—لأنه يملك الحق في ذلك. يعمل وفق المعاهدات، لأنه أُخذ في الاعتبار أثناء صياغتها..."

أومأ زولتان شيفاي بتفكير، ثم خمّن:

"لقد رأى المستوطنين يُطردون جنوبًا."

أضاف دانديليون بحدة، بوجه كئيب:

"ليس هذا فحسب. ليس هذا فحسب."

ياربن زيغرين اعتدل في جلسته، متكئًا للخلف ورافعًا يديه ليشبك أصابعه على بطنه:

"ثم ماذا؟ الجميع رأى أشياءً. الجميع غضب، الجميع فقد شهيته لفترة قصيرة أو طويلة. أو فقد النوم. هكذا كان الأمر، وهكذا سيكون دائمًا. مثل هذه القواقع هنا، أقسم أنك لن تستخرج منها المزيد من الفلسفة. لأنه ببساطة، لا يوجد المزيد. ما الذي لا يعجبك، ويتشر؟ ما الذي لا يروق لك؟ التغييرات التي يشهدها العالم؟ التطور؟ التقدّم؟"

أجاب جيرالت بعد صمت:

"ربما."

نظر إليه ياربن بصمت طويل، من تحت حاجبيه الكثيفين، قبل أن يتكلم أخيرًا:

"التقدّم... يشبه قطيعًا من الخنازير. هكذا ينبغي أن تنظر إليه، وهكذا ينبغي أن تحكم عليه. مثل قطيع من الخنازير تركض في فناء المزرعة. هناك فوائد كثيرة لوجود هذا القطيع. هناك سيقان الخنزير، هناك النقانق، هناك الدهن، وهناك الأقدام الهلامية. بكلمة واحدة، هناك فوائد! فلا جدوى من التذمّر بشأن القاذورات المنتشرة في كل مكان."

ساد الصمت لبعض الوقت، بينما كان الجميع يزنون في أذهانهم وضمائرهم مختلف القضايا والمسائل الهامة.

أخيرًا، قال دانديليون، وهو يرفع كأسه بنبرة مستسلمة:

"لنشرب."

لم يعترض أحد.

* * *

قال ياربن زيغرين وسط الصمت:

"التقدّم، في النهاية، سيبدّد الظلام. سيتراجع الظلام أمام النور. لكن ليس فورًا. وبالتأكيد، ليس دون قتال."

ابتسم جيرالت، وهو يحدّق عبر النافذة، لأفكاره وأحلامه الخاصة.

قال بهدوء:

"الظلام الذي تتحدث عنه ليس مادة، بل حالة ذهنية. سيتعيّن تدريب ويتشرات من نوع مختلف تمامًا لمحاربة شيء كهذا. وقد حان الوقت للبدء."

رفع ياربن حاجبه وسأل بسخرية:

"البدء بإعادة التدريب؟ هل هذا ما تفكر فيه؟"

قال جيرالت بلا مبالاة:

"ليس تمامًا. لم يعد كوني ويتشرًا يثير اهتمامي. أنا أعتزل."

قهقه ياربن وقال مستهزئًا:

"هراء!"

أومأ جيرالت برأسه وقال بجديّة:

"أنا جاد تمامًا. انتهيت من كوني ويتشرًا."

ساد صمت طويل، لم يقطعه سوى مواء الهرّين تحت الطاولة، يتشاجران ويعضّ أحدهما الآخر بجنون، مخلصين لعادات فصيلتهما، التي لا ترى في الألم سوى جزء من اللهو.

أخيرًا، قال ياربن زيغرين ببطء، وهو يغمغم:

"لقد انتهى من كونه ويتشرًا... ها! لا أدري ما عليّ التفكير فيه حيال هذا، كما قال الملك ديزمود حين ضُبط وهو يغشّ في الورق. لكنني أشتَمّ رائحة أمر سيئ. دانديليون، أنت تسافر معه، تمضي الكثير من الوقت بجانبه. هل ظهرت عليه علامات أخرى للجنون؟"

ظلّ وجه جيرالت جامدًا وهو يقول ببرود:

"دعك من المزاح، كما قال الملك ديزمود عندما بدأ ضيوف الوليمة بالتحوّل إلى اللون الأزرق والموت فجأة. لقد قلت ما أردت قوله. وحان وقت الفعل."

التقط سيفه عن ظهر الكرسي، ورفعه باتجاه زولتان شيفاي، قائلاً:

"هذا هو سيفك، زولتان شيفاي. أعيده إليك مع الشكر والانحناء احترامًا. لقد خدم جيدًا. ساعد. أنقذ أرواحًا. وأخذ أرواحًا."

رفع القزم يديه بإيماءة دفاعية، وقال بسرعة:

"ويتشر... السيف ملكك. لم أعطه لك كإعارة، بل وهبته لك. والهدايا..."

قاطعه جيرالت بصرامة:

"اصمت، شيفاي. أعيد إليك سيفك. لن أحتاجه بعد الآن."

زمجر ياربن متذمرًا:

"هراء. صبّ له بعض الفودكا، دانديليون، إنه يتحدث وكأنه العجوز شرادر بعد أن سقط عليه معول في منجم. جيرالت، أعلم أنك ذو طبيعة عميقة ونفس متسامية، لكن لا تتفوّه بهذه السخافات، أرجوك، لأنه، وكما ترى، لا ينيفر هنا، ولا أيٌّ من خليلاتك الساحرات. فقط نحن العجائز الملعونين. لا يمكنك أن تخبرنا، نحن العجائز، أن سيفك لم يعد ضروريًا، أو أن الويتشرات لم يعودوا ضروريين، أو أن العالم قد تعفّن، أو هذا، أو ذاك. أنت ويتشر، وستظل دائمًا..."

قاطعه جيرالت بهدوء، دون انفعال:

"لا، لن أكون كذلك."

أضاف بنبرة ثابتة:

"قد يدهشكم، أيها العجائز، لكنني توصلت إلى نتيجة بسيطة: التبوّل ضد الريح غباء. المجازفة بحياتك من أجل أي شخص غباء. حتى لو كانوا يدفعون لك. وليس لهذا أي علاقة بالفلسفة الوجودية. قد لا تصدقون، لكن جلدي بات فجأة عزيزًا جدًا عليّ. لقد أدركت أن تعريضه للخطر في سبيل آخرين ليس سوى حماقة."

أومأ دانديليون متفكّرًا وقال:

"لاحظت ذلك. من جهة، هذا تصرّف حكيم. لكن من جهة أخرى—"

قاطعه جيرالت بحزم:

"لا توجد جهة أخرى."

بعد لحظة صمت قصيرة، سأل ياربن بفضول خافت:

"هل لينيڤر وسيري علاقة بقرارك؟"

أجاب جيرالت دون تردد:

"علاقة كبيرة جدًا."

تنهد ياربن زيغرين وأطرق برأسه قليلاً:

"إذًا، كل شيء واضح."

ثم رفع رأسه وأضاف بتأمل:

"لكن، بصراحة، لا أستطيع أن أفهم كيف ستدبّر أمر معيشتك، أنت، المحارب المحترف، وكيف ستنظّم حياتك الدنيوية. أعني، مهما حاولت تخيّلك في دور ما، لا أرى أنك تصلح مثلًا لأن تكون مزارع ملفوف. لكن، في النهاية، علينا احترام اختيارك."

التفت نحو صاحب النزل، مشيرًا إلى السيف:

"أيها النزلجي، تفضّل! هذا سيف 'سيهيل' من ماهكام، صنع في أفران 'رونودورين' ذاتها. كان هدية. والمُهدى إليه لا يريده، والمُهدي لا يستطيع استرجاعه. لذا خذه، علّقه فوق المدفأة. غيّر اسم النزل إلى 'سيف الويتشر'.

"ولتُحكَى هنا، في ليالي الشتاء، الحكايات عن الكنوز والوحوش، عن الحروب الدموية والمعارك الضارية، عن الموت. عن الحب العظيم والصداقة التي لا تخذل. عن الشجاعة والشرف. ليُلهِم هذا السيف الرواة، وليبعث السرور في قلوب المستمعين."

ثم صفق بيديه وقال:

"والآن، اسكبوا لي فودكا، أيها السادة، لأنني سأواصل حديثي، وسأعرض عليكم حقائق عميقة وفلسفات متنوعة، بما في ذلك الوجودية منها!"

امتلأت الكؤوس بالفودكا بصمت مهيب. تبادلوا النظرات، ثم شربوا، بنفس القدر من الجدية والوقار.

تنحنح ياربن زيغرين، جال بنظره على الحاضرين، وتأكد من أنهم جميعًا في حالة من الإصغاء العميق والتركيز. ثم قال بصوت مهيب:

"التقدّم سيبدّد العتمة، فهذا هو جوهره، تمامًا كما أن—اغفروا لي—المؤخرة خُلقت لقضاء الحاجة. سيزداد النور، وسنخاف الظلام والشر الكامن فيه أقل فأقل. وربما يأتي يوم نتوقف فيه عن الإيمان أصلًا بوجود شيء ما يكمن في الظلام. سنسخر من هذه المخاوف، ونصفها بالطفولية، بل سنشعر بالعار منها!"

رفع كأسه، وحدّق في السائل الذي بدا وكأنه يحمل انعكاس نار بعيدة، قبل أن يكمل بصوت أكثر خفوتًا، لكنه يحمل ثقل نبوءة قديمة:

"لكن... سيظل هناك دائمًا، دائمًا ظلام. وسيظل هناك دائمًا شر في الظلام، وستظل هناك أنياب ومخالب، موت ودم. وسيظل الويتشرات دائمًا ضروريين."

غرقوا جميعًا في صمت عميق، غارقين في أفكارهم، حتى أن الضجيج المتزايد في المدينة لم يلفت انتباههم، ذلك الضجيج الذي بدأ هائجًا، متوعدًا، يتصاعد كطنين دبابير غاضبة.

لم يلحظوا حتى الأشكال الثلاثة الأولى التي انسلّت عبر الجادة الهادئة بجوار البحيرة، متجهة نحو المدينة.

ثم انفجر هدير غاضب فوق أسطح البلدة، وفي اللحظة نفسها، اندفعت أبواب نزل ويرسينج بعنف، واقتحم المكان قزم صغير، وجهه محمر من الجهد، يلهث بشدة.

رفع ياربن زيغرين رأسه وسأله بحدة:

"ما الأمر؟"

ظل القزم يلهث، عاجزًا عن التقاط أنفاسه، لكنه رفع يده وأشار نحو وسط المدينة، وعيناه متسعتان بجنون.

قال زولتان شيفاي بنبرة هادئة، لكنه ممتلئة بالقلق:

"خذ نفسًا عميقًا، ثم أخبرنا بما يجري."

* * *

قيل لاحقًا إن الأحداث المأساوية في ريفيا كانت مجرد مصادفة بحتة، أنها كانت رد فعل عفويًا، انفجارًا مفاجئًا وغير متوقع لغضب مبرر، نابعًا من الكراهية والعداء المتبادل بين البشر والأقزام والجان.

قيل إن البشر لم يكونوا البادئين، بل الأقزام هم من هاجموا أولًا، وأن العدوان جاء منهم. قيل إن أحد التجار الأقزام في السوق أهان شابة نبيلة تُدعى ناديا إسبوزيتو، يتيمة حرب، وأنه استخدم العنف ضدها. وعندما تدخّل أصدقاؤها للدفاع عنها، استدعى القزم رفاقه. نشبت مشاجرة، ثم تحولت إلى قتال، وفي لحظات امتد الاشتباك إلى كامل السوق. تحول القتال إلى مجزرة، إلى هجوم جماعي من البشر على الضواحي التي يقطنها غير البشر وعلى حي إلم.

في أقل من ساعة، من لحظة الحادثة في السوق إلى تدخل السحرة، كان مئة وأربعة وثمانون شخصًا قد قُتلوا. وكان ما يقارب نصف الضحايا من النساء والأطفال.

يقدم البروفيسور إمريخ غوتشالك من أكسنفورت نفس هذه الرواية في أطروحته الأكاديمية.

لكن كان هناك من قال غير ذلك.

كيف يمكن أن يكون الأمر عفويًا؟ كيف يمكن أن يكون مجرد انفجار مفاجئ وغير متوقع، كما تساءل البعض، إذا كانت العربات قد ظهرت في الشوارع خلال دقائق من الشجار في السوق، حيث بدأ الناس يوزعون الأسلحة؟ كيف يمكن أن يكون مجرد غضب مبرر، إذا كان زعماء الحشد — الذين كانوا الأكثر نشاطًا ووحشية أثناء المجزر ة— أشخاصًا لم يعرفهم أحد، وكانوا قد وصلوا إلى ريفيا قبل عدة أيام فقط من اندلا ع أعمال الشغب، قادمين من حيث لا يعلم أحد؟ ثم اختفوا تمامًا بعدها؟ لماذا تأخرت القوات العسكرية في التدخل؟ ولماذا كان تدخلها في البداية مترددًا ومتخاذلًا؟

ذهب بعض الباحثين إلى القول بأن الشغب في ريفيا كان جزءًا من استفزاز نيلفجاردي متعمّد، بينما زعم آخرون أن كل ما حدث كان مكيدة دبّرها الأقزام والجان سويًا. قيل إنهم قتلوا بعضهم البعض عمدًا لتلطيخ سمعة البشر.

وسط هذه الأصوات الأكاديمية الجادة، ضاعت تمامًا نظرية جريئة للغاية طرحها خريج شاب غريب الأطوار، والذي — حتى تم إسكات صوته — كان يدّعي أن ما حدث في ريفيا لم يكن نتيجة مؤامرات أو مخططات سرية، بل كان ببساطة نتيجة للصفات المتأصلة في سكان المنطقة: الجهل، كراهية الأجانب، الفظاظة القاسية، والهمجية المطلقة.

ثم، مع مرور الوقت، فقد الجميع اهتمامهم بالأمر، وتوقفوا عن الحديث عنه تمامًا.

* * *

"إلى القبو!" كرر الويتشر، مصغيًا بقلق إلى الصخب المتزايد بسرعة وصيحات الحشد الهائج. "الأقزام إلى القبو! لا مجال للبطولات الغبية!"

"ويتشر..." تمتم زولتان، ممسكًا بمقبض فأسه القتالي بقبضة متشنجة. "لا أستطيع... إخوتي يُقتلون هناك..."

"إلى القبو. فكّر في يودورا بريكنريغز. هل تريد لها أن تصبح أرملة قبل زفافها؟"

الحجة أثمرت. انصاع الأقزام، ونزلوا إلى القبو. قام جيرالت و دانديليون بتغطية المدخل بحُصر القش. ويرسينج، الذي كان شاحبًا عادة، أصبح الآن أبيض مثل الجبن القريش.

"لقد شهدت مذبحة في ماربور..." تلعثم، وهو يحدق في مدخل القبو. "إذا وجدوا الأقزام هناك..."

"اذهب إلى المطبخ."

كان دانديليون شاحبًا هو الآخر. لم يكن ذلك مفاجئًا بالنسبة لجيرالت. فقد بدأت أصداء جديدة تظهر وسط الضجيج العشوائي الرتيب الذي كان يصل إلى آذانهم نغمات تجعلك تنتفض، وتشعر بوخز البرد في عمودك الفقري.

"جيرالت..." أنَّ الشاعر بصوت يائس. "أنا... أشبه الجان بعض الشيء..."

"لا تكن أحمقاً."

تصاعدت سُحب الدخان فوق أسطح المنازل. ومن زقاق ضيّق، اندفع الهاربون. أقزام. رجال ونساء.

قزمان اثنان رميا بنفسيهما في البحيرة دون تفكير، وبدآ يسبحان بعنف نحو العمق. أما البقية، فتفرقوا. بعضهم ركض باتجاه الحانة.

انطلق الحشد من الزقاق كالسيل الجارف. كانوا أسرع من الأقزام. شهوة القتل كانت تهيمن على السباق.

اخترقت صرخات الضحايا الهواء، حتى أن النوافذ الزجاجية الملونة في النزل اهتزت تحت وطأتها. شعر جيرالت بيديه ترتجفان.

أحد الأقزام مزّقه الحشد إربًا. حرفيًا. آخر طُرح أرضًا، وفي ثوانٍ معدودة، تحوّل إلى كومة لحم دامية لا شكل لها. امرأة طُعنت بحراب ومذاري، والطفل الذي دافعت عنه حتى اللحظة الأخيرة دُهس بالأقدام، سُحق تحت وقع الأحذية الثقيلة.

ثلاثة اندفعوا مباشرة نحو الحانة، والمطاردون خلفهم، يصرخون.

أخذ جيرالت نفسًا عميقًا. وقف.

تحت أنظار دانديليون و ويرسينج المذعورة، مدّ يده إلى الرف فوق المدفأة، وأمسك بسيف الـ"سيهيل"، السيف المطروق في ماهكام، في أفران "روندورين" نفسها.

"جيرالت..." أنَّ الشاعر بنبرة بائسة.

قال الويتشر وهو يسير نحو الباب:

"حسنًا... لكن هذه هي المرة الأخيرة! بحق اللعنة، إنها المرة الأخيرة حقًا!"

خرج إلى الشرفة، وقفز مباشرة منها، بضربة سريعة مشرحًا رجلاً في زيّ البنائين كان يهمّ بضرب امرأة بمِجرفة. قطَع يد الرجل التالي، الذي كان يُمسك بشَعر امرأة أخرى. شطر رجلين كانا يركلان قزمًا مُلقى على الأرض، بضربتين قطريتين حادتين.

ثم اندفع وسط الحشد، يدور حول نفسه، يضرب بحركات واسعة، تبدو عشوائية—لكنه يعلم جيدًا أن مثل هذه الضربات تُحدث فوضى دامية، وتكون أكثر إثارة للرعب. لم يكن ينوي قتلهم، فقط أراد إصابتهم، شلّهم.

"إنه جان! إنه جان!" صرخ أحدهم من وسط الحشد بجنون. "اقتلوا الجان!"

"هذا تجاوز للحدود..." فكر جيرالت. "دانديليون ربما... لكنني لا أشبه الجان بأي شكل من الأشكال."

رصد جيرالت الرجل الذي صرخ، كان على الأرجح جنديًا، إذ كان يرتدي درعًا مبطنًا وجزمات عالية.

اندفع الويتشر بين الحشد كأنه ثعبان مائي، زاحفًا بسلاسة بين الأجساد المتدافعة. رفع الجندي رمحه بكلتا يديه ليصد الهجوم.

لكن جيرالت ضرب على طول عمود الرمح، فبتر أصابع الجندي في لحظة.

استدار، ضارِبًا ضربة عريضة، مخلّفًا صرخات ألم ونوافير من الدم.

"ارحمني!" سقط شاب أشعث ذو عينين مسعورتين على ركبتيه أمامه. "أرجوك، لا تقتلني!"

أبقى جيرالت على حياته. أوقف حركة ذراعه وسيفه في آخر لحظة، مستخدمًا زخَم الضربة ليبتعد بدوران سريع.

لكن، من زاوية عينه، رأى الشاب الأشعث يقفز فجأة على قدميه... ورأى ما كان يحمله.

أدرك جيرالت الخطر في جزء من الثانية. حاول عكس حركته، الدوران للجهة الأخرى... لكنه كان عالقًا وسط الحشد.

لم يكن لديه وقت. لم يكن لديه مجال للحركة.

كل ما استطاع فعله هو المشاهدة، وهو يرى الشوكة الثلاثية الأسنان تنطلق نحوه بسرعة قاتلة.

* * *

انطفأت النار في الموقد الضخم، وغرقت القاعة في الظلام.

زمجرَت الرياح العاتية القادمة من الجبال، صفرت عبر الشقوق في الجدران، وعوت وهي تتسلل من خلال المصاريع المهترئة لـ"كاير مورهن"، معقل الويتشرات.

"اللعنة!" انفجر إيسكيل غاضبًا، ونهض ليفتح خزانة المشروبات. "'سيغول' أم فودكا؟"

"فودكا." أجاب كوين و جيرالت بصوت واحد.

"بالطبع." جاء صوت ڤيسيمير من الظلال، أجشًا، حادًا. "بالطبع، طبيعي جدًا! اغرقوا غبائكم في الخمر. أيها الحمقى اللعينون!"

"لقد كان حادثًا..." تمتم لامبرت، متجنبًا النظر في عيون الآخرين. "كانت تُبلي حسنًا على المشط..."

"أغلق فمك، أيها الأحمق!" انفجر ڤيسيمير غاضبًا. "لا أريد سماع صوتك! أقسم لك، إن حدث للفتاة أي مكروه..."

"إنها بخير الآن." قاطعه كوين بلطف. "نائمة بسلام. نومًا عميقًا. عندما تستيقظ، ستشعر ببعض الألم، هذا كل شيء. لن تتذكر شيئًا عن الغيبوبة أو ما حدث."

"طالما أنكم تتذكرون!" زفر ڤيسيمير بغضب، وهو يمرر يده على وجهه. "أيها الحمقى! صب لي كأسًا أيضًا، إيسكيل."

ساد الصمت لفترة طويلة، لم يُسمع خلالها سوى عواء الريح وهي تعصف بالقلعة العتيقة.

قال إيسكيل أخيرًا، وهو ينظر إلى كوبه:

"علينا استدعاء شخص ما."

أومأ لامبرت بتفكير:

"علينا إحضار ساحرة. ليس طبيعيًا ما يحدث مع هذه الفتاة."

"هذه هي الغيبوبة الثالثة بالفعل."

"لكنها المرة الأولى التي تتحدث فيها بوضوح..."

قال ڤيسيمير وهو يفرغ كأسه دفعة واحدة:

"أخبرني مجددًا بما قالته. كلمة بكلمة."

ظل جيرالت يحدّق في الجمر المتوهج في الموقد وهو يقول بصوت خافت:

"لا أستطيع أن أكررها كلمة بكلمة... لكن المعنى، إذا كان هناك معنى يُمكن استخلاصه، كان كالتالي: أنا وكوين سنموت. ستكون الأسنان سبب هلاكنا. سنُقتل بسببها. في حالته، اثنتان. في حالتي، ثلاث."

قهقه لامبرت ساخرًا، وهو يستند إلى الطاولة:

"من المحتمل جدًا أن نموت جميعًا بسبب عضّة ما. فالأسنان قد تكون نهاية أي منا في أي لحظة. على الرغم من أنه، إن كانت هذه النبوءة حقيقية، فسيكون قاتلاكما وحوشًا شديدة الفجوات السنية!"

أومأ إيسكيل، متصنعًا الجدية:

"أو ربما غرغرينا صديدية ناتجة عن تسوس الأسنان."

ثم ابتسم ابتسامة ساخرة وأضاف:

"باستثناء أن أسناننا ليست متعفنة."

قطب ڤيسيمير حاجبيه وقال بحدة:

"لن أستخف بهذه المسألة."

لم يقل الويتشرات شيئًا.

في الخارج، كان الريح يعوي، يصفر، وينتحب بين جدران كاير مورهن العتيقة.

* * *

الشاب الأشعث، وكأنه مرعوب مما فعله، أفلت رمح الشوكة من يده.

أطلق جيرالت صرخة ألم رغماً عنه، وانحنى متألمًا.

كان الرمح الثلاثي مغروسًا في بطنه، ووزنه أخل بتوازنه، وعندما سقط على ركبتيه، انسحب النصل من جسده وسقط على الأحجار المرصوفة.

اندفعت الدماء منه، متدفقة بغزارة، محدثة صوت ارتطام وضجيج أشبه بصوت شلال يهدر.

حاول جيرالت أن ينهض من على ركبتيه. لكنه بدلًا من ذلك، هوى على جانبه.

الأصوات من حوله ترددت، تماوجت، تحولت إلى صدى بعيد، وكأن رأسه كان مغمورًا تحت الماء. رؤيته كانت مشوشة، المنظور ملتوي، والهندسة من حوله زائفة تمامًا.

لكنه رأى الحشد وهو يفر.

رآهم يهربون من النجدة القادمة.

من زولتان وياربن، ممسكين بفؤوس المعركة. من ويرسينج، مشهرًا سكين تقطيع اللحم. ومن دانديليون، وهو يلوّح بمكنسة.

"توقفوا"، أراد أن يصرخ، "إلى أين تذهبون؟ يكفي أنني قضيت حياتي بأكملها أتبوّل ضد الريح."

لكن لم يستطع الصراخ.

خنق صوته تدفق الدم المتصاعد من حلقه.

* * *

كانت الشمس تقترب من كبد السماء عندما وصلت الساحرات إلى ريفيا.

من الأعلى، من منظور الطريق السريع، كانت مياه بحيرة "إسكالوت" تتلألأ بانعكاسات أسقف القلعة الحمراء وسقوف المدينة.

قالت ينيفر، وهي تحدق في المشهد أمامها:

"حسنًا، لقد وصلنا. ريفيا! ها، كم هو غريب أن تدور عجلة القدر هكذا."

كانت سيري، التي كانت متحمسة منذ مدة، تجبر "كيلبي" على القفز بخطوات راقصة، بينما أطلقت تريس ميريجولد زفرة خافتة، على الأقل كانت تعتقد أنها خافتة.

"حسنًا، حسنًا." حدجتها ينيفر بنظرة حادة. "ما هذه الأصوات التي ترفع صدرك العذري، تريس؟ سيري، تقدّمي قليلًا وانظري إن كنا قد وصلنا."

أدارت تريس وجهها بعيدًا، مصمّمة على ألا تستفز ينيفر أو تمنحها أي مبرر. لكنها لم تكن تعوّل على نتيجة إيجابية. فقد شعرت منذ وقت طويل بتزايد الغضب والتوتر في ينيفر كلما اقتربن من ريفيا.

كررت ينيفر بحدة:

"أنتِ، تريس. لا تحمّري وجهك، لا تتنهّدي، لا تسلّي لعابك، ولا تتمايلي فوق السرج. هل تظنين أنني سمحت لكِ بالمجيء معنا لهذا السبب؟ من أجل لقاء سعيد ومترفّق مع حبيبك السابق؟"

قالت سيري بوقاحة، قبل أن تستسلم فورًا تحت النظرة البنفسجية المهددة:

"هذا ليس حديثًا، بل مونولوج."

صفرت لكيلبي وانطلقت في طريقها على طول الطريق السريع.

أكملت ينيفر بلهجة ساخرة:

"أنتِ لا تأتين إلى موعد غرامي، تريس. لستُ نبيلة بما يكفي، ولا غبية بما يكفي، لمنحك هذه الفرصة أو إغراءه بها. لكن اليوم فقط، لمرة واحدة، سأدعكِ تحظين بهذه اللحظة. ثم سأحرص على ألا تتاح لكما أي فرص أخرى، وألا تواجهي أي إغراءات. لكن اليوم، لن أحرم نفسي من هذه المتعة المريضة. إنه يعرف ما فعلته، وسيرد لكِ الجميل بعينيه. وسأراقب شفتيكِ المرتعشتين، ويديكِ المرتجفتين، وأستمع إلى أعذارك السخيفة وتبريراتك البائسة. هل تعلمين ماذا، تريس؟ سأشعر بنشوة مطلقة!"

تمتمت تريس، بصوت خافت:

"كنت أعلم أنكِ لن تنسي ما فعلتُه، وأنكِ ستنتقمين. أقبل بذلك، لأنني كنت مخطئة. لكن يجب أن أخبركِ بشيء واحد، ينيفر. لا تعوّلي كثيرًا على انهياري. إنه يعرف كيف يسامح."

ضيّقت ينيفر عينيها، وردّت بصوت بارد:

"ربما يسامح على ما فُعل به، نعم. لكنه لن يسامحكِ أبدًا على ما فُعل بسيري. وبما فُعل بي."

بلعت تريس ريقها وقالت بهدوء:

"ربما... ربما لن يسامحني. خاصةً إذا بذلتِ كل ما في وسعكِ لمنعه من ذلك. لكنه بالتأكيد لن يُذلّني. لن ينحدر إلى هذا المستوى."

صفعت ينيفر حصانها بالسوط، فنهق الحيوان وقفز فجأة، متأرجحًا تحتها للحظة.

قالت بغضب، وهي تضغط على أسنانها:

"كفى هذا الحديث! قليل من التواضع، أيتها الفاجرة المتغطرسة! إنه رجلي، لي وحدي، أفهمتِ؟! عليكِ أن تتوقفي عن الحديث عنه، تتوقفي عن التفكير فيه، تتوقفي عن الابتهاج بسموّ أخلاقه... فورًا! الآن حالًا! أوه، لديّ رغبة عارمة في الإمساك بكِ من تلك الخصل النحاسية—"

صرخت تريس، مقاطعة، وهي ترفع يدها بتهديد:

"حاولي فقط! حاولي فقط، أيتها العاهرة، وسأقتلع عينيكِ من محجريهما! أنا..."

توقفتا عن الصراخ فجأة.

على الطريق، وسط سحابة من الغبار، كانت سيري تهرع نحوهما بأقصى سرعة.

كانتا تعلمان فورًا أن هناك أمرًا خطيرًا. ورأتاه قبل حتى أن تصل إليهما.

اندلعت ألسنة اللهب فجأة فوق أسطح الضواحي القريبة، حيث تتشابك الأكواخ المسقوفة بالقش، ثم ارتفعت فوق البلاط والمداخن في المدينة، وبدأ الدخان يتصاعد على شكل سحب كثيفة.

تردد صدى الصراخ في الأفق، بدا في البداية كطنين ذباب مزعج، ثم تحول إلى هدير يشبه طنين الدبابير الغاضبة. تصاعدت الأصوات، ازدادت حدتها، تخللتها صرخات فردية حادة، تمزق الهواء كأنها سكاكين.

وقفت ينيفر في ركابها، تحدّق في المدينة بقلق، ثم صاحت:

"ما اللعنة التي تحدث هناك؟ غارة؟ حريق؟"

لكن قبل أن يجيبها أحد، أطلقت سيري أنينًا منخفضًا، وتحولت بشرتها إلى بياض شاحب كرق الجلد.

قالت بصوت مخنوق، عيناها متسعتان كأنها رأت شبحًا:

"جيرالت..."

قالت ينيفر بقلق وهي تقترب منها:

"سيري؟ ما الذي أصابك؟"

رفعت سيري يدها، وعندها رأت الساحرتان الدم ينزف ببطء، متسللًا على امتداد خط حياتها.

أغمضت الفتاة عينيها وقالت، بصوت بدا وكأنه قادم من مكان بعيد:

"الدائرة أُغلقت. شوكة 'شايراويد' وخزتني، والثعبان 'أوروبوروس' غرز أنيابه في ذيله. أنا قادمة، جيرالت! أنا قادمة إليك! لن أتركك وحدك!"

وفي اللحظة التالية، قبل أن تملك ينيفر أو تريس أي وقت للاعتراض، كانت سيري قد أدارت "كيلبي" وقفزت بها مندفعة إلى الأمام، منطلقة بسرعة جنونية.

لم يكن أمام الساحرتين سوى أن تحثّا خيولهما في أثرها، لكنهما عرفتا فورًا أنهما لن تستطيعا اللحاق بها. كانت "كيلبي" مجرد ظل أسود ينطوي على نفسه، يطير عبر الطريق، قافزة فوق الجماهير المذعورة، ضاربة القبعات من على رؤوس الناس بحوافرها.

صرخت ينيفر، وهي تقاتل الريح، تسابقها:

"ماذا هناك؟ ما الذي يحدث؟"

بجانبها، كانت تريس تبكي وهي تجيب بصوت مهتز:

"لكنكِ تعرفين، ينيفر! أنتِ تعرفين! أسرعي، ينيفر!"

قبل أن تخترقا صفوف البيوت الهشة في الضواحي، وقبل أن يتجاوزهما أول الفارين من المدينة، كانت ينيفر قد أدركت الحقيقة بالكامل. ما كان يحدث في ريفيا لم يكن حريقًا عارضًا، ولا غارة عسكرية. كان مذبحة.

وكانت تعلم تمامًا ما الذي شعرت به سيري. وأين كانت تندفع بهذه السرعة. وإلى من.

لكنها أيضًا أدركت أنها لن تلحق بها. لا توجد فرصة.

"كيلبي" كانت تقفز بلا تردد فوق الحشود المتراكمة في حالة من الذعر، متجاوزة العوائق بسهولة. أما ينيفر وتريس، فقد اضطرتا إلى إبطاء خيولهما فجأة، حتى كادتا تسقطان على عنقيهما.

"سيري! توقفي!"

وجدتا نفسيهما فجأة وسط شوارع ضيقة مكتظة بالغوغاء الهاربين والصارخين.

مرت ينيفر بجانب جثث ملقاة في المزاريب، وأخرى معلّقة من أرجلها على الأعمدة والعوارض الخشبية. رأت قزمًا ملقى على الأرض يُركل ويُضرب بالعصي. رأت آخر يُهشم بالزجاجات المكسورة. سمعت صرخات المعتدين، وسمعت عواء الضحايا. رأت حشدًا يتجمع حول امرأة ألقيت من نافذة، وشاهدت بريق قضبان حديدية ترتفع وتهوي.

تحرك الحشد بعنف، ازداد هديره قوة. وبدا لوهلة أن المسافة بينهما وبين سيري قد تقلّصت.

لكن "كيلبي" لم تكن لتُوقفها هذه الفوضى. أمامها، كان هناك كتيبة صغيرة من جنود الهالبيرد، ضائعين وسط المعمعة. لم تبطئ "كيلبي"، بل قفزت فوقهم كما لو كانوا مجرد سياج، وأسقطت خوذة برونزية من رأس أحدهم، بينما الآخرين تجمدوا في أماكنهم من الرعب.

ثم اخترقت الميدان الرئيسي بكامل سرعتها.

الميدان كان أسودًا بالحشود. أسودًا بالدخان. أسودًا بالموت.

أدركت ينيفر، دون شك، أن سيري، التي تقودها رؤيتها النبوية، كانت تتجه مباشرة نحو قلب الأحداث.

نحو النيران المتأججة. نحو الجريمة المتفشية.

نحو المجزرة.

كانت المعركة محتدمة في الشارع الذي انعطفت نحوه.

الأقزام والجان كانوا يدافعون بضراوة عن حاجز مؤقت، يدافعون عن موقع خاسر، يسقطون واحدًا تلو الآخر تحت ضغط الحشد الهائج الذي كان يهاجمهم بلا هوادة.

صرخت سيري، وانحنت تضغط نفسها على عنق حصانها. عندها، انطلقت كيلبي في قفزة هائلة، لم تكن أشبه بحركة حصان، بل بجناحي طائر أسود عملاق يحلق فوق المتاريس.

أما ينيفر، فقد اندفعت إلى وسط الحشد، وأوقفت حصانها فجأة، فاصطدمت ببعض الناس وأسقطتهم أرضًا. لم تحظَ بفرصة حتى لتصرخ قبل أن تُسحب بعنف من السرج.

ضُربت على كتفيها، على ظهرها، ثم على مؤخرة رأسها. سقطت على ركبتيها، ورفعت بصرها لترى رجلًا غير حليق، يرتدي مئزر صانع أحذية، يتهيأ لركلها.

لقد سئمت ينيفر من أن يُركلها الناس.

من بين أصابعها المتفرقة، انطلقت ألسنة من اللهب الأزرق الشاحب، كالصوت الهامس لكنه حاد كالسوط، شطرت وجوه الحشد، أجسادهم، أذرعهم.

فاحت رائحة اللحم المحترق، وفي لحظة، ارتفع عويل وصراخ فوق الضجيج العام للمذبحة.

"ساحرة! ساحرة جانّية! مشعوذة!"

انقض عليها رجل آخر، ممسكًا بفأس مرفوعة. أطلقت ينيفر النار مباشرة نحو وجهه.

انفجرت عيناه، تفحمتا، وانسكبتا على وجنتيه مع أزيز محموم.

بدأ الحشد يتراجع. شخص ما أمسكها من ذراعها استدارت لتطلق النار، لكنها توقفت. كانت تريس.

"يينا... لنفر... لنفر من هنا..."

"سمعتُ صوتها بهذا الشكل من قبل." مرّ هذا الخاطر في عقل ينيفر، بسرعة البرق. "شفاهها يابسة كأنها خشب، لا تلمسها قطرة لعاب. شفاه شلّها الخوف، رعشتها الذعر."

"سمعتُ صوتها بهذا الشكل من قبل. على تل 'سودين'."

"عندما كانت تموت من الرعب."

والآن، كانت تموت من الرعب مجددًا.

كانت ستموت من الرعب طيلة حياتها.

لأن من لا يستطيع التغلب على جبنه، سيموت خوفًا حتى آخر أيامه.

كانت أصابع تريس التي أمسكت ذراعها تبدو وكأنها مصنوعة من الفولاذ، ولم تستطع ينيفر تحرير نفسها إلا بأقصى جهد.

"اهرُبي إن شئتِ!" صاحت، مزمجرة. "اختبئي خلف عباءات الأخوية! لديّ شيء لأدافع عنه! لن أترك سيري وحدها. ولن أترك جيرالت! ابتعدوا، أيها الحثالة! تنحّوا إن كنتم تقدرون حياتكم!"

تراجع الحشد الفاصل بينها وبين حصانها، مذعورًا من شرارات البرق التي انطلقت من عينيها ويديها. هزّت رأسها، فتناثرت خصلاتها السوداء، وكأنها تجسد الغضب ذاته، ملاك الانتقام، الملاك المدمر، الممسك بسيف من اللهب.

"انصرفوا! عودوا إلى منازلكم، أيها القذرون!" صرخت، ملوّحة بسوط من النار، يجلد الحشد. "انصرفوا! أو سأحفر بكم أختام النار كما تُختَم المواشي!"

عندها، اخترق صوت قوي، معدنيّ، صفوف الغوغاء:

"إنها مجرد ساحرة واحدة، أيها الناس! مشعوذة جانّية لقيطة وحيدة!"

"إنها وحدها! الأخرى هربت! هيا، يا أطفال، التقطوا الحجارة!"

"الموت لغير البشر!"

"الهلاك للساحرة!"

"لنتسبب في هلاكها!"

انطلق الحجر الأول مارًّا بجانب أذنها، بالكاد أخطأها.

الثاني أصاب ذراعها، فترنحت للحظة.

أما الثالث، فقد أصابها مباشرة في وجهها.

في البداية، كان الألم كوميض متفجر داخل عينيها.

ثم، شيئًا فشيئًا، طُويت رؤيتها تحت ستار أسود من المخمل، وغرقت في العتمة.

* * *

استعادت وعيها، متأوهة من الألم.

اجتاحها الألم عبر ساعديها ومعصميها، حادًا كالنار. تحسست، دون وعي، الشعور السميك للضمادات التي تلفهما. تأوهت مرة أخرى، بصوت خافت، متهالك، محطَّم. حزينة لأنه لم يكن مجرد كابوس. وحزينة لأنها فشلت.

"لم تنجحي."

كان الصوت بجانبها، هادئًا، حازمًا. تيزايا دي فريس، جالسة بجوار السرير.

كان العطش ينهشها. أرادت أن يبلل أحدهم شفتيها على الأقل، التي كانت مغطاة بطبقة لزجة. لكنها لم تطلب. كبرياؤها لم يسمح لها بذلك.

"لم تنجحي." كررت تيزايا دي فريس، بنبرة خالية من العطف. "لكن ليس لأنك لم تحاولي بما يكفي. لقد قطعت بعمق، وبإتقان. ولهذا أنا هنا معك. لو كان الأمر مجرد لعب سخيف، استعراض أحمق غير مسؤول، لما شعرت تجاهك سوى بالاحتقار. لكنك قطعت بعمق. بنيّة واضحة."

حدّقت ينيفر في السقف، بلا تعبير.

"سأعتني بكِ، يا فتاة."

تابعت تيزايا، بصوت لم يكن حنونًا، لكنه كان جادًا، ثابتًا.

"لأنني أؤمن أن الأمر يستحق. وسيحتاج إلى الكثير من العمل، أوه، نعم، الكثير من العمل. لن أحتاج فقط إلى تقويم عمودك الفقري ولوح كتفك، بل أيضًا إلى شفاء يديك. عندما شققتِ معصميكِ، قطعتِ الأوتار. ويدي الساحرة أدواتها الأساسية، ينيفر."

شعرت برطوبة على شفتيها. ماء.

تحدثت تيسايا بصوت منخفض، لكن بنبرة حاسمة، خالية من التردد:

"ستعيشين. لم يحن وقتك بعد. وعندما يحين، ستتذكرين هذا اليوم."

مصّت ينيفر الرطوبة الجافة من العصا المغلفة بضمادة مبللة، بجشع يكاد يكون مذلًا.

"سأعتني بكِ." كررت تيسايا دي فريس، وهي تمرر أصابعها بلطف عبر خصلات شعرها السوداء.

ثم أضافت، بصوت أكثر نعومة، وأكثر قسوة في آنٍ معًا:

"والآن... نحن وحدنا هنا. لا شهود. لا أحد سيرى، ولن أخبر أحدًا. ابكِ، يا فتاة. ابكِ جيدًا. ابكِ حتى يذوب قلبك للمرة الأخيرة. لأنكِ بعد اليوم... لن تتمكني من البكاء مجددًا."

"فلا يوجد شيء أكثر بشاعة في هذا العالم... من ساحرة تبكي."

* * *

استعادت وعيها، تهاوت في سعال حاد، ثم بصقت دمًا.

شعرت بجسدها يُجرّ على الأرض. رائحة العطر التي ملأت أنفها أخبرتها من تكون.

كانت تريس.

غير بعيد عنهما، دوّت طرقات حوافر حديدية على الأحجار المرصوفة، تلاها صخب وصيحات غاضبة.

رفعت ينيفر رأسها بصعوبة، ورأت فارسًا مدرعًا بالكامل، يرتدي معطفًا أبيض يحمل شيفرونًا أحمر، يجلد الحشد بالسوط من فوق سرج رمحه العالي.

كانت الحجارة التي يرشقها الغوغاء ترتدّ بلا فائدة عن درعه وقناعه، فيما صهل حصانه، وثب برعب، وركل الهواء بعنف.

شعرت ينيفر كما لو أن شفتها العليا استبُدلت بحبة بطاطس ضخمة. على الأقل، إحدى أسنانها الأمامية كانت قد تكسّرت أو اقتُلعت، وكانت تمزق لسانها كلما حاولت تحريكه.

تمتمت بصوت متهدّج:

"تريس... خذينا من هنا! انقلينا بعيدًا!"

لكن صوت تريس جاء هادئًا. باردًا. أكثر برودة مما توقعته ينيفر.

"لا، ينيفر."

"سيقتلوننا..."

"لا، ينيفر. لن أهرب. لن أختبئ خلف عباءات 'الأخوية'. ولا تقلقي، لن يُغمى عليّ من الخوف كما حدث في 'سودين'. لقد غلبته. لقد هزمته!"

بالقرب من مخرج الزقاق الضيق، تراكمت كومة ضخمة من السماد والنفايات بجانب جدار مغطى بالطحالب. كانت كومة عظيمة، أشبه بتلّ حقيقي.

تمكن الحشد أخيرًا من إسقاط الفارس وشلّ حركته. ارتطم جسده بالأرض بصوت مريع، ثم تزاحمت عليه الأجساد مثل القمل، تغطيه بطبقة متحركة من الغضب والوحشية.

بعد أن رفعت ينيفر إلى قدميها، تسلّقت تريس أعلى كومة القمامة، ورفعت ذراعيها في الهواء، وصرخت بتعويذة، صرختها بغضب حقيقي.

صرخة حادة، ممزقة للهواء، جعلت الحشد يلتزم الصمت للحظة وجيزة.

"سيقتلوننا..." بصقت ينيفر دمًا، متكئة على ركبتيها. "بكل تأكيد..."

قاطعتها تريس، بينما كانت تعيد تلاوة التعويذة:

"ساعديني. ساعديني، ينيفر. سنلقي عليهم ' رعد ألزور'."

"وسنقتل خمسة منهم بالكاد..." فكرت ينيفر في نفسها. "ثم سيتكالب البقية علينا ويمزقوننا إربًا. لكن حسنًا، تريس، كما تشائين. إن لم تهربي، فلن تريني أهرب."

انضمت إلى التعويذة.

صرختا معًا.

حدّق بهما الحشد لوهلة، لكنه سرعان ما استعاد توازنه.

عادت الحجارة تحلّق حولهما، صافرة في الهواء. مرت رمح ثلاثي قريبًا جدًا من صدغ تريس. لكنها لم تتحرك، لم تومض حتى بعينيها.

"لا يُجدي نفعًا... تعويذتنا لا تعمل على الإطلاق." فكرت ينيفر. "لا فرصة لنا في إلقاء تعويذة معقدة مثل ' رعد ألزور'."

ألزور، كما يُقال، كان صوته أشبه برنين جرس، ونطقه واضحًا كخطيب.

أما نحن، فكل ما نفعله هو الصرير والتلعثم، نخلط الكلمات، ونفقد الإيقاع الصحيح."

كانت مستعدة لمقاطعة الإنشاد، لتركيز ما تبقى من طاقتها في تعويذة أخرى، شيء يمكنه إما أن ينقلهما بعيدًا، أو يمنح الحشد—على الأقل لثانية واحدة—طعمًا من الجحيم.

لكنها أدركت أنه لم يكن هناك حاجة لذلك.

السماء أظلمت فجأة.

تجمّعت الغيوم فوق المدينة في لحظة.

حلّ الظلام بسرعة مخيفة.

وارتفع نسيم بارد... بارد كالموت نفسه.

"يا إلهي..." تأوّهت ينيفر، وهي تشعر بقشعريرة تسري في عمودها الفقري. "يبدو أننا أيقظنا شيئًا..."

* * *

"عاصفة ميريجولد التدميرية"، كررت نيمويه. "في الواقع، هذا الاسم يُستخدم بشكل غير قانوني. لم تُسجَّل التعويذة أبدًا، لأن أحدًا لم يتمكن من تكرارها بعد تريس ميريجولد. لأسباب دنيوية بحتة. فقد كان فم تريس ممزقًا، وكانت تتحدث بشكل غير واضح. ويزعم البعض، بسخرية، أن لسانها كان يرتجف من الخوف."

"من الصعب تصديق ذلك." قالت كوندويرامورس، وهي تزم شفتيها. "هناك الكثير من الأمثلة على شجاعة المبجلة تريس، حتى أن بعض السجلات تصفها بـ 'الجريئة التي لا تعرف الخوف'. لكنني أريد أن أسأل عن شيء آخر. إحدى نسخ الأسطورة تقول إن تريس لم تكن وحدها على تل ريفيا. أن ينيفر كانت هناك معها."

حدقت نيمويه في اللوحة المائية التي تصوّر التل الأسود الحاد، الشاهق تحت غيوم زرقاء داكنة، مضاءة من الأسفل بضوء غامض. عند القمة، ظهرت هيئة امرأة، ذراعاها ممدودتان، وشعرها يتطاير حولها.

وصل إليهما الإيقاع المنتظم لمجاديف " الصياد"، من وسط الضباب الذي غطّى سطح الماء.

قالت سيدة البحيرة، بصوت غامض:

"إن كان هناك أحد مع تريس، فلم ينجُ في رؤية الفنان."

* * *

"يا لها من فوضى!" تمتمت ينيفر. "انتظري، تريس!"

في لحظة واحدة، انهمرت حبات البَرَد كرات جليدية ضخمة بحجم بيض الدجاج من السحابة السوداء التي كانت تحوم فوق ريفيا.

كانت العاصفة عنيفة لدرجة أن الساحة بأكملها غُطّيت بطبقة كثيفة من الجليد فورًا.

تصاعدت صرخات الذعر، ارتبك الحشد، تعثر الناس، وقعوا أرضًا، تدافعوا، يحاولون الفرار، يزحفون فوق بعضهم البعض، يبحثون عن ملاذ في المداخل وتحت الأروقة، أو يلتصقون بالجدران طلبًا للأمان.

لم ينجح الجميع.

بعضهم بقي، مستلقيًا كالسّمك على الجليد، وقد تلونت الأرض تحتهم بلون الدم القاني.

انهمرت العاصفة بقوة هائلة، حتى أن الدرع السحري الذي تمكنت ينيفر من استحضاره فوق رأسيهما في اللحظة الأخيرة بدأ يهتزّ تحت وطأة الضربات، يوشك على الانكسار.

لم تحاول ينيفر إلقاء أي تعاويذ أخرى.

كانت تعلم أن ما أطلقوه لا يمكن إيقافه، أنهم حرّروا، عن غير قصد، عنصرًا بدائيًا يجب أن يندفع حتى يصل إلى ذروته. قوة انطلقت، ولن تتوقف حتى تبلغ قمة جنونها.

وكانت تأمل أن تكون تلك القمة قريبة.

انشق البرق في السماء.

تلاه صوت رعد هائل، تبعته رجفة عنيفة جعلت الأرض تهتز.

واصل البَرَد قرع الأسطح، ارتطم بالحجارة المرصوفة، تطايرت شظاياه في كل الاتجاهات.

ثم...

أضاءت السماء قليلاً.

اخترقت الشمس الغيوم فجأة، كشعاع سوط يضرب المدينة.

تناهى صوت غامض من بين شفتي تريس—لم يكن أنينًا ولا بكاءً، بل شيء بينهما.

لا يزال البَرَد يتساقط، يقرع الأرض، يفرش الساحة بكريات جليدية تتلألأ كالماس. لكن كثافته بدأت تتراجع. خفت صوت ارتطامه على الدرع السحري، حتى توقف تمامًا. دفعة واحدة.

اندفع الرجال المسلحون إلى الساحة، ارتطمت حوافر الخيل الحديدية بالجليد، وسُمع هدير الرعاع وهم يفرّون، يُجلدون بالسياط، يُطرحون أرضًا برماح الجنود وسيوفهم العريضة.

قالت ينيفر، بصوت أجشّ، وهي تحاول التقاط أنفاسها:

"أحسنتِ، تريس. لا أعرف ماذا كان ذلك... لكنكِ أجدتِ العمل."

ردّت تريس ميريجولد، بطلة التل، بصوت متعب، لكنه يحمل عنادًا لا يُكسر:

"كان هناك شيء يستحق الدفاع عنه."

أومأت ينيفر، وعيناها تضيئهما شرارة فهم عميق.

"هناك دائمًا شيء يستحق الدفاع عنه. والآن، لنركض، تريس. لأنني متأكدة أن الأمر لم ينتهِ بعد."

* * *

لقد انتهى الأمر.

البَرَد الذي أطلقته الساحرتان على المدينة هدّأ الرؤوس الحامية، بما يكفي ليجرؤ الجيش على التدخل وفرض النظام.

كان الجنود مترددين قبل ذلك. كانوا يعلمون جيدًا ما كانوا يواجهونه: غوغاء مسعورون، ثملون برائحة الدم، غارقون في نشوة القتل، لا يخشون شيئًا ولا يتراجعون أمام شيء.

لكن انفجار العناصر الجامحة أخمد نيران الهياج، وعندما اندفعت قوات الجيش أخيرًا، كانت كافية لإنهاء الفوضى.

تركت العاصفة خرابًا مرعبًا في أنحاء المدينة.

ذلك الرجل الذي كان قبل لحظات فقط يضرب امرأة قزمية حتى الموت بخشبة عربة، ويحطم رأس طفلها الصغير على الحائط، كان الآن جاثيًا، يبكي، يجهش نحيبًا، يتلعثم بين دموعه ومخاطه، يحدق في بقايا سقف منزله المحطم.

عاد السلام إلى ريفيا.

لولا مئتا جثة ممزقة، وأكواخ محترقة متناثرة، لكان بالإمكان الاعتقاد بأن شيئًا لم يحدث.

في حي إلم، على ضفاف بحيرة "إسكالوت"، حيث كان قوس قزح رائع يمتد فوق الماء، انعكست أشجار الصفصاف الباكية على السطح الأملس، الصافي كالمرآة.

استأنفت الطيور تغريدها، وانتشرت في الهواء رائحة الأوراق المبتلة. كل شيء بدا مسالمًا. ريفيًا. شاعرية خادعة.

حتى الويتشر، الممدد في بركة من دمه، وسيري جاثية فوقه، تبكي.

* * *

كان جيرالت فاقدًا للوعي، شاحبًا كالثلج.

كان مستلقيًا بلا حراك، لكن عندما اقتربوا منه، بدأ يسعل، يلهث، ويبصق دمًا.

جسده ارتجف بقوة، رعشته كانت عنيفة لدرجة أن سيري لم تستطع تهدئته.

جثت ينيفر بجانبها.

رأت تريس أن يدي ينيفر كانتا ترتجفان.

ثم شعرت بنفسها فجأة وكأنها قطة واهنة، وضعفها اجتاحها، وتحولت الدنيا إلى سواد.

أحدهم أمسك بها، منعها من السقوط. أدركت أنه كان دانديليون.

سمعت صوت سيري، يخرج منها يائسًا، كأنه يأتي من مكان بعيد:

"إنها لا تعمل... سحركِ لا يعالجه، ينيفر."

حاولت ينيفر تحريك شفتيها بصعوبة، همست:

"وصلنا... متأخرين جدًا."

لكن سيري لم تكن تصغي، كررت، بعناد مفعم بالمرارة:

"سحركِ لا يعمل! إذًا ما قيمته؟ ما نفعه، هذا السحر اللعين؟"

أنتِ محقة، سيري... فكرت تريس، بينما شعرت بغصة حارقة في حلقها. "نعرف كيف نستدعي العواصف، لكننا لا نستطيع طرد الموت. رغم أن ذلك، على ما يبدو، كان يجب أن يكون أسهل."

قال القزم الواقف بجوار دانديليون بصوت أجش:

"أرسلنا في طلب طبيب... لكنه يتأخر..."

قالت تريس، بصوت هادئ، هادئ بشكل مفاجئ حتى بالنسبة لها:

"فات الأوان على الطبيب. إنه يحتضر."

ارتجف جسد جيرالت مرة أخيرة، سعل بقوة، بصق المزيد من الدم، تصلّب... ثم سكن تمامًا.

أطلق دانديليون زفرة يأس وهو لا يزال يدعم تريس، بينما شتم القزم بصوت عالٍ.

أطلقت ينيفر أنينًا، وجهها تغيّر فجأة، تقلّصت ملامحها، بدا وجهها قبيحًا بطريقة لم تعهدها تريس من قبل.

قالت سيري بحدة، بصوت كالسوط، كأنها تطعنهم جميعًا بكلماتها:

"ما من شيء أكثر إثارة للشفقة من ساحرة تبكي."

حدّقت في ينيفر بعينين جمرتين، وأضافت، بسخرية قاتمة:

"أنتِ علمتني هذا بنفسك. لكن انظري إليكِ الآن. أنتِ مثيرة للشفقة. أنتِ وسحركِ عديم الفائدة."

لم ترد ينيفر. لم تسمع حتى. كانت تحمل رأس جيرالت المرتخي بين يديها، تضغطه بين كفيها، تهمس بالتعاويذ، صوتها يرتجف.

راقبتها تريس، رأت الشرارات الزرقاء الباهتة، رأتها تلمع وتتلاشى فوق وجه الويتشر، على جبينه، على وجنتيه.

كانت تعرف مقدار الطاقة التي تستنزفها هذه التعاويذ. وكانت تعرف أيضًا أنها لن تُجدي نفعًا.

كانت متأكدة تمامًا أن حتى أعظم معالجي السحر لم يكن بمقدورهم فعل شيء. فات الأوان.

سحر ينيفر كان يستهلكها فقط. كانت تريس مندهشة أنها ما زالت قادرة على الاستمرار.

لكن دهشتها زالت عندما توقفت ينيفر فجأة عن الإنشاد، وسقطت، جثة منهكة، بجانب جيرالت على الحجارة المرصوفة.

شتم أحد الأقزام مجددًا. الآخر خفض رأسه بصمت.

أغمض دانديليون عينيه، بينما كان لا يزال يمسك بتريس، ثم أطلق شهقة مكبوتة.

وفجأة... أصبح الطقس باردًا بشكل لا يُحتمل.

تغطّت مياه البحيرة بالضباب، كان يبدو وكأنه سحابة تتصاعد من مرجل ساحرة.

انتشر الضباب بسرعة، تدفق فوق الماء، زحف على اليابسة كأمواج ثقيلة، غطى كل شيء بسديم أبيض كثيف، كان يخمد الأصوات، يطمس الأشكال، يمسح الحدود.

قالت سيري، ببطء، بصوت خافت، لا تزال راكعة فوق الأحجار الملطخة بالدماء:

"لقد تخلّيت عن قوتي ذات يوم..."

توقفت لحظة، ثم همست، نبرتها تحمل ألمًا لا يوصف:

"لو لم أتنازل عنها، لكنتُ أنقذته الآن. كنتُ سأعالجه، أنا واثقة. لكن فات الأوان. لقد تخليتُ عنها... والآن، لا أستطيع فعل شيء. كأنني قتلتُه بنفسي."

كسر الصمت صوت صهيل كيلبي، عالٍ، نافذ.

ثم، جاء صوت دانديليون، مكبوتًا، متحشرجًا.

ثم... عمّ الصمت مرة أخرى.

لكن هذه المرة، كان صمتًا مختلفًا.

* * *

من بين الضباب، خرج وحيد قرن أبيض، يركض بخفة، كأنما يحلق، صامتًا كطيف، مرفوع الرأس برشاقة حالمة.

لم يكن هناك ما هو غريب في ذلك فالجميع يعرف الأساطير، والجميع يعلم أن حيوانات وحيد القرن تتحرك بخفة، بلا صوت، برشاقة ملكية.

لكن ما كان غريبًا هو أن هذا الوحش كان يركض فوق سطح الماء... دون أن يترك أي تموجات خلفه.

أطلق دانديليون أنينًا، لكن هذه المرة لم يكن أنين خوف، بل انبهار خالص.

شعرت تريس بقشعريرة تسري في جسدها، ثم اجتاحها إحساس غامر بالنشوة.

صهل وحيد القرن بصوت طويل، عذب. طرق حوافره على الأحجار، وهزّ رأسه، فتطاير شعر عرفه الحريري.

قالت سيري، بصوت منخفض، يشوبه الأمل:

"إهُواراكواكس... كنتُ آمل أن تأتي."

اقترب المخلوق السحري أكثر، صهل مجددًا، ثم طرق بحافره الأرض بقوة. بعد لحظة، انخفض رأسه قليلًا... وبدأ قرنه يضيء، متوهجًا بوميض ساطع، نور اخترق الضباب، فرّقه للحظة.

مدّت سيري يدها، لمست القرن.

أطلقت تريس شهقة ناعمة، حين رأت عيني الفتاة تشتعلان فجأة بضوء حليبي غريب، رأتها تُحاط بهالة نارية.

لكن سيري لم تكن تسمعها، لم تكن تسمع أحدًا.

كانت لا تزال تمسك بقرن وحيد القرن بيد، بينما رفعت يدها الأخرى باتجاه جيرالت الملقى بلا حراك.

من بين أصابعها، تدفقت خيوط من النور المتوهج، حارقة كحمم منصهرة.

* * *

لم يكن أحد قادرًا على تحديد الزمن الذي استغرقه ذلك. لأنه لم يكن واقعًا.

كان حلمًا.

* * *

وحيد القرن، الذي بدأ يذوب في الضباب المتكاثف، صهل، ضرب بحافره الأرض، وهزّ رأسه وقرنه، وكأنه يشير إلى شيء ما.

تريس تابعت نظراته، ورأت شكلاً داكنًا تحت أغصان الصفصاف المعلقة فوق البحيرة. كان هناك قارب.

أشار وحيد القرن مجددًا بقرنه. ثم بدأ يختفي بسرعة وسط السديم الأبيض.

قالت سيري، وهي تراقب: "كيلبي، إتبعيه."

نهقت كيلبي، رفعت رأسها، ثم أطاعت أمر سيدتها دون تردد.

رنّت حوافرها على الأحجار للحظات... ثم، فجأة، انقطع الصوت تمامًا. كما لو أنها طارت، كما لو أنها تبخرت، كما لو أن الزمن ذاته فقد قدرته على إدراكها.

أما القارب، فقد انجرف حتى اقترب من الضفة.

وحين انقشع الضباب قليلًا، رأت تريس شكله بوضوح...

كان بارجة بدائية، خشنة، ثقيلة، ذات زوايا حادة، تشبه حوض خنزير عملاق أكثر مما تشبه مركبًا.

قالت سيري، بصوت هادئ، ثابت، لا يحمل ذرة تردد:

"ساعدوني."

في البداية، لم يفهم أحد تمامًا ما كانت تعنيه الفتاة، أو ما نوع المساعدة التي كانت تنتظرها.

كان دانديليون أول من أدرك.

ربما لأنه كان يعرف الأسطورة، ربما لأنه قرأ ذات يوم إحدى نسخها الشعرية.

حمل ينيفر، التي كانت لا تزال فاقدة الوعي.

فوجئ بمدى صغر حجمها، بمدى خفتها. كان يمكنه أن يقسم أن أحدًا ما كان يساعده على حملها.

كان يمكنه أن يقسم أنه شعر بكتف كاهير إلى جوار ذراعه. ومن زاوية عينه، لمح وميضًا من جديلة ميلفا الكتانية.

وعندما وضع الساحرة في القارب، كان متأكدًا أنه رأى يدي أنغوليم تُثبّتان حافة المركب.

الأقزام حملوا جيرالت، بمساعدة تريس، التي كانت تدعم رأسه.

ياربن زيغرين رمش بعينيه بارتباك، للحظة قصيرة، ظنّ أنه رأى الأخوين داهلبيرغ.

زولتان شيفاي كان مقتنعًا أن كاليب ستراتون قد ساعده في إنزال الويتشر إلى القارب.

تريس ميريجولد كانت متأكدة تمامًا أنها استطاعت شم رائحة عطر ليتا نيد، التي كانت تُعرف بلقب "كورال".

وفي لحظة، رأت وسط الضباب العيون الصفراء المخضرة لكوين من كاير مورهن.

هكذا كان الضباب يلعب بالخداع، ضباب لوخ إسكالوت الكثيف، ينسج الأوهام بين الأمواج.

قالت تريس بصوت خافت، أجشّ:

"لقد أصبح كل شيء جاهزًا، سيري. قاربكِ بانتظارك."

دفعت سيري خصلات شعرها بعيدًا عن جبينها، واستنشقت الهواء.

ثم قالت، بصوت هادئ لكنه حاسم:

"أبلغي تحياتي لسيدات 'مونتكالفو'، تريس. ولكن لا خيار آخر أمامي. لا يمكنني البقاء بينما يرحل جيرالت وينيفر. ببساطة، لا أستطيع. يجب أن يفهموا ذلك."

أومأت تريس بصمت.

"يجب أن يفهموا."

استدارت سيري نحو البقية، رفعت يدها مودعةً:

"وداعًا، تريس ميريجولد. وداعًا، دانديليون. وداعًا لكم جميعًا."

همست تريس، بصوت مرتجف:

"سيري... أختي الصغيرة... اسمحي لي أن أرحل معكِ..."

أجابتها سيري، دون تردد، بصوت ثابت:

"أنتِ لا تعلمين ما تطلبينه، تريس."

تلعثمت الساحرة، ثم حاولت السؤال:

"هل سنراكِ مجددًا؟"

لكن سيري لم تمنحها فرصة للشك.

"بالتأكيد." قالتها بصرامة، قاطعةً أي مجال للجدال.

ثم صعدت إلى القارب، الذي تأرجح قليلًا، ثم بدأ بالابتعاد فورًا. يختفي في الضباب.

أولئك الذين وقفوا عند الضفة لم يسمعوا أي صوت لمجاديف، لم يروا أي تموجات على سطح الماء.

كما لو أن القارب لم يكن قاربًا، بل كان طيفًا.

للحظات قصيرة، استطاعوا رؤية سيري، هيئتها الرقيقة، كأنها ظل من نور.

رأوها تدفع القارب بعصا طويلة، تحثّه إلى الأمام، تتلاشى سريعًا وسط السديم الأبيض.

ثم... لم يبقَ شيء سوى الضباب.

شعرت تريس بقبضة باردة في قلبها، عرفت الحقيقة، همست لنفسها، ودموعها لم تسقط بعد:

"لقد كذبت عليّ... لن أراها مجددًا. لن أراها أبدًا، لأن..."

فايسي ديرايث أيب أيجان. _"شيء قد انتهى."_ قالها دانديليون، بصوت متغيّر، كأنما خرج من صدر شخص آخر.

لكن ياربن زيغرين تمتم، بصوت خافت، مختلف:

"شيء قد بدأ."

ثم، من جهة المدينة، صرخ ديك فجأة، عاليًا، حادًا، كأنما يعلن قدوم الفجر.

وبسرعة، بدأ الضباب بالانقشاع.

* * *

فتح جيرالت عينيه، منزعجًا من تلاعب الضوء والظل عبر جفنيه.

رأى أوراق الشجر تتماوج فوقه، كأنها مشهد متغير في كاليودوسكوب، تتراقص في ضوء الشمس.

رأى أغصانًا مثقلة بالتفاح.

شعر بلمسة ناعمة على صدغه وخده.

لمسة كان يعرفها. لمسة أحبها لدرجة الألم.

ألمه كان حقيقيًا فبطنه وصدره كانا يحترقان، أضلاعه كانت تؤلمه، والضمادات المشدودة حوله أكدت له أن ما حدث في ريفيا، والرمح الثلاثي المسنن، لم يكن مجرد كابوس.

قالت ينيفر بصوت خافت، رقيق، مليء بالحب:

"ابقَ مستلقيًا، حبيبي. لا تتحرك."

تمتم، عينيه ما زالتا نصف مغلقتين:

"أين نحن، يين؟"

ابتسمت، نظرتها تحمل شيئًا غامضًا، مطمئنًا في آنٍ معًا:

"هل هذا مهم؟ نحن معًا. أنا وأنت."

سمع زقزقة طيور ربما كانت عصافير خضراء، أو طيور السمنة.

ملأت أنفه رائحة العشب، الأعشاب العطرية، الزهور.

والتفاح.

"أين سيري؟"

همست، بهدوء، كأنها لا تريد كسر اللحظة:

"رحلت."

حركت جسدها برفق، سحبت ذراعها من تحت رأسه، ثم استلقت بجانبه على العشب، بحيث تستطيع التحديق في عينيه مباشرة.

نظرت إليه بنهم، وكأنها تريد أن تملأ عينيها به، وكأنها تريد أن تلتهمه بعينيها، تخزّن صورته في ذاكرتها... إلى الأبد.

كان ينظر إليها أيضًا. والحنين كان يخنقه.

قال، بينما يحاول تذكر شيء ما:

"كنا مع سيري... في قارب. في بحيرة. ثم في نهر. في نهر ذو تيار قوي. وسط الضباب."

أصابعها وجدت يده، قبضت عليها بقوة.

همست، بنبرة ثابتة، حالمة:

"ابقَ مستلقيًا، حبيبي. أنا هنا. لا يهم ما حدث، لا يهم أين كنا. الآن، أنا هنا بجانبك. ولن أتركك أبدًا. أبدًا."

نظر إليها بعمق، ثم تمتم:

"أنا أحبكِ، يين."

ابتسمت ابتسامة خفيفة، لمعت عيناها برقة:

"أعلم."

زفر ببطء، ثم قال:

"ومع ذلك... أود أن أعرف أين نحن."

ساد الصمت لوهلة.

ثم أجابت ينيفر، بصوت هادئ، كما لو كانت تفكر بصوت عالٍ:

"أنا أيضًا."

* * *

"وهل هذه نهاية القصة؟" سأل جالاهاد بعد لحظة من الصمت.

"بالطبع لا!" اعترضت سيري، وهي تفرك قدمًا بأخرى، محاولة إزالة الرمال الجافة التي التصقت بأصابعها وباطن قدمها. "هل يعجبك أن تنتهي القصة هكذا؟ تبًا، أنا لا يعجبني ذلك!"

"إذًا، ماذا حدث بعد ذلك؟"

تنهدت بسخرية، ثم قالت: "لا شيء مميز."

"أخبِريني."

لوّحت بيدها بلا مبالاة، وقالت: "آه، وما الذي يمكن أن يُقال؟ كان هناك زفاف ضخم. الجميع حضر: دانديليون، الأم نينيكي، إيولا وإيورنايد، يارپن زيگرين، فيسيمير، إيسكل... كوين، ميلفا، أنغوليم... ومستل، حبيبتي... وكنت هناك، شربت الميد والنبيذ."

ابتسمت ابتسامة صغيرة، ثم أضافت، بصوت أكثر نعومة: "وبعد ذلك، جيرالت وينيفر كانا يملكان منزلهما الخاص، وكانا سعيدين، سعداء جدًا، سعداء كما في القصص الخيالية. هل تفهم؟"

"ولكن... لماذا تبكين، أيتها سيدة البحيرة؟"

مسحت عينيها بسرعة، ونفخت الهواء بأنفها، ثم قالت بحدة: "أنا لا أبكي! إنها الريح، فقط الريح تدمع عيني. هذا كل شيء!"

ساد بينهما صمت طويل. كانا يراقبان قرص الشمس المحترق وهو يلامس قمم الجبال، يذوب في الأفق كجمرة تتلاشى في الليل.

وأخيرًا، كسر جالاهاد الصمت، قائلاً بتأمل: "حقًا... لقد كانت قصة غريبة جدًا، غريبة للغاية. صدقيني، يا آنسة سيري، العالم الذي أتيتِ منه... لا يُصدق."

شخرت سيري بصوت عالٍ، ممسحة أنفها.

تلعثم جالاهاد، شعر بالارتباك بسبب صمتها، فحاول ملء الفراغ:

"لكن المغامرات المذهلة تحدث هنا أيضًا، في عالمنا. خذي على سبيل المثال ما حدث لسيدي جاوين والفارس الأخضر... أو لعمي، السير بورز، والسير تريستان..."

أخذ نفسًا عميقًا، محاولًا إثارة اهتمامها، ثم تابع بحماسة:

"تخيلي، يا سيدة سيري، أن السير بورز والسير تريستان انطلقا ذات يوم نحو الغرب، نحو "تينتاجل". كانت رحلتهما تمر عبر غابات برية، خطرة، غامضة. ركبا وركبا، حتى..."

"رأيا ظبية بيضاء، وبجانبها سيدة ترتدي السواد. سوادٌ أكثر سوادًا مما يمكنكِ رؤيته حتى في الكوابيس."

"وتلك السيدة، كانت فاتنة الجمال، جميلة لدرجة أنكِ لن تجدي أجمل منها في العالم بأسره... حسنًا، باستثناء الملكة جوينيفير، بالطبع..."

"ورأتها السيدة الجميلة وهي واقفة بجانب الظبية، فأشارت إليهما بيدها، ثم قالت لهما..."

لكن سيري، وقد اعتدلت في جلستها، كانت تبتسم، تلك الابتسامة الغامضة، العارفة.

لم تكن تستمع.

كانت تفكر... تفكر في قصة أخرى، قصة لم تنتهِ، ولن تنتهي أبدًا.

"جالاهاد."

"نعم؟"

"اصمت."

سعل، ثم تنحنح، وسكت.

ظلا صامتين معًا، يراقبان الشمس وهي تغوص ببطء خلف الأفق، صمتهما امتد طويلًا، ممتدًا مع تلاشي الضوء.

"سيدة البحيرة؟"

"طلبت منك ألا تناديني بذلك."

"حسنًا... سيدة سيري؟"

"نعم؟"

"ارفقي بي إلى كاميلوت، أيتها السيدة سيري. سترين أن الملك آرثر سيكرمكِ ويحترمكِ... أما أنا... أنا سأحبكِ دائمًا، وسأبجّلكِ..."

"قف عن ركبتك حالًا! أو... لا، انتظر. طالما أنك هناك، افرك قدمي. لقد تجمدتا تمامًا. شكرًا. أنت لطيف. قلت قدمي! قدمي تنتهي عند الكاحل!"

"سيدة سيري؟"

"لم أذهب إلى أي مكان."

"اليوم يوشك على الانتهاء..."

"بالفعل."

أحكمت سيري إغلاق أبازيم حذائها، ثم نهضت، ممددة جسدها بقوة.

"لنجهّز خيولنا، جالاهاد. هل هناك مكان يمكننا قضاء الليلة فيه بالقرب من هنا؟"

توقفت، راقبت تعابيره، ثم ابتسمت بسخرية.

"آه، أرى من تعبير وجهك أنك تعرف هذا المكان بقدر ما أعرفه أنا. حسنًا، لا بأس. سننطلق، حتى لو اضطررنا للنوم تحت السماء المفتوحة. فلنتقدم قليلًا، نبحث عن غابة. النسيم القادم من البحيرة بدأ يبرد..."

ثم توقفت، لاحظت نظراته، كيف كان يحدّق بها بوجنتين محمرّتين، بعينين لامعتين.

تنهّدت، ثم رفعت حاجبًا وهي تبتسم بمكر.

"آها، هل تتخيل ليلة تحت شجرة بندق، على بساط من الطحالب؟ بين ذراعي جنية؟ استمع إلي، أيها الشاب، ليس لديّ أدنى رغبة—"

لكنها لم تكمل.

لأنها، فجأة، شعرت بشيء غريب يضغط في معدتها. ولم يكن الجوع.

ما الذي يحدث لي؟ تساءلت، قلبها ينبض أسرع. ما الذي يحدث لي؟

فجأة، انفجرت قائلة، بصوت أقرب إلى الصياح:

"لا تُماطل! أسرج حصانك!"

عندما امتطيا الخيول، التفتت إليه، ونظرت إلى وجهه، ثم ضحكت، بصوت عالٍ، بحرية.

نظر إليها بدهشة، عينيه مليئتين بالتساؤل.

هزّت رأسها، ابتسمت بمكر، وقالت برقة:

"لا شيء، لا شيء، فقط... تذكرتُ شيئًا."

ثم ضربت بقدميها على جانبي فرسها، وانطلقت.

"هيا بنا، جالاهاد!"

سجادة من الطحالب... فكرت، محاولَةً كتم ضحكة صغيرة. تحت شجرة بندق. وأنا ألعب دور الإلفية. حسنًا، حسنًا...

"سيدة سيري..."

"نعم؟"

"هل ترافقينني إلى كاميلوت؟"

مدت يدها.

ومدّ يده بدوره.

تشابكت أصابعهما، يركبان جنبًا إلى جنب.

"بحق الشيطان" فكرت، "لمَ لا؟ أراهن على أي شيء أنه يمكن إيجاد عمل لفتاة ويتشر في هذا العالم لأنه لا يوجد عالم لا يحتاج إلى ويتشر".

"سيدة سيري..."

قالت بحزم، وهي تشدّ على يده: "دعنا لا نتحدث عن ذلك الآن. فلننطلق."

ركبا في خط مستقيم، نحو الشمس الغاربة.

خلفهما، كانت الوادي يزداد ظلمة.

خلفهما، كانت البحيرة... البحيرة المسحورة، الزرقاء، ملساء كالياقوت المصقول.

خلفهما، كانت الصخور المتناثرة على الضفاف. أشجار الصنوبر التي تملأ سفوح التلال.

كل ذلك كان وراءهما.

وأمامهما... كان كل شيء.

*** تمت ***



ترجمة المؤلف:

أندريه سابكوسكي وُلد عام 1948في بولندا، درس الاقتصاد وإدارة الأعمال، لكن نجاح سلسلته الفانتازية حول الويتشر جيرالت من ريفيا جعله واحدًا من أبرز الكُتّاب في مجال الأدب الخيالي. يُعتبر اليوم أحد أشهر الكُتّاب البولنديين وأكثرهم نجاحًا على الإطلاق، حيث حققت أعماله شهرة عالمية وترجمت للغات كثيرة، وأثرت بشكل كبير في ثقافة الفانتازيا الحديثة.

أعماله:

1-The Last Wish (الأمنية الأخيرة) – 1993

2-Sword of Destiny (سيف المصير) – 1992

3-Blood of Elves (دماء الإلفيين) – 1994

4-The Time of Contempt (زمن الازدراء) – 1995

5-Baptism of Fire (معمودية النار) – 1996

6-The Tower of Swallows (برج السنونو) – 1997

7-The Lady of the Lake (سيدة البحيرة) – 1999

8-Season of Storms (موسم العواصف) – صدرت بالإنجليزية 2018

وعلى الرغم من أن رواية الأمنية الأخيرة "The Last Wish" نُشرت بعد رواية سيف المصير "Sword of Destiny"، إلا أنها تُعتبر أول رواية في السلسلة زمنيًا لأنها تجمع قصصًا سابقة تم نشرها بشكل متفرق.

يذكر أن سلسلة "الويتشر" أصبحت من أشهر سلاسل الفانتازيا الملحمية، وتم تحويلها إلى لعبة فيديو تعد من أنجح الألعاب على الإطلاق، ومسلسل تلفزيوني لازال يصدر على شكل مواسم حتى الآن في شبكة Netflix .